كتب سياسية

مجموعة عربية ١٠٠٪

الطريق إلى السويس

The road to SUEZ

تأليف أرسكين تشيلدرز

تعريب خيري حماد

كتب سياسية

الطريق إلى السويس

بقلم: أرسكين تشايلدرز
تعريب: خيري حماد

تقدمة المعرب

قليلون هم الكتاب الغربيون ، الذين يعالجون فى كتاباتهم ، قضايانا العربية ، معالجة موضوعية ، تخلو من الغرض ، وتسمو على الهوى ، اذ أن معظم من يحاولون الكتابة فى هذه القضايا من الغربيين ، يكونون فى الغالب متأثرين أشد التأثر ، بما لبلادهم من سياسات خاصة تجاه هذه القضايا ، ومالها من مصالح ضخمة فى بلادنا ، ولهذا تجىء كتاباتهم دائما ، مفتقرة الى الصدق والى الموضوعية ، ومتحيزة تكاد تنطق بالهوى والغرض والبعد عن الحقيقة ·

وأرسكين تشايلدرز ، الذى نعرب اليوم كتابه هذا .. « الطريق الى السويس » ، ليس بالغريب على القراء العرب ، فقد سبق لى ان عربت له كتابا آخر ، قبل زهاء عامين ، اسميته « الحقيقة عن العالم العربى » تمشيا مع مضمون الكتاب فى أصله الانكليزى ، لا مع مفاهيمى عن هذا « العالم » الذى أومن به وطنا واحدا ، ليعيش فيه شعب عربى واحد ، وقد قدمت لذلك الكتاب قائلا : « عندما قرأت هذا الكتاب فى أصله الانكليزى ، خيل الى اننى أقرأ شيئا جديدا ، على الرغم من ان مافيه من مادة لا تخرج عما أعرفه ، سواء من ناحية السياق التاريخى ، أو تسلسل الحوادث وتطور الافكار والآراء والمعتقدات ، لكن الجديد فى هذا الكتاب انه يصدر عن كاتب غربى ، لعل انتماءه الى الأصل الايرلندى الذى جاهد طويلا فى سبيل الحرية والاستقلال قد لعب دورا كبيرا فى هذه الروح المتجردة التى تظهر فى الاجزاء الغالبة من هذا الكتاب · واعتقدت ان من الواجب اطلاع القارىء العربى على هذا الكتاب ، الذى جاء جديدا فى طريقة تجرده ، وعدم انحيازه ، ومنصفا فى نقله للحوادث والاتجاهات والتيارات ، وصريحا فى الحكم على الامور والوقائع » ·

ولم تفارق تلك الصراحة وهذه الموضوعية التى لازمت تشايلدرز فى كتابه الاول ، ماسرده فى كتابه الثانى هذا ، الذى نتولى اليوم تعريبه ، والذى يتناول فى صلبه قضية العدوان الثلاثى الآثم على مصر فى عام ١٩٥٦ ، مع بحوث تمهيدية شاملة للمقدمات التى أدت الى تلك السياسة العدوانية واستقراء كامل لنتائجها وآثارها ، ولكنه رغم هذه الصراحة ، ورغم تلك الموضوعية ورغم السعى الواقعى وراء الحقيقة المنزهة عن الهوى والغرض ، وقع فى أخطاء وهنات رأيت ايضاحها والتعليق عليها فى الهوامش ، نازعا الى الاعتقاد ، بأن أخطاءه هذه لم تكن نتيجة تحيز مقصود ، أو غرض خفى ، وانما نتيجة افتقاره أحيانا الى بعض التفهم الكامل لحقائق الاسلام ، وروح القومية العربية الحقة .

ونحن قد لا نوافق المؤلف على بعض الاتجاهات فى تفكيره ، بل قد نخالفه فيها مخالفة واضحة وصريحة ، ولكن هذا لا يمنعنا من الحرص على نقلها الى القارىء العربى بأمانة وتجرد واخلاص ، ايمانا منا ، بأن

تشايلدرز وهو الانسان الغربى فى ثقافته وتفكيره ، واتجاهه ، يحمل طابع التحرر كل التحرر فى كتاباته من الآراء الاستعمارية العتيقة ، ومن المصالح الاستغلالية الهادفة الى ابتزاز الثروات والسيطرة على الاسواق ، ومن نظريات التسلط وقواعد السيادة الامبراطورية ، ونحن ندرك أيضا بأن ما يسعى اليه تشايلدرز هو عرض الحقائق على طريقته وطبقا لمفاهيمه مع دعوة صريحة ، يوجهها الى الغرب الذى ينتمى اليه ، لقيام عهد جديد من التفهم لمشاكل العرب ، وأهدافهم وعقائدهم ، والتقدير الكامل القائم على حسن الادراك لنوازعهم وعواطفهم واتجاهاتهم

وقد يحقق تشايلدرز بعض النجاح فيما يهدف اليه ، لكن مثل هذا النجاح ، لا يمكن أن يكون على نطاق واسع ، الا اذا كان هناك أكثر من كاتب كتشايلدرز ، والا اذا تخلى الغرب عن أحلامه فى السيطرة على وطننا ، وفى استغلال مواردنا وثرواتنا لحساب رأسماليته الجشعة ، وتوقف عن دعم العملاء من ممثلى الرجعية فى البلاد العربية الدين يستخدمهم ستارا يختفى وراءه ، وينفذ مصالحه وأهدافه الاستعمارية ومثل هذا التطور بعيد الاحتمال كل البعد فى الوقت الحاضر على الاقل طالما ان للاستعمار مصلحة كبرى فى دعم اسرائيل وحمايتها ، بعد ان تولى خلقها فى الوطن العربى ليدق أسفينا فيه ، ويعمل عن طريقها على متابعة خطته فى تجزئة هذا الوطن لضمان مصالحه .

والمؤلف كاتب ايرلندى متحرر ، كتب فى عدة صحف بريطانية ، ويعالج مختلف القضايا والمشاكل الافريقية والآسيوية ، ويعمل فى التعليق ، فى الاذاعات البريطانية الداخلية والموجهة ، على الأحداث الدولية وهو فى كل ما يكتب ويذيع ، يجتهد ان يكون موضوعيا بعيدا عن التحيز والهوى والغرض ·

وهو ايرلندى ، درس فى مدارس دبلن وكلياتها ، ثم واصل دراساته الجامعية فى الولايات المتحدة الامريكية وقد طاف بمختلف أرجاء الشرق الأوسط وافريقية وآسيا والامريكتين الشمالية والجنوبية ، ومازال والده على قيد الحياة ، ويشغل منصبا وزاريا فى حكومة ايرلندا ·

أما الكتاب الذى نتولى تعريبه الآن ، فيتناول مشاكل الوطن العربى ، مع التركيز على العدوان الثلاثى وأزمة السويس ، وهو يستهله واضعا أمامه سؤاله .. « ما الذى وقع ابان أزمة السويس فعلا ؟ » ثم يمضى محاولا الرد على هذا السؤال ، ومقدما الى قرائه القصة الكاملة ، وهى فى محتواها ومدلولاتها أكثر تشابكا وايضاحا مما عرفه العالم عن هذه القصة حتى الآن ، ولا سيما بالنسبة الى ما يكشفه من أسرار وخفايا عن الادعاءات التى أوردها ايدن فى مذكراته ·

ولعل أبرز ما فى هذا الكتاب من محاولة ، انه يحاول الربط بين أزمة السويس وبين واقع السياسة الاستعمارية فى الوطن العربى فيصور العدوان الثلاثى على أنه جزء من الخطة الشاملة التى اصطبغت بها علاقات الغرب بالوطن العربى ، منذ نشأت هذه العلاقات حتى تمثلت فى محاولة السيطرة الغربية على العرب · ولا ريب فى ان هذا الربط ، يعتبر تفهما من جانب المؤلف لحقيقة مشاكلنا المعاصرة ·

ولعل خير ما أختم به تقدمتى هذه ، التأكيد بأن هذا الكتاب جدير بالقراءة لما فيه من وضوح وصراحة آمل أن أكون قد وفقت فى عرضهما على القارىء العربى · والله ولى التوفيق ·

القاهرة ٢٦ أكتوبر (تشرين الاول » ١٩٦٢

خيرى حماد

الإهداء

الى زوجتي سونيا :

التى شاركتنى كل شيء ، وقطعت معى فى غضون خمس سنوات أكثر من ثلاثين ألف ميل ...

والتى عاشت معى أيام الخير .. وأيام الشقاء ...

فتاهت معى فى المجاهل والصحارى ...

ودفنت نفسها معى فى أكوام الكتب ...

وسارت معى كل شبر من الطريق ...

لأنها آمنت بما أؤديه من رسالة .

اى . بى . سى

مقدمة المؤلف

انقضت خمس سنوات قصار ، مذ عاش العالم ، أزمة تعتبر من أخطر الأزمات التى مر بها بعد انتهاء الحرب العالمية الاخيرة ، وقد اهتزت بريطانيا من هذه الأزمة التى أصابتها بالتشنج ، والتى أنهت بصورة مباغتة وفجائية ، الحياة السياسية الطويلة البارزة لرئيس وزرائها ، وعرضت حكومته لقرار الأدانة الذى أصدرته غالبية العالم . وكان ثمن هذه الهزة ، على صعيد المال وحده ، خسارة نفوق المائتين والخمسين مليونا من الجنيهات ، ولم تعوضها ، وتنقذ البلاد من كارثة تدهور جنيهاتها ، الا القروض الامريكية العاجلة · وانطوت الازمة كذلك على بعض الاتهامات الخطيرة للغاية ، والتى لا يمكن للانسان أن يتصور توجيهها الى حكومة ديموقراطية ألزمت نفسها بالحفاظ على السلام ، والولاء لميثاق الامم المتحدة ·

ومع ذلك تظل أزمة « السويس » ، أخطر ما شهدته أواسط القرن العشرين من أزمات ، وأسوأها تفسيرا ، وأصعبها على التبرير · حقا هناك أزمات أخرى ، لم يعرف تاريخها الكامل بعد ، ولكن هذه الأزمات ، وبينها بالطبع حصار برلين وحرب كوريا ، تنطوى على أسرار حافظت طبيعة الحرب الباردة على خفاياها ، وتحتم على العالم أن ينتظر التوصل فى المستقبل الى دقائقها بعد الكشف عما فى موسكو وبكين من وثائق · لكن أزمة « السويس » متفردة فى طبيعتها ، اذ أنها لاتنطوى على أية أسرار حقة ، ومع ذلك لم يشعر المسئولون عنها ، بأن الواجب يحتم عليهم اجراء تحقيق رسمى فيها ، وتمكنوا بالفعل ، بعد انقضاء أقل من ثلاث سنوات عليها ، من الفوز فى انتخابات ، استبعد موضوع السويس عن منابرها الخطابية . وعلى الرغم من الحقيقة الواقعة ، وهى أن ثمة دلائل قوية ، كافية تشير الى سلوك يخجل منه الكثيرون من البريطان ، اذا ماووجهوا به مواجهة جلية واضحة ، فان ثمة حقيقة أخرى لا يمكن نكرانها وهى ان بريطانيا فى مجموعها ، قررت عزوفها عن معرفة ماارتكب باسمها فى أواخر عام ١٩٥٦ ·

ولقد جهدت فى هذا الكتاب أن أعرض القصة الكاملة لهذه القضية الغريبة الشاذة ، ليطلع عليها ، على الأقل ، أولئك الذين يمقتون مجرد الفكرة ، فى أنهم عاشوا جزءا من عام من أعوام حياتهم ، فى بلد ديموقراطى وكأنهم على مسرح لم ترتفع ستارته بصورة كاملة ، وانما ظلت نصف مرفوعة · وحاولت أن أمضى الى أكثر من مجرد محاولة البحث والتنقيب عن الحقائق المتعلقة بأحداث الفترة الواقعة بين يوليو (تموز) ونوفمبر (تشرين الثانى) من عام ١٩٥٦ ، فى كل من لندن وباريس وواشنطن والقاهرة وتل أبيب · فأزمة السويس فى منتهى الاهمية ، ولا يمكن

فهمها والحكم عليها حكما صحيحا ، الا على اعتبار أنها التعبير العسكرى النهائى ، عن الصراع فى العلاقات العربية ـ الغربية ، بعد أن ظلت سحب هذا الصراع تتجمع سنوات طويلة قبل عام ١٩٥٦ · لكنها لم تضع نهاية لهذا الصراع وقدانقضى عامان آخران عليها ، قبل الوصول الى النقطة التى لاردة فيها ، والتى تمثلت فى ثورة بغداد فى الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ · ومع ذلك وحتى بعد هذا التاريخ ظلت علاقات الغرب بهذه المنطقة التى تضم خمسة وثمانين مليونا من الناس. مختفية وراء سحب من الصراع الذى لم تقرر نتيجته بعد ، ومن الشكوك المتباطئة المتأنية ، والأفكار المسيطرة المتسلطة .

وهكذا حاولت أن أعرض فى هذا الكتاب ، أسرار السويس التى لا أستطيع أن أسميها الا نصف أسرار ، ضمن هذا الاطار الاكبر اتساعا والاكثر أهمية ، والاقدم عهدا ، وعلى هذا الاساس وحده ، أجرؤ على الاعراب عن أملى فى الا يدرج كتابى هذا ضمن « قائمة الكتب » التى وضعت عن السويس مجرد ادراج سطحى ، وكلى أمل فى أن يعرض ردودا أكمل لأسئلة مختلفة عن حقيقة ما وقع فى غضون تلك الأشهر العجيبة من عام ١٩٥٦ كما آمل أيضا فى أن يساعد على ايضاح ما وقع من «أخطاء» فى السياسات الغربية فى الشرق الأوسط بمجموعه، وأوصل تلك السياسات الى حالة التحطم الكامل ، التى شهدتها بغداد فى عام ١٩٥٨ ، وكذلك على تصوير المشاكل المستمرة التى يواجهها العرب أنفسهم ومع الغرب أيضا .

وقد كتب القسم الاكبر من هذه القصة على النحو الذى يفكر فيه العرب ، ومتأثرا بالمحيط الذى يعيشون فيه · ولكن فى الوقت الذى كنت أحاول أن أبسط وجهة النظر العربية ، توخيت أيضا أن اجمع الآراء والصور التى كوناها نحن فى الغرب طيلة قرون طويلة عن العرب وان ابرز تأثيرها على السياسات التى اتبعناها معهم ·

وأرى من الخير أن أوضح للخبراء فى هذه القضايا ، أننى لم أحاول فى هذه الصفحات أن أعالج جميع قضايا الشرق الأوسط على نحو تفصيلى متشابه ، أو أن أسجل الأحداث طبقا لتسلسلها التاريخى . فهناك كتب عدة مشهورة ، تعرض السجل الكامل للأحداث فى كل بلد من البلاد · وكان هدفى على النقيض من ذلك ، متابعة التيارات الواسعة للتاريخ المعاصر ، مركزا بالتفصيل على الاحداث البارزة ، وعلى مشاكل هذه البلاد ، التى كانت مسرحا للأزمات الاخيرة ·

وتعنى كلمة « الشرق الاوسط » فى هذا الكتاب ، الاجزاء الوسطى والشرقية من الوطن العربى ليس الا ، مستثنيا منه البلدان غير العربية التى يشملها الاصطلاح من الناحية الاكاديمية ، كتركيا مثلا · وأرى لزاما على من الناحية الاخرى ان أحدد ما أعنيه بكلمة « الغرب » فى هذا الكتاب ، انها تشمل مجموعة من الشعوب والحكومات . بل تشمل حكومات أكثر ذات سياسات أكثر تفاوتا مما يعنيه المعنى العادى العام لهذه الكلمة · وقد حاولت أن أستخدم هذا التعبير كمجرد تعميم ليس الا ، بالنسبة الى العرب ، فى حدود ما يمكن تسميته بالمجموعة الثقافية

أو المنطقة الجغرافية ، اللتين تتأثر أوضاعهما تجاه العرب تأثرا كاملا بما تقوم به الدول الغربية من أعمال · أما الدول الغربية التى أعنيها بهذه التسمية ، فهى فى جميع الحالات : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، كما أن ما أعنيه بعبارة « الساسة الغربيون » هم ساسة هذه الدول الثلاث ·

وانى لأتحمل أخيرا مسئولية كل عبارة وردت فى هذا الكتاب ، وكم تمنيت لو قرأته أرملة جدى الذى لم أعرفه قط ·

لندن ـ نوفمبر ١٩٦١

ارسكين تشايلدرز

ومع ذلك ، فلن أقترف تلك الخطيئه المؤلمة ، من فقد ايمانى بالانسان . وانبى لأوثر أن أتطلع ، الى استهلال فصل جديد فى التاريخ البشرى ، بعد أن يكون الطوفان قد انتهى ، ويكون الجو قد تطهر بروح من العمل والتضحية .

« وقد يبزغ ذلك الفجر من هذا الافق ، من الشرق ، حيث تشرق الشمس . وسيحل اليوم الذى يتابع فيه الانسان الذى لا يقهر طريق فتوحاته متخطيا جميع العوائق والموانع ، ليستعيد تراثه الانسانى الضائع » .

رسالة رابندرانات تاغور الأخيرة

الطريق إلى السويس

- ١ -

الفكرة العربية عن العرب

« على الرغم من أن الغالبية العظمى لا تمت من الناحية العنصرية الى الدم العربى ، الا أنها اندمجت فى تيار التعريب ، وأضحت أخلاقها وتقاليدها تحمل الطابع العربى ، وأصبحت ، ولعل هذا هو الأهم ، ناطقة باللغة العربية »

جورج انطونيوس فى كتابه «يقظة العرب»

***

« كانت القومية التى نمت نتيجة الاتصال بأوربا ، تأصيلا لعقيدة الشخصية القومية المستقلة ... وهى فى الوقت ذاته ايمان بطراز من الاخوة الروحية ، التى تربط الشعب بوشائجها لتتألف منه الامة »

مادهو بانيكار فى كتابه «آسيا والسيطرة الغربية»

***

نشأت فى القرن التاسع عشر ، ومستهل القرن العشرين ، مع توسع الامبراطوريات الأوربية ، وتوطيد أقدامها فى العالم العربى - الآسيوى ، فكرة معارضة ، لدى الشعوب التابعة ، تنطوى على الرغم من كتمانها على الخطورة المتناهية . وقد فات حتى الآن الوقت الكافى لتمكيننا من تعريف هذه الفكرة وتحديدها تحديدا ايجابيا لا تردد فيه فهى منبثقة عن التلاحم بين أربع قوى ، أولاها الوعى الجديد ، عند الشعوب الآسيوية والعربية بتراثها التاريخى الذى تستطيع أن تفاخر به وتزهو ، وثانيتها المقاومة الجوهرية للتحكم الاوربى الاجنبى ، وثالثتها الاعجاب العظيم والرغبة فى التعرف الى أكثر ظاهرتين فى الحضارة الاوربية الحديثة استهواء للنفس ، وهما التفوق فى حرفة السياسة والتفوق فى التقنية (التكنولوجى) ورابعتها وآخرها المفاهيم الجديدة فى هذه الحضارة عن القومية . وقد أوجز البانديت نهرو هذا التطور بالنسبة الى الهند فى العبارات التالية :

« كانت يقظة الهند مزدوجة الاتجاه ، فهى تتطلع الى الغرب ، ولكنها تتطلع فى الوقت ذاته الى نفسها والى تاريخها » (١)

ويصح هذا القول أيضا ، على المنطقة التى نلقبها الآن « بالعالم

---

(١) اكتشاف الهند لجون داى - نيويورك ١٩٤٦

العربى » ، والتى خبرت عدوان الغرب الضخم فى النواحى العسكرية والدبلوماتية والسياسية والتجارية ، وهو عدوان يحق لنا أن نعود بتاريخه الى نزول نابليون فى مصر عام ١٧٩٨ . وقد انقضت قرون عدة على انتهاء عصر العرب الذهبى ، عندما كانت قرطبة « جوهرة العالم » ، وكانت مكتبات بغداد ومراكزها التعليمية ، ودراساتها العلمية تثير اهتمام أوربا وتفيد منها كما أثارت ثورتنا الصناعية فيما بعد العرب وافادتهم . وقد اختفت الامبراطورية العظيمة التى أقامها الزحف العربى الرائع ، منطلقا من شبه جزيرتهم النائية بين عامى ٦٣٤ و ٧٣٢ ميلادية والتى امتدت من حوض اللوار فى فرنسا حتى حوض السند فى الهند . وأدى الانحلال الداخلى وحملات الصليبيين وهجمات السلاجقة الاتراك ومنغول جنكيز خان الى اضعاف الوطن العربى ، الى الحد الذى دفعه الى الاذعان لتوسع الاتراك العثمانيين بين عامى ١٥١٧ و ١٥٦٦ .

لكن العرب استطاعوا الحفاظ طيلة هذه القرون من التدهور والخراب والغزو ومن ثم طيلة قرون السيطرة الاستعمارية العثمانية ، على تراث بارز كل البروز . فلقد حملوا معهم من الجزيرة العربية لغة غنية كل الغنى بالخيال الواسع . ولما كانت هذه اللغة ، هى لغة امبراطوريتهم واسلامهم ، فلقد غدت والحالة هذه ، المستودع الحقيقى لكل ما فى العصر الذهبى من تقاليد . وباتت اللغة العربية بصورة لاتضارعها لغة أية امبراطورية أخرى طيلة الالفى سنة السابقة ، متأصلة تأصلا عميقا عند جميع شعوب الامبراطورية العربية من سواحل افريقية الشمالية الغربية على المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى . وغدت كذلك لغة التخاطب المشتركة حتى عند الشعوب التى لا تدين بالاسلام ، من مسيحيين ويهود . ولم تكن قوة هذا التراث الهائل واضحة فى بداية القرن التاسع عشر حتى عند وارثيه ، بل ظلت هاجعة ، وكأنها بذرة تنتظر الانبات والبروز . ولم يكن الناطقون بالعربية يعتبرون أنفسهم « عربا » من الناحية القومية ، وانما كانوا يميزونها بالمقاطعات التى ينتمون اليها ، أو بالمدن التى يعيشون فيها ، أو بالقبائل أو الطوائف الدينية المستقلة التى يؤلفون جزءا منها ، وركدت الدراسات فى اللغة العربية كما تحول علماء الفقه الى شىء من التزمت الذى حملهم على التمسك بالتقاليد تمسكا صارما . ولكن « اللغة » ظلت على حالها ، بكل مالها من طاقات قوية ، قوة من قوى التوحيد بين فئات الشعب المتباعدة ومصدرا من مصادر بعث اهتمام هذه الفئات بتراثها المشترك .

ولم يكن من قبيل الصدفة العارضة مطلقا أن السائحين الأوربيين الذين وفدوا الى هذه المنطقة التى سيطر عليها الجمود فى مطلع القرن التاسع عشر قد تمكنوا من رؤية ما عجز أهلها عن رؤيته حتى ذلك التاريخ وفى وسعنا أن نضرب مثلا كاستهلال لليقظة العربية الحديثة، بالتقرير الذى قدمه القس وليام جراهام ، عضو البعثة التبشيرية الانكليزية البروتستانتية الذى زار الشرق الأدنى عندما شرع هذا الشرق فى يقظته، ولم يكن فى وسع هذا القس نفسه أن يعرف مدى مافى أقواله من صدق التكهن والتنبؤ بالغيب اذ قال :

« يحتاج الشرق أكثر ما يحتاج الى صحيفة جيدة تصدر باللغة

العربية .. والعرب شعب فطن مضياف تواق الى المعرفة ، أما الحكومة القائمة فى دمشق ، فليست الا حكومة غريبة يعتبرها الشعب أجنبية ، شاذة ، مكروهة ، تماما كما ينظر شعب لندن الى أية حكومة فرنسية تقوم فى ربوع بلاده . ولوتمكن هذا الشعب من تحطيم الاغلال الفكرية والبدنية التى تكبله ، فستنطلق بين شعوب الشرق المتبلدة ، قوة دافعة هائلة من سباتها ، تستطيع عن طريق العلم والادب والثقافة العامة ، ان تمهد الطريق الى مستقبل مجيد مشرق .

ولكن هذه المياه الراكدة ، ما زالت حتى الآن مفتقرة الى الحافز الذى يحركها » (١)

ولكن هذا الحافز ما لبث أن تولد فى نفس الوقت الذى طبع فيه كتاب القس جراهام هذا . ولا يثير صدور هذا الحافز عن الغرب دهشة تزيد عن الدهشة التى أثارها حديث الرجل عن العرب كأمة واحدة (٢) فلقد نشأت مع التنافس بين الدول الكبرى على السيطرة الاستراتيجية، والتوسع الاقليمى ، والاسواق التجارية ، رغبة عارمة لدى عدد صغير ولكنه متزايد باستمرار ، من المفكرين العرب ، للتأثر بالافكار الغربية السياسية ، وراحوا يفكرون فيما يعنيه حب الوطن الظاهر فى فرنسا، وما تحمله عبارة « الأمة » التى « استصرخها » نابليون فى المنشورات التى وضعها باللغة العربية ووزعها عند وصوله الى أرض مصر ، من معان عميقة . وسار هذا التطلع الى المعرفة ، جنبا الى جنب ، مع الوعى الجديد بالتراث العربى ، نتيجة المدارس الجديدة التى فتحها الحكام المحليون التواقون الى مجاراة عصرية الغرب ، أو البعثات التبشيرية الغربية فى هذه البلاد . واستخرجت المخطوطات العربية القديمة بعد نفض الغبار عنها من المحفوظات المنسية ، وانهال على المنطقة فيض متدفق من الافكار العنيفة التى حملتها كتب الغرب ، والتى خلقتها الثورة الفرنسية وثورة امريكا ، ووثبة ايطاليا فى سبيل تحررها من الاستعمار النمسوى ووحدتها ، وكتابات ادموند بيرك Burke (٣) وثورة بريطانيا الصناعية ، وشرع الباحثون المسيحيون من العرب فى البحث عن شخصية سياسية عربية ، تتفوق على الاعتبارات الدينية ، بينما حاول اخوانهم من الباحثين المسلمين ، ايجاد أوجه الشبه بين عبارة « القومية » الفرنسية وبين لفظ « الأمة » الذى وعوا معانيه فى ثقافتهم القديمة .

---

(١) كتاب « الاردن والراين » للقس وليام جراهام . لندن ١٨٥٤

(٢) اعتقد ان المؤلف قد أخطأ هنا فى تعليل أسباب الوثبة العربية فقد أرجع حافزها الى التأثير الغربى ، بينما لا يعدو هذا التأثير ان يكون عاملا مساعدا ليس الا ، اذ أن وثبات الشعوب تعود فى حقيقتها الى الحتمية التاريخية والواقع المادى والتمسك بالتراث التاريخى — المعرب

(٣) بيرك أدموند (١٧٢٩ — ١٧٧٩) سياسى بريطانى مشهور ولد فى دبلن عاصمة ايرلندة الحالية حيث كان والده يعمل محاميا ، ودرس هو أيضا الحقوق ومارس المحاماة . وغدا نائبا فى مجلس العموم البريطانى . من أول المفكرين الانكليز الذين انتقلوا فى بحثهم عن حل =

ولكن الغموض والابهام ظلا يلفان هـذا البحث المفرط عن طراز الشخصية الجماعية التى رأى فيها هؤلاء المفكرون العرب ضرورةحيويه لهم لمجاراة الدينامية الغربية الجديدة · ولم تخرج النتائج التىتوصلوا اليهـا فى البداية عن حدود الاحكام الاختبارية المائعة · واختلطت عليهم التعبيرات السياسية الاوربية عنـــد ترجمتها الى العربية ، لعدم وجود مرادفات دقيقة لها فى العربية · فهناك كلمة « وطن » ، ولكنهـــا لا تعنى الا المكان الذى يعيش فيه الانسان · وهناك كلمة « قوم » وهى كلمة عربية قديمة تعود الى أيام البداوة فى الصـــحراء ، ولا تعنى الا « الجماعة القبلية » التى كان ابن البادية يعتبر نفسه جزءا منها ، حيثما عاش هو أو عاشتجماعته · وكانت ثمة كلمه « أمة » ، ولكنها كانت تعنى آنذاك « جماعة المؤمنين » ، وتمتد الى اصقاع نائية لتشـــملهم خارج حدود البلاد العربية ، أى فى البلاد التى امتدت اليها رســـالة العروبة الاخرى ، وهى الاسلام ، ونشرت جذورها القوية فيها(١) ·

واذا كانت التعابير قد خلقت متاعب للمفكرين القوميين العرب ، فان أوضاعهم السياسية والجغرافية لم تكن أضعف أثرا من خلق هـــذه المتاعب لهم ، وذلك عند البحث عن تعريب القومية فى المفـــاهيم الغربية فأين هى الحقائق الجغرافية لمنطقتهم التى يســـتلزمها تعبير الدولة القومية ؟ لم تكن هناك بالفعل الا بعض الحدود الطبيعية المماثلةللحدود التى لا غنى عنهـــا فى تعيين الدول القومية الأوروبية · ففى كل ناحية من النواحى تنســـاب المدن والارض المزروعة لتذوب وتختفى أخيرا فى الصحارى المتمردة التى لم تذلل بعد ، ولم تكن الحدود الصورية الارادية القائمة الا أداة لتحقيق أغراض الجزية والضريبة ، ولا تحمل أى معنى من معانى القداسة أو الكرامة التى تحملهـــا حدود الدول القومية · فكيف يمـكن والحـــالة هـــذه الربط بين الســـلطة السياســـية الفعليـــة فى الشرق الاوسط وبين الكيان القومى ؟ كانت مصر شبه مســـتقلة تحكمها أسرة محمد على ، ولكنها ظلت اسميا على الاقل ايالة من ايالات الامبراطورية العثمانية التى لا تحمل الطابع العربى وانما تمتد أيضـــا الى القارة الأوربية نفسها . وازداد مع مرور حقب القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مافى مشكلة السلطة السياسية من تعقيد بدلا من

= المشاكل السياسية والاقتصادية من الخيال الى الواقع المادى · من أشهر مؤلفاته « تاريخ انكلترا » و « ملاحظات عـــلى الوضع الراهن للأمة » و « أفكار حول النقمة الراهنة » و « رسائل الى جونيوس » ـ(المعرب) .

(١) اذا كان العرب قد تأخروا فى تحـــديد التعـــابير « للمفاهيم القومية ، فان السبب فى ذلك لا يرجع الى عدم وجودها فى لغتهم ، بل الى تأخر لغتهم القـــومية حتى القرن الأخير ، ويبدو أن المؤلف قد نسى ان هذه التعابير نفسها لم تكن موجودة فى الغرب قبل عصر الثـــورة الفرنسية أو عصر النهضة على أكثر تقدير ، وان الامبراطورية الرومانية المقدسة التى عاشت قرونا طويلة فى أوربا فى القرون الوسطى ومستهل العصر الحديث ، كانت تشمل عددا من الوحدات القومية الحالية كألمانيا وأسبانيا وهولندة وبلجيكا وايطاليا والمجر وغيرها · المعرب

أن ينقص أو يضعف · فلقد اغتصبت أيدى الفرنسيين الجزائر منذ عـــام ١٨٣٠ ، ولحقت بها تونس فى عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر فى عام ١٨٨٢ ، ثم ما عتمت ان الحقت بها السودان فى عام ١٨٩٨ ، وغزت ايطاليا الأراضى الليبية فى عام ١٩١١ ، وتحول المغرب (مراكش) الى محمية فرنســـية فى عام ١٩١٢ ولكن مع توالى ظهور هـــذه الأدلة على السيطرة الغربية ، تضخم البحث عن مفهوم سياسى يحمل طابع التوحيد والثورية · وقد تزايد عدد المثقفين من جراء تدفق طلائع الصحف العربية والمجلات والكتب الحديثة من مطابع مصر وســـورية ، واستأثرت هذه المناقشات العقلية بأفكارهم ·

ولقد رأينا هذا التلاحم بين اعتزاز المرء الجديد بماضـــيه ، وبين سعيه الحديث للوصول الى الشخصية القومية ، يبرز أيضا كل البروز فى الهند ، وأراد ماكولى (١) أن يجعل قوة السيد البريطانى (المهراجا) مستمدة كما استمد «أخيل» قوته من كعب قدمه (٢) من طريق ادخال نظـام جديد من التعليم الغربى يهدف الى خلق طبقـــة من « الهنود البريطانيين » الموثوق بهم ، لكن هذا النظام أدى فى الحقيقة الى تغذية الشعور القومى عند الهنود (٣) ولكن يجب علينا على الفور، وكأمر فى منتهى الاهمية اذا اردنا اعداد المسرح الصحيح لدراســـتنا هذه ، أن نوضح أن ثمة فرقا عظيمـــا يبرز بين التجربة فى الهند ، والتجـــربة العربية · فهناك أى فى الهند سلطة استعمارية شاملة وواحدة وواضحة تسيطر على شبه قارة محدودة المعالم أما هنا أى فى الوطن العربى، فعدة دول غربية تجزىء هذا الوطن وتقسمه الى مناطق مختلفة السيطرة · وبينما ركز الهنود ، حتى دون وجود رابطـة لغوية مشتركة تربطهم ، نزوعهم القومى ضـــد « عدو » واحد واضح ، فى أرض ذات حدود طبيعية بينة ، نرى الشعوب العربية مرغمة على تركيز نزوع قومى أقل تلاحما ضـــد « أعداء » متعددين وضمن حدود لا معنى لها فى العرف الطبيعى ·

---

(١) البـــارون توماس ماكولى (١٨٠٠ ـ ١٨٥٩) مؤرخ وسياسى بريطانى مشـــهور درس فى جامعة كمبردج ، وعمل فى الصحافة حقبة من الزمن اشتهر أمره فيهـــا ككاتب معروف انتخب عضوا فى مجلس العموم عام ١٨٣٠ ، تولى الوزارة أكثر من مرة ، وأصـــبح عضوا فى مجلس الهند الاعلى ومن أشهر كتبه تاريخ انكلترا الذى يعتبر فى طليعة الكتب الادبية والتاريخية ·

(٢) أخيل بطل الألياذة الاسطورى فى أدب الاغريق · وصف بأنه الانسان الذى لا يقهر وقيل انه كان يستمد قوته من قدمه التى أمسكت بها أمه ثيتيسى عندما غطسته فى نهر ستيكس لتمنحه القوة ·

(٣) سعى الاستعمار البريطانى طيلة حكمه للهند ، جاهدا لاضفاء الطابع البريطانى على الهنود ، ولكن الشخصية القومية الهندية ،قاومت جميع هذه المحاولات وتغلبت عليها ، لتحقق ارادة التاريخ وحتميته · (المعرب)

وفى وسعنا أن نرى الفرق واضحا حتى قبيل الحرب العالمية الاولى. فمنذ احتلال البريطانيين أرض مصر عام ١٨٨٢ ، تركز الفكر القومى والطاقة الثورية فى مصر على الوجود البريطانى فى أرضها . أما فى المشرق العربى فقد تركزت الطاقة القومية من ناحية أخرى ضد السيطرة التركية العثمانية ولا سيما بعد أن عطل السلطان فجأة الدستور الذى وضعه مدحت باشا فى عام ١٨٧٦ ، ويمكن رؤية ما فى هذا البون الالزامى المفروض من مغاز كاملة ، بابراز نقطتين أخريين . فلقد علق المصريون فى مرحلة من المراحل آمالهم فى مناهضة بريطانيا على عون القسطنطينية العثمانية ، التى كان القوميون فى الشرق الأدنى يحاولون مناهضتها ومقاومتها (١) ومع ذلك كانت اللغة التى يتكلم بها الشعب فى هذين الجزءين من الوطن العربى طيلة هذه المدة ، هى العربية ، كما كانت المقالات التى تنشر والتى تعبر عن طرائق التفكير فيهما ، عربية أيضا . وعلى الرغم من أن قومية محدودة المقومات وذاتية المحتوى ، كانت آخذة فى النمو فى مصر ذلك الحين ، الا أن مصر نفسها كانت تخطو خطوات واسعة فى تطوير الصحافة والطباعة العربية وصناعة النشر والاعلام.

وقدر لهذه النزعة القومية المجزأة الهدف(٢) ، والتى كانت لاتزال تبحث عن أسسها العقائدية الدائمة والنهائية ، ان تظل قائمة ، عدة حقب أخرى ، وان كان « المقام » المشترك المتمثل فى اللغة والتقاليد العربية ، ظل يفرض نفسه فى كل ميدان من ميادين النشاط الانسانى باستثناء العمل السياسى . وهنا تبدو المفارقة الساخرة ، بين ماقاله الزعيم الوطنى المصرى ، سعد زغلول ، لمندوبى المشرق العربى فى مؤتمر فرساى فى عام ١٩١٩ من أن « مشكلتنا مصرية وليست عربية »(٣) ، وبين ما كتبه فى نفس العام فى مصر نفسها الدكتور عبد الوهاب عزام، اذ قال :

« ان هذا الأدب الذى نقرؤه وندرسه ونحفظه ، ونستمع اليه ، ونستمتع به ونفخر — هذا الادب الذى نربى أبناءنا عليه ، والذى نأخذ من فضائله مثلنا ، ومن رذائله عبارات قذفنا ... هذا الأدب الذى

---

(١) أعتقد ان المؤلف قد غالى فى تصوير هذا كل الغلو ، واذا كان قد وقع شىء من التقارب ابان الحرب العالمية الاولى بين المصريين والعثمانيين ، فمردهذا التقارب الى سبب واحد ليس الا ، وهو أن كليهما كان يناهض عدوا « مشتركا » وهو انكلترا التى كانت قد سلبت مصر حريتها .

(٢) لم تكن هناك تجزئة فى الهدف مطلقا . فالهدف واحد ، وهو مكافحة الاستعمار سواء أكان هذا الاستعمار بريطانيا أم تركيا .

(٣) لا يمكن أن يفهم من قول سعد زغلول . ان مصر كانت تعتبر نفسها فى عزله عن العرب ، وما أفهمه منه ، لا يعدو أن يكون تركيزا آنيا على مشكلة التحرر من الاستعمار . واذا كان قد وجد فى وقت ما بعض التجزىء فى الحركات النضالية ، فان الجريرة فيه تقع على الاستعمار الذى عمل جاهدا على عزل هذه الحركات عن بعضها . — (المعرب)

نرجع اليه كمرشد فى السراء والضراء ... هو حقا الأدب العربى — أدبنا — دون سواه » (١)

وقد انقضى نحو من ثلاثين عاما ، قبل أن تتفجر هذه الأهمية الكاملة للقاعدة الثقافية العربيةفى مصر المعاصرة ، لتغمر المسرح السياسى فى الشرق الأوسط . وعندما تفجرت ، لم تتمكن الدول الغربية التى عودت نفسها على أن ترى مصر « مصرية » ليس الا ، من تفهم حقيقة ما حدث تفهما كاملا .

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، كان الهدف الأساسى فى التحرر من كل حكم أجنبى ، قويا فى جميع أرجاء الشرق الأوسط، حتى ولو لم يكن المذهب العقائدى الذى تستند اليه هذه الحرية قد اتضح بعد . ولكن هذا الهدف كان قويا الى درجة كافية لحمل الوطنيين فى كل من مصر والشرق الادنى على أن يجدوا التشجيع لهم ، من وعود الحلفاء بتقرير المصير ، فلقد أبلغت بريطانيا المصريين فى البيان الذى أصدره جرانفيل (٢) فى عام ١٨٨٣ ، أن احتلالها لمصر ليس الا مؤقتا وبات من حقهم والحالة هذه أن يتوقعوا على ضوء هذا العهد البريطانى القديم ، وعلى ضوء وعود الحلفاء الجديدة بتقرير المصير ، أن يتحرروا فى نهاية هذه الحرب التى أجبروا على الاشتراك فيها دون أن يؤخذ رأيهم فيها . أما فى المشرق العربى ، فان الوطنيين الذين كانوا قد ركزوا آمالهم على ثورة جماعة « تركيا الفتاة » ضد السلطان ، فقدوا هذه الآمال الآن ، بعد أن تبين لهم ، ان هذه الجماعة قد شرعت الآن أيضا فى مكافحة مطالبهم فى الحكم الذاتى ، بالعنف والقوة . وأحس هؤلاء العرب باهتمام بريطانيا الزائد بالحصول على عون ضد الاتراك ، ولكنهم ظلوا فى الوقت نفسه مشبعين بالشكوك فى نيات البريطانيين بعد الحرب ، مما دفعهم الى الحصول على وعود مكتوبة باستقلال « دولة عربية متحدة » ، مقابل اشتراكهم فيما يطلق عليه الآن الثورة العربية ولقد كانت هذه الثورة باهظة الثمن فظيعة التكاليف ، لا بالنسبة الى الارواح التى خسرها العرب فى الاعمال العسكرية المجردة فحسب ، بل بالنسبة الى ماقام به الاتراك من شنق وتعذيب وتجويع لاوازع له ولا ضمير فى كل من لبنان وسورية .

ولكن النتيجة الفعلية للحرب العالمية الاولى فى الشرق الاوسط على الرغم من جميع العهود المكتوبة الخاصة والعامة ، وعلى الرغم من اثمن الذى قدمه العرب للاشتراك فى الحرب ، انها ولدت فى عقل انسان الشرق الأوسط مرارة لا يمكن المبالغة فى التأكيد عليها ، اذ أنها أكبر

---

(١) فقرة مقتبسة من كتاب « مصر فى منتصف القرن العشرين » لشارل عيسوى أوكسفورد ١٩٥٤

(٢) اللورد جورج جرانفيل (١٨١٥ — ١٨٩١) درس فى ايتون واكسفورد . تولى وزارة المستعمرات فى بريطانيا بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٧٤ وعامى ١٨٨٠ و ١٨٨٥ . — المعرب

من كل مبالغة ، عند ما يمس الموضوع الرئيسى لقصتنا • فمصرلم تعط استقلالها الا بعد ثورة مريرة استطالت أربع سنوات ، كما رافقت التصريح الرسمى باستقلالها ، شروط احتفظت لبريطانيا بسلطات تجعل من ذلك الاستقلال مهزلة مضحكة • أما الشرق العربى فكان جزاؤه على ثورته العربية ضد الاتراك ، ومساعدته للحلفاء ، تقطيع أوصاله القائمة خارج الجزيرة العربية بين الانتدابين الفرنسى والبريطانى ، مع اضافة جرح ، لا مثيل له فى القارة الآسيوية كلها ، انبثق عن وعد بلفور الذى تعهد بفلسطين للصهيونية .

ولقد دأب بعض المعلقين ، اتباعا « لموضة » سرت بينهم ، على اظهار شىء من الضيق بهذا الرصيد من السخط على بريطانيا وفرنسا الذى خلقته خيانات الحلفاء للعرب بعد عام ١٩١٨ • وتبدو سياسات القوة التى عرفت فى الحرب العالمية الاولى ، للكثيرين منا الآن وفى عام ١٩٦٠ شيئا عتيقا باليا للغاية • ولكن ما لم نتفهم تمام التفهم ، كل ما لحق بالعرب فى تلك السنوات من نتائج تلك السياسة فلن يكون فى وسعنا أن نتفهم ما تبع ذلك من أحداث • فلم تكن القضية مجرد استمرار للحكم الاستعمارى متحديا عهود الحرب بتقرير المصير ، كما كان الوضع بالنسبة للمستعمرات الآسيوية ، وانما كانت فرض حكم أجنبى جديد يستعاض به عن الحكم التركى الذى دعى العرب وأقنعوا بوعود التحرر لمحاربته ، رغم ما سيدفعونه لهذه الحرب من ثمن باهظ (١)

ولم يقف الامر عند هذا الحد • فقد اقتطع فى اللحظة التى ظهر فيها أول تعبير عن فكرة الوحدة العربية ، نتيجة التلاحم الذى تحدثنا عنه قبل قليل بين الافكار العربية والغربية ، شطر كبير من العالم المستعرب ، عن سابق عمد واصرار ، وباستخدام القوة والعنف • وجاء فرض نظام الانتداب الذى شمل فلسطين وشرق الاردن ولبنان وسورية والعراق ، والذى صور للعالم بأسره على أنه « وصاية مقدسة فى عنق الحضارة » ذريعة قيل ان القصد منها تهيئة هذه الشعوب للوصول الى حق تقرير المصير فى النهاية • وليس من العجيب حقا ، ان تكون الدولتان المنتدبتان ، نفساهما ، قد اعتبرنا هذا الانتداب مظهرا من مظاهر النفاق ، قصد به أن يوارى السياسة الاستعمارية القديمة، فى ثوب قشيب لا يستحقه من القداسة والطهارة •• وهكذا ولد نظام الانتداب ، كغيره من أفكار الرئيس الامريكى ولسون ، متسربلا بلباس الجود ليخفى ما رافق ولادته من فقدان الشرعية •• (٢)

---

(١) قد يكون ادعاء المؤلف بأن العرب لم يحاربوا الاتراك فى الحرب العالمية الأولى الا بتحريض من الحلفاء • تشويها للحقيقة • واذا صح هذا القول بالنسبة الى القيادة الهاشمية للثورة العربية ، والى بعض عملاء الحلفاء الآخرين ، فانه لا يصح مطلقا على جميع الثائرين العرب الذين لم يحاربوا الا من أجل التحرر والاستقلال . — المعرب .

(٢) تعريف الكونت كارلوسفورزا مقتبس من مجلة «الشرق الأدنى» شيكاغو ١٩٤٣ •

ولم ترسم فى أى جزء آخر من الدنيا الافريقية — الاسيوية حدود جديدة على الخرائط فى مثل هذا العهد المتأخر من عهود الاستعمار ، كتلك التى رسمت فى الشرق الأوسط • ولم يعلن فى أى جزء آخر من أجزاء العالم فى عام ١٩١٧ ، عن وجود بلاد يسكنها أهلها ، قد أضحت مفتحة الابواب لاستقبال هجرة جماعية من غرباء دخلاء ، عرف عنهم أنهم يسعون لاقامة دولة لهم بينما يحرم على أهلها الاصليين حقهم فى تقرير مصيرهم فى بلادهم فلسطين • ولم تتطلب السياسة الاستعمارية فى أى جزء من الدنيا الافريقية — العربية — الاسيوية ، فى الفترة التى تلت عام ١٩١٨ فرض مثل هذه السيطرة العسكرية الكاملة بل الوحشية ، كالتى فرضت على المغرب (مراكش) وليبيا والعراق وسورية بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ وعلينا أن نؤكد ، اذ أن تأكيدنا هذا جوهرى لفهم ما يتلو من فصول هذا الكتاب ، ان النزعة القومية فى الشرق الأوسط ، قد تأثرت بعد عام ١٩١٨ ، بظاهرة فريدة فى بابها . فهذه البلاد ليست من المستعمرات ، ولم يكن أهلها اتباعا ، خاضعين كل الخضوع ، حتى يتجهوا بنضالهم ، بشكل واضح ومباشر ضد الدولة المستعمرة • فالسيادة البريطانية والفرنسية فيها مقنعة ، متسترة وراء الانتدابات أولا ، ومن ثم وراء المعاهدات المعقودة بين أنداد متساوين فى السيادة ظاهرا وكان هذا التقنع والتستر يستهدف عيون الغربيين أيضا • وهكذا بينما كان الغربيون يرون فى حقبتى الثلاثين والاربعين من القرن الحالى أن الهنود أو البورميين أو الاندونيسيين لم يكونوا « أحرارا » ، كانوا يرون أن عرب الشرق الأوسط ، « أحرار » تماما • فهم يرون أن لهم ملوكا ورؤساء ، وان لديهم سفارات ، اذن ترى ما الذى يدعوهم ، أى العرب الى الشكوى ؟ •

ولهذه الاسباب كلها ، ولأسباب أخرى ستبرز أمامنا فى الصفحات والفصول التالية نستطيع أن نقول ، اننا نحن هنا فى الغرب كنا نضايق هذه الشعوب ونطاردها ، بشكل لم يسبق له مثيل فى أى مكان فى الميدان الاستعمارى القديم • ولقد ولدت اتفاقات الصلح ، التى خلفت الحرب العالمية الاولى ، عند الجيل العربى الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠، طرازا من التقزز القوى ، وخيبة الأمل المرة ، يوضح الى حد كبير مانعنيه بصورة خاصة بكلمة « النفور » عند العرب • وعندما شب هذا الجيل ، وانتقل الى مرحلة النضوج ، ولم يقع ما يحدو هذا الجيل الى التخفيف من غلواء ما فى حكمه على الغرب من مرارة ، لولاها ، لكان يعجب به كل الاعجاب ، ولقد ظل شبح اتفاقات الصلح يخيم ككابوس يجثم على السياسة العربية منذ ذلك الحين (١) •

---

(١) كتاب سورية ولبنان لألبرت حورانى — أوكسفورد لندن ١٩٤٦ •

وقبل أن نتولى شرح هذه الفكرة شرحا تفصيليا ، أرى أن ثمة فكرة أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وان كانت تقل عنها مركزا وتقديرا . واذا كان العرب قد حملوا الى الشرق الاوسط الذى خلقته اتفاقات الصلح وجهة نظر خاصة تجاه الدول الغربية ، فان الغرب قد حمل الى الشرق الاوسط نفسه ، وجهة نظر معينة عن العرب . وقد قدر لهذين الرأيين أن يؤثرا على السياسة الرسمية وعلى أحكامها ، وأن يكيفا الرأى العام الغربى ، طيلة سنوات السخط والازمات التى استمرت حتى يومنا هذا .

- ٢ -

الصورة العربية عند الغرب

« ترى ما هى الافكار والآراء والصور التى نحملها فى عقولنا عن هذه البلاد وتلك الشعوب التى كنا نعتبرها بعيدة عنا حتى الآن ؟ ولما كنا مجبرين على أن نقوم تجاهها بعمل مضاد ، ترى ما الذى نعثر عليه فى ماضينا لنستخدمه فى هذا العمل المضاد ؟ » .

هارولد ايزاكس وجون دى فى « دراسات عن الصور الآسيوية » .

***

« تؤلف جميع المخاوف والعداوات والشكوك ... التى نجمت عن المعركة الكبرى بين أوربة المسيحية وبين عالم الاسلام ... جزءا من التراث الادبى عند كل أوربى مثقف ، وهى كامنة فى المادة التى جعلها موضوعا لقراءاته العامة ... تاركة فى عقله الباطن عددا يتفاوت فى الوفرة والقلة من الاهواء والضغائن » .

مقالة « العرب والغرب » للدكتور وليد الخالدى فى مجلة الجامعة الامريكية فى بيروت .

* * *

أدت اتفاقات الصلح التى عقدت بعد عام ١٩١٨ الى قيام علاقات وثيقة متصلة بين بريطانيا وفرنسا أو الغرب عامة من ناحية ، وبين العرب **من الناحية الأخرى . وليس ثمة من ريب فى أن كل تفهم أو عدم تفهم** متبادل بين مجموعتى هذه الشعوب سيترك أثره ، فى هذا الموضوع من نواحيه الثقافية والسياسية والتجارية وقد باتت الدولتان الآن أى بعد عام ١٩١٨ ، متورطتين فى ميزانيتين ضخمتين للانفاق فى الشرق الاوسط ، وأضحت حكومتاهما تبعا لذلك متأثرين بقرارات برلمانيهما وتعليقات صحافتهما ، طبقا لما يحمله هذان البرلمانان أو تلك الصحافة من أفكار عن العرب تعكسها عن الرأى العام فى البلدين ، أو تبثها فيه . وقد تحتم على الحكومتين ، نظرا لوجود الانتداب أن تواجها تتبع عصبة الامم لسياستهما (١) وكان لا بد من أن يتأثر هذا التتبع بما يحمله الغرب عن العرب من أفكار .

ترى ما هى الافكار والاراء والصور التى يحملها الغرب عن العرب والتى كانت تؤثر على السياسة الرسمية تجاههم ؟ وما الصور التى يحملها

(١) كتاب « العربى المستقل » تأليف السير هيوبرت يونج .

المثقفون الغربيون والدوائر المتعلمة والمثقفة ؟ وما المفهوم العام الواسع عن « الارجل العربى » .. ؟ وكيف يمكن لهذا المفهوم أن يؤثر على التقبل الشعبى للسياسة الرسمية ؟ ٠

لنعد الى سؤالنا الاول ، ترى ما الذى نعثر عليه فى ماضينا حتى نستخدمه فى عملنا المضاد ؟ تعود علاقتنا بالعرب الى نحو من ألف ومائتى عام ، وظلت الثقافة الغربية ، تجمع الفكر عن العرب طيلة هذه القرون ٠ وقد نقش أول ظهور بارز للعرب فى المسرح العالمى ، فى التراث الغربى ٠ وقد اعتبر الزحف التوسعى العربى الاسلامى على الابواب الشرقية للعالم المسيحى فى القسطنطينية فى عام ٧١٧ ميلادية ، وعلى قلب فرنسا فى عام ٧٣٢ ، ظاهرة طبيعيةمرعبة ومخيفة ، تركت جذورها فى ثقافتنا ٠ وقد امتزجت هذه الظاهرة ، مع المولد الحقيقى للعصر المسيحى المتوسط ومطلع النظام الاوربى ٠ ولم يخلف أى تغلغل أجنبى مثل هذا الاثر الذى خلفه التغلغل العربى فى تراثنا السياسى والثقافى والأدبى . ولو تفحص أى غربى زوايا عقله الباطن بحثا عن أية فكرة تتصل بالعرب ، تعلقت به فى غضون الألف عام الماضية ، لاستمع الى الاصداء الخافتة التى خلفتها معركة تور «١» ٠ وقد لا يكون فى حاجة الى قراءة تاريخ جيبون ، ليستوعب هذا الصدى ، وان كان هذا المؤرخ قد أوضحه ايضاحا تاما قبل نحو من مائتى عام اذ قال :

« لقد امتد خط الزحف الظافر أكثر من ألف ميل من صخرة جبل طارق حتى شواطىء اللوار . ولو تكرر هذا الزحف مسافة أخرى مماثلة ، لحمل العرب الى حدود بولندة ، وجبال اسكوتلنده ٠٠٠ ولأوصل الاسطول العربى الى مصب التيمز بحرا كما يشاء دون أن يشتبك فى أية معركة حربية .. ولربما كان من المحتمل أيضا ، ان يدرس القرآن الآن فى مدارس اكسفورد ٠ » (٢)

وقد ظلت هذه «اللو» منذ أيام تور عن العرب المسلمين متأصلة فى عقول الاوربيين يعززها الصراع المستمر مع العرب عند المداخل الجنوبية للقارة ٠ وكان أول رد فعل دينى من جانب المسيحية ضد الاسلام ، ما ذكره جون داماسين (٣) فى عظاته فى القرن الثامن من أن الاسلام هرطقة

---

(١) اشارة الى معركة تور أو مايسميها العرب ببلاط الشهداء . وقد وقعت عام ٧٣٢ ميلادية على نهر اللوار بين القائد العربى عبد الرحمن الغافقى وقائد الفرنجه شارل مارتل ٠ وقد استشهد فيها كثير من أبطال العرب ٠ وكانت نقطة التحول فى تاريخ الفتوحات العربية فى الغرب ٠
المعرب ٠

(٢) كتاب « انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » للمؤرخ البريطانى جيبون :

(٣) داماسين يوحنا - (٦٧٦ - ٧٤٩) ٠ من علماء اللاهوت المسيحيين وقد ولد فى دمشق ، وعاش فى دير على مقربة من مدينة القدس، واشتهر أمره بالأناشيد الدينية والعظات التى وضعها ٠

انشقاقيه (١) ولكن ما لبثت الكنيسة أن اتخذت لنفسها خصائص الدولة المنظمة ، وباتت تعتبر نفسها « جيشا مرابطا على تربة المسيحيه » (٢) وتزاوجت هذه النظرة العسكرية ، مع موجة من الحماسة ومن القومية الوليدة المتمثلة فى ظهور شارلمان وهكذاتسربت الى أولىقصص الفروسية فى أوربا فكرة دينية مرعبة وعصبية عن العرب والاسلام تختلط دائما بالخرافات الشعبية ٠

ويرجع تاريخ أول مثل بارز من هذه الامثلة ، الى حادث وقع فى عام ٧٧٨ ميلادية ، وبات خالدا فى تراثنا الادبى حتى يومنا هذا . فلقدوقعت معركة رونسيفال ، وكانت فى الواقع مجرد اشتباك مؤخرة ، بين وحدات من قوات شارل العائدة تحت قيادة رولان من أسبانيا وبين عصابة من الباسك المسيحيين ٠ ولم يمض ثلاثمائة عام ، حتى غدت هذه القصة احدى أساطير الفروسية فى أوربا ، وحتى تحول الباسكيون الى مسلمين ، وانقلب اسلامهم الى وثنية شيطانية تعبد آلهة كثيرة ٠٠٠

« كان الوثنيون يهتفون ٠٠٠ أنجدنا يا محمد ٠٠٠

وانتقموا لنا يا آلهتنا من شارل (٣)

وعلى الرغم من أن هذه الاسطورة الكثيرة التزويق ظلت تنشد فى فرنسا بصورة رئيسية ، الا أنها سرعان ما استأثرت بخيال المسيحية كلها خارج فرنسا فى وقت مبكر أيضا ٠ وظلت أغنية رولان النص الموحد الذى يدرس فى المدارس قرونا عدة ، والمصدر الأساسى منذ الطفولة ، لوجهة النظر التى يكونها الغربى عن العرب والاسلام ٠

وليس ثمة الكثير مما يشابه مثل هذا الانطباع العميق المختزن منذ الطفولة ، على ثقافتنا ازاء عقيدة قديمة ، وشعب تمكن من البقاء حتى يواجهنا اليوم ٠ لكن هذه « الصورة » ما لبثت أن أحيطت بالكثير من التفاصيل ٠ فهى لا تنشأ عن مجرد الاحساس بالخطر العسكرى على أوربا والاستهانة بالاسلام ، وانما تنشأ كذلك عن الفكرة القائلة بأن العرب المسلمين قد أعملوا سيوفهم فى المسيحيين كافة، اذا امتنع هؤلاء عن التحول الى الاسلام ٠ وليس ثمة من شك فى أن المحاربين العرب عرفوا بشدة البأس ، وخفة الحركة ، كما أن انتقامهم من الجيوش التى تحاربهم ، كانت معروفة ومشهورة ، ولا ريب فى أن الفكرة القائلة بأن الجيوش العربية الفاتحة ، كانت تقطع رءوس جميع المدنيين المسيحيين بسيوفها المعوجة ، خاطئة كل الخطأ . فلم تكتف الامبراطورية العربية بالتسامح مع غير المسلمين ، بل كانت لها فائدة محققة فى مثل هذا التسامح وذلك

---

(١) كتاب تاريخ الامبراطورية البيزنطية لفاسيلييف ٠

(٢) كتاب تاريخ محاكم التفتيش فى العصور الوسطى لا ٠ ش ٠ ش ٠ لى ٠

(٣) انشودة رولان ٠

عن طريق الجزية التى تفرضها عليهم . (١) ولكن مع مضى القرون شرع الغرب فى الاعتقاد بأن الاحتلال العربى الاسلامى للقدس ، ليس الا ذروة هذا التقطيع المزعوم لرءوس المسيحيين ، وكان هـذا هو الذى دفع الصليبيين الى المبادرة لانقاذها من أيدى من كانوا يسمونهم بالكفرة ، عن طريق رموز البطولة الايجابية للسيف والطبق المسيحيين .

ولكن الصورة الصحيحة لتاريخ القدس المبكر ما لبثت ان تسللت الى تعليمنا . وحسر الباحثون النقاب ، عن أنه فى الوقت الذى توقف فيه الخليفة العربى عمر بن الخطاب أمام القدس ، ليعقد معـاهدة مع ذوى الشأن فيها تضمن لاهلها من مسيحيين ويهود حرية العبادة شريطة دفعهم للجزية ، راح صليبيونا فيما بعد يدخلون مدينة القدس عن طريق الخديعة ويغرقونها فى حمام حقيقى من الدم (٢) وقد توافرت لنا الآن صورة أكثر دقة عن الحوافز الحقيقية التى دفعت الى الحروب الصليبية ، وهى حوافز تشبه الى حد كبير تلك التى دفعت العرب فى طريق توسعهم الخيالى (٣) وتكون مزيجا من الايمـان الحربى والضغط الاقتصادى من الداخل ، واغراء الثروات الخرافية الموعودة(٤) .

ويمكننا رؤية الجدة فى هذه التصحيحات الاكاديمية لتاريخنا عن العرب والاسلام ، من الرأى الذى نادى به أستاذ من اكسفورد فى عـام ١٨٩٤ عندما تحدث عن ظهور النبى محمد اذ قال :

« وحلت أخيرا اللحظة الحاسمة التى تحولت فيهـا تعليماته من مباركة البلاد العربية الى « لعنة العالم » . وعندما شعر بأن قوته باتت كافية ، أمر المتشيعين له ، بحمل السلاح ، وفرض الاسلام على جيرانهم

---

(١) لا أدرى كيف توصل المؤلف الى هذه الفكرة الخاطئة . اذ أن كل من يعرف أقل شىء عن الاسـلام يدرك أن الدين الحنيف أوصى بالتسامح مع أهل الكتاب على أسس روحية لا شأن للعامل المادى فيهـا — المعرب —

(٢) كتاب «الحروب الصليبية» لستيفان رانسيمان الذى قال ... ودخل الصليبيون شوارع القدس يقتلون كل من يلقونه من رجال ونساء وأطفال دون تمييز ، كما أحرقوا يهود المدينة وهم أحياء داخل كنيسهم .

(٣) يبدو أن المؤلف كان متأثرا هنا كل التأثر بمـا كتبه بعض المؤرخين الغربيين المتحيزين عن العوامل المادية فى الفتح الاسـلامى ، متناسين أن الفاتحين العـرب ، كانوا حملة رسالة روحية هى الاسلام ، الذى بشر به محمد (صلعم) وقد يكون المستر تشابالدرز ، وهذا هـو الغالب ، قد فاتت عليه هذه الحقيقة عن حسن نية ، لأنه من أحرار الفكر ومن الذين يتوخون الانصاف فيما يكتبونه .
— المعرب —

(٤) كتاب .. مرجع عن تاريخ القرون الوسطى .. لناتشر وماكينل

بالقوة(١) وظهر تيار من الخديعة والثأر والانغماس الأنانى ... (٢)

وقد عززت أساطير عدة هذه الفكرة من «لعنة العالم» ومن الاساطير التقليدية التى يحاول علماؤنا المعاصرون جاهدين محوها من مجـالات معرفتنا وبينها الادعاء بأن العرب الأول الذين غزوا مصر عام ٦٤٠ ميلادية هم الذين تولوا احراق مكتبة الاسكندرية وتخريبها (٣) وتعكس هـذه الاسطورة الاعتقاد الغربى الشائع بأن الحضارة العربية الاولى ، لم تكن الا مركبا من العنف ومن الديانه الجماهيرية ، والانغماس الانانى الخالص فى المطامع ، وانها حضارة لا تحترم العلم ولا تقيم له وزنا . ومن الحق أن يقال ان تسعين فى المائة من الغربيين يربطون كلمـة « بغداد بقصص ألف ليلة وليلة » دون أن يأبه واحد منهم بالتفكير فى أنها كانت فى يوم ما أعظم مراكز العالم فى الدراسة والعلم ، وأنها كانت حافلة بالمعـاهد والمكتبات والمراصد وشارحى التراث الحضارى الاغريقى .

وليس من العسير علينا أن نتتبع هذه الصورة المركبة عبر القرون ابتداء بالهزة المرعبة الأولى التى وقعت فى عهد معركة تور . واستمر عداء اللاهوت والدراسات الدينية للاسلام مع تقدم هذه الدراسات على حـاله اذا لم نقل انه استمر فى النمو المضطرد . وتنكر العلماء والادباء الغربيون للاسلام فرفض مارتن لوثر مثلا ان يقرأ القرآن ووصمه بمختلف النعوت وواصل أدباء الغرب الحملة على الاسـلام ومبادرته بالعداء ، مما يظهر بوضوح فى الكثير من كتب الادب والتاريخ . وقد استمرت هذه الفكرة على قوتها حتى القرن التاسع عشر وما زالت تعيش فى عقلنا الباطن حتى اليوم .

وجاءت موجة جديدة كل الجدة من التجارب الخارجية الواقعية، لتسير بصورة موازية مع النظرة الباطنية المسيحية تجاه الاسلام ولتستفزها دافعة بذكريات أوربا عن المسـلمين خطوة أخرى . فلقد بات « الاتراك المسلمون » منذ سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ يهددون أوربا تهديدا خطيرا أكثر من مائتى عام وباتت ديانة الأتراك وعاداتهم وحتى ملابسهم تثير مخاوف الاوربيين وتستفز فضولهم الكاره لها . وضاع أجدادنا من جراء اعتناق الاتراك للاسلام فلم يتبينوا حقيقة الفروق الضخمة التى تقوم بين العثمانيين والعرب. وراح الادب الغربى يصور التركى على أنه رمز الخداع والمكر والنزوع الى الشهوات ، كما ظهر فى الصورة التى رسمهـا

---

(١) لا أدرى كيف يسمح من يدعى العلم ويعمل فى الحقل الجامعى كأستاذ اكسفورد هذا لنفسه بمثل هذا التشويه للحقائق التاريخية اذ ان وصايا النبى (صلعم) لقادة الغزوات التى كان يوفدها ، والتى أوردتها جميع كتب التاريخ العربى تناقض هذه المزاعم تماما — المعرب —

(٢) كتاب العصور المظلمة لشارلز أومان .

(٣) تؤيد كتب التاريخ الصحيحة ان نصف المكتبة قد أحرق فى عهد قيصر وان الصليبيين هم الـذين تولوا احراق ما بقى منهـا فى عام ١٣٦٥ .

شكسبير فى مسرحيته « العاصفة » للرجل التركى على لسان عطيل بطل هذه المسرحية .

وشرعت جامعتا أوكسفورد وكمبردج فى مستهل القـرن السابع عشر فى انشاء معاهد جديدة للدراسات العربية ، هادفتين من ورائها الى استكشاف الكتب العظيمة التى نقلها العرب الى أوربا ، ومتأثرتين الى حد كبير بالنفوذ الكنسى . لكن هذا الوميض المبكر فى الدراسات العربية لم يبدل شيئا من موقف العداء الذى يقفه الغرب عامة من العرب والمسلمين ولم تخلف المجموعة القليلة من الكتاب « الكلبيين » (اشارة الى الفلسفة الكلبية الشكية ..) من أمثال بيير بايل وروجر ويليام ، والتى دعت الى التسامح وأبدت رغبتهـا فى أن تكون المسيحية طاهرة كل الطهر فى حماستها التبشيرية الا أثرا ضئيلا لا يكاد يذكر .

وتوقف التهديد العثمانى للقارة الاوربية على أسوار فيينا فى عام ١٦٨٣ م ، وبدأ الاتراك السير فى طريق تدهورهم الطـويل . وشرع سلاطينهم يتدرجون نحو الاتجار مع أوربا ، حتى انهم سمحوا للمبعوثين الاوربيين بالاشتراك فى دسائسهم . وأخذ تجـار أوربا ودبلوماسيوها ومبشروها ومكتشفوها ، يعودون الى بلادهم حاملين صورة تركية عثمانية الى حد كبير عن عرب الشرق الاوسط . وقد عززت هذه الاتصـالات الجديدة فى حد ذاتها الاسطورة الشاملة التى حملهـا المسيحيون فى الغرب ، عن ترف المسلمين وقسوتهم ، وحياة اللهو والبذخ التى يحيونها . وأسهمت كذلك فى ظهـور تأثيرات أوربية داخلية جديدة ، على المواقف العامة تجاه العرب تمثلت فى أسلوب القرن الثـامن عشر الذى حاول محاكاة ماتميز به الادب الشرقى أو المنتحل صفة الشرقية من رومانتيكيـة ابداعية . وظهرت ترجمة جالاند الفرنسية لألف ليلة وليـلة فى عام ١٧٠٨ لتعقبها «قصص فارسية» و «قصص من تركيا» .

وأثر هذا الأسلوب الادبى على نفر من كبار الشخصيات الأدبية فى العصر المذكور ، كرد فعـل على ماأسماه الكاتب الانكليزى « بوزويل » بنظام التفاؤل . وشرع الاديب البريطانى المشـهور ، الدكتور صمويل جونسون ، فى وضع كتابه «راسيلاس» الذى ضمنه التواصى التى ترمز الى استخدام الرومانتيكية الشرقية فى استبعاد التفاؤل اذ قال :

«وأنت يامن تتابع بلهفة أطياف الأمل ، وتتعلق بأهدابه التى توحى اليك بأن الشيخوخة ستحقق أحلام الشباب ، وأن الغـد سيعوض على ما فى الحاضر من نقائص وعيوب عليك ان تصغى الى قصة راسيلاس أمير الحبشة » (٨) .

وترجمت راسيلاس التى صدرت فى عام ١٧٦٠ الى الايطاليـة والفرنسية والألمانية والهولندية . وقد جاءت اثر صدور « رؤيا ميرزا » للكاتب أديسون ، واتفقت مع رسائل فارسية « التى وضعها الفيلسوف

(٨) كتاب «راسيلاس» لصمويل جونسون ـ الفصل الاول .

الفرنسى الشهير مونتسكيو ، مستخدما من الشرق ذريعة لتوجيه ما يشاء من نقد اجتماعى . وكان هناك أيضا كتاب «فاتيك» لمؤلفه بيكفورد الذى يجمع بين الاسلوب القوطى والشرقى وكتاب «زاديج» لفولتير ، وكلها كتابات تضيف الى الانطباعات الغربية «عن الشرق» صورا عن طرائف ألف ليلة وليلة . وكان تعبير «الشرق» فى تلك الايام يعنى «الاتراك» و «المسلمين» كما يعنى الهنود أيضا ، ومن هنا نشأ الافتراض بأن «تعبير» العرب ليس الا تسمية ثانية للاتراك . ولم يكن فى الامكان فى مثل هـذا المسرح السياسى والأدبى فهم الاسلام على حقيقته فهما صحيحا . ولعل هذا هو السبب الذى حدا باستاذ العربية فى جامعة أوكسفورد الى الحمـلة فى عام ١٧٨٤ على الاسلام مشوها حقيقته وناعتا اياه بالتضاليل .

ونصل الآن الى القرن التاسع عشر ، أى الى الوقت الذى عاد فيه الغرب عودة حاسمة الى الاتصالات بالشرق الاوسط . وقد اتسعت الآن آفاق الاتصالات بين العرب والغرب . وبات الترحال الى ماوراء الحدود الاوربية الآمنة هواية عظمى عند الاثرياء وذوى النفوس القلقلة ، والادراك اليقظ المتنبه . وكان بين هؤلاء الرحالة ، فولنى الفرنسى ، وبيركهـاردت السويسرى ، وريشـارد بيرتون ودوتى وبيرى وبلانت البريطانيون . واجتذب الشرق الاوسـط فى القرن التاسع عشر مجموعة ضخمة من المفكرين الاوربيين واستهوت مصر فى عهد محمد على ريشارد كوبدن ، كما ارتحل السياسى الداهية دزرائيلى عبر أراضى مصر والشرق الأدنى فى شبابه ، ودون ملاحظات هامة نقتطف منها ما يلى :

« .. هناك شىء من السحر فى الحياة الشرقية ، وهو الراحـة والاسترخاء .

«وقد تركت على هذه الطبيعة ، أنا الذى نشأت فى الاوساط الزائفة للحضارة الفاسدة ، والذى انغمست انغماسا طليقا فى طريق الشهوات والنزوات ، أثرا عميقـا ... وفى وسعى أن أقول صادقا اننى نفضت عنى فى ربوع سورية وسهولها ، كل طموح شخصى» (١)

ولكنه لم ينفض عنه طموحه حقا فنحن نرى فى قول دزرائيلى هـذا بعض الاستهواء الذى خلفته الصحراء العربية فى نفوس الكثيرين والذى سنعود اليه بعد قليل . ولكن أقوال دزرائيلى تمثـل جانبا واحدا من الصـورة ، بينما كان ثمة جانب آخر يتمثل فى كتاب « جورج ووكر » لمؤلفه أنطونى ترولوب الذى صور الناحيـة السلبية والمحتقرة والمزدرية التى الفت جزءا ضخما من تراثنـا الأدبى عن الشرق ، والذى جاء فيه ما يلى :

« وسواء أكانوا عربا أم اتراكا أم اقباطا ، فهم طراز واحد لا تباين فيه . انهم جميعا ينتمون الى عنصر مخادع وضيع جبان . وهم يتخلفون عنا كثيرا نحن الذين اتبعنا تعاليم المسيحية . ولكنهم يتفوقون علينا فى

(١) منقول عن كتاب « ديزى » لهيسكيث بيرسون .

شيء واحد ، وهو أنهم يحسنون الحفاظ على كرامتهم (١) .

ولعل هذه « الكرامة الشخصية » بعينها هى التى استهوت بعض الناس من الغربيين وأثارت حنق بعضهم الآخر وسخطه . ولا ريب فى أن الصورة التى رسمها ترولوب كانت بين الصور الشائعة المقروءة عن الشرق الأوسط والتى أثرت على العالم الناطق بالانجليزية فى أواسط القرن التاسع عشر ، وكانت نموذجا من الازدراء الكامن عند الغربيين للشرق ، وهو الازدراء الذى ما لبث أن أصبح عاما شاملا فى السنوات اللاحقة .

وشرع الرحالة الحديثون يفدون من أمريكا أيضا ، ولعل مذكرات الكاتب الأمريكى مارك توين التى نشرها فى عام ١٨٦٧ عن «نزهاته فى أوربا والبلاد المقدسة » تعطى لمحات رائعة عن الصور التى كان يحملها الغرب عن العرب حتى قبل مائة عام(٢) ولقد رأينا فى انطباعاته عن رحلاته مزيجا من الروح الامريكية المناهضة للاستعمار ، والتراث العام للحروب الصليبية ، والمواقف المسيحية فى الاسلام وكذلك من الصور التى قدر لها أن تغدو طاغية فى أهميتها عن المفهوم البدوى الصحراوى للعرب .

وقد كتب مارك توين عن سورية يقول :

« لو كان ثمة من شعب مضطهد قائم ، فانه هذا الشعب الذى نراه مكبلا بالاغلال فى ظل طغيان الامبراطورية العثمانية المنافى للانسانية . والسوريون جد فقراء ، ومع ذلك فقد فرض عليهم نظام مرهق للضرائب يكاد يطحنهم طحنا ، ولو فرض هذا النظام على أى شعب آخر ، لطوح به الى الجنون ... ولو أعطى السوريون قسطا من الحرية والتعليم لباتوا شعبا راضيا قانعا ... وكثيرا ما نراهم يتوسلون الى الاجانب ، ليدفعوا العالم الكبير الواسع الى المبادرة فى يوم ما الى مساعدتهم وانقاذهم (٣).

ولاحظ السير ريتشارد بيرتون بعد نحو من ثلاثين عاما ، انه على الرغم من ظهور روح جديدة للتقصى والبحث فى الغرب عن الاسلام ، فان الحزازات القديمة التى خلفتها الحروب الصليبية ، والاضاليل الشائعة عن

---

(١) انطونى ترولوب فى كتابه « قصص من جميع البلاد » لندن عام ١٨٦٣ .

(٢) مارك توين فى كتابه « أبرياء فى الخارج » – أمريكا ١٨٦٩ .

(٣) أعتقد أن مارك توين كان مغاليا فى دعواه هذه ، اذ أن عرب سورية لم يكونوا قط راغبين فى تبديل الاستعمار التركى باستعمار غربى مهما كان شأنه ، وقد ثبت صحة ذلك فى الثورة التى ما لبثوا أن أعلنوها على الفرنسيين فى عام ١٩٢٥ وفى حربهم لهم فى ميسلون عام ١٩٢٠ عندما رأوا ان الفرنسيين يريدون استعمارهم ، واذا صح ادعاؤه بأن بعض السوريين قد اتصلوا به ، فهم من أولئك الذين يربطون مصيرهم دائما بمصير المستعمر وهم أقلية لا يعتد بها .

المعرب

العرب ، كانت لاتزال مسيطرة وغالبة (١) . ولا ريب فى أن وصف مارك توين للرحلة التى قام بها الى القدس رائعة للغاية على هذا الصعيد ، وأرى أنها جديرة بالاقتباس هنا ...

« وكان الأثر الرائع الذى استهوانا جميعا ، السيف القديم البسيط الذى كان يستعمله ذلك الصليبى الكبير جودفرى بولوان الذى بات يدعى بجودفرى ملك القدس . وليس ثمة من فصل فى دنيا المسيحية يستهوى الناس كهذا السيف . فهو يستثير فى عمل كل انسان جميع الذكريات التى ظلت هاجعة فيه عن الحروب المقدسة ، ويعمر أفكاره بصور الصليبيين لابسى الدروع ، والجيوش الزاحفة ، والمعارك والحصارات المفروضة .

« وليس فى وسعى أن أنسى سيف جودفرى القديم هذا بعد اليوم. وقد جربته فى شخص مسلم ، فمر فيه كما يمر فى العجين . وتسلطت على روح الصليبيين ، ولو كانت لدى مقبرة قريبة ، لوددت أن أقضى بهذا السيف على كل من فى القدس ... من الكفرة » (٢)

وراح مارك توين يدون بعد ذلك أفكاره التى انتابته ابان حادث يتناول الجياد التى استخدمها فى رحلته . ولا ريب فى أن الصورة التى يرسمها هذا الامريكى العادى المنبت ، تكشف النقاب ، عن أن فكرة العرب الرحل فى الصحراء ، كانت لاتزال فى مطلع القرن التاسع عشر ، مسيطرة على أفكارنا هنا فى الغرب فهو يقول ...

« كنت أتوق فى صباى لو كنت عربيا من أبناء الصحراء ، وكانت لى مهرة جميلة أدعوها « سليما » أو « بنيامين » أو « محمدا » (يا لها من روح متعصبة خبيثة) ، وأتولى اطعامها بيدى ، وأدعها تلج الخيمة ، وأعلمها طريقة ملاطفتى لتنظر الى نظرة عطوفا بعينيها الجميلتين ... وكنت أتوق لو جاءنى بعد ذلك غريب ، فعرض على مائة ألف دولار ثمنا لها ، فيحل بى مايحل بالعرب الآخرين من تردد ولهفة الى المال ، لايلبث أن يغلبه حبى لفرسى . لاقول أخيرا « هل أفارقك يا فرسى العزيزة الجميلة ؟ لا . لن أفارقك ماحييت ! امض عنى أيها الرجل الذى تحاول اغرائى ، فأنا أحتقر ذهبك . ثم أمتطى صهوتها لاذهب بها طرادا كالريح فى الصحراء » (٣) .

---

(١) كتاب بيرتون « اليهود والفجر والمسلمون » – لندن ١٨٩٨ .
المعرب

(٢) آثرت أن أنقل هذه الفقرة كاملة الى العربية لاظهر حقيقة النظرة الشريرة التى كان ينظر بها الغربيون ، ومازال ينظر بها بعضهم الى العرب دون أى زخرف أو تزويق .
المعرب

(٣) يتضح من هذا الخيال الغريب السقيم ، وما سبقه أن الغربيين كانوا يخلطون دائما بين العرب والاتراك ، وان الروح الصليبية كانت لا تزال مسيطرة على الكثيرين منهم ، وجلهم من الادباء والمفكرين .
المعرب

واستمر هذا المزيج الغريب، فى طريقة معاملة الغرب للعالم العربى، والذى يجمع بين الاستهواء والتقزز ، فى النمو مع كل مرحلة جديدة من مراحل التغلغل العربى • وظل التركى الذى لا يمكن وصـــفه يستثير طيلة القرن التاسع عشر التقزز والغضب الجامح • وظلت الكراهيـة لعقيدته تسيطر على جميع مواقفنا من الغرب • وأدت مذابح عام ١٨٦٠ فى الشرق الأدنى والتى لا سابقة لها فى التاريخ العربى الى الابقاء على الروح الصليبية على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى ان الدافع اليها يعود الى السياسات الدولية لبريطانيا وفرنسا • وسرعان ماالحقت بها فظائع الاتراك فى البلقـــان ، ثم أدت الاحقاد الدفينة الى افتعال اضطرابات الاسكندرية التى أسفرت عن ضرب مدافع البحرية البريطانية لمينائها فى عام ١٨٨١ (١) •

وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة ، وهى مرحلة الاتصال الفعلى المباشر بين مئات الالوف من الجنود البريطانيين وبين جزء من العـــالم العربى ـ الاسلامى مما أنبت ثمارا جديدة من الكراهية • وأدى مقتل جوردون ورجاله فى الخرطوم على أيدى دراويش المهدى ، الى خلق انطباعات جـديدة فى العقل العام البريطانى قدر له أن يعيش حقبا عدة • وظلت قوات بريطانية قوامها أحد عشر ألف جندى ترابط باستمرار بين عامى ١٨٨٢ و ١٩١٤ فى أراضى مصر التى لم يكن احتلالها مريحا بأى حال لهذه القوات• وحملت فى نهاية القرن قوة أخرى أضـخم عددا ، قصصا جـديدة عن الحملة التأديبية التى قام بها كتشنر فى السودان • وخبر تسعمائة ألف جندى بريطانى ابان الحرب العالمية الاولى ، مصر المشاكسة الحرون ، الناقمة ، الشاعرة بامتهان كرامتها ؛ بينما مضى آخرون من الهند الى العـــراق ، وتلت ذلك سنوات رابطت فيها الألوف والألوف المتعاقبة فى مصر وفى بلاد الانتداب الى الشرق منها •

وكانت الصور والآراء التى حملها هؤلاءالرجال ، عن الوطن العربى الى شطر ضخم من الرأى العام البريطانى ، سـلبية حتما ومنطوية على الزراعية ولم يكن الجندى العامل فى قوات الحمـاية فى أى بلد افريقى أسيوى يرزح تحت كابوس الاحتلال أو الوصاية ، يعيش عيشة مريحـة طيبة ، فكيف يعيش براحة فى بلدان الشرق الاوسط ، التى لم تقم قط بينها وبين الدول المحتلة أو المستعمرة ، العلاقات المنظمة التى تقوم عادة

---

(١) استغلت صحف لندنهذه الاضطرابات الى أقصىحدود الاستغلال لتخلق الجو الصالح لتبرير غـــزوها الاراضى المصرية واحتلالها فى عام ١٨٨٢ ، ويروى ويلتون وين فى كتابه « ناصر مصر » أن صحف لندن حاولت قبيل العدوان الثلاثى على السويس فى عام ١٩٥٦ ، اتباع نفس الاسلوب ، اذ أبرق رؤساء تحرير بعض الصحف اللندنية الى مراسليهم فى القاهرة قبيل العـــدوان يطلبون منهم تزويدهم بقصص عما يلقـــاه البريطانيون فى مصر من أذى • ولكن هؤلاء المراسلين لم يستطيعوا ارضاء رؤســـاء تحريرهم • اذ لم يكن ثمة من انســـــان يلحق الأذى بالمدنيين البريطانيين • ومع ذلك فقد تمكنت الصحافة البريطانيـة من خلق الجو المناسب بأساليب أخرى •

المؤلف

بين البلدين المستعمر والمستعمر ؟• وكان الجندى البريطانى يعيش فى هذا الجزء من العالم فى حالة مستمرة من التوتر ، ولا يكاد ينقضى عام دون وقوع اضطرابات من نوع ما يتحتم على هؤلاء الجنود اخمـــادها وسحقها • يضـــاف الى هذا ان المحيط الذى يراه جندى الاحتلال كان ضيقا كل الضيق وسلبيا كل السلبيه • ولا تحمل رسـائله التى يبعث بها الى ذويه فى بريطانيا ، أو قصصه التى يرويها فى ثكنته بعد عـودته من رحلة فى الخارج ، الا طابع الحديث عن الاوكار الليلية العابثة التى أمها • والاسواق القديمة المعتمة ، القذرة ، والذباب والحرارة والمـرض والموت ، وبائعى الصور الجنسية القذرة ، أو بائعات الهوى ، وتجـــار التحف والهدايا المخادعين ، وقطاع الطرق فى الليل ، والجماهير الغاضبة فى النهار . وتلتف أسوأ العناصر من الاهلين حول جنود الاحتلال • ولم تكن هذه الانطباعات المثيرة فى اى وقت أكثر قوة منها فى الفترة التى شملتها الحربان العالميتان عند ما اعتبر أهل البلاد ، أناسا « لا مبالين » بل متفرجين خائفين فى صراع عالمى مميت • ولما كان الالوف من الجنود البريطانيين العاديين الذين أدوا الخدمة العسكرية فى الخارج • قد أقاموا فى مصر مدة أطول من اقامتهم فى أى بلد عربى آخـــر ، فان الحزازات المتجمعة ضد المصريين كانت طاغية فى عام ١٩٥٦ •

وهكذا باتت الصورة الغربية الشاملة عن العـــرب أكثر تعقيـــدا واضطرابا ، وتناقضا مع مرور الزمن • ولم يحل مطلع القرن الحالى حتى كانت كتب لا تعد ولا تحصى قد صدرت عن الصحراء العربية ، ورسخت صورها فى عقول الغربيين من ذوى المكانة الاجتماعية والتعليمية البارزة• فلقد عثر دزرائيلى على الراحة والبساطة فى سهول سورية الصحراوية ولكن كان هناك بين الرمال ما هو أكثر من البساطة والراحة • فهنـاك المفارقة الواضحة بين هذه البيد الواسعة ، الصامتة ، النظيفة التى تقطنها قلة من الشيوخ القبليينالانوفين ، الواثقين بأنفسهم ومن يتبعهم منرجال، وبين ما يراه جميع الغربيين تقريبا فى مدن الشرق الاوسط من قـــذارة ومكر « تركى » وفساد وعنف . وأصبح الغربى يرى بعين الواقع فى الصـــحراء العربية دحضا لكل ما توارثه من ضغائن موروثة عن العرب والمسلمين بينما يرى فى المدينة العربية ما يؤكد هذه الضغائن ، وكان الكثيرون من البريطانيين الذين يمرون فى أحيـــاء القاهرة القديمة ، يرون فى الرجل المهلهل الثيـــاب الذى يتجـــه الى مكة بصلاته التى يؤديها على حصيرة فقط ، تحيط بها النفايات ، شيئا منفرا ، بينما يرون فى صلاة البدوى وتقواه فى الصحراء ، شيئا نظيفا يستهوى النفس ، ويجتذبها ..

وقد قدر لهذا الاستهواء الزائد أن يغدو كبير الاهمية ، ولا سيما فى تاريخ الشرق الاوسط فى عصرنا الراهن ، مما يتطلب منا أن نوجه اليه شيئا من الدرس والاستقصاء • وليس ثمة من شك فى أن كل من وجد نفسه يوما ما فى الصحراء العربية ، يعرف تمـــاما سحرها ، وان كان القليلون منهم فقط هم الذين يستطيعون أن يوضحوا هـذا التأثر بها • والصحراء شديدة النقاء ، كثيرة العزلة ورائعة الجمال • وهى تخبى كل

رجل غربى التحية التى تتفق مع فلسفته فى الحياة . فهى توقفه رجلا وحيدا أمام خالقه ، أو تجعله رجلا على اتصال بالطبيعة ، أو انسانا تجرد من كل استهواء للحياة الآلية فى المدن ، أو مخلوقا تكشفت له نفسه وبات عاجزا عن تجنب شكوكه ومخاوفه ومظاهر الضعف الطبيعية فيه . ولكن مهما كانت التحية التى تواجه الصحراء بها زائرها الغربى ، فان فيها شيئا من الانقسام الذاتى ، أو من مواجهة المطلق . ولا ريب فى أن هذه المواجهة للمطلق عند انسان القرن العشرين فى الغرب ، الثائر رغم أنفه على المذاهب المادية العقلية وعلى محاولة التلاقى فى المفاهيم التى أقام عليها مجتمعه ، تعتبر تجربة مخيفة رغم ما فيها من استهواء وجاذبية .

والافق مستعص بما فيه من خواء على الارادة الانسانية ، أما الاطلاقية فى الصحراء فطاغية كل الطغيان . ويتساءل الغربى عما اذا كان ثمة من رجل يستطيع أن يتفاهم فى يوم ما مع هذا المحيط المرعب الذى يستثير فى نفس رائيه انحرافات جنسية « ماسوشية » جذابة . وتبدو هناك فى الافق البعيد ، مجموعة من البقع السود منتشرة فوق الرمال ، انها خيام البدو السوداء . وقد يكون اللقاء غريبا ولكن مع كل لقاء جديد يبرز هناك سحر أعظم . فهناك أناس يتقبلون الصحراء كما هى وينسجمون معها . ويبدو أنهم على الرغم من خشونتهم وعلى الرغم من افتقارهم الى الثقافة فى معناها الغربى ، فانهم سواء الأغنياء منهم وهم القلة ، أو الفقراء وهم الكثرة ، قد وصلوا الى نوع من التفاهم المنسجم مع المطلق ، وتبدو آراؤهم فى الحياة صلبة لا تعرف اللين أو الهوادة ، كما تبدو طريقتهم فى العيش فى منتهى البساطة والبعد عن التهذيب والتشذيب . وهم لا يحملون أى ظلال عن الحقيقة ، أو تدريجا فى المعتقدات ، أو خطوطا فاصلة بين الخير والشر ، أو بين الهدف واللا هدف . فهناك اله يؤمن به البدوى ، وهو اله متناه فى القوة وليس ثمة فى الصحراء الا أمثلة قليلة على ثورة الانسان الفانى على هذا الاله وتكوينه . ويبدو أن ليس ثمة من صراع فى نفس هذا البدوى بين الله والمحيط والارادة اللا ذاتية . واذا كانت غريزة الغربى تدفعه الى الثورة والحنق على ما يبديه البدوى من « قدرية » كادعائه بأن وفاة ولده الذى كان فى الامكان شفاؤه من مرضه ، ناجمة عن ارادة الله، فان واقع الصحراء يدعوه الى الصمت ؛ اذ أن مثل هذا الايمان بها لا يعتبر « قدرية » مطلقا ، بينما يعتبر كذلك اذا صدر عن أبناء الاحياء الفقيرة القذرة فى المدن .

هذه هى الصورة التى حملتها فئة خاصة من الغربيين ولاسيما من البريطانيين الذين أدوا خدمتهم العسكرية فى الوطن العربى فى النصف الاول من القرن الحالى . وقد تداخلت عوامل كثيرة لا عد لها ولا حصر فى هذه العلاقة الوثيقة والقوية ، التى قامت بين هذه الفئة من ناحية وبين الصحراء وبدوها من الناحية الأخرى ، ولكنها تفاوتت فى قوة ما فيها من تأكيد بتفاوت الافراد واختلافهم . وعادت المسيحية الى الحياة عند عدد من البريطانيين الورعين بشكل لم يألفوه فى أى جو غربى . وانهارت أمامهم جميع المكائد والمناقشات العقائدية ، وتأثير الايقونات

والوسطاء من البشر وتهاوت صفوف المعابد والكنائس أمام هذا السقف السماوى الواسع الذى يمتد فوق الصحراء . وعندما عاد هؤلاء الناس الى وطنهم فى الغرب ، بدا لهم المحتوى الغربى بما فيه من زخرف للنصرانية ، أشبه مايكون بالمركز المهجور النائى ، أو بمحاولة التفاهم الشامل مع الحقيقة المركزة ، الصارخة فى البلاد التى نشأت فيها النصرانية . وبات من الاسهل على الجندى المسيحى أو الحاكم الغربى فى الصحراء ، أن يتفهم الاسلام وأن ينحى جانبا جميع الحزازات الموروثة البالية التى توارثتها دنيا النصرانية تجاه أضدادها .

وساد الاعتقاد بالاضافة الى كل ذلك بأن أهل الصحراء يتمتعون بقوة ومزايا خاصة يحتاجون اليها ويمكن تطبيقها فى كل مكان ، فهم نبلاء أصليون ينحدرون من القبائل العربية العريقة ، ويتفاخر شيوخهم القبليون بأنسابهم . وبدا نبلاء البدو للكثيرين من الغربيين الذين تولوا دراستهم فى سنوات التدهور النهائى للامبراطورية العثمانية بمظهر « العرب الاقحاح الوحيدين فى الشرق الأوسط » ، وأنهم هم الذين يعتزون بالحفاظ على تقاليدهم خلافا لابناء المدن الذين اختلطت دماؤهم وأنسابهم مع الاتراك وغيرهم من الاقوام الاخرى .

وعندما تطلبت دواعى السوقية (الاستراتيجية) ودوافع السياسة فى خضم الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، واقتضت مطالب السيادة والسلطان ، أن يقوم الاتصال مع أبناء الصحراء ، وأن تضمن مساعدتهم ، اتفق بحث البريطانيين عن « الارستقراطية الفعالة العاملة » مع انجذابهم نحو هذا المحيط البدوى . ووجدت أفكار هذه المجموعة العقلية من ذوى النفوذ ، من عسكريين وجوابين للصحراء فى الشرق الاوسط ، تأثيرا لها لدى أنصارهم فى الغرب ، وأثرت تأثيرا حاسما فى تقرير السياسات العامة (١) .

وقد بدأت فكرة بدو الصحراء تتثبت فى أفكار الغربيين وتنمو منذ أمد ما . ولكنها ما لبثت أن تقوت الى حد طاغ نتيجة الاسطورة التى حيكت حول رجل قدر له أن يبرز فى الحرب العالمية الأولى وهو تى . اى . لورنس . ولا ريب فى أن الأثر الضخم الذى تركته كتابات هذا الرجل عند المثقفين الغربيين ، والشعبية المثيرة التى رافقت نشر مغامراته

---

(١) لو عاد المرء الى التاريخ العربى الحديث ابان الحرب العالمية الاولى وبعدها ، لوجد ان الاستعمار أراد أن يخلق من بعض الشخصيات البدوية فى كل مكان وضع أقدامه فيه طبقة ارستقراطية جديدة يربط مصالحها الى مصالحه ويستخدمها أداة لتحقيق أغراضه فى المنطقة . وقد عمل أعمدة الاستعمار البريطانى فى المنطقة من أمثال فيلبى ولورنس وبرسى كوكس وجرترودبل وبيك باشا وجلوب وغيرهم كثر على خلق هذه الطبقة واضفاء العروش والتيجان ومظاهر الزعامة القبلية عليها . لاستخدامهم كما أثبتت أحداث التاريخ العربى الحديث فى ضمان مصالحه ورعايتها . المعرب

عند الرأى العام الغربى ، قد تركا تأثيرات ثقافية متناهية الاهمية فى السياسة الغربية فى الوطن العربى فى غضون الاربعين سنة الماضية .

ولم تقتصر الشعبية الجماهيرية التى كسبها لورنس وبدو الصحراء الذى اشتهر هو بأنه « ملكهم غير المتوج » على القارة الأوربية بل تعدتها الى أمريكا ، حيث باتت شخصية الشيخ العربى صورة ذائعة الانتشار وقد رأينا الحكومة الامريكية توفد رسميا لويل توماس (الكبير) المحاضر فى جامعة برنستون ، فى عام ١٩١٧ الى أوربا ليكتب تاريخا عن الحرب العالمية بطريقة تغرى الشعب الامريكى بدخولها وألقى توماس نظرة على خنادق الجبهة الغربية التى تنتشر فوقها الجثث وتملؤها الوحول ، فقرر ان ليس فى هذه الجبهة من الرومانطيقية والسحر ما يدعو الى بعث الحماسة فى نفوس الامريكيين لدخول الحرب وانتقل من أوربا بمساعدة جون بوخان من رجال مصلحة الاستعلامات التى انشئت حديثا فى لندن ، الى جبهة الفريق (الجنرال) اللنبى فى الشرق ، علّه يعثر فيها على مادة أفضل . وتعرف فى شهر فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ ، فى مدينة القدس التى كان جيش اللنبى قد احتلها قبل برهة وجيزة ، الى ضابط بريطانى شاب يرتدى ملابس البدو الزاهية ، ويدعى لورانس « البلاد العربية » . وأدرك لويل توماس فورا ، انه قد التقى باحدى الشخصيات النادرة فى التاريخ ومضى لتوه يعمل فى جمع المعلومات والتقاط الصور عن الثورة العربية التى كان لورنس على اتصال وثيق بها .

ولكن الهدنة ما لبثت أن عقدت قبل أن يحقق لويل توماس ما يتوخاه من نتائج من رحلته . وما كاد يعود الى نيويورك ، حتى شرع فى التاسع من مارس (آذار) عام ١٩١٩ يفتتح موسم المحاضرات التصويرية بسلسلة أطلق عليها اسم « مع لورنس فى بلاد العرب » ولم تكن هذه المحاضرات الا مجموعة من الصور التى تمثل انطلاق الجياد والابل فى طرادها والمحجبات من النساء ، والاماكن المقدسة ، والشيوخ الذين لا يحصر عددهم من زعماء البادية . وما لبثت هذه المحاضرات ان انتقلت الى حدائق ميدان ماديسون لتكون أوسع انتشارا . وأجرى الرجل عقودا تمتد مدة عام كامل ، يطوف فيه بصوره ومحاضراته ربوع أمريكا كلها ، ولكن الشريط ما لبث أن نقل برجاء خاص الى لندن ، ليعرض فى شهر أغسطس (آب) من عام ١٩١٩ فى حدائق كوفنت أمام حشد ضخم من النظارة فى ليلة الافتتاح . وقد أضفى على الافتتاح جو آخر من التزويق بعرض أوبرا عن النيل ورقصة الاقنعة السبعة ، وظهور مغن أيرلندى يحاول محاكاة الاذان الاسلامى داعيا الى الصلاة . وعمت الحماسة العاصمة البريطانية ، وانتقلت المحاضرة المصورة من جديد الى البرت هول . وحث لويد جورج — رئيس وزراء بريطانيا آنذاك — لويل توماس على الانتقال بمحاضراته فى جولة يطوف بها العالم الناطق بالانكليزية وقد لبى الكاتب الامريكى رغبة لويد جورج بعد نحو من ستة شهور . وكان أكثر من مليون انسان قد شاهدوا فى

غضون ذلك هذا الشريط التصويرى فى لندن . وقد عرض نحوا من ألفى مرة فى أمريكا وبريطانيا واستراليا وغيرها من الاماكن ، ورافقت هذه العروض حملات صحفية واسعة النطاق فى الصحف اليومية والمجلات . وبيع من كتاب توماس الذى حمل نفس الاسم أكثر من مائتى ألف نسخة من طبعته الانكليزية وحدها ، وهو رقم خيالى بالنسبة الى حقبة العشرين .

ولم يحظ العرب قطعا قبل هذا التاريخ أو بعده . بمثل هذه الدعاية الخيالية الكبيرة فى العالم الغربى . وأدى تمثيل رواية « الشيخ » لرودولف فالنتينو والصور التى جمعها توماس عن لورنس وعن الغرب ، الى ظهور البلاد العربية على الخريطة : وأثار فيلم « الشيخ » استجابة ضخمة فى العصر الذى تلا الحرب والذى تميز بالميل الى المغامرات المتهورة ، والتعطش الى الأجواء الرومانطيقية وحياة المجازفة ، والقلق الخطير الناجم عن ازدحام العصر الآلى . ولم يكن هناك من يرغب فى أن يذكر بطراز الفروسية الذى عرفته الجبهة الغربية . ولا ريب فى أن الناس فى بريطانيا كانوا أكثر تأثرا برؤية الشيخ القبلى الجرىء يندفع من الصحراء ليخطف فتاة أوربية جميلة ، ثم يقوم بعد ذلك ضابط أوربى أكثر شجاعة بانقاذها منه . وقد تم اخضاع الغرب الكبير فى أمريكا ، ليألف الناس فيه المساحات الشاسعة والمغامرات ، وساعد الشيخ العربى فى ملء فراغ معين . واجتازت الصورة المحيط الاطلسى ، مزودة الجماعات المثقفة على جانبى المحيط ، بالأمور التى كان يفتقدها .

ولكن هل كانت الصورة التى انطبعت فى العقل الغربى الحديث هى بالفعل صورة الوطن العربى ؟ أرى لزاما أن نبقى على هذا السؤال بلا رد مدة أطول مع الاكتفاء بأن نلاحظ أن الصورة التى انطبعت فى عقول جماهير الشعب ، كانت تمثل بصورة طاغية الانسان العربى على أنه رجل الصحراء، الذى لا يملك مسكنا ثابتا مستقرا ، والذى يصنع لنفسه الشريعة التى يريدها ؛ والتى تكون فى جوهرها ، كراهية المجتمعات المدنية المنظمة والمحكومة حكما جماعيا ، والمسترخية العيش . يضاف الى هذا ، ولعل هذا هو الاهم انه كان هناك نوع من الرونق الايجابى لهذه الصورة وهو عنصر الاعجاب الرومانطيقى بصعاليك الصحراء .

ونمت الى جانب هذه الصورة الشائعة ، صورة أخرى أكثر تعقيدا عند أولئك الذين يتمتعون بمزيد من الثقافة والميل الى المعرفة . وأضحت كتابات لورنس نفسها بكل ما فيها من عذوبة الاسلوب والوصف الرائع للصحراء حافزا حقيقيا للآخرين . وشرع الكثيرون فى اخراج الكتب عن الصحراء العربية وعن عرب الصحراء أيضا ، متناولة الكشف عن مجاهلها، وعن طبيعتها ونباتاتها وحيواناتها وآثارها ، وذكرياتها الحربية ، على أن لورنس ظل المرجع الذى لا يبارى أو يجارى فى الحديث عن العرب، أو لم يطلق عليه كتاب « من هو ؟ » لقب « أمير الجزيرة العربية » ؟

وهكذا لعبت آراؤه عن الشخصية العربية وعن نوازعهاالسياسية

دورا كبيرا فى تشكيل عقل الغربى المثقف تشكيلا سرعان ما برز فى السياسة الغربية الرسمية • فلقد ذكر لنا لورنس أن فى الامكان أن يقف العرب من أية فكرة موقفا متأرجحا كالخيط المتذبذب، الى أن تكون الفكرة قد اختفت ويكون العمل قد انتهى الى حطام •• وهكذا يشبه العرب الماء فى عدم استقراره ورجرجته (١) وخلقت كتب لورنس وغيره من البريطانيين الذين عادوا لتوهم من الصحراء . صورة مبهمة عن العقلية العربية تقوم على أساس الشكل الذى رسموه لشخصية القبيلة العربية . ولعل من النتائج الحيوية الأخرى ، التى انبثقت عن هذه الكتب ، الاعتقاد الشامل الذى ساد الغرب «بأن العرب قد يتحدثون كثيرا عن الوحدة ولكنهم لن يتولوا تحقيقها أبدا » . أو لم يقل لورنس نفسه أن « الوحدة العربية هى فكرة انسان مجنون .. وان ما أراه من سبيل ، هو قيام مجموعة من الدول الصغيرة (٢) وهكذا كانت الطبيعة الكاملة للمجتمع البدوى القبلى ، متناقضة مع الفكرة الغربية عن الوحدة السياسية .

وهكذا كان من الطبيعى بالنسبة الى الجمهور البريطانى والى المثقفين وساسة الفترة التى تلت نهاية الحرب العالمية الاولى ، أن السياسة البريطانية فى الوطن العربى يجب أن ترتكز على نبلاء الصحراء وعلى الشخصيات الثرية والمحافظة والنبيلة فى المدن ، طالما أن هؤلاء على استعداد للتعاون مع بريطانيا ومع ساستها • وقد صح هذا القول بالنسبة الى السياسة البريطانية فى الجنوب والخليج العربيين ، وبات الآن صحيحا بالنسبة الى امارة عبد الله فى شرق الاردن والى مملكة العراق الجديدة • وعلى القارىء أن لا يظن أن نبلاء الصحراء هؤلاء كانوا خانعين مستكينين دائما ، فعلى النقيض من ذلك كان أعرابهم الانوف عن شكل من أشكال الوطنية العربية الذى تحترمه السلطات البريطانية بسبب ما فيه من جذور ارستقراطية وتاريخية ، جزءا من العلاقة القائمة بينهم وبين هذه السلطات (٣) •

---

(١) كتاب لورنس « الثورة فى الصحراء » نيويورك •

(٢) رسالة لورنس الى مؤرخ حياته ليدل هارت ـ فابر ـ لندن ١٩٣٨ • لا يقصد مؤلف هذا الكتاب أن يقول ان لورنس لم يكن يعرف شيئا أبدا عن العرب ولكن مايود قوله هو أن هذه المعـــــرفة قد بولغ فى تقديرها تمام المبالغة • فلقد ثبت خطل الكثير من أحكامه وتوصياته • ولكن الحالة التى أحاطت به، جعلت آراءه فى كثير من المشاكل الحاسمة وفى لحظات حرجة فى المفاوضات التى تلت عام ١٩١٨ تتخذ شكلا باتا قاطعا • وقد سيطر على رجال من أمثال ونستون تشرشل الذى أشركه فى رسم خريطة الشرق الاوسط على الورق . المؤلف

(٣) لم تكن مواقف المعارضـــــة التى كان يقفها هؤلاء العملاء ، متظاهرين بالوطنية الا تصنعا وزيفا لخداع الجماهير العربية ، باتفاق مع السلطات البريطانية الحاكمة .

ويبدو من قول المؤلف انه اراد الاشارة الى هذه الحقيقة دون ايضاحها ايضاحا كافيا • ـ المعرب

وكان فيلق الموظفين البريطانيين من عسكريين ودبلوماسيين ومستشارين مدنيين ، الذين يمثلون بريطانيا فى الشرق الاوسط ، يعربون دائما عن مدى استهواء الصحراء البدوية لهم • وكانت الكتب التى يرجعون اليهـا هى من طراز ما ألفه دوتى وهوجارت ولورنس وجروتروودبل • وعززت التجارب الشخصية التى مروا بها سواء أكانوا فى الوظيفة ، أم خارجها فى أجازاتهم المحلية القصيرة ، هذا الاستهواء الذى تبعثه الصـــحراء فى نفوسهم ، فلقد بان من شروط البروز فى المجتمع ، أن يكون المرء قد قضى وقتا فى الصحراء ، وأن يكون قد تعرف الى البدو • وهل يمكن للمدينة العربية التى توفر لهم بما فيها من قذارات ودسائس وأمراض ومثيرات وضيعة يومية ، تعرض لهـــم ، شيئا يعوضهم عن اغراءات البادية ؟ لقد كان ما يتميز به عمال المدن العربية من جهل وفقر ، وما تسعى اليه طبقتها التجارية الوسطى الحديثة النعمة من اقتباس للحياة الغربية ، ومظاهر السخط التى تصدر عن الموظفين من ذوى الياقات «المنشاة» والميول التى يبديها الاساتذة والمعلمون لتذكير البريطانيين بالمبادىء التى يبشرون بها فى بلادهم ويتناسونها فى الشرق الأوسط ، والحركات القلقة التى تقوم بها الأجيال الجديدة من الطلاب ، كلها عوامل تؤلف الجانب السلبى من صورة الشرق الاوسط وحياته التى تدفع هؤلاء البريطانيين الى التقرب من الصحراء

وهكذا بات فى وسعنا الآن أن نرسم خطوط الصورة التى كانت ماثلة فى أذهان الغربيين عن العرب ، وأن نشير فورا الى وجود « ازدواجية فى الافكار التى تجمع بين روعة الصحراء وروعة شيوخها فى عباءاتهم الفضفاضة وعقولهم الذهبية المقصبة وكوفياتهم الحريرية البيضاء ، وبين صورة العرب فى المدن التى تتمثل فى القذارة والحطة والخديعة (١) وكتب بريطانى بارز آخر شهد هذه العملية كلها على النحو التالى :

« كان هناك ميل واضح الى اظهار المزيد من الحب والعطف للشيوخ القبليين الرائعى الصورة ، الساحرى الهيئات ، والى ممثلى الارياف وكبرائها، دون العرب المثقفين ثقافة غربيـــــة ، المتميزين بالقلق والسخط من أبناء المدن ، واذا كان ثمة من اضـــطرابات فان مصدرها هؤلاء الناس المثقفون ثقافة غربية » (٢) .

ونصل الآن الى سؤال واضح .. ترى ما هى الحقيقة ؟ التقى فى عام ١٩٥٥ ضابط بحرى أمريكى مثقف ، بضابط مصرى فى مكان ما فى ايطاليا • وعندما علم الضابط الامريكى أن صديقه يعيش فى القاهرة ، راح يوجه اليه السؤال التالى بصورة فى منتهى الجد قائلا : « آه قل لى ، هل أقمت خيمتك على مقربة من النيل ؟ وهل يبعد هذا السؤال كثيرا عن الصورة التى حملها الغرب عن عالم الصحراء العربية ؟ آننا فى حاجـــة الى الرد على هـــذا

---

(١) كراكتاكوس ـ كتاب « ثورة العراق » لندن ١٩٥٩ • وقد نقله معرب هذا الكتاب الى العربية •

(٢) ميشيل ايونيدس فى حديثه الاذاعى « التفاهم مع العـــرب » ٧ أغسطس ١٩٥٨ ـ لندن •

السؤال فى شكلين اثنين ، أولهما معرفة نسبة البدويين العرب ، وثانيهما درجة التحول الى حياة المدن ونسبته فى غضون الثلاثين عاما التى تلت عام ١٩١٨ والتى كانت صورة بدوى الصحراء ، مسيطرة سيطرة كلية على الغرب . وهذه بعض المعلومات الاساسية

« لم يكن فى مصر فى عام ١٩٢٧ أكثر من خمسمائة ألف من البدو من أنصاف المتحضرين يعيشون وسط شعب يتجاوز عدده أربعة عشر مليونا . وكان عدد سكان المدن يربو على نصف الرقم الكلى للسكان . وعندما حل عام ١٩٤٧ كان نحو من ثلاثة وعشرين فى المائة من مجموع السكان يعيشون فى عشرين مدينة ليس الا ، وكان عدد البدو قد هبط الى الخمسة والخمسين ألفا من مجموع التسعة عشر مليونا . وكان عدد سكان القاهرة فى عام ١٩٢٢ نحوا من ثمانمائة الف ثم ارتفع هذا الرقم فى عام ١٩٥٢ حتى بلغ ميلونين ولم تكن هناك « خيام تقوم الى جانب النيل » .

« وكان عدد أبناء القبائل الرحل فى سوريه ولبنان فى عام ١٩٢٢ نحوا من ثلثمائة وخمسين ألفا من مجموع سكان يربو على المليون . وكان ما يربو على الخمسة والعشرين فى المائة من الرقم الكلى ، يعيشون فى مدن دمشق وبيروت وحلب وطرابلس وحمص . ويبلغ عدد سكان سورية اليوم أربعة ملايين ونصف المليون وعدد سكان لبنان مليونا ونصف المليون . ويعيش نحو من مليونين من مجموع السكان فى البلدين فى عشر مدن رئيسية . ولا يعدو عدد البدو الآن اكثر من مائة وسبعين ألفا وارتفع عدد سكان دمشق من (١٨٨) ألفا الى (٣٠٣) آلاف وعدد سكان بيروت من (٩٥) ألفا الى « ٢٤٧ » ألفا » .

« وكان عدد البدو فى فلسطين فى عام ١٩٣١ لا يربو على الواحد والستين ألفا من مجموع السكان العرب البالغ عددهم تسعمائة ألف . وكان نحو من خمسة وعشرين فى المائة من مجموع السكان العرب من أهل المدن : أما البقية فتعيش اذا استثنينا البدو على العمل المستقر فى الحقول ومع ذلك فلقد كانت هناك فكرة مستقرة طيلة أيام الانتداب ، وتعمل الصهيونية على ترويجها ، بأن فلسطين ، أرض خالية تقريبا من السكان .

« وعندما اقتطع تشرشل ولورنس فى خريطة رسماها الى غطاء مائدة فى أحد مطاعم لندن ، شرق الاردن من الصحراء السورية ، كان عدد البدو فيها يبلغ نصف عدد السكان تقريبا . فلقد كان العدد الاجمالى للسكان لايتجاوز الثلثمائة الف منهم (٥٤) الفا يعيشون فى المدن الصغيرة . ولكن عندما ضمت مملكة الاردن الجديدة الى أرضها فى عام ١٩٤٩ ما تبقى فى فلسطين العربية ، تبدلت الصورة الفعلية لترتيب السكان فى البلاد على الرغم من عدم وقوع أى تبدل فى نسبة البدو فى الضفة الغربية . وبات التكوين الاجتماعى للبلاد على النحو التالى (٤٥٠) الفا يسكنون المدن و (٣٨٥) ألفا من أهل القرى المتحضرين و (٤٧٠) الفا من اللاجئين ومعظمهم من أهل المدن السابقين أو من الفلاحين المستقرين و (٦٥) الفا من البدو وأشباه الرحل . وارتفع عدد سكان عمان من عشرين ألفا فى عام ١٩٢٢ الى مائتى ألف » ..

« وكان عدد سكان العراق عند بدء هذه الفترة يشتمل على نسبة كبيرة من أبناء القبائل يعيشون بصورة جماعية على أراضى القبيلة المشاع . وكان عدد سكان بغداد (١٤٥) الفا من مجموع ميلونى نسمة يعيشون فى العراق كله . وبلغ عدد سكان بغداد فى عام ١٩٥٢ ، نحوا من (٤٧٠) الفا بينما ارتفع عدد سكان العراق كله الى الخمسة ملايين منهم ثمانية فى المائة فقط من البدو الرحل واثنان وعشرون فى المائة من أهل المدن ، واثنان وعشرون فى المائة من الفلاحين وثمانية وأربعون من البدو المستقرين الذين يعملون فى الزراعة » .

هذه هى البلاد والكيانات السياسية الجديدة الخلق ، التى تركزت عليها السياسة الغربية ، والصورة الغربية العامة عن العرب طيلة السنوات الثلاثين التى انقضت بين تسويات الصلح بين عامى ١٩١٩ و١٩٢٢ ، وبين ثورة الجيل العربى الجديد بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٢ . ولا ريب فى أن الارقام التى سردناها تتحدث عن نفسها (١) وهكذا كانت صورة بدوى الصحراء خيالا خطرا خادعا حتى فى عام ١٩٢٢ . ولكنها مالبثت أن انقلبت فى عام ١٩٥٢ الى سراب كامل قوامه سوء الفهم الى درجة استثنائية . ويعيش اليوم فى الشرق الاوسط العربى أى بين مصر والعراق وبين شمال سورية وعدن ، نحو من اربعين مليونا . ويعيش نحو من ثمانية ملايين من هذا العدد الاجمالى فى المدن والبلدان الكبيرة وحدها . وليس فى المنطقة كلها على الرغم من شمولها الجزيرة العربية أيضا ، أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون من البدو الرحل . أو انصاف الرحل . ولكن على الرغم من هذه الحقيقة التى تعززها الارقام ، مازالت الصور الغربية التى تمثل السياسات الغربية ، تعرض الصحراء ، والبدو العرب ، وأشجار النخيل الغربية التى تمثل الواحات ، وقد ظهر فيهما شيخ عربى فى سيارته الكاديلاك ليمثل على سبيل الافتراض صورة « الف ليلة وليلة » فى الوطن العربى . وكثيرا ما تظهر هذه الصورة الساخرة أيضا وجه خروشوف وهو يطل من وراء شجرة نخيل منعزلة .

وليس ثمة الا القليل من الامثلة المشابهة لهذه من مفاهيم الغرب عن أقوام وجماعات ثقافية أخرى ، حيث تتعرض هذه المفاهيم لاعادة النظر جذريا وبصورة مستمرة فى الصحافة والمدارس والحلقات السياسية . وقد قمت ذات مرة فى أحد أعياد الميلاد الاخيرة بجولة دراسية طفت فيها بمكتبات لندن ، للبحث عن الكتب الجديدة للاطفال فى مختلف الاعمار . ورأيت فى طوافى هذا ، الصورة العربية التى تلقن حتى الآن لجيل غربى جديد ، والتى اكتفى هنا بسرد مثلين معبرين كل التعبير عنها ، أما المثل الاول ففى صورة كتاب قصصى .

« واندفع العرب يصرخون صراخا حادا ، ثم كبحوا جماح جيادهم فأوقفوها بصورة مفاجئة . وترجل رجل طويل معقوف الانف عن جواده ،

---

(١) استندت فى هذه الارقام الى الاحصاءات الرسمية : والى تقارير اللجان الملكية لفلسطين وكتاب الدكتور محمد عوض عن « الجماعات القبلية فى الشرق الاوسط » . المؤلف

وقال بعد أن حيا تحية هازئة بانكليزية سيئة ·· ان الشيخ الرازى تحت تصرفك ·· وعليك أن تأتى معنا ·· » (١)

أما المثل الثانى فيعكس بصورة لاشك فيها مشكلة خطيرة تواجه المشرف على تأليف الكتب المدرسية أو الموجزات الاعلامية . فهو يودأن يرسم نماذج مميزة من الشخصيات البشرية وطرز السلوك وأشكال المحيطات فى كل منطقة من مناطق العالم · أنه لا يريد أن يضلل القارىء الطفل ، ولكن على الرغم من ذلك ومن هذه الرغبة التى يدعيها ، فان اطفال الغرب من صبيان وفتيات مازالوا يلقنون عن الوطن العربى على النحو التالى :

يعيش عبد الناصر فى البلاد العربية وهى بلاد حارة جافة لاينزل المطر فيها الا لماما . ومعظم البلاد العربية أرض صحراوية .. والقبيلة التى ينتمى اليها عبد الناصر ، من البدو الرحل الذين لا يستقرون فى مكان واحد ، وانما يتنقلون فى الصحراء بحثا عن المرعى والماء لقطعان أغنامهم وماعزهم وابلهم ·· ويستقل عبد الناصر نفسه الجمل فى تنقلاته » (٢) ·

وأخيرا هناك عنصر مهم آخر يتمثل فى الصورة الثقافية المركبة التى نحملها للعرب ، والتى أرى أنها جديرة بالملاحظة، واعنى بها مواقفنا من مصر . لقد بدأت صلات العرب الحديثة مع الشرق الاوسط من رسمية ومالية وأثرية وتربوية وسياحية ، بمصر قبل غيرها من أجزاء هذا الشرق ، وكانت أكثرها شمولا واتساعا · ولقد تقرب الغرب من مصر ، وهو يحمل فى عقله الجماعى ، عدة مفاهيم ثابتة الرسوخ · فلقد كان من الراسخ فى الثقافة الغربية أن المصريين يؤلفون عنصرا من أقدم الاجناس البشرية المنظمة فى العالم ، وظل مفهوم «الجنس» هذا ، الذى يقرر الطبيعه الثقافية والسياسية لاى بلد من البلاد أو شعب من الشعوب ، قويا بالنسبة الى فكرة الغرب عن مصر ، حتى انقضاء أمد طويل من القرن العشرين . وليس ثمة شك فى أن رفض العلم الحديث ، ومفاهيم علم الاجناس البشرية، بالاضافة الى المفاهيم العنصرية ، مازال يتسلط على الكثير من وجهات نظرنا عن العالم ·

وكنتيجة لهذه المفاهيم ، كانت مصر تعنى للغرب حضارة أقدم عهدا بكثير من حضارة العرب ، وبات من المتعذر والحالة هذه على الغربى أن يفهم « تعريب » مصر الذى وقع قبل أكثر من ألف عام أى منذ أيام الفتح العربى لها فى عام ٦٤٠ ميلادية، والذى استمر حتى اليوم. ولقد كان معظم أبناء الطبقة المختارة التى ظلت أوربا والغرب على اتصال بها حتى عام ١٨٨٢ ، من الاتراك ، الذين تأثروا بطرق الحضارة الاوربية

---

(١) قصة «واحة الزيت» فى كتاب الديلى ميل السنوى للأطفال ـ لندن ١٩٥٨.

(٢) كتاب «نظرة الى الاطفال الآخرين » لغادسبى ـ لندن ١٩٥٨.

الجديدة · وكانت الحركة الوطنية التى واجهتها بريطانيا فى مصر بين عامى ١٨٨٢ و ١٩٥٢ ، مصرية الطابع الى حد كبير كما سبق لنا وأسلفنا فى هذا الحديث · ونمت أعراف سياسية وادارية كاملة ، حول النظرية القائلة بأن « المصريين » يؤلفون عنصرا بشريا قائما بذاته ، يختلف كل الاختلاف عن شعب الوطن العربى · وعلى هذا الاساس كانت دوائر السياسة البريطانية وأجهزتها التى تعنى بمصر غير الدوائر والاجهزة التى تعنى بالاجزاء الاخرى من الشرق العربى،وكانت طبائع الرجال الذين يتولون الاشراف على هذه الدوائر والاجهزة وشخصياتهم مختلفة كل الاختلاف بالنسبة الى هذين الجزئين من الشرق الاوسط · وبالاختصار كان من المستحيل تصور وجود رجل كلورنس ينظم قوة ثورية من الفلاحين المصريين كما كان من المؤكد ، أن شخصا مثل « جلوب » ، لا يمكن أن يوجد ليحب المصريين ·

ولم يكن هذا الانقسام المتزمت مجرد ثمرة من ثمار العصر · فهناك فى أعماق العقل الباطن للثقافة الغربية تحيز خاص ضد « المصريين »، ونحن نستمد هذا التحيز من تلاواتنا الكتاب المقدس فى مدارس الاحد ، ولا ريب فى أن دوره فى مواقف الدول الغربية من نزاع مصر الحديثة واسرائيل الجديدة ، يؤلف موضوعا جديرا بالدرس · وعندما عادت أوربا الى اكتشاف مصر من جديد اكتسب هذا الغرض الجوهرى مزيدا من القوة والتعزيز ووجد أسلافنا من رجال القرن التاسع عشر ـ وقد تشبعوا بروح طبيعية من الكبرياء والاعتزاز بمنجزات حضارتنا الغربية ـ فى مصر بلدا غارقا فى التدهور والتأخر ، ولا تضم الا فئة قليلة مختارة، تثير تصرفاتها وثقافتها المختلطة ، أعصاب هؤلاء الاسلاف ، وتضللهم · وظل منذ ذلك الحين سؤال حائر فيه معنى الزراية ، يسيطر على عقولنا ، وهو كيف يمكن لهذا الشعب الذى كان موهوبا فى يوم ماالى درجة عظيمة أن يهبط الى هذا الدرك ؟ أولا يمكن أن يعزى ذلك الى عيب متوارث فى أصول هذا العنصر ؟

وظلت العلاقات المصرية ـ الاوربية منذ ذلك الحين ، تمثل أكثر العلاقات التى ظهرت مع نشوء الاستعمار والسياسات المالية توترا ، وآثارة وازعاجا · وظلت مصر منذ هبوط نابليون أرضها ، وطيلة عهد محمد على الحديث النعمة بالملك ، وأيام عرابى الرجل العصامى ، وطيلة أيام الاحتلال المزعجة ، مصدر اثارة لبريطانيا وفرنسا والغرب عامة · وكان من العسير بصورة خاصة ، بل من المستحيل على معظم البريطانيين الذين يعملون فى مصر أن يقنعوا انفسهم بأنهم يؤدون عملا يقوم علي الحب أو على نظرية الايثار الاستعمارية الليبرالية .واقامت تجارب السياسة البريطانية فى مصر القائمة على أساس فرض القوة بصورة رئيسية ، شيئا من الاجتهاد النفسى أما فى الشرق والمغرب العربيين فان الاحلام الخاصة باعادة بعث التاريخ العربى والمبادىء الظاهرة لانظمة الانتداب ، تمكنت من أن تشجع وجود نظرية العمل الانسانى القائم على الحب ·· ولقد شهدت شوارع لندن وأدنبره فى عام ١٩٥٥ ، جوقة موسيقية من البدو الاردنيين تعزف آنغامها

وهى تمر فيهـا ، فتستثير فى نفوس السـامعين كل الذكريات المتعلقـة بلورنس ، ولم يكن هناك من يتصور ، أن مثل هذه الحفاوة ، قد تقابل بها فرقة مصرية مماثلة فى بريطانيا فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٨٢ و١٩٣٦، وهى الفترة التى كانت بريطانيـا تفرض فيهـا على مصر حـكما شـبه استعمارى . وكان صورة أمير شاب من أمراء « الاسرة المالكة العربية» وهو يدخل كلية هارو أو كلية ساند هرست لاول مرة ، تستهـوى قراء مجلة « لنـدن ايلستريتد نيوز » ، بينمـا كانت ثمـار التربيـة المصرية تستفزهم ، وكان فاروق نفسه يورى بتصرفاته هذا الاسـتفزاز ، اذ أن القليلـين فى الغرب هم الذين كانوا يعـرفون أن فاروق بعيـد عن مصر بعد الارض عن السماء .

وعنـدما نعرض الازمات وألوان الصراع التى وقعت فى السـنوات الاخيرة ، لا نرى داعيا مطلقـا للمبالغـة فى أثر هذا الـكره العميق عند الغرب للمصريين أو أثر هذا الفصل من الغرب بين مصر والعرب ، اذ أن الكره والفصل قائمان ولا يحتاجان الى مبالغة . ولم تتح لهذا البلد الذى يعتبر أكبر البلاد العربية وأكثرها تقدما ، ومحور اندفاعهـا وانطلاقها ، والذى كان أول ما ثار منها وجنح الى الاصـلاح ، وانطلق صـوته عاليا يعرض ميول العرب الى الحياد فى الحرب الباردة ــ الفرصـة ليتفهمـه العقل الغربى تفهما واقعيا صحيحـا . ولقد رأينا كاتبا بريطانيا لامعا يصـف الثقافة المصرية بأنها « وليد هجين قد أجهض » كما رأينا صحيفة « لايف » الواسـعة الانتشار على صعيد عالمى تصف « عبير القاهرة » فى عام ١٩٥٨ بأنه عطر مزيج من الياسمين والعرق وقاتل الذباب » ، يختلط مع الغبـار الذى عاش أكثر من خمسـة آلاف عام (١) . واستند « جلوب باشـا » حرفيا الى أقوال التوارة لكى يقيم الدليل على أنه « لا يمكن الركون الى المصريين » (٢) ، كما أدلت المنظمات الصهيونية العـالمية بدلوها بين الدلاء فى هذه الحملة على مصر ، متباكية على ما ارتكبه الفراعنة القدماء من مظالم مـع العبرانيين . وقد وجدت كل هذه الحملات أرضا خصبة فى هذه البلاد .

اذن فكيف يمكن لنا تلخيص جميع هذه «الافكار والآراء والصور» التى تجمعت وتراكمت ، وتشبع بها عقل الغربى وأثرت على ردود فعـله تجاه الوطن العربى الحديث ؟ ان هذه الصورة كغيرها من الصورة المماثلة

---

(١) عدد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٨ فى مجلة لايف ــ مقال لجى . بيرك .

(٢) من كتاب جلوب « جندى مع العرب » وهناك فقرات مماثلة فى غرابتها وخيالها عن الطبيعة المصرية فى كتاب « بريطانيا والعرب » ولا ريب فى أن العدد الكبير من القراء الذين قرأوا رواية نيفل شوت عن المعركة الذرية الهائلة فى المستقبل والتى نشرها بعنوان « على الشاطىء فى عام ١٩٥٧ » قد هزوا رءوسهم موافقين عندما وجـدوا أن الكاتب قد صور المصريين لا الروس على انهم الذين سيلقون القنابل الذرية على واشنطن ولندن .

المؤلف .

كثيرة التعقيد ، وتنطوى على العديد من المتناقضات . فقـد يمسى أحد الاحداث عصبا ثقافيا معينا ، بينما قد يدفع حدث آخر ، عصبا يائسـا ثانيا الى القفز والوثوب . ولكن فى وسعنا أن نشد العنـاصر الاساسية بعضها الى بعض ، فنتمكن بذلك من فهم الادوار التى لعبتهـا فى تاريخ الشرق الاوسط الحديث ... وهذه هى ..

١ ـ الخوف من المسلمين :

ظهر هذا الخوف أول ما ظهر ، مع بدء الزحف العربى باتجاه أوربا فى عهد الفتوحات العربية ، ثم ما لبث أن تعزز باجتياح الاتراك لقسـم من أوربا ، اذ أن الاتراك والعرب يجتمعون فى اسلاميتهم . وتأصل فى عقول الغربيين منذ ذلك التـاريخ خوف عميق الجذور فى أن يقـوم تحد جديد لأوربا ينطلق من الشرق الاوسط . وعلى ضوء هذه الحقيقة رأينا مجله « التايم » الامريكية ، تكتب الى قرائها ابان أزمة السويس فى عام ١٩٥٦ ما يلى :

« انطلق جيش مدهش ، تحفزه قوى الاسلام الدافعة ، هادرا من الجزيرة العربية ... فلم يتوقف الا على مقربة من نهر اللوار فى فرنسا على أيدى شارل مارتل . وتراجع المسلمون لينغمسوا فى حياة اللهو بين المسك والاماء ، ولتـدب المنازعات بينهم ، ولـكنهم ما لبثوا أن وحـدوا صفوفهم . وقد أثارت جنونهم الصلبان الحمراء تغزو بلادهم .. ليحطموا ثلاث موجات من الصليبيين .

« واحتل المسلمون القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ . وهم يصرخون هيا لاستباحة المدينة ، ثم اندفعوا يكتسحون كل ما أمامهم حتى وصـلوا الى فيينا . وتمكن الغرب أخيرا من رد المسلمين ، ولكنه لم يستطع طرد ذكريات ألف عام من الخوف والفزع » (١) .

٢ ـ مفاهيم ألف ليلة وليلة :

وهناك عنصر ثان فى صورتنا المركبة عن العرب ، وهـو الاعتقاد بأن المجتمع العربى أصيل فى استرخائه وكسله وفساده ، وانه : أى المجتمع مزيج من الترف البالغ والمـكر والخـداع والتصوف الممزوج بالقسـوة والفتيـات الراقصـات والتراجمة . وتعكس صورنا السـاخرة (الكاريكاتورية) وكتابات صحافتنا ، صورة من عقلنا الباطن عن الأمير العربى الخبيث ، الجـالس متربعـا فوق الارائك الحريرية ، وقد اتقـدت أصابعه بالخواتم الثمينة التى تحليهـا ، ووقف الى جانبه وزيره الاكبر يهمس فى أذنه بنبأ مؤامرة جديدة يحيكها ، بينما تتضاحك نساء حريمه لابسات الحرير الشفاف ، من حوله ، وقد احطن بنافورة داخل القـاعة

---

(١) عدد مجلة تايم فى ٢٠ آب عام ١٩٥٦ . ويبدو ان كاتب المقال نسى أن العرب عندما تراجعوا بعد معركة تور ؛ قد أقاموا مراكز حيوية جدا للدراسات والعلم ، لم يعرف العالم مثيلا لها من قبل ، ــ المعرب

ولكن هذه الصورة تؤلف مفارقه عجيبة ، مع صورة الزعيم العربى الحديث ، الذى يعيش حياة متزنة فى طهرها وخلوها من الفساد، والذى يحيا فى بيت عادى للغاية فى ضواحى عاصمته ، والتى رسمتها مجلة « لايف » اذ قالت ...

« وفى كل ليلة يجلس عبد الناصر فى غرفته معتزا بما حققه من انتصار ، ليحدد ما كان فى يوم ما مجرد حلم ، فى تعابير واضحة محدودة » .

٣ ـ شعب الصحراء :

من المعتقدات الشائعة فى الغرب ، أن العرب ، فى طراز معيشتهم شعب من شعوب الصحراء التى تتعهد الجمال وتعيش فى الخيام السوداء. وتتسلط عليها المنازعات القبلية الدامية . ولا ريب فى أن الاستنتاج العام المرتجل ، الذى يستخلص هذه الصورة الزائفة ، هو أن العرب أكثر من أى شعب افريقى ـ آسيوى آخر ، عاجزون عن طراز التنظيم الاجتماعى فى الحياة المدنية المستقرة وعن طراز السلوك الذى نعرفه عند الشعوب الحديثة و « الاليفه » وقد لا أبالغ ان قلت ، انه لو اشترك مائة شخص من الغربيين العاديين فى مسابقة للكلمات المترابطة ، وطلب اليهم أن يذكروا الكلمة المترابطة مع كلمة « رحل » ، لاجاب تسعون منهم على الأقل وفورا بكلمة « عرب » ، ولاستخدم الباقون منهم كلمة « لا يركن اليهم » . ويعتبر الغرب أن الخلافات بين العرب شىء غريزى أصيل .

٤ ـ العرب الطيبون :

وانبثقت على أى حال ، عن هذه الصورة القاتمة ، صورة فرعية أخرى ايجابية ولكنها مضللة ، وهى أن « العربى حقا » هو الذى ينتمى الى أهل الصحراء . وأدى البحث الآلى من المحافظين البريطانيين ومن الموظفين الذين قدر لهم أن يوجهوا السياسة البريطانية أو يمثلوها عن « الارستقراطية المحلية » الى استئثار الصحراء بميولهم ، وذلك لانها تمثل لهم هنا ، ماتمثله الجبال السامقة والمحيطات فى بلادهم ، مما أدى الى تعلقهم بالشيوخ والامراء . وبدا لهم هؤلاء فى صورة « العرب الطيبين » ، الذين يمكن الركون اليهم ، والذين يعتبرون أقرب الناس شبها بارستقراطية البلاد المأهولة .

٥ ـ العرب الاشرار :

يرى الغربيون ـ نتيجة ماذكرناه فى الفقرتين الثالثة والرابعة . وعلى ضوء الحقيقة الواقعة وهى أن معظم المتاعب التى واجهها الغرب انما نشأت بصورة طاغية عن المدن والبلدان الصغيرة ، فى العرب من سكان المدن ـ أناسا خطيرين ومتضعين ، متأثرين بتلك « الدهمانية » وذلك « الخداع » اللذين ربطتهما قرون من الحزازات والضغائن بأهل الشرق

وفى مثل هذا المنظر ، يكثر الغربيون من الحديث عن « البقشيش »، وعن « الدهماء » وعن « القذارات » وعن « سياسات الشارع » وهى أقوال ناشئة من ناحية عن أسوأ التجارب مع موانىء الشرق الاوسط ومدنه ومن ناحية أخرى عن المفارقة بين هذه المدن وبين ما يبدو فى الصحراء من نقاء سحرى .

وهكذا لم يكن الغرب ولا سيما البريطانيون منه أهلا لمعالجة نشوء الوطنية العربية الجمهورية فى المدن ، التى لم يكن لبدو الصحراء أى شأن يذكر فيها ، والتى كانت متعارضة مع الارستقراطية القديمة حتما .

« وهكذا ظهرت أمام العقل البريطانى ولاسيما أمام الجانب المحافظ منه ، نفس الفجوة من سوء التفهم للجيل الجديد من العرب ، وهى التى كانت قد ظهرت فيما مضى بين الجيل العربى القديم وبين جماهير شعبه » (١) .

٦ ـ مصر ليست عربية :

وهناك عامل أخير ولكنه ليس بأقل شأنا من العوامل الاخرى ، فى تأثيره على الطريقة التى عاملنا فيها الشرق الاوسط مؤخرا ، وهذا العامل هو ما يحس به الغرب من كراهية عميقة للمصريين والتشكيك بهم ، بالاضافة الى الاعتقاد السائد بأن مصر « ليست عربية » وأنها ليست جزءا من العالم المستعرب ، وأنها والحالة هذه ليست مؤهلة لان تتزعم الحركات السياسية فى الوطن العربى أو تفرض نفوذا فيه . وليست هناك عند جماهير البريطانيين من كلمة أكثر تعبيرا عن الكراهية والتشكيك اللذين يقابل بهما البريطانيون أى شعب غريب آخر من كلمة «مصرى» ، ولكن شريان البغضاء هذا ينساب عبر الثقافات الغربية عصورا طويلة ، وقد تعزز أخيرا ، ويا للسخرية . بما يوحى به النزاع بين مصر واسرائيل من ذكريات وارتباطات قديمة تعود الى أيام التوراة (٢) .

وانى لارى أن جميع هذه التأثيرات على الفكر الغربى قد ألفت أثرا فى منتهى التخريب والتدمير . ويشعر الساسة والمحررون وكتاب المقالات الصحفية ورسامو « الكاريكاتور » بالاغراء ليجعلوا من « العرب »

---

(١) مقالة ايونيدس ايفا « التفاهم مع العرب » .

(٢) يرجع حقد الاستعمار على مصر الى أسباب منها القديم ومنها الحديث ، فعلى صخرة مصر واتحادها مع الشام فى أيام صلاح الدين تحطمت أحلام الصليبيين المستعمرين فى احتلال الوطن العربى . وكان شعب مصر هو الذى ناهض الاستعمار الفرنسى فى عهد نابليون والاستعمار البريطانى فى عهد عرابى ، وما تبع ذلك من ثورات وبلغت أوجها فى ثورة مصر الكبرى عام ١٩٥٢ ، التى حطمت آخر ما تبقى للاستعمار من نفوذ فى أرضها ، والتى ألفت قلعة النضال العربى لتحرير الوطن العربى كله من ربقة الاستعمار وأعوانه من ممثلى الرجعية الخائنة . المعرب .

أو « المصريين » هدف سخطهم ووسائط سخرياتهم « المشوقة » ، وهو ما يظهر بوضوح فى معظم المقالات والصور الساخرة والكتب التى وضعت عن المنطقة فى السنوات الاخيرة . وبينما كانت صورنا عن العرب تؤلف سرابا خادعا يقوم بيننا وبين المنطقة التى تضم فى أطرافها الكثير من مصالحنا الحيوية ، فان هذه الصور نفسها هى التى جعلت من المنطقة المكان الحديث الذى ينظر اليه الغربيون من اتباع الفلسفة الشكية ، وهو التعبير الادبى عن عالم غربى يحس بالخطر من خسارة صداقة العرب فى عاصفة من السخرية الحمقاء ، المتكلفة . وعلينا الآن أن نتجه بأبصارنا الى هذه القصة الطويلة الملتوية .

- ٣ -

النظام القديم

١٩٢٢ – ١٩٥٢

«لقد استهل فصل جديد ، وافتتح طراز جديد للنضال لا ضد الاستعمار فحسب بل ضد أتباعه وأعوانه » .

من مقال « خواطر عراقية » – ١٩٥٨

***

« رأى الشبان بوضوح ، وأحسوا احساسا قويا بمدى ما تعيش فيه جماهير الشعب الوضيعة من تخلف ... وأدى تطلعهم الى الاصلاح الاجتماعى ، الى نشوب صراع داخلى بينهم وبين أبناء الجيل الذى سبقهم من المحافظين » .

ميشيل ايونيدس ١٩٥٨

***

تطور فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، نظام جديد شمل النواحى السياسية والدبلوماسية والاجتماعية – الاقتصادية ، فى كل من مصر ولبنان وسورية وشرق الاردن والعراق . ولكن هذا النظام ما لبث أن شرع فى الانهيار بعد عام ١٩٤٨ ، وأتت عليه ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ . ولما كانت سياسات الدول الغربية قد بنيت على أسس هذا النظام ، فقد شرعت هى أيضا فى الانهيار من جراء تهاوى الأسس التى قامت عليها . ويمكن تلخيص السبب باختصار ، فى أن جيلا فتيا جديدا كان قد بدأ ينضج تحت سطح الشرق الأوسط بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ . وان هذا الجيل بدأ يحاول تحطيم القمقم الذى يجد نفسه حبيسا فيه ، باصرار غاضب ، نافد الصبر ، للخلاص من كل ما انطوى عليه « النظام القديم » من مضامين .

ولكن ما هى المضامين التى انطوى عليها ذلك النظام ؟ لقد ظهرت عدة كتب ومراجع قيمة . أرخت بتفصيل واسهاب الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ . وليس من هدف هذا الكتاب أن يتناول تاريخ هذه الفترة . فلقد بات أكثر أهمية لنا أن نرى فى ذلك النظام القديم القاعدة العقلية والعاطفية التى بنيت عليها الحركة الوطنية التى تحتم على الغرب أن يواجهها فى حقبة الخمسين . ولم يقم أحد بتمييز هذه الحقيقة فى ذلك الوقت . فلقد انقضى القسم الاكبر من الحقبة المذكورة ، دون أن يتمكن ساسة الغرب ومعظم المختصين بشئون الشرق الاوسط ، والشطر

الاكبر من الصحافة الغربية ، من ادراك حقيقة ما كان واقعـا ، وما هى العوامل التى أدت الى وقوعه ولماذا . لكن هناك حقيقتين أود أن أؤكدهما وأولاهما أن الجيل الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و١٩٢٠ كان لا يزال مجهولا منا كل الجهل وبعيدا عن أنظارنا وثانيتهما أن السبب الحقيقى فيما حدث يقوم الى حد كبير على طبيعة الاوضاع الدبلوماسيةوالسياسية والاجتماعية والاقتصادية للنظام القديم الذى اعتمدت الدول الغربية عليه .

ويتمثل جوهر العلاقة التى قامت بين بريطانيا وفرنسا من ناحية وبين الشرق الاوسـط العربى من الناحيـة الاخـرى ، وبين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، فى أن هاتين الدولتين عملتـا على دعـم مصالحهما السوقية (الاستراتيجية) والاقتصادية والثقافية بوسائل لا تصل الى حـدود الوسائل الاستعمارية المطلقة ، وان كانت تبعد عن أساليب التعاون التى تقوم مع حكومات حرة ، محترمه وذاتيه الارادة وممثلة لشعوبها . ولقد أعلنت مصر فى عام ١٩٢٢ دولة مستقلة ، لا لأن السلطة البريطانية قد آمنت بحق مصر فى هذا الاستقلال أو بصواب منحها استقلالها ،بل لان هذه السلطات وجدت أن الضرورة الواضحة تحتم عليها اتخاذ هذه الخطوة لمواجهة الثورة الحتمية . لكن هذا الاستقلال ظل مشروطا على أى حال، ومقيدا بصلاحيات احتفظت بهـا بريطانيا لنفسها ومنهـا الاشراف على سياسة مصر الخارجيه (حتى عام ١٩٣٦) ، واستمرار الاحتلال العسكرى البريطانى فى جميع أنحاء مصر حتى عام ١٩٣٦ أيضا ، وبقاء هذا الاحتلال فى منطقة القناة بعد هذا التاريخ فى حكم المظهر وفى مصر كلها فى حـكم الواقع ، طيلة أيام الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٤٧ ، والعودة الى منطقة القناة وحدها منـذ هذا التاريخ حتى عام ١٩٥٦ . وهـكذا ظلت قضية هذا الاحتلال تتحكم فى العلاقات المصرية ـ البريطانية منذ البداية حتى النهاية ، مضافا اليها معضلة المطالب القومية لوحدة وادى النيل ، وهى المطالب التى لم تكن الحكومات البريطانية المتعاقبة على استعداد للتسليم بها .

وكانت العلاقة مختلفه الى حد ما فى المشرق العربى . فلقد تبين من الناحية السياسية استحالة تنفيذ المعـاهدات السرية التى عقدت بين بريطانيا وفرنسا فى عـام ١٩١٦ لتجزئة الولايات العربية السابقة فى الامبراطورية العثمانية والواقعة خارج شبه الجزيرة العربية . وقد عولجت المشكلة باقامة انتدابات بريطانية وفرنسية على مشرق عربى تم تقطيـع أوصاله أيضـا . فلقد أعطيت بريطانيـا الانتداب عـلى فلسطين وشرق الاردن والعراق ، كما أعطيت فرنسا الانتداب على سورية ولبنان .وكانت هذه الانتدابات « على الورق » مجرد وصاية أقرت من النـاحية الدولية نيابة عن عصبة الأمم ، للوصول بالشعوب المعنية الى مرحلة تقرير مصيرها بحرية كاملة ، وبأسرع ما يمكن دون أى تدخل . ولقد رأى الـكثيرون من الاحرار البريطانيين والفرنسيين الانتداب بهـذا المنظـار ، وكرس الكثيرون ممن عملوا فى البلاد المنتدب عليها حياتهم لتحقيق هذا المفهوم . لكن الواقع كان يناقض هذا المفهوم كل المناقضة ، فلقد ثبت أن الانتداب كان من النـاحية العملية وسيلة لجأت اليهـا الدولتان للحصول على

التسهيلات الاستراتيجية الدائمة ، مقابل انهاء الوصاية على هذه البـلاد والاعتراف بسيادتها .

واعتقد الكثيرون من الساسة البريطانيين والفرنسيين أيضا أن هذه « المسـاومة » معقولة كل العقـل ، ومتفقة كل الاتفـاق مع أهداف نظام الانتداب ، طالما أن معاهدات التحالف ستؤدى الى تدعيم العلاقات بين العرب وبين هذه الدول التى يعتقد بأنها تجسد كل ما هو سام وجميل فى طراز النظام العـالمى الذى يفترض أن عصبة الأمم كـانت تسعى لاقامته .

وتم فى مصر والبلاد الواقعةتحت الانتدابتنفيذ الكثير من المشروعات القيمة ، المفيدة . فى مجموعة واسعة من الحقول والميادين فى مشـورة كل من الدولتين المحتلتين ومساعدتها (١) . ولقد بالغ أنصار هذه الفترة فى تقويم هذه المشروعات وتقديرها بينما قلل الوطنيون من شأنها وقيمتها ولا يثيراى من الموقفين دهشة الانسان المنصف . فهناك حقيقـة مفجعة وهى أن كلا من الفريقين كان باستمرار ، فى موقف الخلاف العنيد المتزمت مع الفـريق الآخر فى مختلف القضـايا الجوهرية . وكان من المحتـوم بالنسبة لهذه العلاقات الغربية ـ العربية التى استمرت طيلة ثلاثين عاما أن تنفجر كما لو كانت تمثل احتلالا استعماريا كاملا . ومن المحتمل أن تكون فى بعض النواحى أكثر قابلية للانفجار من العلاقات الاستعمارية . ولم تشرع الدول الاستعمارية فى التسليم باستقلال الشعوب الآسيوية الا بعد انتهاء الحرب الثانية ، وعندما فعلت ذلك ، لم يكن هناك أمل فى تمكنها من الحفـاظ على قواعدها السـوقية . وتحتم عليهـا أن تنسحب انسحابا كاملا شـاملا . أما فى الشرق الاوسط ، فقـد سلمت الدولتان الاستعماريتان لعراق فى عام ١٩٣٢ ولمصر وسـورية ولبنـان فى عام ١٩٣٦ ، بشكليات السيادة بينما ظلتا تحتفظان بواقـع استمرار الوجود السوقى (الاستراتيجى) المقنع الوجه .

ولم تلق هذه الصفقات أى قبول شعبى ، ولم يرض بها رضاء كاملا حتى أفراد ذلك الجيل المحافظ القديم من الساسة الوطنيين . أما بالنسبة الى الجيل الفتى فقد رأىفى هذه العملية اذلالا يفوقحدود الوصف . وكان البريطانيون والفرنسيون يتحدثون عن هذه « المنح » فى حدود « الاحترام المتبادل بين دول متكافئة السيادة » ولم تكن هـذه الكلمات بالنسبة الى الجيل الجديد من الشبان والفتيان الذى كان يرقب هذه الايماءات، الامجرد تعابير جوفاء لا تعنى شـيئا أبدا . وقد يكون من الصعب على الغربى أن يفهم هذه الحقائق ، ولكن الفكر الوطنى يرىأن المعاهدات التى تسمح ببقاء

---

(١) كان من الطبيعى أن تسير هذه البلاد سواء أكان الانتداب قائما عليها أم لم يكن فى طريق التقدم مجاراة للعصر ، وان كان من المحتوم أن يكون هذا التقدم أسرع خطا بكثير مما اذا كانت هذه البلاد متحررة من الانتداب الذى ان صح أنه قام ببعض المشروعات فى البلاد التى كان يتولى السيطرة عليها ، فانما كانت هذه المشروعات هادفة الى خدمة مصالحه هو قبل مصالح الذين تولى الانتداب عليهم « المعرب »

القوات الاجنبية والقواعد الجوية ، لا تكون قائمة بين أنداد الا اذا عقدت فى منتهى الطواعية والحرية ، ولم تكن هى فى واقعها ثمنا لتلك الحرية المكتسبة • ولم يكن فى مكنة أى شاب عراقى ، يعرف أن « السيادة » لم تمنح لبلاده الا ثمنا لمنحها القواعد الجوية للسلاح الجوى البريطانى ، أن ينسى بسهولة أن هذا السلاح قد استخدم فى مطلع حقبة العشرين لاخضاع العراق بعد ثورته الدموية التى استهدفت مقاومة فرض الحكم الانتدابى نفسه • ولقد استعاد السوريون عندما سمعوا بمعاهدتهم الجديدة مع فرنسا ، التى لم تبرمها هذه أبدا ، ذكريات قصف الفرنسيين لدمشق ، وقذفها بالقنابل ، فى نفس الوقت الذى كانت فرنسا تحاول فيه أن تفرض نظام الانتداب الذى طبلت له العصبة وزمرت ، على سورية نفسها • ولم يكن فى امكان أية معاهدة مصرية ـ انكليزية تضمن مجرد جلاء القوات البريطانية الى منطقة قناة السويس ، أن تقدم أية ضمانات صحيحة على أن بريطانيا ستحترم استقلال مصر احتراما كاملا • ولقد احتلت مصر فعلا فى عام ١٨٨٢ وكان احتلالها صادرا عن منطقة القناة نفسها •

وفى خضم هذه الموجة العارمة من مرارة الوطنية العربية وصخبها، كان ثمة عامل آخر ، دفع بالشرق الاوسط فى فترة ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢ ، الى حالة من الغضب والخوف والازدراء ، لم تواجهه أية دولة غربية فى آسيا • ولم تكن هناك أية مستعمرة فى آسيا ، مهما كانت نائية بعيدة تشبه فى أوضاعها ، مشكلة فلسطين • فلقد ظل جيل كامل من العسكريين البريطانيين وموظفى الادارة بين عامى ١٩١٨ ، و ١٩٤٨ ، يحاولون وقد حطم بعضهم فؤاده أو فقد حياته ابان العملية ، تنفيذ سياستين متناقضتين كل التناقض الذى يحمل طابع التفجر واليأس • وقد أدت هذه السياسات المتناقضة الى تفجير المواقف العربية خارج فلسطين أيضا • فلقد كان من المفروض أن الانتداب قد أعطى الى بريطانيا ، لاعداد عرب فلسطين ، وهم أهل البلاد الاصليون وذوو الجذور التاريخية فيها ، لمرحلة تقرير المصير ، وهو ما وعد به العرب على أى حال ابان الحرب العالمية الاولى ، ثم حرمهم منه الانتداب نفسه • ولكن الأوامر صدرت الى الموظفين البريطانيين فى الوقت نفسه بأن يفتحوا أبواب فلسطين للاستعمار الجماعى لليهود الذين لاصلة لهم بها طبقا لبرنامج صهيونى يهدف بصراحة الى اقامة دولة يهودية بطريق التدرج •

ولم يشهد القرن العشرون مايماثل العمل الذى ارتكبه البريطانيون فى فلسطين ، أو ما يمكن اعتباره سابقة له ، من الفصل عن طريق العنف بين شعب والاسرة التى ينتمى اليها ـ لا سيما وأن فلسطين كانت تعتبر جزءا من سورية العربية ـ ، ومن الاعلان بجد وحزم ، بأن الغرض من هذا الفصل ، رفع مستوى هذا الشعب الى مرتبة الحق فى تقرير المصير ، بينما تكون الغاية الحقيقية ، فرض جماعة دخيلة عليه ، غايتها أن تجعل من أرضه «يهودية كما أن انكلترا انكليزية» (١) ولم تحاول أية دولة استعمارية

---

(١) كتاب وايزمن «التجربة والخطأ» •

القيام بمثل هذا العمل الاستفزازى فى أى مكان من آسيا • وهكذا قدر لفلسطين ان تغدو السرطان الفريد فى نوعه، الذى يسمم العلاقات القومية العربية بالغرب ، ويورى صراعها معه •

كانت هذه هى الخصائص الخارجية الشاملة لهذه الفترة التى امتدت ثلاثين عاما • ولكن كان ثمه عامل جوهرى اخر على أى حال ميز طبيعة السياسات فى الشرق الاوسط العربى عن تلك التى اتبعت فى المستعمرات الآسيوية • وهكذا ظهر فى حقبة الاربعين بين السلطة الحاكمة ، وبين الجماهير العربية التى خرجت الى الميدان قيادة وطنية فتية لتوجيهها ، نظام سياسى واجتماعى ـ اقتصادى قوى ، يشمل الوطن العربى كله • وكان هذا النظام يمثل بوجه عام ، تلك القوى المحلية الراغبة فى التعاون مع السلطات الحاكمة (الدولتان الغربيتان) أو العاجزة عن معارضتها • وهكذا تحول الصراع الأساسى الى تصادم بين ثلاث قوى أو أربع بتعبير أصح • ولما لم يكن هناك أى جزء من الشرق الاوسط العربى متحررا من القوات والنفوذ الاجنبيين فان النضال الاساسى الذى يقوم به الشبان العرب تدرج بصورة ظاهرة نحو من كان هؤلاء الشبان يدعونهم بأعوان الاستعمار • ولم يكن هناك من سيد مستعمر يتجه النضال ضده مباشرة وبصورة صريحة • وبينما كان فى وسع نهرو ورفاقه في الهند أن يتحدوا جماعة « العهد القديم » المحافظة ويتغلبوا عليها داخل الحركة الوطنية نفسها ، واجه أقرانهم فى الشرق الاوسط العربى « عهدا قديما » يقبض على زمام السلطان الفعلى والقانونى والبوليسى فى الميادين الاقتصادية والسياسية والعسكرية • وأرى لزاما علينا أن نتولى الآن وبايجاز استقصاء ما كان يدور فى الاطار الداخلى فى مختلف البلاد •

مصر :

أعلنت انجلترا من جانبها فحسب فى عام ١٩٢٢ استقلال مصر تحت النظام الملكى ، ونصبت السلطان فؤاد ملكا عليها ، فى الوقت الذى كان الزعماء الوطنيون وبينهم سعد زغلول يقضون أيامهم فى المنفى وبدأ فى مصر على الفور صراع مستمر مثلث الزوايا • وراح القصر الملكى يتعاون فى بعض الاوقات مع السلطات البريطانية ، ويعارضها فى أوقات أخرى طبقا لاتجاه الرياح السياسية •

وكانت دار المعتمد البريطانى تؤيد الملك ضد البرلمان أحيانا وتعارضه أحيانا أخرى • وراحت الاحزاب السياسية ، وقد صرفها تدخل القصر عن حقيقة أهدافها ، تقضى جل أوقاتها فى معارضة هذا التدخل • ومالبث الوفد ، وهو الحزب الوطنى المسيطر ، أن تفتت وتمزق ، من جراء الخلافات الداخلية بين أعضائه فى موضوع الدور الحقيقى للملك فى نظام الحكم ، لا سيما وان جذور التحول الى الجمهورية كانت قائمه فى هذا الحزب وان ظلت ضعيفة لا يكاد يحس بها أحد • وكان فى وسع الوفد أن يعتمد دائما على قوته فى كسب الانتخابات ، ولكنه ما ان يكسبها فى أية مرة من المرات ، حتى تتفرق وحدة الهدف التى سادت أعضاءه ابانها ، وحتى يركن الى الاسترخاء ، ويفقد التوجيه الصحيح • وكثيرا ما لجأ القصر الى اقالة

وزارة جديدة تم انتخابها أو الى تأجيل البرلمان وحله وتعطيل الدستور ، عملا بنصيحة بريطانيا أو بدونها اذا رأى أن النذر السياسية غير مواتية له . وهكذا كانت تنطلق الانتهازية والمصالح الخاصة حرة طليقة فى ظل مثل هذه الاوضاع .

وكان الاقطاعيون ، هم الذين يسيطرون على الجهاز السياسى فى مصر كلها . وجلهم من الاقطاعيين الاصليين الغائبين عن أرضهم الذين يصرفون أيامهم كلها موزعيها بين القاهرة وأوربا والاسكندرية . وكان الواحد منهم يدير اقطاعياته ، وكأنها عالم خاص به ، ولا شأن لأحد به . وكان فى امكانهم أو امكان وكلائهم أن يضمنوا الفوز فى الانتخابات البرلمانية ، باستخدام وسائل تشمل دفع ناخبيهم ومعظمهم من الفلاحين الذين يعملون فى اقطاعياتهم الى صناديق الاقتراع تحت وطأة العصى . واذا ما رأوا فى مكانة الملك عاملا مساعدا لهم على النجاح ، لجأوا الى استغلال هذه المكانة بعلم الملك أو دون علمه . وقيل ان أحد الباشوات أعد فى احدى المعارك الانتخابية التى جرت قبيل الثورة (١٩٥٢) ، جهاز هاتف على المنبر الذى يستخدمه فى القاء خطبه الانتخابية . وقرع جرس الهاتف وهو يلقى خطابه فرد عليه موحيا الى الجماهير بأن فاروق هو الذى يحدثه طالبا مشورته . وبالطبع لم يكن الملك هو المتحدث ، بل كان أخوه هو المتحدث من مكان قريب . ولكن الخدعة تركت الاثر المطلوب منها . فليس فى وسع انسان أن يتحدى « رجل الملك » دون أن يتعرض للعقاب .

وفى وسع المرء أن يدرك حقيقة ما كانت تتمتع به هذه الفئة المختارة من أصحاب الارض من سلطان سياسى واقتصادى من رؤية الارقام البسيطة المجردة . ففى بلد يضم نحوا من عشرين مليونا من السكان (احصاءات قديمة !) ، يعتمدون فى معاشهم الى حد كبير على الارض ، يملك الفان فقط ، نحوا من خمس الاراضى الزراعية كلها . وتملك الاسرة المالكة وحدها مباشرة مائة وثمانين ألف فدان من مجموع الاراضى الزراعية التى لا تتجاوز مساحتها ستة ملايين فدان .

وقفزت الصناعة والتجارة فى مصر بعد عام ١٩٢٢ قفزات سريعة ولم يحل عام ١٩٤٧ حتى كان هناك نحو من ستة وعشرين ألف مصنع فى البلاد . ولكن هذه التطورات لم تخلق طبقة قوية من رجال الصناعة وادارة الاعمال والتجار ، تستطيع أن تتحدى السلطان السياسى للفئة المختارة من كبار الملاك . فلقد كان الشطر الاكبر من الصناعة الجديدة ومن التجارة ملكا للاجانب وتحت ادارتهم ، وكان الاجانب يملكون فى عام ١٩٤٨ نحوا من واحد وستين فى المائة من مجموع رءوس الاموال فى الشركات المساهمة . يضاف الى هذا أن الفئة المختارة من كبار الملاك كانت هى التى خططت شكل المجتمع المصرى ورسمت له خطاه وحياته العامة منذ أمد طويل ، بحيث أجبر المصريون الذين ارتقوا عن طريق الصناعة والتجارة ، الى الظهور بمظهر التبعية الرمزية للطبقة الارستقراطية من الملاك . وراح

ذوو المكانة والمال من أبناء المدن يقيمون اقطاعيات جديدة ، وانضمت الفئة المختارة من هؤلاء الى النوادى الخاصة بكبار الملاك .

وعكست البرلمانات التى سيطر عليها الوفد فى هذه الفترة الزمنية الخصائص الاساسية للاتجاه السياسى . وكان زعماء الوفد من الوطنيين ، وان كانوا محافظين فى الشئون الاجتماعية الاقتصادية . وكانت ميولهم المحافظة قوية الى الحد الذى دفعهم فى ميولهم الى التشريع التقدمى الى عدم المساس بالضرائب الاساسية والكيان السياسى للبلاد . وقد يكون صحيحا ان البلاد خطت خطوات كبيرة فى حقل التعليم العام فى المدن بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، وأن البرلمان قد أقر فى عام ١٩٤٢ قانونا مهما لتنظيم الحركة النقابية وحقق تقدما ملحوظا فى حقل الصحة العامة فى المدن ، وسن فى نهاية عام ١٩٥٠ تشريعا مهما للضمان الاجتماعى . وكان كبار الملاك فى داخل الوفد وخارجه يتسامحون فى مثل هذه الاجراءات ، فبعضهم يقرها عن ايمان واخلاص ، وبعضهم الآخر يرى فيها وسيلة أمن لتجنب الهياج والاضطراب فى المدن . ولكن لم يكن فى مكنة أى برلمان فى مصر بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، ورفض البرلمان الاقتراحات التى قدمت اليه فى عام ١٩٤٥ ، ومن ثم فى عام ١٩٥٠ بتحديد الملكية الزراعية . ومع ذلك فقد ظل عدد السكان فى مصر فى تزايد مضطرد وارتفع الرقم من ثلاثة عشر مليونا فى عام ١٩٢٢ الى واحد وعشرين مليونا فى عام ١٩٥٢ . وهبط مستوى دخل الفرد من جراء هذا الارتفاع فى عدد السكان ، ولم يحل عام ١٩٥٢ حتى كان ثلث جمهور الريف المصرى غير منتج من الناحية الاقتصادية .

وراح الكيان السياسى والاجتماعى – الاقتصادى ، ينهار فى مصر شيئا فشيئا سنة بعد أخرى ، وفقد الوفد قدرته على اجتذاب ولاء الالوف من العاطلين ، ومن ذوى الاجور الضئيلة من خريجى الجامعات ، ومن الجيل الفتى الجديد من المتعلمين وأنصاف المتعلمين من أبناء المدن والريف وكذلك ولاء الجماهير الكبيرة من الفلاحين . وكانت مباذل القصر وتصرفاته تستفز باستمرار مشاعر الناس بأن الاسرة المالكة ليست بالمصرية حقا وانما هى السلالة المباشرة للاسرة التركية القديمة التى ينتمى اليها محمد على ، (أعتقد أنها أسرة البانية لا تركية) ، لاسيما وان الملك فؤاد نفسه كان يتقن الايطالية أكثر من العربية ، وأدت موجات الفساد والطغيان والجبروت عند ذوى المراكز العالية ، ومهزلة البرلمانات وتجاهلها لحالة الفقر المتزايدة التى تعانى منها الجماهير ، الى اجتذاب مصر نحو دوامة من السخط الاجتماعى والقلق الوطنى الذى فرغ صبره .

ولم يكن فى الامكان رسم خط فاصل فى الناحيتين الواقعية والمعنوية بين هذا البنيان الداخلى المتهاوى وبين الاستعمارية البريطانية ، فلقد كان الارتباط بينهما حتى عام ١٩٣٦ ، كاملا كل الكمال ، ولم يقع حتى بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، أى تبدل فى العلاقات النفسية بين البريطانيين وغيرهم من الاوربيين فى مصر من ناحية ، وبين شعب البلاد من الناحية

الاخرى ، وقد يقال ان المحاكم الخاصة التى كانت تعـــزل الاوربيين عن القانون المصرى العام عزلا كاملا ، قد ألغيت ، ولكن ظلت ثمة النـــوادى الخاصة بالأوربيين التى لا يسمح للمصريين بالانضمام اليهـــا ، وظلت أوضاع الامتيازات والحماية ، وظلت الرواتب العالية التى تبلغ ســـتة أضعاف الرواتب العادية للمصريين كما ظلت الاشارة المزدرية الدائمة الى المصريين بأنهم « الاهلون » .

وظل شبان مصر ، ينضجون طيلة هذه السنوات ، وينضـــج معهم شعورهم بالكره للالوف من مظـــاهر الوخز والطعن لكرامتهم الشخصية والقومية . وكان الطالب المصرى يقرأ سير احدى المناقشات التى تتناول مصر فى مجلس العموم البريطانى ، ويجد فيما يقرؤه توازنا منصفا الى حد ما بين استعمارية المحافظين المتزمتة وشكوك الاحرار الاصيلة . ولكنه لا يلبث بعد انقضاء خمس دقائق على ما قرأه ، أن يستمع بصورة عارضة الى نقاش بين بريطانيين يعيشان فى بلاده فى موضـــوع مصر ، فينتفض غضبا وخجلا مما استمع اليه . ولم يكن كثـــيرون من البريطانيين الذين يعيشون يدركون حق الادراك مدى اسهامهم فى هذه المرارات المتزايدة . وكثيرون منهم يقبعون فى أبراجهم العاجية ومجتمعاتهم الصغيرة المتسامية، ينظرون من ورائها الى المصريين ، فيرونهم أشباحا من الفقر . ومن الافتقار الى الكفاية ، وتؤدى نظرتهم هذه الى المزيد من كراهيتهم لهم . وقد يقال ان بعض البريطانيين كانوا يعطفون على المصريين ، ولكن هؤلاء أيضـــا يبدون وكأن مصر ملك لهم ، أو كأنها بلد لا يستحق حتى الزراية منهم . كما بدا فى أحاديثهم عن مصر وتقاليدها ومشاكلها وقيادتها السياسية ، وشعور التملك ، حتى ولو كان نابعا عن حسن نية، لا يقل فى سوئه واثارته للآخرين عن شعور المهانة والازدراء .

وجاءت الحرب العالمية الثانية باحتلال بريطانيا لمصر من جـــديد احتلالا كاملا وفعالا . كما جاءت باذلال يعتبر من أسوأ ما عرفته مصر من اذلال . واذا كان قدامى السياسيين المحافظين قد أحسوا بهذه الاساءات، فان هذا الشعور بالاحتلال . والارغام على دخول الحـــرب دون أن يكون لبلادهم حق الخيار ، قد تضخم من جراء ما أصاب الدولة التى يمثلونهـــا بمراكزهم وكطبقة مختارة من اهانة . أما بالنسبة الى مصر الجديدة ، فقد كانت الاساءة موجهة الى شعب بكامله :

« لقد توقعوا من المصريين أن يسلكوا سلوك الحلفـــاء المخلصين فى الوقت الذى يعاملون فيه كشعب محتل . وكان جنودهم يســـيرون عبر شوارع القاهرة ينشدون الاغانى القذرة التى تمس كرامتنا فى الصميم . وكان مما يفوق حدود التصور أن يطلب الى المصريين فلسفة هذه المعاملة التى يلقونها ، وكل ما كانوا يعرفونه أن الجيش البريطانى يحتل مصر ، وأن جنود هذا الجيش ينظرون اليهم بعين الزراية » (١) .

---

(١) حدث نفس الشىء فى الحرب العالمية الاولى وتنكرت بريطانيـــا لوعودها لمصر بالاستقلال الكامل . ولا ريب فى أن هذه الصورة التى رسمها أحد المصريين صادقة الى حد كبير . (المؤلف)

ولكن الكثيرين من البريطانيين مازالوا ينظرون بعين الغضب الى مصر، كلما عادوا بذكرياتهم الى الحرب العالمية الثانيه والى عـــواطف المصريين تجاههم التى كانت موضع الشك. ونحن نرى فى أى تواطؤ مع المحور أمرا مؤذيا ، حتى ولو بات هذا التواطؤ شأنا من شئون الماضى . ولكن هذا الوضع يرسم صورة واضحة جلية لشعبين بل لعالمين يقفان عنـــد مفترق الطرق . فلقد كان من المستحيل أن ندرج فى قائمة الحلفاء الاوفياء شعبا يرزح تحت وطأة الاحتلال والاذلال والازدراء ، وأن نطلب منه الحماســـة فى خوض حرب لم يكن هو الذى بدأها ، ولم يستشر فى أمر الاشـــتراك فيها ، وانما وجد نفسه متورطا فيها بكل بساطة ، وأن يقف فيهـــا الى جانب دول « ديموقراطية » كانت احداها هى التى جعلت من بلاده، مهزلة من مهازل الحرية ، ان هذا مستحيل كل الاستحالة .

وهكذا بدت فترة ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢ ، فى عيون شبان مصر الفتيـــة المثقفة وكأنها قاعة خانقة من قاعات المرايا التى يضيع الماء فيها من كثرتها ، فهم نظرا لافتقارهم الى السلطان السياسى ، يرون فى جانب واحد هـــذه الجماهير الغفيرة من الفلاحين تعيش حياة دون مستوى الكرامة الانسانية، والى صف هذه الجماهير تقف رؤاهم عمـــا يجب أن يكون لهـــا من كرامة وتقدم . وكانوا يرون فى الجانب الثانى طبقة أقلية من الباشوات المحافظين والاقطاعيين ، تسيطر على برلمان زائف الديموقراطية ، وتقف وراء هـــذه الطبقة ، ملكية دخيلة حمقـــاء ذات نزعات شريرة معيبة ، وخلف الجميع يقف ذلك الطيف الذى لا يغيب أبدا من السيطرة الأجنبية البريطانية فى الخارج والنفوذ فى الداخل .

شرق الأردن :

كانت شرق الاردن على سبيل المقارنة حتى عام ١٩٥٠ ، بلدا يختلف فى أوضاعه ، عن مصر كل الاختـــلاف . فثلاثة أرباع أراضيه صحارى قاحلة جرداء ، ولا يقيم فيه الا نحو من أربعمائة ألف انسان يعيشون على موارد محدودة الى الدرجة التى تجعل اقامة دولة حديثة شبه متحضرة فيه أمرا غير ذى موضوع . وكان معظم السكان من أبناء القبائل الذين يدينون الى حد كبير بالولاء للامير عبد الله الذى يتولى الضباط البريطانيون قيادة جيشه ، ويشرف الموظفون البريطانيون على ادارة حكومته ، وتعتمد ميزانيته على ما يناله من عون مالى من بريطانيا . وكان فى امكان الاستهواء البدوى للخيال البريطانى ، أن يجد ضالته فى مثل هذه الامارة الصغيرة ، التى خلقت خطط تشرشل كيانها المصطنع ، وكان عبد الله يتمرد أحيانا علـى خالقى امارته ، ولكن كان فى وسع مزيج من النصائح الابوية والتـذكير بحقيقة المصدر الذى يتناول منه موارده ، والايماءات المهذبة المنطوية على الاحترام للسلالة التى ينتمى اليها ، كافية للتغلب على هذا التمرد العارض منه . واذا حدث وظهر بعض المتطرفين فى المدن ، المتأثرين بالتيـــارات الوطنية والقومية المتجمعة خارج حدود هذه الدولة المحمية ، فان السبيل الاسهل لقمعهم ، ايداعهم فى السجون الصحراوية ، وهذا ما كان يحدث بالفعل .

ولربما كان من حق جلوب باشا والحالة هذه أن يذكر «أن الاردن كله كان بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٤٨ ، من أسعد البلاد الصغيرة حالا فى العالم . اذ على الرغم من الاضطرابات والثورات فى البلاد المجاورة ، ومن الحرب العالمية أيضا ، بدا الاردن وكأنه يحيا حياة ملؤها السعادة » (١) .

وجاء التبدل ، عندما تورط شرق الاردن فى الحرب الفلسطينية فى عام ١٩٤٨ ، وضم الى مملكته الاردنية الجديدة ما تبقى من فلسطين العربية خارج نطاق الاراضى التى تحتلها اسرائيل . وارتفع عدد السكان الى ثلاثة أضعاف ، بعد أن أضيف الى المملكة مليون من الفلسطينيين الذين تعمل المرارات فى نفوسهم ، والذين يتميزون بالوعى السياسى والثقافة النسبية ، حاملين معهم التيار الجارف الرئيسى للوطنية العربية المدنية . وقتل عبد الله فى القدس فى منتصف عام ١٩٥١ . ولا ريب فى أن تعليق جلوب على ما وقع يحسر النقاب عن أشياء كثيرة ...

« وأثار اختفاء الملك عبد الله حالة من الفزع والاضطراب فى الاردن فلقد كانت قبضته القوية هى التى تمسك بكل شيء منذ عام ١٩٢١ . ولم يكن الساسة فى ظله أكثر من مجرد دمى لا تملك الا أن توافقه على كل شيء ولم يكن قد نشأ فى الاردن بعد أى قادة سياسيين أو رجال دولة ، فالملك هو كل شيء فى البلاد » .

وكان فى وسع جلوب أن يضيف الى هذا الوجود المطلق الذى ينسبه الى الملك ، أوصياءه البريطانيين ، الذين يمثلون جهازا لم ينته أمره تماما بموت الملك . وكانت معاهدة عام ١٩٤٨ ، التى افترض فيها أن تكون خطوة تقدمية لما سبقها من معاهدات ، قد أعطت لبريطانيا الحق فى أن تقوم فى أيام السلم بحماية المطارات والموانىء والطرق ، واقامة القواعد لسلاح الجوى البريطانى فى المفرق وعمان ، كما منحتها تسهيلات المرور للقوات البريطانية فى الخارج فى أيام السلم والحرب والحق فى « المشورة » وفى المساعدة على ادارة اقتصاد الاردن فى ظل الاعانة المالية البريطانية . ولم تكن كل هذه الحقوق والامتيازات استغلالا استعماريا ، ولكنها كانت بكل تأكيد ، غير ما يُفهمه شعب الاردن بعد عام ١٩٤٩ من « **الاستقلال السيادى** » . وقد انعكس سخط هذا الشعب المتزايد ، فى **لهجة جلوب** الحزينة وفى حملته على ما دعاه « بالدسائس والاباطيل التى يروجها عدد من الساسة والمحامين الذين ينتمى معظمهم الى الضفة الغربية التى يعيش فيها غالب الفلسطينيين » .

وباتت العلاقة الآن شخصية بالنسبة الى أمثال جلوب وسياسته بالنسبة الى بريطانيا ، يائسة كل اليأس ، ولا ينفع معها اللجوء بازدياد الى استخدام السجون الصحراوية النائية لسجن « المشاغبين » ، اذ أن هذا الاجراء لا يعدو أن يكون عملا استفزازيا يقصد منه التأجيل ليس الا . ومن المحتمل أن تكون أردن جلوب وكيركبرايد وأمثالهما قد عاشت هذه

---

(١) كتاب جلوب – جندى مع العرب .

المدة التى عاشتها لعدم وجود نقمة اقتصادية فيها شبيهة بالنقمة التى سيطرت على الحركة الوطنية الحديثة فى كل مكان اخر . ولم تتعد النقمة حدود المخيمات التى يعيش فيها نحو من نصف مليون من اللاجئين الفلسطينيين العرب ، الذين يعيشون فى وصاية الامم المتحدة ، والذين يرفضون ادماجهم فى حياة البلاد التى يقيمون فيها .

سورية ولبنان :

بدأت سلطات الانتداب الفرنسى فى سورية عملها بتشجيع الحركات الانفصالية ، فخلقت عدة دويلات وهمية فى البلاد ، مبررة خلقها بوجود نزعات انفصالية ووجود أقليات فى البلاد . وتقوم وراء هذه الاجراءات كما تقوم وراء السياسات الفرنسية الاخرى فى سورية ولبنان غاية عامة وهى مقاومة القومية العربية خوفا من نتائجها لا بالنسبة الى سورية ولبنان فحسب بل بالنسبة الى ما يمكن أن توحى به من اتجاهات الى المغرب العربى الذى يضم مراكش والجزائر وتونس ، وكانت هناك من الناحية الثانية رغبة أخرى فى تقوية مركزها فى لبنان عن طريق المسيحيين فيه ، لتجعل منه ركيزة للنفوذ السياسى والثقافى الفرنسى فى شرق البحر المتوسط وقد سهلت طبيعة الاراضى السورية ، ووقوع الجيوب المزروعة والمدن المنعزلة فى الطرف الغربى من الصحراء السورية الكبرى ، للفرنسيين تنفيذ سياستهم فى اضعاف البلاد .

ولكن المقاومة للحكم الفرنسى ظلت مستمرة وشاملة طيلة الوقت منذ فرض الانتداب على البلاد بقوة السلاح . وتألفت القيادة التى انبثقت عن هذا النضال فى جماعات من الافراد من ذوى النفوذ وأتباعهم ، يؤلفون على الرغم من وطنيتهم العنيفة فى هذه القضية الجوهرية ، حدا وسطا بين من كان يدعوهم الفرنسيون « بالمعتدلين » وأولئك الذين يسمونهم « بالمتطرفين » ولم يكن ثمة مناص من أن يجعل ذوو المصالح الشخصية والعائلية التى يمكن لها أن تزدهر فى ظل الرعاية الفرنسية ، الى الوقوف فى زمرة المعتدلين . وهكذا كانت القيادة تمثل مصالح بعيدة كل البعد عن مصالح الجماهير بوجه عام ، فهى تمثل كبار الملاك الاقطاعيين فى حمص وحماة ، والفئة المختارة التقليدية من تجار حلب الذين تشابكت مصالحهم بازدياد مع مصالح الاقطاعيين المحليين عن طريق استثمار رءوس أموالهم التجارية فى الزراعة ، وجماعة « الحلقة الذهبية » من تجار دمشق وأرباب الصناعة الصغيرة فيها والزعماء القبليين فى بلاد العلويين فى الشمال الغربى وجبل الدروز فى الجنوب .

وشكل الشباب الوطنى فى المدن ابتداء من عام ١٩٣٠ ، منظمات متماسكة نسبيا ، وان ظلت مفتقرة الى السلطان السياسى الفعال ، الذى يضمن لها التأثير على النظام القديم الذى تسيطر عليه بصورة أساسية اقطاعية الارض . ونشأت ببطء فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ثم ما لبثت حركة النشوء هذه أن غذت الخطى بعد انتهاء الحرب ، طبقة تجارية ومهنية جديدة فى المدن ، ولكنها أيضا لم تتمكن من الحصول

على التأثير البارز الحاسم على السياسات السورية بسبب ما لأفرادها أنفسهم من ارتباطات عائلية بطبقة ملاك الارض . ودخلت سورية بعد حرب فلسطين التى خلقت وعيا سياسيا فعالا بين صغار ضباط الجيش ، فترة من الافتقار للاستقرار السياسى ، انصرف ابانها التفكير المتطرف عن قضايا الاصلاح الداخلى الى قضايا فلسطين والوحدة العربية ، مما أتاح للنظام القديم الفرصة ليوسع من نفوذه عن طريق المناورات الماكرة التى يقوم بهما بين الانقلابات المتعددة .

وهدف الانتداب الفرنسى فى لبنان كما ذكرت قبل قليل الى تعهد المسيحيين الموارنة ، ومنحهم حدا من القوة الدائمة يتفوقون به على المسلمين، ليكون لبنان قاعدة للنفوذ الفرنسى فى الشرق الادنى . وأشار الاحصاء الرسمى الذى أجرى فى لبنان فى عام ١٩٣٢ الى وجود نسبة ٥٥ الى ٤٥ بين المسيحيين والمسلمين ، ولكن أى احصاء آخر لم يجر منذ ذلك التاريخ . وسهل على السياسات الفرنسية تنفيذ غاياتها فى لبنان ، طبيعة الفئة المختارة الحاكمة ، على النحو الذى نمت فيه حتى فى أيام العثمانيين فلقد تألفت هذه الفئة من عدد صغير جدا من الاسر المالكة للارض من كلا المجموعتين الدينيتين والمتشابكه فى علاقاتها الاجتماعية ، وأدى النشاط التجارى الذى تسيطر عليه أيضا فئة صغيرة من الاسر البارزة ، الى نمو ثروات جديدة بعد عام ١٩١٨ . وظل هذان النوعان من الثروات التى تملكها أسر معينة . يسيطران على الاوضاع السياسية فى لبنان .. وبرزت أسماء كالعوينى والخورى وعريضة وكتانة وبطرس وسرسق ، تؤلف شركات وهميه تتقاسم الارباح المستثمرة فى ظل نظام محافظ يشرف عليه الفرنسيون . ولكن هذا النظام ما لبث فى النهاية أن هزم الاهداف الفرنسية ، اذ أن هذه الاسر ، على الرغم من محافظتها فى الميدان الاجتماعى . كانت تحس احساسا وطنيا . وواجهت فرنسا فى عام ١٩٤٣ شيئا لم تكن تتوقعه وهو الاتحاد الذى ضم الزعماء المسيحيين والمسلمين فى مطالبتهم بالاستقلال الكامل ، ووجدت فرنسا نفسها تطرد أخيرا فى عام ١٩٤٦ من الشرق الادنى ، ثمرة كفاح الشعب ضدها ونتيجة الضغط البريطانى الضرورى ، واللوم الذى وجهته الامم المتحدة اليها .

لكن زعامه لبنان المستقل ، ظلت على أى حال محافظة من الناحية الاجتماعية . ورفض حتى الزعماء المسلمون بسبب أوضاعهم الاجتماعية الاقتصادية ، ازعاج أنظمة الضرائب والأراضى فى الجمهورية الصغيرة وتضخمت ثروات الاسر البارزة تضخما هائلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن طريق التجارة المخزونة النامية وتحويل العملة ، وظهرت مع هذا الازدهار التجارى طبقة جديدة من الموظفين والعمال الصناعيين . وظلت الاراضى المزروعة فى البلاد ملكا لنحو من مائتى شخص من كبار الملاك . وظلت الحاجة ماسة الى انقاذ لبنان من الطائفية التى تقضى بتوزيع الرتب والمناصب والثروات على أسس طائفية ، ولم يتقدم انسان لحل هذه المشكلة . لكن التيارات الخفية للسخط الاجتماعى فى لبنان ، لم تتصل اتصالا مباشرا بالتيارات الرئيسية للقومية العربية ، وذلك بسبب الموقف

المنعزل الذى تقفه الجمهورية من هذه التيارات ، طبقا للميثاق الوطنى الذى أقرته جميع الطوائف فى البلاد فى عام ١٩٤٣ . ومع ذلك فقد أسهمت هذه التيارات الخفية اسهاما قويا وان كان غير مباشر فى الضجر الذى تحس به الاجيال الجديدة من الزعامات القديمة التقليدية فى طول البلاد وعرضها .

العراق :

جدير بنا أن نلاحظ أنه فى الوقت الذى تحولت فيه المحميات العربية الفرنسيه الى جمهوريات ، نرى تلك التى كانت فى ظل السيطرة البريطانية تتحول الى ملكيات كمصر وشرق الاردن والعراق . وقد استوردت السلطات البريطانية الى العراق الملك فيصل الاول ليتولى عرشه . وكان البريطانيون يرون فيه الهالة التى خلقوها للاسرة الهاشمية والثورة العربية ، وكان قد لعب أيضا دورا بارزا فى الجهود التى بذلها العرب لكسب اعتراف الحلفاء بمطالبهم الاستقلالية فى فرساى . ومع ذلك فهناك سؤال يبرز الى الاذهان فورا ، وهو هل كان يقدر للنظام الملكى الجديد فى العراق أن يبقى لو انه اتبع سياسة فيها المزيد من التحرر خلال حقبتى الثلاثين والاربعين من هذه الفترة ؟ لم يكن فيصل يذعن اذعانا كاملا للوصاية البريطانية ، ولهذا فقد تمتع بشىء من الشعبية فى العراق الى أن توفى فى عام ١٩٣٣، ليخلفه ولده الملك غازى الذى تميز عن والده بمزيد من الوطنية ومن الشعبية . وظل غازى قائما على الحكم فى العراق حتى عام ١٩٣٩ ؛ عندما قتل فى حادث سيارة . وسارت الملكية العراقية بعد هذا التاريخ وفى عهد وصاية ولى العهد الأمير عبد الاله ، خال الملك الطفل فيصل الثانى فى طريق التدهور المتزايد فى السمعة والمكانة .

كان عبد الاله فى منتهى الطموح ، وكان يبحث على الاقل ، عن الابهة والعظمة محاولا محاكاة الأسرة المالكة فى بريطانيا على الاقل ، والوصول الى عرش يقيمه لنفسه فى دمشق على الاكثر . وقد أدرك عبد الاله ، بعد انقلاب رشيد عالى الكيلانى فى عام ١٩٤١ الذى استهدف الحياد ولكن سرعان ما انتهى أمره بالقضاء عليه ، انه فى حاجة الى شخصية سياسية قوية فى العراق يتحالف معها . وهكذا نشأ التحالف القوى والتعاون الوثيق بين الوصى وبين نورى السعيد ، الذى كان ضابطا فى الثورة العربية والميال كل الميل الى بريطانيا والمؤسس للجيش العراقى والرجل القوى الذى يتطلع الى اقامة « هلال خصيب » تتزعمه بغداد ويضم العراق وسورية وشرق الاردن .

ولم يكن نورى السعيد ديكتاتورا بقدر ما كان الرأس البارز لنظام حكم القلة (أوليجاركى) يضم التجار الاثرياء فى المدن وكبار الشيوخ من ملاك الارض فى الارياف العراقية . وقد لعبت الفئة الاخيرة أى ملاك الارض دورا فى منتهى الخطورة والاهمية فى النظام السياسى فى العراق بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٥٨ . ولقد بدأ العراق فى عهد الانتداب كبلاد تضم مساحات شاسعة من الارض تؤجر اجارة قبلية جماعية ترتكز على نظام «الديرة» القديم فى العهد العثمانى . ولكن سلطات الانتداب ما لبثت قبل انتهاء

حكمها المباشر ان فرضت قوانين جديدة لتسوية الاراضى . وكان من المفروض أن تخلق هذه القوانين مجموعات من الاراضى تسجل على أنها الملك الشخصى للشيوخ ، ومجموعات أخرى تسجل ملكا لابناء القبيلة . وتمكن الشيوخ ، وفى ظل المحاكم البريطانية مع الاسف ،من حمل الالقاب بصورة عملية ، ومن الحصول على السلطان والثروات . وباتت سيطرتهم على الريف العراقى طاغية لا تنازع . وصدر قانون فى عام ١٩٣٣ يخولهم صلاحية اقامة سجون خاصة لمستأجرى أراضيهم ، وللمدنيين من المزارعين « بالحصة » . وأضحى هؤلاء الشيوخ قوة سياسية رئيسية فى العراق . ولم يعد باستطاعة أية حكومة أن تظل فى كرسى الحكم بدونهم الا اذا حاولت مصادرة أملاكهم .

ولكن عبد الاله ونورى السعيد لم يحاولا قط القيام بمثل هذه الخطوة . وبات العراق على النقيض من ذلك بلدا حبيس نظام اقطاعى قاس . تزخر فيه برلمانات نورى السعيد بالمستقلين الذين يمثلون الشيوخ الذين يرتكز نورى الى سلطتهم على جماهير الفلاحين العراقيين . وكانت الحكومة اذا رأت الحاجة ماسة الى تشريع قد يهدد ثروات الشيوخ تهديدا مهما كان طفيفا ، تقوم بالتعويض المناسب لهم فتمنحهم المزيد من أراضى الدولة . ولم يكن فى الامكان اقرار أى قانون قد يمس حقوق الملكية التى تخص الشيوخ . وكان النظام من الشمول الكامل بحيث تنتهى تقريبا جميع الاراضى التى استصلحت ، بقصد توزيعها فى الظاهر على المعدمين الذين لا يملكون أرضا ، الى أيادى الشيوخ . وكانت الطرق التى تعبد ، تلتوى بقدرة قادر ، لتمر بأراضى الشيوخ . وهكذا لم يحل عام ١٩٥٨ حتى كانت جميع الاراضى الصالحة للزراعة فى العراق ملكا لاربعة فى المائة فقط من مجموع السكان . وكان نحو من ٢٧٢ رجلا يملكون خمس هذه الاراضى بينما يملك ٣٣٤٧ شخصا آخرين خمسين ثانيين ، وذلك فى بلاد تضم خمسة ملايين من الفلاحين .

ونشأت عن هذه الاوضاع الريفية المريعة والقاتمة حركة دائبة للتحول الى المدن . وهكذا أضحت المدن العراقية ولاسيما بغداد تضم مع مرور السنين ، ثلاثة عناصر متفجرة ، عددها آخذ فى الازدياد بصورة مستمرة ، وهى الطبقة الوسطى الناشئة التى تضم الشبان من المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، وطبقة من عمال المدن تعيش فى مساكن قذرة ، وطبقة من اللاجئين الهاربين من عبودية الارض عند الشيوخ ، تعيش فى أكواخ من الصفيح أو من القصب والطين . وبلغ عدد هؤلاء الاخيرين نحوا من مائتى ألف حول بغداد وحدها فى عام ١٩٥٨ .

وظهر طيلة هذه الفترة فئة من الوطنيين الاحرار الذين هدفوا الى اصلاح هذا النظام الشرير المشين ، من أمثال كامل الجادرجى الذى تلقى علومه فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية . ولكن النظام كان متيعا لاتنفذ اليه أيدى المصلحين . فالبرلمان محشور بالفئات التى تعارض الاصلاح ، والوزراء يؤخذون من فئات التجار الاثرياء والشيوخ القبليين والدوائر المهنية المحافظة القديمة . وباتت المناصب الوزارية تتناقلها تسعون أسرة تقريبا أصبح أفرادها يسمون « بأفراد جوقة نورى الموسيقية » . وقد

ينسحب نورى من كرسى الحكم فى الآونات التى يختارها ، ولكنه يظل حتى وهو خارج الحكم القوة المهيمنة وراء الكواليس . وأقام نورى قوة بوليسية سرية تتقن معرفة الاخطار السياسية قبل وقوعها . وكان الاحرار الذين يتجاوزون الحدود المسموح بها ، يرسلون الى «أعالى النهر» الى أماكن تفرض عليهم فيها الاقامة الجبرية من أمثال بلدة تكريت . أما الاحرار الاقل شهرة فيمضون الى السجون التى لا يستثنى التعذيب منها، ولاسيما اذا كان هؤلاء قد أساءوا الى عبد الاله الذى عرف بالحقد والتعطش الى الانتقام .

وأنشأ نورى السعيد فى عام ١٩٥٠ مجلسا للاعمار يتولى انفاق سبعين فى المائة من واردات زيت العراق المتزايدة فى أعمال التطوير الداخلى . وكانت الخطة سليمة من ناحية الاساس ، وقد تم الاشراف على تنفيذها بطريقة معقولة فحقق المجلس تقدما ملحوظا فى الاعمال الانشائية الضخمة التى تولاها كبناء السدود للوقاية من الفيضان كسد ديكان العظيم وشق الطرق واقامة محطات توليد الكهرباء وما أشبه ذلك من مشروعات . وبدا المشروع بالنسبة الى الغرب البعيد كعمل من أكثر الاعمال المتنورة التى قامت بها الزعامة السياسية فى الشرق الاوسط ، ولكنها طبقت دون أن تمس نظاما يعتبر من أسوأ الانظمة الاقطاعية كلها فى حقبة الخمسين . ولم يكن نورى السعيد أو غيره من شخصيات العهد على استعداد لمحاولة احداث أى تبدل فيه .

ولم يكن نورى السعيد مجرد « دمية » بريطانية . فلقد كان تحالفه مع بريطانيا يقوم على عقيدة أساسية ما لبثت أن لطف غلواؤها بتأثير وطنية الجيل الذى عاش فيه . ولكن العراقيين الشبان كانوا يرون فى هذا النظام الحكومى كله ، شيئا مترابطا مع بريطانيا فى النواحى السوقية (الاستراتيجية) والملكية والصناعية ـ النفطية ، والسياسية وان هذا الوضع قائم بدافع الحاجة الكلية . وكان هذا العهد ، هو الذى طالما أشار اليه الوزراء المحافظون البريطانيون فى بياناتهم الرسمية العامة بأنه يمثل « أكثر أصدقائنا اخلاصا فى الشرق الاوسط وأجدرهم بالركون والثقة » . وأخذت حاجة نورى السعيد وعبد الاله الى العون البريطانى ضد خصومهما تزداد شيئا فشيئا . وكانت التجربة بالنسبة الى شبان العراق ، شبيهة بقاعة المرايا ، التى خبرها شباب مصر ، فلقد كان الاقطاع فيه أسوأ حالة من الاقطاع فى مصر ، قبل عام ١٩٥٢ . واستمر حكم « الاستعمار وأعوانه » فى العراق مدة أطول ، عبر سنوات من أقسى ما مر به القوميون العرب فى أى مكان طيلة القرن الحالى . ولم يكن ثمة ما هو أقرب الى التنبؤ ، من القوة الثورية التى انطلقت مندفعة فى الرماد الراكد، ومصورة غضب العراق ، فى الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ .

الخاتمة :

راعيت فى هذا العرض الذى قدمته للنظام الذى كان قائما فى الشرق الاوسط بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ استخدام كل ما ساور الجيل

الجديد الذى انتقل من مرحلة الطفولة الى مرحلة البلوغ ، ومن الامل الى الخيبة المرة والاحساس بالعار مما يفعله كبارهم . من خيالات وتوكيد بالنسبة الى الاوضاع . وأنا لا أقصد من كل هذا ، أن أوحى للقارىء بأنه لو اتيح المجال للجيل الجديد من رجال وكذلك من نساء أخذ عددهن فى الزيادة الضخمة ، لوضع أفكارهم العصرية المتحررة موضع التنفيذ ، لحولوا المجتمع الذى يعيشون فيه الى فردوس من الفضائل الغربية . ولم تكن كدلك الغاية فى كل ما قلت عن النظام القديم ، أن أقلل من قيما زعمائه ومنفذيه ، فلقد كان معظم (كذا) هؤلاء وطنيين مخلصين طبقا لمفاهيمهم الخاصة ، ولم يكن منهم الا النفر القليل من النفعيين (١) .

وليس من العدل ولا من الامانة التاريخية فى شىء ، أن نسمح لهذا السرد بتشجيع الفكرة التى تمثل السياسات البريطانية والفرنسية على انها لعبة « الشرطة واللصوص » أو « القديسين والشياطين » . فلقد ضحى الكثيرون بأرواحهم ، وضحوا بصحتهم ، وهم يعملون ،لافى خدمة الامبراطورية وحدها أو فى خدمة مناطق النفوذ فحسب ، بل سعيا وراء تحقيق أحلامهم فى ايجاد شرق أوسط أفضل فى ظل الوصاية البريطانية والفرنسية .

ولكن النظام كله كان يقوم على الخداع والوعود التى نكث بها ،وعلى تجزئة الشعوب المتطلعة الى الوحدة ، وفرض وصاية عليها البست ثوبا براقا من التضليل ، واذا كانت قد دبرت بليل ، وتم حملها عن طريق الخنا غير المشروع الذى يحطم حياة من حملتها » وكان هذا النظام يفتقر الى معظم حسنات الاستعمار (٢) ، وان كان يضم كل ما فيه من مساوىء ومن اضطهادات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، مغلفة بأقنعة خادعة يثير تكشفها الكثير من الاستفزاز والغضب . ولم تعد القضية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الا مجرد وقت ليس الا ، لينطلق الجيل الجديد من القمقم الذى حبس فيه ، ماردا جبارا مخيفا ، وليعرض الغرب الطريقة التى يقبل بها تحديات هذا الجيل التى لم يعد فى امكانه ، أى الغرب ؛ تجاهلها . وعلينا أن ننتقل الآن الى البحث فى أمر هذا الجيل عشية انفجار ثورته . »

---

(١) ان اخلاصهم يتمثل فى ولائهم للدولة المستعمرة ، وطغيان الملكية ، وتشريد الاحرار . (المعرب)

(٢) دأب الاستعمار دائما على اضفاء ما يسميه بالرسالة الحضارية على الاعمال التى يقوم بها فى مستعمراته . فهو يمنى ببعض الاصلاحات التى يقوم بها لا سعيا وراء الاصلاح نفسه ، وانما ليجعل من المستعمرات التى يسيطر عليها البقرة الحلوب التى تحقق له مصالحه الاقتصادية ، وتؤمن له طرقه الاستراتيجية ومناطق نفوذه . فليس ثمة من طريق تعبد الا وتكون الغايه الرئيسية منها تأمين المواصلات الاستعمارية ، وليس ثمة من أرض تستصلح الا والهدف منها زيادة انتاج الموارد الزراعيه اللازمة لصناعة الدولة المستعمرة وغذائها . لكنه خداع الاستعمار دائما ؟ . — المعرب —

- ٤ -

الجيل الجديد

« لكل شعب من شعوب الارض ثورتان ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاءه .. وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على مايحقق العدالة لابناء الوطن الواحد .. أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد » .

جمال عبد الناصر فى « فلسفة الثورة »

عاصرت الفترة التى عاشها الشرق الاوسط من تاريخه بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، الحقبة التى تحول فيها الغرب من ليبرالية القرن التاسع عشر السياسية الى التحرر الاجتماعى ، الذى انتقل من حقل النظريه الى مدوت التطبيق العملى الواضح كل الوضوح . وبرز فى الولايات المتحدة وبريطانيا وأوربا الغربية عامة ، المفهوم القائل بأن الدولة هى الولية الشرعية المسئولة عن تحقيق العدالة الاجتماعية والرخاء الاجتماعى . وغدت العقيدة الليبرالية القديمة الداعية الى تمجيد حرية الفرد فى التملك وفى الرأى ، المتركزة فى توقع قيام أوضاع مثالية — تذوى فى ظلها أعمال الحكومات وتتضاءل — مذهبا قاصرا بل ينطوى على الاجحاف . ولم تكن هذه المذاهب الداعية الى التبدل فى الافكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية الاساسية ، لتعتبر فى الشرق الاوسط ، فجة أو تافهة على أى حال من الاحوال . وفتحت الثورة الروسية ، واضراب بريطانيا العام سنة ١٩٢٦ ، والأزمة الاقتصادية العظيمة فى الولايات المتحدة وما تبعها من نظام التوزيع الجديد (النيوديل) ، والاشتراكية الوطنية الالمانية ، والاتحادات الفاشية الايطالية وصخب الراديكالية فى فرنسا ، فتحت عيون الشبان العرب الذين كانوا يقضون فى هذه الفترة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ سنى دراستهم فى المعاهد ، والكليات العسكرية والجامعات المختلفة .

وكانت قيادة المجتمع الذى يعيش فيه هؤلاء الشبان فى أيدى الكهول ، الذين كل ما يمكن أن يقال عنهم انهم نشأوا على غموض مدرسة القرن التاسع عشر الليبرالية » (١) ولكن نظام فترة « ١٩٢٢ —

---

(١) من مقال لوليد خالدى عنوانه « التيارات السياسية فى الهلال الخصيب » فى « مجلة العالم اليوم » ١٩٥٦

١٩٥٢ » لم يحل بين هذه العقول الفنية وبين التفتح على التيارات الحديثة للفكر الغربى • واجتاحت الشرق الأوسط فى هذه الحقب الثلاث ثورة عملية فعالة فى ميدان التعليم • وقد لا يدرك الكثيرون أن جامعات مصر، كانت تخرج فى عام ١٩٤٦ طلابا يبلغ عددهم بالنسبة الى مجموع السكان فى البلاد أحد عشر ضعفا لما كانت تخرجه الجامعات البريطانية فى الوقت نفسه • ولا ريب فى ان المستويات كانت متفاوته ، ولكنها لم تكن فى أى مكان فى الشرق الاوسط من الانخفاض بحيث تحول دون ظهور طوفان من المشاكل الجديدة التى تثار ، ومن المبادىء الحديثة التى تعتنق ، ودون أن تقف اجراءات الغرب التطبيقية مرآة صافية أمام الطلاب الشبان يتميزون فيها بوضوح عن طريق المقارنة ، العيوب والشرور الكثيرة فى المحيط الذى يعيشون فيه •

وظهرت فى المنطقة فى الوقت نفسه طبقة جديدة من الذين يعملون فى التجارة والادارة والمهن المختلفة ، كونت مستودعا أو بوتقة تترعرع فيها الافكار الجديدة •• وكانت هذه الفئة تؤلف حاجزا طبقيا بين الأغنياء والفقراء ، وتضم المحامين والضباط والاطباء والمهندسين والموظفين ومديرى الاعمال المستخدمين والكتبة فى دوائر الحكومة والأعمال التجارية وصغار المزارعين والتجار والصناعيين من أرباب الحرف (١) •

ولكن هذا الحاجز الطبقى ، لم يكن يملك من الثروة والوفرة العددية والتنظيم السياسى والمكانة الاجتماعية ما يمكنه من تحدى النظام القائم تحديا جديا ، بله استفزاز الجماهير لتنظيمها والتعبير عن آرائها • وهكذا ظل الحاجز يؤلف طبقة تعيش فى حيوية « قلقة » بين هؤلاء الذين يمسكون بزمام السلطان وبين أولئك الذين يقبعون عاجزين فى شقائهم • وأدى التحول السريع الى حياة المدن ، وهو ما عرضنا أرقامه فى فصل سابق الى ظهور طبقة عمالية جديدة فى المدن ، ولكنها ظلت تفتقر الى تنظيمات الطبقة العاملة الفعالة على غرار ما نعرفه فى الغرب •

ترى ماهى الآراء التى كانت تعتمل فى نفوس هذا الجيل الجديد الذى يحس بالكبت ، ويسيطر عليه القلق ؟ لقد أبرزت هذه الآراء فى الفصول السابقة ولكنى أرى أنها تستحق الايضاح كل الوضوح كمقدمة لثورة حقبة الخمسين •

لقد كان هذا الجيل أول رعيل عربى استخلص أفكاره المتلاحمة المتماسكة من جذور الغرب الحديث الفكرية وينابيعها ، فقد عرف كل شىء عن الثورة الفرنسية والثورة الامريكية وحركة الوحدة الايطالية والثورة الارلندية والحركة الوطنية الهندية (٢) • وكان هذا الجيل العربى أيضا

---

(١) من مقال لمورو برجر عنوانه « الطبقة الوسطى فى الوطن العربى » ومقال « الشرق الأوسط فى مرحلة الانتقال » •

(٢) ليس ثمة من ريب فى أن الثورات يفيد بعضها من بعض ، فاللاحق منها يتعظ بما وقع فى الثورات السابقة من دروس وعبر وتجارب. ولكن هذه العظات لايمكن أن تعتبر ايحاء بالثورة نفسها ، ولا سيما =

أول من وجد من الاجيال امامه بفضل النهضة الفكرية التى ترعرعت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، صورة واضحة عن تراثها العربى العظيم • وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نقول ، انه فى الوقت الذى رحب فيه أبناء الشرق الأوسط بهذا التداخل مع الغرب ، فان النتيجة الطبيعية لهذا التداخل ، نمو روح من السخط والمقت لما يبدو فى بلادهم من انحراف من جانب الغربيين عن هذه المبادىء الغربية نفسها • وهكذا رأى هؤلاء الشبان العرب أن الحضارة التى تبدو فى حوافزها الحديثة وروحها مناقضة للاستعمارية ، تمارس استعمارها فى البلاد التى يعيشون فيها •

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، حتى كان الكيل قد طفح بالسخط والمقت ، وتحول كما تحول فى الهند الى أزمة روحية أصيله • ورأى الشبان العرب أمامهم قائمة طويلة من الوعود التى أغدقها الغرب فى الحرب العالمية الثانية تقف جنبا الى جنب مع هذا الاحجام الظاهر من الدول الكبرى عن تنفيذ هذه الوعود عندما دقت أجراس السلام، وسرعان ما اختفى ما أحس به السوريون فى اعتراف بالجميل لبريطانيا على مساعدتها لهم فى الخلاص من الفرنسيين ليحل محله شعور عارم بالسخط على الاحداث التى وقعت بعد الحرب فى فلسطين التى تعيش فى ظل انتداب البريطانيين • وانسحبت حكومة العمال البريطانية من الهند دون أن تطلب معاهدة تضمن لها القواعد أو « مجالس الدفاع المشتركة » • ولكن هذه الحكومة ذاتها أصرت على طلب هذه القواعد ومجالس الدفاع من مصر والعراق ، وتورطت فى اقامة دولة غريبة دخيلة فى فلسطين العربية (١) • ومن العسير على أن أبالغ فى شرح ما تركته

= اذا كانت الثورة أصيلة مستمدة من الواقع المادى والرسالة التاريخية كالثورة العربية • ولذا فلا يمكن القول أن الثورة العربية استمدت وحيها من الثورات التى درسها أبناء الجيل الصاعد والتى وقعت فى مختلف أنحاء العالم ، اذ أنها ثورة أصيلة ، منبثقة من واقع النقمة العربية على الاستعمار وما يرافقه من استغلال اقتصادى ومن تطلع العرب الى الحرية، ومن تأثرهم بتراثهم التاريخى •
ـ المعرب ـ

(١) ليس من الصحيح بالنسبة الى كاتب منصف أن يقول ان بريطانيا قد « تورطت » مجرد تورط فى اقامة اسرائيل الدخيلة فى الوطن العربى ولكن هذه الادعاءات وما شابهها من القول باضطرار بريطانيا أو أمريكا الى تأييد الصهيونية تحت تأثير النفوذ العالمى اليهودى ، ليس الا مزاعم يقصد منها التمويه ، واخفاء حقيقة الجريمة الكبرى التى ارتكبها الاستعمار ممثلا فى بريطانيا أولا وفى أمريكا التى تولت قيادة الجبهة الغربية التى تضم الدول الاستعمارية ثانيا فى حق شعب فلسطين • ولم يكن خلق اسرائيل مجرد « تورط » ، بل كان تنفيذا لخطة استعمارية قديمة لفصل الوطن العربى الى جزئين عن طريق اقامة جسم غريب فى وسطه هو اسرائيل ، وقد جاء وعد بلفور تجسيدا لهذه الخطة التى تلاقت أحلام ـ

هذه المفارقات من أثر كبير للغـــاية . وبدا للعرب أن ميثاق الاطلسى وميثاق الامم المتحدة ، ومارافقهما من دعايات أخلاقية صدرت عن الحلفاء أيام الحرب ، قد طبقت كلها على جميع أجزاء العالم وحتى على جنوب آسيا وجنوبها الشرقى ، ولكنها لم تطبق على العرب أو على الافريقيين . وأدت سياسة الولايات المتحدة فى القضية الفلسطينية الى طيش آمال العـــرب فى أمريكا على أنها الدولة الغربية الوحيدةالتى يمكن للعرب أن يأملوا فى العدالة منها ، وهى الآمال التى انبثقت عن مبـــادىء ولسون فى عـــام ١٩١٨ (١) . واتضح فى عام ١٩٤٧ أيضـــا أن روسيا السوفياتية قد تورطت كذلك فى الاندفاع الصهيونى لخلق دولة لليهود فى فلسطين .

ونمت فى عقول أبناء هـــذا الجيل المنفعل ، المترقب رغبة عارمة لا تكتفى بمجرد الاصرار على تصفية كل سيطرة أجنبية فحسب بل تتطلع الى الحيلولة دون تمكن أية دولة من الدول العظمى من عقد تحالف مع أى جزء من أجزاء الوطن العربى . ومضت هذه الرغبة الى أبعد من الحيـــاد وعدم الانحياز اللذين تبنتهما الهند . فلقـــد كانت ناجمة عن الخوف من التورط فى أية أحابيل تعاهدية فى منطقة كانت تبدو حلبة مكشـــوفة لتصارع القوى العالمية المتضاربة . ولم يكن الحافز على هـــذه الرغبة فى البداية ايجابيا كحافز نهرو ، اذ أن نظرية تخفيف حدة التوتر السياسى بين الدول عن طريق « توسيع مساحة دول عدم الانحياز » ، لم تصـــبح وطيدة الاركان عند القوميين العرب المعاصرين الا بعد مدة طويلة . وكان الباعث العربى فى بادىء الأمر ، ذاتيا ينبع عن الرغبة الغريزية فى الدفاع عن النفس ، وذلك بعد التجارب المريرة القاسية التى مر بها العرب فى فترة تزيد على القرن لا مع دولة كبـــيرة واحدة بل مع مجموعة من الدول

= الصهيونية فيها مع خطط الاستعمار وأطماعه فى الوطن العربى . وعلى هذا تكون بريطانيا هى التى خلقت اسرائيل ومهدت الســـبيل وفق خطة منظمة مدروسة لخلقها عن سابق عمد واصرار لا عن مجرد تورط عارض .

- المعرب -

(١) يحـــاول الكتاب الغربيون ، حتى ولو كانوا من المنصفين كل الانصاف أو بعضه ، ان ينزعوا عن الحركة العربية التحررية والوحدوية طابع الأصالة المنبثق عن الواقع المادى والرسالة التاريخية . فهم يتهمون كل حركة عربية أصيلة بالارتباط بشكل أو بآخر بالتيارات الاجنبية ، فثورات فلسطين المتعددة انعكاس للتحريض النازى والفـــاشى ، وثورة رشيد عالى فى العراق حركة نجمت عن التحريض النازى ، واندفاع سورية الثورى ضد فرنسا ، من وحى الجنرال سبيرز والسياسة البريطانية ، وثورة العرب الكبرى بقيادة الزعيم الملهم الرئيس عبد الناصر ، اندفاعة متأثرة بالاتجاهات الشيوعية الى غـــير ذلك من الاتهامات والتخرصات التى يعرف مبتكروها أنها كاذبة وبعيدة عن الحق كل البعد . وليس ثمة من شك فى ان هذا القول بالآمال العربية فى أمريكا أو فى غير أمريكا ليس الا من قبيل هذه التخرصات لابعاد الاصالة عن الحركات العربية .

- المعرب -

التى أقحمت نفسها فى شئون الوطن العربى . وكان أبناء هـــذا الجيل الصاعد كثيرا ما استمعوا الى الحجج التى اصطنعها المستعمرون لتدعيم « المحالفات الصديقة بين الانداد » على نحو ما ورد فى المعاهدات التى تلت الانتداب فى تعابير ، فمجوا هذه الاساليب الاقناعية الحلوة الطعم الشائكة الملمس . فلا بدع أن رفضوا والحالة هذه مثل هذه الاوضـــاع ، فى أى جزء من أجزاء منطقتهم العربية التى نشدوا تأمين قواها الدفاعية عن طريق الوحدة والحصول على الأسلحة الحديثة بوسائل اســـــتقلالية . وحملت سياسات التحالف الدولية ومنح التسهيلات السوقية للأجانب اليهم طابع نسيج العناكب الجبارة التى تحـــاول الامتداد من الشمال الى الجنوب أو بالعكس . وكانوا يرون فى أى حلف تعـــاهدى أو قاعدة سوقية فى أى جزء من الشرق الاوسط ، مجرد زاوية لهذا النسيج يحاول الامتداد منها الى الأجزاء الاخرى فى الشمال والجنوب . والقاعدة الحربية التى يسمح بها فى العراق ، تؤثر على مصر وتورطها ، كما أن أية قاعـــدة فى مصر ، تؤثر على سورية وتورطها . ولم تكن هذه الآراء مجرد خيالات وهمية، ولكنها كانت تنعكس فى كل مناقشـــــة تجرى فى مجلس العموم البريطانى وفى كل تحليل تنشره صحيفة « التايمز » عن الاوضـــاع السوقية فى الشرق الاوسط ، وفى كل كتاب يصدر عن حجة غربى فى الشئون العربية ، ومن حق شبان العرب والحالة هذه أن يروا مثل هـــذه الآراء ، لا سيما وأنهم يلاحظون أن خبراء الغرب وساســـــته يتقدمون دائما بنظريات عن السوقية الموحدة للمنطقة .

وتبدو هذه الوحدة التى ينشدها العرب منبثقة على أى حال عـــن عقائد ايجابية من ناحية وعن املاءات الدفاع عن النفس من الناحية الاخرى وسأتناول الافكار المتعلقة بالوحدة العربية فى فصل مستقل هو الفصـــل الرابع عشر لانها تستحق مثل هذا التفصيل . ولكنى أرى لزاما على أن أدون هنـــا أن نمو العقيدة الوحدوية لم يكن مجرد عملية سهلة متماسكة تسير فى طريق تفرشها الورود . فلقد انهمكت مصر منذ عام ١٨٨٢ فى نضالها التحررى الخاص بها ، وظلت على هذا النحو من الانهمـــاك طيلة حقبتى العشرين والثلاثين من القرن الحالى . وشنق الاتراك فى المشرق العربى فى عام ١٩١٦ عددا من دعاة القومية العربية، كما نفوا عددا آخر منهم كما كمموا أفواههم . ومع ذلك ، فقد بزغت فكرة الوحدة العربية بعد انتهـــاء الحرب العالمية الاولى ، على شكل منشـــورات وقرارات ومذكرات ، تعيد الى أذهان الحلفاء العهود التى قطعوها على أنفسهم ابان الحرب والتى تجاهلوها فى فرساى ، ولكن معاهدات الصلـــح بما فرضته من تجزئات ألقت ستارا من الارتباك والتشويش على هذه المطامح الوحدوية . ووجدت القيادة المحافظة الجديدة فى أجزاء الوطن العربى نفسها مضطرة الى العمل ضمن هذا الاطار الجديد من الحدود المصطنعة ، وراح جميع أولئك الراغبين فى التعاون مع بريطانيا وفرنسا ، والذين ترتكز مصالحهم الاستثمارية النامية على هذه التجزئة الجديدة للوطن العربى ، يعملون خفية ضد الوحدة وان تظاهروا بالعمل من أجلها . ويمكن تلخيص هذا الوضع فى الفقرة التالية التى وردت فى مقال متأخر استعرض الحالة التى قامت فى حقبة العشرين ..

« وبدأ الناس وقد فقدوا شكلهم الاصيل • فاذا نظر الواحد منهم الى نفسه ، كانت نظرته هـــذه بعينين استعارهما من الغرب ••• واذا ما تناقشوا فى أنفسهم ، انحصر نقاشهم فى اختيار أى من الافكار العديدة المطلقة أو الافكار التى تخص كلا منهم يمكن تطبيقها على أوضاعهم •

وكثيرا ما تساءلوا هل هم من « الغربيين » أو من « الشرقيين » ، وهل هم من « العرب » أو من « السوريين » أو من «اللبنانيين» (١) •

ولكن فكرة الأمة العربية الواحدة ، التى تتخطى الحدود المصطنعة وتسمو فوق المعتقدات الدينية ، ما لبثت أن سارت فى طريق التقوى والرسوخ وان كانت بصورة متدرجة منذ أواسط العقد الرابع من القرن الحالى • وباتت هذه الفكرة تؤلف اقنوما من الاقانيم الثلاثة للجيل الصاعد فى شعاراته وهى التحرر من كل حكم واحتلال أجنبيين ، وعدم التورط فى أحلاف الدول العظمى ، تحقيق الوحدة العربية الوثيقة • وأدت الاحداث المتلاحقة التى وقعت ابتداء من مراكش وانتهـاء بفلسطين الى العثور على متنفس جديد ، حادولهذا الشعور المتولد بالاخوة العربية • وعملت طرق المواصلات الحديثة وانتشار التعليم بين العرب على اشباع الجيل الجديد بشعور من الجماعية العربية ، جماعية التراث الماضى ، وجماعية المشاكل الحاضرة وجماعية الآمال فى المستقبل • ولكن هذا الجيل كان يرى حيثما التفت ببصره ، تفرقة تسود شيوخه القابضين على زمام الحكم والسلطان وثبط هذا المنظر من عزائمه ، فهنـــاك منافسات سلالية بين الهاشميين والسعوديين وهناك ملكية فى مصر تحاول استغلال هذه الحزازات والصراع وهناك أطماع عبد الله أمير شرق الاردن فى مملكة أكبر ، وهناك مشاريع نورى السعيد وعبد الاله ، لتحقيق الهلال الخصيب ، وهناك الميول عند بعض القـادة السوريين الى العراق ، والميول عنـد البعض الآخر ضده • وتحولت سياسة بريطانيا الرسمية بعـــد عام ١٩٤٣ الى تشجيع ايجاد وحدة عربية أوثق عرى • (٢) لكن الجيل الجديد كان يرى فى الانباء التى تحملها الايام المتعـــاقبة تشجيعا من بريطانيا للمنافسات والمكائد التى تعرقل سير الوحدة العربية •

ويحتاج العامل الأخير الى شىء من الشرح والتفصيـــل ، فالشاب العربى الذى يزداد احساسه بالوطن العربى الذى يقع وراء الحـــدود المصطنعة للبلاد التى يعيش فيهــا ، يرى الفقر والفساد والاستعمار

---

(١) مقالة لالبرت حورانى عنوانها •• عشرون ســـنة من التبدل فى مجلة «منبر الشرق الاوسط » آيار «مايو» ١٩٥٧ •

(٢) يقصد المؤلف هنا تشجيع انطونى ايدن وزير خارجية بريطانيا آنذاك لقيـــام الجامعة العربية • ولكن كل عربى واع يدرك أن بريطانيا قصدت من خلق الجـــامعة العربية أن تكون أولا أداة لتكريس التجزئة القائمة فى الوطن العربى ومنع وحدته وهو ما أثبت الايام صحته ، وأن تكون ثانيا أداة تسخرها فى تثبيت مصالحها فى الوطن العربى •
(المعرب)

والصهيونية التى تضغط على جميع أجزاء وطنه – كما يراها – وتعيش على التفرقة الموجودة فيه • وبعد أن تشبع هذا الشباب بالآراء العلمانية «والعقلانية » التى تسود المجتمعات فى عرب القرن العشرين ، أصبح لا يرى فى عقائده الدينية حلا لمشاكله الدنيوية المعقدة أو وسيلة للامتزاج مع اتباع الديانات الاخرى فى وطنه • ولما كان قد نشأ فكريا على رؤية المشاكل الاقتصادية على ضوء الافادة المادية والمنسقة من الموارد الاقليمية ، فقد رأى أن منطقته تضيع هذه الموارد فى منافساتها الاقتصادية. ورأى وهو الذى تربى على رؤية التنافس الدولى فى العالم قائما بين مجموعات من الشعوب تتفق كل منها فى تفكيرها ومصـــالحها أن عكس هـــذا يقوم فى المنافسات الرسمية بين العــــرب أنفسهم • ومهما كان « المنشور » العدسى الذى يستخدمه فى دراسة عالمه الخاص به ، فقـــد تبين له أن الحاجة للوحدة ، الوحـــدة الحقيقية ، هى النتيجة الطبيعيـــة التى لاغنى عنها أبدا •

وكانت هناك تأثيرات عقائدية خارجية جديدة انطبعت فى مخيلته ، وفى طليعتها القوميات الاسيوية والفكرة الثابتة عن القومية المنبثقة من ألمانيا • وكانت الهند تعرض قومية متـــحدة لشعب يتحدث بمائتى لغة مختلفة وبلهجات تنتشر فى أكثر من خمسمائة وحدة اقليمية مختلفـــة • وظهرت من ألمانيا تيارات فكرية سياسية سبقت قيام النازية بأمد طويل ولكنها لم تصل الى الوطن العربى الا مع ظهور النازية ، وهى تتلخص فى فكرة غامضة عن « الشعب الواحد » اعتبرت أقرب الى الاوضـــاع العربية من فكرة « القومية » السابقة حسب مفهومها الفرنسى •

وأدى تفاعل هذه العوامل والتأثيرات كلها الى بروز شعار واحد منذ حقبة الثلاثين وهو شعار « القومية العربية » الذى بات مســيطرا كـــل السيطرة ، ويرتفع فوق كل هتاف • وتعنى كلمة القوم فى اللغة العربية الجماعة التى ينتمى اليها ابن القبيلة البدوى ، والتى يشعــــر نحوهــــا بالالتزام فى العون كما ينعم بما يقدمه اليه أفرادها من مساعدة ، دون تقيد بالمكان الذى يقيم فيه•وليس لكلمة القوم من مرادف دقيق فى اللغات الغربية • ولـــكن معنى هذه الكلمة مالبث أن تبدل فى حقبة الثـــلاثين فأضحت تعنى « الشـــعب الواحد » فى المفهوم الالمانى « للشعب » وباتت القومية تعنى «شخصية الشعب الواحد» التى تسمو فوق الحدود الرسمية ولا تتقيد بقيود المنشأ أو مكان الاقامة • وباتت كما فى وسعنا أن نقول ، العقيدة التى تحدد مفهوم «الشخصية القومية» التى يتلهف لتحقيقها الوطن العربى كله •

وأخذ الفرق الكبير بين مفهومى « الوطنية » « والقومية » فى البروز بشكل ظاهر فى التفكير القومى•وبدأ الناس يتحدثون عن الوطنية عندما يعنون الاخلاص الوطنى لدولتهم القائمة كالعراق مثـــلا • ولكن اتجاه أفكارهم بصورة متزايدة نحو الهـدف الاكبر من « الشخصية القوميـــة العربية » ، وهو اتجاه قضت به وعززته أوضاع المنطقة كلها ، جعلهم ، يتخذون من «القومية » الصورة القوية التى تجتذبهم وتستفزهم • وكان

الانقســـام بين المعنيين قويا ، نشيطا طيلة السنوات التى كانت الجامعة العربية فيها بميثاقها الواهى ، وكيانها المتراخى ، المركز الوحيد المتيسر الذى تلتف حوله أهداف العرب ومطامحهم . وليس ثمة من شـــك فى ان الفكرة القومية كانت نشطة فى مصر قبل قيام الرئيس عبد الناصر ، ولكنها كانت فى حاجة الى المحرك الذى يحركها والى القيادة الديناميكية التى تجعل منها الحلم الذى تتطلع اليه عيون الملايين .

وسرعان ما تممت هذه الاهداف الخارجية من استقلال ووحدة وحياد بأهداف داخلية ترمى الى الاصلاح . وكان الشبان والشـــابات الذين يعودون من الدراسة فى الغرب ، أو يتطلعون الى بلادهم فى منظار كتاب مدرس غربى فى كلية من كليات الشرق الاوسط ، يحســـون بشـــعور من المهانة والخجل يغمرهم تماما ، وكانوا من الناحية الطبقية أقرب الى جماهير الفلاحين وساكنى المدن من أسلافهم ، بل أقرب الى تلك الفئات من أبناء الطبقة الوسطى وفق المفهوم الغربى لهذه الكلمة . وكان لهم جميعا أبناء عمومة من الفلاحين الاميين الذين يجهلون القراءة والكتابة ، وللكثيرين منهم جذور فى قرى الريف أو فى المدن التى تضـــم « الاسرة » الواحدة منها المئات . وكانوا يحسون بالغضب والسخط على مايبديه كبارهم من عدم اكتراث بهذه الاوضاع من الفقر والمرض والجهـــل التى تسود مجتمعهم ، وعلى انغماس هؤلاء الكبار فى حياة بيروقراطية بالية ، واغراقهـــــم فى المحسوبية والابتزاز والافتقار الى الكفاية ، اغراقا يسير فى طريق الزيادة لا فى طريق النقصان . ولا بدع والحالة هذه اذا ما تطلع الشبان بلهفة وتشوق الى ظهور ــ القيادة الصـــافية النظيفة ، السامية فوق الفساد ، البعيدة عن الاثرة ، المتصفة بالحزم والارادة .

وكان النظام الجمهورى مطلبـــا متأصلا فى سعيهم الى الاصـــلاح الاجتماعى . فهم ينظرون الى مثل أمريكا وفرنسا فى الغرب ، والى مثلى الهند وأندونيسيا فى الشرق ، ويقارنون بين أوضاع هذه البلاد كلها وبين السجل الطافح بالشرور للملكيات العربية . لم تكن هناك ملكيات عربية ذات جذور وتقاليد عريقة ، فالعروش والامارات التى أقيمت فى عام ١٩٢٠ كانت من صنع بريطانيا وخلقها . وكان فى وسع هذا الجيل الجديد من أبناء المدن أن يتسامح وأن ينظر بشىء من الاحترام لهذه الملكيات ، ولكنه لا يجد مكانا فى تفكيره مطلقا لذلك الاستهواء الذى تثيره ملكيات الصحراء البدوية فى عقول الغربيين . فطراز القيادة الذى ينشده هو النقيض تماما لهذا الذى يبرز فى المجتمع البدوى الذى يعتبره مجتمعا عتيقا باليا . وكان هذا الميل الـــذى يراه أبناء الجيل الجديد عنـــد الغربيين لذلك المجتمع يستثير سخطهم لما يحسون به من اذلال ، ولأن هذا الموقف يتناقض كل التناقض مع المفاهيم التى أعجبوا بها فى الغرب .

وأخذت « الاشتراكية » « والديموقراطية الاشتراكية » تجـــتذبان هذا الجيل بدرجة متزايدة . ولكن النظام الداخلى الذى يتحكم فى بلادهم والذى يعارض هذه الافكار متصل اتصالا وثيقا بالدولة العظمى الخارجية التى يقف نظامهم عاجزا أمام ماتفرضه على عالمهم من حصار وضيق .

ولذلك نرى هذا الجيل الجديد ، من رجال ونساء يؤمنون ايمانا متزايدا بهذين التحديين ، ولا ريب فى ان هذا الالتحـــام بين القومية والحياد فى الســـياسة الخارجية والميل الى الجمهورية والاصلاح الاجتماعى فى الشئون الداخلية يعتبر من اكثر الاتجاهات جوهرية فى تاريخ الشرق الاوسط فى أواسط القرن العشرين . ويختلف هذا الاتجاه ، عن اتجاه الجيل المماثل من القوميين فى الهند ، فلقد كان اشتراكيو حزب المؤتمر الهندى ، يتوقعون الوصول الى السلطان الســـياسى فى البلاد ، فور جلاء البريطانيين عنها . وكانوا يدركون كامل الادراك وجود قوى فى المجتمع الهندى مغرقة فى محافظتها » وفى عتيق تفكيرها ومناهضتهـــا للاشتراكية . ولكن هذه القوى لم تكن تملك أى سلطان سياسى قوى فى ظل السادة « الراجات » البريطانيين ، كما أن حركة المؤتمر الهندى نفســـها كانت تضم عددا من اللااشتراكيين أو مناهضى الاشتراكية ، وفى مقدمتهم رجل المال الـــكبير بيرلا ، الذى اجتذبه نداء غاندى الى الحركة الوطنية . وكان من الممكن بالنسبة الى الاشتراكيين الهنود ، أن يقودوا حركة نضال وطنى صادق ضد « السيد » البريطانى ، فى الوقت الذى يضـــعون فيه الخطط ، وهم فى أتم الثقة من قدرتهم على التنفيذ ، لوضع برنامج متطرف للاصـــلاح الاجتماعى الداخلى بعد الاستقلال . أما فى الشرق الاوسط العربى ، فان الجيل المماثل للجيل الهندى ، لم يـــكن على ثقة من قدرته على تحقيق ما يشاء من اصلاح اجتماعى ، بعد الانتهاء من مرحلة التحرر فالفئات المختارة ذات السلطان ، القائمة على الحكم فى دول ذاتية الحكم وظاهرة السيادة ، مرتبطة على ما يبدو بالســـيطرة الخـــارجية . وكان من الصـــعب تصور قيام هذه الفئات بحركة ثورية فى الاتجاه الخارجى ضد الاستعمار ولذا كان من الصعب أيضا تصورها ، وقد أخذت على عاتقها مهمة ثورية اجتماعية فى الاتجاه الخارجى . ولقد طال أمد انتظار هذا الجيل كما قال الرئيس جمال عبد الناصر .

« اننا لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن ، وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور ، فنوقف مرور الثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشىء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان ، وننجوا من أن يطحننا شقا الرحى ، وكـــان لابد من أن نسير فى طريق الثورتين معا » .

ولكن لم لم تنشأ حركة سياسية وحدوية عظيمة تعكس كل هذه الآراء الفتية ؟ ولم لم تقم أحزاب متماسكة فى أهدافها ونشيطة فى عملها لتعكس هـــذه الآراء فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى ؟ لعل خير وصف ، يصدر عنا الآن وبعد انقضاء هذا الامد الطويل ، هو أن نقول ان هذا الجيل من رجال ونساء قد ولد بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أو بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ بصـــورة خاصة ، وانه كان يتصف بالغموض وعدم التبلور الكامل فى الشكل . ولقد كان هـــذا الجيل على هذا النحو من الغموض وعدم التبلور عنـــد ما شرع فى الوصول الى الحـــكم فى حقبة الخمسين ، وأسهم غموضه فى توسيع هوة الخـــلاف وعدم التفاهم بين

العرب والغربيين فى هذه الحقبة . ونحن فى الغرب لا نستطيع أن نفهم وجود تيارات سياسية اجتماعية ، الا اذا كانت صادرة عن أحزاب قائمة منظمة ومتناهية القوة وواضحة ، ولها برامجها التى نستطيع فهمها ، وقادتها الذين نتمكن من تمييزهم ودراستهم ، واحترامهم بالنسبة الى مواقفهم وأفكارهم . ولم تكن هذه الاوضاع ظاهرة لنا بالنسبة الى الجيل العربى الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠

وفى وسعنا القول بصورة عامة أن أفكار هذا الجيل القلقة قد انعكست فى ثلاث مجموعات . فالى اليمين مجموعة قوية من الاخوان المسلمين يقودها حسن البنا . وقد دأب منذ عام ١٩٣٤ على تأسيس فروع للاخوان فى خارج مصر . ونادى ابان الحرب العالمية الثانية بالحياد وانشأ جهازا ارهابيا ذا خلايا سرية مزودة بالسلاح والذخيرة ، ومدربة تدريبا عسكريا . وحقق للحركة سمعتها فى حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، عندما قاتلت وحدات متطوعة من الاخوان بشىء من التعصب والبسالة ، وحاول البنا فى فترة الاضطراب التى وقعت فى مصر فى شتاء ذلك العام ، الوصول الى الحكم ، ولكن الحكومة قابلت الحزب بحملة من الاعتقالات والارهاب وقام أعضاؤه باغتيال النقراشى باشا ، ولم يحل فبراير (شباط) عام ١٩٤٩ ، حتى أغتيل حسن البنا نفسه اما بتحريض من الحكومة القائمة أو على ايدى الفئات الارهابية الخاصة التى كان فاروق قد ألفها . وضعفت المنظمة بعد ذلك فى السنوات الثلاث التالية وان ظلت تجتذب اتباعا لها من الفلاحين وعمال المدن والموظفين والطلاب وبعض المثقفين فى مصر ، وجماعات أقل عددا فى سورية والاردن والسودان .

ووقفت الى الطرف البعيد الآخر فى اليسار ، ظلال وجماعات مختلفة من الشيوعيين . وقد شرع فى تأليف هذه الخلايا فى مصر منذ عام ١٩٢٠ وفى سورية والعراق ابان حقبة الثلاثين . وعلى الرغم من أن الشيوعية قد تمكنت من تحقيق بعض التقدم عن طريق النقابات العمالية الناشئة ولا سيما فى مصر ، الا أن الاحزاب الشيوعية ، كأحزاب ، كانت محرمة طيلة الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، بقرارات الحكومات المحافظة وتحت تأثير الدول الاستعمارية ونفوذها . ولم تقم البلاد العربية أية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتى الا فى حقبة الاربعين ، واقتصر اهتمام السياسة السوفياتية فى المنطقة نفسها طيلة هذه الفترة الاولى ، على العناية بشئون الكنائس الارثوذكية الشرقية ، وعلى بعض النشاط فى ايران . ولكن هذا النشاط الشيوعى ما لبث أن تزايد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ومضت السفارات والمفوضيات السوفياتية الجديدة الى العمل ناشطة كل النشاط . واتسع الاهتمام بالحليف السوفياتى الظافر للدول الغربية وسرعان ما تألفت « اللجان الوطنية للعمال والطلاب » وكذلك « جماعات التحرر الوطنى » .

ولكن النشاط الشيوعى فى الوطن العربى فى حقبة الاربعين لم يكن أكثر من مجرد تعبير عن القلق والسخط ، وعن البحث عن أفكار جديدة وأسلحة يمكن استخدامها ضد الاستعمار وأعوانه . وليس ثمة من

شك فى أن قوى قاسية من الشيوعيين المدربين المتفانين فى عقيدتهم قد نشأت فى مصر وسورية والعراق ، لكن ما وقع من اضطرابات ومظاهرات وما تألف من لجان محلية وما صدر من منشورات بين آونة وأخرى ، لم تكن الا ثمرة نشاط شبان لا يعرفون شيئا أو شيئا حقيقيا من الماركسية – اللينينية ولا يحملون لها أى ولاء ولم تكن سمعة الاتحاد السوفيتى نفسه عاملا واضحا مؤكدا ولا سيما بعد أن أيدت موسكو مشروع تقسيم فلسطين لعام ١٩٤٧ فى الامم المتحدة ، وبعد أن أسرعت روسيا على الفور للاعتراف باسرائيل بعد خلقها فى عام ١٩٤٨ . ولم يؤد استخدام المسلمين الروس فى السفارات والمفوضيات السوفياتية الى أية نتيجة ، اذ أنه لم يلق هوى لدى غالبية أبناء الجيل الجديد الذين اتجهت افكارهم اتجاهات علمانية (١)

واستقرت المثل والنظريات الرئيسية لهذا الجيل وسطا بين هذين الطرفين المتباعدين . وكانت هذه المثل والنظريات المنبثقة من الوسط تتلخص فى القومية والحياد والوحدة وتبنى النظام الجمهورى والاصلاح الاجتماعى الذى ينشده الشبان والذى توصلوا اليه بعد أن خبروا كافة الآراء والنظريات للفئات التى انضموا اليها ولكنهم سرعان ما خرجوا منها بعد أن تبينوا عجزها عن أن تحقق لهم أى تقدم فى المضمار السياسى . وكثيرا ما لجأ هؤلاء الشبان الذين كانوا يعيشون وكأنهم فى دوامة بين مد وجزر ، وفى خضم التجارب والاستهواء الى البحث عن قيام حزب شجاع جديد ، لا يلبث أن يبزغ ويلقى التأييد الحماسى حتى ينهار تحت وطأة الانقسامات الداخلية أو اضطهاد رجال الشرطة .

ولكن لم كان يقع هذا ؟ تنبثق أسباب عدة من العوامل التى سبق لنا أن شرحناها . فلقد كان فى امكان السلطة الفرنسية أو البريطانية ، فى القسم الاكبر من هذه المدن أن تقضى على نشاط أى حزب تعتبره خطرا اما عن طريق العمل المباشر فى ظل الانتداب ، أو عن طريق اظهار الامتعاض لأنظمة الحكم القائمة التى تأتمر بأمرها . وكانت هذه الانظمة

---

(١) اعتقد ان المؤلف قد غالى كثيرا فى تقدير قوة جناحى اليمين والشمال . فى تيارات الفكر العربى الحديث . وقد يقال ان جماعة الاخوان المسلمين وجدت فى يوم ما تأييدا جماهيريا واسعا . اذ انها كانت ، اذا ما استثنينا الحركة الشيوعية التى لا يمكن ان تلقى تأييدا على نطاق واسع فى الوطن العربى بسبب تصادمها من الناحية العقائدية مع الفكرة العربية العارمة المتطلعة الى الوحدة الشاملة للوطن العربى ، الحركة المنظمة الوحيدة الكبيرة التى استهوت الجماهير برفعها شعارات مكافحة الاستعمار فى تلك الحقبة من التاريخ العربى الحديث . ولكن هذه الحركة ما لبثت أن فقدت انصارها بعد قيام ثورة مصر التحررية الصادقة فى صراعها مع الاستعمار وبعد أن تكشفت الحركة للرأى العربى الواعى على حقيقتها التعصبية مما يتناقض مع مفاهيم القومية العربية الصحيحة ومع أسس التفكير العالمى الحديث .
(المعرب)

تسحق الحركات واحدة اثر أخرى وتسكتها ، فلقد أغلق نورى السعيد
حزبى الاستقلال والوطنى الديموقراطى أكثر من مرة • ولم يكن فى وسع
الاشتراكيين فى سورية أن يشقوا طريقهم بنجاح أمام تجمــع من عناصر
الاقطاعيين والتجار وشيوخ القبائل فى أية انتخابات نيابية •وأرادبعض
شباب حزب الوفد فى مصر ، ان يصلحوا حزبهم ويطوروه ضمن الاطار
الحزبى ولكنهم كانوا يصطدمون دائما ويفشــلون نتيجة معارضــــة
آبائهم لهم •

وكانت طاعة رب الأسرة وما زالت قوة لها خطرها الكبير فى مجتمع
الشرق الاوسط • وكان تحدى السلطان المسيطر فى المنطقة التى يعيش
فيها أى شاب ، يتطلب من هذا الشاب الكثير من الشجاعة ، كما قد يورطه
فى خطر خسارته لما يشعر به من أمن فى ماله وعمله ومكانته الاجتماعية

ويرى هذا الشباب أن كل من فى مجتمعه يمت اليه بصلة القربى
أو بعلاقة ما من العلاقات • فهذا المجتمع يشكل هرما ألف احترام الشيوخ
من الاثرياء • الذين يفوزون عادة بالمقاعد البرلمانية ، واحترام الذين يحتلون
مكانة اجتمــاعية بارزة فى المدن والبلدان الصغيرة ، أو الذين يؤيدون
احدى الشخصيات المحافظة الكبيرة • وقد يغدو الشاب من غلاة المنادين
بالاصلاح وهو فى مدرسته الثانوية أو فى الجامعة التى التحق بها سواء
أكانت جامعة هارفرد او كمبردج أو السوربون أو القاهرة أو دمشــــق
أو بيروت الامريكية • ولكنه لا يكاد يخرج من جامعته ، ويواجه الضرورة
الماسة للحصول على عمل ، حتى نراه يصبح أقل حماسة فى التعبير عن
آرائه • وكان الشاب اذ ما خرج الى الحياة العملية فى السنوات الاخيرة
من النظام القديم وجدنفسه وسط فوج ضخم من الشبان المتعلمين الذين
لاتكاد الوظائف الحالية ، ان وجدت، تكفى لجزء قليل منهــم • ولوأسعفه
الحظ ووصل الى وظيفة من الوظائف فانه كثيرا مايكون فى هــذه الحالة
مدينا بها الى نفوذ الكبير فى أسرته • الذى يود هذا الشاب لو أطاح به
وبأفكاره وبالدور الذى يلعبه فى النظام القــائم • أما اذا حرم الشاب
من الوظيفة فانه يظل فى هذه الحالة عالة على أسرته •

وكانت الاوضاع ابتداء بدار الاعتمـــاد البريطانية أو الفرنسية أو
بسفارة احدى هاتين الدولتين ، ومرورا بالقصر والحكومات الرجعية ،
والبرلمانات التى يسيطر عليهــا الاقطاعيون والمرتشون والفاسدون ،
وانتهاء بالعلاقات العائلية الشخصية ، أشبه ما تكون بستار كثيف ، محكم
الغطاء من القمع والكبت والمرارات يلقى بثقله على هــذا الجيل الجديد
وكانت مثالية الكثيرين من أبناء هذا الجيل أيضــا هشة سهلة التكسر
ومفتقرة الى القوة الذاتية على الاحتمال • وكثيرا ما وجد هؤلاء ، أن من
الاسهل عليهم لو استسلموا ، ورفعوا أيديهم علامة الاذعان •

هذه هى بعض الاسباب الواقعية ، المشروعة التى تجعل من حقنــا
التحدث عن وجود « جيل مختلف » تحت القشرة الظاهرية لمجتمع الشرق
الاوسط على النحو الذى كان الغرب يراها فيه قبل حقبة الخمسين ، وهو
جيل سرعان ما تخاذل وانحرف فى الازمان الثورية التى وقعت فى هــذه

الحقبة نفسها • ولكن كانت ثمة أسباب عقائدية أساسية أيضا • فلم
تكن تلك الفترة من نوع الاوقات التى توصل النــاس عادة الى التفكير
الهادىء والمناقشات الطويلة المدى • ولقد كانت جميع أوضاع المجتمع
العربى مناهضة لأى تطوير منظــــم يقوم على أساس برامج سياسية
واقتصادية متبادلة التحدى ، واضحة ، مميزة •

وكان العرب يحاولون منذ عام ١٨٥٠ تقريبا أن يدرسوا فى حقب
قصيرة التجـــارب التى مررنا نحن بها فى الغرب عبر قرون طويلة ،
وأن يفهموها ويطبقوها ، على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون يعيشون فى
دوامات من الضغط السياسى الدولى ومن التبدل المستمر فى حكامهم ،
من العهد العثمانى فى مصر مثلا الى عهد الاسرة المالكة الجديدة ومنها الى
الاحتلال البريطانى ومن الاتراك العثمانيين فى البلاد العربية الاخرى الى
فترة قصيرة من الامل فى الاستقلال ومنهــا الى حكام غرباء عنهم • واذا
نظرنا الى الامور على هذا الضوء ، تبين لنا أن التطورات التى وقعت بين
عامى ١٨٠٠ و١٩٢٢ كانت مهمة وبارزة كل البروز • وبات فى وســع
الشبان العرب أن يدرسوا الآن وأن يهضموا تقنية الغــرب الحديثة فى
الطب والهندسة والزراعة وعلم الطبيعة والكيمياء والاســاليب الفنية
الصناعية • ولكن ترى كيف يمكن تطبيق أفكار الغرب الحديثة فى الحقلين
السياسى والاقتصـــادى فى مجتمع يختلف كل الاختــلاف فى تكوينه
الاجتماعى ومدى التعليم فيــه ، وطرق التعبير السياسى فيه عن مجتمع
الغرب؟ فلم تشهد البلاد العربية ثورة صناعية.ولم تقم فيها طبقة عمالية
صناعية • وليس فيها أيضا طبقة وسطى بالمعنى الغربى من الــكلمة •
فكيف يمكن للشاب العربى أن يجد فى حقل التجارب الغربية نظـريات
وبرامج للتقدم الاجتماعى – الاقتصادى تقوم على العنصر الفرد الوحيـــد
والعظيم فى مجتمعه وهو الطبقة العمالية الزراعية التى تميزت بالتراخى ،
والتى قتلها الفقر ، وتأخرت فى حقل التقنية الجديدة •

ولم تكن « الاشتراكية » لهــذا الجيل الا مجموعة من المثل المعممة
التى تهدف الى تصفية السلطان السياسى لطبقة ملاك الاراضى والرأسماليين
التجار ، لمصلحة جماهير الفلاحين التى تؤلف ثمانين فى المائة من الشعب •
وكانت اشتراكيته أيضا مزيجا من التأثيرات الخارجية المنبثقة عن الثورة
الروســية والاشــتراكية الفابية البريطانيــة وسياسة التوزيع الجديد
الامريكية وميثاق الاطلسى ومشروع بيفردج • ولا ريب فى الاستنتاج
بأن هذه الاشتراكية كانت تفتقر الى الوضوح فى التفكير ، صحيح وواقع
الى حد كبير • وقد يكون فى امكان المسترخى فى مقعده المريح فى الغرب
أو الجالس فى مكتبه الصحفى هناك ، ان يستخف بالمشاكل الموجودة فى
الشرق • ولكن عندما يقف المرء فى قرية عربية ويشرع بعين عقــله فى
حساب الارقام والمشاكل الاجتماعية التى قد تواجه العربى الساعى وراء
الاشتراكية ، ثم يأخذ فى مقارنة كل ذلك مع ما يماثله من أرقام ومشاكل
فى الغرب فانه سرعان ما يخجل من استخفافه السابق ، ويختلط عطفــه
بالسؤال الحائر الذى يسيطر على كل لب وفؤاد ••• وهو ••• ترى من
أين نبدأ ؟ ولم يكن الشبان العرب بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٤٧ قد أفادوا

حتى من النتائج التى يمكن أن تتمخض عن الاستعمار المباشر سواء أكان بريطانيا أم فرنسيا ، عن طريق التجارب المستمرة فى حكم القانون وحق الاجتماع ، والخدمات المدنية والتعليم الجامعى ، والصحافة والطباعة ، والنقاش فى القضايا السياسية والاجتماعية على الاسلوب الغربى (١) . ولم تكن العلاقة مع الفكر الغربى فى الشرق الاوسط ، وثيقة فى يوم ما على النحو الذى كانت فيه فى تلك الايام ، فهى تستفز شباب الجيل الجديد فكريا وادراكيا من ناحيـة ، هى تدعو الى خلق المرارات وعدم الفهم من الناحية الأخرى اذ أنها متنكرة وراء شعار من النظام القديم القائم .

ولم يكن فى امكان هذه الاوضاع العقائدية والتنظيمية ان تؤدى الى نشوء حركة سياسية قوية ، ثابتة ، منظمة ، جيدة الفـكر ، يكون فى استطاعتها أن تبدل النظام القائم . لكنها أدت من النـاحية الأخرى الى شعور عميق ، منفعل ، من المرارة والتجربة وحياكة المؤامرات التافهـة وتأسيس الاحزاب الجديدة الضئيلة ، والى ساعات لاعد لها ولا حصر من المناقشات السياسية العقيمة فى المقاهى ، وكذلك الى تفجرات عاطفية عنيفة تصل الى القمة أحيانا ، عندما يشعر أفراد الجيل بحادث فيه بعض الاذلال لكراماتهم يتعلقون به وكأنه القشة الاخيـرة وحملت المـرارات والاضطهادات والصراعات الداخلية بين المثل العليا والمصالح الشخصية كثيرا من الشبان على هجر السياسة كنشاط قذر ولا جدوى منه. فكل شىء انحلال وعار ، وقد ظلت النتائج حتى يومنا هذا متمثلة فى القلق السياسى والافتقار الى الفكر المركز ، والى خلق جو من الانشغال بالمشاكل الآتية يوما بعد يوم ، ووجود تفاؤل يعود الى فروغ الصبر حتى فى الحقبة الجديدة التى ما زال الوصول الى الاهداف فيها بعيدا كل البعد .

الضباط الشبان :

وانطوى هذا الجيل على مجموعة من الشبان الذين يمكن أن ينسبوا الى « الطبقة الوسطى » القلقة الوجود ، والذين قدر لقلقهم أن يلعب دورا حاسما كل الحسم . واذا ما استثنينا الصحراء ، حيث يسكن البدو ، أمكننا القول بأن الشرق الاوسط ، كان خاليـا من التقاليد العسكرية العريقة ، اذ لم تكن هناك كتائب وأفواج يرجع تاريخها الى قرون خلت ، يتولى قياداتها التقليدية ضباط ينتمون الى الاسر الارستقراطية ، ويشبعون بمفاهيم الولاء للدولة أيا كان شأنها وشكلها ، لانهم يؤلفون جزءا منها . وعندما شرعت الجيوش الجـديدة الصغيرة فى النمو والتطور فى مختلف أرجاء الوطن العربى كان ضباط هذه الجيوش ينتمون الى الطبقة الوسطى الجديدة الناشئة من قاعدة الطبقة الفلاحية التى كنا قد تحدثنا عنهـا من قبـل . وكان بعض الشـبان ينضـمون الى سلك الضباط بعد الدراسة الثانوية أو بعد قسط أعلى من التعليم العالى

---

(١) هذه الفوائد التى يشير اليها المؤلف وينسبهـا الى الاستعمار لاتعدو أن تكون سطحية وفى القشور دون اللباب ، ولذا لايمكن النظر الى الاستعمار على انه ذو فوائد أبدا . (المعرب)

لان الحياة فى هذا السلك ، كانت تضمن لهم الامن والطمـأنينة ولأن بعضهم كان ينظر الى العمل فى الجيش على انه وسيلة لخدمة الشـعب وكانت مراحـل التعليم التى مروا بها قـد بثت فى نفوسـهم نفس وجهات النظر الاساسية التى سادت الجيل الجديد كله . والتى شرحناها من قبل ، وعملت دراساتهم العسكرية اللاحقة فى الكتب الغربية على تقوية هذه الآراء فى نفوسهم ودعمها .

ولكن تحتم عليهم فى حقبة الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ أن يلعبوا دورا يبعث فى نفوسهم الكثير من الشـعور بالمرارة والخجل . ولم يكن من الامور السهلة على نفوسهم أن يتلقوا الاوامر باطلاق النيران على مواطنيهم عندما يتظاهرون احتجاجا على السياسات التى تلحق المهانة بالجيش الوطنى بنفس الدرجة التى تلحقها بالشعب كله . وكان الضباط الشبان فى جيوش مصر وسـورية والعـراق والاردن يشعرون بأن لندن وباريس تنظر الى جيوشهـم بعـين الازدراء . وهم يرون عندما يؤدون نوباتهم فى حراسـة القصـور الملكية ، أو ينفذون واجبا اخر من واجبات الدولة ، وفى تصرفات بعض رؤسائهم من كبار الضباط ، صورة الفئة المختارة المريضـة الفاسدة التى تتحكم فى بلادهم . وكان من الضرورى بالنسبة لهم أن يدركوا أنهم لا يزيدون فى ميولهم الديموقراطية ، على اخوانهم من المدنيين من أبناء نفس الجيل ونفس الطبقة اللذين ينتمون اليهما ولكن مع مرور السـنوات ، لم تظهـر فى الأفق أية دلائل على أن الاستقلال قريب أو أن الاصلاح الداخلى ممكن عن طريق النظام القائم ، وشرع هؤلاء الضـباط الشـبان فى التفكير بما على جيوشـهم من واجب أساسى يتصل بالدولة والشعب . وكانوا يرون أن هدف العسكريين ليس الوصول الى الحكم بل الدفاع عن الذين يحكمون من أعدائهم سـواء أكانوا من الخارج أم من الداخـل . وعلى هـذا الأساس يجب أن تكون الحكومة التى يدافعون عنها صـالحة تسـتحق الدفاع . أما اذا كانت الحكومة غير صالحة لأن يدافع الجيش عنهـا ، فان على العسكريين اختيـار أحد السبيلين اما قبول الفساد الراهن المستشرى واما التدخل فى الشئون المدنية ..

ولم يكن هنـاك أى احساس لدى العسكريين من الشـبان بالتفوق على المدنيين أو بالتميز الطبقى ، عندما يتولد لديهم الاعتقاد بأن من حق الجيش أن يتدخل . وليس ثمة من ريب فى أن حملة الغربيين على تدخل الجيش فى الشئون العامة للشعب ، قد أضافت مزيدا من التوتر الى العلاقات بين العرب والغرب فى حقبة الخمسين فهؤلاء الضباط الشبان يرون أن الجيش هو العنصر الوحيـد فى مجتمعهم الذى يمثل جماهير الشعب الذى يستمد الجيش منـه ضباطه وجنوده . ولم تكن لديهم رغبة قوية عارمة فى السـلطان السياسى . ولكن سير الاحداث فى السياسات المدنيـة فى بلادهم دفعتهم شيئا فشيئا الى الفـكرة التى تأصلت لديهم بوجود قوة واحدة ليس الا تنبثق من صـميم الشعب ، ويثق أفرادها بعضـهم ببعض ، قادرة على القيام بعمل حازم حاسم .

وكان تفاؤل هؤلاء الضباط الشبان قويا وهائلا ، فقد آمنوا بأن دورهم سيكون فى حماية أهداف الشعب ليس الا ، واعادة الضالين الى سبيلهم السوى « ولقد قال الرئيس عبد الناصر فى مستهل عهد الثورة » « وأما دورنا فيه فهو دور الحراس فقط لايزيد ولاينقص ، الحراس لمدة معينة بالذات موقوته بأجل ... وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ، ثم يتركهم يواصلون السير » .

وكانت لهم ثقة عمياء بأن الفرج سيتحقق بالقضاء على العهود البائدة . وكان ايمان الضباط الشبان منصبا فى البداية على انه بعد انقضاء فترة قصيرة نسبيا سيتمكن الجيش من انهاء السيطرة الاجنبية والقضاء على الفساد الداخلى ، وآنذاك يمكن لهم أن ينسحبوا تاركين أمر الثورة الداخلية القائمة على أسس الاصلاح البعيد المدى ، والتقدم الى نظام سياسى مدنى يتجدد شبابه يضم نفرا من الذين يحظون بثقة الأمة .

ولقد قال الرئيس جمال عبد الناصر فى هذا المعنى ...

« لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو . أن الامة كلها ، متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ...

« ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ... كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ... وكنا فى حاجة الى النظام فلم نجد وراءنا الا الفوضى ، وكنا فى حاجة الى الاتحاد فلم نجد وراءنا الا الخلاف ، وكنا فى حاجة الى العمل فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل ..»

وكل من يلاحظ هذه الاقوال المنبثقة عن سلامة الطوية وخيبة الامل المرة الواضحة ، من الضابط الشاب الذى قاد أول ثورة حاسمة فى تاريخ هذا الجيل ، والتى سنرجع اليها فيما بعد ، يجد ان هذه الاعترافات الصريحة التى صدرت عنه فى عام ١٩٥٤ كانت تعكس ايمانا وأملا ، يستحقان حتى قبل أن تحل نهاية النظام القديم بما فيهما من مثالية ، احترام المراقبين الغربيين ودهشتهم . ففى هذه الاقوال ، وفى خضم هذا البحث عن الافضل فى الشرق الاوسط العربى ، طراز من المثالية التى جرى الغرب على احترامها والتأثر بها ولكن مأساة الغرب ، تقوم فى أنه لم يستطع تمييز هذه المثالية الخفية قبل أن تنطلق الى السطح ، وفى انه لم يكن ميالا الى اخذ « العرب » بمحمل الجد . ولعل من السخريات المرة أن شبان هذا الجيل الجديد من العرب وشاباته ، كانوا يحاولون بطرائقهم وعلى صعيدهم أن يطبقوا كل ماحققه الغرب فى الماضى من منجزات أملا منهم فى أن يؤدى ذلك الى مستقبل افضل لشعبهم . ولكن اعين ساسة الغرب عميت عن رؤية الحقيقة متأثرين باستهواء الصحراء

لهم ، وبما تركته التراثات الثقافية الاخرى فى نفوسهم من غضب وفزع ، فعملوا على ابعاد ابناء هذا الجيل عنهم بمختلف السبل والوسائل .

* * *

وبدأ النظام القديم فى الشرق الاوسط فى التداعى اعتبارا من عام ١٩٤٦ ، ولاسيما فى مصر . وكانت فكرة اضطرار الجيش الى القيام بالعمل نتيجة مايبدو على المدنيين من ضعف قد شرعت فى النمو منذ عام ١٩٤٠ . وكان لابد من أن يهوى كيان هذا النظام القديم مزقا فى حقبة الخمسين اما فى مصر أو فى أى مكان آخر نتيجة وطأة السخط الاجتماعى والتذمر الوطنى . وسرعان ماوقع حادث قدر له ان يمثل دور المسارع أو الحافز . الذى يضم كافة الشكاوى والآلام ومشاعر الذلة والهوان .

فلقد حطمت كارثة العرب فى فلسطين فى عام ١٩٤٨ – ١٩٤٩ الشرق الاوسط من أسسه وقواعده . وعكست هذه الكارثة الصورة التى لامكر فيها ولا استخفاء جميع الشرور ونواحى الضعف التى كان الجيل الجديد قد شرع فى مقتها واستنكارها وكانت القنابل اليدوية تنفجر فى أيدى الجنود العرب بسبب تسلحهم بالاسلحة الفاسدة التى استوردت بطرق فاسدة. وأتيحت للدولة الدخيلة الجديدة التى صدر الامر للجيوش العربية بمهاجمتها ، الفرصة لاعلان وجودها عن طريق دعم الانتداب البريطانى لها ، وتأييد أمريكا وروسيا الدبلوماسى لقيامها ، والضعف المستشرى فى الجامعة العربية بسبب ما تتنازعها من خلافات ومناقشات بين دولها الاعضاء وافتقرت الحملة العربية العسكرية الى التنسيق ، عاكسة التجزئة التى فرضها الاستعمار على الامة العربية والتى استغلها الحكام السائرون فى ركابه ، وراح الشبان العرب الذين عادوا من فلسطين . العسكريون منهم والمدنيون ، وقد ساءتهم الحيرة والذهول ، يتطلعون حولهم الى كل اتجاه وهم يتساءلون ... هل وقع مثل هذه النكبة فى أى مكان آخر غير فلسطين وهل شهد القرن العشرون فى أى مكان آخر ، مجموعة من الغرباء يسمح لهم بالمجىء الى بلاد ماهولة بشعبها لاقتحامها ، ولاعلان دولة لهم فيها، يطردون منها أهلها (١) ؟ وكيف يمكن لهذه الجماعة التى لا يربو عددها على

---

(١) أثبتت المقالات التى نشرها وليد الخالدى فى أعداد « منبر الشرق الاوسط » فى صيف عام ١٩٥٩ ، والمقال الذى نشره المؤلف بعنوان «الخروج الثانى » فى مجلة السبكتاتور بتاريخ ١٢ ايار«مايو» عام ١٩٦١ والمقال الذى نشره فان دير هوفن ليونارد فى لاهاى بعنوان «الحقيقة عن فلسطين» فى عام ١٩٦٠ ، والمدعومة كلها بالوثائق والمستندات ، كذب الادعاء الصهيونى بأن عرب فلسطين هربوا من بلادهم تنفيذا لأوامر زعمائهم . ويبدو أن الغرب متأثر بأباطيل الصهيونية ودعاياتها الكاذبة لم يعرف أن عرب فلسطين قد أخرجوا من ديارهم تحت وطأة الارهاب الصهيونى . ولكن العرب كانوا يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة . وعلى ضوء ذلك يمكن فهم ماتركته هذه الحقائق من أثر فيهم .

– المؤلف –

سبعمائة وخمسين ألفا من الافاقين أن يوقعوا الهزيمة بثلاثة وثلاثين مليونا من البشر) .

وفى نطاق مثل هذه الاسئلة ، حاول الشبان العرب ، أن يجرعوا مرارة الهزة التى عانوها فى فلسطين وأخذوا يحاولون الافادة من العبر والدروس التى تلقوها فى فلسطين .

- ٥ -

ثورة جيل

هناك ثلاث مراحل فى كل عمل عظيم ، مرحلة الايمان ، عندما يعتقد الانسان بالهدف ويحلم به ، ومرحلة التفكير عندما يتحول الاعتقاد الى فكرة وعقيدة ومرحلة العمل ، عندما تظهر الفكرة على صعيد العمل وقد وصلنا الآن الى عتبة المرحلة الثالثة .

موسى العلمى .. فى كتابه عبرة فلسطين

لم تبدأ الثورة فى مصر . فقد تم عقد اتفاقات الهدنة مع اسرائيل فى يوليو (تموز) عام ١٩٤٩ ، وظل الشرق الأوسط يعيش السنوات الثلاث التالية فى غليان مستمر ، ولكن دون أية نتيجة حاسمة ، ويمكن القول بأن الثورة بدأت حتى قبل نشوب حرب فلسطين ، فى الاضطرابات والمظاهرات التى وقعت فى العراق فى مستهل عام ١٩٤٨ ، احتجاجا على المعاهدة العراقية الانكليزية المقترحة المسماة «بمعاهدة بورتسموث» والتى اضطر الفريقان الى ركنها على الرف اثر هذه الاضطرابات ، ووقعت فى ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٤٨ اضطرابات ضد الحكومة السورية القائمة آنذاك واستدعى الجيش لقمع الاضطرابات ، وفى الثلاثين من مارس (آذار) عام ١٩٤٩ ، تدخل الجيش السورى فى السياسة ، وتولى الزعيم حسنى الزعيم شئون الحكم ، ووقف الوطن العربى فترة قصيرة مبهور الأنفاس ، فهل يقدر لحسنى الزعيم أن يكون أتاتورك العرب ؟ وهل يعنى هذا الانقلاب بداية تبدل حقيقى ؟ ولكن لم تمض ستة شهور حتى كان حسنى الزعيم فى عداد الأموات ، وانتقلت السلطة الى ضابط سورى آخر ، ودخلت سورية فترة خمس سنوات من عدم الاستقرار ، يتدخل الجيش ابانها فى كل مرة ولكن دون أن يقوم بتبدل جذرى حاسم ، يغير الاوضاع القديمة .

وشرع نورى السعيد فى العراق بموافقة عبد الاله الكثير الخوف ، منذ عام ١٩٤٩ ، فى تشديد قبضته على البلاد ، وأخذ فى اقامة وزارة قوية للداخلية أصبحت شرطتها السرية مبعث الفزع فى طول البلاد وعرضها وأثارت مشروعاته للتنمية فى عام ١٩٥٠ حماسة السفارة البريطانية فى بغداد وبريطانيا ذاتها ، كما خففت من غلواء بعض الأحرار من العراقيين ، وجثم على العراق عهد استطال ثمانى سنوات ، وقعت ابانه بعض الاضطرابات ولكن تمكن النظام المثلث الزوايا والمؤلف من نورى وعبد الاله وشيوخ القبائل من أخفائها ومن الحيلولة دون وقوع أية تغيرات أساسية فى الحقلين السياسى والاجتماعى ، بفضل مالقيه هذا المثلث من تأييد بريطانيا أولا وأمريكا تاليا ، وبفضل مافرضه من تنكيل داخلى رهيب .

ووقع تبدل تاريخي فى شرق الاردن نتيجة ضم ماتبقى من فلسطين العربية اليه، وبات الملك عبد الله ومعه «الوجود» البريطانى فى البلاد بكامله يواجهان منذ ذلك الحين معارضة مشتدة من الفلسطينيين العرب ، وأيدت نتائج الانتخابات التى جرت فى أواسط عام ١٩٥٠ هذه الحقيقة ، وهذا الاتجاه . ولم يمض عام حتى هوى الملك عبد الله فى العشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥١ قتيلا فى مدينة القدس ، وارتقى ولده طلال العرش وسط موجة من الترحيب الشعبى ، لما عرف عنه من تحرر فى الفكر ومن شعور وطنى أصيل ، ولكنه كان مصابا بمرض خطير فى الغدد يؤثر كلما اشتد عليه فى قواه العقلية ، ودخلت المملكة الاردنية الصغيرة ذات الكيان المصطنع حقبة من التوتر وعدم الاستقرار المزمنين ، وتمكن الزعماء السياسيون المحافظون من أبناء المدرسة القديمة ، وجلهم من الضفة الشرقية ، من العمل حتى عام ١٩٥٦ بالتعاون مع المستشارين البريطانيين المدنيين ومع جلوب باشا على ابقاء العلاقات مع بريطانيا وعلى اخفات صوت الوطنية العربية الصاعدة والجديدة بين أبناء فلسطين الذين غدوا رعايا للاردن .

وسارت الامور فى مصر باتجاه أول أزمة حاسمة فى الوطن العربى بين أبناء الجيلين القديم والحديث ، وكان نشاط حركة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٤٨ ، واخماد هذا النشاط فى عام ١٩٤٩ ، أول نذير بهذه الأزمة وظهرت فى الأفق نذر مختلفة أخرى ، فقد طلق فاروق زوجته فريدة فى عام ١٩٤٨ ، وأضرب رجال البوليس يطالبون بأجور أعلى ، وغلت البلاد بالغضب من جراء ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، وانتشرت القصص عن مباذل فاروق فى حياته الخاصة ، وجثم على البلاد شعور بالعار مما وقع فى فلسطين ، وأقصى الوفد عن الحكم ، ولم يكن رئيس الوزراء الجديد «ابراهيم عبد الهادى» الذى يمثل الأقلية من القادة الملهمين ، وقرر فاروق فى يوليو عام ١٩٤٩ ـ وأقره زعماء الوفد على رأيه ـ بأن الوقت قد حان ليعود الى الحكم من جديد ، الحزب الوحيد الذى ظل دائما يتمتع بشىء من التأييد الشعبى .

وعادت أغلبية الوفد الى البرلمان فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٥٠ واكتظت مقاعد مجلس الشيوخ بأنصار هذا الحزب الذى عمل جاهدا وعن طريق التحالف مع القصر، ودون أى نجاح على أن يسدل الستار على قصص الفساد المروع المستشرى والتى تناولت قضية الأسلحة الفاسدة ابان حرب فلسطين ، وأخذت أحزاب الأقلية المغالية فى ميولها المحافظة تروج هذه القصص للطعن فى الوفد وتشويه سمعته ، ولم تتمكن الحملات الصحفية التى شنتها هذه الأحزاب من تقوية مركزها ولكنها عززت مشاعر المرارة التى يحس بها أبناء الجيل تجاه النظام السياسى القديم كله .

ولاح فى الأفق بصيص من الأمل ، تركز فى جهود رجل فرد لتحقيق ماكانت البلاد مفتقرة اليه ، فقد أدركت حكومة الوفد بعض أخطائها الماضية وسمحت لوزير الشئون الاجتماعية فيها «احمد حسين» وهو ليبرالى الفكر الى حد ما ، بانفاذ مشروع ناقص للضمان الاجتماعى ، يضمن الامن للأرامل والاطفال والأيتام والعجزة والشيوخ ، ومنحت الحكومات علاوات للموظفين وزيادات فى أجور عمال الصناعة ، ولكن خطواتها هذه أدت الى غلاء عمودى

فى الاسعار وأدى جيشان الحرب الكورية الى ارتفاع أسعار القطن مما أكسب حكومة الوفد عطف أهل الأرياف ، ولكن سرعان مامتدت يد الرشوة والفساد عندما أخذ الطلب على القطن يسير فى طريق الانخفاض ، ووجد الناس أن هذا الارتفاع المصطنع فى الاسعار قد أدى الى بقاء نتاج موسم ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ كاسدا لايجد من يبتاعه .

واستقال أحمد حسين عندما أحس بأن الأيدى الفاسدة قد امتدت الى مشروع ضمانه الاجتماعى لافساده ، واستقال عبد المتعال وزير المالية نتيجة فضيحة القطن ، وأحست الحكومة بموجات الاضطراب المتزايد فى حركة الاخوان المسلمين التى تجدد نشاطها ، فأطلقت سراح معظم أعضائها المعتقلين ، وبدأت تزاول نشاطها هذه المرة بقوة وشدة ، وظلت بريطانيا هى محور كل مافى البلاد من اضطراب انصب على المطالبة بجلاء البريطانيين عن مصر كلها ، وعلى وحدة وادى النيل .

وكثر الحديث عن وجوب اتخاذ موقف الحياد فى الحرب الكورية وفى الحرب الباردة وشمل هذا الحديث جميع أوساط اليمين واليسار والوسط وهوجمت السفارتان البريطانية والامريكية فى شهر أغسطس (آب) عام ١٩٥١ ، بمناسبة الذكرى السنوية للمعاهدة المصرية البريطانية المعقودة فى عام ١٩٣٦ ، وأعدت الحكومة فى الثامن من أكتوبر (تشرين الاول) من العام نفسه مراسيم قدمتها الى مجلس النواب تقضى بالغاء معاهدة عام ١٩٣٦ والغاء الحكم الثنائى فى السودان ، واعلان فاروق ملكا على مصر والسودان ولم تمض خمسة أيام حتى كانت بريطانيا تقدم مشروع منظمة الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط ، بالنيابة عنها وعن فرنسا وتركيا والولايات المتحدة ، ولعل من الأدلة على وجود هوة كبيرة بين آراء الغرب وبين الواقع العربى هو أن هذا الاقتراح تضمن انذارا بأن بريطانيا لن تنظر فى موضوع الجلاء عن قناة السويس الا اذا قبلت مصر مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط .

وهكذا بدأ الشتاء القدرى ، شتاء عام ١٩٥١ـ١٩٥٢ الذى اشتدت فيه حملات الفدائيين على القوات البريطانية فى منطقة القناة ، التى وصلت الى أوجها فى اللحظة المرعبة التى وقعت فى الخامس والعشرين من يناير ، عندما علمت مصر أن القوات البريطانية فى منطقة القناة قد أبادت أفراد مركز شرطة عن آخرهم ، وغدت القاهرة فى صباح السادس والعشرين من يناير المسمى «بالسبت الأسود» فريسة للاضطرابات الجماهيرية وأعمال الحرق والتخريب التى استهدفت أول مااستهدفت المؤسسات البريطانية ثم تحولت الى كل مايمثل حكم الاجنبى وحكم الباشوات ، وكانت يد الاخوان المسلمين واضحة البروز فى حرائق ذلك اليوم ، واذا لم يكن فى الامكان اقامة الدليل على أن الاخوان كانوا المحرضين الحقيقيين على أعمال ذلك اليوم فان مما لاريب فيه أنهم تولوا على الاقل تنفيذ بعض الهجمات ولا سيما التى استهدف منها الحانات ودور السينما .

وقرر هذا اليوم نهاية النظام القديم ، وتعثرت خطى مصر طيلة الأشهر الستة التالية فى ظل وزارات متعاقبة ، حاول بعضها القيام فى اللحظة

الأخيرة ببعض الاصلاحات الداخلية ، ليسقط على الفور بعد أن يفقد عطف القصر الذى كان بدوره واقعا تحت ضغط عدد كبير من العناصر السياسية المنتمية للنظام القديم على اختلاف اشكالها ، والتى كان لها مايبرر خوفها من افتضاح دسائسها وأخاديعها ، وانتخب فى يناير عام ١٩٥٢ ضـابط مصرى يدعى اللواء محمد نجيب رئيسا لنادى ضباط الجيش متغلبـا فى المعركة الانتخابية على مرشح الملك فاروق ، وعاش فاروق بين يناير ويوليو من العام نفسه تحت سيطرة كابوس مرعب ، وهو وجوب الخلاص من هؤلاء الضباط الشبان الذين كانوا وراء انتخاب محمـد نجيب ، وتوجهت فى الثانى والعشرين من يوليو الى القصر الملكى آخر مجموعة من الوزراء لأداء اليمين القانونية وتشكيل حكومة جديدة ، وعندما وصلت المجموعة الوزارية الى القصر ، وجدت أن الملك قد اختار «رجله» وهو صهره ليتولى وزارة الحربية سعيا وراء سحق حركة الضباط الشبان ٠

وبينما كانت القيادة العليا للجيش تبحث فى تلك الليلة الوسائل التى يجب اتخاذها لتنفيذ ارادة الملك ، قام الضباط الأحرار بانقلابهـم الأبيض الذى أوصلهم الى الحكم فى سرعة البرق الخاطف ودون أى سفك للدماء ، وتولت اعلان النبأ اذاعة القاهرة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥٢ ٠

وكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، وما تلاها من اعلان الجمهـورية فى الثامن عشر من يونيو (حزيران) عام ١٩٥٣ ، أول عمل حاسم ضد النظام القديم ، وأول تعبير يصل الى السلطة الفعلية ، عن الآراء التى كانت تعتمل فى النفوس بين أبناء الأجيال الصاعدة ، وسرت أنباء الثورة سريان البرق الخاطف الى جميع أرجاء الوطن العربى ، ولما جاءت الأشهر المتعاقبة ، وكل شهر منها يحمل دليلا جديدا على أصالة الثورة وما يرافقها من تغيير جذرى مركز للأوضاع ، فان عيون أبناء المنطقة العربية كلهـا ظلت متركزة على هؤلاء الضباط الشبان الذين حسروا النقاب لاول مرة عن آرائهم فى البيان الذى اذاعوه فى الساعة السابعة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ اذ قالوا :

«الى شعب مصر ٠٠ اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لهذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون المغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين ٠٠

وأما فترة مابعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره اما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بـلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخـل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم » ٠

وتعاقبت البيانات ، ووقع حادث يكاد لايصدق تلا الأحداث الاولى من النوع الذى كان العرب ينتظرونه بفارغ الصبر فى كل مكان فى أرجاء الوطن العربى ، وتسلم فاروق بعد أربعة أيام من قيام الثورة انذارا جاء فيه :

«نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الاخير من فوضى شاملة عمت جميع

المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور ، وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لايطمئن على حياته أو ماله أو كرامته ٠

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة المرتشون يجدون فى ظلـكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين ، وما يتبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقـائق وزعزع الثقة فى العدالة ، وساعد الخونة على ترسم هـذه الخطا فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم ٠

لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش ٠

وأذيع فى الثلاثين من يوليو نبأ الغاء الألقاب فى مصر كلها ، كألقاب «الباشا» و «البك» التى كانت ترمز الى الماضى البغيض المظلم ، وسرعان ماانتشرت الانباء أيضا عن تشكيل اللجان والمحاكم للتحقيق فى قضـايا الابتزاز والرشوة والفساد فى كل مظهر من مظاهر الادارة والحياة الاقتصادية فى مصر ، وصدر فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٥٢ ، قانون بمرسـوم استهل بالعبارة الغريبة التالية :

« لا يجوز لأى شخص أن يمتلك أكثر من مائتى فدان من الأراضى الزراعية وكل عقد يترتب عليه مخالفة هذا الحكم يعتبر باطـلا ولا يجوز تسجيله(١) » ٠

واذا قدر لهذه البيانات أن يشمل صداها جميع أرجاء مصر فانهـا سرعان ماسمعت ودرست فى جميع أنحاء الوطن العربى حيثما يستطيع الناس القراءة أو الاستماع الى الاذاعات وليس من العسير على المرء أن يفهم الآثار التى ترتبت عليها على ضوء الحقائق التى حاولت سردها وايضاحها ، وبدأت حكومة الثورة فى مصر تتخذ مواقف حازمة حاسمة فى كل حقل من حقول الشكوى والتذمر ، سواء منها السيطرة الاجنبية أو الملكيات المتهاوية أو الاقطاعيات الثرية أو الفساد والافتقار الى الكفاية أو فلسطين ، وتحدث رئيسها آنذاك عن « حماية الشعب العربى من الدجل السياسى » وطلب الى الجماهير الغفيرة أن تتابعه فى الابتهال الى الله ، بأن تهب بلاده العـزيزة حياة مقبلة تتحرر فيها من قيود العبودية كما رفع شعار «الاتحاد والنظام والعمل» ٠

ووضع محام فلسطينى بارز بدأ شبابه فى العهد العثمانى ولكنه جارى الاجيال العربية الصاعدة فى تفكيرها متفهما لها ، كتابا ممتازا فى عام ١٩٤٩ يعتبر من أوسع الكتب انتشارا فى تلك الحقبة الزمانية ٠ فلقد تحـدث

(١) المادة الاولى من مرسوم القانون رقم ١٧٨ الصادر فى عـدد الجريدة الرسمية رقم ١٣٠ لعام ١٩٥٢

موسى العلمى فى كتابه «عبرة فلسطين» بهدوء ولكن مع عمق فى التحليل .
عن جميع مظاهر الضعف فى المجتمع العربى التى أدت الى كارثة فلسطين
وكان والد المؤلف نائبا فى البرلمان العثمانى ، أما هو فقد درس فى كمبردج
واصبح محاميا للتاج فى حكومة فلسطين حتى عام ١٩٣٧ عندما استقال
ليكرس نفسه لخدمة القضية الفلسطينية ، وأصبح فى عام ١٩٤٤ من أكثر
الشخصيات نفوذا ، اذ مثل فلسطين فى مؤتمر الاسكندرية الذى وضع
بروتوكول الجامعة العربية . وعلى الرغم من أنه أضحى فى عام ١٩٤٩
واحدا من اللاجئين الفلسطينيين الذين أربى عددهم على الستمائة
والخمسين ألفا الا أن مرارته لم تحل بينه وبين رؤية العدو الحقيقى
المختفى وراء العدو المباشر وهو الصهيونية ، ومن يساندها من الدول
الكبرى فقال :

«ولقد فشلنا فى الميدان السياسى كما فشلنا فى الميدان العسكرى ولم
تكن مظاهر ضعفنا هذه الا انعكاسا لحالة الامة العربية وحكوماتها الراهنة
(أى فى عام ١٩٤٩) . فنحن نعيش فى ظل نظام سياسى مفكك يقوم على
التجزئة ، وقد انعكس أثره على قواتنا فى المعركة ، وعلى ما تتميز به هذه
الحكومات من ضعف واسترخاء . يضاف الى هذا أن شئون هذه الأمة
كانت موكولة الى حكومات تفتقر الى الكفاية كما كانت الامة نفسها
لاتزال ضعيفة فى وعيها ونضجها، وكان ضياع فلسطين كارثة عظمى لها نتائجها
البعيدة الأثر بالنسبة الى وجود الأمة العربية نفسها . واذا قدر للعرب
أن يسارعوا الى مواجهة الخطر قبل أن يداهمهم ويجتاحهم ، فما زال
أمامهم متسع من الوقت لمواجهته .

«ويتمثل العلاج الاول فى الوحدة لكى يصبح العرب من جديد كتلة
سياسية قوية متماسكة ، ولقد كانت الوحدة لحسن الحظ الهدف الأساسى
لحركتنا القومية منذ نشوئها .»

«ولكن الوحدة وحدها لاتكفى ، فنحن فى حاجة الى «تعصير» شامل
لكل أفق من آفاق الحياة والفكر العربيين » .

ولقد عكس هذا النداء الذى وجهه موسى العلمى على الرغم مما فيه من
هدوء واتزان يفوقان الاجواء العقلية التى كانت تسود المشرق العربى ،
حقيقة ماكان يدور فى خلد الاجيال العربية الصاعدة . واذا ماحملنا هذا
النداء على أنه مرآة تقف أمام الأنباء التى انبثقت عن مصر منذ منتصف عام
١٩٥٢ ، تبينت لنا فورا حقيقة ماعنته الثورة ، فلقد كان العرب منذ أمد
بعيد ينظرون الى مصر على أنها المركز الاكبر فى عالمهم ، ولم تكن مصر مجرد
أكبر دولة عربية فحسب ، ولا مجرد المحور الجغرافى للوطن العربى فقط .
بل كانت أيضا أكثر البلاد العربية تقدما فى ميادين التربية والصناعة والعلم
وفى ضخامة صحافتها ووسائل اعلامها ونشرها ، وصناعة الأشرطة
السينمائية فيها ، ومهما كان المنظار الذى يستخدمه الفرد فى الحقلين
السياسى والاجتماعى فان مصر تبدو فيه ذات أهمية عالمية ، فالمسلمون
يتعلقون بالقاهرة لوجود الجامع الازهر ، وهو مركز الاشعاع الاسلامى
فيها ، وكبار ملاك الارض من الاقطاعيين الأثرياء ، ينظرون بعين الخوف

والقلق الى ما حل بالباشوات الكبار السابقين فى مصر الذين انتزعت
منهم ممتلكاتهم ، وهكذا دواليك عبر الطبقات المختلفة للمنظار حيث
يعمل الخوف والايحاء عملهما ، فى اثارة دوافع الفضول الزائد أوالقلق
الشديد ، وتعلقت عيون جميع العرب بمصر التى تجتاز مراحلها
الثورية لا كبلد بعيد ، غريب بل كمفتاح لمستقبل المنطقة كلها .

وأعلنت الجمهورية فى مصر فى الثامن عشر من يونيو (حزيران)
عام ١٩٥٣ ، وظهرت شخصية الرئيس عبد الناصر على بروزها أمام الوطن
العربى كنائب لرئيس الوزراء ووزير للداخلية ، واتضح من اسناد وزارة
الداخلية اليه أهمية الدور الذى يمثله فى الثورة اذ أن هذه الوزارة كانت
تعتبر من أخطر المناصب فى جميع أرجاء الوطن العربى .. واتضح أيضا
أن النظام الجديد ليس قائما على حكم فرد هو رئيس الجمهورية بل على
سيطرة جماعة ثورية تؤلف مجلس قيادة الثورة ، وهكذا بدت الجمهورية
الجديدة تطورا طبيا يمضى بالبلاد بعيدا عن الماضى الكريه ، وانقضى عام
١٩٥٣ فى محاكمات لمعالجة قضايا الابتزاز والرشوة والمحاولات المناهضة
للثورة التى يقوم بها أعوان العهد القديم ، وتمت مصادرة جميع ممتلكات
الأسرة المالكة وأذيع فى الخامس عشر من سبتمبر (أيلول) نبأ المحاولة التى
قام بها بعض أركان العهد البائد للاطاحة بالثورة ، وانطلقت الصحف
والمنشورات والاذاعات تسرد الدليل تلو الدليل على خيانات العهد البائد
وبغيه ، وتفضح قضايا الأسلحة الفاسدة فى حرب فلسطين ومباذل فاروق
وحقيقة حريق القاهرة، وبطانة الملك الفاسدة والمرتشية ، وأعلن أن الاموال
التى ستجمع من بيع الممتلكات الملكية ستستخدم فى أعمال الاصلاح
الاجتماعى وأعلن العهد الثورى فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٥٣ تشكيل
مجلس دائم لتنمية الانتاج القومى .

واتضح وجود اهتمام ضخم داخل مصر وخارجها ، بما ستفعله الثورة
بالنسبة الى بريطانيا والسودان ، وكان ثمة كثيرون من أفراد الأجيال
الصاعدة ، ينظرون الى مطالب مصر فى السودان بشىء من التحفظ والشك
اذ أن هذه المطالب تركزت حول رغبة الملكية التى يدعمها الباشوات فى
الاستيلاء على تلك البلاد ، واستقبلت الخطوة الأولى التى اتخذتها حكومة
الثورة بموجب اتفاق التاسع والعشرين من اكتوبر (تشرين الاول) عام
١٩٥٢، الذى قضى باعلان حق السودانيين فى الخيار بين الاستقلال الكامل
أو الوحدة مع مصر بالترحيب الشامل ، ووقع مجلس قيادة الثورة فى
الثانى عشر من فبراير (شباط) عام ١٩٥٣ اتفاقا مع بريطانيا بشأن منح
السودان الحكم الذاتى والحق فى تقرير المصير .

وهكذا تم الفصل لاول مرة فى تاريخ النزاع بين مصر وانكلترا بين
القضيتين الأساسيتين وهى الجلاء والسودان، أما وقد سويت القضية الثانية
الآن ، فقد برز على الفور التساؤل عما ستفعله قيادة الثورة بالنسبة الى
موضوع القناة . ؟

وراح الناس يتساءلون أيضا عن الموقف الذى ستقفه قيادة الثورة
من المساعى التى تبذلها الدول الغربية لتنظيم حلف دفاعى عن الشرق

الأوسط ، وظهرت كل هذه القضايا بالنسبة الى أولئك الذين يرقبون ما تفعله مصر من مختلف أرجاء الوطن العربى بمثابة قضايا اختبارية ومحك تجربة ٠

وتحدث جمال عبد الناصر فى الثانى عشر من ابريل (نيسان) عام ١٩٥٣ الى مجلة الأوبزرفر البريطانية فقال ان حكومته على استعداد للحفاظ على قاعدة قناة السويس ، ولكنها تعلم أنها فى حاجة الى المساعدة ، وأضاف ان فى مكنة الفنيين البريطانيين أن يقدموا هذه المساعدة على شريطة أن تفهم بريطانيا بوضوح وصراحة أن وجودهم لايعنى مطلقا الاحتلال المقنع للبلاد ٠ وذكر عبد الناصر أيضا أن مصر لن تشترك فى أى حلف دفاعى مع الدول الغربية ٠ وكان الوطن العربى كله يرقب سير المفاوضات حول هذه القضية بين انكلترا ومصر ، وانطوى موقف مجلس قيادة الثـورة على شيء من الرغبة فى التفاهم ولكنه لم يكن مرضيا لبريطانيـا ، ترى هل تصمد الثورة المصرية فى موقفها وسياستها ، أو أنها ستذعن ، كما أذعنت كل حكومة أخرى فى الوطن العربى لبريطانيا منذ عام ١٩٢٢ ؟ هـذا هو السؤال الذى كان يمثل أمام كل فرد من أبناء الجيل الجديد ٠

وتلت ذلك فترة من التطورات الداخلية ضمن اطار مجلس قيـادة الثورة والنظام الجمهورى الجديد ، وظل الوطن العربى كله طيلة هذه الفترة التى امتدت نحوا من عام ، يرقب هذه التطورات بعين القلق والوجـل ، وأوقف عبد الناصر حركات الفدائيين فى منطقة القناة حتى يتمكن من متابعة المفاوضات التى كان قد شرع فيها مع لندن فى جو أفضل ، وعنت هـذه الخطوة شيئا واحدا قبل كل شيء وهو أن جماعة الاخوان المسلمين قد حلت نهائيا وتفرق أفرادها ، واعتقل قادتها الكبار ٠٠ ولكن هذه الخطوة التى قام بها عبد الناصر ، مصحوبة بما سبقها من خطوات لوقف التيار الشيوعى ، كانت ضرورية جدا لتطهير جبهة الوطن الداخلية ٠

وانطلقت الانباء فى السابع والعشرين من يوليو (تموز) تحمل اعلان التوقيع على اتفاق مع بريطانيا يقضى بجلاء بريطانيا الكامل عن قاعدة القناة فى غضون عشرين شهرا ، وبقيام المتعهدين المدنيين البريطانيين بأعمـال الصيانة فى القاعدة البريطانية ، ونص الاتفاق أيضا على شرط ثالث وهو يسمح لبريطانيا فى حالة تعرض مصر أو تركيا أو أية دولة من الدول العربية المنضمة الى ميثاق الضمان الجماعى العربى الذى أقرته الجامعة لهجوم من دولة ثالثة ، بالرجوع الى منطقة القناة واعادة احتلالها ، واعتبر هذا النص ترضيه من جانب مصر ، لم تعجب الاجيال العربية الصاعدة على الرغم من التأكيدات الكثيرة التى سرعان ما أطلقها الرئيس عبـد النـاصر بأن مصر ستتبع سياسة الحياد المطلق فى الصراع بين الدول الكبرى ٠

وكان شهر اكتوبر عام ١٩٥٤ حرجا كل الحرج ، فقد وقع الرئيس عبدالناصر بصورة رسمية فى التاسع عشر من اكتوبر (تشرين الاول) اتفاق الجلاء بين مصر وبريطانيا ، ولم يكن هذا الاتفـاق صورة كاملة لطرد البريطانيين غير المشروط والشامل من البلاد ، وهو المطلب الذى كان ينادى به الشعب منذ أمد بعيد ، وراح أبناء الجيل الصـاعد فى الوطن العربى يتساءلون عما اذا كان فى امكان الثورة أن تتابع سياسة الحياد الكامل فى

ظل مثل هذا الاتفاق ٠ فهناك نص جوهرى يشترط وجود تركيا بين البلدان التى يؤدى الهجوم عليها الى عودة البريطانيين الى منطقة القنـاة ، واعتبر بعضهم أن هذا النص يؤلف ارتباطا سريا مع حلف الأطلسى ٠ ولكن كانت هناك حقيقة واقعة وهى أن الوطن العربى لايقبل أى نوع من الاتفاق مع بريطانيا يسمح لها باعادة قواتها لاى سبب من الاسباب الى البلاد ، ولكن هذه الأعين الساهرة من أبناء الجيل العربى ، استطـاعت التثبت من أن عبد الناصر قد ضمن لبلاده جلاء القوات البريطانية عنها فى أوقات السلم ٠ وقام رفيقه فى السلاح (المرحوم) صلاح سالم بجولة فى ربوع الوطن العربى فى صيف عام ١٩٥٤ وكان ثمة من يعتقد بأن هذا الاتفاق كان سليما من الناحية التكتيكية ، بينما كان هناك آخرون يقولون ان من المتيسر الحكم للاتفاق أو عليه ، وهل يؤثر فى وضع مصر كدولة تبنت سياسة الحياد ؟

وحاول عامل يعمل فى صناعة الصفيح فى السـادس والعشرين من اكتوبر (تشرين الاول) أن يطلق النار على الزعيم المصرى الذى كان قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره ، بينما كان يشرح فى خطاب يلقيه على شعب الاسكندرية فى اجتماع عام ، نصوص هذا الاتفاق ، ولكن الرصاصة أخطأت الزعيم :

ومضى عبد الناصر فى خطابه مباشرة يقول :

أيها المواطنون

اذا مات جمال عبد الناصر ٠٠ فانه يموت مطمئنا لأنكم كلكم جمال عبد الناصر لا تخافوا الموت فالدنيا فانية ٠

أيها المصريون

لن تكون حياة مصر معلقة بحياة جمال عبد الناصر ٠٠ بل هى معلقة بكفاحكم ٠

أيها المواطنون

سيروا الى الامام ٠٠ فمصر اليوم قد حصلت على عزتها وكرامتهـا وحريتها

سيروا الى الامام على بركة الله نحو المجد والعزة والحرية ٠

وقوبل هذا الخطاب بكثير من التأثر ٠ وكانت سيطرة عبد الناصر على نفسه بعد الحادث والكلمات التى استعملهـا فور وقوعه ، بمثابة مقياس لشخصية هـذا الرجل ، كما كانت حدثا فريدا من نوعه فى السياسات العربية ٠ ولكن لم تمض أيام حتى حمل الوضع أنباء أخرى ٠ فقد شرع فى حملة شاملة من جديد لمطاردة فلول الاخوان المسـلمين ، ومحاكمة بعض قادتهم أمام محاكم ثورية خاصة ، لاشتراكهم فى المؤامرة التى استهدفت حياة القائد ٠

* * *

وكان المشرق العربى يتمخض عن أحداث جسام فى عام ١٩٥٤ ٠

فقد ظهر الى حيز الوجود ودنيا النشاط الضخم ، حزب جديد فى سورية هو حزب البعث العربى الذى تولى تأسيسه اثنان من خريجى جامعة السوربون وهما ميشال عفلق وصلاح البيطار . وفر الزعيم الشيشكلى من البلاد ، وأعيد دستورعام ١٩٥٠ . تمكن الحزب من الفوز بستة عشر مقعدا فى الانتخابات النيابية التى جرت فى سبتمبر ، ودلل هذا الفوز وان لم يكن مسيطرًا فى مجلس يضم مائة واثنين وأربعين نائبا على اتجاه مهم فى طريق التعبير عن الوحدة والحياد والاشتراكية ، وهى الشعارات الرئيسية التى رفع الحزب لواءها . وأحس نورى السعيد فى العراق بالقلق من الاوضاع السائدة ، مما دعاه الى حل جميع الاحزاب السياسية بمرسوم استصدره فى شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه . وأقام الملك حسين الفتى فى الاردن فى شهر مايو (ايار) من العام حكومة محافظة رئيسها توفيق أبو الهدى ، واسفرت الانتخابات التى جرت فى نفس العام ، والتى زيفت بصورة متناهية فى المكروالذكاء عن مظاهرات ضخمة وقع معظمها فى الضفة الغربية (١) وتمكن الجيش من اعادة فرض النظام ولكن اتجاه غالبية الرأى العام الاردنى كان واضحا كل الوضوح . فبالاضافة الى ماخلفته ثورة مصر من آثاروانطباعات ، كانت ثمة عوامل أخرى بعثت هذه الموجة من القلق فى المنطقة كلها . فهناك حوادث الحدود مع اسرائيل ، ولاسيما مذبحة قبية التى قامت بها قوات اسرائيل على الحدود الاردنية فى أواخر عام ١٩٥٣ ، والمحاولات التى بزلتها الدول الغربية لاشراك الحكومات العربية فى منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط ، واشتعال الحركات الوطنية فى المغرب وتونس ، وطلائع الثورة فى الجزائر ، والاثر القوى الذى كان نهرو يخلفه بسياسته الحيادية فى أزمة الهند الصينية فى عام ١٩٥٤ وفى شحن الاسلحة الامريكية الى الباكستان .

وراح الفضول يدفع الكثيرين لمعرفة هذا القائد العربى الجديد الذى ظهر فى مصر ، وفى عام ١٩٥٤ ، مضى محام فلسطينى شاب درس فى جامعة بيروت الامريكية وغدا عضوا بارزا فى حزب البعث العربى فى الأردن ، الى القاهرة ليرى بنفسه حقيقة هذا القائد العربى الجديد . وكان هذا المحامى وهو عبد الله الريماوى نموذجا لأبناء الجيل الصاعد ، وسياسيا محترفا درس النظريات السياسية الغربية فى جامعة بيروت وتابع نمو الحركات القومية فى آسيا ودرس تاريخ أمته فأصبح فى عام ١٩٥٤ من المؤمنين بالاشتراكية والحياد والنظام الجمهورى والوحدة العربية .

ولقد قال لى ذات يوم فى عام ١٩٥٤ ... « عندما رأينا ، معشر أعضاء البعث هذا القائد العربى يظهر لأول مرة ، كنا تحت تأثير بعض

---

(١) كانت أعنف المظاهرات التى وقعت فى العاصمة عمان وهى فى الضفة الشرقية احتجاجا على تزييف الانتخابات وقد أسفرت عن وقوع عشرات القتلى والجرحى .

ـ المعرب ـ

الشكوك . ولكنه ذهب الى مصر ، وجرى له حديث طويل ، مع قائد الثورة المصرية ، ثم عاد الى بلده ، مقتنعا بعد هذا الحديث ، بأن عبد الناصر زعيم قومى أصيل ، ومؤمن أشد الايمان بسياسة الحياد ، وبالمثل الديموقراطية الصحيحة .

وأحس زعيم مسلم له مركزه المهم فى لبنان ، وهو صائب سلام بالقلق من النشاط الذى يبديه (المرحوم) صلاح سالم ، الذى كان الرئيس عبد الناصر قد أوفده فى جولة يطوف بها البلاد العربية فى صيف عام ١٩٥٤ . وقال لى هذا الزعيم .. « وأحسست بالحاجة الماسة الى معرفة جمال عبد الناصر ومدى اتجاهاته القومية . ولم أستطع ذات يوم أن أكبح جماح ما أحس به من لهفة ، فاخذت أول طائرة حملتنى الى القاهرة . واجتمعت هناك بعبد الناصر ، وتحدثت معه حديثا صريحا وقد خرجت من لدنه ، وانا واثق كل الثقة ، مطمئن كل الاطمئنان» ووضع صائب سلام منذ ذلك اليوم ثقته الخالصة فى الزعيم العربى الجديد .

ووصف لنا ديزموند ستيوارت فى كتابه « مصر الفتاة » زيارة أخرى من هذه الزيارات الكثيرة التى كانت تهدف الى اختبار الزعيم العربى الشاب الجديد . وكان الزائرون هذه المرة ، جماعة من عمداء الكليات المصرية وأساتذتها ، وروى اخصائى فى مرض السرطان ، كان بين هذه الجماعة لستيوارت انطباعاته عن الزيارة فقال :

«لقد أصبت بالدهشة فى بادىء الامر . فبيت عبد الناصر أكثر بساطة من بيتى أنا . ولم يكن فى البيت عدد كاف من المقاعد » واضطر القائمون على أمر البيت الى استعارة بعض المقاعد . ورفض عبدالناصر أن يجلس ، قبل أن يقتعد آخر ضيف من الضيوف مجلسه . وأخيرا ، سمح عبد الناصر ، لكل واحد من أفراد الجماعة ، وهم كثر بالكلام ، ولم يحاول قط أن يقطع على أى متكلم حديثه . وعندماانتهى جميع العمداء والاساتذة من الكلام ، رد عبد الناصر وارتاد بردوده آفاقا واسعة من المعرفة بأن فيها احساس دقيق بالحقائق المتعلقة بالقانون والتاريخ والأحداث العالمية » .

هذه نماذج من انطباعات الذين مضوا للقاء عبد الناصر فى عام ١٩٥٤ والتعرف اليه . ولكنه كان لا يزال حتى ذلك التاريخ غير واضح تماما للملايين من جماهير الشعب العربى . ولكن قدر لعامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، أن يظهرا هذا القائد على حقيقته الحاسمة الواضحة لملايين العرب الذين آمنوا بقيادته .

***

وكان قد انقضى نحو من قرن كامل على وقوف شاعر عربى شاب يدعى ابراهيم اليازجى ، وسط حشد سرى لأعضاء الجمعية العلمية السورية الجديدة ليلقى قصيدة له ، أراد أن يجعل منها أنشودة الأمة العربية جعل مطلعها ...

وذكر فيها أن تيار القضية العربية قد انطلق فى أقصى مـــداه ، وان أتباعها سيواصلون السير قدما الى الأمام .

وقد بات فى الامكان الآن بالنسبة الى الكثيرين من البريطانيين الذين رأوا الشرق الاوسط بأعينهم فى عام ١٩٥٥ ، أن يدوروا ويلفوا فى هـــذا الجيشان السريع والدوامة الكبيرة ، لينأوا بانفسهـــم عن هذا التيار الجديد ، بهمهمة خافتة منفعلة .. قائلين .. « لقد شبعنا من هذا السخف من قبل » ، ولكن ثبت أن مما يجفو الحكمة ويخالفهـا بالنسبة الى مصالح بريطانيا والغرب عامة ، أن ينظـر الى هـذه الآلام التى تتولد عن مخاض الشـعوب الجديدة بعين الزراية أو الخوف او المقاومة الحرون للتطور ، ثبت أن من الحمق كل الحمق ، الاكتفـاء بترداد القول المأثور ... « ان سياستنا واضحة لا تحتاج الى شرح » اذ لما كانت السياسة شأنا لا يمكن تقريره من جانب واحد ، ولا يمكـن أن يكون ذاتى التولد أو ذاتى المحتوى ، فان هذه السياسة لا يمكن أن تتبدل بمحض ارادة واضعها وتقريره . انها نسيج يربط بين الشعوب وبين أهدافها ومطامعها وأمزجتها وقادتها وقواهـــا التعبيرية . واذا كان من حق هذا المزيج من العـوامل ، أن يولد التغير الداخلى الذاتى الذى يريده ، فان مما لا يليق بمهندسى هذه السـياسة القابعين فى مكاتبهم المعزولة النائية أو غرف خرائطهم أن يكتفوا بالتأكيد على وضوح سياستهم . اذ سرعان مايتضح ، سواء عن طريق الفجاءة أو التدرج ، وعن طريق السلم أو العنف . ان هذه السياسة لم تعد قائمة ، وأن « هدفها » الذى يؤلف جزءا لا يتجزأ منها ، قد انحرف عن طريقه .

وكان هذا التحول جاريا فى الوطن العربى مدة سنوات أطول مما يطيب لنا تعداده . ولقد سبق لباحث حكيم أن قال قبل عشر سنوات كاملة من بدء هذا التيار الجديد فى مسيره محذرا ..

« مازال العرب يقفون موقف التبعية على العموم من الغـرب .. وليس فى وسـعهم الا أن يستجيبوا لمـا يفعـله الغـرب معهم اما عن طريق المحاكاة أو طريق الارتكـاس . ولا ريب فى أن الوضع هوالذى يقرر الى حد كبير موقفهم منه .. فكل شيء مائع فى الوطن العربى فى هذا الجيل .. ومازالت الفرصة متاحة لبريطانيا لعدة سنوات قادمة، لاثبات عزمها وقدرتها على مساعدة العرب فى واجباتهم البنـاءة ، واذا ما أضاعت بريطانيا فرصتها الآن فلن تتاح لها فرصـة أخرى فيما بعد » (١) ..

وقد انقضت عشر سـنوات قاسية ، وكانت سنة ١٩٥٤ هى « المقسم المائى » ، أو « النقطة الفاصلة » ، التى لا مجال بعدها لحساب جديد .

(١) البرت حورانى فى كتابه « بريطانيا العظمى والعالم العربى » لندن ١٩٤٥ .

- ٦ -

نهاية أو بداية

« اننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسـمة من مراحل كفاح شعبنا ، لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلى فقد وقعنا الآن بالأحرف الأولى اتفاقا ينهى الاحتلال ، وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر الخـالدة ، وبذلك تخلص أرض الوطن لأبنائه شريفة عزيزة منيعة بعد أن قاست اثنين وسبعين عاما مريرة حزينة » .

جمال عبد الناصر
فى ٢٧ يوليو ١٩٥٤
من اذاعة القاهرة

***

ليس من الثابت ما اذا كان هذا الاتفاق الانجليزى ــ المصرى قد ينتهى الى فوضى وانهيار كاملين فى الشرق الأوسـط أو انه سيكون بداية علاقة جديدة مع مصر . وهذا لا يتوقف على مصر بل على موقف الحكومـة البريطانية .

خطاب ريشارد كروسمان فى مجلس العموم فى ٢٩ يوليو ١٩٥٤ .

***

لا تؤدى المخلوقات البشرية ، سـواء أكانت من المواطنين أم من وزرائهم ، أعمالها طبقا لنقاط التحول فى التاريخ . وتميل هذه النقاط الى الانسياب كما يميلون هم الى الانسياب معها، « وما الضوء الذى تبعثه التجربة الا كمصباح فى مؤخرة السفينة ، ينشر ضوءه على الأمواج التى تخلفها » . (١) ولكن فى تاريخ كل دولة عظيمة وثابتة الدعائم نقـاط لقاء بين السلطان والسياسيات ، تكون ثابتة بشكل بارز بحيث لا يمكن للتبدلات الاساسية التى تتعلق بها ، أن تمر دون أن تترك آثارا فيها عميقة الجذور . ولقد كان اتفاق الجلاء المصرى ــ الانكليزى ، لعام ١٩٥٤ ، على صعيد التاريخ وطبقا لكل مايدرسه المرء عن هذا الاتفاق فى معـاهد بريطانيا وجامعاتها ، تبدلا جوهريا وكانت السويس هى نقطة اللقاء فى هذا التبدل . وعندما وقع هذا الاتفاق فى القاهرة فى السابع والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥٤ ، بالاحرف الأولى ، بدا من الناحية الحسية ان التاريخ قد « توقف » ، وان توقفه هذا استدعى أعمق قدر من التفكير وامعان النظر ، منذ جلا البريطانيون عن الهند .

(١) صمويل كولردج فى كتابه «ذكريات» عام ١٨٣١ .

فلقد تقرر ان تجلو بريطانيا عن منطقة قناة السويس فى عـــام ١٩٥٦ . وكان هذا القرار من أكثر الاحداث « اثارة » فى تاريخ شعب كان قد شرع فى تحوله النبيل والمؤلم فى آن واحد ، من كيان الامبراطورية الى كيان جامعه الشعوب البريطانيه . وقد تطلب هــذا الجـلاء ظهور تيارات تاريخية تثير مواعيد بدايتها الكثير من الجدل الأكاديمى ، وان لم يؤد وصولها الى الأوج الى مثل هذا الجدل :

وفى وسع المرء أن يعود بذاكرته الى أيام بلاسى (١)، أو الى ما أصاب بريطانيا من هذه من جراء هبوط نابليون أرض مصر (٢) ، أو الى نحو من قرن كامل ، عندما منح حاكم مصر امتيازا لدليسبس يســـمح له بموجبه بشق القناة أو الى عام ١٨٨٢ ، عندما نزلت جيوش الاحـــتلال التى يقودها ونزلى من القناة لتقضى على ثورة عرابى المصرية ، وهو الرجل الذى بات اسمه يثير كراهية « صالونات » لندن ونواديها ، والذى حاول أن يغلق القناة « ليضمن الدفاع عن مصر » . وقد تكـــون الصورة احدى هذه الذكريات ، ومع ذلك فان مغـــازى القرار كانت ثورية تمـــاما . ترى ماهى المواقف التقليدية والسياسات التى بات من الواجب الآن وبعد هذا التطور اعادة النظر فيها ؟ وما المشاكل الجديدة الواضـــحة وضوحا مطلقا ياترى ؟

عندما تخلت بريطانيا عن الهند وبورما فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ بات موضوع طرق المواصلات السوقية « الاستراتيجيه » الامبراطورية بما فيه من مفاهيم واجراءات، أى الطريق الى الهند واستراليا، موضع نقاش مكشوف وقد اختفى الكثير من الاهداف الاصلية لهـــــذه الطريق ، ولم يعد فى الامكان الحفاظ من جانب واحد على المواقع البريطانية السوقية على طول هذه الطريق الا بأعمال تعويقية تستطيل من سنة الى أخرى . وكانت الهند وبورما وسيلان قد مضت فى موجة من الثورات الوطنية التى ستتحدى كل ماتبقى من تلك الطريق . ولما كان ضياع الهند قــد أضعف الخط السوقى فى الشرق الأوسط ، فان هذا الضياع قد تطلب اعادة النظر جذريا فى موضوع القومية العربية . وقد أطلقت السنوات التى انقضت بعد الحرب العالمية الأولى تحذيرا قويا ، فاذا كان ثمـــة معارضة من جانب الشرق الأوسط للقواعد البريطانية ، فان الاحتفاظ بهذه القواعد ، يجب أن يعاد النظر فيه باستمرار على ضوء « الموجـــود » الذى لا يزيد من أمر الصداقات المحلية والتجارة والود الســــياسى ،وكلها أمور قد تضيع حتى فى حالة الانسحاب .

ويصدق هذا التحليل على كل ماوقع فى مصر منذ عـــــام ١٩١٨ .

---

(١) بلاسى اسم قرية فى البنغال ، اشتهر امرها بالانتصار الذى حققه كلايف على سراج الدولة « نواب » البنغال فى الهند فى عام ١٧٥٧ . وتقع القرية على بعد ثلاثة وثمانين ميلا من كلكوتا .

(٢) عنـــدما سقط نابليون فى عـــام ١٨١٥ ، تكهن محمـــد على لبيركها ردت قائلا : « لابد وان تأخذ انكلترا مصر فى يوم ما كحصتها من تراث الامبراطورية التركية » .

ولكن القرار بالجلاء عن مصر ، قد ضاعف من صدق هذا التحليل بالنسبة الى موضوع من موضوعات السلطان البريطانى الذى يفرض من جـــانب واحد ليس الا . فهل يعتبر العراق مأمونا يا ترى ؟ وهل الاردن مأمون أيضا ؟ وما العلائم السياسية على هذا الأمن ؟ وهل يتمتع « اصدقاء » الاتصالات البريطانيه السوقيه بأيه شعبيه ؟ وهل هم من التقدميه بحيث يستطيعون أن يحتفظوا بثقة أهلهم العرب ؟ لقد جاءت ثوره مصر عام ١٦٥٢ ، فاطاحت بجيل كامل من الحلم والحكام . فهـــل من الثابت أن هذه الثورة نتيجة اتجاه مصرى خالص ؟ وما الذى يقبع وراء الغطاء الرسمى الظاهرى فى العراق والاردن ؟

وكان هناك موضوع آخر أكثر شمولا واتساعا . فلقد قذفت ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ وما عقبها من ضروره الجــلاء البريطانى عن مصر ، بحكومه جديدة على الخريطة السياسيه الدولية للعالم ، ستكيف سياستها الخارجية حتما على ضوء مصالح مصر وحدها . وقد يبدو هذا القـــول الآن مجرد فجاجه وسخف ولكنه لم يكن كذلك فى عام ١٩٥٢ . فلقـــد سار الساسة البريطانيون منذ مطلع القرن التاسع عشر على أســـاس سياسة ثابتة وهى عدم السماح لروسيا « بالمرور من المضائق » . وكانوا يرون دائما وجوب الحيلولة دون وصول روسيا الى الشرق الاوســـط بقواها العسكرية أو سلطانها الدبلوماسى أو سيطرتها التجارية . وقـــد تحققت هذه السياسة حتى عام ١٩١٨ ، عن طريق دعم الموانىء العثمانية والسيطرة عليها لتجعل منها حاجزا فى طريق روسيا ، وكذلك عن طريق السيطرة على الأجزاء العربية فى الامبراطورية العثمانية بالاشتراك مع فرنسا وايطاليا ، وباحتلال مصر عسكريا فى عام ١٨٨٢ . واحتفظت بريطـــانيا بهذه السياسة بعد انهيار الامبراطورية العثمانية بالاشراف المستمر على سياسة مصر الخارجية اشرافا كاملا حتى عام ١٩٣٦ وابان الحرب العالمية الثانية واشرافا خفيا بعد هذا التاريخ ، وكذلك بالاشتراك مع فرنسا فى الوصاية المسيطرة على ما تبقى من أرجاء الشرق الأوسط . وفى وسع الاتحاد الســـوفياتى أن يقيم علاقات دبلوماسية له مع مصر ولكن لا يمكن لبريطانيا ان تتسامح فى قيام حكومة مصرية تسيطر على علاقاتها الأجنبية ، وتوجهها لصيانة مصالحها .

وأثمرت ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ ، نظاما وطنيا قويا يثق بقدرته المطلقة على تبديل كل هذه الأوضاع . فأولا وقبل كل شىء يجب أن تقوم القواعد الأساسية لســـياسة مصر الخارجيـــة على الحياد مهما كانت الاتجاهات الثانوية الفرعية أحيانا . وكل عهد يحاول بعد عـــام ١٩٥٢ الخروج على هذه السياسة يعرض نفسه للثورة عليه . ولم يكن كل هذا مجرد احتمال ، بل كان حقيقة واقعة . وبات فى وسع المصريين بعد أن تحرروا من الاحتلال والسيطرة الاجنبيتين ، أن يشرعوا فى التعبير عن التجارب التى مروا بها طيلة مائة وخمسين عاما فى تماسهم بسياسات الدول الكبرى ، وهى تجارب لا يمكن لهم أن يصفوهـــــا الا بأنها مفجعة . وكانت هذه العلائم السياسة المكشوفة لهـــذا الحياد المصرى المتأصل ، تعود فى جذورها الى ماقبل الحرب العالمية الأولى، وهى جذور ـــ استطالت

حتى عام ١٩٥٠ ، وتبنتها النخبة المختارة القديمة التى لم تكن تستمد روحها من مصر الوطنية الأصيلة (١) .

وكان من المتوقع أن يبدأ المصريون « وقد تحرروا » فى النظر بتوكيد وحزم الى جميع الدول وكأنها من الدول العظمى . واذا كان الهنود يقبلون على قراءة خطبة جورج واشنطن الوداعية بمزيد من الاهتمام ، فان من حق المصريين ان يتقبلوه بالمزيد من الود الصادق ، اذ انهم قد خبروا خبرة عميقة تفوق خبرة الهنود ما تعنيه « الدول الكبرى » وبصورة أكثر جماعية ....

« فلماذا يتحتم علينا ونحن نرسم مصيرنا ونربطه بمصير أى جزء من أوربا أن نربط أمتنا ورخاءنا بما ينتاب الأوربيين من مطامح وتنافس وما يسيطر عليهم من مصالح » (٢) .

ولكن هناك أكثر من وجه الشبه هذا بالنسبة الى مصر الجديدة التى تم الجلاء عنها . ولا ريب فى أن رسالة واشنطن تنطبق عليها حرفيا حتى ولو أخذت ظواهر اللغة لا مضامينها الخفية اذ تقول ...

« وليس ثمة من شك فى أن التحيز المفرط لدول أجنبية واحدة ، والكراهية المفرطة لدولة أخرى ، تدفع أولئك الذين ينفذون العمل السياسى الى رؤية الخطر نابعا من جانب واحد ليس الا . فالوطنيون الذين يقاومون دسائس هذه الدولة المفضلة ، قد يتعرضون الى أن يصبحوا موضع الشك والمقت بينما يتمكن عملاء تلك الدولة من الاغرار من اغتصاب ثقة الشعب وتصفيقه . فى سعيهم للاذعان لمصالحهم » .

ولا تكتفى مصر برفض الانضواء فى ظل اشتعال الحرب الباردة عن طريق التحالف بل ان مصر الجديدة ، تحاول ان تساوى بين الدول الغربية وبين الاتحاد السوفياتى فى علاقاتها الخارجية ، على اعتبار انها جميعا من الدول الغربية وبين الاتحاد السوفياتى فى علاقاتها الخارجية ، على اعتبار «الدول الاجنبية» . ولم يعد للاتحاد السوفياتى منذ اليوم شأن أقل من شأن بريطانيا وفرنسا وأمريكا كقوى دبلوماسية فى الشرق الأوسط كما فى جنوب آسيا (٣) . وفى امكان الحركة القومية العربية أن تقاوم السلطان السوفياتى الفعلى . ولكن ليس فى الامكان

---

(١) لم تكن هناك أية حكومة قبل الثورة راغبة فى الانضمام الى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط .

(٢) مقتطفات من الخطاب . كوما نغر « وثائق من التاريخ الامريكى » نيويورك ١٩٤٥ .

(٣) كانت الدبلوماسية السوفياتية كحقيقة واقعة ، قد دخلت الى المنطقة فى مشكلة فلسطين عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، وبرز هذا الدخول أيضا فى الحادث الذى ظهرت فيه الدولة الغاصبة ، عندما سارع الاتحاد السوفياتى الى احتذاء حذو أمريكا فى الاعتراف باسرائيل فى ١٥ ايار عام ١٩٤٨ ، مكرسا دخوله الدبلوماسى الى المنطقة .

الآن اغلاق المنطقة فى وجه دبلوماسية الكتلة السوفياتية وتجارتها ودعاياتها .

وهكذا طرأ على المشكلة كلها تحول كبير . ولم تعد القضية مجرد هل يمكن « الابقاء » على مصر ، الى جانب الغرب وحده . بل باتت القضية الجديدة تتلخص فى كيفية رسم كل سياسة عربية على انفراد ، بالحيلولة دون اتاحة فرص خاصة للاتحاد السوفياتى . ويتميز صراع الحرب الباردة بوجود صعيدين ، أحدهما سوفى (استراتيجى) والآخر ثورى داخلى . واصبح من الواجب اجراء حساب دقيق فى موضوع تصور حصول الغرب على اية قاعدة سوقية فى أى بلد افريقى ـ آسيوى يتأجج بالمشاعر الوطنيه . واذا كان الحصول على مثل هذه القاعدة يعنى الاصطدام بحكومة اختارت سياسة الحياد ، فهل يكون فى قدرة حليفتها وقد حددت الغاية من وجودها ، أن تقيم الدليل على أنها أقدر على خلق رأى عام فى الداخل ، وايجاد منظمات تكفل مقاومة الشيوعيه الداخلية فى أرضها ؟ (١) واذا كان الحصول على مثل هذه القاعدة يعنى تأييد أى حكم قائم وراغب فى التعاون ، فهل يستطيع ذلك الحكم الاحتفاظ بثقة شعبه ؟ وهل يمكن لسياساته الداخلية والاجتماعية ـ الاقتصادية أن تؤمن بديلا قويا عن الشيوعية المحلية ؟ واذا لم يكن فى استطاعته تحقيق ذلك، فهل تكون اقامة القاعدة أو حتى مجرد محاولة اقامتها جديرة بمثل هذه المغامرة ؟ وهل تعادل ما يتحقق من نصر للدعاية السوفياتية بسببها؟

وأثار الجلاء المتفق عليه عن منطقة قناة السويس أخيرا قضايا أكثر اتصالا بالمنطقة ، وان كان يحمل خصائص وصبغات دولية . وكانت مشكلة فلسطين احدى هذه القضايا . فقد نص البيان الثلاثى لعام ١٩٥٠ تعهد بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا بالحفاظ على الاوضاع العربية ـ الاسرائيلية الراهنة ، سواء بالنسبة الى الخطوط التى رسمتها اتفاقات هدنة عام ١٩٤٩ ، أو بالنسبة الى التوازن فى التسلح بين الفريقين . وعنى انسحاب القوة البريطانية فى منطقة القناة ازالة عازل قوى يقف حاجزا ضد نشوب أى حرب كبرى أو التهديد بنشوبها بين اسرائيل وبين أكبر دولة عربية . ولا ريب فى أن انسحاب هذه القوة من مصر التى تحكمها حكومة من الضباط الشبان المتميزين بالحيوية والدينامية والذين حاربوا فى فلسطين نفسها . سيثير مخاوف بالغة فى اسرائيل . ترى الى أين يمكن أن تؤدى مخاوف اسرائيل هذه ؟

ويثير الجلاء مشكلة أخرى تتعلق بالقناة نفسها أى بمستقبل الشركة التى يملكها الغرب والتى تتولى ادارة الممر المائى العظيم والافادة من مزاياه وأرباحه . وكان من المفروغ منه ان امتياز القناة سيظل سارى المفعول حتى عام ١٩٦٨ . ولكن القناة ظلت تمثل أكثر من سبعين عاما ، قضية أساسية بالنسبة الى الحركة الوطنية المصرية ، ولا ريب فى أن

---

(١) يكاد المؤلف هنا يعترف بوضوح ، بما تبذله الدول الغربية من جهود ، وما تحركه من مؤامرات أحيانا للاطاحة بأى حكم لا ترى أنه مواليا لها فى أى جزء من أجزاء الوطن العربى .
المعرب

قضايا الاستغلال غير المتكافىء للقناة ، وما يملكه الانكليز والفرنسيون فى شركتها ، وارتباطهما النفسى المتأصل بذكريات الماضى الخانع المذعن كلها ستظل قائمة بعد أن يجلو آخر جندى بريطانى عن المنطقة . ولا ريب أيضا فى أن كل من كان على اتصال بمصر فى عام ١٩٥٤ قد توقع كل ما يعنيه هذا الجلاء . وكانت الاشارة من جانب الغرب الى « قداسة الامتياز الممنوح للشركة ، تعنى فى عيون المصريين . مجرد ضغط تتعرض له بلادهم من الدول الغربية » . واذا لم تقم حقبة جديدة حقا بين الغرب ومصر ، فان الامتياز سيكون أحد مخلفات الحقبة الماضية الباقية التى لابد لها من أن تختفى تحت الضغط .

***

كانت هذه هى أوليات التبدلات الخطيرة والمشاكل التى تبرز آليا وبصورة طبيعية، نتيجة اتفاق الجلاء عن مصر . وقد لاتكون هذه الأوليات وتلك المشاكل واضحة أمام البريطانى العادى ، ولذا فان رد فعله المتوقع لن يزيد على ... ترى ما الذى نحن مقدمون عليه ؟ هل نحن على وشك الاستسلام للمصريين؟ ولكن ألم يكن فى وسع كل من يعرف التاريخ الاستعمارى البريطانى ، أو على كل من يعرف أو على اتصال بمن يعرف تاريخ الشرق الأوسط ، ان يتجاهل هذه القضايا الأساسية فى عام ١٩٥٤ . ومن الصعب على المرء أن يفكر بوجود أى مكان آخر فى عالم مابعد الحرب العالمية الثانية ، وصلت فيه سياساتنا التقليدية بمثل هذا الوضوح، الى هذه النقطة الفاصلة فى التحول بالنسبة الى أية حكومة بريطانية . وكان الشعب البريطانى فى ذلك الحين ، فى حاجة الى قيادة واضحة ، جريئة ، مطلعة ، قادرة على الايضاح . واذا كان لا بد من اتخاذ قرار بالجلاء ، فقد كان من اللازم اللازب ، أن يوضع ذلك القرار ويوضح فى عبارات تجعل فى الامكان تفهم الشعب البريطانى ما يقتضيه هذا القرار من تعديلات وتغييرات فى القضايا الأخرى المتعلقة بالشرق الأوسط .

ولكن المناقشات التى دارت فى مجلس العموم حول الاتفاق الموقع بالأحرف الأولى ، كانت أشبه ماتكون بالمأساة . وكان لابد لانسان مثل ونستون تشرشل ، رجل الامبراطورية العظيم ، أن يكون قادرا ، على اخفاء تلك الصورة الجريئة من القيادة التى خبرها الشعب فى الحرب العالمية الثانية ، على الشعب البريطانى الذى كان فى أمس الحاجة الى من يوضح له ذلك القرار . ولكن كل مافعله دفاعا عن الحكومة ، هو ايضاح الجلاء بعبارات سلبية ، جوفاء ، طنانة ، اذ اكتفى بالقول بأن الجلاء عن منطقة القناة لم يعد أمرا هاما اذ أن ماتقدمه القاعدة من تسهيلات سوقية (استراتيجية) لم يعد أمرا حيويا بالنسبة الى العصر النووى الجديد . وهذا كل ماصدر عن رئيس الوزراء المحافظ . ولكن رسالة زعامة المعارضة العمالية ، لم تكن أقل افتقارا الى الالهام أيضا : ولم يكن فى وسع المستر آتلى أن يقاوم ما أتاحته له هذه الفرصة من تذكير تشرشل ومحافظيه بسنوات الهجوم الطويلة التى تعرض لها العمال بسبب تقطيعهم أوصال الامبراطورية، وراح بعد ذلك يفند الاتفاق ويصفه

بأنه صيغ ، فى أسوأ عبارات رأيتها فى حياتى .. وراح الجناح اليمينى فى حزب المحافظين استكمالا للمأساة ، وهو الجناح الذى اشتهر أمره فيما بعد باسم « متمردى قناة السويس » ، يصف الاتفاق بأنه مجرد استسلام . وتركزت التعليقات الاخرى ولا سيما من العمال ، على ما يسببه هذا الاتفاق من خطر على اسرائيل .

ولا ريب فى أن هذا الفراغ القيادى ، وهذا الافتقار الى الايضاح الواقعى للشعب البريطانى عن حقيقة ماوقع فى عام ١٩٥٤ ، هو الذى أدى فى حكم الواقع الى وضع قواعد ذلك التخبط المتشنج المنفعل الذى شهدناه فى عام ١٩٥٦ .

لكن المستر ايدن ، بصفة كونه وزيرا للخارجية طلب الى مجلس العموم ، أن يوضح لمصر أن بريطانيا ستدخل « العهد الجديد ، يحدوها تصميم واقعى على محاولة انجاح الاتفاق » . وراح بعد ذلك يتحدث عن الفرصة الجديدة المتاحة « لاقامة أوضاع الصداقة مع جميع البلاد العربية وتوطيد دعائمها » . وعندما تم ابرام الاتفاق بصورة نهائية فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بعث ايدن برسالة الى جمال عبد الناصر ، أشار فيها الى الاتفاق واصفا اياه بأنه « خطوة هامة الى الامام لايجاد تفاهم وصداقة على أسس جديدة بين البلدين » .

ترى ما الذى عناه ايدن بقوله هذا ؟ وماذا كان ايدن ووزارة خارجيته ، يعرفان عن العهد المصرى الجديد الذى سيتعاملان معه ؟ وما المعلومات الجانبية والتقديرات السياسية للاوضاع التى كان فى وسع أى – سياسى – غربى أن يحصل عليها من سفارته فى القاهرة فى عام ١٩٥٤ بالنسبة الى هذا « المقدم » : الطويل القامة ، الحاد المزاج ، والذى بات واضحا كل الوضوح الآن أنه عصب السلطان فى مصر الجديدة فى عهدها «الجديد» ؟ أرى لزاما على قبل الغوص فى تسلسل الاحداث طبقا لسياقها التاريخى ، أن أرسم مثل هذه الصورة لعبد الناصر ، وذلك لان اسم هذا القائد سيتكرر فيما تبقى من قصتنا وقد انصبت عليه اتهامات الغربيين الرسميين مصورة اياه على غير صورته الحقيقية .

ولد عبد الناصر عام ١٩١٨ من أب كان يعمل وكيلا لمكتب بريد وكان أولاد عمه من الفلاحين الأميين ، ولكن توافر للاسرة بعض المال الذى مكنها من ارسال الفتى الطويل القامة ونحيلها الى احدى المدارس الثانوية فى القاهرة . وكانت التجربة التعليمية التى مر بها هناك نموذجا للتجارب التى مر بها كل فرد من أبناء جيله ، فقد تعلم شيئا عن تراثه العربى – المصرى من ناحية . وعما جاء به الغرب من أفكار عن القومية والعدالة الاجتماعية والتقدم الاقتصادى من الناحية الأخرى . وأظهر الشاب منذ أيامه المبكرة ، مواهب وميولا قيادية ، اذ تولى قيادة اضرابات الطلبة ومظاهراتهم احتجاجا على الاحتلال البريطانى وعلى التغلغل الصهيونى فى فلسطين . وكانت الحياة فى نظره ونظر الشبان الذين هم فى مثل سنه ومركزه الاجتماعى ، فى طول الشرق الأوسط وعرضه ، تفاعلا دائما من الألم والواقع المر القاسى . ولقد روى فيما بعد

قائلا ... « وكان الواحد منا يعود من مدرسته ، وقد أحس بعالم جديد كامل يقف أمامه ، ولكنه لا يلبث أن يجد نفســـه فى بيت ، ليس فيه مايكفى من الطعام ... »

ومكنته مراحله التعليمية من الانتقـــال الى المجتمع المصرى فى المدينة ، وهو المجتمع الذى كان يتطلع اليه بعين فلاح ينتمى الى جماهير الفلاحين الذين يمثلون مصر فى جوهرها ، مع الصورة الجديدة الأخرى لبلاده ، التى طبعتها فى نفسه علومه التى درسها فى مدرسته . وقد أصدر فى عام ١٩٥٤ ، وقبيل توقيع اتفاق الجلاء ، كتـابا ضمنه ذكرياته وأفكاره التى صور فى أسلوبها الذى يعتريه بعض الغموض الدليل على مايحمله من أفكار سياسية (١) .

ونرى فى هذا الكتاب تحللا كاملا من مفاهيم القيادة المصريةفىالماضى وهى التى كانت تعيش فى عزلة كاملة فى ثقافتها وطبقيتها وثرائها ووجهة نظرها الى الحياة عن جماهير الشعب المصرى الحاشدة ، اذ يقول :

« أنا أنظر أحيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الاسر التى تعيش فى العاصمة . فالأب مثلا ، فــلاح معمم من صميم الريف . والأم سيدة منحدرة من أصل تركى . وأبناء الاسرة فى مدارس على النظام الانجليزى. وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى . كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين ..

أنظر الى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها والتخبط الذى يفترسنا .. ثم أقول لنفسى : سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك وسوف يكون وحدة قــوية متجانسة . انمـــا ينبغى أن نشد أعصابنا ، ونتحمل فترة الانتقال » .

وكان من الواضح فى عام ١٩٥٤ ، ان جمال عبد النـــاصر سيعمل بالنسبة الى هذه الافكار التى دونهـــا ، والى جذوره العائلية التى ينتمى اليها ، والى طريقة الحياة الزاهدة التى يعيشها ، طبقا لما تمليه عليه أمته التى تتألف أغلبيتها الساحقة من الفلاحين الذين يعيشون فى فقر مهين . وكان من المؤكد أيضا انه سيعمل طبقـا للرغبة العارمة والعميقة الجذور والمعمرة أكثر من قرن كامل ، عند جماهير المصريين فى تبنى الحيـــاد ومعارضة الاحلاف مع أى من الدول الكبرى . واذا ما تفهمنا هذه الخصائص الجوهرية لشخصيته ، أمكننا أن نحسب بشىء من اليقين والتأكيد ، أن عبد الناصر ، ومن حوله من رجال يحملون نفس طابعه ، سيقاومون باصرار وعناد أى ضغط أجنبى . قد تحاول أية دولة كبرى فرضه عليهم ســــواء أكان هذا الضغط دبلوماسيا أم ماليا أم عسكريا .

---

(١) أرى أن المؤلف قد أخطأ خطأ كبيرا فى وصــفه أسلوب السيد الرئيس فى كتابه هذا بالغموض ؛ اذ أن كتـــابات الرئيس وخطبه تتصف بالوضوح الذى يمكن كل انسان مهما كانت ثقافتة من فهم مايود الرئيس قوله . وما يعنيه . ولعل جهل المؤلف بالعربية هو الذى أوقعه فى هذا الخطأ ـ المعرب

والتحق عبد الناصر بالكلية العسكرية طالبا وهو فى الثامنة عشرة
ثم ما لبث أن عاد اليها مدرسا وهو فى السادسة والعشرين . لينتقل منها
بعد قليل الى كلية أركان الحرب طالبا من جديد . وعندما بلغ الثلاثين من
عمره ، اشترك فى حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ . وعلى الرغم
من الجراح التى أصيب بهـا فقد قاد وحداته فى المعركة التى كان جلوب
باشا يرقبها من أعالى جبال الخليل (اسمهـا القديم جبـــال اليهودية) ،
دون أن يعرف حقيقتها ، والتى وصفها « بالمقاومة المصرية العنيدة » التى
تبديها حامية محصورة فى موقع يدعى الفالوجة. وفى وسع المرء أن يحدس
بأن تجربة فلسطين قد تركت أثرا لا يمحى فى عقــل ذلك الرجل الذى
بات رئيسا لوزراء مصر فى عام ١٩٥٤ . ولكن أى دبلوماسى عربى . وجد
فى القاهرة فى ذلك التاريخ لم يكن فى حاجة الى أن يكلف نفسه عناء مثل
هذا الحدس . فلقد تحدث عبد الناصر فى نفس تلك المقالات التى نشرها،
عن هذه التجربة ، وضمنها عبـارة يمكن أن تعتبر نذيرا مرشدا لكل من
كان يتساءل عن السياسات الخارجية التى سيتبعها قائد النظام الجديد .
وهو فى هذه العبارة أيضا يتحلل من الماضى . فلقد سبق لآخر زعيم وطنى
مصرى كبير أن قال لممثلى المشرق العربى فى فرساى عام ١٩١٩ ، « ان
مشكلتنا مصرية وليست بالمشكلة العربية ، ولكن جمال عبد الناصر نشر
ما يلى فى عام ١٩٥٤ وحتى قبيل توقيع الاتفاق الذى قرر خلاص مصر من
آخر قيد بريطانى على سياستها الخارجية بالحروف الاولى فقال :

« وكنت أخرج الى الاطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ، ثم أسبح بعيدا مع الخيال .

... وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى ..

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منهـــا الأوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى منطقه الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبــير وفى المصلحة المشتركة ، وفى الدافع الذى جعلنا نهرول الى أرض فلسطين .

هذه هى جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلهــا هى أيضــا محاصرة ـ بفعل الظروف التى كانت تحيط بهـــا والتى كانت تحيط بحكوماتها ..

وكانت شـــعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنهـــا عمدا حقيقة ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه ..

... كنت مؤمنا بأن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث .. وما زال احتمال حدوثه قائما ـ لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن ..

... وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى

... كان الحادث يقع فى القـاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا ، وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى . منطقة واحدة ونفس الظروف ، ونفس العوامل .. بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعا .

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى اومن بكفاح واحد مشترك » .

ومن المألوف ، عند ما يظهر زعيم جديد فى بلد له أهميته الدولية ، أن تقوم الدول الكبرى المعنية بهذا البلد باجراء دراسات دقيقة عن هذا الزعيم عن طريق مبعوثيها ومخابراتها وصحفييها الخبراء بذلـك البلد، وموثوقيها ، وأن تجمع عنه كل نتفة من نتف الاخبار التى تلقى ضوءا على سياسات حكومته المقبلة . ولو لم تكن هناك أية معـلومات أخرى من أى نوع عن الرئيس عبد النـاصر ، لكانت هذه الفقرة البـارزة التى وردت فى الكتاب الذى نشره وضمنه عقيدته ، كافية فى حد ذاتها لاظهار مايعتزمه من استئناف الدور القيادى الكامل الذى يجب أن تقوم به مصر على المسرح العربى ، ولحرمت أى سياسى غربى من الادعاءات التى ينتحلونهـا لازالة أسباب السخط والدهشة التى سـادت الجميع بالنسبة الى ما حدث فى عام ١٩٥٥ . واذا كانت هذه النـذر التعبيرية لم تؤلف جزءا من الصورة التى حملها أنطونى ايدن عن « العهد الجديد » ، فان مسئولية الخـطأ فى ذلك تقع على ايدن وحده وعلى مبعوثيه وخبرائه .

ومع ذلك فقد كان هناك ماهو أكثر تحديدا ودقة فى سـجل الرئيس عبدالناصر قبيل منتصف عام ١٩٥٤ . فلقد قام جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا فى ربيع عام ١٩٥٣ بزيارة القاهـرة ليبحث مع مسئوليها فى الخطط التى وضعها لاقامة « حزام شمالى » سوفى على طول حدود الاتحاد السوفيتى الجنوبية ، يعززه فى الشرق الاوسـط حلف دفاعى عميق ، هو عين منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط التى قدمت الى دول الشرق الاوسط منذ عام ١٩٥٠ وكان مصيرها الرفض . وقد قابل دالاس الضابط المصرى الشاب البالغ الخامسـة والثلاثين من عمره ، والذى كان قد قاد فعلا الثورة المصرية منذ شرع فى اعداد خلاياها فى عام ١٩٤٢ (١) واستمع عبد الناصر الى الوزير الامريكى ثم رد عليه بحزم قائلا :

« اننا نعارض الاشتراك فى أية أحلاف مع أية دولة أجنبية ، لأن لدينا أسبابا قوية تدفعنا الى الشك فيها ، ولأن شـعوبنا لن تؤيد أية حكومة تشترك فى مثل هذه الاحلاف . وأنت تطلب منا الآن أن نحبط

---

(١) كتاب بالانكليزية « الثورة على النيل » للسيد أنور السادات – لندن ١٩٥٧

الاهداف التى تريدها . فالدفاع عن هذه المنطقة يجب أن ينبثق من داخلها ، أى من شىء يمكن له أن يوحد شعبها . وهذه القـوة ، او الجبهة الداخلية ، هى قوميتنا واصلاحنا الاجتماعى وتقدمنا . واذا قدر لقـوة هذه الجبهة الداخلية التى مازال لزاما علينا بناؤها ان تضعف نتيجة الاشتراك فى أحلاف غير مقبوله شعبيا ، فليس ثمة الا قوة سياسية واحدة تستطيع أن تكسب من هذا الضعف . ان الخطر الأكبر للشيوعية على هذه المنطقة يكمن فى داخلها ولا يأتى من خارجها ، اى فى هجوم يشن من الداخل ليس الا . وما قيمة الخطوط السوقية اذا كان الهجوم سيشن من الداخل لا من الخارج » .

وقد أتيح لعدد من المبعوثين الدبلوماسيين الغربيين الآخرين الذين قدر لهم ان يجتمعوا الى عبد الناصر فى عام ١٩٥٣ ، ان يحصلوا منه على نفس هذه الوجهات النظرية المعبرة والتى تحمل نفس الطابع التنبؤى بما قد يحدث . وكانت هذه المقابلات قد وقعت قبل أن يتحمل مسئوليات الحكم الكاملة . وقبل أن يعقد اتفاق الجلاء مع بريطانيا ، وقبل أن تشرع مصر فى انتهاج سياسة عامة تشمل المنطقه كلها . ولو قام المستر دالاس أو غيره من الساسة الغربيين بالرحيل الى أى مكـان آخر فى الشرق الاوسط العربى فى عام ١٩٥٣ ، واتصلوا بالقوميين من أبنـاء جيل عبد النـاصر ، لتلقوا منهم نفس الرد الذى كانوا يتلقونه من عبد الناصر ، وفى حدود المفاهيم نفسها . ولم تكن وجهات النظر هذه مجرد كره أعمى للأجانب أو مجرد آراء قومية سلبية . انها تدرك خطر الشيوعية وتؤكد أبعادها الثورية الداخلية . ولكن عبد الناصر لايحدد تقديراته التى يعرضهـا لدالاس على ضـوء هذه الأبعاد المحدودة . وقد نقل الى وزير خارجية الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٣ أيضا رأيه فى أن تقوية « الجبهـة الداخليـة » يجب أن تكون مصحوبة بطاقات دفاعيـة خارجية قوية تتشكل عن طريق ميثاق الضمان الجماعى العربى المستقل كل الاستقلال وغير المنحاز ، شريطة أن يقوى هذا الميثاق بتنسـيق عسكرى ، ويدعم بالاسـلحة الحديثة التى يجب على الغرب ، ان كان حكيما ، أن يزوده بها دون أية اشتراطات سياسية .

وهكذا لم يكن ثمة شك فى موقف العهد الجديد فى عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . فلقد أعلن عبد الناصر فى خطبه العامة وأحاديثه الشخصية أن مصر لن تعقد أية محالفـات دفاعية أجنبية . وكانت الخطب التى يلقيها على الضباط فى جماعات هيئة التحرير ومهرجاناتهـا تحذر من الشيوعية على أنها عقيدة غريبة مستوردة تميل الى الولاء لراية أجنبية ، تماما كما كان يقول نهرو ، وكان فى وسع أية سفارة غربية أن تفهـم تحذيراته هذه وتدونها . وهكذا كان الموقف واضحا تمام الوضـوح ، كأى موقف تتخذه أية حكومة ثورية . وهكذا كان العهد مع «الغرب» أى أنه لم يكن شيوعيا ، وكان قائده يحس بالخطر النابع عن تلك الجهة ولكنه لم يكن « مع الغرب » بالمعنى المقصود من أحلاف الحرب الباردة ، كما لم يكن هناك أى سبب يدعو الى الاعتقاد بأنه سيكون « مع الغرب » فى حدود ذلك المعنى ، وكان ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن أى ضـغط

على العهد لم يكن ليؤدى الى مثل هذا الاشتراك فى الاحلاف وأنه سيؤدى
على النقيض من ذلك الى استفزاز مقاومة عنيفة غاضبة .

ولكن قضية أحلاف الحرب الباردة ، كانت أوسع نطاقا وأفقا من
مصر . ففى الصورة التى رسمها عبد الناصر عن الفالوجة فى المقال
الذى نشره فى ابريل عام ١٩٥٤ ، أوضح الزعيم نظريته الاساسية عن
موضوع الوحدة العربية ، وبين مفهومه فى وجود وطن واحد ، وأمه
عربية واحدة « ترتبط بروابط تجعل من وطننا كلا كاملا لا يتجزأ »
يدافع عنه أبناؤه على هذا الاساس لا على أساس وحدات متفرقة ومنعزلة .
ولم يكن فى هذه النظرية شىء جديد وانما تنبع من ثقافة مشتركه عاشت
حقبا بل قرونا طويلة . ولكن الشىء الجديد الآن الذى ينطوى على أهمية
كبرى وكان جديرا بساسة الغرب أن يلاحظوه ، هو أنه قام فى عام ١٩٥٤
رئيس وزراء ثورى محايد فى مصر ، يدعو الى هذه الفكرة ، بعد سنوات
طويلة من انشغال مصر داخل حدودها الضيقة ، هذا اذا استثنينا اشتغالها
بالمنافسات القائمة بين الحكام ضمن اطار الجامعة العربية . وهكذا كان
هناك تحذير علنى واضح من النوع الذى يندر أن يحصل الساسة على
ما يشبهه فى تقدير المواقف التى يريدونها . وكان حريا بهؤلاء الساسة
ـ الغربيين طبعا ـ أن يبادروا الى اعادة درس وجهات النظر العربية ،
ليقرروا ما اذا كانت مبادرة مصر على هذا الاساس تلقى استجابة فى المناطق
الاخرى من الشرق الاوسط . ولم يكن ثمة من شك فى يوليو عام
١٩٥٤ فى حقيقة ما ستكشف عنه هذه الدراسات ، لو أن ساسة الغرب
كانوا من الذكاء بحيث يحملون أنفسهم على التعمق تحت سطحية الوثوق
بالحكام « الاصدقاء »

ولقد وافق عبد الناصر وهو برم كاره فى اتفاق الجلاء الذى
وقعه مع بريطانيا على التساهل فى نقطة واحدة ، وهو بند الردة الى
الحرب ، الذى يربط مصر الى تركيا فى حالة تعرض هذه لهجوم ،
يقصد به كما هو اضح الهجوم من الاتحاد السوفياتى . مما يعنى نشوب
الحرب العالمية الثالثة ، أو تعرض أى بلد عربى آخر لمثل هذا الهجوم .
وكان من الواضح لأى شخص فى القاهرة فى ذلك الحين ، أن رئيس
الوزراء المصرى ، كان يعرف تمام المعرفة ، أن تساهله فى قبول هذا
الشرط ، سيلقى نفورا شعبيا طاغيا ، لا سيما وأن الرأى العام المصرى
والعربى فى كل مكان ، كان يقف ضد الارتباط بأية معاهدة مع بريطانيا
حتى ولو كانت غير نافذة المفعول فى أوقات السلم . ولكن هذا التساهل
كان أيضا بمثابة اختبار أو ورقة « عباد الشمس » تغطس فى مياه الشرق
الاوسط السياسية لارشاد السياسة الغربية الى الخطة التى يجب
عليها انتهاجها فى المستقبل .

وتم أخيرا ابرام الاتفاق فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٥٤
وسط موجة عارمة من التوتر فى مصر والنقد المكشوف لعبد الناصر فى

سورية مع اتهامه بأنه « أداة فى يد الغرب » ، (١) وظهرت فى السادس
والعشرين من أكتوبر البراهين الجازمة والادلة القاطعة على ما يجوز
لساسة الغرب أن يطالبوا به وما لايجوز طبقا لمتطلبات الحكمة السياسية
اذ بينما كان عبد الناصر يقف على المنصة فى الاسكندرية أمام حشد
شعبى هائل ، شارحا نصوص الاتفاق الذى عقده ، انطلقت رصاصات
من مسدس يحمله أحد القتلة تحاول اغتياله ، ولكنه نجا منها بأعجوبة
ويبدو أن الاخوان المسلمين ، أرادوا استغلال مايحس به العرب والمصريون
من نفور لهذا الاتفاق ، فحاولوا القيام بانقلاب داخلى (٢) .

وكان هذا الشرط أول وآخر تساهل صدر عن عبد الناصر .
وكانت العبرة للغرب قوية للغاية . فلم تكن هناك قوة ثابتة فى
السياسات المصرية تستطيع أن تتسامح مع الغرب أو تفسح له المجال
لعقد حلف من أحلاف الحرب الباردة لا مع مصر ولا مع أى بلد آخر فى
الشرق الاوسط . وكان من حق المستر دالاس ومن حق ايدن أن
يدرسا كل مالديهما من ملاحظات عن عبد الناصر ، وعن سياساته وعن
الاجواء العامة التى تسود الشرق الاوسط بكامله . وكان الرجل لايزال
فى مستهل شبابه ، وعلى الرغم من كفاياته الثورية العظيمة ، لم يكن
بعد هو ورفاقه قد أتيحت لهم ، على الرغم من اتقاد ذكائهم ونشاطهم ،
الخبرة الكافيه فى السياسات الدولية الماكرة . وكانت له ولرفاقه آراء
قوية وأمزجة عنيفة ومع ذلك فقد أعرب عبد الناصر فى الثامن والعشرين
من سبتمبر (أيلول) عن أمله فى بداية جديدة ، مع بريطانيا والغرب ،
وعاد فكرر نفس هذا الامل فى شهر أكتوبر عندما أصبح الاتفاق سارى
المفعول . وكان ايدن أيضا قد أعرب عن نفس هذه الامنيات .

وتوقفت القضية عند هذا الحد . فلقد هدفت الحكومة البريطانية
من عقدها اتفاق الجلاء ، الى ضمان الحصول على قاعدة سوقية
(استراتيجية) فى مصر ، عند نشوب حرب عالمية ، من حكومة مصرية
تقف موقفا متصلبا من موضوع تأييد الحياد ، ولذا فقد وافقت وهى
كارهة على هذا التساهل الذى عرضها لموجة من السخط فى المنطقة

---

(١) ليس ثمة من ريب فى أن معظم هذه الانتقادات صدرت اما
عن الاخوان المسلمين الذين كان بعض قادتهم قد فروا الى سورية
أو عن جماعات الشيوعيين .

(٢) يكثر المؤلف هنا من القول بأن سيادة الرئيس عبد الناصر ،
قد تساهل فى هذه الفقرة من الاتفاق مع بريطانيا . ولكننا لا نرى فى
الموضوع أى تساهل ، وانما كان مجرد ضرورة سياسية حتمتها عليه
الاوضاع التى دارت ابانها المفاوضات من ناحية ووجوب الحصول
على الجلاء العاجل ، ليتمكن العهد الجديد بعد أن تتحرر أرض مصر من
وطأة الاحتلال من اختيار السياسة الحيادية التى يراها وتنفيذها
دون خوف من وجود قوات الاحتلال الاجنبى على أرض مصر نفسها وقد
أكدت الاحداث فيما بعد بعد نظره . ـ المعرب ـ

العربية كلها . وكان من الواضح أن قادة العهد الجديد يميلون الى الغرب فى الميول السياسية العامة وفى معارضتهم الداخلية والعقائدية للشيوعية (١) . وقد وقع عبد الناصر اتفاقا مع الولايات المتحدة الامريكية فى نوفمبر (تشرين الثانى) للمعونة الفنية والاقتصادية .

وأصبح الوضع متوقفا الآن على ما تريده الحكومتان البريطانية ، والامريكية من الشرق الاوسط ، وما تستطيعان الحصول عليه ضمن الشروط التى لم يعد فى وسعهما املاءها على مصر . وأصبح من الواضح أن أية حركة جديدة قد تقومان بها فى أى مكان آخر فى الشرق الاوسط ستؤثر تأثيرا عميقا على العلاقات مع العهد الجديد فى مصر الذى ربط نفسه علنا بفكرة « المنطقة الواحدة » وبعقيدة الوحدة العربية الوثقى ضمن اطار من سياسة الحياد الايجابى . ولم يكن فى وسع أى من ساسة الغرب أن يعتقد اذا كان يستطيع القراءة ، واذا كانت له عينان تبصران واذنان تسمعان وبعث برسله يجسون النبض فى مدن الشرق الاوسط وبلداته أن يشك فى مدى الاهتمام الذى يعلقه أبناء هذا الشرق على النظام الثورى فى مصر . ولم يكن فى وسع أى انسان مدرك من ساسة الغرب أن يعتقد أن عبد الناصر نظرا لتساهله الوحيد فيما مضى بالنسبة الى الحياد فى حالة وقوع حرب عالمية ، سيتساهل من جديد ، أو سيتسامح مع أى حلف جديد يفرض فرضا على هذه « المنطقة الواحدة » التى يؤمن بها . يضاف الى هذا ، وهو أمر هام ، أن المبعوثين الغربيين فى القاهرة ، كانوا فى وضع أفضل من أبناء المنطقة فى الفترة الواقعة بين يونيو ونوفمبر من عام ١٩٥٤ ، ليعرفوا حقيقة وجهات نظر عبد الناصر

كانت هذه هى القضايا والحقائق الجوهرية التى سادت الشرق الاوسط قبل أن يربط ايدن بلاده بريطانيا باتفاق الجلاء الذى يعتبر أعظم انحراف عن سياسات بريطانيا فى الماضى منذ أعلنت انسحابها من الهند . وبات « العهد الجديد » الذى تأمل بريطانيا أن تستهله مع مصر أكثر دول الشرق الاوسط العربى تقدما ، ومحور الوجود فيه ، وأكثر بلاده ثورية ، يعتمد أول ما يعتمد ، على مدى استعداد بريطانيا الرسمى لدراسة هذه القضايا كلها ، وما ينطلق عنها من تكهنات . وهكذا بات لزاما على بريطانيا أن تقرر الطريق التى يتحتم عليها ان تسلكها . ولعل من السخرية بالنسبة الى الغرب أن نؤكد ان

(١) يخطىء المؤلف كل الخطأ عندما يقول ان قادة العهد الثورى فى مصر كانوا ميالين الى الغرب . كما يخطىء الغربيون الآخرون الذين اتهموهم ردحا طويلا من الزمن بالميل الى الشيوعية . أما الحقيقة فهى أن سياسة هذا العهد انبثقت فى مطلع الحقبة عن الحياد الايجابى الذى ما فتىء أن تحول الى سياسة كاملة وشاملة من عدم الانحياز المطلق ، التى تعنى اتباع السياسات الاستقلالية الكاملة فى كافة الشئون الداخلية والخارجية . ـ المعرب ـ

موقف مصر الرسمى ، هو الذى ظل واضحا كل الوضوح طيلة الوقت وأن عبد الناصر قد حافظ باخلاص على هذا الموقف طيلة الازمات التى تلت والتى تعتبر « أزمات ثقة » قبل كل شىء ، نتج عنها تراشق فى الاتهامات وتبادل الشكوك واثارة الاستفزاز والغضب المتبادلين ، مما أدى الى انطلاق تلك الكتلة الثلجية هادرة مزمجرة هبوطا مع المنحدر ، متجهة الى سيناء والسويس .

- ٧ -

هبوطاً مع المنحدر الى السويس

« كان باستطاعة كل من عرف الرأى العام العراقى قبل عام ١٩٥٢ عندما كان عبد الناصر لا يزال بعيدا عن الشهرة ، أن يتكهن تكهنا دقيقا بما سيكون عليه رد فعل العراقيين تجاه حلف بغداد . ولم تجهر القاهرة فيما بعد الا بما كان يسر به العراقيون من قبل » .

كراكتاكوس ـ ثورة العراق

***

لقد كانت حادثة الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٥٥ نقطة تحول لقد كان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر ومنذ هذا اليوم بدأنا ندقق فى تعرف السلام وفى معنى السلام . وبدأنا ندقق فى معنى توازن القوى فى هذه المنطقة »

جمال عبد الناصر ـ أكتوبر ١٩٥٥

***

« ان مبدأ الحياد مفهوم لا أخلاقى وقصير النظر .. »

جون فوستر دالاس ٩ يونية ١٩٥٦

***

اذا أردنا أن نفهم طراز السياسات التى شرع فى تطبيقها الآن والتى قدر لها أن تقضى حتما على كل ما للغرب من مصالح فى الشرق الاوسط ، كان لا بد لها من أن تبقى قائمة وأن يحافظ عليها ، فان من الواجب أن نعتبر التسلسل التاريخى للأحداث التى وقعت فى هذه الفترة التى سادها الاضطراب ، أى بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٦ ، أمرا لا أهمية له . فمن الناحية الاولى ، اعرب عبد الناصر فى مايو (ايار) عام ١٩٥٣لدالاس عن الآراء التى سبق لنا أن دوناها ، والتى لم يحد عنها قط فيما بعد . وظهرت مقالاته التى تشرح فكرته عن الحياد العربى المتحد فى ابريل (نيسان) عام ١٩٥٤ . وتم التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاق الجلاء فى السابع والعشرين من يوليو عام ١٩٥٤ ، ثم أصبح الاتفاق سارى المفعول فى التاسع عشر من أكتوبر من نفس العام وتسجيل هذه التواريخ أمر فى منتهى الاهمية اذ أن حكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا فى عهد تشرشل وايدن ، كانتا طبقا للأدلة القائمة تباحثان فى هذه الفترة ذاتها نورى السعيد فى العراق فى موضوع حلف الحرب الباردة الذى قدر له حتما أن يحطم كل أمل فى قيام عهد جديد

مع مصر والشرق الاوسط عامة . وقد بدأت هذه المباحثات قبل شهر مايو من عام ١٩٥٤ . وعندما تكشفت لعبد الناصر هذه الازدواجية ، عادت اليه شكوكه عن استمرار وجود مؤامرة مناهضة للقومية العربية ، وظلت هذه الشكوك منذ ذلك التاريخ تطغى على كل كلمة قالها ، أو تبثها اذاعة القاهرة .

ولا أرى بى حاجة الى القول بأن هذه الشكوك لم تكن تساوره وحده ، وانما كانت تتسلط على جميع أبناء جيله من القوميين . وقد يكون من المشاكل المزعجة فى سرد تاريخ هذه السنوات أن يضطر الكاتب الغربى الى الاشارة الى كل شىء ونسبته الى عبد الناصر ، اذ أن هذه النسبة أصبحت الشكل السائد لكل اشارة فى الغرب عن هذه الفترة التى لا يمكن فصلها عن عبد الناصر ولا فصله عنها ، لكن هذه الاسطورة الغربية مبنية على مغالطة واضحه ، اذ أنها تقوم على «فردية» عبد الناصر وعلى « أهميته الشخصية » وحدها وكأن ليس ثمة رأى عام عربى يقوم وراء عبد الناصر الذى يعبر عنه أصدق تعبير . وقد بدأت هذه القصة فى مستهل عام ١٩٥٥ ، بظهور حلف بغداد ، وبالهجوم الاسرائيلى الخطير على غزة ، وبصفقة الاسلحة التشيكية .

حلف بغداد

أحس دالاس بخيبة الامل فى القاهرة فى عام ١٩٥٣ ، فى موضوع اقامة حلف « الحزام الشمالى » فتابع البحث فى تحقيق فكرته ، فى الوقت الذى كانت فيه المفاوضات المصرية البريطانية لا تزال دائرة للوصول الى اتفاق الجلاء . وقد أولى نورى السعيد هذه الفكرة جل اهتمامه منذ طلوعها لأول مرة . فقام بزيارة الباكستان فى مارس (اذار) ، وعندما وقعت الباكستان مع تركيا معاهدة دفاعية فى ابريل عام ١٩٥٤ ، راح العراق يعلن قبوله المساعدة العسكرية من الولايات المتحدة ولم يحل شهر مايو حتى كانت الباكستان قد وقعت معاهدة مماثلة مع أمريكا . وشرع نورى السعيد بعد ذلك فى اعداد الاستعدادات الداخلية تأهبا لاتخاذ خطوة أخرى أكثر خطورة . وجرت فى شهر يونيو انتخابات عامة رتبها نورى السعيد ترتيبا محكما ، مضعفا جبهة المعارضة الداعية الى سياسة الحياد ، ومؤمنة « لحزب » نورى فوزا كاسحا بالاغلبية . وسرعان ما قام بحل جميع الاحزاب السياسية وأعلن عن عزمه على تعديل المعاهدة الانكليزية ـ العراقية المعقودة فى عام ١٩٣٢ وأراد ضمان التأييد لخطواته الجديدة ، فحل البرلمان وأجرى انتخابات جديدة ، حرمت فيها المعارضة تماما هذه المرة من القيام بالحملة الانتخابية . وفاز حزب نورى ، وما لبث بعد ثلاثة أيام أى فى منتصف سبتمبر ، أن شرع فى جولة يزور بها عددا من البلاد فى خارج العراق .

وكانت الحكومتان الامريكية والبريطانية على علم بما يعتزم نورى عمله . وكانت بريطانيا قد فرغت من توقيع اتفاق الجلاء مع مصر بالحروف الاولى ، وأوشك مجلس العموم فيها على الفراغ من مناقشة الاتفاق . وقد شرحت فى فصل سابق بعض القضايا الاساسية التى عرضها الاتفاق بالنسبة الى سياسة بريطانيا المقبلة فى الشرق الأوسط

فهل يقدر لحلف جديد من أحلاف الحرب الباردة أن يلقى التأييد الشعبى فى العـراق ؟ ولم تكن اعدادات نورى فى عام ١٩٥٤ لهـــذا المشروع ، باخفات صوت كل معارضة سياسية هى الدلالة الاولى على مايتوقع من رد على هذا السؤال . وقـد انقضت ست سنوات طويله ، ولم تجرو فيهـا أية حـكومه بريطانيه أو عراقيه أيضا على تعديل المعاهدة الثنـائيه بين العراق وبريطانيـا . وقد تخلى الفريقان عن المحـاولة الاخيرة التى جرت فى مطلع عام ١٩٤٨ ، وسط اضطرابات عنيفة لم يحل بينها وبين التحول الى ثورة عارمة شعبية الا الاجراءات العنيفة التى قامت بهـــا الحـكومة ووقعت فى عام ١٩٥٢ ، اضـــــطرابات جديده ، هوجمت فيهـــــا كل من السفارة البريطانية ومكتب المعلومات الامريكى فى بغداد . وكان نورى يفسر جميع هذه الاضطرابات للغربيين على أنها « شيوعية » يقوم بها « الرعاع » . ولكن الناس الذين اعتقلهم وأودعهم السجون وأخرس أصواتهم لم يكونوا من الشيوعيين مطلقا ، بل كانوا من القوميين المثقفين خير ثقافة من أعضاء حزبى الاستقلال والوطنى الديموقراطى . وكان آخر دليل على وجـود المعارضة التى يخشـاها نورى ، اغلاقه الحـزب الوطنى الديموقراطى ومنع صحيفته عن الصدور فى الثالث من سـبتمبر عام ١٩٥٤ أى قبل تسـعة أيام فقط من الانتخـابات الزائفـة الجديدة التى حصل فيها نورى السعيد على الاغلبية التى ضمنت له تحقيق حلف بغداد المقبل .

ولقد عرفنا ماكان عليه رأى عبد الناصر فى أحلاف الدول الكبرى فى عام ١٩٥٣ . وعندما ظهر حلف بغداد الى حيز الوجود نتيجة النشاط الذى قام به نورى السعيد فى مطلع عام ١٩٥٥ ، وراحت مصر تهـاجمه وتهاجم نورى السعيد معه ، أخذوا يزعمون أن عبد الناصر كان قد وافق نورى عـلى مشروعه . وكانت الفـكرة الغـربية التى قامـت وراء هــذا الادعاء قد هاجمت عبد الناصر ، واتهمته بأنه ليس محايدا حقيـــا ، وأن هجومه على نورى السعيد وحلف بغداد كان « بدافع الغيرة من رجل أعظم منه !! » (١) . ومالم توضح الحقائق بصدد هذه الشائعات الواسعة الانتشار فان الكوارث التى نجمت عن السياسة الغربية قد تتكرر اليوم بنفس القوة التى وقعت فيها فى الماضى .

ومكنت حقيقتان دقيقتان نورى السعيد ومن يقف وراءه من سلطان الغرب ، من الترويج لهذا التفسير الذى زعموه لما أبدته مصر من ردفعل لميثاق بغداد ، وأولاهما البند المتساهل فى اتفاق الجلاء عن السويس الذى سبق لنا أن شرحنا سياسة عبد الناصر الرئيسية تجاهه أما ثانيتهمـــا فالادعاء بأن مبعوث عبد الناصر المتنقل الصاغ صلاح سالم، قد أعلن موافقته واذا صح ان (المرحوم) صلاح سالم قد وافق عليه فانه يكون بذلك قد تجاوز صلاحياته والتعليمات الصادرة اليه ، اذ عندما شرع نورى السعيد فى شهر سبتمبر فى جولته الهادفـــة الى عقد الحلف ، تولى عبد الناصر

---

(١) كتاب للورد بيردوود عن نورى السـعيد ـ كاسل ١٩٥٥ . والكتاب تاريخ كله عطف وأعجاب من اللورد الانجليزى المحافظ بنورى السعيد وآرائه — المؤلف —

شخصيا تصـــحيح أى انطباع خاطئ لديه يدعيه . اذ عندما وصل الى
القاهرة بعد زيارته لشمعون رئيس لبنان آنذاك ، علم نورى من عبدالناصر
شخصيا أن مصر معارضة معارضة لا انحراف فيها ولا تبدل ، لأى تحالف
بين أية دولة عضو فى ميثاق الضمان الجماعى العــربى وبين أية دولة
أجنبية ، وأعرب عبد الناصر للرئيس العراقى عن تفهمه لأسباب تحمسه
لانشاء دفاع قوى ضـد روسيا ، ولكن هذا الدفاع كما قال عبد النـاصر
لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق تقوية ميثاق الضـمان الجماعى العربى
لا عن طريق استمرار التحالف مع بريطانيا أو توثيق أواصره .

واذا كان ثمة من ظل للشك فى موقف مصر ، وفيما قاله عبد الناصر
لنورى فى القاهرة فى سبتمبر آنذاك فى عام ١٩٥٤، فان البلاغ الرسمى
الذى لا يحمل أى معنى والذى صدر بعد انتهاء المحادثات أشار الى اختلاف
وجهات النظر بين الرجلين . وراح نورى نفسه يحمل فى اليوم التالى فى
المؤتمر الصحفى الذى عقده ، على سياسة الحياد ، ويحث على توثيق أواصر
العلاقات بين العرب والغرب ، ولم يرد عبد الناصر علنا على هذه البيانات
الصحفية . وكان قد أنهى محادثاته مع نورى ، على أساس الفهم الواضح
بأن رئيس الوزراء العراقى لن يوقع أية معاهدة غير عربية دون أن يخطر
بذلك مسبقا جميع الحكومات الأعضاء فى ميثاق الضمان الجماعى العربى .

وقد عرف المبعوثون الغربيون فى القاهرة جميع هذه الحقائق ،
وواصل نورى السعيد رحلته الى لندن . وتم فى التاسع عشر من أكتوبر
التوقيع على اتفاق الجلاء بين مصر وانجلترا . وجرت محاولة الاغتيال فى
السادس والعشرين من أكتوبر . وعاد نورى الى العراق بعد زيارته اسطنبول
وراح يشدد بعد عودته الى بلاده من اجراءاته البوليسية العنيفة مستصدرا
قوانين جديدة يكمم بوساطتها أفواه الصحف العراقية ، ويحظر عن
طريقها كافة الاجتماعات التى يعدها خطيرة .

وعاد موسى الشابندر وزير خارجية العراق فأكد لعبـــد الناصر فى
ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٥٤ ابان اجتماع لوزراء خارجية الدول
العربية عقد فى القاهرة بأن العراق لن يدخل فى أية ارتباطات أو مواثيق
غير عربية دون الحصول على موافقة مسبقة من الدول الاعضاء فى ميثاق
الضمان الجماعى وعاد نورى السعيد الى تأكيد هذا الوعد فى مجلس النواب
العراقى . وأعلنت تركيا أن لا علاقة للزيارة القادمة لرئيس وزرائها الى
بغداد مطلقا بالشئون الدفاعية . ويبدو أن نورى السعيد كـــــان يود
الابقاء على كل شىء هادئا قدر الامكان حتى اللحظة الأخيرة .

وفجأة وبدون أى اتصال أو اخطار للدول العربية الاعضاء فى ميثاق
الضمان الجماعى ، أعلن نورى السعيد فى الثانى عشر من يناير عام ١٩٥٥
عقد معاهدة جديدة بين تركيـــا والعراق ودعا الدول العربية الاخرى الى
الاشتراك فيها . ورحبت وزارة الخارجية فى لندن بالانبـــاء السعيدة .
وهكذا القى نورى السعيد بقفازه فى الحلبة . محرقا ســـفنه . وبدأ
عبد الناصر بعد أربعة أيام يشن أول حمـــلة عنيفة عن طريق الصحافة

والاذاعة من طراز لم يسبق للوطن العربى أن شهده من قبل ، وضمن فى حمته هذه تأييد سورية والعربية السعودية واليمن والبنديت نهرو الدبلوماسى وقد صيغت حملة عبد الناصر الاعلامية فى نفس العبارات التى سبق له أن أسر بها الى دالاس فى عام ١٩٥٣ والتى أعلنها فى العام نفسه والعام الذى تلاه ، والتى ذكرها لنورى فى سبتمبر عام ١٩٥٤ . ولم يكن هناك من شىء أكثر توقعا من هذه الحمله المصريه على حلف بغداد . ولم يكن ثمة ما هو أكثر من الاستقبال الحماسى الذى تقابل به جماهير العرب والقادة الوطنيون فى العراق وغيره مثل هذه الحملة . وكان العيب الوحيد هو عجز القوميين العرب فى العراق عن التعبير عن حماستهم وقد أثمل هذا العجز أيضا الاردنيين وغيرهم من الكثيرين الذين كانوا لا يزالون يرزحون تحت حكم النظام القديم .

ومع ذلك كان لا يزال ثمة فرصة أمام بريطانيا للتفكير والتمعن فى هذه الدلائل المتزايدة على اتجاه التيار العربى ، قبل أن تتخذ الخطوة الحاسمة التى لاردة عنها . ولكن بريطانيا لم تتوقف ، ولم تعد بالطبع النظر فى موقفها . وأعلنت فى الخامس من ابريل عام ١٩٥٥ انضمامها رسميا الى حلف بغداد . وأعيد فى الوقت نفسه النظر فى المعاهدة الانكليزية – العراقية واستبدلت باتفاق خاص قضى بتغيير الاسم الذى يطلق على التسهيلات التى يمنحها العراق للسلاح الجوى البريطانى ليس الا . ووقعت مصر والهند فى اليوم التالى معاهدة صداقة . وهكذا فاتت الفرصة العظيمة وأخذ أبناء الجيل العربى الصاعد ، يقذفون وراء ظهرهم بكل ما يحمل اسما بريطانيا أو صبغة بريطانية . وضاعت وسط هذه الضجة العنيفة ، التى كانت بمثابة كارثة لبريطانيا ، كل المشاعر التى كان يحس بها المحافظون العرب من العطف على بريطانيا ، والذين كانوا يشعرون بأن الواجب كان يحتم على مصر أن تعترف بجميل بريطانيا (١) لانها وافقت على الجلاء عن قاعدة السويس، التى وصفها اللوردهينشنبروك فى وقت لاحق بأنها « جزء أساسى من المملكة المتحدة » . وساد بريطانيا احساس بالالم ، وبالصدمة من جراء هذه الحملة التى لم تكن تتوقعها بعد تلك الايماءة التى أظهرتها بالجلاء عن القناة . وراحت تستغيث بصداقاتها التقليدية فى الصحراء وبمشاعر « الفصل » بين « المصريين » وبين « العرب » لتواجه هذه الحملة العنيفة التى شنتها القاهرة . ولم يكن الا القليلون من البريطانيين والغربيين يدركون مدى الشعور العربى « المختزن » ضد حلف بغداد ، وقوة ما يلقاه استئناف مصر دورها فى السياسة العربية من ترحاب . وكانت هذه المشاعر مختفية عن عيون الغربيين وراء نورى السعيد وغيره من ممثلى العهود القديمة فى الوطن العربى . وحتى القلة من المراسلين الصحفيين الغربيين الذين تميزوا بالدقة وبعد النظر ، والذين عرفوا حقيقة ما كان يحدث فى الوطن العربى ،

---

(١) لا أدرى ما معنى الجميل فى هذا الصدد ، الا اذا كان الاستقلال نعمة ينعم بها المستعمر وكان جلاء قواته فضلا يمن به ، وكان تصحيح الاوضاع الجائرة صدقة واحسانا . – **المعرب** –

كانوا يجدون تحليلاتهم وتقديراتهم للمواقف تدفن فى مكاتب صحفهم أو تحور وتبدل بشىء من المكر والدهاء ، وكثيرا ما قيل لهم ، بأن عليهم أن يبدلوا مواقفهم اذا أرادوا البقاء فى مراكزهم .

وتأثر الوطن العربى فى الثامن عشر من ابريل عام ١٩٥٥ تأثيرا أصيلا وعميقا بافتتاح المؤتمر الافريقى–الآسيوى التاريخى فى باندونج ومضى جمال عبد الناصر الى المؤتمر على رأس وفد مصرى كبير . وقد استقبل فى الباكستان كزعيم عظيم ، ثم ما لبث أن استقبل استقبالا أكثر حرارة فى الهند . واجتمع فى بورما وفى صحبته البانديت نهرو بكل من أونو وشواين لاى . وعند ما عاد الى القاهرة ، كان قد أضحى شخصية كبرى من شخصيات الحياد فى الدنيا الافريقية – الاسيوية . وأخذت ثقة العرب بالزعيم عبد الناصر تزداد يوما بعد يوم ، ورآه العرب فى شهر يوليو يستقبل سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا فى القاهرة . ولكن الغرب لاحظ أيضا أن ديمترى شبيلوف المراسل الخاص لصحيفة برافدا السوفياتية كان حاضرا استقبال الزعيم الاندونيسى وهو مع كبار الضيوف على منصة الشرف .

صفقة الاسلحة التشيكية :

لم تخف اسرائيل رد فعلها عندما تم التوقيع على اتفاق الجلاء بين مصر وانكلترا فى عام ١٩٥٤ . وقال رئيس وزرائها ان هذا الاتفاق يعنى « التخلى عن اسرائيل لتواجه قدرها ومصيرها » وكان هذا الجانب من تفكير اسرائيل فى غاية الوضوح فلقد تعهدت بريطانيا ومعها فرنسا وأمريكا – بموجب البيان الثلاثى ، أن تكون ضامنة للوضع الراهن بين العرب واسرائيل ، كما أقرته اتفاقات الهدنة . وقد تقرر الآن أن تسحب القوات العسكرية الرئيسية الوحيدة التى تملكها احدى الدول الثلاث من الشرق الاوسط فى غضون عامين . يضاف الى هذا أن سحب القوات سيتم عن المنطقة التى تفصل ارض مصر ذاتها عن المشارف الغربية لاسرائيل فى صحراء سيناء . فماذا يفعل قادة اسرائيل ؟ وماذا يتحتم عليهم أن يتخذوا من قرارات أو يضعوا من بيانات بالاضافة الى لغة الاحتجاج العلنى ؟

ولم يتضح ارتكاس اسرائيل الفعلى لهذا الاتفاق الذى سيصبح سارى المفعول اعتبارا من عام ١٩٥٦ ، قبل انقضاء عدة أشهر على توقيعه فلقد وقعت عدة حوادث ، وكان بعضها ضخما كل الضخامة ، واحتل العناوين البارزة للصفحات الاولى من صحف العالم ، ولكن هذه الحوادث لم توح بالصورة الحقيقية . ولكن أهناك صورة حقيقية فعلا ؟ سنحاول فى فصل لاحق الرد على هذا السؤال أما فى الوقت الحاضر فانى أرى أن أكتفي بتدوين الحقائق كما هى .

كان موشى شاريت رئيسا لوزراء اسرائيل فى عام ١٩٥٤ وهو صهيونى حتما ولكنه يتميز بالواقعية بصورة عامة . وهو يؤمن أن على اسرائيل أن تتجنب الاستفزاز ، وأن تحاول ، بقدر ما تسمح لها أهدافها

تهدئة مخاوف العرب وتلطيف نقمتهم . وكان بن غوريون ، الداعية المشاكس لمدرسة الصهيونية العدوانية قد انسحب من الحكم فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٣ ، ومضى الى بيته فى احدى المستعمرات الواقعة فى مثلث النقب .

وكانت الحدود المصرية ـ الاسرائيلية قد عاشت فترة هدوء نسبى مدة من الزمن ، باستثناء بعض المشكلات التى كانت تنجم عن عبور اللاجئين الفلسطينيين من قطاع غزة الى أراضيهم الواقعة وراء الحدود . وقد ظل التوتر السياسى سائدا الحدود مدة طويلة ، ولكن بعض المراقبين الاسرائيليين، وهم من خارج نطاق حلقة بن غوريون، اعتقدوا ـ وكان ذلك فى مطلع عام ١٩٥٤ ـ ان الزعيم المصرى على الرغم من مشاعره العدائية لاسرائيل ، لا يريد الحرب ، وأن فى وسعهم أن يأملوا فى أن يكون أكثر الشخصيات العربية واقعية . وسرعان ما اتضح لهم أن مصر وبريطانيا باتا على وشك التوقيع على اتفاق الجلاء عن منطقة قناة السويس ، وأن التوقيع تم بالأحرف الأولى بالفعل فى نهاية يوليو ١٩٥٤ .

ووقع الآن حادثان ، يعتبران ثمرة من ثمار النزاع العربى الاسرائيلى . فلقد أعلنت القاهرة عن اكتشاف شبكة جاسوسية صهيونية كما وضعت الحكومة المصرية يدها على الباخرة الاسرائيلية « بات جاليم » التى كانت تحاول المرور عبر قناة السويس . وجاء اعلان القاهرة عن الحادث الاول ، يقول ان الجواسيس الاسرائيليين ، حاولوا .. ووضعوا الخطط لمحاولات جديدة لتخريب الابنية الامريكية والبريطانية فى مصر. (وثبتت المحاولات بعد اكتشاف فضيحة لافون المشهورة فى اسرائيل) ولكن وجهة النظر الغربية استبعدت صحة هذه المحاولات ، كما انها اعتبرت مصادرة مصر للباخرة الاسرائيلية ، مثلا آخر من أمثلة الحصار الذى يفرضه العرب على اسرائيل ، والذى لم يكن الغرب يستسيغه بصفة عامة .

ولكن بعد انقضاء ست سنوات ، أى فى عام ١٩٦٠ ، اتضحت ، للصحافة الغربية بعض الحقائق المتعلقة بحوادث عام ١٩٥٤ ، وصدرت هذه الحقائق عن اسرائيل نفسها . ففى الصراع السرى الذى قام بين كبار الاسرائيليين المسئولين حول مادعى « بقضية لافون » ، وهو الذى كان يتولى وزارة الدفاع فى عام ١٩٥٤ ، سمحت الرقابة الاسرائيلية الصحفية فى عام ١٩٦٠ ، للمراسلين الاجانب بمجرد الاشارة الى « كارثة تتعلق بتدابير الامن فى عام ١٩٥٤ » ثم الى « كارثتين أخريين تتعلقان بالامن أيضا » . ولكن تدابير الرقابة لم تحل دون تسرب بعض الحقائق الجوهرية . وكانت احدى هذه الحقائق القول بأن « كارثة الأمن » هذه لم تكن الافشل جماعة من الجواسيس الاسرائيليين فى اعداد المؤامرة الهادفة الى قيام عمليات تخريبية ضد المبانى الامريكية والبريطانية فى مصر والقاء تبعتها على المصريين ، وأدى الفشل الى اعتقال أفراد الجماعة .

ولست أشك فى أنه عندما تتوافر معلومات أخرى عن أحداث ذلك

العام أو تكشف بصورة رسمية ، أو قيام الدليل على صحتها ، فان الرأى العام الغربى سيعرف أيضا أن « قضية لافون » انطوت كذلك على قرار بايفاد الباخرة بات جاليم الى قناة السويس ، وهى الباخرة الاولى التى تملكها أسرائيل والتى كانت محاولتها أول ما جرى لعبور القناة منذ عام ١٩٤٩ . وكانت مصادرتها أمرا متوقعا كل التوقع .

وقد اكتفيت فى هذه المرحلة فى الكتاب بتدوين هذين الحادثين اللذين وقعا فى خريف عام ١٩٥٤ . لأرفقهما بالسؤال الواضح .. ترى ما الذى دفع باسرائيل الى اتخاذ مثل هذه القرارات ؟ وما الذى قصدته من هذه الحملة المتجددة ، المتزايدة لايذاء العلاقات بين مصر والدول الغربية ولم يكد يجف المداد الذى استخدم فى التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاق الجلاء ؟.

وبدأت حملة عبد الناصر على حلف بغداد فى يناير عام ١٩٥٥ . وسرعان ما الهبت الشرق الاوسط العربى بكامله . وفجأة ، خرج دافيد بن غوريون من عزلته فى السابع عشر من فبراير عام ١٩٥٥ ، وتسلم زمام وزارة الدفاع الاسرائيلية خلفا للافون . ولم يمض أحد عشر يوما على هذا التطور ، حتى كانت وحدات من الجيش النظامى الاسرائيلى تخترق حدود الهدنة فى قطاع غزة ، طبقا لخطة عسكرية منظمة استخدمت فيها الاسلحة الثقيلة ، وتهاجم القطاع ، فتقتل ثمانية وثلاثين من المصريين وتصيب بجراح واحدا وثلاثين آخرين . وكان هذا الهجوم أشد ما وقع منذ عام ١٩٤٩ على الحدود المصرية ـ الاسرائيلية . وبررت اسرائيل رسميا هجومها هذا بأنه عمل ثأرى لما وقع مؤخرا من غارات على اسرائيل من قطاع غزة . لكن هذه المبررات المزعومة ظلت مفتقرة الى تأييد تقارير الامم المتحدة ، وتقارير المخابرات الامريكية الموثوقة ، وتحليلات الصحافة الغربية التى يمكن الركون اليها ، وكلها أكدت عدم وقوع أية زيادة مهمة فى الغارات على اسرائيل (١) .

وتحولت بين عشية وضحاها ، خطوط الهدنة البعيدة نسبيا وسط رمال سيناء ، فى أعين أبناء الدلتا فى مصر ، الى أماكن تقع على الابواب الخلفية لبلادهم . وكانت غارة غزة هزة عنيفة على صعيد تاريخى ضخم وعكست اشارة عبد الناصر اليها التى اقتبستها فى مستهل هذا الفصل شعورا عربيا عاما ، طاغيا . وراح هو وزملاؤه يضاعفون من شدة البحث الذى كان قد انقضى عليه الآن عامان عن الاسلحة الحديثة . وكانوا منذ عام ١٩٥٣ . يسعون للحصول على مثل هذه الاسلحة من الدول الغربية . ولكن الغرب كان يقابل هذه الطلبات دائما بمطالب مقابلة ، وبتسويف ، ومساومة على أساس «هذا مقابل ذاك» للحصول على الاهداف السوقية

---

(١) تقارير لجنة الهدنة المشتركة التابعة للامم المتحدة ، وشهادات السفير الامريكى هنرى بايرود أمام الكونجرس فى يناير عام ١٩٥٧ ، وقرارات مجلس الشيوخ فى دورته الخامسة والثمانين .

ـ المؤلف ـ

كمنظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، والاعتذارات المبررة بأن التوازن فى التسلح بين العرب واسرائيل لا يسمح بتلبية مطالب المشتريات المصرية .

وعرض شواين لاى على عبد النـــاصر أثنـــاء المؤتمر الافريقى الاسيوى فى باندونج فى عام ١٩٥٥ أسلحة من الصين . ودارت فى شهر مايو محادثات تمهيدية مع الروس ، ولكن هذه المحادثات لم تؤد الى اتخاذ أيه قرارات . وراح عبد الناصر ينذر السـفير الامريكى فى يونيو ، بأنه اذا لم يبع الغرب الى مصر الأسلحة التى تحتاجها ، لتعـد جيشها اعدادا عصريا ، ولتضمن الطاقة الدفاعية الكافيـة لمجابهة اعتداءات اسرائيل ، فانها ستجد نفسها مضطرة الى اللجوء الى الكتلة السوفياتية للحصول على هذا السـلاح . وحصلت مصر فى صيف ذلك العام على اربعين دبابة من طراز « سنتوريون » من بريطانيا ، ولكنها شحنت الى مصر دون أن تكون معها طلقة واحدة من الذخيرة . وراحت بريطانيا تشحن أثر احتجاج مصر ، عشر قذائف لكل دبابة ، وهـــو عدد لا يكفى حتى لمجرد التجارب الاولية لاطلاق النار وتحديد الهدف .

وبينما كان البحث عن السلاح مستمرا على قدم وساق ، تقـــدم عبد الناصر باقتراحات محددة الى مراقبى الأمم المتحدة ، تهدف الى تخفيف حدة التوتر على خطوط الهدنة ، وقبـــل بعض الاقتراحات الأخرى التى قدمها رئيس هيئة الرقابة الدولية . ولكن اسرائيل رفضت هذه الاقتراحات كلها (١) وظلت حدة التوتر على الحدود فى التزايد والارتفاع باستمرار ووصل الغليـان فى مصر ولا سيما فى أوساط الجيش وبين اللاجئين فى قطاع غزة حدودا خطرة . واتخذ عبد الناصر قرارا خطيرا فى شهر أغسطس (آب) من العام نفسه لمواجهة هذه التحديات الاسرائيلية ، وليظهر لبن غوريون أن أرواح العـرب عنـده أثمن من أن يعرضهـا لخطر العـدوان الاسرائيلى ، وأمر بتشكيل وحدات شبه عسكرية من الفدائيين ينضم اليها أبناء اللاجئين من قطاع غزة ويدربون على جميع اعمال الفدائيين من تدمير وتخريب للدخول الى اسرائيل فى مجموعات صغيرة وليس ثمة شك فى أن هذا القرار كان له كل ما يبرره . ولكننى أرى فيه مفجرا سياسيا يعطى لاسرائيل ذريعـة دائمة للصراخ والعويل والشكوى الى العـالم (٢) وكان

---

(١) تقارير لجنة الهدنة المشتركة فى ١١ ابريل عام ١٩٥٥ .

(٢) لا أدرى تماما ما يقصده المؤلف من هـذا التناقض الغريب . فهو يحاول من ناحية ابراز صفة « الشرعية » فى تأليف فرق الفدائيين ولكنه من الناحية الاخرى يحمل ضمنا على تشكيلها واصفا اياه « بالمفجر السياسى » الذى يبرر لاسرائيل اعمالها الثأرية . ويبـدو ان المؤلف قد نسى أن اسرائيل كانت دائمـا هى المعتـديه ودون أى مبررات ، وأن الامم المتحدة ، وفى طليعتها دول الغرب كانت تقف مكتوفة الايدى أمام عدوانها وانه ثبت ان الوسيلة الوحيدة لمواجهة عدوانهـــا هى اللجوء الى القوة لمقابلة القوة . **— المعرب —**

الفدائيون بالطبع يقومون ببث الفزع والرعب داخل اسرائيل كما كانت الغزوات الاسرائيلية العسكرية والدموية تبث الرعب عند اللاجئين العرب الذين تهاجمهم وليس ثمـة من شك فى أن الاعمـال الثأرية التى حاول الاسرائيليون تبرير عدوانهم بهـا ، والتى انطلت تبريراتها على الغرب ، كانت قد بدأت قبـــل سـنوات طويله من تأليف وحدات الفـــدائيين . واختارت مدفعية اسرائيل يوم السوق الاسبوعية فى غزة الذى تحتشد فيه المدينة بالوافدين اليها ، لتقذف المدينة بقذائفها فى الاول من سبتمبر مؤدية الى قتل أربعين من المدنيين .

وأعلن عبد الناصر فى السـابع من سبتمبر عام ١٩٥٥ عن وجود اتفاق سرى بين فرنسا واسرائيل ، لتزويد هــذه بالاسلحة ، وأكد أن الشحنات الفرنسية الاخـيرة الى اسرائيل تضمنت مائة دبابة فرنسيـة وعددا من مقاتلات « الميستير » الفرنسية النفـــاثة السريعة . وحاولت اسرائيل على الفور أن تنفى هذه الانباء ، كما وصفها الفرنسيون الرسميون بأنها « مجرد خيال » .

وقامت قوات اسرائيل فى الواحد والعشرين من سبتمبر بغزو منطقة العوجة واحتلالها ، وهى منطقة مثلثة الشكل نص اتفاق هدنة عام ١٩٤٩ على بقائها مجردة من السلاح . ولهذه المنطقة أهمية خاصة اذ تمر بهـا جميع الطرق المفتاحية الرئيسية المؤدية الى قلب شبه جزيرة سيناء وادعت اسرائيل لنفسها الحق فى السيادة على هذه المنطقة متحدية بذلك اتفاق الهدنة وقرارات مجلس الامن التى نصـــت على ابقاء المنطقة خارج نطاق السـيطرة لاى من الفـريقين ، ورفضـــت ــ أى اسرائيـــل ــ الاذعان لكافة الطلبات التى وجهتها اليها الامم المتحدة لسحب قواتها منها . ولقد أفادت اسرائيل من هــذه المنطقــة ذات الاهميـة السـوقية الـكبيرة التى ظلت تحتلها تحت سمع الامم المتحدة وبصرها ، عندما شرعت بعد نحو من عام وخمســة أسابيع فى هجومهـــا على سيناء عبر الطرق الرئيسيـة الممتدة فيها .

وراح عبد النـاصر يعلن فى السـابع والعشرين من سبتمبر اعلانه المثير بأن مصر بعد أن فشلت فى الحصـــول على السـلاح من الغرب ، ونظرا لمواجهتها خطر التسلح السرى الذى تقوم به اسرائيل ، عقدت صفقة لشراء الاســلحة من تشيكوسلوفاكيا مقـــابل تزويدها بالقطن والارز المصريين .

وذكر عبد النـاصر فى الثـالث من أكتوبر أن المخـابرات المصرية تمكنت من الوصول الى وثائق للمخابرات البريطانية والفرنسية تحسر النقاب عن كميات الاسلحة التى زودت فرنسا بهــا اسرائيل ، وتعلن التقديرات البريطانية للموقف والمتلخصة فى أن مصر لا تنشد الحرب، وأن نيات اسرائيل غامضة كل الغموض . واعترف الناطق البريطانى الرسمى بهدوء بصحة هذه الوثائق (١) ولكن العالم لم يلق بالا لهذا الاعتراف .

---

(١) صحيفة التايمز عدد ٦ أكتوبر عام ١٩٥٥ .

وعادت قصة طائرات « الميستير » النفاثة الفرنسية الى الظهور من جديد فى السابع من أكتوبر ، عندما ذكر المحرر العسـكرى لصحيفة «التايمز» اللندنية أن اسرائيل قد تقدمت بطلبات فعلا الى فرنسا للحصول على هذه الطائرات • ونقل هانسـون بلدوين الى صحيفته « النيويورك تايمز » فى الجـانب الآخر من الأطلسى ، نفس الانبـاء المتعلقة بهذه الطلبات . ولكن اسرائيل وفرنسا واصلتا النفى والانكار .

وعاد بن غوريون فى الثانى من نوفمبر الى رياسة الوزارة بعد أن ظل يشغل وزارة الدفاع طيلة تلك الاشـهر الحرجة من عام ١٩٥٥ • وراح يعلن فى الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) ، فى نفس ذلك اليوم أنه على استعداد للتفاوض من أجل الصلح مع أى زعيم عربى فورا • ولكنه فى تلك الليلة نفسها ، أمر قواته النظامية ، بعد أن اعتقل مراقبى الهدنة الموجودين فى المنطقة بمهاجمة الوحدات المصرية المرابطة وراء الحدود عند الصبحة فى غارة أخرى من الغارات العنيفة التى ألفها •

ونشرت مجلة « لايف » الامريكية فى السابع من نوفمبر من نفس العام حديثا أجراه مراسلها مع الرئيس عبد الناصر ، فى موضوع صفقة الاسلحة التشيكية • وقد ذكر الرئيس المصرى فى هذه المقابلة ان هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو أنه لن يستخدم هـذه الاسلحة فى شن الحرب وأضاف أن مصر قد وقعت هذا الاتفاق مع تشيكوسلوفاكيا وهى لا تفكر فى قوة اسرائيل كما هى الآن بل بقوتها بعد أن تصل اليها الاسلحة التى حددتها الصفقات السرية التى عقدتها مع فرنسا • وهكذا نرى عبد الناصر يعود من جديد الى تأكيد هذه الصفقة السرية ، ولكن العالم ، وقد أثارته صفقة الاسـلحة التى عقـدتها مصر مع تشـيكوسلوفاكيا ، لم يأبه بهـذا التحذير الجديد الذى وجهه الرئيس جمال عبدالناصر ، واكتفت التعليقات الغربية التى صدرت آنذاك بوصف أقواله على أنها مجرد «اختلاق» .

ولكن الرئيس عبدالناصر لم يكن يختلق أبدا ، فقد سلم الى مراسل « لايف » (Life) قائمة بهذه الاسلحة الفرنسية التى ستتسـلم الى اسرائيل أو التى كانت فى طريق التسليم • انها تضم ٧٠ طائرة نفاثة من طراز ميستير ومائة دبابة ، ومائة مدفع ثقيل من عيار (١٥٥) مليمترا ، ومائة وخمسين مدفعا مضادا للدبابات من عيار (٧٥) مليمترا ومن الطراز السريع الحركة •

هل كانت كل هذه الارقام مجرد اختلاقات ؟ وهل فرض عرفان مصر بوجود صفقة سرية للاسلحة بين فرنسا واسرائيل ، عليها عقد صفقتهـا مع تشيكوسلوفاكيا أو أن الامر هو العكس تماما ؟ هذه أسئلة ظلت تراود مخيلة الكثيرين ، ولكن عندما أصبح أمر الاسلحة الفرنسية فى حمـلة سيناء فى أواخر عام ١٩٥٦ معروفا ، وتولى بعض المراقبين الموثوق بهم فحص تفاصيلها تبين أن هذه التفاصيل تتفق تمام الاتفاق ، فى أرقامها وفى أنواعها ، وأشكالها مع التفاصيل التى قدمها عبد الناصر الى مراسل « لايف » فى عام ١٩٥٥ •

الالتزامات بين مصر والكتلة السوفياتية :

ليس ثمة من ريب فى أن صفقه الاسلحة التشيكيـة ، كانت نصرا دعائيا ضخما للاتحاد السوفياتى • ولم تتمكن الدول الغربية من الحيلولة دون تحقيقه • وكان السؤال المباشرالذى مثل أمام الخواطر فور عقـد الصفقة هو ••• ترى ما الذى ترمز اليه هذه الصفقة بالنسبة الى ميـول عبد الناصر السياسية ؟ فهل تعنى هذه الصفقة التزاما يضع مصر تحت رحمة الضغط السوفياتى عند ما يطيب لموسكو أن تبتز من مصر بعض التساهلات والامتيازات ؟ واذا كانت تعتبر نصرا دعائيـا لدولة شيوعية كانت قد شرعت فى « تشغيل » جهاز ارسال قوى للبث باللغة العربيـة فما الذى تستطيع الدول الغربية أن تفعله لمواجهة هذه الحملة الدعائية السوفياتية الواضحة والجديدة ؟ وما هو الخط الذى سلكه عبـد الناصر فى الحديث عن هذه الصفقة الى مواطنيه العرب ؟ •

وقبعت وراء هذه الاسـئلة القوية التى خلقتها صفقة الاسلحة التشيكية ، قضـايا وأسئلة أخرى أكثر اتساعا تتصل بالتزامات مصر الاخرى تجاه الكتلة السوفياتية وميولها نحوها فى شئون التجارة والعون الاقتصادى • وكانت هذه الالتزامات والميول قد بدأت تماما على النحو الذى كان متوقعا منذ حدث التبدل التاريخى فى موقف مصر كلهـا بعد ثورة عام ١٩٥٢ • فلقد ظل القطن أكثر من مائة عام ، عصب الاقتصاد المصرى ودعامته ، يؤثر عليه بما يطرأ على أسعاره فى الاسواق العالمية من تقلبات الارتفاع والهبوط • وعندما جاء العهد الجديد ، قرر أن يوسع دائرة التصـدير وينوعها بحيث تعمـل على ازالة هـذا الخطر المصلت على اقتصاد البلاد كسيف ديموكليس ، من جراء تقلبات الأسعار ، ولكن تنفيذ هذه الخطوة يتطلب بعض الوقت ، الذى يجب أن تعنى فيه حكومة العهد الجديد ببيع انتاج القطن • وعنـدما حل عام ١٩٥٤ ، هبطت مشتريات بريطانيا من القطن المصرى هبوطا حادا • وغمر فائض المحصول الامريكى الاسـواق الغربية كلها • ويرجع بعض السبب فى المشكلة الى انعدام الثقة فى الخارج فى أسـعار القطن المصرى ، نتيجة فضيحة التلاعب بتثبيت أسعار القطن التى وقعت فى عام ١٩٥١ ، أى قبل الثورة • أما السـبب الاكبر والرئيسى فيها ، فهو أن الغرب بات عاجزا عن شراء ما يكفى من صـادر مصر الوحيد اذ ان القطن كان يؤلف فى تلك السـنوات ثمانين فى المائة من مجموع صادرات البلاد ، وأصبح لزاما على مصر ، أن تبحث عن أسـواق أخرى لتصريف قطنها • ومن هنا كانت البداية ، بداية المقايضـة بالقطن للحصـول على سلع الكتلة السوفياتية وبينها الاسلحة التشيكية طبعا •

ونجم قبول مصر للعون الاقتصادى من دول الكتلة السوفياتية عن دوافع مختلفة أخرى • وليس ثمة من ريب فى أن أية حكومة افريقيةـ آسيوية محايدة ، تواجه أكثر الاحتمالات الاقتصادية الناشئة عن وجود شعب لديها يعانى من عض الجوع ونفاد الصبر ، شمولا ، تنظر الى العون الاقتصادى الخارجى نظـرة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى تحفـز الكونجرس الامريكى على الاقتراع لرصد المخصصات لهذا العون • فلقـد كان الحياديون الافرو ـ آسيويون من طراز عبد الناصر ونهرو ، يعرفون

تمام المعرفة أن معركة مكافحة الشيوعية - هى - فى قرى بلادهم نفسها
لا فى قاعات الامم المتحدة ، أو غرف التخطيط فى واشنطن وموسكو التى
تغمرها الخرائط أو على حدود الحرب الباردة بين السوفيات والغرب .
وتتطلب المعركة فى هذه القرى سرعة التنفيذ والبت فى الامور كاقامة
السدود وبناء المصانع وشق الطرق وتشييد المستشفيات . وكان
عبد الناصر يؤثرأن يحصل على العون فى حملته هذه من الغرب. وقد أوضح
هذا الايثار ايضاحا مطلقا المرة تلو المرة جهارا وبالوسائل الدبلوماسية .
وأعتقد أن نفس هذا الميل يصدق بالنسبة الى الهند أيضا .

ولكن كان هناك عامل آخر ، يزاحم باستمرار هذا الميل الغريزى
الى نشدان العون من الغرب ، هو الميل الفطرى عند المحايدين
الآفرو - آسيويين الى عدم المغامرة بوضع كل ما للعون الخارجى الذى
ينشدونه من « بيض » فى سلة واحدة مخافة كسرها دفعة واحدة .
فهناك قانون طبيعى فى هذا الموضوع يتحكم فيه تحكما كاملا ، يقضى بأن
ينمو هذا الحافز على أساس التناسب الطردى مع احساس هؤلاء
المحايدين بما يتعرضون له من ضغط سياسى من هذا الجانب أو ذاك
من المجموعتين الدوليتين الكبيرتين .

وقد وقع عبد الناصر فى نوفمبر عام ١٩٥٤ ، اتفاقا ضخما للعون
الاقتصادى مع الولايات المتحدة الامريكية بقيمة أربعين مليونا من الدولارات
ولم تكن واشنطن فى ذلك الوقت ، أى قبل ظهور حلف بغداد أو وقوع
غارة غزة تضغط على مصر ضغطا فعالا لحملها على الانضمام الى شبكة المستر
دالاس من أحلاف الحرب الباردة . فلقد كان دالاس يعمل على خلق
« حزامه الشمالى » خارج نطاق الوطن العربى ، وكان نورى السعيد قد
أكد لعبد الناصر وغيره من القادة العرب أنه لن يلزم العراق بأى شىء
خارج نطاق الوطن العربى ولكن عند ما حلت نهاية عام ١٩٥٥ كان
الوضع قد تبدل تبدلا جذريا من وجهة نظر القاهرة . فلقد انتهى ما دعاه
عبد الناصر « بشهر العسل القصير » فى العلاقات المصرية - البريطانية
بعد اتفاق الجلاء ، نهاية مفاجئة بظهور حلف بغداد . وأخذ عبد الناصر
وغيره من القوميين العرب ، يرون منذ ذلك التاريخ حملة مستمرة ،
متزايدة من الضغط تقوم بها الدول الغربية على الوطن العربى لالزامه
بعقد معاهدات مع الغرب ، وبرز من جراء هذه الظروف وما رافقها من
الناحية الاخرى من عروض سوفياتية قائمة لتقديم العون الاقتصادى غير
المشروط ، حافز لتوسيع التزامات مصر فى موضوع المساعدات الاقتصادية
ووسعت حكومة البانديت نهرو فى الهند أيضا هذه الالتزامات ورحبت بما
قدمته اليها الكتلة السوفياتية من عروض المساعدات غير المشروطة حال
تقديمها . وكانت الهند قد أحست أيضا بشىء من الضغط الغربى فى
الحرب الباردة فى عام ١٩٥٤ ، نتيجة برنامج العون العسكرى بين
الباكستان والولايات المتحدة ، وما تبعه من اقامة شبكة للمعاهدات فى
جنوب شرقى آسيا ، تخطت الهند كل التخطى ، لكن الاحساس بالضغط
كان أقوى فى مصر والشرق الأوسط منه فى الهند ، فلم يكن ثمة هندى
واحد يخشى عودة السيطرة البريطانية الى شبه القارة الهندية ومن سوء

الحظ ، أن مثل هذا الاحساس لم يكن قائما بالنسبة الى المخاوف العربية .
فالفرق فى قضايا العون الاقتصادية كما فى غيرها من القضايا ، بين المعاملة
التى تتبناها بريطانيا مع بلد كان مستعمرا لها ذات يوم ، ثم منحته
استقلاله وسيادته الكاملين ، المحترمين ، وبين تلك التى توجهها الى
محمياتها وانتداباتها السابقة فى الشرق الاوسط العربى ، كان واضحا
كل الوضوح وحاسما كل الحسم .

أما وقد ظهر هذا الاتجاه الى حيز الوجود ، فماذا كان من واجب
الغرب أن يفعل لمواجهته ؟ كان عليه أن يحافظ على ما للغرب من نصيب فى
عون مصر الاقتصادى وتجارتها ، وأن يزيد من هذا النصيب أيضا ،
ان لم يكن فى القطن والخزف المصريين ، ففى سلع أخرى محتملة ، أما
وقد وضحت هذه الحقيقة أمام أعيننا ، فان من الواجب علينا أن
نذكرها دائما عندما ندرس السياسة التى اتبعها الغرب فعلا مع مصر
بعد عام ١٩٥٥ .

وكان على السلطات الغربية أيضا أن تدرس بامعان الالتزامات التى
كانت مصر تعقدها مع الكتلة السوفياتية وأن ترى دروب الضغط السياسى
التى فتحتها هذه الالتزامات أمام موسكو لتلج منها ، ولا ريب أن دراسة
صفقة الاسلحه التشيكية كانت فى مقدمه هذه الدراسات التى توجب على
الغرب القيام بها ، وقد تجاهل الغرب فى هذه الموجة العارمه من الغضب
والفزع التى أثارتها الصفقة فى نفوس رجالاته ، الاشتراطات الحذرة
والمدروسة التى ضمنها عبد الناصر صفقته هذه ، فقد اشترط أن يسلم
التشيكيون مع كل طائرة ودبابة ومدفع فورا ، ماتحتاج اليه هذه الأسلحة
من قطع غيار وذخيرة تكفيها لمدة خمس سنوات ، واشترط أيضا أن تسلم
هذه الاسلحة فى شحنات ضخمة لا « مقننة فى دفعات » على النحو الذى
سار عليه الغرب معه ، واشترط كذلك أن تباع لمصر مصانع كاملة لانتاج
الذخائر الثقيلة ، وليس ثمة ماهو أوضح من الاهداف «المتبصرة» والحكيمة
القائمة وراء هذه الاشتراطات ، واتخذ عبد الناصر أيضا من الاجراءات
مايضمن تدريب المصريين على هذه الاسلحة الحديثة فى أوربا الشرقية
حرصا منه على تفادى زيادة الخبراء الموجودين فى مصر من أبناء الكتلة
الشرقية ، ولعل من المفارقات العجيبة أن عبد الناصر اعترف لخلصائه ابان
العدوان الثلاثى على مصر ، بأن هذا الاسلوب الذى اتبعه فى التدريب ،
قد أدى الى ابطائه مما أثر كثيرا على الوضع أيام حرب سيناء (١) .
ولا يمكن لمثل هذه الاشتراطات المتناهية فى الحكمة والتعقل أن
تصدر عن انسان متهور لايعرف المسئولية أو عن «شيوعى مقنع» أو غير
ذلك من الاوصاف التى كان يلصقها المسئولون الغربيون بالرئيس عبد
الناصر ، وظل الرئيس عبد الناصر ، كما ظل رفاقه وأعوانه يعلنون للعرب

(١) لاشك فى ان هذه الاشارة التى أوردها المؤلف على لسان سيادة
الرئيس عبد الناصر توضح بجلاء ما تميز به سيادته من صدق واخلاص
فى سياسته الحيادية ، وما تميز به الغرب من خداع ومكر ، فى علاقاته
الطويلة مع هذا القائد الصادق الصريح .

المعرب

فى كل مكان ، خطابا بعد خطاب ، واذاعة اثر اذاعة ، ان عون الكتلة السوفياتية لايعنى الشيوعية مطلقا ، وان طريق القومية العربية يختلف تماما عن طريق الشيوعية ، وظل الحزب الشيوعى المصرى من الناحية الداخلية خاضعا لعين الرقابة الساهرة الشديدة ، وكثيرا ماأودع المهيجون من قادته السجون والمعتقلات ، ولم يكن عبد الناصر يختلف فى قوله لمبعوثى الغرب وممثلى صحافته عن حقيقة اتجاهه هذا ، فلقد أفضى لمندوب الاوبزرفر فى مارس عام ١٩٥٦ وكان غليان الغرب يزداد حدة بما نصه :

«سيختلف شكل الحرب منذ اليوم كل الاختلاف ، فستدور معاركها على الجبهة الداخلية ، وسنلجأ فى هذه المنطقة الى استخدام القومية سلاحا قويا لها . وليس ثمة من خطر فى الشيوعية الا عندما تستطيع استغلال مشاعر الجماهير الوطنية . ولكننا تمكنا من انتزاع الدور القيادى منها فى هذا الميدان .

« أما اذا انهارت الجبهة الداخلية ، فلن يكون « للحزام الشمالى » أية قيمة .. وليس ثمة من ريب فى أن هذه الجبهة الداخلية هى التى تتولى وحدها حماية المصالح الأصيلة المشروعة لا للعرب وحدهم بل لبريطانيا أيضا ، وهذا هو السبب الذى يحتم أن تكون للعرب ، منظمتهم الاقليمية الخاصة بهم ، وأن تتركز سياستهم على تقوية ميثاق الضمان الجماعى العربى » (١) .

ووصلت الامور بعد نحو من ثمانية أشهر الى عقدة ، حاولت الحكومة البريطانية أن تحلها عن طريق اقناع برلمانها وشعبها بأن الرئيس عبد الناصر قد عقد اتفاقا سريا مع السوفيات يسمح لهم بموجبه أن يجعلوا من شبه جزيرة سيناء ترسانة ضخمة لاسلحتهم وقاعدة لعدوانهم .

ولم تكن القضية اجبار الدول الغربية على تقبل تحليل عبد الناصر لحقيقة الخطر الشيوعى ، على النحو الذى واصل عرضه باستمرار طيلة أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، ولكن القضية كانت فى الموقف الذى كان يتحتم على الغرب أن يتخذه وفى السياسة التى كان من الواجب عليه أن يسير فيها للحفاظ على مصالحه فى المنطقة ، اذا صح أن عبد الناصر يحمل هذه الآراء التى يدافع عنها والتى يؤيدها غيره من قادة العرب فى حالة تمكن الاتحاد السوفياتى من فتح منفذ له الى الوطن العربى عن طريق الاتجار وحملات العون الاقتصادى ، فكيف يمكن لمثل هذا الهدف الغربى أن يتحقق أو يجد عونا له ، اذا كان الغرب يصر على وصف عبد الناصر والحركة التى يمثلها ويقودها « بالتشيع للشيوعية » أو بالتبعية لها ؟

---

(١) مجلة الاوبزرفر عدد ٢٤ مارس ١٩٥٦ ، راجع أيضا المقابلة الصحفية للرئيس عبد الناصر مع مراسل «النيويورك تايمز» بتاريخ الثانى من ابريل عام ١٩٥٦ حيث قال : «لم يعد الشيوعيون المصريون يؤلفون خطرا علينا ، فالخطر الشيوعى الداخلى أقوى فى بعض البلاد العربية وفى طليعتها العراق التى عقدتم معها ميثاقا دفاعيا ضد الشيوعية» .

وهل كان من الحكمة فى شىء أن نواجه تأييد السوفيات لسياسة الحياد العربية ، وعروض السوفيات اللامشروطة للعون الاقتصادى ، بالتهجمات الغربية على الحياد العربى وبالمحاولات الغربية لتحطيم هذا الحياد عن طريق المواثيق الجديدة وتقديم العون الغربى المصحوب بالشروط القاسية ؟ .

وكان ثمة أخيرا عامل آخر حيوى وهام للغاية ، فى حاجة الى أن نزنه على ضوء ردود العمل الخطيرة التى صدرت عن الغرب لصفقة الاسلحة التشيكية ولغيرها من الالتزامات بين مصر والكتلة السوفياتية ، ويتلخص هذا العامل فى التساؤل عما اذا كان فى مكنة حكومات كحكومة عبد الناصر ، أن تصمد لأية مطالب سوفياتية مباغتة سعيا وراء الحصول على تساهلات أو امتيازات ، اذا دعمت هذه المطالب بالتهديد بوقف فيض العون الاقتصادى اليها ؟ لقد كان الهدف السوفياتى من فتح هذه الجبهة الجديدة فى الحرب الباردة كسب الاصدقاء والتأثير على الناس ، ولا سيما اذا كانوا من أهل المنطقة غير الملتزمة فى افريقية وآسيا ويجعل هذا الهدف السوفياتى من الحكومات الوطنية المحايدة ، أقل أهمية ، وبالتالى أقل تعرضا لمثل هذا الضغط ، اذ أنها كأهداف فردية أقل شأنا من أن تعرض السياسة السوفياتية صداقتها لجماهير الشعوب والفئات المثقفة فى هذه البلاد نفسها الى الضياع من جراء هذا الضغط ، فالاتحاد السوفياتى يعرف أن هذه المعركة تنطوى على شىء من التقليد والمحاكاة . فاذا قبلت الهند العون السوفياتى مثلا ، فان أى نظام حاكم فى بورما ، يكون أكثر استعدادا وثقة بنفسه عندما يقبل مثل هذا العون ، واذا قبلت مصر عون السوفيات فان سورية الشديدة الحساسية ستصبح حتما مهتمة بمثل هذا العون ، وهكذا دواليك .

وكان التسلل المتماثل واضحا كل الوضوح ، وقد وجد منذ اللحظة الاولى التى عقد فيها الاتحاد السوفياتى أول اتفاق للعون الاقتصادى مع أول دولة افريقية – آسيوية . ولو حاولت موسكو أن تفرض ضغطا سياسيا على أية حكومة وطنية لاشيوعية ، فانها بعملها هذا تهوى بكل حملتها الى الكارثة ، ولو واجه أى زعيم كعبد الناصر أى طلب ينطوى على الضغط ، كالاصرار على اطلاق سراح الشيوعيين المحليين أو منح القواعد للاتحاد السوفياتى مثلا فان فى وسع هذا الزعيم أن يستدير الى السفير السوفياتى الذى وجه اليه مثل هذا الطلب ، وأن ينذره بأنه سيعلن على العالم أن الاتحاد السوفياتى يفرض اشتراطات معينة لمعونته ، وأنه يريد أن يجعل من هذه المعونة حصان طروادة ، الذى يتسلل عن طريقه الى أهداف أخرى . وقد تنشب معركة كلامية ومشادة بعد هذا الموقف ، وليس ثمة من شك فى الجانب الذى سيصدقه العرب وبالتالى بقية الافريقيين الآسيويين فى هذه المشادة العنيفة .

وكان عبد الناصر يعرف بأن هذا السلاح المضاد ، متوافر له ، ولا ريب فى أن نهرو لم يكن يقل عنه ادراكا لهذه الحقيقة . وقد اتكل عبد الناصر على هذا السلاح فى مستهل عام ١٩٥٩ ، عندما برز الهجوم

الشيوعى من الداخل فلم يتوان عن مهاجمة الشيوعية الدولية ، ومهاجمة المستر خروشوف بالذات . وعندما اتخذ عبد الناصر هذا الموقف ، لم يكن المداد قد جف بعد على توقيع اتفاق ضخم ، يمنح قرضا سوفياتيا كبيرا لمشروع السد العالى . وعندما كنت أضع كتابى هذا ، لم يكن المستر خروشوف قد أوقف هذا القرض أو أى اتفاق آخر يتعلق بمعونة الاتحاد السوفياتى الى الجمهورية العربية المتحدة .

ولم يكن فى الامكان ، فى خضم هذا الغليان الذى أثارته صفقة الاسلحة التشيكية فى أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٥٥ ، أن تبرز مثل هذه الاعتبارات الحكيمة الحذرة ، فى كتابات واضعى الفتاوى الضخمة أو محررى صحف الغرب ذات الانتشار الواسع . والسؤال الذى يبرز الآن هو لم تقاعس هؤلاء عن «توعية» وجهات نظر الغرب الرسمية وما لحق بها من سياسات بهذه الحقائق ؟ . ولعل الحقيقة الواقعة وهى أن هذه الاعتبارات والحسابات التى لم تخطر فى بال ايدن ودالاس ومستشاريهما راجعة الى حد ما الى ما لحق بكرتنا الثلجية المجازية التى أطلقناها ، من تبدد وتفتت قبل وصولها الى هدفها . وقد قدر للدليل الصحيح أن يبرز فورا فى نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٥٥ فى صورة سلسلة من الاعمال التى لم يقدر لها أن تكون موضع الدرس والتسجيل الا لماما . ولا ريب فى أن انشاء حلف بغداد ، والغارة الاسرائيلية على غزة ، وصفقة الاسلحة التشيكية ، تؤلف أحداثا هامة فى التواريخ الصحيحة للشرق الاوسط فى عام ١٩٥٥ ، وأضواء انذارية حمراء ، لفتت أنظار الرئيس عبد الناصر ورفاقه من ناحية ، وأنظار الغرب من الناحية الاخرى . وأرى لزاما على أن أنتقل الآن ، الى حادث هام آخر ، أو الى ضوء أحمر ثان ظل خفيا عن العيان مدة طويلة ، وان كان قد وقع فى عام ١٩٥٥ ، وقدر له أن يترك آثارا عميقة كل العمق .

جيلدهول وهزيمة تمبلر :

توافرت الأدلة فى الأسابيع التى تلت الثورة التى أحدثتها صفقة الاسلحة التشيكية فى كل من واشنطن ولندن ، على أن أيا من الحكومتين لم تكن تفكر بأن عبد الناصر قد قرر محاربة اسرائيل ، وأن كلا من الحكومتين ، قد انتابهما القلق فعلا من أن اسرائيل تعد عدتها سائرة نحو الحرب . (١) وفرض النصر المعنوى الجديد الذى حققته روسيا على كل من الدولتين الغربيتين أن تقوما بمحاولة أخرى للرد عليه وتخفيف حدة أثره . وراح السير أنطونى ايدن ، نتيجة هذا الشعور يبذل محاولة ضخمة أخرى للتقرب الى الرئيس عبد الناصر .

وقد اتضح جانب من هذه المبادرة الجديدة عندما وصل وزير مالية مصر الى لندن فى شهر نوفمبر سعيا وراء الحصول على عون مالى

---

(١) عدد النيويورك تايمز فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٥ ، الذى نقل أن السفير الامريكى فى القاهرة أبلغ حكومته بعدم وجود أية نيات حربية عند مصر . — المؤلف —

لتنفيذ مشروع السد العالى فى أسوان . وكان من المعروف أن سفير روسيا فى القاهرة قد عرض على مصر ، تزويدها بالمعدات اللازمة لبناء السد . وسارت محادثات الدكتور القيسونى فى كل من لندن وواشنطن سيرا هينا ، مما أدى الى بدء المفاوضات الرسمية مع البنك الدولى لتمويل المشروع ، بعد أن تلقت ادارة البنك اشارة الرضى من دالاس وايدن .

واتضح الجانب الآخر فى مطلع شهر نوفمبر من مبادرة ايدن . فقد شرع السفير البريطانى فى القاهرة فى زيارة الرئيس عبد الناصر زيارات طويلة ، وقد تمكن من مقابلة الرئيس المصرى فى السابع والثامن من نوفمبر أربع مرات فى مناسبات مختلفة .

وأعلن ايدن فى التاسع من نوفمبر فى الخطاب التقليدى الذى يلقيه رئيس الوزراء عادة فى جيلد هول ، بيانا سياسيا هاما عن الصراع العربى — الاسرائيلى . وكانت زبدة الخطاب أن على الجانبين أن يشرعا فى مفاوضات جدية للوصول الى تفاهم حول المطالب الاقليمية لكل منهما ، اذ أن العرب يقيمون مطالبهم على أساس مشروع تقسيم عام ١٩٤٧ للأمم المتحدة بينما تطالب أسرائيل أن تكون خطوط الهدنة « الواقعية » لعام ١٩٤٩ هى أساس المفاوضات . وراح ايدن يوضح على الفور ثمار أية محادثات تمهيدية بين مصر وبريطانيا حول هذا الموضوع .

وأعلن عبد الناصر ، أن خطاب ايدن يعرض « أساسا صالحا » للمفاوضات واتخذت صحافة القاهرة نفس هذا الخط فى تعليقاتها . وسارت التعليقات الرسمية فى العواصم العربية الاخرى فى نفس الاتجاه ، فلقد تشاور معها عبد الناصر مقدما . ووجد الأمين العام للجامعة العربية فى نفسه الجرأة ، وهو فى أمريكا لكى يقترح مبادرة لجنة التوفيق الدولية الى العمل فورا ، بعد أن طال سباتها . وأعلن عبد الناصر فى بيان آخر ، أن على الامم المتحدة أن تقوم بدور الوسيط فورا . وراح يذكر لمندوب الأوبزرفر فى مقابلة صحفية ، أن للعرب مطلبا أساسيا ، وهو استعادة الاتصال البرى بين مصر والمشرق العربى ، أى استعادة منطقة النقب التى تستولى عليها اسرائيل .

وكانت فترة من أهم الفترات وأبرزها ، ولم يقلل من أهميتها مبادرة اسرائيل الفوريه ، والضجة العالمية التى أحدثتها ، ضد اقتراحات ايدن . وقد نجمت الاهمية عن الحقيقة الواقعة وهى أن نوفمبر عام ١٩٥٥ لم يكن بأى حال من الاحوال لحظة مواتية للترحيب باقتراح يقدمه رئيس وزراء بريطانى بأن يلتقى العرب مع اسرائيل فى نصف الطريق بصدد الأوضاع الاقليمية .. ولم يكن من المأمون منذ عام ١٩٤٩ ، لأى زعيم عربى ، بأن يشرع فى محادثات للصلح مع اسرائيل ، لا سيما اذا جاءت المبادرة من احدى الدول الكبرى الموصومة أمام العرب بأنها هى التى عملت على خلق اسرائيل . يضاف الى هذا أن التوتر بين العرب واسرائيل كان قد استمر فى التزايد منذ وقوع الغارة على غزة .

وكان العرب قد هللوا لصفقة الاسلحة التشيكية ، يحدوهم الأمل

القوى بدنو يوم الحساب النهائى مع الصهيونية . وكان جل ما فى استطاعة العرب أن يقولوه فى تلك اللحظة حتى ولو كانوا فى أحسن حالاتهم وأمزجتهم ، بأنه اذا كان ولا بد من المفاوضات ، فان هذه المفاوضات يجب أن تجرى فى الوقت الذى يختارونه هم وطبقا للشروط التى يضعونها .

وقد اتخذ الرئيس عبد الناصر هذا الموقف على ضوء اعتبارين : أولهما انه لا يريد الحرب بعد مع اسرائيل ، اذ أنه لم يكن قد استكمل استعداداته لها ، وكان يأمل فى أن يؤدى الضغط البريطانى الى وقف اسرائيل عن التفكير فى أى عدوان جديد . وثانيهما انه تلقى تأكيدات ايجابية قاطعة من السفير البريطانى ابان محادثاتهما قبيل خطاب ايدن فى جيلد هول بأن بريطانيا ستعمل على « تجميد » حلف بغداد فى المكان الذى يقف فيه ، وكان هــذا أمرا هاما لمصر اذ أن سياسة بريطانيا السوقية (الاستراتيجية) كانت متصلة ، فى رأى العرب ، أوثق الاتصال بتاريخ القضية الفلسطينية .

وكانت الشكوك تغمر الشرق الاوسط طيلة عام ١٩٥٥ ، بأن حلف بغداد ليس الا أداة جديدة من أدوات الضغط الغربى على العرب لارغامهم على عقد الصلح مع اسرائيل . يضاف الى هذا أن الشكوك كانت قائمة فى أن « جلوب الاردن » قد ينضم الى الحلف ، وأن الاردن نفسه كان يؤلف فى عقل العربى قبل كل شىء حلقة اتصال بين الخطط السوقية البريطانية وبين فلسطين . وكان الافتراض الاساسى أن بريطانيا ، وهى المسيطرة على شرق الاردن ، قد كبحت جماح الجيش العربى الاردنى فى حرب عام ١٩٤٨ وأنها قد رتبت الأمر ، آنذاك ، على تسليم أراضى الضفة الغربية الى اسرائيل قبيل هدنة عام ١٩٤٩ .

وكان البيان الواضح الذى تلقاه عبد الناصر بأن حلف بغداد سيجمد ؛ ولن يوسع ليشمل بلادا عربية أخرى ، هـو الذى حمله على الترحيب علنا بخطاب ايدن فى جيلد هول فى أواسط نوفمبر عام١٩٥٥ . ولكن مبادرة ايدن ما لبثت أن تهاوت ، وتداعت على الفور . فلقد تقاعست واشنطن عن تأييدها ، اذ أن صهيونيى أمريكا فى ذلك الحين قاموا بحملة ضخمة لجمع الأموال وضمان السلاح والتأييد لاسرائيل . وتعرض ايدن فى مجلس العموم البريطانى نفسه لهجمات أنصار اسرائيل من أعضاء المجلس ، الذين حملوا على اقتراحـــه الخاص بأن تتنازل اسرائيل عن بعض الاراضى للعرب . ولم يتوان السير انطونى فى التراجع عن موقفه . وفشل من جديد اقتراح غربى آخر عن فلسطين ، كما فشل من قبـــل كل اقتراح يقضى بأن تتنازل اسرائيـــل عن بعض ما اغتصبته .

ولكن بينما كان الســفير البريطانى فى القاهرة يقابل الرئيس عبد الناصر وينقل اليه تأكيدات ايدن « بتجميد » حلف بغداد ، كانت الحكومة الاردنيــة فى الوقت نفسه بعلم الســفارة البريطانية الكامل فى عاصمتها وبتأييدها ، تفاوض الرئيس التركى جلال بايار ، الذى يقوم بزيارتها ، فى موضوع اشتراك الاردن فى الحلف المذكور . والقى ايدن

خطابه فى جيلد هول فى التاسع من نوفمبر ، وسلمت الحكومة الاردنية فى السادس عشر منه الى السفير البريطانى فى عمان اقتراحاتها الرسمية الخاصة باشتراكها فى عضوية الحلف . وكان تأييد عبد الناصر لخطاب جيلد هول ، قد انتشر ابان ذلك ، أوسع انتشـــار ، فى أرجــاء الوطن العربى . وعقدمجلس الحلف اجتماعه فى الواحد والعشرين من نوفمبر ولم يمض أسبوعان حتى كان الفريق السير جيرالد تمبلر رئيس هيئــة أركان حرب الامبراطورية ، يصل الى الاردن ، وسرعان ما أعلن انهجاء الى العاصمة الاردنية ليبحث مع حكومتها موضوع انضمام الاردن الى حلف بغداد

وعندما وصلت هذه الانباء الى القاهرة ، أذهلت الدهشة الرئيس عبد الناصر من هذه الخــدعة البريطانية الجــديدة وغضب لها غضبــا شــديدا . وشرعت مصر فى حملة فورية وشــاملة ضــد مهمــة تمبلر ، وتفجر الاردن نفسه فى ثورة غاضبة من الاحتجاج . وليس ثمة من شك فى أن مصر كانت ستعارض بعثة تمبلر سواء أكان ايدن قد قطع على نفسه عهودا فى موضوع حلف بغداد أم لم يقطعها ، ولــكن الوعود التى حنث بها ايدن ، حملت عبد الناصر على التوصـــل الى استنتاجات أساسية معينة .. وكان لا بد من أن ينفجر الاردن أيضا فى احتجاج غاضب ضـــد تمبلر وبعثته وضد حلف بغداد ، حتى ولو ظلت اذاعة القاهرة صامتة ، وهو أمر ما لبث أن اعترفت به الصحف الفــربية المحافظة.(١) وكانت الانتخابات قد زيفت فى الاردن كما زيفت فى العراق فى عام ١٩٥٤ ، لضمان قيام حكومة تمثل العهد القديم ، تتولى تأييــد الارتباط مع بريطانيا ، وتخفت العواطف الحيادية القومية التى تسيطر على غالبية الشعب الاردنى . ولــكن بعثة تمبلر ومهمته كانتــا أكبر من أن يسكت عليها الشعب رغم كل هذه الاحتياطات . واتضح فى منتصف شهر يناير عام ١٩٥٦ ، ان ليس فى وسع أية حكومة أردنية أن تشرك البلاد فى حلف بغـداد . وأنحى الفـــرب باللامة على مصر . وظهــر عبد الناصر الآن أمام جميع العرب ، الزعيم الذى كانوا ينشدون ظهوره منذ أمد بعيد . وسارعت كرة الثلج (يعنى علاقــات الغرب بالعرب) فى سيرها نحو الهاوية .

ولم يكد غضب المملكة الصغيرة ، يخبو ، قليلا حتى أخذ الموظفون البريطانيون يعترفون فى أحاديثهم الخاصة ، بأن بعثة تمبلر كانت خطأ فاحشا ، ارتكب فى الاردن . ولكن هذا الخطأ كان هائلا أيضا بالنســبة لمصر . ورأى فيه الرئيس عبد الناصر ، مثلا آخر من أمثلة الخــداع المتعمد المقصود ، جريا على مألوف البريطـــانيين الذين اتهم ساســتهم بأنهم « يخــرجون من الباب الامامى ليحاولوا العودة الى المنطقــة من نافذتها الخلفية » . وكانت هذه هى المرة الاخيرة التى وثق فيها الرئيس المصرى بايدن (٢) . كما كانت على الغالب المرة الأخيرة التى رضى فيها أن يدرس اقتراحا يقدمه الغرب فى موضوع فلسطين . وكانت تفاهة

(١) الايكونومست عدد ١٢ يناير ١٩٥٧
(٢) من حديث الى الاوبزرفر فى ٢٤ مارس ١٩٥٦ .

المهمة التى قام بها تمبلر بالنسبة الى المصالح البريطانية ، ومكانة الرجل العسكرية قد دفعت عبد الناصر وغيره من القادة العرب الى الشك شكا عميقا بأن ايدن كان يحاول حقا الحصول على شيء آخر فى فلسطين. ومن المؤكد أن ايدن ، كان يحاول أن يخدع الرئيس عبد الناصر ، وأن يدفع به الى موقف فيه بعض الحرج والخطورة . (١)

ترى ما الذى كان يريده ايدن ؟ فحتى هذه الأشهر الحرجة ، كانت بريطانيا تتجاهل الحوادث الطفيفة المعزولة ، وتنظر الى الاتهامات المصرية على أنها مجرد اختلاقات دعائية . وكان من بين هذه الادعاءات أن ايدن ونورى السعيد كانا يخططان للاستيلاء على الاردن وتقسيمه بين العراق واسرائيل . وبدت التهمة غريبة خيالية فى ذلك الحين ، ولكن ما لبث ايدن أن اعترف فى مذكراته بأنه قدم طلبا الى نورى السعيد بأن يوفد بعض القوات العراقية بالطائرات الى الاردن .

ولكن هذه التهمة الغريبة ما لبثت أن عادت الى الظهور ثانية فى عام ١٩٥٦ . ولم تكن القاهرة وحدها هى التى أثارتها هذه المرة ، بل باتت جزءا من الاتهامات المحددة التى وجهها الى ايدن ، وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية .

مارس : جلوب ، لويد ، بينو :

وتميز شهر مارس عام ١٩٥٦ أيضا بما وقع فيه من تدهور جديد فى الموقف . وأعلن المستر يوجين بلاك محافظ البنك الدولى فى الحادى عشر من فبراير ، أن البنك قد توصل الى اتفاق مهم مع مصر يقضى بأن يمنح لها قرضا بقيمة مائتى مليون دولار لتنفيذ مشروع السد العالى ، شريطة أن تشترك بريطانيا وأمريكا فى تقديم قرض لها بسبعين مليون دولار أخرى . وسرعان ما أخذت المفاوضات لعقد القرض تمر فى مراحل من الابطاء بسبب امتعاض مصر من شروط البنك العالمى التى تضمنت أن يتولى البنك التدقيق فى ميزانيات الدول التى تطلب منه قروضا ، وأن تتعهد كل دولة تقترض منه بألا تطلب أية قروض أخرى من أية جهة ثانية دون موافقة البنك . ولما كانت مصر قد مرت بمائة عام من التجارب الماضية من الضغط المالى الاجنبى الذى أدى الى احتلالها ، فقد كانت ولا شك آخر دولة فى العالم ، يمكن أن تقبل مثل هذه الشروط المعقولة فى ظاهرها دون أن تتحداها . وكان من المقرر أن تجلو عما قريب تلك القوات التى كانت قد أقامت فى مصر أربعة وسبعين عاما كنتيجة مباشرة لقروض القرن التاسع عشر التى أثقلت كاهلها. يضاف الى هذا أن عرض البنك مرتبط بصورة مباشرة مع العروض التى قدمتها الدولتان الغربيتان ، اللتان تتعارض أعمالهما السياسية وأهدافهما

(١) ادعى جلوب فى كتابه أن بريطانيا قد « امتنعت عن مطالبة الأردن بالاشتراك فى حلف بغداد » ولكنه يمضى بعد ذلك فيقول : « ولكن عندما جاء الاقتراح من الأردن نفسها رحبت بريطانيا باقتراحها هذا » . وطبعا وقع هذا فى غضون أسبوع واحد من وعد ايدن بعدم اشراك أية دولة عربية أخرى فى الحلف .

السوقية . فى الشرق الاوسط تعارضا مكشوفا وصريحا مع القومية العربية وسياسة الحياد .

وكان المستر بلاك يعرف هذه الحقائق ويقدرها حق قدرها ولهذا فقد بذل جهودا مضنية ، ليوفق بين أنظمة البنك وبين ما تحس به مصر من حساسية تجاه هذه الشروط . وبينما كانت المفاوضات تسير سيرها البطىء هذا على أساس من الاتفاق المبدئى ، كانت العلاقات العربية – الغربية تسير من سيىء الى أسوأ . وطرد جلوب من منصبه فى الاول من مارس ، وطلب اليه أن يغادر الاردن فورا . وحدث أن كان المستر سلوين لويد مجتمعا بالرئيس جمال عبد الناصر ، عندما تلقى الرئيس رسالة تحمل نبأ اخراج جلوب من الاردن . وراح ينقل النبأ الى سلوين لويد . وتوصل وزير خارجية بريطانيا على الفور الى الاستنتاج القائل بأن طرد هذا الجندى البريطانى الممتاز من بلد مرتبط ببريطانيا كالاردن ، لا بد وأن يكون تنفيذا لخطة وضعها عبد الناصر ، ووقتها ، لتجىء فى اللحظة التى يجتمع اليه فيها ، لكى يذله بصفة كونه وزيرا كبيرا من وزراء حكومة جلالتها . (١) وأدرك عبد الناصر ، أن كبرياء الوزير البريطانى قد أصيبت فى الصميم ، فحاول أن يهدىء من ثائرته ، وخيل اليه انه قد نجح فى ذلك عندما غادر الوزير القاهرة فى اليوم التالى . ولكن لويد ما لبث أن قابل مظاهرات غاضبة فى البحرين التى كان البريطانيون يصفونها بأنها واحة من واحات الهدوء الذى يعود فيه الفضل الى بريطانيا وسط هذا الخضم الثائر من الاضطراب فى الشرق الاوسط . وقد واجهته هذه المظاهرات وهو ينتقل من المطار الى المدينة ، تهتف صاخبة ضده ، مطالبة اياه بالعودة الى بلاده . وقد أبلغه الموظفون البريطانيون فى البحرين أن مثل هذا الحادث ما كان ليقع مطلقا لولا أن الاوامر قد صدرت من الرئيس عبد الناصر الى المتظاهرين بمواجهته بهذه المظاهرات . (٢)

وعاد وزير الخارجية الى لندن ، حيث كانت دوائرها الرسمية قد استمعت الى قصة طرد جلوب كما رواها هو نفسه لايدن ، وفسرتها على النحو الذى سبق لنا أن ذكرناه ، من أنها تدبير من هذا الرجل الذى يكره الانجليز أشد الكراهية ، والذى بات قادرا على اعداد الثورات من مكانه النائى البعيد فى أى جزء من أجزاء الوطن العربى . وقد نصح جلوب ايدن بالا يتخذ أى اجراء سريع غاضب مع الاردن .

(١) من الحقائق التاريخية الثابتة التى باتت الآن مقبولة عند الجميع أن الرئيس عبد الناصر لم يعرف بطرد جلوب قبل وقوعه . ولعل من سخرية الاقدار أن هذه الصدفة قد وقعت بعد أن قرأ الملك الصغير حسين فى احدى مجلات لندن نعتا لجلوب بأنه – « ملك الاردن غير المتوج»

– المؤلف –

(٢) كان شعب البحرين ناقما على تصرفات حكامه، كما أن ايمان هذا الشعب بالقومية العربية منذ عام ١٩٥٢ هو الذى دفعه الى هذه المظاهرات التى لم تكن كما زعم الغرب بأمر من عبد الناصر .

– المعرب –

ولكنه فى التقارير السرية التى قدمها وفى أحاديثه الى الصحافة ، قدم الى الغرب صورة عن الشرق الاوسط وعزا مافيه من متاعب الى عمل « المصريين » وعمل الشيوعيين ودهماء الشارع . وكان طرد جلوب مأساة شخصية وتاريخية فى آن واحد ، أما الناحية الشخصية فناجمة عن أن هذا الرجل كان أصيلا فى مفاهيمه عن الاردن والعرب وكان مخلصا لهذه المفاهيم اخلاصا عجيبا (١) ،وأما الناحية التاريخية فلأن الاردن بكامله قد ضاع ، دون أن يفهم جلوب كيف وقع هذا التبدل . وراح يمثل فى المقالات والكتب التى وضعها فى منفاه بعد طرده من الاردن كل ما ادعاه لنفسه من وقوفه موقف الرحمة المسيحية والفروسية المهذبة . والادارة الرءوفة مع « أبناء الصحراء » . ولكن الغلطة لم تكن غلطته أبدا ،ولكن ما ذكره من ايضاح لآسباب طرده لصحيفة النيويورك تايمز ، والصحف البريطانية أيضا استثارت لدى الغربيين كل تلك الصور التى سبق لنا أن تحدثنا عنها فى فصل سابق . أجل انها استثارت ما كان يحس به الغرب من كره عميق الجذور لمصر ، (٢) ومن خوف من الشيوعية ، واستفزار كل تلك الآراء والصور المخيفة التى كانت تمنع الغربيين من رؤية عرب الاردن على حقيقتهم ، وتقدير ما يحسون به وما يأملون . وما كانوا سيفعلونه حتما حتى ولو لم يظهر عبد الناصر .

وأسفر شهر مارس أيضا عن فكرة شخصية أخرى تسلطت على مستوى رفيع فى الغرب عن عبد الناصر . فلقد كان ذلك الشهر من الاشهر الشديدة المرارة بالنسبة الى فرنسا . اذ رأى الفرنسيون ، وكانت خسارة الهند الصينية وما فيها من مرارة علقمية لا تزال ماثلة فى نفوسهم ، ان المغرب (مراكش) وتونس ، قد ضاعا على فرنسا أيضا ، نتيجة استقلالهما . وأصبحت الجزائر لهم أكثر أهمية وأغلى قيمة . ومضى بينو وزير خارجية فرنسا الى القاهرة فى أواسط مارس ليعمل على اقناع عبد الناصر ، بالتوقف عن تأييد الثورة الوطنية التى اشتد أوارها فى الجزائر مقابل مساعدة فرنسا للعرب فى سياستهم الحيادية . ولم يفهم المسيو بينو ماعناه عبد الناصر ، عندما أبلغه أن التخلى عن الوطنيين الجزائرين يعنى بالنسبة له تخليه عن (قوميته العربية ، وعن كل ما نشعر به من واجبات أخوية » . وأدى فشل بينو

(١) أنا لا أود أن أنكر على جلوب رأسا ما يدعيه من حب شخصى للأردن وأهل الصحراء . ولكن هذا الحب ، ان وجد حقا ، لم يكن شيئا يقاس بحبه لوطنه بريطانيا ولا بولائه له واخلاصه وتفانيه فى خدمة مصالحه . فلقد كان جلوب منفذ السياسة البريطانية فى الاردن وحاميها ولم يكن مايدعيه من حب للاردن الا الذريعة التى يحاول بها تبرير كل تصرفاته فى الاردن وفى قضية فلسطين وهى التصرفات التى يقع عليها العبء الاكبر من كارثة فلسطين والتى فرضت على الاردن حكم الطغاة الاستعمارى . — المعرب —

(٢) أعرب جلوب فى كتابه « جندى مع العرب » عن اعتقاده « بأن المصريين ليسوا من العرب مطلقا » ، وراح يعزو حملات عبد الناصر على حلف بغداد الى أسس تعود الى التوراة . — المؤلف —

فى مهمته فى القاهرة ، الى المساس بسمعته فى فرنسا . ولم يغفر الوزير الفرنسى قط لعبد الناصر هذه الاهانة التى أصابت كرامته . وتقوت نتيجة ذلك ميول فرنسا الرسمية الى اسرائيل ، وقد عززها ما هناك من أوجه شبه بين المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر وبين الفاصبين الصهيونيين فى اسرائيل الذين يحيط بهم «المسلمون» فى كلتا الحالتين . وأعلنت فرنسا فى شهر ابريل أنها ستسلم طائرات « الميستير » النفاثة الى اسرائيل . وصيغ الاعلان الرسمى فى عبارات يشتم منها أن القرار قد اتخذ حديثا ، لا سيما وقد نسى الغرب اشارات عبد الناصر منذ سبعة أشهر الى صفقة طائرات « الميستير » . وكان هذا الاعلان الذى صدر فى شهر ابريل مجرد تطور جديد فى العلاقات .

أمريكا – اسرائيل – طهران – الصين :

وقعت فى شهرى ابريل ومايو أيضا ورطة أخرى من ورطات العداء المتبادل الناجمة عن السياسات التى كانت تظهر معقولة فى واشنطن ولندن ، ولكنها كانت تستفز مشاعر السخط فى الشرق الاوسط . فلقد كانت حملة اسرائيل على الصعيد العالمى لجمع الاموال وحشد الاسلحة ، والهاب مشاعر الغرب ضد مصر ، قد قطعت شوطا بعيدا . وسيطرت حالة من الغليان والهدير الخطر على كل من حدود اسرائيل مع مصر وسورية . وأثارت علاقات عبد الناصر الودية بالبانديت نهرو قلق أمريكا وسخطها . وكانت اتصالاته أيضا بالماريشال تيتو ، الذى كان لا يزال موضع الشك بالنسبة الى ماطرأ على أزمة العلاقات المتوترة بين يوغوسلافيا وموسكو من انفراج جديد ، باعثا آخر من بواعث الانزعاج والضيق . وكان خطر نشوب الحرب فى فلسطين قد أقلق الرئيس أيزنهاور طيلة شهرى مارس وابريل ، مما حفزه فى الرابع من ابريل الى السعى للحصول على قرار من مجلس الامن تلبية لاقتراح أمريكى بايفاد المستر همرشولد الامين العام للامم المتحدة الى المنطقة لضمان وقف اطلاق النار فيها ، واعادة اتفاقات الهدنة الى سابق عهدها .

وبينما كان المستر همرشولد يواصل تنفيذ المهمة التى أوكلت اليه ، أعلن الاتحاد السوفياتى فى السادس عشر من ابريل أنه على استعداد لدعم أية بادرة تصدر عن الامم المتحدة لتسوية قضية فلسطين ، وأشار اشارة تنطوى على التأييد الى استعداده أيضا لفرض حظر على شحن الاسلحة الى الشرق الأوسط بمجموعه . وهكذا قام دليل واضح جديد على أن الحكومة المصرية لم تكن غافلة عن الاهداف السوفياتية ، فى المنطقة – خلافا لما سبق للغرب أن فهمه من بعض ممثليه . وقادت صحافة القاهرة حملة عربية شاملة من رد الفعل المنطوى على الكثير من الشكوك الحادة . ولم يكن أحد قد نسى أن الاتحاد السوفياتى كان من الدول السباقة ، الى اقرار مشروع تقسيم عام ١٩٤٧ ، والى عرض العون على انفاذه ، والى الاعتراف باسرائيل بعد بضع ساعات من اعتراف الرئيس ترومان بها فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ .

ولقد كانت الفترة التى بدأت بمنتصف شهر ابريل لحظة مواتية، طبقا لجميع التقــديرات ، لتقويم الوضــع تقويما ينطوى عـلى الحرص والحذر ، بالنسبة الى كل ناحية من نواحى الموقف المعقــد فى الشرق الاوسط . واذا كانت شكوك العرب فى الاتحاد السوفياتى قد استثيرت فى هذه الفترة بالخطوة التى خطاها ، فلقد كان من واجب الدول الغربية أن تدرس بامعان وسائل تجنب كل مايؤدى الى اغراق هذه الشكوك باثارة شكوك جديدة عربية فى الغرب . واذا كانت الدول الغربية تود أن ينجح المستر همرشولد حقا فى مهمته فى اعادة الهدوء الى الحدود العربية ــ الاسرائيلية ، وتود أن تخلق أملا فى امكان تعسس السـبل المؤدية الى تفاوض محتمل بين الفريقين ، فقد كان حريا بها أن تتجنب القيام بأى عمل جديد قد يؤدى الى استفزاز شكوك العرب . ولم يكن ثمة أهمية فى مثل هذه المواقف المتحفظة . لان يستشير ساسة الغرب عواطفهم ويروا ما اذا كانوا يحبون عبد الناصر أو لا يحبونه ، وما اذا كانوا يكرهون النفسية العربية أو لا يكرهونها . ان المهم فى مثل هــذا الوضع ، هو أن يعرف هؤلاء الساسة الطــريقة المثلى للتعـامل مع عبد الناصر ومع النفسية العربية لما فيه مصلحة الغرب .

ولكن على الرغم من هــذه الضرورة الظاهرة والصريحة . فقــد سلك الغرب سلوكا مغايرا ، اذ لم تمض أيام ثلاثة على البيان الروسى الذى أثار شكوك العرب حتى كنا نرى الولايات المتحدة تعلن انضمامها الى لجنتين من لجان حلف بغداد وهما الاقتصــادية ولجنة مكافحة النشاط الهدام ، كما تعلن قيام ارتباط عسكرى أوثق عــرى مع دول الحلف كلها . ومع ذلك أصرت وزارة الخارجية الامريكية على التأكيد بأن حكومتها لا تعنى بخطواتها هذه الانضمام الى الحلف . لكن هــذا التمييز الخفى الماكر لم يكن واضحا عند القوميين العرب .

ولم يلبث مجلس حلف شمال الاطاسى أن عقد اجتماع الربيع فى باريس . وكان المستر همرشــولد لا يزال ينتقل جيئة وذهابا بين اسرائيل والدول العربية متفاوضا بهدوء وان كان بشىء كبير من الجهد ، لإعادة تثبيت خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩ . ولم يتابع الاتحاد السوفياتى اقتراحه لحظر بيع السلاح للشرق الاوسط ، وعندما قام خروشوف وبولجانين بزيارة لندن فى هذه الآونة لم يعودا الى الاشــارة اليه . كما أن مضيفيهم من الانكليز الرسميين لم يحاولوا استغلاله . وتسربت الانباء من اجتماعات حلف الاطلسى المعقودة فى باريس تقول ان المستر دالاس قد اقترح طريقة جديدة لحل الصراع العربى ــ الاسرائيلى وأن هذه الطريقة تنطوى على قرار من الغرب بارسال أسلحة اضافية الى اسرائيل . وأعلن أيضا أن المجلس قرر أن يعهد الى ثلاثة من «حكمائه» بالقيام بدراسات مستمرة للوضع فى الشرق الاوسط .

وأعلن همرشولد فى التاسع من مايو أن مهمته قد كللت بنجــاح رائع وأن هدفه فى اعلان وقف اطلاق النار قد تحقق . وراحت فرنسا تعلن الى العالم فى الثانى عشر من أيار (سبتمبر) ، وكأن الشياطين هى التى توجه ساسة الغرب ، ان الولايات المتحدة قد وافقت على تحويل عدد

آخر من مقاتلات « الميستير » النفاثة التى تنتجها فرنسا لحلف الاطلسى الى اسرائيل . واتضح فى الوقت نفسه أيضــا ، انه على الرغم من أن الولايات المتحدة ما زالت تمتنع عن تزويد اسرائيل بالســلاح ، الا أن المستر دالاس ضغط ضغطا شديدا على الحكومة الكندية لبيــع طائرات «سابر» النفاثة اليها .

وهكذا اختفت آخر لمحة من لمحات الامل ، فى خضم هذه الاسابيع الستة من الشكوك المتزايدة فى القاهرة . وكانت هذه الاسابيع الستة قد عرضت أمام عبد الناصر وغيره من القــادة العرب ، صورة حطرة عن وجود المزيد من التآمر والدسائس . فهنــاك من الناحية الاولى الاشارة التى صدرت عن الاتحاد السوفياتى بفرض حظر من جميع الدول الكبرى ، تحت اشراف الأمم المتحدة على تزويد الشرق الاوســط بالاسلحة ، وهى اشارة لم يرفضها الغرب حتى الآن رفضا حاسما . وهنــاك من الناحية الاخرى ثــلاث خطوات متتالية زمنيا ، شجعتها الدول الغربية أو قامت بها ، وهى المزيد من الدعم لحلف بغداد واقحام حلف الاطلسى نفسه فى مزيد من النشاط المباشر فى شــئون الوطن العربى ، وتبنى الحكومة الامريكية السريع لخطوات سلمية تصدر عن الامم المتحدة لفرض الصلح على العرب مع اسرائيل ، والرعاية الامريكية العاجلة لشحنات أخرى من الأسلحة لاسرائيل المرتبطة باتفاق سرى مع فرنسا لتزويدها بالسلاح ، والعازمة عزما قاطعا على خوض ما تسميه بالحرب المانعة مع العرب (١) .

ووقعت هنا أيضا حادثة من الحوادث الحاسمة فى تاريــخ الشرق الأوسط ، لم يقدر لها أن تحظى الا باهتمام ضئيل فى الحســـابات الصحيحة للموقف . وبدا لعبد الناصر سواء أوافقناه أم لم نوافقه . على ضوء هذه السلسلة من الاحداث التى تعاقبت فى شهرى ابريل ومايو ، وجود مؤامرة جديدة تشبه تلك التى قام بهــا السير أنطونى ايدن فى خطاب جيلدهول وفى أحداث الاردن التى تلته . وأدى هذا الاحساس الى قيام عبد الناصر بخطوة أخرى من خطواته المنفعلة (٢) ، فى عام ١٩٥٦، وهى الاعتراف الدبلوماسى بالصين الشعبية فى السادس عشر من مايو ، دون أى من الخطوات التمهيدية المعتادة . وكان السبب فى اتخاذه هذا القرار فى هذا الوقف بالذات ، واضحا من اشارته الغاضبة الى ما تحيكه الدول الغربية من مؤامرات مستمرة من ناحية ، ومن الاشــارات الواردة فى صــحافة القاهرة الى أن روسيا ليست هى المكان الوحيد الذى تستطيع القاهرة أن تحصل منه على السلاح ، من الناحية الاخرى . وسرعان ما أعلن أن بعثة عســكرية مصرية ستسافر عما قريب الى بكين . وكان الهدف من هذه الزيارة واضــحا كل الوضوح ، فأى حظر

(١) لم تنس القاهرة قط وثائق المخابرات البريطانية والفرنسية التى حصلت عليها والتى تعلم الحكومتين المذكورتين بخطر وقوع هجوم من جانب اسرائيل منذ أواسط عام ١٩٥٥ . ــ المؤلف

(٢) كان فى امكان المؤلف أن يقول « الجريئة » بدلا من المنفعلة لانها هى التعبير الصحيح . ــ المعرب ــ

تفرضه الامم المتحدة على شحن السلاح الى الشرق الاوسط لا يقيد الصين الشعبية لأنها ليست عضوا فى الامم المتحدة .

وكان من المحتم أن تعترف مصر بالصين الشعبية ان عاجـــلا وان آجلا . فالاتجار المتبـــادل والمتزايد بين البلدين كان لا بد وأن يؤدى الى مثل هذا الاعتراف . ولم يكن ثمة من سبب آخر يحول بين مصر وبين هذا الاعتراف أسوة بالهند وغيرها من الدول الافريقية ـ الآســـيوية . لكن توقيت الاعتراف كان فى رأيى سيئا كل السوء ، اذ جاء فى الوقت الذى كانت المفاوضات فيه لقرض الســـد العالى ما زالت معلقة (١) . ولكن الرئيس جمال عبد الناصر اتخذ قراره لوجود عدة دلائل من ناحية ثانية على « طبخ » مؤامرة أخرى خارج الوطن العربى ، ولوجود ضغــط غربى لفرض الصلح مع اسرائيل على شروط اسرائيل نفسها ، ولقيام احتمال فى لقاء بين روسيا والغرب ، كما حدث فى عام ١٩٤٨ على خلق سياسة فلسطينية مشتركة وبذلك يتم اغلاق المصدر الوحيد المفتـــوح أمام مصر لتحقيق تسلحها بينما يستمر تدفق السلاح الغربى على اسرائيل . وهكذا اتسعت الهوة من جديد بين العرب والغرب .

---

(١) أعتقـد أن المؤلف أخطأ فى تحليله هنا . فلقد أصر ســيادة الرئيس عبد النـاصر ، منـذ البداية ، على وجوب بقاء المســاعدات الاقتصادية بعيدة عن الضغط السياسى . وظل طيلة المدة يرفض أية مســاعدات اذا كانت مشروطة لان قبولها يعنى خروجه على ســياسة عدم الانحياز التى جعلها قاعدة أســاسية من قواعد ســياسته لا يحيد عنها قيـد شعرة . ولهذا فلا مجال للقول هنـا بان توقيت الاعتراف بالصين كان سيئا . اذ لايرى الرئيس أى ارتباط بين هـذا الاعتراف وبين المعونة الغربية لمشروع السد العالى .

المعـــرب

- ٨ -

قروض السد العالى

« ليس مايغدقه النهر العظيم على مصر من مياه دائمة ، مجرد قضية رخاء وازدهار لهـا ، بل هى قضية حياة فعلية ووجود ... »

اللورد ملز – فى كتابه « انكلترا فى مصر »

قد تبدو مصر على الخريطة مســاحة خيالية ضخمة ، الا اذا كانت هــذه الخريطة معبرة عن الاسس الديموقراطية لتوزيع السكان ، وعن توزيع النباتات أيضا . ويمكن رؤية الواقع المفزع الواضح من الطائرة أو من النقاط المهمة فى أرض مصر المأهولة . وقد تندفع بك الطـــائرة من ناحية البحر المتوسط ، هادرة مزمجرة ، وسرعان ما يتحول الماء الأزرق أمامك الى حقول كثيفة الزراعة ريقة الخضرة . وتواصل الطائرة هديرها محلقة فوق الدلتا جنوبا باتجاه القــاهرة ، ويأخذ المدى الأخضر الفسيح تحت ناظريك ، يضيق بصـــورة متدرجة لينتهى من الناحيتين الشرقية والغربية الى حدود يتحول لونها الى مزيج من اللونين السكرى والبنى ، وتأخذ هذه الحدود فى الاقتراب بعضها من بعض بصورة شديدة متزايدة وتقترب حدود هذا المثلث الأخضر عند القاهرة الى درجة كبيرة . اذ أن الصحراء القاحلة تضغط بشدة عليها عند ضواحى المدينة . وترى وأنت فى طائرتك حقلا من حقول البرسيم ينتهى فجأة الى الرمال عنــــد خط يبدو مستقيما الى الحد الذى يحملك على القول بأن خالقا جبارا قد رسمه لينذر المصريين منذ أقدم عصور التاريخ قائلا .. « فى وسعكم أن تزرعوا وتعيشـــوا الى هذا الحد أما وراءه ، فستموت بذوركـــم فى الرمال » ..

ويشتد ضغط ما تحس به من تكاثف الحياة الانســانية وامتدادها من الجذور الارضية منحشرة وســـط هذين الفكين من الرمال الجرداء ، كلما ارتحلت جنوبا من رأس دلتا النيل عند القاهرة ، صعودا مع النهر . واذا ما كنت تستقل القطار صاعدا مع الوادى ، فانك قادر ولا شك على أن ترى من نافذة عربتك المرتفعات الصحراوية قريبة منك ممتدة الى جانب هذا الخط الضيق الطويل من الخضرة التى ترويها ميــاه النهر . ويسير قطارك على الضفة الشرقية للنهر ، وتقرع الامثولة التى تتعلمها من هذا الدرس الانسانى شغاف عقلك تماما وكأنها الالحان الرتيبة الصادرة من هدير العجلات على الخط الحديدى . وسرعان ما تجد أمامك مجموعة من الاكواخ القروية المشيدة من الطين الذى أحرقته الشمس ، تحيط بهـــا مساحات من الخضرة تبتعد شيئا فشيئا عن النهر ، لتنقطع فجأة عنـــد حدود أرض رملية بيضاء تتألق على هامة المرتفعات الحادة التى تؤدى الى الصحراء الشرقية .

وتصل الى أسوان ، ثم تمتد الطريق بعدها لتعبر تمثالا جميلا من تماثيل المعجزات الهندسية وهو خزان أســـوان الذى شيد على شكل سلسلة متعاقبة من «الحزامات» منذ عام ١٩٠٤ ، ليغدو الآن أكثر أهمية بعد مولدات الطاقة الكهربية المائية التى أقامتها حكومة الثورة وانتهت من تركيبها فى عام ١٩٦٠ لتنتج طاقة كهربيـــة ضخمة • وتقوم وراء السد طريق جديدة تمتد الى الصحراء الغربية ، وحيدة فى وجودها الذى يرمز الى الأمل فى مستقبل أفضل ، الى أن تنتهى بعد مسافة أبعد باتجاه الجنوب الى منعطف يعود بك الى نتوء مرتفع من صخور الجرانيت يطل على النيل •

وهنا يقوم موقع مشروع هندسى هائل ، يكاد يقطـــع الانفاس من ضخامته يعتبر من معجزات العقل البشرى ، وأضخم ما نفذ فى العـــالم الافريقى ـ الآسيوى ، وهو مشروع السد العالى • ويضيق وادى النيل فى هذا المكان ضيقا شديدا ، ولكن السد العـــالى لن يكون مجرد جدار يغلق الوادى ، اذ سيرتفع نحوا من (٣٣٠) قدما فوق مجرى النهر ، ثم تمتد قمته على جانبى النهر ، فى خط مستقيم الى أن تصـــل الى الصحراء الصخرية لكى يصبح عرضها نحوا من ثلاثة أميال كاملة • وسيغلق هذا الجدار الهائل من نفسه عند المقـــاطع العريضة الطبيعية للصحراوين الشرقية والغربية ليؤلف بحيرة هائلة تتسع لمائة وثلاثين ألف مليون متر مكعب من الماء ، غامرة الوادى بكامله •

***

وكانت فكرة بناء سد ثان عند أسوان تجول فى مخيلة علماء الطاقة المائية منذ حقب طويلة • وقد لخصت الفكرة فى اقتراحات محددة وضعها دانينوس فى عام ١٩٤٧ • وعندما شرع الشبان من قادة الثـورة فى عام ١٩٥٢ ، فى وضع الخطط اللازمة للتطور الاقتصادى ، عهدوا بالفكرة الى جماعة من الخبراء ليتولوا درسها على جنـــاح السرعة • واستمرت هذه الدراسات فى طريقها الى أن أعلن الرئيس عبد النـاصر فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، القرار بالمضى قدما فى تنفيذ هذا المشروع الذى وصفه بأنه حجر الزاوية فى تقدم مصر الاقتصادى (١) • واستقدمت مصر عددا آخر من الخبراء والمستشارين الغربيين الذين تولوا درس المشروع درســا دقيقا مجهدا ووافقوا عليه • وارتحل الدكتور القيســونى وزير مالية مصرفى نوفمبر عام ١٩٥٥ الى الغرب ليفاوض ســعيا وراء الحصول على قروض مالية • وكان قد عرف آنذاك أن روسيا عرضت عونها بتقديم ما يحتاج اليه المشروع من معدات وأدوات •

وقد نضج مشروع السد العالى فى عقول الخبراء المصريين لا كسد لحـــاجة واحدة معينة ، بل كمجموعة من الحلول لمجموعة من الحاجات

---

(١) كان الغرب قد تشبع بفكرة خاطئة ، مضللة ، يجمع نشرها بين التعمد وبين البراءة بأن حلم عبد الناصر فى انشاء الســد العالى لم يقع الا فى أواخر عام ١٩٥٥ ليستهوى به عطف الجماهير • جون كونيل ـ البلاد الكثيرة الأهمية • ص ٨٥ ـ ٨٦ ـ كاسل ـ لندن ١٩٥٧ ـ المؤلف ـ

والمشكلات • فعدد السكان يتزايد فى مصر بمعدل نصف مليون انسان فى كل عام ، وهم يعيشون ـ أى أهل مصر كلهم ـ على ستة ملايين فدان من الأراضى المزروعة تؤلف اثنين فى المائة فقط من مساحة البـــلاد الواسعة كما تظهر على الخريطة • وأرى لزاما على لايضاح ما يعنيه هذا الواقع ، أن أقيم بعض المقارنات • ففى عام ١٩٥٦ ، كان هنـــاك نحو من ثلاثة وعشرين مليونا من المصريين يعيشـــون على ستة ملايين فدان من الأرض الصالحة للزراعة • وفى هذا العام نفسه كان نحو من (٥٢) مليونا من البريطانيين يعيشون على نحو من (٤٥) مليون فدان من الاراضى الزراعية • وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، فقد أنفقت بريطانيا فى السنة نفسها أكثر من بليون جنيه على مجموع المستورد من المواد الغذائية الرئيسية ، مـع العلم أن نظامها الزراعى يعتبر من أكثر الانظمة فى العالم كفاية فنية •

ولم تكن مشكلة زيادة المســاحات المزروعة فى مصر ، كغيرها من المشكلات التى تواجهها البلاد ذات الطقس المعتـــــدل ، أى مجرد تدريب الفلاحين على الزراعة وتزويدهم بالبذور والمواشى والأسمدة . انها مشكلة ماء قبل كل شىء ، فى أرض لا يكاد المطر ينزل فيها ، أو مشكلة جمـع ميـــاه هذا الشريان الحياتى الذى ظل يزود مصر بالماء ألوف السنين • ولا يمكن توسيع الأراضى المزروعة ودفع الخطوط القاتمة المستقيمة التى تفصل بين الصحراء والخضرة الى الوراء الا عن طريق المزيد من التسهيلات اللازمة لتخزين مياه النهر العظيم • ويتدفق فى كـــل عـــام نحو (٢٨) مليار متر مكعب من الماء من النيل الى البحر المتوســـط لتضيع فى لجحه دون أى نفع أو فائدة • وفى هذه المليارات الضائعة يقـــع الحل الجزئى لمشكلة نصيب الفرد فى الاراضى المزروعة ، وهو نصيب يسير فى طريق السوء عاما بعـــد عام فى مجتمع ريفى كان يتميز بالجهـــل وبالتقيد بالتقاليد ، الى الحد الذى يجعله لا يتسامح مع أية برامج مثالية لتحديد النسل ، الا اذا نجح العهد الجديد فى حمل الفلاحين على الارتفاع بهاماتهم ليفكروا بأنفسهم وطبقا لمصالحهم •

ولو كانت المشكلة مجرد ايجاد جهاز مبسط لتخزين المياه لقام حلها فى بناء سلسلة من الخزانات المتوسطة الحجم على نهر النيـــل • ولكن هناك عاملا اضافيا آخر وهو ما يطرأ على حجم النهر من تقلبـــات بين الارتفاع والهبوط سنة بعد أخرى • فهو فى احدى السنين متراخ وواهن ، وهو فى سنة أخرى ، مرتفع الى درجة الخطورة ، مما يحمل نحـــوا من خمسة وعشرين ألفا من العمال ، على الوقوف على قدم الحذر والانتباه على ضفتى النهر لأن تخطى الماء فوقهما قد يؤدى الى فيضان يغمر نحو ربـــع الأراضى المأهولة بالسكان فى مصر كلها • وهكذا وجد الخبراء أن الحاجة تقضى بتخزين المياه لا على أساس سنوى بل على أساس « قرنى » ، أى باقامة سد وخزان ، يستطيع أن يضع نهـــاية لخطر الفيضان من ناحية وأن يجمع الماء الكافى لتأمين الحـــد الأعلى للرى حتى فى السنوات التى يكون فيها منسوب المياه منخفضا • وهـــذا يعنى اقامة سد عال وضخم حقا •

وقدر الخبراء أن فى استطاعة خزان السد العالى ان يخزن مياهـــا

تكفى لرى مليونى فدان آخر بصورة دائمة تضمن استصلاحها الزراعى • وقد يكون هذا الرقم صغيرا بالنسبة الى المشكله الحقيقية الا أنه يعتبر كافيا لزيادة مساحه الارض المزروعة بنسبة الثلث • وقد رأى الكثيرون من الغربيين فى هذه الارقام أيضا أملا ضائعا ، اذ أن عدد السكان فى مصر سيرتفع فى غضون السنوات العشر أو الخمس عشرة التى يستغرقها بناء السد الى حد يجعل حصة الفرد من الارض المزروعة أسوأ مما كانت عليه قبل هذه الزيادة فى المساحات الزراعية • وبالطبع لم يكن ثمة من الخبراء من ينفى هذا الواقع • ولكن مشروع السد العالى ينطوى على آمال أخرى ، وأكثر ضخامة من مجرد تأمين المياه اللازمة للرى • ففى الامكان استخدام انحدار الماء فى انتاج طاقة كهربية – مائية يبلغ مجموع قوتها عشرة آلاف مليون كيلووات فى السنة، وهو رقم ضخم، اذا عرف أن مجموع ما أنتجته بريطانيا من طاقة كهربية فى عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ لا يزيد على الخمسة والسبعين ألف مليون كيلووات • وكان من الواضح أيضا أن السبيل الوحيد لخلاص مصر من دائرة الفقر الشريرة المخيفة التى ورثتها الثورة عن العهد البائد هو فى التوسع الصناعى الضخم بالاضافة الى الاستغلال الزراعى الى أقصى الحدود •

ويتبين من هذا أن السد العالى سيؤمن القوة المحركة اللازمة للصناعة • ولكن هذه الصناعة لا تستوعب العمل الاضافى اللازم فى أعداد ضخمة • وليس فى وسعها أن تبدأ فى استيعاب الاعداد المتزايدة باستمرار واصرار فى عمال مصر العاطلين أو الذين لا يجدون العمل الكافى لهم • واذا ماتحدثت فى هذا الموضوع الى خبراء مصر الاقتصاديين المدربين على النظريات الغربية ، فانهم يتفقون معك فى الرأى ، وان كانوا يضيفون قائلين ان ما يمكن للصناعة أن تفعله فى حل مشكلة الفائض من العمال والفائض من الفقر ، هو أنها تزيد فى الدخل القومى بمعدل (٣٣٥) مليونا من الجنيهات ثمرة الخطة الرامية الى التنمية والتطوير الاقتصاديين . (١) وقال لى أحدهم : « ان السد العالى لن يؤمن لكل مصرى من أبناء مصر الآن ولكل مصرى من أبنائها فى المستقبل ، دخلا فرديا أعلى كمجرد دخل • ولكنه سيمكننا من أن نؤمن لكل مصرى شيئا من الدخل القومى العام ، وهذه نعمة من الله » • وكل جنيه اضافى يمكن أن ندفعه للاستثمار فى الصناعة أو التعليم أو الاسكان أو الصحة أو الغذاء ، يدفع بالبلاد مسافة أقرب الى نقطة القفز فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى ، التى يبطىء عندها الارتفاع اللولبى لعدد السكان •

كانت هذه هى الحجج والآمال التى تعلقت بالجدار المارد الذى تملؤه الصخور والاسمنت المسلح فوق مدينة أسوان • وكلما تعمق الانسان فى البحث فى موضوعه وفى بحث مشاكل مصر ، بات من الاسهل عليه ،

---

(١) تتضمن قائمة الصناعات الجديدة الفولاذ الذى يصنع الآن فى حلوان ، والاسمدة التى تبنى مصانعها الآن فى أسوان على مقربة من المواد الأولية اللازمة ، والمنسوجات والزجاج والخزف والمحركات ، والكهربيات (الالكترونات) والاحذية وغير ذلك •
المؤلف

أن يفهم لماذا استأثر المشروع بخيال الناس من رسميين وعاديين • فلقد كان فى وسع أفقر الفلاحين وأكثرهم جهلا أن يفهموا مايمكن لهذا السد الضخم والجديد أن يعنيه • فهو يقتل أيامه • واقفا الى جانب المياه التى تصل الى حقوله من النهر الكبير • وهو يتعلم منذ اللحظة الاولى التى يشرع فيها بمرافقة الكبار من أفراد أسرته الى الحقول كيف يقيم السدود ويفتح الترع ويسيطر على مياهها ويحول اتجاه الترع النيلية الصغيرة والسواقى وكان يعرف من الغرامات التى تفرض عليه أحيانا اذا ماأغرق فى استخدام المياه اللازمة لرى حقله ، قيمة هذا السخاء الذى يغدقه عليه النهر العظيم، وهو يعرف أيضا أن ثمة سدودا قائمة على النيل اليوم ، وانه على الرغم من هذه السدود والخزانات فان كميات هائلة من مياه هذا النهر تنساب دون فائدة عبر بلاده لتصب فى البحر ، وبات السد العالى منذ عام ١٩٥٤ أملا شعبيا عاما •

ولكن تكاليف السد العالى تصل الى حدود أربعمائة مليون من الجنيهات وهو مبلغ أضخم بكثير من موارد مصر المالية، وسواء أحصلت مصر على الاسلحة التشيكية أم لم تحصل عليها ، فان ثمة مثلا رائعا على الحاجة فى الدنيا الافريقية – الآسيوية ، الى المعونة من رءوس الاموال الاجنبية المتنورة ، فهنا يمثل مشروع يحمل طابع أوثق صلات العرفان بالجميل والصداقة التى تقوم بين الحكومات والشعوب المانحة ، وبين الفلاحين الذين يعضهم الفقر بنابه والذين يفيدون من مثل هذا المشروع، والاعتقاد بأن هذا المشروع الذى قتل بحثا ودرسا عبر سنوات طويلة من الخبراء المصريين لم يكن أكثر من أهرام جديدة ، افتراض خطر كل الخطورة حقا • والاعتقاد أيضا بأن فى وسع المرء أن يتقدم بعرض علنى ثم لايلبث أن يعود فيسحبه ويسحب معه المعونة المالية اللازمة لانجازه بشىء من الصلافة مع الاعتقاد بأن هذا لايضر الا العهد الذى يتبنى المشروع انما هو كمن يحاول اللعب بالنار أو المتفجرات • فلم يكن هناك من مشروع آخر فى كل من أفريقيا وآسيا أكثر اتصالا وثيقا بالرأى العام الجماهيرى من هذا المشروع •

***

واستمرت المفاوضات بين مصر والبنك الدولى طيلة المدة الواقعة بين فبراير (شباط) وبين يونيو (حزيران) عام ١٩٥٦ ، بينما كانت كرة الكراهية الثلجية مستمرة فى انحدارها ، وتحول الرأى العام فى الكونجرس الامريكى بصورة متزايدة واكثر اصرارا ضد مصر وضد السد العالى • وكان دعاة الصهيونية وأنصارها هناك يضرمون هذه المشاعر من العداء لمصر ، بدعاياتهم وحملاتهم على الرئيس عبد الناصر متهمينه بالشيوعية المقنعة ، وأفهم أعضاء الكونجرس من ممثلى الولايات الجنوبية أن زيادة الاراضى الصالحة للزراعة فى مصر ، يعنى المزيد من انتاج القطن وهى فى الحقيقة فكرة تتعارض تمام التعارض وبشكل عمودى مع التفكير الاقتصادى المصرى الجديد الذى كان يخشى كل الخشية من استمرار الركون الى القطن كالمورد الاقتصادى الوحيد للبلاد ، وليس من شك فى أن المساحات الاضافية الجديدة التى سيستصلحها ، انشاء السد العالى ستستخدم فى زراعة أى شىء آخر غير القطن ،وراح المستر

دالاس الذى كان قد أعلن فى شهر حزيران أن الحياد مفهوم لا أخلاقى وقصير النظر يصغى باهتمام الى ما يقوله المسيو بينو عن الرئيس عبد الناصر ، وترك اعتراف مصر بالصين الشعبية أثرا سيئا فى أمريكا أيضا .

وأحس سفير مصر فى الولايات المتحدة، بهذا الشعور العدائى المتزايد فبعث الى الرئيس عبد الناصر فى شهر حزيران يحذره ، ويطلب اليه أن يصل الى اتفاق شامل مع البنك الدولى فى أسرع وقت ممكن فى موضوع القروض الغربية ، وأحس عبد الناصر بثقته فى تأييد الرأى العام له ، بعد أن تحررت مصر من القوات الاجنبية ، فوافق على اقتراح سفيره، وراح يعلن فى الرابع من يونيو (حزيران) ميزانية مصر الجديدة التى تضمنت زيادة ملحوظة فى نفقات الدفاع ، كما أدرجت مخصصات للمراحل التمهيدية فى مشروع السد ، وبعث محافظ البنك الدولى المستر بلاك فى التاسع من يوليو (تموز) برسالة الى وزير مالية مصر يؤكد له فيها عرض القروض السابق .

ولكن المستر دالاس ، راح يعلن فى اليوم التالى أى فى العاشر من يوليو فى مؤتمره الصحفى، أن منح مصر القروض بات أمرا غير محتمل وأقرت لجنة الاعتمادات التابعة لمجلس الشيوخ الامريكى فى السادس عشر منه لائحة اضافية لموازنة المساعدات الاجنبية لعام ١٩٥٦ ، حظرت فيها على الحكومة استخدام أموال المساعدات فى تمويل مشروع السد العالى دون صلاحية جديدة من الكونجرس ، وراح المستر دالاس يبعث على الفور برسالة الى رئيس اللجنة يعلن فيها رفضه ورفض الرئيس لهذه اللائحة الاضافية ويشير الى «المناورات» والى «المفاوضات الدقيقة»

ومهما عنت هذه الرسالة ، فهناك شىء ثابت ومؤكد ، وهو أن المستر دالاس لم يبعث الى سفارته فى القاهرة أو الى الحكومة المصرية ، بأى شىء يرمز الى وجود تبدل فى سياسته تجاه القروض ، ووصل السفير احمد حسين الى الارض الامريكية بالطائرة فى السابع عشر من يوليو وصرح علنا لدى هبوطه منها ، بأن مصر قد قبلت عروض القروض الغربية وانها باتت متلهفة لعقد الاتفاقات الخاصة بها بحيث تستطيع البدء فى العمل فى مشروع السد فور الوصول الى اتفاق مع السودان على توزيع مياه النيل

وأكد ناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية فى لندن ظهر التاسع عشر من يوليو استعداد بريطانيا لتنفيذ عرض القرض ، ولكن لم تمض بضع ساعات على هذا التصريح حتى كان المستر دالاس يستقبل السفير احمد حسين فى مقابلة قصيرة يصدر أثر انتهائها بيانا الى الصحافة يعلن فيه سحب القرض الامريكى ، وذكر البيان أن «التطورات لم تعد مواتية لانجاح المشروع .. وان قدرة مصر على تخصيص مبالغ كافية من مواردها لضمان نجاح المشروع ، قد أصبحت موضع الشك أكثر مما كانت عليه عندما قدم العرض » . وانتشرت الانباء فى مثل سرعة البرق فى جميع أنحاء العالم .

وكان المستر دالاس قد قضى الشطر الأكبر من حياته فى مناصب دبلوماسية عالية ، وكان من المعروف انه كثيرا مايفضى ببيانات شفوية مرتجلة وغير مدروسة ولكن بلاغاته الخطية تكون مدروسة أدق الدرس،

وكان يعرف ، كما يعرف أى مبتدىء فى السلك الدبلوماسى ، أن سحب عرض بقرض لمشروع تنمية ضخم سبق أن أعلن وقدم بصورة رسمية الى أية حكومة من الحكومات ، يعتبر قضية دبلوماسية فى منتهى الدقة ، واذا صح ما أكده فى بيانه الذى أصدره فى التاسع عشر من يوليو ، من أن حكومة الولايات المتحدة الامريكية ترغب رغبة قاطعة فى الحفاظ على العلاقات الودية الصادقة مع حكومة مصر وشعبها ، فان من المفروض فى مثل هذه الحالة أن يكون قد أجرى مع القاهرة محادثات سرية سابقة لسحب العرض واتفق معها عليه .

ولكن المستر دالاس لم يفعل هذا ، وكل مافعله هو أنه سمح لمصر علنا أولا أن تعلن أنها قبلت عروض القرض بكل ماتنطوى عليه من شروط وانه بعد هذا الاعلان ، من جانب مصر لاقبله راح يعلن ثانيا الى العالم سحب العرض دون أن يبلغ القاهرة بعزمه هذا ، أو حتى يتيح الوقت للمبعوث المصرى لابلاغ القاهرة بقراره هذا ، ثم صاغ هذا البيان ثالثا عن سابق عمد واصرار فى عبارات لامثيل لها فى التاريخ الدبلوماسى تنطوى على النقد واللوم لحكومة مصر وأوضاعها المالية .

ولم تكن مصر وحدها فى السخط الفورى على هذا الاجراء ، فلقد استنكر نهرو ـ الذى كان يحل ضيفا على عبدالناصر آنذاك فى طريق عودته الى بلاده من بريونى ـ هذا العمل الامريكى استنكارا ينطوى على الغضب والسخط ، وأعلن الساسة ورجال الصحافة فى طول الدنيا الافريقية الآسيوية وعرضها ، انهم يعتبرون هذا العمل مهينا ، كما يوضح أن معونة الولايات المتحدة مشروطة تخدم السياسة الامريكية ، ووصف رئيس وزراء لبنان قرار دالاس بأنه «اهانة موجهة الى العرب جميعا» كما اعتبرته صحافة الباكستان والهند وأندونيسيا «بلطجة دبلوماسية مكشوفة» ولم يمض يومان بالفعل حتى كانت التقارير الصحفية الموثوقة من واشنطن تؤكد صحة هذا النعت ، وتضيف أن هذه الغاية هى التى دفعت دالاس بالفعل الى اتخاذ خطوته ، وان لاشأن لمزاعمه عن الاقتصاد المصرى بهذا الحافز ، وراح الناطقون بلسان وزارة الخارجية الامريكية يعلنون لرجال الصحافة ، أن «بلادا أخرى» غير مصر يجب أن تعتبر من هذا الحادث وتدرك أن ليس فى وسعها «ابتزاز الامتيازات من الولايات المتحدة» وكان هناك حديث سائر عن أن دالاس أراد أن يثأر من مصر للسياسة الحيادية التى تتبعها ، أما الناطقون بلسان البنك العالمى ، فقد أزعجهم هذا التطور كل الازعاج ، ولم يستطيعوا أن يخفوا وجهة نظرهم فى عدم وجود أى عامل جديد يدعو الى تغيير جدارة السد العالى بالعون أو قدرة مصر على تمويل حصتها فى تكاليفه (١) .

ولا يمكن وصف النظرية الغربية الرسمية التى استند اليها الغرب فى رفض تقديم العون الى مصر ، بحجة أنها كانت تحاول «اللعب على

---

(١) تقرير لصحيفة التايمز اللندنية من واشنطن عدد الواحد والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٦ .

الحبلين مع الشرق والغرب » الا بأنها نظرية تنطوى على الميل الى المشاكسة فعندما قدم الغربيون عروضهم لأول مرة . كانوا يعرفون تمام المعرفة أن موسكو كانت تحاول الصيد فى مياه « السد العالى » وكان الأطراف الثلاثة يعرفون أيضا أن المنافسة قائمة فى هذا الموضوع بين الغرب والشرق . وكان ثمة دليل بارز ومهم تماما ، وهوأن مصر منذ البداية أظهرت ايثارا واضحا للعون الغربى ، وهو ايثار عرفته الدول الغربية وكانت سريعة فى محاولة استغلاله ، ويمكن القول بأن كل طرف من الاطراف الثلاثة كان يحاول أن «يضرب» الطرفين الآخرين بعضهما ببعض ليفيد هو من ذلك ويصدق عليهم ما قيل عن مبعوثى أوستينوف من أنهم « كانوا يعرفون أن الآخرين يعرفون انهم يعرفون ماذا يفعل الآخرون » ولكن اتهام مصر وحدها من جانب الغرب ، كان تضليلا ترك أثره على أى حال فى الرأى العـــام الغربى .

وبدت واشنطون فى هذا القرار الغريب ، وكأنها قد اتخذت زمـام المبادرة من جانبها ودون استشارة أحد ، ولا ريب فى أن البيان الذى صدر عن وزارة الخارجية البريطانية ظهر التاسع عشر من يوليو ، مؤكدا استعداد بريطانيا لتنفيذ عرض القرض ، قد أبرز الحقيقة الواقعة ، وهى أن سحب بريطانيا لعرضها فى اليوم التالى ، لم يكن الا نتيجة لا مناص منها ، وان انطوت على البرم والدهشة ، لخطوة أمريكا فى سحب عرض مشترك ، مترابط ، فليس ثمة من شك فى أن السحب لم يكن مشتركا ونتيجة قرار واحد ولا ريب أيضا فى أن كل أمر يتعلق بهذا الموضوع انما صدر عن واشنطن وحدها ، وكنتيجة لذلك ، فقد رافقت موجـة الغضب العربى على أمريكا موجة من السخط عند الرأى العام البريطانى لما أثارته الحكومة الامريكية من أزمة دولية كبيرة ، ولا شك فى أن الحقائق تتحدث عن نفسها فى هذا الموضوع .

ولكن هل كانت هذه هى الحقيقة ؟ وهل كانت خطوة دالاس مفاجأة حقا لحكومة ايدن ؟ على الرغم من أن أزمة السويس الاصلية قد طغت طغيانا كاملا على كل شىء وحتى على الجذور ، والعوامل التى أدت اليها ، الا أن ثمة اسبابا رائعة اليوم تدعونا الى الشك بكل ماقيل عن سحب العروض المتعلقة بالسد العالى ، وقد وجدت هذه الاسباب قبل عام ١٩٦٠ ، أى قبل صدور مذكرات ايدن ، ولكن ايدن جاء بعد ذلك متطوعا فى الكشف عن معلومات جديدة لاريب فى أنها غريبة كل الغرابة ، فهناك مجموعة ضخمة من الاسرار والغرائب فى موضوع السويس تحتاج الى تحليلنا و«غربلتنا» ولكن يستحيل علينا ، على أى حال أن نمر بالغرائب التى تتعلق بجذور الموضوع وأصوله مر الكرام دونأن نأبه بها، فلقد اعترف ايدن فى مذكراته بأن حكومته قد تبادلت «فى أواسط شهر يوليو» أى قبل التاسع عشر منه وجهات النظر مع واشنطن فى موضوع القروض ، وقد وجـدت أن وزارة الخارجية الامريكية تشترك معنا فى شكوكنا وانها قررت وجوب سحب عروض القروض ، وعلينا أن نلاحظ والحالة هذه فورا بأن البيان الصادر عن وزارة الخارجية البريطانية فى التاسع عشر من يوليو ، اما أن يكون مجرد خداع علنى متعمد للتضليل ، أو انه صادر عن موظف كان يجهل ماتوصلت اليه الوزارة من قرارات .

ولكن ايدن لم يكتف بهذا ، بل مضى الى أبعد من ذلك ، فهو يؤكد أنه بالرغم من اتفاقه مع واشنطن قبل منتصف يوليو على أن عروض القروض يجب أن تسحب الا أنه .. يقول :

« وكنت أفضل التريث فى هذا الموضوع الى أطول مدة ممكنة ، وألا أصل الى النتيجة بسرعة ، لا سيما ، ولم يكن هناك من داع للاسراع ؛ لكن الامور لم تجر لسوء الحظ كما شئت ، اذ أحست الحكومة المصرية بلا ريب بتردد الغرب واحجامه عن الوعد بتقديم مبالغ أكبر لتنفيذ المشروع ورأى المستر دالاس — فى التاسع عشر من تموز (يوليو) لاعتبارات تمت الى موقف مجلس الشيوخ من المساعدات الخارجية — نفسه مضطرا الى ابلاغ السفير المصرى الغاء العرض السابق . وقد أبلغنا بالقرار دون أن نستشار فيه . وهكذا لم تتح لنا الفرصة لنقده أو التعليق عليه .

وقد أسفنا لان هذا الاجراء تم بهذه الصورة المباغتة، ولم يعط بلدينا الفرصة للتوفيق بين أسلوب التنفيذ وتوقيته ، مع أنهما عاملان لا يقلان أهمية عن القرار نفسه (١) .

وهناك سلسلة كاملة من التناقضات والانحرافات فى هذا التأكيد. وأول هذه التناقضات «ايثار» ايدن ، التريث فى سحب العرض أطول مدة ممكنة ، وهو يورد هذا التأكيد بعد أن يشرح باسهاب وتفصيل كيف أن «أصدقاء» بريطانيا فى الشرق الأوسط ظلوا شهورا طويلة، وفى طليعتهم نورى العراق ، «يشكون» الى الغرب من هذه العروض بالقروض ، وكانت شكاواهم واضحة اذ أن ايدن يعرضها بجلاء ويعترف بأنه قد وافقهم عليها حتى أن قرار سحب العرض قد اتخذ تلبية لها ، وكانت هذه الشكاوى تلخص فى أن بريطانيا تحطم «أصـــدقاءها» المخلصين عن طريق الظهور جهارا بمظهر الاستعداد لتقديم قروض هائلة لعدوهم وعدوها الصريح وكانت النقطة الجوهرية فى هذه الشكاوى ، أن العروض علنية .

وليس ثمة من ريب في أن هذه الحجج كانت متفقة مع المنطق ولكن مما ينبو عن المنطق تماما هو قول ايدن — وهو شيء شاذ — أنه اتخذ قراره بالتسويف أطول وقت ممكن، ويؤلف هذا الشذوذ فى القول بوجود العرض القائم علنا خطرا على نوري السعيد ، ومع ذلك فقد قرر ايدن ألا يتـــ سحب العرض الا بعد أمد طويل .. اذ ليس ثمة من حاجة الى العجلة ، وهل كان من الممكن أن يرضى نورى السعيد وان يهدأ الا اذا قيل للعرب ، علنا وبسرعـــة بأن عروض القرض قد ألغيت وأبطلت ؟ وأية فائدة كان يحتمل أن يجنيها نورى اذا اكتفت بريطانيا بأن تتخذ قرارا غير مكشوف بعدم تنفيذ العرض ؟ فنورى ورفاقه فى حاجة الى قطيعة علنية بين الغرب ومصر ، ولكن ايدن يقول انه لم يكن يرى ضرورة للسرعة فى هـــذه القطيعة .

أنا لاأرى ذرة من المنطق فى كل هذا ، وان كان هناك ما هو أسـوأ منه ، فقد اتضح منذ شهر يونيو لكل من يرقب الاحداث أن قضية القرض

(١) مذكرات أنطونى ايدن الجزء الثانى ، تعريب المعرب .

للسد العالى ، كانت تسير قدما نحو الذروة وأن مصر توشك على اتخاذ قرار قاطع ، وكان من الواضح وضوح النهار من الليل ، انه اذا كان ايدن قد قرر عدم تنفيذ العرض ، فان من واجبه نظرا لهذه الذروة التى كـــان يسير الموضوع نحوها والتى كان ايدن يعرفهــــا ، أن يطلب الى مصر ، ألا تفضى باى بيان علنى عن قرارها بقبول العرض ، ولو تجاهلنا لحظه واحدة البعد الاول عن المنطق ، الذى سجلناه قبل قليل ، ولو صدقنا كلمات ايدن فى ظاهرها ، يتبين لنا أن ليس فى الامكان «التسويف والتريث» اذا كانت مصر باعلان قرارها ، ستفرض على بريطانيا «تحديد موقفها» وكان عـــلى بريطانيا والولايات المتحدة ، أن تقوما هما بالخطوة الاولى ، اذ لو كانت مصر ستعلن قرارها بقبول العرض ، فان هـــــدف ايدن من التسويف سيضمحل من نفسه وينهار ، ذلك لان مصر ستكسب عطف الكثيرين بدلا من أن تفقد هيبتها أمام العرب •

ونحن مع ذلك نعرف معرفة قاطعة أكيدة ، أن ايدن ودالاس لم يطلبا قط من القاهرة الامتناع عن اصدار بيانات رسمية فى موضوع مفاوضات القرض ، ونحن لانعرف هذا من المصادر البريطانية وحــــدها ، بل نعرفه أيضا من الشهادة المشفوعة باليمين التى قدمها فيما بعد السفير الامريكى فى القاهرة آنذاك ، والتى ذكر فيها انه لم يسمع أبدا بقرار سحب العرض أو بأى اعلان عنه الا بعد أن قرأ القرار نفسه فى صحف القاهرة فى التاسع عشر من يوليو (١) •

ولقد خول عبد الناصر سفيره احمد حســـين فى واشنطن أن يعلن قبول مصر للعروض ، ثقة منه بأنه مهما سارت أجواء الرأى العام الغربى سيرا غير موات لمصر فان العروض ستظل قائمة •

وماذا نستنتج من كل هذا ؟ اننا نستنتج أن ايثار ايدن الذى ذكره للتريث واطالة الأمر أمدا آخر ، لايتفق مطلقا مع الأسباب التى ذكرها هو لسحب العرض بالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهى أنه لم يتخذ أى اجراء احتياطى مهما كان بدائيا للتأكد من قدرته على التسويف والتريث ، وهناك ما هو أسوأ فى هذه القصة الغريبة ، فهو يؤكد أنه حتى تلك اللحظة التى علم فيها فى التاسع عشر من يوليو بما فعله دالاس • كان لايرى « سببا للعجلة» فى اصدار قرار عن طريقة سحب العرض وتوقيته ، وأن الفرصة لم تتح له للتشاور مع المستر دالاس قبل أن يعلن الاخير قراره ، ولا ريب فى أن السير أنطونى لم يتمكن من وضع هذا التأكيد خطيا الا بعد أن حذف

---

(١) شهادة المستر بايرود أمام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الامريكية فى دورة الكونجرس الخامسة والثمانين ، وكان بايرود قد اختلف مع دالاس فى منتصف يوليو ، لانه كان كما اتهمه الوزير «كثير التأييد لعبد الناصر » وتلقى شيئا من التعنيف فى السادس عشر من يوليو ، ولكن الرجل كان موجودا فى القاهرة ، وكان يعرف كل ما يعرفه الرئيــــس عبد الناصر، ولم يكن على علم بقرار سحب القرض قبل التاسع عشر من يوليو
المؤلف

عامدا متعمـــدا من روايته الحقـائق المتناهية فى الدقة والتى وقعت حوالى منتصف يوليو •

لقد تعمد ايدن أن يحذف من روايته أن مصر قد أعلنت قبل يومين من بيان دالاس قبولها عروض الغرب ، وانهــــا طلبت الاسراع فى اتمام اتفاقات القرض ، كما أصرت على عقد اجتماع عاجل مع المستر دالاس •• وقد عرفت هذه الحقائق كلها فى السابع عشر من يوليو، ونقلتها البرقيات الصحفية عبر المحيط الأطلسى ، هذا اذا افترضنا أن جميع اتصالات وزارة الخارجية البريطانية قد تعطلت لسبب غريب وغير معروف ، ولا يعقل أن يكون السير انطونى ايدن قد ظل جاهلا حتى صباح الثامن عشر من يوليو أن الحاجة قد باتت ماسة الآن الى العجلة فى اتخاذ قرار عن الطريقة التى يلغى فيهــا العرض الذى قبلته مصر ، وان هـــذه « العجلة » تقضى باجراء مشاورات سريعة مع المستر دالاس قبل أن يجتمع هذا الى سفير مصر ومع ذلك نرى أن السير أنطونى يدعى بأنه لم يعرف شيئا من كل هذا •

ولكن ماكان يجهله رئيس الوزراء، كان معروفا لكل من يقرأ صفحة الانباء الخارجية فى «التايمز» اللندنية أو كل من يستمع الى نشرات أخبار الاذاعة البريطانية • وحتى لو صدقنا رواية السير أنطونى عن عدم رغبته فى اعلان الانسحاب ، فقد أتيح له يومان كاملان للتشاور مع واشنطن والوصول معها الى شكل مشترك من الرد على قبول مصر العلنى وهل من المعقول أن يصدق المرء أن بريطانيا فى مثل هذه القضية التى اعترف رئيس وزرائها ايدن فيما بعد أنها كانت تثير شكوكها وشكوك أصدقائها ظلت تقف موقف عدم الاهتمام تجاه الانباء التى صدرت فى السابع عشر من يوليو عن قبول مصر للعرض ؟ وهل من المعقول ألا تكون بريطانيا قد رأت أن الحاجة ماسة الى اتخاذ اجراء تجاه هذا التطور ؟ وهل من المعقول أن رئيس وزرائها ظل بعد هذا التطور ، يشعر بأن فى الامكان الوقوف موقف التريث من قرار سحب العرض الذى اتفق عليه وأن ليس ثمة من حاجة الى استعجال البت فى القضية ؟

حقا انها لقصة ضعيفة تلك التى أوردها السير أنطونى، ولا ريب فى أن قصته على النحو التى أوردها فيه ، قد ضاعفت مئات المرات الشـــكوك القائمة والتى لها مايدعمها من أسس صحيحة من أن ايدن وزمـــلاءه من أعضاء الوزارة البريطانية لم يكونوا أولئك الشركاء الابرياء الذين عرتهم الدهشة ولم يستشاروا فى مهزلة سحب العروض(١) ، ترى اذن ما الغاية التى توخاها ايدن فى ايراده قصته على هذا النحو ؟ وما الذى توخى أن يخفيه من حقائق ؟ ولماذا زعم فى الواقع منذ بداية أزمة السويس حتى

---

(١) كتاب «أزمة الشرق الأوسط» لونيت وكالفاكوريزى •• اذ يقول المؤلفان •• «مازال المدى الذى استشارت فيه أمريكا حليفتها بريطانيــا فى موضوع شكوكها وحقيقة الخطوات التى اتخذتها بريطانيا لتوســـيع هذه المشاورات من الاسرار الغامضة التى أحاطت بالازمة !! ويؤكد دروسكو دراموند وجاستون كوبلفيز فى كتابهما «نحو الشفير» ان دالاس قد تلقى تأييدا كاملا من ايدن •

بلوغها الأوج من العنف ، زعما باطلا ان الفرصة لم تتح له للتشاور مع
الولايات المتحدة ؟

يصعب على المرء ألا يثير هذه الأسئلة الهائلة ، التى قد تنطوى على
ضرورة اعادة النظر كليا وبصورة جذرية فى جميع الاصول المتعلقة بأزمة
السويس ، ولكن لنكتف فى هذه المرحلة من البحث بالحفاظ على هذه
الشكوك قائمة بكل ما فيها من مغاز ومعان ، وأرى لزاما علينا أن نتقدم
مرحلة أخرى ، قبل الرجوع الى تلك الأسئلة فى الكشف عن « الأسرار
الاساسية لقضية السويس» وأرى لزاما علينا أيضا أن نتوقف لنستعرض
تاريخ الشرق الأوسط بكامله ، فى المدة التى سبقت بكثير السادس
والعشرين من يوليو .

❊❊❊

وراح الكثيرون يتحدثون عن نتائج هذه «الضربة» التى وجهها
الغرب الى الرئيس عبد الناصر ، ويتوقعون تطورات خطيرة ، فلقد كان عدد
كبير من العرب ، يعتقدون على الرغم من غضبهم لهذا العمل من الغرب ،
وقد تأثروا بذكريات العهد البائد ، أن ليس فى وسع أى زعيم عربى ،
حتى ولو كان عبد الناصر بشعبيته الهائلة أن يصمد لمثل هذه الضربة
القوية ، المتعمدة من جانب الدولتين الغربيتين الكبيرتين(١) لقدكانت ضربة
من الضربات التى كثيراماأطاحت بالحكومات فى الوطن العربى اما بالاستقالة
المصحوبة بالخجل ، أو بالضغط الطاغى من الدولة الغربية المتحكمة ..
وشعر العرب فى العشرين من تموز (يوليو) فى كل مكان ، ان كل ماحققوه
منذ عام ١٩٥٢ فى طريق الدفاع عن الذات ضد الدول العظمى وان كل
ما مثله لهم الرئيس عبد الناصر من معانى الكرامة والتحدى للاستعمار ،
قد بات معرضا للخطر ، واختلطت صيحات الغضب والنقمة فى كل مكان
بشىء من الاذعان والتسليم بأن هذا هو ديدن الغرب منذ القدم .

وكانت هناك مفارقة غريبة فى هذا الارتكاس العربى العام للموقف
الجديد وهى مفارقة التفكير تماما فى حدود ما يفكر به الساسة الغربيون
أى الاذعان والتسليم بالمواقف التى كيفت السياسة الغربية ولا سيما
البريطانية منها فىالوطن العربى وسيرتها مدةطويلة ، وأرى أن هذهالنقطة
مهمة كل الأهمية اذا أردنا أن نفهم ما عنته الأيام التالية لا بالنسبة الى

---

(١) لم تكن هذه المخاوف التى أعرب عنها المؤلف ، والتى لا شك
فى وجودها آنذاك ، قائمة عند أبناء الجيل العربى الصاعد المؤمن بقيادة
الرئيس عبد الناصر ، وانما كانت ماثلة فى خواطر أبناء الجيل القديم ،
الذى ألف تحكم المستعمر وسيطرته ، أو بعض أبناء الجيل المخضرم الذين
لم يكونوا من صلابة الايمان «بالشخصية العربية المستقلة» فى درجة
تمكنهم من استبعاد هذه المخاوف والايمان بقدرة الجيل العربى الجديد
الذى يمثل الرئيس عبد الناصر طليعته القيادية على تحدى الغرب
والوقوف منه الموقف الصحيح الذى تمليه الكرامة القومية .

المعرب

تاريخ العلاقات العربية الغربية فحسب ، وهى أيام تؤلف نقطة حاسمة
لاردة عنها ، بل بالنسبة الى ماكان يسيطر على جماهير العرب من أمزجة
وآراء .

وقد غضب الرجل الذى تركز عليه الاهتمام فى الأيام القليلة التى
تلت التاسع عشر من يوليو (تموز) ورفاقه غضبا شديدا ولا سيما بعد أن
تواترت التقارير اليه عن حقيقة ما كان يفكر به دالاس ، ولكن رد فعل
عبد الناصر والاتجاه الذى سارت فيه أفكاره ، كانا متوقعين كل التوقع
عند كل من عرف مصر والتاريخ المصرى بحيث يمكن اعتبارهما انعكاسا
فهو وحكومته جادان كل الجديه فى موضوع السد العالى ، وهما يريان
أن من الواجب أن يبنى بأى شكل من الأشكال، هذا اذا أرادت مصرالخلاص
من هذه الدائرة الشريرة من الفقر وتزايد السكان الى حد التفجر ، واتجه
التفكير الى الناحية التى يمكن العثور على المال فيها ولا سيما من النقد
الأجنبى اللازم لتمويل المشروع . هذا مجرد اعتبار ولكنه لم يكن الاعتبار
الأوحد .

وأحس عبد الناصر ، أن حكومته قد أهينت اهانة متعمدة ، مباشرة
وعلى نطاق عالمى ، ولكن الاهانة لم تكن موجهة الى الحكومة فحسب بل
الى مصر كلها ، والى شعبها بل الى كل شعب كشعبها يتعرض للضغط
والاهانة بشكل لايطاق ولا يحتمل ، وراح يفكر .. ترى كيف يجب أن
يكون رده على هذه الاهانة ؟ وكيف يمكن له أن يبرهن على أن العصر الذى
كان يتقبل مثل هذا الضغط قد ولى وانقضى الى غير رجعة ؟ وكيف يستطيع
أن يبصر العرب والدول الكبرى بهذه الحقيقة ؟ سأعود فى فصل لاحق
الى التحدث عن تفكير الرئيس عبد الناصر ورفاقه ، وأمزجتهم العاطفية
بشكل أكثر استفاضة ، ولكننى أرى أن أكتفى هنا بالقول بأن هذه
الأفكار كانت تطغى على الرئيس وهو يهبط من طائرته عائدا الى القاهرة
من بريونى ليواجه بهذه الخيالات الغاضبة عن السد العالى .

كان سحب القرض بالنسبة الى مصر ، صورة تعكس أوضاع مصر
فى تاريخها طيلة المائة سنة الماضية ، كما كان يتعلق بنهر النيل ، مصدر
الحياة لها ، ومحور قلقها واهتمامها ألوف السنين ، ولقد عاشت مصر منذ
عام ١٩٥٠ ، أى منذ بدأت المفاوضات لشق قناة السويس ، تحت وطأة
الضغط المالى الاجنبى ولا سيما عن طريق القروض التى تهدف الى تمويل
المشاريع العامة الرئيسية ، وقد جاء احتلال مصر نفسه فى عام ١٨٨٢
ثمرة هذه التورطات المالية ، وتم تنفيذ الاحتلال عن طريق قناة السويس
وقد انتهى هذا الاحتلال قبل شهرين ، اذ غادر آخر جندى بريطانى منطقة
القناة ، واتجه تفكير القاهرة الرسمى الى قناة السويس فورا فى تلك
الساعات الغاضبة التى تلت التاسع عشر من يوليو ، تماما كما يتجه
تفكير البريطانيين حتما الى وستمنستر ولندن ونهر التيمز والقناة
الانجليزية عندما تتراءى أمامهم صورة بريطانيا .

وقد طالب الوطنيون المصريون منذ سنوات طويلة حتى قبل أن يولد

الرئيس عبد الناصر، بعودة شركة قناة السويس الى مصر(١) وكانت القناة تمثل منذ حقب طويلة للمصريين رمزا بارزا للضغط الخارجى والاستغلال المالى والاقتصادى ، وكانت الحقائق المتعلقة بهـا بمثابة « أوراد صوفية » تتكرر على ألسنة المصريين من أبناء جيل عبد الناصر ، وكانت مصر قـد ساهمت بنحو من نصف رأس المال الاصلى وتكاليف شق القناة على صورة أسهم وعمل مجانى وتسهيلات ، ووقعت الخزانة المصرية نتيجة ذلك تحت أعباء ديون للمصارف الاوربية تستوفى (١٢) فى المائة كفائدة سنوية على المبالغ الاسمية التى أقرضتها لمصر والتى لم تدفع لها فى الحقيقة الا ثلاثة أرباعها أى مجرد سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات من مجمـوع عشرة ملايين تستوفى عليها كلها فائدة سنوية قدرها (١٢) فى المـائة . وكانت مسئولية حكام مصر عن هذا الابتزاز وامتصاص الدماء ، لاتقل من ناحية استخذائهم عن مسئولية أرباب المصارف من الاوروبيين الذين كانوا يوالون الضجيج والصراخ فى لندن وباريس مطالبين بفوائد أموالهم . ولقد كان الضعف الداخلى فى مصر ، ومسئولية الحاكمين عنه ، فى رأى أبناء حقبة الخمسين ، هما السببان اللذان أديا الى ثورة عام ١٩٥٢ ولكن الذكريات الخارجية لم تنته بقيام الثورة ، بل ظلت قائمة كرمز واضح ، ولقد دون حجة بريطانى فى الموضوع ما يلى :

« لقد أرغمت مصر على الاسـهام اسهاما ضـخما فى منح هـذا الامتياز وفى الأعمال الانشائية التى جرت لشق القناة ، دون أن يسمح لها بحصة فى المشروع ، ولا ريب فى أن ما عاناه فلاحو مصر من أعمـال السخرة ابان شق القناة ، ومن ابتزاز الاموال منهم فيما بعد لدفع الفوائد على ديون القناة ، تؤلف دينا معنويا فى عنق أوربا لمصر ، لم نسمع أحدا يتحدث عنه فيما بعد » (٢) .

ومكن تدهور مصر المالى وسيرها فى طريق الافلاس دزرائيلى فى عام ١٨٧٥ من شراء حصة مصر البالغة (٤٤) فى المائة من أسهم شركة القناة بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ، مع أن قيمتها الاسمية الأصلية وحدها كانت نحوا من (١٦) مليونا . ومنذ ذلك التـاريخ لم يعد من حق مصر قانونا أو ماليا أن تأخذ أية حصة من أرباح الشركة التى أدى ازدهارهـا الى تحولها الى مصدر من أكبر مصادر جنى الأرباح فى الميدان المـالى العالمى ، اذ بلغت أرباحها فى عام ١٩٥٦ نحـوا من عشرين مليونا من الجنيهات فى السنة ، وقد طبق مديرو الشركة وبينهم الحكومة البريطانية التى تسيطر على حصة مصر السابقة من أسهم الشركة ، نص مرسـوم تسجيل الشركة تطبيقا ينطوى على أكثر عمليات الاستغلال قسوة فى القرن العشرين للصفقات المالية التى عقدت بطريق القسر فى القرن التاسع عشر وتظل هناك حقيقة ماثلة وان صعب تصديقها ، وهى أن مصر ظلت حتى

---

(١) كانت هذه المطالبة موجودة منذ احتل البريطانيون مصر عام ١٨٨٢ ، ولكنها بلغت ذروتها فى عـامى ١٩٠٩ و ١٩١٠ عندما اقترحت الشركة اطالة أمد امتيازها الى مابعد عام ١٩٦٨ . المؤلف

(٢) كتاب السير جورج يونج «مصر» ـ لندن ١٩٢٧

عام ١٩٣٧ ، لاتتلقى أى دخل مهما كان ضئيلا من عبور السفن لأراضيها ولم يقتصر وضعها على رؤية هذا الدخل العظيم ينساب الى الخـارج عاما بعد عام فحسب ، بل كانت تجد أن بواخرها التى تحمل العلم المصرى ترغم على دفع رسوم المرور فى أرض مصرية الى شركة يملكها الاجانب .

ولم تفكر الشركة باصلاح هذا الوضع الشاذ الا بعـد عام ١٩٣٧ وبعد ضغط شديد تعرضت له . وسمح لمصر بموجب اتفاق عام ١٩٤٩ الذى سبق نهاية الشركة ، بأن تتقاضى سبعة فى المائة من دخل الشركة السنوى . واعتبرت الشركة هذه النسبة ضخمة للغاية . ولكن لايحتاج المرء الى أن يكون مصريا ليدرك مدى شعور المصريين تجاهه . وقد نشأ الرجال من أمثال عبد الناصر فى بلاد كان رجال المال الاجانب القابعون فى أجنحتهم الخاصة فى فندق شبرد الاسطورى فى القاهرة ، والى جانبهم أزرار ثلاثة يستدعون بواسطتها الناس لخدمتهـم ، لايتورعون عن ابداء مثل هذه الاشارات من المن على مصر ، بحقوقها . ولم يكن هؤلاء الناس الذين يهرعون لخدمة هؤلاء الماليين والذين يطلق عليهم الاجـانب اسم « أبناء البلد » زراية واستهانة ، الا أبنـاء الشعب الذى يمت اليـه عبد الناصر .

وقد طافت جميع هذه الذكريات فى مخيلة الرئيس فى العشرين من تموز (يوليو) عندما أثارها هذا العمل الذى قام به الفرب والذى لا مثيل له ولا سـابقة فى العلاقات الدوليـة . وعلى الرغم من أن هـذه الذكريات مؤلمة للكثيرين من أصحاب الاحاسيس الوطنية القوية . الا أن من الضرورى أن نحاول التسلل الى عقول العرب لنفهم ردود الفعل التى استثارتها الأنباء التى أعلنها الرئيس بعد ستة أيام . وعندما تحدث الرئيس من على نفس المنبر الذى جرت محاولة اغتياله الفاشـلة عليه قبل عامين ، أثار دهشة واعجاب جميع الناس حتى خصومه من الاخوان المسلمين والشيوعيين . ولم يكن فى وسع أى مصرى ، مهما كان اتجاهه فى تلك اللحظة الا أن يعجب بشجاعة هذا القائد وجـرأته ، وأن يرفع رأسه عاليا معتزا بكرامته . وكان قراره بتأميم شركة قناة السويس ، مصريا فى صميمه ، متأصل الجـذور فى تاريخ بلاده . مثيرا لدهشـة مواطنيه لا بالنسبة الى القرار نفسه بل بالنسـبة الى هـذه الشجاعة العظيمة التى تمثلت فى جرأته .

وأنصتت جماهير المثقفين ، التى استفزها سحب الغرب لعروضه الى القرار والدهشة تغلبها ، وعندما تمثلت أمامهم جميع المعانى التى ينطوى عليها قرار الرئيس ، لم يستطيعوا أن يكبتوا ابتسامة لاحت على وجوههم ، وهـزة تحركت بها رءوسـهم وكان لسان حالهم يقول ... « هذا الرجل . لاندرى كيف فعل مافعل ، ولكنه فعل حقا مالم يستطع أن يفعله أى رجل من قبل » . وعندما تبين بعد أسبوع ، مافى ردالفعل الغربى على القرار من عنف ينذر بالخطر . لم يستطع حتى أولئك الذين تحولوا الى النقد ، اخفاء مشاعرهم ، بالاعتزاز بهذه الخطوة التى اعتبرت نقطة تحول فى تاريخهم .

وتفجرت مصر كلها بحماسة منقطعة النظير تأيـدا لعبد الناصر

الذى لم يكن قد سبق له أن تغلغل بمثل هذه القوة من قبل الى نفوسهم وشغاف قلوبهم اذ (جلفن) galvanized أرواحهم (الجلفنة تعنى المعالجة بالكهرباء الكيماوية) واستفز مثل الكهرباء الكبرياء التى طالما حنوا الى التعبير عنها بقامات منتصبة . وقد لا يكون من الغلو فى شيء ان استخدم مثل هذه العبارات لأشرح هذه اللحظة التاريخية حقا ، فى بلاد عريقة جثم عليها الشقاء طويلا ، وألفت من الغرب تعبيرات الزراية والامتهان . ومن التضليل كل التضليل ، بما فيه من اخطار ، أن يقال ان هذه الاستجابة العامة والعارمة لخطاب التأميم ، كانت مجرد ثمول ولدته العواطف الدهمائية أو نزعات الكره للأجنبى . فلقد مست الدول الغربية ، عن جهل أو عن سابق تعمد واصرار ، كل مافى مصر من أعصاب حساسة ، كالفقر والنبل والحياد والضغط المالى . وقد حدث كثيرا من قبل ، وطيلة حقب طويلة ، أن مصر لم تكن تتوقع أن تخرج من هذا الوضع من تحمل الاذى والاذلال .

وكشف القائد الغاضب فى الوقت نفسه عن مدى « تجاهله » لما يتركه التعبير عن احساسات بلاده ، وعن قوة الكبرياء الضخمة التى تسيطر عليها ، وذكرياتها التاريخية ، والخوف « المجلفن » من بريطانيا وفرنسا على الرأى العام الغربى . ولم يكن خطاب عبد الناصر بالطبع مرضيا لمسامع الغرب ، وكانت اللحظة التى ألقى فيها هذا الخطاب من تلك اللحظات التاريخية التى يعمل فيها ويفكر ويتحدث كمصرى صميم من أبناء ريف مصر لا كرئيس لجمهورية بلاد لها مركزها السوقى (الاستراتيجى) المهم ألفت سلطاتها الماضية أن تضع بريطانيا وفرنسا نصب أعينها ، وهى تتحدث علنا الى جماهير شعبها . وبدأ الضابط المتواضع الخجول ، ذو الثمانية والثلاثين عاما يكتشف وهو فى منتصف خطابه ، الطريقة الصحيحة التى يجب أن يتحدث بها من على منبره الى شعبه هو لا الى الآخرين . وهكذا عندما وصل الى هذه المرحلة من تفكيره ، اختفى من أمامه ، كل مايقع وراء المنطقة العربية التى يهمه أمرها وحده . حقا لقد كانت ليلة العرب وحدهم من ميدان محمد على فى الاسكندرية الى بغداد شرقا وتطوان غربا .

ولكن العالم سيقرأ خطابه ، ولن يكتفى بقراءة نبأ التأميم ، بل سيطلع على اللهجة التى صيغ فيها الخطاب . وكان قد شرع قبل يومين بشن حملة يضمنها غضبه العارم ، وعندما ألقى خطابا ضمنه آية قرآنية كريمة أشار فيها الى الامريكان قائلا : « قل موتوا بغيظكم » . واستغل رجال الصحافة الغربية هذه الاشارة ، فأبرقوا بها الى صحفهم فى الغرب لتصدر الصحف الامريكية وقد حملت صفحاتها الاولى عناوين ضخمة تقول ان عبد الناصر يريد من الامريكان أن يموتوا غيظا . وكان هذا هو المعنى الحرفى للآية القرآنية ، ولكن الترجمة الحرفية فى أيام الازمات كثيرا ماتكون مدعاة الى الخطر المرعب ، ولا ريب أن ماعنته الآية ، لسامعيه من الناس هو أنه « لايهتم اذا كانوا يتواثبون من الغيظ فهو عازم على المضى فيما قرره » ولكن الترجمة التى تتجاهل جميع الفروق فى علم المعانى هى التى جعلت الصحف الغربية تضع هذه العناوين الضخمة التى طالعها القراء الغربيون .

ويبدو أن هذا التطور كان حتميا ، هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار كل ماوقع بعد عام ١٩٥٤ ، وكل ماسبق ذلك التاريخ من جذور تاريخية . وكانت كرة الثلج من التوتر المتبادل التى شرحناها فيما مضى على انها رمز لسوء التفاهم بين العرب والغرب ، وما يحدثه سوء الاعلام من فروق وخلافات ، قد وصلت كلها الى درجة طاغية ولايمكن اصلاحها . وكما أثارت اللغة التى استخدمها دالاس فى بيانه بسحب العروض غضب القاهرة وسخطها مما أدى الى القيام بذلك العمل الانفعالى الخطير خلقت اللغة التى لجأ اليها عبد الناصر فى خطابه تيارا عنيفا من السخط فى الغرب وقد وجد هناك فى جميع أرجاء الغرب ، ولاسيما فى بريطانيا بصفة خاصة ، جماعة من الاحرار ، كانوا يرون الوقوف منذ البداية ، لولا اللهجة التى استخدمها عبد الناصر فى خطابه الذى أعلن تأميم شركة القناة ، موقف الحذر من المحاولات الكثيرة التى جرت لاستغلال العمل الذى قام به . وكان هؤلاء الاحرار ، قد بدأوا بعد وقت قصير يفكرون تفكيرا متزنا ويحللون ماقام به الرئيس عبد الناصر ، ومدى مافى عمله من خطورة أولا خطورة . وقد يكون المستر جيتسكيل الزعيم العمالى المثل البارز لهؤلاء الاحرار ، اذ استفاق بعد الكثير من النصائح من الهزة الاولى التى جعلته يشبه التأميم بمؤتمر ميونيخ فى عهد هتلر ، وعاد يتحدث بحرص عن النتائج المهمة العميقة المنتظرة .

ولكن كانت هناك جذور تاريخية نائمة ، ولم تكن فى حاجة الا الى من يوقظها . لتستفيق من سباتها . وهى مجموعة من القوى التاريخية التى سيطرت على الرأى العام ، كالتشنج العنيف والمرارات الناجمة عن العهود الاستعمارية السابقة فى مصر ، والشعور الفريزى بكره المصريين عند الملايين من الناس العاديين ، الذين لم تحاول السلطات الرسمية فى الغرب التحدث الى طبائعهم العاقلة . وانى لا أظن مطلقا أن هذه القوة السلبية فى بريطانيا كانت حديثة فى أصولها كما يستدل من آية قراءة سطحية للتاريخ ، فلقد كانت ترجيعا لما سبق أن أعلنه اللورد شيلبورن فى عام ١٧٧٨ اذ قال :

« منذ اللحظة التى وافقت فيها حكومتنا على اعلان استقلال أمريكا بدأت شمس بريطانيا العظمى فى المغيب ، ولن تظل بلادنا بعد اليوم بلادا قوية ، محترمة » (١)

ولقد كان ثمة صراع دائم ، متحرك ، عميق فى بريطانيا بين الاحرار الذين ينشدون مفاهيم مختلفة عن العظمة وبين المحافظين الذين كانوا يقيسون العظمة والقوة بالمقاييس التى حددها شيلبورن فى تعبيراته . ولقد ظهرت الآن تجاه عبد الناصر ومصر والحركة التى يمثلانها نفس اللهجة الغاضبة من التعليقات العامة ، التى اتخذها البريطانيون فيما مضى وقبل ظهور الامبراطورية العظمى الثانية فى القرن التاسع عشر من أمريكا الفتية والمصممة على الحفاظ على استقلالها أشد التصميم ، والتى صورت على النحو التالى :

---

(١) تاريخ انكلترا البرلمانى المجلد (١٩) لندن ١٧٧٨ .

« لقد سلكنا مع أمريكا سلوكا ينطوى على صبر لامثيل له ، ولكن هذا الصبر ، قد خلق حماقات بات لزاما علينا أن نعاقبها » (١) .

ولم يكن الشعور على طرفى القناة الانكليزية ـ أى فى انكلترا وفرنسا ناجما عن مجرد الغل والحقد . فلقد كانت مفاهيم شيلبورن ومخاوفه التى ظهرت الآن فى أقوى مظاهرها ناجمة قبل كل شىء عن شعور أصيل بأن واجب مصر كان يحتم عليها أن تقف موقف « المعترف بالجميل » تجاه كل مافعلته بريطانيا مع مصر طيلة الاحقاب العديدةالتى تلت عام ١٨٨٢ ، وتجاه موافقتها اخيرا على الجلاء عن مصر فى عام ١٩٥٤ وقد أنهى الاخوان برومبرغر اللذان يعملان كمراسلين صحفيين كتابهما عن السويس بفقرة تكشف الكثير من حقيقة الموقف الفرنسى ، وهذه هى :

« سيأتى اليوم الذى يتحتم فيه على مصر أن تجرى حسابات جديدة . وقد يبدو لها آنذاك اناستعمار فرنسا لم يكن باهظ التكاليف فلقد أقمنا فيها ممرا مائيا شق الصحراء وجعل منها دولة عظيمة . وقد حفرنا لها قنواتها ، وعلمنا طلابها ، وتولت راهباتنا رعاية مرضاها فلماذا تؤدى كل هذه الخدمات التى قدمناها الى أن ينفث المصريون حقدهم علينا فى افريقية الشمالية » (٢) .

ولقد كانت هناك فى هذا الموضوع ، أى موضوع الحوار التقليدى بين الاستعمار والوطنيين ، فترات أخرى فى ردود الفعل تختلف عما حدث فىالسويس . ولعل الثورة التى وقعت فى دبلن فىعام ١٩١٦ والتى غطتها أحداث الحرب العامة التى كانت دائرة آنذاك ، والاضخم صورة ووجودا تعتبر احدى هذه الامثلة ، وكانت ثورة غاندى الصريحة التى تمثلت فى قرار « اخرجوا من الهند » لعام ١٩٤٢ ، مثلا آخر . ولكن أزمة السويس تظل متفوقة عليها فى ضخامتها على أى حال ، لانها من الناحية الاولى شملت أكثر من دولة واحدة بصورة مكشوفة ، ولانها انطوت على أكثر من قوة واحدة للعواطف ووجهات النظر . فلقد شملت أزمة السويس كلا من بريطانيا وفرنسا كما شملت مجالات الحرب الباردة والالتزامات العميقة التى التزم بها عدد من الشعوب تجاه فلسطين والصهيونية فى جميع أرجاء العالم والتى كان من بينها التزام حزب العمال البريطانى . وقد انطوت أزمة السويس أيضا على اثارة المخاوف المهتاجة لكل حكومة من حكومات العالم ، تعتمد تجارتها الى حد ما على القناة .

ولا ريب فى أن هذا الجو من المسوغات المتعددة الذى سيطر على بريطانيا وفرنسا ، والذى لم تكبح جماحه القيود العادية التى تفرض على الرأى العام الدولى ، هو الذى اتاح لهاتين الدولتين استخدام خطاب السادس والعشرين من يوليو لغايات تتجاوز حدود كل توافق مع

---

(١) مجلة (كورير) اللندنية عام ١٨١١ فى معرض الرد على بيان الرئيس الامريكى جيفرسون بوجوب خروج السفن البريطانية من مياه أمريكا ـ المؤلف ـ

(٢) كتاب أسرار السويس لمؤلفيه الفرنسيين ا م ـ واس . برومبرغر نيويورك ١٩٥٧ .

ما أوحى به خطاب الرئيس عبد الناصر ، بل لايرتبط به بأى حال من الاحوال . ولاريب فى أن هذا الجو نفسه هو الذى اتاح الفرصة لاخفاء كل الحقائق الواقعة المتعلقة بقصة السويس أو ما يمكن أن ندعوه بخفايا السويس وأسرارها . ولم تقف أضخم فضيحة فى التاريخ البريطانى مدة طويلة على قدميها ، اذ أعيد الى كرسى الحكم فى البلاد اثر انتخابات عام ١٩٥٩ ، التى كانت بمثابة محكمة للرأى العام ، اعضاء حكومةالسير انطونى ايدن . وأحس ايدن بهذا القرار الذى أصدره الرأى العام ، فاستخدم أوراق الدولة فى اصدار الصورة التى أرادها عما وقع . ولهذا من الاهمية بمكان عظيم أن نحاول درس القصة بكاملها وبجميع مافيها من تفصيلات . ولقد عثرنا حتى الآن على احدى نقاط الضعف الضخمة فى بنيان القصة التى رواها ايدن كشهادة على ماوقع ، وهو ضعف يتعلق بكل ما للازمة من جذور وأصول . وليس ثمة من شك فى وجود عدد كبير آخر من أوجه الضعف فى هذه القصة أيضا .

والآن كيف سنسير فى تفحص هذه القصة ؟ وما الذى نريد أن نقرره أو نصل اليه ؟ لعل من خصائص أية دراسة جدية لقصة السويس أنه كلما أوغل المرء متعمقا فيها ، كلما اتضحت له دلائل جديدة ولا سيما فى مذكرات ايدن نفسها ، على صعوبة العثور على نقطة البداية سواء من الناحية الزمنية أو من ناحية الاتجاه . وعلينا أن ندرس موضوع التواطؤ بين انكلترا وفرنسا واسرائيل فى حرب السويس . وعلينا أن نقرر أيضا ، وفى حكم الواقع ، أن هدف بريطانيا وفرنسا والعراق كان منذ بداية الازمة ، الاطاحة بالرئيس عبد الناصر ، وعلينا أن ندرس دراسة دقيقة مدى ما فى القصة الاسرائيلية المعروفة من أن قرارها بمهاجمة سيناء قد اتخذ فى حالة سريعة طارئة وفى أواخر شهر أكتوبر من تضليل .

بيد أنه لايمكن تحليل هذه القضايا الثلاث الواسعة وحدها ، على ضوء ماوقع فى الفترة بين السادس والعشرين من يوليو والتاسع والعشرين من أكتوبر أى عندما بدأ الهجوم الاسرائيلى . فهناك أدلة جذرية كبيرة ، تعود فى زمنها الى ما قبل السادس والعشرين من يوليو فهل كان القصد فى ذلك التاريخ وقبله الاطاحة بعبد الناصر ؟ وهل كانت اسرائيل تعتزم الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء ؟ وهل كان ايدن قد اتفق منذ مدة مع نورى السعيد على اعادة تنظيم الصورة فى الشرق الاوسط كله ؟ وأين تقف قصة السد العالى من جميع هذه الخطط والقضايا ؟ .

علينا أن ندقق البحث فى جميع الادلة التى تثبت هذه القضايا أو تنفيها ، قبل أن نستطيع التعمق فى درس آخر فى غوامض السويس وسيناء وأكثرها خداعا وغموضا ، وهى مسألة التواطؤ بين الدول الثلاث فى عدوانها وكشف الاسرار المتعلقة بالحرب الثلاثية نفسها .

وهل كانت هنالك حقا أربع طرق تؤدى الى السويس ؟ وهل كانت ثمة أربعة اتجاهات سياسية تطرد فى نموها المستمر فرادى أو متحالفة أو متفقة فى الهدف بين حكومات فرنسا واسرائيل وبريطانيا والعراق ؟ وكل ذلك قبل السادس والعشرين من يوليو ؟ وهل هنالك حقا حقائق تختفى وراء الاحداث التى كنا نتابعها فى الصفحات السابقة ؟ .

- ٩ -

أربع طرق إلى السويس

« كان نورى السعيد يرى الوقائع السياسية بوضوح . فلقد أكد أن أى عمل ضد الاردن لن يصل الى جذور المشكلة الاساسية التى تكمن فى مصر » .

مذكرات ايدن ـ بتاريخ السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٦

* *

« لم أحاول قط اخفاء الحقيقة الواقعة وهى أن موقف حكومة عبد الناصر . سيترك آثاره فى شمال افريقية »

موليه فى سبتمبر ١٩٥٦ . فى مؤتمره الصحفى فى لندن

* *

« تختار سوقية (استراتيجية) الحرب أحيانا الوسائل السياسية لايجاد الظروف المواتية لاتخاذ قرار تعبوى (تكتيكى) ، لنوفر بذلك الكثير من التعب والدماء .

من حديث ليادين للمعلق العسكرى ليدل هارت

* *

ترى ما المواقف والاتجاهات السياسية والاهداف التى كانت لبريطانيا والعراق وفرنسا واسرائيل عندما بدا شهر يوليو القدرى فى عام ١٩٥٦ ؟ أرى لزاما علينا أن نبدأ فى بحث مايتعلق بفرنسا من هذه الاسئلة . . .

فرنسا :

كان شهر مارس من عام ١٩٥٦ ، شهرا تاريخيا بالنسبة الى الجمهورية الرابعة . فلقد فقدت فرنسا فى ذلك التاريخ كلا من تونس والمغرب اللذين حصلا على استقلالهما . وازدادت أهمية الجزائر لها ، وما يتعلق بهذه الاهمية من ضرورة تصفية الثورة الوطنية فيها ، لاسيما وقد كانت فكرة احتمال خسارة فرنسا لهذا البلد الاخير فى افريقية الشمالية تثير غضب الفرنسيين وسخطهم ، ولقد ظل مخططو السياسة الفرنسية طيلة السنوات الثلاثين الماضية . أو مايربو عليها ، يرون أوثق الاتصال والترابط قائما بين الشمال الافريقى والشرق الاوسط ، اذ ظل هذا الشرق دائما مصدرا خطرا من مصادر الايحاء للحركات الوطنية العربية فى الشمال الافريقى . وها قد ظهر فى القاهرة الآن قائد

يتمتع بشعبية عظيمة واسعة يتولى دعم الثورة الجزائرية ومساندتها جهارا وعلانية . وتحول الغضب الذى يغلى فى نفوس الدوائر السياسية الفرنسية والجيش على الاخص الى ايمان واضح بأن الاطاحة بعبد الناصر هى المفتاح الحقيقى لبقاء الجزائر فرنسية كما يريد الاستعمار الفرنسى

وكانت لفرنسا حتى عام ١٩٤٦ ، مواطىء قدم سياسية - عسكرية فى الشرق الاوسط - أى فى سورية ولبنان - تعمل منها على محاولة الحيلولة دون تسرب الايحاء الوطنى الخطر الى الشمال الافريقى . ولكن هذه القواعد ضاعت الآن ، وان كانت قد حلت محلها أداة جديدة محتملة وهى اسرائيل ، لا يقل قادتها تلهفا عن تلهف فرنسا على التقليل من شأن عبد الناصر والاطاحة به وبحكمه . ولم يكن لفرنسا فى الشرق الاوسط العربى من المصالح الضخمة مايحول بينها وبين العمل على اقامة تحالف عسكرى مكشوف وصريح مع اسرائيل . فاذا أضفنا الى هذه الحقيقة الواقعة ، حقائق أخرى بينها أوجه الشبه القائمة بين المهاجرين اليهود الى فلسطين والمستوطنين الفرنسيين فى الجزائر واعجاب اليسار الفرنسى بالتطورات الاشتراكية فى اسرائيل ، واعجاب العسكريين الاسرائيليين بالعسكرية الفرنسية وخططها وأساليبها ، توافرت أمامنا الحوافز الجديدة التى أدت الى تحول الارتباطات الودية بينهما الى حلف عسكرى تمت اقامته فى عام ١٩٥٦ .

وهناك فى الحقيقة أدلة قوية للغاية على أن العلاقات الفرنسية - الاسرائيلية ، كانت على صعيد شحنات الاسلحة المتفق عليها سرا ، والمنكرة علنا ، قوية وحارة منذ عام ١٩٥٥ . ولقد دونا فى فصل سابق ما وجهه الرئيس عبد الناصر من اتهامات عن وجود مثل هذه الصفقات ، كما دونا محاولات فرنسا واسرائيل نفيها وانكارها ، وما تبع ذلك من تأييد غريب لها ، بسيل طائرات « الميستير » النفاثة الذى بدأ فى التدفق على اسرائيل منذ ابريل عام ١٩٥٦ . وتشير الحقائق الى أن اسرائيل بدأت بطلب شحنات (الميستير رقم ٢) منذ شهر نوفمبر عام ١٩٥٤ ، ولكن موظفى وزارة الدفاع الفرنسية ظلوا ينكرون وجود هذه الطلبات حتى بعد انقضاء عام كامل على تقديمها ، ثم واصلوا الانكار والنفى حتى ابريل من عام ١٩٥٦ . وقد دونا فى فصل سابق كيف ان الاسلحة الفرنسية التى استخدمها الاسرائيليون فى معركة سيناء فى عام ١٩٥٦ قد تطابقت من ناحية الكيفية والكمية مع أقوال الرئيس عبد الناصر فى أواخر عام ١٩٥٥ عن وجود صفقة ضخمة للتسلح بين فرنسا واسرائيل وهى أقوال واصل الفرنسيون والاسرائيليون نفيها كذبا ونفاقا حتى ابريل عام ١٩٥٦ .

وكان فى الامكان فى عهد الجمهورية الفرنسية الرابعة ، حيث كان لضباط الجيش ولساسة الجناح اليمينى الواقعين تحت سيطرة الرغبة فى الحفاظ على الجزائر نفوذ أضخم بكثير مما يبدو حتى لرئيس الوزارة موليه أحيانا ، أن يعقد اتفاق سرى مع اسرائيل لتزويدها بالسلاح حتى دون وجود تحالف رسمى بينهما يربطهما كدولتين . ولكن سرد الاعمال التى قامت بها فرنسا فى الشرق الاوسط بين شهرى مارس ويوليو من عام ١٩٥٦ يوضح ، حتى ولو كان مغتصبا كل الاغتصاب . وجود رباط

يشبه الحلف بين الفريقين ، أو يدل بوضوح على وجود اصرار فرنسى من جانب واحد أى منفرد عن الدول الغربية الاخرى ، على الاطاحة بعبد الناصر .

ولقد استدعى موليه فى السادس من مارس (آذار) السفير المصرى لمقابلته . وقابله مقابلة جافة تميزت بطابع الحديث عما يلقاه ثوار الجزائر من عون مصر ومساعدتها . وسرعان ما أعلن فى نفس اليوم فى باريس أن اسرائيل قد أوصت على شحنات من الاسلحة المضادة للدبابات من المصانع الفرنسية .

وأعلن المسيو جاك سوستيل فى التاسع من مارس ، وكان آنذاك حاكما عاما فى الجزائر أن السلطات الفرنسية هناك قد عثرت على وثيقة من وثائق الثورة الجزائرية ، تقيم الدليل على أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يساند جبهة التحرير الجزائرية ويدعمها فحسب بل كان على حد زعمه يدبر من القاهرة دفة الحرب التى تخوضها الجبهة ، وقد ارتكز هذا الاتهام الزائف الكاذب ، الذى ترك أثرا بالغا على تشويه فى ترجمة وثيقة عربية . وهو تشويه لا يمكن أن يكون عارضا وغير متعمد وقد اتضح هذا التشويه عندما ارتكب سوستيل خطأ فاحشا بنشر صورة فوتوغرافية للوثيقة فى مجلة «حب الجزائر وآلامها» التى تصدر بالفرنسية .

وأجرى ايدن فى الثانى عشر من مارس محادثات مع موليه فى تشيكرز ، وراح الأخير يعلن للصحفيين بعد انتهاء المباحثات أن بريطانيا وفرنسا ، وكذلك الولايات المتحدة على مايعتقد ، ستتفاهم قبل انقضاء وقت طويل على أن من واجبها أن تتخذ موقفا موحدا من العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، ترى ما هو هذا الموقف الموحد ؟! جدير بنا أن نذكر أن محادثات ايدن - موليه قد وقعت بعد عشرة أيام فقط من الهزة التى أصابت داوننج ستريت فى الصميم من جراء طرد جلوب من الاردن .

وقام وزير خارجية فرنسا بزيارة القاهرة حيث اجتمع الى الرئيس عبد الناصر فى الرابع عشر من مارس ، وكان بينو قد حاول أن يقنع الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان) بأن مما يجفو الحكمة اتباع سياسة معادية لعبد الناصر ، وراح يقترح الآن على الرئيس المصرى ، أن تواصل فرنسا سياستها فى عدم الاكتراث بحلف بغداد ، وأن تنأى عن محاولات الضغط التى تحاول الدول الغربية الاخرى فرضها على مصر ، شريطة أن تتوقف مصر عن كل تأييد للثورة الجزائرية ، ولكن عبد الناصر رفض اقتراحات الوزير الفرنسى ، وتحول بينو منذ ذلك التاريخ الى خصم شخصى آخر من الخصوم فى الغرب للرئيس عبد الناصر ، الذين يحتلون مراكز مرموقة ، لاسيما وقد اشتد حقده عليه من جراء رفضه لاقتراحاته ، وهو رفض كلفه الكثير من مكانته الشخصية فى فرنسا(١) .

(١) كتب ايدن عن الاسبوع الاول من أزمة السويس يقول : «وكان موليه قد امتنع صادقا عن انتقاد حلف بغداد منذ زيارته لى فى تشيكرز فى وقت مبكر من ذلك العام عندما قمنا بعمل مشترك رائع فى طريق تنسيق سياساتنا » مذكرات ايدن - المؤلف -

وصدر فى الخامس عشر من ابريل أول اعتراف عن بيع طائرات «الميستير» النفاثة الفرنسية الى اسرائيل ، وأعلن فى الثانى عشر من مايو عن وصول دفعة أخرى من هذه الطائرات الى اسرائيل ، واتضح فى شهر مايو أيضا تمام الاتضاح ان فرنسا كانت تحاول حمل لندن وواشنطن على العدول عن تقديم القروض لمشروع السد العالى • وصرح بينو بعد عودته من زيارة واشنطن فى شهر يونيو ، انه اغتنم فرصة وجوده فى العاصمة الامريكية ليطلع المستر دالاس على حقيقة الرئيس عبد الناصر وعندما أعلن دالاس فى التاسع عشر من يوليو سحب عروض القرض للسد العالى ، لوحظت على المبعوثين الفرنسيين الدبلوماسيين فى عواصم الشرق الأوسط ، علائم الانشراح ، لاعلائم الدهشة أو الجزع •

يتضح من كل ما قلناه ، ومن أمور كثيرة أخرى ، أن اتجاهين اساسيين ، نشيطين كل النشاط ، كانا يشقان طريقهما فى السياسة الفرنسية ، قبل بدء أزمة السويس بصورة عنيفة فى السادس والعشرين من يوليو ، وحتى قبل سحب عروض القرض للسد العالى ، وكان أول هذين الاتجاهين التصميم على الاطاحة بالرئيس عبد الناصر ، وهو تصميم اتفق عليه منذ شهر مارس كل من موليه وبونيه مع قادة الجيش الفرنسى ومع ساسة الجناح اليمينى فى موضوع الجزائر ، وهكذا لم يكن تأميم عبد الناصر لقناة السويس التى شقها الفرنسيون(١) والتى تتركز فيها المصالح الفرنسية الرئيسية هو السبب الذى أدى الى قرار فرنسا وجوب الاطاحة به ، اذ أن هذا القرار قد اتخذ قبل التأميم بكثير •

وكان الاتجاه الثانى فى السياسة الفرنسية يتعلق باسرائيل • وسنرى فيما بعد أن الحلف الحقيقى العسكرى بين فرنسا واسرائيل قد بدأ ابان أزمة السويس ، وان لم يكن وليد ساعته ، أو مجرد قرار فرنسى مفاجىء ، وقد عرف الآن أن فرنسا واسرائيل توصلتا فى السابع من أغسطس (آب) أى بعد أقل من أسبوعين من تأميم عبد الناصر لشركة القناة الى اتفاق يقضى بالشروع فى تنفيذ برنامج سريع لتسليم شحنات ضخمة من الأسلحة الى اسرائيل فى منتهى السرية ، وكان بعض موظفى وزارة الدفاع الاسرائيلية هم الذين توصلوا الى هذا الاتفاق فى باريس نيابة عن حكومتهم • وظلت هذه الحقيقة هى كل ما عرف عن هذا الموضوع حتى التاسع من مارس عام ١٩٦٠ ، عند ما آثر جى موليه ، أن يضيف من قريته الصغيرة التى يقيم فيها فى شمال فرنسا بعض التفاصيل الى قصة سيناء والسويس اذ قال فى خطاب ألقاه : أن بن جوريون جاء سرا الى باريس قبيل الهجوم على سيناء حيث أبلغه أن اسرائيل تتوقع هجوما من مصر ، وانه لذلك يطلب المزيد من السلاح ومضى موليه يقول : « ولا أرى بى حاجة الى القول ان الطائرات والمعدات الفرنسية هى التى وجهت الضربة فى سيناء الى المصريين» •

---

(١) أرى من الافتئات على الحق والحقيقة أن يقال بأن الفرنسيين هم الذين شقوا القناة ، فصحيح أن ديليسيبس الفرنسى هو صاحب المشروع ولكن القناة شقت بأموال مصرية على الغالب ، وبأيد مصرية خالصة •

المعرب

ولكن موليه رفض باصرار أن يكشف عن الموعد الذى قام فيه بن جوريون بهذه الزيارة المتناهية فى سريتها ، ترى لماذا ؟ كان موليه يعرف ولا شك عن وجود تحالف فرنسى ـ اسرائيلى ابان العدوان على السويس وهو يعرف ولا شك أن الباحثين فى قضية السويس ، قد تأكدوا من أن هذا التحالف قد اتضح تماما فى شهر أغسطس ، فلماذا يرفض ، وهو يعرف هذه الحقائق تماما ، أن يذكر الشهر الذى وقع فيه هذا الاجتماع مع بن جوريون فى باريس ؟

لاريب فى أن هذا الاجتماع وقع قبل السابع من آب (أغسطس) وهو الموعد الذى سلمت فيه شحنات الاسلحة طبقا للتفاصيل التى تم الاتفاق عليها ، ومن المحتمل أن يكون الاجتماع قد وقع بين السادس والعشرين من يوليو ، وهو موعد بدء أزمة السويس والسابع من آب ، ولكن من المحتمل أن يكون هذا الاجتماع قد وقع قبل السادس والعشرين من يوليو ، ولعل هذا الاحتمال يفسرلنا تردد موليه فى ذكر موعد اجتماعه الهام للغاية ، برئيس وزراء اسرائيل ، ومن الصعب فى الحقيقة أن نعثر على أى سبب آخر أو مبرر لهذا التردد من جانب موليه وان كان من السهل على كل انسان أن يفهم الاسباب التى تدعو الى عدم الاعتراف بأن مثل هذا الاجتماع بكل ما ينطوى عليه من مغاز واستنتاجات قد وقع قبل السادس والعشرين من يوليو ، اذ أن مثل هذا الاعتراف سيقلب كل ما عرف عن أصول حرب السويس حتى اليوم رأسا على عقب .

اسرائيل :

لنوجه الآن اهتمامنا الى اسرائيل ، هناك كثيرون يعتقدون فى جميع أنحاء العالم ، طبقا لما أكده الناطق بلسان اسرائيل أكثر من مرة بأن قرار الهجوم على سيناء قد اتخذ فى القسم الاخير من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ وانه جاء على أثر استئناف غارات الفدائيين ، والاعلان الذى صدر عن عمان بعد انتهاء الانتخابات الأردنية العامة فى الثانى والعشرين من اكتوبر عن تأليف قيادة مشتركة لقوات مصر وسورية والاردن ، لكن جميع الدلائل تشير عند جمع بعضها الى بعض الى حقيقة تختلف عن هذا الزعم كل الاختلاف ، وتوضح وجود تصميم طويل الأجل منذ أمد بعيد على احتلال شبه جزيرة سيناء فى الوقت المناسب .

وتتألف الدوافع التى تقف وراء هذا الهدف ، كما هو الوضع دائم ، من مزيج متقلب من الاحلام الدينية ـ التاريخية ، والاهداف السوقية (الاستراتيجية) والضرورات السياسية ، وأغراض الدفاع عن النفس ، وليس من البعيد عن الصواب أن يقال ان شبه جزيرة سيناء كانت قد بدأت تحتل مكانها فى التفكير الصهيونى الاسرائيلى منذ عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ .

فهناك أولا تأثير الذكريات الدينية الغامضة عن «أرض اسرائيل» فى عقول زعماء اسرائيل من أمثال بن جوريون ، وتضم سيناء عددا من الرموز المهمة عند اليهود ، وبينها الجبل الذى يعتبر محور التاريخ اليهودى ومنبعه ، وليس ثمة من شك، فى وجود قوة جاذبة ضخمة تجذب

الصهيونيين الى هذا الموقع ، وتضمن الامر اليومى الذى أصدرته اسرائيل الى قواتها التى هاجمت سيناء فى التاسع والعشرين من اكتوبر « حصر جيش النيل فى بلاده» ، وأبلغ بن جوريون مجلس الكنيست ان الأوامر قد صدرت الى القوات «بعدم اجتياز قناة السويس أو مهاجمة الأراضى المصرية الأصلية » ٠٠ وتحدث عن أهداف الحملة ، فذكر أن من بينهـا «تحرير هذا الجزءمن الوطن من احتلال الغزاة» وراحت الاذاعة الاسرائيلية تعلق فور بدء الهجوم ان سيناء « جزء من فلسطين » وانها لا تختلف فى طبيعتها عن النقب ، وأعدت مصلحة الاستعلامات الاسرائيلية نشرة حربية ضمنتها قصة تتحدث عن الطبيعة الألفية اليهودية لشبه الجزيرة ٠

وأشار بن جوريون الى احتلال قواته لجزيرة ثيران فى خليج العقبة فقال اننا نريد هذه الجزيرة لانها كانت « مركز دولة عبرية قديمة انتهى امرها قبل ألف وأربعمائة عام» ٠

ولم يصل شىء من هذه المعلومات الجوهرية فعـلا الى الغرب حيث كانت الصورة التى ارتسمت فى مخيلة الكثيرين هناك ، ان غزو سيناء لم يكن الا بقصد تطهيرها من أوكار الفدائيين ، واحباط هجوم كان المصريون يعدون العدة له ، لكن غزو شبه الجزيرة كان قـد وقع على الصـورة التى أوردتها قبل قليل ، والتى تعتبر فى منتهى الخطورة ، وليس ثمة من سبب مهما كان نوعه يدعونا الى الاعتقاد بأن هذه الأحلام التوسعية الغامضـة قد ومضت فجأة فى عقل بن جوريون فى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٦ ٠ فلقد كان فى مستهل عام ١٩٥١ يعلن ذلك بصورة رسمية واضحة ، ولكن الغرب ٠٠ لم ينتبه مطلقا لما قاله ٠

«ان اسرائيل دولة لاتحدد شخصيتها ، بأرضها ولا بشعبها ٠٠ فلقد أقيمت فقط على جزء ليس الا من أرض اسرائل ، وحتى أولئك الذين يلتبس عليهم موضوع اعادة اسرائيل الى حدودها التاريخية كما تحددت وتبلورت وأعطيت لها منذ الأزل ، لن يستطيعوا أن ينكروا مافى حدودها الراهنة من شذوذ» (١) ٠

وظهرت هناك فى عام ١٩٥٥ أيضا بعض الاشارات الرسمية الاخرى «للحدود التاريخية» لاسرائيل كما وردت فى الكتاب السنوى ٠

« ان خلق الدولة الجديدة ، لا ينتقص بحال من الاحوال ، من مساحة أرض اسرائيل التاريخية» ٠

ويتضح من هذا أنه كان ثمة تيار مستمر من هذا التفكير التوسعى المسياوى (نسبة الى تحقيق ظهور المسيح الذى يؤمن به اليهود) يسيطر على الحكومة الاسرائيلية ، وهو يجعل من سيناء هدفا من أهدافه ، وكانت هناك مع هذا التعطش الناجم عن مبررات غامضة دينية ، فائدة عمليـة لاسرائيل من السيطرة على سيناء واحتلالهـا ، فهنـاك أولا سوقية

(١) الكتاب السنوى لاسرائيل ، لعام ١٩٥٢ ٠

(استراتيجية) أساسية ، يمكن تحديدها فى أبسط عبارات ممكنة ٠٠ تتلخص فى التساؤل عن خير الحدود التى يمكن أن تضمن لاسرائيـل المناعة من ناحية الغرب ٠ لقد ترك ما تمكنت من الحصول عليه من أراض فى حرب عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، والهدنة التى تلتها ، جميع مساحات سيناء الشاسعة الى الغرب منها فى أيدى المصريين ، وليست حدودها الحـالية الا مجرد حدود هدنة على خريطة صحراوية ، ولكن الى الغرب من سيناء تقف حدود محددة أفضل ، هى قناة السويس نفسها لا كحـاجز مائى فحسب ، بل لعل هذا هو الأهم كنقطة للدول الكبرى ولجميع دول العالم البحرية مصلحة حيوية فيها ، واذا تحققت لاسرائيل هذه الحدود ، فلن يكون فى وسع مصر أن تعبرها دون أن تستفز على الفور عملا ينطوى على الفزع والازعاج من العالم بأسره ٠

وكانت هناك اعتبارات أخرى تدخل ضمن اطار هذه الأهـداف السوقية (الاستراتيجية) فلقد ظل واضعو الخطط الصهيونية سنوات طويلة واقعين تحت سيطرة سلسلة من الافكار يمكن تلخيصها على النحو التالى : يجب أن تضم اسرائيل الصغرى على الاقل ، الساحل مضافا اليه منطقه النقب ، ومنطقة النقب هذه تجزىء الوطن العربى الى جزئين ولهذا فان النقب سيكون دائما مهددا بالخطر ، مالم تصبح سيطرة اسرائيل عليه ثابتة لامنازع لها فيه ، ولا يمكن أن تغدو هذه السيطرة ثابتة الا باسكان الناس فيه ، ولكن هؤلاء الناس سيكونون فى حاجة الى الحماية يضاف الى هذا أن النقب يؤمن لاسرائيل المنفذ الى الميناء الجنوبى الذى يواجه افريقية وآسيا وهو ميناء ايلات الذى يجب أن يحمى ، وتقتضى هذه الحماية تأمين المداخل الغربية وكلها تمر عبر شبه جزيرة سيناء ٠

وهناك من جديد أدلة ثابتة على وجود هذه المعادلات فى السياسة الاسرائيلية ، فلقد أصر الصهاينة فى المطالب التى قدموها الىالامم المتحدة فى عام ١٩٤٧ ، أن يكون مثلث النقب ضمن المنطقة المخصصـة للدولة اليهودية ، فى أى مشروع لتقسيم فلسطين ، وقد تحقق لهم ماأرادوه ٠ ولكن مشروع التقسيم قد تأجل واعتبر غير عملى بسبب معارضة العرب وعدائهم ، وقد أعلنت اسرائيل عن قيام دولتها فى ناحيتها هى، وسرعان مانشبت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وتوصل الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة الى الاستنتاج القائل بأن من الآمـال القليلة الضئيلة ، فى ايجاد تسوية لتلك الحرب ، اعطاء منطقة النقب الى العرب ، لتأمين الطريق البرية لهم عبر أجزاء الوطن العربى(١) ولكن برنادوت قتل فى اليوم التالى لنشر اقتراحه هذا ، وخرقت اسرائيل بعد ذلك هدنة الأمم المتحدة فغزت النقب واحتلته ، وظلت تسيطر عليه حتى يومنا هذا ، رافضة كل ماتبع ذلك التاريخ من اقتراحات لاحقة لتعديل الحدود الاقليمية القائمة ٠

وأصبحت تسوية قضية النقب تسوية نهائية تؤلف عنصرا أساسيا من عناصر السياسة الاسرائيلية الرسمية عن طريق اقناع العالم كله ٠٠

(١) وثيقة الامم المتحدة (A|648)

بأن منطقة النقب هى جزء من اسرائيل ، ولا يمكن فصلها عنها بأى حال من الأحوال (١) ٠ ووضع الصهيونيون مشروع الرى لفتح ميـاه الاردن ونقلها الى النقب ، مع مافى هذا المشروع من تكاليف باهظة تجعل أية خطة لزراعة صحراء النقب ، مشروعا خياليا ، لا تجاريا ، اذ يقضى المشروع بنقل الماء مسافة مائة وستين ميلا الى الجنوب باتجاه المثلث الصحراوى حتى يتمكن العالم من رؤية المهاجرين اليهود يستوطنونه ، ورأى زعمـاء اسرائيل ، ان من الواجب تأمين الحماية لهذا الاستثمار المالى ، ولخطوط أنابيب المياه ، والمهاجرين الجدد ، وطريق المواصلات التجارية الى ميناء ايلة (ايلات) من غارات اللاجئين العرب عبر الحدود من قطاع غزة ٠٠ ومن أى عمل حربى مصرى متوقع ٠

وليس ثمة من شك فى أن هذه الاعتبارات كلها قد توافقت مـع الاحلام الدينية الغامضة فى منطقة سيناء وكانت تتزاوج كلهـا فى درجة واحدة من الاتسـاق الموسـيقى طيلة الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٥ ٠ ويقوم المفتاح السوقى لضمان هذه الحماية واحتـلال شبه جزيرة سيناء كلها فى تلك الشبكة من الخطوط الصحراوية الواقعـة فى منطقة العوجة المنزوعة السلاح(٢) ٠ وكانت القوات الاسرائيلية قد توغلت لمدة وجيزة فى صحراء سيناء فى ديسمبر عام ١٩٤٨ ، عبر هذه المنطقة ورأى الاسرائيليون الآن ، انه اذا كان لا بد للاحتلال النهائى من انتظار تطورات أفضل وأكثر ملاءمة ، فان من الواجب السيطرة على هذه المنطقة فى أسرع وقت ممكن ٠

وراحت اسرائيل تنفيذا لخطتها هذه تطرد من المنطقـة عن طريق القوة أربعة آلاف عربى(٣) ٠ وأعلنت فى عام ١٩٥١ بصورة رسـمية سيادتها على هذه المنطقة متحدية بذلك شروط الهدنة من ناحية وقرارا لمجلس الأمن فى هذا الصدد من ناحية أخرى (٤) ٠ وراحت فى عام ١٩٥٣ بعد أسبوع واحد من تكرار ادعائها هذا تقيم مستعمرة ومركزا للشرطة فى المنطقة متحدية بذلك اتفاق الهدنة (٥) ٠ ورفضت الاذعان لمطالب الأمم المتحدة بسحب قوات شرطتها من المنطقة ، وظلت مواصلة رفضها طيلة عام ١٩٥٤ وعاملة على تثبيت مستعمراتها الجديدة فيها ٠

---

(١) المجلة اليهودية (كومنترى) فى عدد سبتمبر ١٩٥٨ من مقال لاليكس روبنر المستشار السابق لوزارة مالية اسرائيل ، الذى وصف كيف أن السلطات الاسرائيلية أبلغت خبيرا أمريكيا فى شئون الرى بأن هذا المشروع سينفذ لاعتبارات سياسية رغـم افتقـاره الى المبررات الاقتصادية ٠

(٢) اعتراف من شبتاى روزين عن « اتفاقـات الهدنة » فى تعليق استراتيجى ٠

(٣) وثيقة الامم المتحدة (S|1797)

(٤) وثيقة الامم المتحدة (S|2097) ووثيقة (S.p.v635)

(٥) وثيقة الامم المتحدة (S|3103) ووثيقة (S|3596)

وتزايد تفكير بن جوريون فى اتجاه سيناء فى هذه الفترة الواقعة بين نهاية عام ١٩٥٤ ومستهل عام ١٩٥٥ ، وأمن عاملان جديدان الحافز لهذا التفكير ، وأولهما الاتفاق المصرى البريطانى لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القنـاة ، وثانيهما ظهور الرئيس عبد الناصر فى عام ١٩٥٥ بمظهر القائد العربى الفريد فى ديناميته ، القوى فى شعبيته ، المؤيد لسياسة الحياد ، وكان وجود قوة بريطانية عسكرية ضخمة على ضفتى القناة ، يؤمن لاسرائيل دائما بعض الاحساس بالأمن والطمأنينة ، اذ يتحتم على أية قوة مصرية مهاجمة ، متجهة الى الشرق ضد اسرائيل(١) ، أن تعبر أولا هذه المنطقة البريطانية العازلة ، وقد وافقت بريطانيا فى عام ١٩٥٤ على جلاء قواتها ، وتبدل على ضوء ذلك وضع اسرائيل السوقى تمام التبدل وليس ثمة مايمكن أن يفصل بين اسرائيل وبين أضخم دولة عربية يحكمها الآن نظام ثورى الا احتلال شبه جزيرة سيناء ٠

فهل يمكن تحويل هذا الخطر الى فائدة ايجابية بأية طريقة من الطرق تضمن تحقيق الاهداف التوسعية والوقائية معا ؟ ليس من الاجحـاف والحالة هذه أن نقول بأن هذه المشكلة أنهكت تفكير بن جوريون وكافة مستشاريه السياسيين والعسكريين الموثوق بهم ، وقد شرح ايغال يادين وهو من العسكريين الاسرائيليين هذه الاهداف التى لجأت اسرائيل الى كل وسيلة دعائية وعسكرية لتحقيقها ، وحدد هذا المفهوم السوقى فى تلك العبارة التى أوردتها فى مستهل هـذا الفصل ، وكانت القضية الآن بالنسبة الى وضع اسرائيل ، والى أهداف الصهيونية ، كما حددتها فى

---

(١) لم يكن تفكير اسرائيل محصورا فى تقدم الجيش المصرى وحده على اسرائيل فى هجوم لاتستفزه هى ، بل كان يتجه أيضـا الى زحف مصرى لمساعدة الاردن فى حالة محاولة اسرائيل احتلال الضفة الغربيـة وكان احتلال هذه الضفة يستبد دائما بتفكير اسرائيل ومخططيهـا السوقيين لا كهدف مسياوى يحقق وعود التوراة (كذا) فقط ، بل كهدف سوقى عسكرى أيضا وقد ورد تحديد هذا الهدف بصورة واضحة فى كتاب «على جانبى التل» لمؤلفيه جون ودافيد كيمشى (ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢) وجون كيمشى من الصحفيين الصهيونيين البارزين فى بريطانيا ، ويصف هذا الكتاب الذى رعاه بن جوريون الخطة الكاملة للعملية العسـكرية الرامية الى احتلال ماتبقى من فلسطين فى عام ١٩٤٩ ، والتى اضـطرت اسرائيل الى وقفها لتكون المعركة التى لم تتم ، والعنصر الذى يتطلب الحل فى الجولة الثانية ٠

هذا ما ذكره المؤلف وهو يضع أمام العرب فى كل مكان الصـورة الصحيحة لمطامع اسرائيل فى الوطن العربى وهى المطامع التى لن تتوقف الا اذا توحد الشعب العربى فى ظل نظام عربى ثورى صحيح ، صادق ، بعد الخلاص من الاوضاع الانفصالية التى يفرضها الاستعمار ، وأعوانه على المنطقة العربية لضمان تنفيذ الاهداف الاسرائيلية فى الوقت المناسب

ـ المعرب ـ

نهاية عام ١٩٥٤ ، هى ماإذا لم يكن فى الامكان استغلال الاخطار الناجمة عن جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة كفرصة لتوسيع حدود اسرائيل الغربية الى حدودها التى تتلهف للوصول اليها على القناة نفسها ؛ فأن هذا الهدف ، اذا تحقق ، سيضمن لاسرائيل استعادة جزء من أرض الوطن القديم (كذا) ، ويؤمن لها المرور عبر القناة بعد سنوات طويلة من الحصار الذى فرضته مصر ، وسيكرس حماية النقب ، ويبعد القواعد الجوية المصرية مسافة مائة وخمسين ميلا أخرى الى الوراء بعيدا عن مناطق المدن الاسرائيلية المأهولة ، وستقيم فاصلا أرضيا مماثلا فى بعده لهذه المسافة بين مصر وغيرها من الجيوش العربية ، وهو اتصال يتركز عليه خوف اسرائيل الدائم ٠

ولا أرى بى حاجة الى القول ، ان مثل هذه الاهداف الاسرائيلية لايمكن تأييدها بالاقوال الاسرائيلية الرسمية أو بالوثائق الاسرائيلية ، اذ أن هذه الاهداف والخطط ، كانت ولا تزال أفكارا فى منتهى السرية لا يتحدث فيها ويناقشها الا لفيف من الرجال الذين يحيطون ببن جوريون ولكن اذا كنا حقا فى حاجة الى مايؤيد هذه الآراء التى نوردها ، والتى نؤكد فيها أن مثل هذا التفكير طبيعى ومنطقى بالنسبة الى الصهيونيين فان فى وسعنا أن نجد التأييد فى يوميات عسكرى بريطانى مشهور ٠٠ يعتبر من أصدقاء اسرائيل المتعصبين ، وهو لايعرف مايفكر به كبار الزعماء الاسرائيليين فحسب ، بل يفكر أيضا كصهيونى اسرائيلى ، فلقد دون العقيد ريشارد مانيرز تهاجن ، الذى رافق نشوء اسرائيل وعمل على تحقيقه منذ عام ١٩١٧ ، فى يومياته التى كتبها فى عام ١٩٥٥ ، أى قبل نحو من عام واحد من تفكير العالم عامة حتى فى احتمال هجوم اسرائيل على سيناء ، يعرض النتائج المحتملة لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة ، ولاستمرار مصر فى اغلاق ممرها المائى فى وجه السفن الاسرائيلية فقال :

٢ نوفمبر ١٩٥٥ ـ وضعت المذكرة التالية لأقدمها الى اسرائيل مصورا فيها الوضع كما أراه ، وانى لأرى النقاط الأساسية التالية :

١ ـ حمل مصر على الظهور بمظهر المعتدى ٠

٢ ـ الهجوم باتجاه القناة والوصول اليها ٠

٣ ـ اعلان القناة ممرا مائيا دوليا ، فى ظل اشراف دولى ، مع خلق منطقة محايدة على كلا جانبى الممر ، لعزل مصر عزلا دائما عن اسرائيل ٠

٤ ـ اعلان سيادة اسرائيل على سيناء (١) ٠

ويبدو أن العقيد مانيرز تهاجن قد سلم مذكرته هذه المؤرخة فى عام ١٩٥٥ الى السفير الاسرائيلى فى لندن ايلات الذى كان دائم الاجتماع اليه وليس ثمة من سبب يدعو الى الاعتقاد ، بأن هذه الاقتراحات كانت جديدة على كبار القادة الاسرائيليين حتى فى ذلك التاريخ ٠

---

(١) يوميات الشرق الأوسط ـ كريسيت ـ لندن ٠ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨

وكان ثمة عامل رئيسى آخر ، فى جميع هذه المخططات الاسرائيلية ٠ فلقد سيطرت على الصهيونية العسكرية فكرة واحدة منذ مدة طويلة وهى « تلقين العرب درسا لا ينسونه » ٠ فمنذ حقبة الثلاثين وضع الجنرال البريطانى الصهيونى أورد وينجيت ، الخطط للصهيونيين للقيام بغارات فجائية على عرب فلسطين ، تبعث الرعب والفزع فى نفوسهم ، وكان موشيه دايان الذى قاد حملة سيناء ، واحدا من طلابة الذين تدربوا على يديه ، وظلت هذه الفكرة حية ينفذونها على شكل الغارات الثأرية التى ظلوا يشنونها على العرب منذ عام ١٩٤٩ ٠ وكانوا يرون أنه اذا كانت اعادة اسرائيل بحدودها القديمة أمرا لا بد منه ، واذا كانت حمايتها وسط هذه الارض العربية المعادية شيئا لازما ، فان من واجب اسرائيل أن تظهر كل قيادة عربية حسنة التنظيم ، وديناميكية الحركة ، ومخلصة فى نضالها ، سواء أكانت سياسية أم عسكرية ، بمظهر الضعف عن طريق هزائم عسكرية واضحة يجب أن تنزلها بها (١) ٠

وقد تأكدت من أوثق المصادر ، أن هذه الفكرة كانت طاغية على اسرائيل ، عندما شرعت فى حملتها على سيناء ٠ فلقد عرض بن جوريون فى الثانى من ابريل عام ١٩٥٧ ، أمام البرلمان الاسرائيلى (الكنيست) الاسباب التى دفعته الى القيام بحملة سيناء ، وقال انه كان يخشى دائما ظهور شخصية بين العرب ، كشخصية أتاتورك فى تركيا ، الذى ظهر بعد هزيمة بلاده فى الحرب العالمية الاولى ، وأن تقوم هذه الشخصية العربية ببعث الروح الديناميكية عند العرب ، وتحقق لهم وحدتهم ، وتطورهم التقدمى ٠ ثم مضى يقول : « وكان أعظم عمل نود تحقيقه ، أن نضعف من شخصية عبد الناصر » ٠

ولكن رئيس وزراء اسرائيل ، لم يعين التاريخ الذى بدأ يرى فيه ، عبد الناصر ، الزعيم الذى يحمل هذه الشخصية التى يخشاها كل الخشية ومن أمد طويل ٠ ولكننا رأينا فى الفصول السابقة ، أن عبد الناصر لم يظهر لأول مرة أمام العرب كالزعيم الدينامى الثورى الجديد ، فى عام ١٩٥٦ ، بل فى العام الذى سبقه ٠ واذا أردنا تحديد تاريخ هذا الظهور بالدقة ، قلنا ان شخصية الرئيس عبد الناصر ، ظهرت فى قوتها للعرب عامة فى يناير عام ١٩٥٥ عندما شن حملته على حلف بغداد الجديد ٠

وقد سبق لنا أن رأينا ، فى فصل سابق ، أن بن جوريون عاد فجأة فى فبراير عام ١٩٥٥ ، من عزلته الطويلة فى داره فى النقب ، ليتولى وزارة الدفاع الاسرائيلية ٠ وراح يشن فور عودته ، أكبر هجوم عدوانى دموى وقع على غزة منذ عام ١٩٤٩ ٠ وراحت اسرائيل فى الشهور التى تلت

---

(١) لعل هذا هو الدافع الرئيسى الذى حمل اسرائيل ، على تركيز عدائها على شخص الرئيس عبد الناصر منذ البداية ، وعلى الجمهورية العربية التى يتولى قيادها ٠ لانها تخشاه حقا ، ولا تخشى غيره من الذين ادعوا أو مازالوا يدعون الوطنية فى الوطن العربى ٠ — المعرب ـ

ذلك . تفاوض فرنسا فى موضوع صفقات الاسلحة التى تريدها ، وهى الصفقات التى أعلن الرئيس عبد الناصر تفاصيلها فى نوفمبر عام ١٩٥٥، والتى تم تنفيذها في الاسلحة الفرنسـيـة التى سلمت لاسرائيل والتى استخدمتها هذه فى حرب سيناء .

وأصدر بن جوريون أمره فى سبتمبر عام ١٩٥٥ ، باحتلال منطقة العوجه بما تضمه من طرق صحراوية متشابكة وحيوية تؤدى الى الغرب . وانتهت بذلك سلسلة الاعمال العسكرية الاسرائيلية فى هذه المنطقة التى كانت قد شرعت فيها منذ عام ١٩٥٠ .

ترى ما هو الهدف من كل هذا ؟ لم يحسر النقاب آنذاك عن أى من أهداف اسرائيل الحقيقية . ولكن كان من الواضـح أن اسرائيل عازمة صادق العزم على استغلال التوتر القائم بين مصر والغرب ، اذ كانت هى أول من روج فى الغرب الدعاية التى تزعم بأن عبد الناصر ليس الا هتلر ثانيا . وبينما كان بن جوريون يزيف شعارات السلام ، ويعلن للعـالم الخـارجى رغبته فيه ، كان فى الوقت نفسه يتبع سياسة مختلفة كل الاختلاف عن هذه الدعوى المزعومة مع العرب . وكان حريا بالعالم أن يرى هذه الحقيقة الواضحة فى الثالث من نوفمبر عـام ١٩٥٥ . ففى صباح الثـانى من نوفمبر عاد بن جوريون الى كرسى الرئاسة ليخلف فيه موشى شاريت الاقل منه حيوية ونشـاطا ، والذى أحاله الى وزارة الخارجية . وراح يعلن فى صباح اليوم نفسه للكنيست ، أنه على استعداد للقاء الرئيس عبد الناصر أو أى زعيم عربى ، فى أسرع وقت ممكن ، للوصول الى تسوية مشتركة شريطة أن لا تكون مقيدة بشروط سابقة .

ونقلت أسلاك البرق هذا النبأ الى صحف العـالم طولا وعرضا . ولكنه فى الليلة ذاتها راح يبعث بقوة ضخمة من الجنود الاسرائيليين يربو عددهم على الالف ، يخترقون جدود مصر ، ليقوموا بغـارة تفـوق فى وحشيتها الغـارة التى وقعت على غـزة . ولم تظهـر قط فى تاريخ الدبلوماسية ، طريقة أغرب من هذه الطريقة التى اتبعهـا بن جوريون لنشدان السلام ، مهما كانت الدوافع لما يزعمه من خوف وقائى . وليس ثمة من شك فى أن كل من يدرس هذا الحادث دراسة جدية ، يستطيع أن يجتنب التوصل الى الاستنتاج ، بأن السياسة الاسرائيلية وجدت شـيئا جديدا تضيفه الى خداعها السابق .

ووقعت فى النصف الاول من عام ١٩٥٦ ، غرائب أخرى ، مضت فى حينها دون أن يلحظها أحـد من الغربيين . فقد وصـل التوتر العربى الاسرائيلى الى ذروته فى ذلك الحين ، وراح المسـتر همرشولد يناشـد اسرائيل عبثا ودون جدوى ، الانسحاب من منطقة العوجة . ولا ريب فى أن كبير مراقبى الهدنة ، كان مدركا أهمية هذه المنطقة ، ومغزى احتـلال اسرائيل لها ، اذ قال فى تقريره :

« تتلخص الأهمية السوقية للطرق المتوزعة من العوجه ، فى أنه اذا فكر أحد الفريقين فى عدوان على نطاق واسـع على أراضى الفريق الآخر ،

فان طرق مواصلاته الرئيسية والفرعية اللازمة للعملية العدوانية يجب أن تمر في هذه المنطقة المنزوعة السلاح » (١)

وتمكن المستر هامرشولد أخيرا من التوصل فى شـهر ابريل الى اتفاقات جديدة لوقف اطلاق النار . وتضمنت نصوص الاتفاق اقامة مراكز ثابتة للمراقبين الدوليين على حدود قطـاع غزة . ولم يلاحظ أحد فقرة صغيرة وردت فى التقرير الذى قدمه الامين العام للأمم المتحدة الى مجلس الامن فى أواسط ابريل عن جولته فى الشرق الاوسط . فلقد ذكر هـذا التقرير أن مصر قد وافقت على اقامة هذه المراكز لمدة غير محددة ، بينمـا اشترطت اسرائيل أن تكون مدتها محددة بستة أشهر تنتهى فى الواحد والثلاثين من اكتوبر عام ١٩٥٦ . (٢) ولا يعقل أن يكون هناك أى سبب دفاعى معقول ، يدعو الى هـذا التحديد المتعمد لواجبات فريق المراقبين الدوليين الذين تتلخص مهمتهم فى مراقبة اجتيـاز الحدود والحشـود العسكرية عليها ومنعها .

وهناك نقطة أخرى . فلقد حاول المستر همرشولد محاولات حثيثة التأكد من أنه حتى فى حالة تحدى اسرائيـل لمطالبة الامم المتحدة لهـا بانسحاب قواتها من مثلث العوجه ، فان عليهـا أن تقبل عبور مراقبى الهدنة بحرية الى هذه المنطقه الحيوية،وأن تسمح لهم بحرية الحركة فيها . وعاد مجلس الامن فكرر الطلب الى اسرائيل لاعطاء حرية العبور والحركة للمراقبين الدوليين فى المنطقة فى الرابع من يونيو عام ١٩٥٦ . (٣) ولكن رئيس هيئة الرقابة الدولية تلقى فى الخامس من يوليو عام ١٩٥٦ ، أى قبل ثلاثة أسابيـع . من معرفة أى انسـان بوجود أزمة تدعى « أزمة السويس » وقبل أربعة أشهر ونصف الشـهر من الهجوم على سيناء ، مذكرة من اسرائيل تقول انها لن تسمح بعد اليوم للمراقبين الدوليين الا باستخدام طريق واحدة داخل منطقة العوجه ، وانهم سيمنعون من المرور فى الطرق الاخرى ، كما لن يسمح لهم بارسال أية رسائل اذاعية باستثناء التقارير الادارية العـادية (٤) . واحتج رئيس هيئة الرقابة الدولية على هذا الاجراء ، واكتفت اسرائيل بأن ترد عليه قائلة ، انه لما كانت اسرائيل هى التى تحتل المنطقة « فليس ثمة ما يدعو الى وجود مراقبين عسكريين للأمم المتحدة فيها» (٥) . وظلت هذه القيود مفروضة على حركات المراقبين الدوليين على الرغم من احتجاجات الأمم المتحدة الى التاريخ الذى شنت فيه اسرائيل هجومها على سيناء عن طريق مثلث العوجة .

وهناك حقيقتان جوهريتان أخريان تتعلقان بموضـوع ما اذا كانت

---

(١) ملحق بوثيقة الامم المتحدة (S|3659)
(٢) وثيقة الامم المتحدة (S|3596) الفقرة
(٣) وثيقة الامم المتحدة (S|3605)
(٤) وثيقة الامم المتحدة(S|3659) الملحق رقم «١» الفقرة الثانية .
(٥) نفس الوثيقة الفقرة «٧» . رسالة من بن جوريون الى الجنرال بيرنز فى الثالث من سبتمبر ١٩٥٦ .

اسرائيل – كمـــا تدعى – قد قررت الهجوم على سيناء ، كاجراء طارئ وسريع فى الرابـــع والعشرين من اكتوبر ليس الا . كلنـــا يذكر أن بن جوريون قد خلف موشى شاريت الاقل ميلا للعدوان من زميله ، فى رئاسة الوزارة فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . وظل شاريت هذا وزيرا للخارجية حتى يونيو عام ١٩٥٦ . وتم فى مطلع يونيو جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، وجرت فى الثامن عشر منه احتفالات ضخمة فى مصر ، احتفاء بالجلاء .

واستقال شاريت فى ذلك اليـوم نفسه من أيام حزيران «يونيو» ، بصورة مفاجئة من الوزارة الاسرائيلية . ولم يقدم الوزير المستقيل سببا لاستقالته ، واكتفى بأن يقول بأنه كان راغبا فى هذه الخطوة منذ نوفمبر الماضى . وقد وقع هذا التطور قبـــل خمسة أسابيع من أزمة السويس وخمسة أشهر من حرب سيناء .

وقدمت وزيرة خارجية اسرائيل الجديدة ، جولدا مايير ، فى السابع عشر من أكتوبر ، أى قبل أسبوع كامل من التاريخ الذى زعم أن اسرائيل قد اتخذت فيه قرارها الطارئ بالهجوم على سيناء ، قائمة طويلة الى محكمة العدل الدولية ، ضمنتها التحفظات التى تراها بالنسبة لقبـول اسرائيل صلاحية المحكمة فى فض المنازعات الدولية . وكان بين هـــذه التحفظات التى أرادت اسرائيل أن تستثنى نفسها من قيود هذه الصلاحية بند ناجم عن « احتلال اسرائيل العسكرى »(١) . فلقد كان ادعاء اسرائيل القانونى والسياسى فى السابع عشر من اكتوبر عام ١٩١٧ ، أنها لا تحتل عسكريا أية منطقة ليست لها ، حتى منطقة العوجة نفسها التى ادعت سيادتهـــا الرسمية عليها .

وعلى ضوء هذه الحقائق يمكننا أن نقول بالاختصار ، ان ثمة مجموعة ضخمة من الادلة ، تقوم وراءها مجموعة ضخمة أيضـــا من الاستنتاجات المعقولة كل العقـــل ، تؤكد أن بن جوريون وعددا من مستشاريه ، كانوا يعدون العدة لاحتلال سيناء منذ أشهر طويلة بل منذ ســـــنوات قبل أن يشنوا هجومهم الفعلى . وقد رأينا من قبل كيف تحول الارتباط الفرنسى-الاسرائيلى الى تحالف مسلح ، ولا سيما فى الايام الاولى من أزمة السويس الصحيحة ، وحتى قبل أن تبدأ الازمة ظاهريا فى السادس والعشرين من تموز (يوليو) .

ولا يبقى أمامنا الآن الا أن نلاحظ بأن دبلوماسيى اسرائيل ومؤيديها العاملين قد شنوا حملة مستميتة لمعارضة قروض السد العالى التى عرضتها بريطانيا وأمريكا والبنك الدولى . وروت كل صحيفة موثوق بهـــا فى أمريكا وأوربا الغربية أنبـــاء النشـــــاط الصهيونى وراء الكواليس فى الكونجرس الامريكى لمعارضة القروض كما روت أن ما يبديه الكونجرس من عداء لها انما نجم عن النشاط الصهيونى . وقد وصلت هذه المعارضة الى أوجها فى أواخر يونيو وأوائل يوليو .

---

(١) الكتاب السنوى للمحكمة الدولية – الامم المتحدة ١٩٥٦–١٩٥٧

ويمكن للقارىء ان يلحظ خيطا غريبا يسير ســيرا قهريا عبر هذا التحقيق الذى قمت به . وفى وسعنا أن ندون هنا كحقيقة واقعة ان كلا من فرنسا واسرائيل كانتا تبحثان بحثا جديا نشيطا فى موضـــوع سحب عروض القروض الغربية ، وهـــو الاجراء الذى أدى الى اشـــتعال أزمة السويس . وفى وسع المرء أن يستنتج بوضوح أن الفرنسيين فى سعيهم الى الاطاحة بعبد الناصر ، لم يكونوا قادرين على مهاجمة مصر وحدهم أو بدون مبرر . وكان يتحتم عليهم أن يجدوا ظرفا مبررا يسمح لهم بتنفيذ غايتهم عن طريق خلق وضع من نوع ما يبدو كمبرر للعمل المباشر ، وأن تشترك فرنسا فى هذا العمل مع بريطانيا على الاقل .

وعندما نعود الى تقديرات اسرائيل وأهدافها ، فان هذا الخيط يتخذ شكلا غريبا آخر . فما وقع فعلا فى يوليو عـــام ١٩٥٦ ، كان مواتيا لاسرائيل الى درجة تكاد تشبه الاعجوبة فى الطريقة العـادية المألوفة فى تضارب الاحداث . وقد تركز اهتمام العالم بعد السـادس والعشرين من يوليو على منطقة قناة السويس ، وهى الحـــد الغربى الذى تتطلع اليه اسرائيل .

وقد شرعت الدولتـــان الكبيرتان – أى بريطانيا وفرنســـا – منذ السادس والعشرين من يوليو فى التفكير باعادة احتلال القنـــاة ، بينما انصرف هم الدول المنتفعة بالقناة الى البحث فى القضايا المتعلقة بسلامتها وحرية المرور فيها . وارتفعت الصيحات العدائية ضد مصر فى الغرب بعد السادس والعشرين من يوليو بشكل صاخب لم يسبق له نظير . وعندما تدخلت بريطانيا وفرنسا فى نهاية شهر اكتوبر لوقف ما أسمى بالحرب المصرية – الاسرائيلية التى أوقدها الاسرائيليون بهجومهم على شبه جزيرة سيناء ، رأيناهما تقدمان انذارا نهائيا يعطى لاسرائيل سيناء كلها ويطلب الاحتلال الدولى لحدودها الغربية الجديدة بقصد حماية القناة .

ولو شئنا التبسيط فى القول . والايجاز فى تحديد الصورة لقلنا ، ان الامور ما كانت لتسير على نحو أفضل لحكومة بن جوريون مما سارت عليه ، حتى لو كانت هى التى خططت أو ساعدت على تخطيط تسلســـل الاحداث التى وقعت بين منتصف يوليو وأواخر اكتوبر عام ١٩٥٦ . ولم يكن هناك الا عامل جوهرى واحد فى كل ما وقـــع لم يتفق مع أهداف اسرائيل وميولها ، وهو أن تدخل الدولتين الفعلى فى المعركة قد حرمها من الحصول على مكاسب جديدة (١) .

أما وقد دونا جميع هـــذه الاحداث العرضـــية الغريبـــة أرى لزاما

---

(١) أرى أن المؤلف قد أخطأ خطأ كبيرا هنا ، وان كان يريد أن يقول كما يظهر انه كان فى وسع الدولتين الغربيتين أن تساعدا اسرائيل سرا كما ساعدتاها فعلا دون أن تتدخلا تدخلا مباشرا بالعدوان على السويس وأن تحققا لها ماتريد من مكاسب . لكن هذه المساعدات السرية ما كانت لتؤدى الى نتيجة عملية حاسمة لاسرائيل ، فنحن نعرف الآن أن اسرائيل

علينا أن نقول هنا اننا حاولنا القيام بتحقيق دقيق ، وان الاغراق فى الحماسة لاستخدام الحقائق قد يؤدى دائما الى الخطر . ولكن علينا أن نتذكر دائما هذا الخط المشترك من « العرضية » والمصادفة ، عندما ننتقل الى البحث فى موضوع الحكومتين الاخريين ذواتى العلاقة بسيناء والسويس .

بريطانيا والعراق :

فى وسعنا سعيا وراء الاختصار أن نعالج موقف حكومتي ايدن ونورى السعيد معا بتحليل أهدافهما وسياساتهما التى أدت الى حوادث شهر يوليو الخطيرة . وفى وسعنا أن نقيم الدليل الذى لا تتطرق اليه أية ذرة من الشك ، على ان السير انطونى ايدن وزملاءه الموثوق بهم ونورى العراق قد صمموا جميعا اعتبارا من ليلة السادس والعشرين من يوليو على الاطاحة بعبد الناصر عنوة وقسرا . ولكن علينا بعد أن قلنا هذا أن نكون جد حذرين فيما سيتبع من قول . فلقد رأينا من قبل ، كما نعرف الآن ان العمل الذى قام به عبد الناصر بتأميم شركة القناة ، والاسلوب الذى أتبعه فى التنفيذ قد بعثا الفزع عند الكثيرين من ذوى الرأى المتزن فى بريطانيا . ولا تدل الحقيقة الواقعة وهى تصميم ايدن على الاطاحة بعبد الناصر بعد التأميم ، على أن ايدن كان يهدف الى ذلك بحكم الضرورة قبل السادس والعشرين من يوليو . ولكن ألم يكن يهدف الى ذلك فعلا قبل خطوة التأميم ؟ أرى لزاما علينا هنا أن نبدأ مناقشة الرد على هذا السؤال وأن نعرض أحداث الاشهر التى سبقت افتتاح الازمة بشكل رسمى .

ولقد روى مؤرخ حياة نورى السعيد ، اللورد بيردوود ، الذى كان ولا شك يتمتع بثقة نورى المطلقة قبل نهايته فى يوليو عام ١٩٥٨ والذى كان فى وضع يمكنه من معرفة الكثير عن التفكير البريطانى الرسمى ، رواية غريبة للغاية فى مستهل حديثه عن أزمة السويس اذ قال :

« كان ثمة شعور آخذ فى النمو فى دوائر وزارة الخارجية البريطانية ، بأن من الواجب ، فى وقت ما ، وبطريقة من الطرق ، وقف

= بدأت هجومها على سيناء مستخدمة الطائرات والاسلحة التى ابتاعتها من فرنسا كما أن وحدات عسكرية فرنسية فعلية ، ولا سيما من النوع الجوى والبحرى ، قد اشتركت فى حملة سيناء الى جانب اسرائيل ، كما أيدت الوثائق التى اكتشفت فيما بعد ، ومع ذلك فقد عجزت القوات الاسرائيلية عن تحقيق أى هدف حاسم قبل شروع الدولتين الغربيتين فى عدوانهما الفعلى المباشر . كما نعرف أيضا أن القوات المصرية كانت قد شرعت فى هجومها المضاد على المكاسب الاسرائيلية الدولية وانها حققت انتصارات ضخمة كان فى الامكان استغلالها لاحباط هجوم اسرائيل كليا لولا أن سيادة الرئيس عبد الناصر أصدر أمره بسحب الجيش المصرى الى غرب القناة فى اليوم الثالث من المعركة بعد أن تبينت له مؤامرة العدوان الثلاثى لانقاذ الجيش من الوقوع فى الفخ
— المعرب —

عبد الناصر عند حده ، وعزله ، والاطاحة به ، على أيدى شعبه ان أمكن ، ونتيجة ما قد يقع فيه من أخطاء . وقد تحول هذا الشعور بوجه خاص بعد حملته الشخصيه على حلف بغداد الى سياسة مقررة . ويبدو أن من المعقول جدا أن تكون وزارة الخارجية قد ابقت رئيس وزراء العراق على اطلاع بكل تطور فى سياستها ، وبكل ما طرأ عليها من نيات جديدة » .

وكان موقف عبد الناصر من حلف بغداد وحملته عليه قد تحددا بوضوح وبصورة لا تقبل الشك أو الخطأ منذ يناير عام ١٩٥٥ . ولكن هذا التاريخ يبدو مبكرا جدا بالنسبة الى خلق نية فى وزارة الخارجية البريطانيه للاطاحة به ، على الرغم من أن حملته على حلف بغداد كانت تعتبر بصورة جازمة عدائية للمصالح البريطانية على النحو الذى كانت تقوم فيه آنذاك . ولعل هذا هو السبب الذى دفعنى الى اعتبار رواية اللورد بيردوود غريبة بعض الغرابة . ولكن لا يمكن أن يكون هذا القول مجرد زلة قلم ، وان كان من الحكمة لمصلحة الجميع الامتناع عن اصدار الاحكام الفورية . ولكن اقحام مجرد كلمتين فى هذه الرواية تضفى عليها على الفور شيئا من المعانى والاهمية ، اذ أنه يقول : ان هذا الشعور تحول بوجه خاص الى سياسة مقررة بعد معارضة حلف بغداد فى الاردن . ونحن نعرف بالضبط تاريخ هذه المعارضة فهو مارس عام ١٩٥٦ (١) .

ونحن نعرف من اعترافات ايدن نفسه فى مذكراته ، بالاضافة الى غير ذلك من المصادر ، أن وجهة نظر حكومته فى عهد عبد الناصر ، قد تغيرت تغيرا جذريا بين نوفمبر ١٩٥٥ وأواسط يوليو عام ١٩٥٦ ، بحيث تقرر عدم المضى قدما فى تنفيذ مشروع السد العالى . وكان هذا العرض قد قدم عن طريق خطوة مشتركة قامت بها بريطانيا وأمريكا فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . وفى وسعنا أن نتذكر الآن أيضا ان ايدن اتخذ فى ذلك الشهر نفسه بادرة سلمية أساسية فى موضوع فلسطين عن طريق الرئيس عبد الناصر . وكان حريا بعرض بريطانيا لتقديم قرض السد العالى أن يربطها علنا بحكومة عبد الناصر لا لمدة بضعة أشهر فحسب . ولا حتى لسنة واحدة بل لعشر سنوات . ولو نجحت مبادرة ايدن فى خطابه فى جيلدهول عن فلسطين . الى الحد الذى يؤدى الى مفاوضات فعالة بين العرب واسرائيل ، لأدى نجاحها الى ترابط جديد عميق وعلنى بينها وبين

(١) أرى أن المؤلف قد خلط هنا بين حادثين وتاريخين . أما الحادثان فهما فشل تمبلر فى مهمته الهادفة الى ادخال الأردن فى حلف بغداد ، وتنحية جلوب عن منصبه كقائد للجيش الاردنى وطرده من البلاد . وقد وقع الحادث الاول فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ ووقع الثانى فى الاول من مارس عام ١٩٥٦ .

فالمعروف أن تمبلر وصل الى عمان فى مهمته فى السادس من ديسمبر وغادرها فى الرابع عشر منه بعد استقالة وزارة سعيد المفتى وتأليف وزارة هزاع المجالى الاولى التى هدفت الى دخول الحلف ولكنها سقطت بعد أربعة أيام أمام المعارضة الشعبية الطاغية التى تمثلت فى المظاهرات الصاخبة
— المعرب —

حكومة عبد الناصر . ولهذا فان التبدل فى سياستها الذى تمكن رؤيته عن طريق سحب العرض الخاص بقرض السد العالى ، يعتبر مهما وجوهريا للغاية . ترى متى وقع هذا التبدل ، وما هى النتائج التى تقف وراء هذا التبدل ؟

يرجع التبدل قبل كل شىء الى طرد جلوب من الاردن فى مستهل شهر آذار « مارس » عام ١٩٥٦ ، وهو ما وقع بعد الهزيمة التى منيت بها بعثة تمبلر لادخال الاردن فى حلف بغداد ، وما تبع هذه الهزيمة من اضطرابات ومظاهرات . ولا ريب فى ان ايدن بطريقته الغريبة الخاصة فى رواية مذكراته التى تكشف القليل من الحقائق ولكنها رغم قلقها كافية لتأكيد بعض المصادر الاولى ، قد رسم صورة لعملية التبدل كلها . وكان يرى أن مفتاح سياسة بريطانيا وسلطانها فى الشرق الاوسط والمحور الذى تلتف حوله المقاومة لطراز التبدل الذى بات عبد الناصر يعتبر رمزا له وحافزا عليه ، هو العهد القائم فى العراق فى ظل نورى السعيد . وكان عداء عبد الناصر المكشوف لحلف بغداد الجديد قد بدأ فى يناير عام ١٩٥٥ وهو مؤذ كل الأذى لسياسات كل من نورى وايدن . لكن القضية الاساسية لم تظهر طيلة عام ١٩٥٥ . وكانت هذه القضية تتلخص فى التساؤل عما اذا كان تركيز النفوذ البريطانى عن طريق توسيع حلف بغداد ، سيتعرض للتهديد من عبد الناصر ، وعما اذا كانت الموجة القومية الجديدة التى قادها ، ستهدد بصورة خاصة عهد نورى السعيد نفسه فى العراق . ولقد منى الحلف بصدمة عنيفة فى الاردن فى يناير عام ١٩٥٦ . وذكر ايدن فى يومياته فيما بعد انه كان يعتزم محاولة ضم الآردن الى عضوية الحلف فى وقت لاحق . ولكن طرد جلوب المثير من الاردن فى مستهل شهر مارس قضى على جميع الآمال فى قيام محاولة ثانية ، وهدد بالمزيد من الضغط المباشر . فقد ذكر قائلا ...

« وكانت مصلحة بريطانيا القومية تقوم على الحفاظ على استقلال الاردن الذى **نعتبره مركزا أماميا للعراق** .. وكان فى رأيى أن الحل الامثل يقوم فى التقريب بين البلدين فى وقت لاحق ...

« أما اذا كانت نتيجة تطور الاحداث – كاخراج جلوب واحباط حلف بغداد فى الاردن – أن يصبح الاردن دويلة تابعة لمصر ، **فان نفوذ المملكة المتحدة سيتعرض للتحطم والانهيار** ». أما اذا أسفرت النتيجة عن تحول الاردن والعراق الى شريكين بتشجيع منا ، فان سياسة التعاون مع بريطانيا ستقوم على دعائم ثابتة » .

وقد أكدت فى هاتين الفقرتين على بعض العبارات لأنى أعتبرها فى منتهى الأهمية والخطورة . ولقد ظلت هذه المملكة الهاشمية الصغيرة بالنسبة الى ايدن كما كانت لغيره من مهندسى السياسة البريطانية فى الشرق الاوسط منذ رسم تشرشل حدودها لأول مرة على غطاء مائدة طعام فى أحد مطاعم لندن فى عام ١٩٢١ ، محورا أساسيا من محاور هذه السياسة ، ترى فيها مركزا أماميا للدفاع عن العراق ، الذى تعتبره بريطانيا قاعدتها السياسية التقليدية فى المنطقة ، التى ان ضاعت على بريطانيا ، أدى ضياعها الى تحطم النفوذ البريطانى كله فى تلك المنطقة .

وقد بدا هذا الخطر الآن أى فى مارس عام ١٩٥٦ ، وشيك الوقوع وماثلا للعيان . ولقد رأينا من قبل ان جلوب ولويد وغيرهما من ذوى السلطان الذين يحملون نفس التفكير ، قد أفهموا ايدن أن طرد ملك الاردن غير المتوج كان نتيجة عمل المصريين وبعض المتطرفين من الواقعين تحت نفوذ مصر أو تأثير الشيوعية . وقد أعرب نورى السعيد بالطبع عن رأى مماثل لايدن . وليس ثمة من شك أيضا فى أن موليه ، رئيس وزراء فرنسا الذى وصل الى لندن فى الثامن عشر من مارس – بينما كانت صدمة طرد جلوب لا تزال ماثلة فى الاذهان – قد حمل الى ايدن استنتاجا مماثلا ، وأعرب له عن شعور شبيه بتلك المشاعر التى تحدثنا عنها ، وتتلخص فى أن من الواجب الخلاص من هذا المحرض الذى يخلق لبريطانيا وفرنسا جميع هذه المتاعب .

وكنا قد ذكرنا من قبل فى فصل سابق ، أن نورى السعيد كان قد أكد لايدن أثناء المظاهرات التى وقعت ضد تمبلر وضد حلف بغداد فى الاردن بأن مصر هى المصدر الحقيقى للمتاعب ، وان من الواجب ايفاد قوة عراقية كبيرة الى الاردن « تكفى للتأكد من تحقيق النجاح » . ولقد رأينا ايدن يتحدث فى شهر مارس عن فكرة الاتحاد بين الاردن والعراق ، مؤكدا من جديد ، ما سبق لنا ان عرفناه من عدة مصادر أخرى . وقضى نورى السعيد وايدن طيلة المدة الواقعة بين مارس واكتوبر فى عام ١٩٥٦ فى محادثات مستمرة تتناول طريقة تحقيق هذا الاتحاد ، ووقف كل محاولة محتملة لابعاد الاردن عن جبهة النفوذ البريطانى وضمها الى الحركة القومية التى تتولى مصر وسورية الدور القيادى فيها . وكانت هذه الخطة جزءا أو جناحا كاملا من الخطة العامة الرامية الى الاطاحة بعبد الناصر فى مصر ، وقد تبلورت قبل منتصف سبتمبر ، لتتخذ شكل خطط محدودة ترمى الى السيطرة العسكرية العراقية على الاردن . ولقد لعبت هذه الخطة دورا جوهريا فى السعى الحثيث العام للاطاحة بعبد الناصر ، الى الحد الذى حمل دالاس وزير الخارجية الامريكية على ادراجها بين التهم المحدودة المتعلقة بالسويس والتى وجهها الى حكومة ايدن . ولا ريب فى أن المستر دالاس كان على علم دقيق بهذا البرنامج الخفى ، مما دفعه الى تضمين تهمته بعض التفاصيل التى تقول ان ايدن ونورى السعيد قد خططا لتجزئة الاردن بين اسرائيل والعراق ، فى محاولة نهائية لايجاد تسوية عربية – اسرائيلية يمكن فرضها وسط جو الفوضى الذى سينجم فى المنطقة اثر الاطاحة بالرئيس عبد الناصر .

ولكن متى نضجت خطة نورى وايدن لاستيلاء العراق على الاردن لأول مرة ؟ اننا نعرف على وجه التحديد ، الحادث الذى لعب دور الزناد الاخير الذى حول الهدف الذى كان ايدن فى شهر مارس لا يزال يعتقد باحتمال تأجيله ، الى ضرورة عاجلة سريعة ، ففى شهر يونيو من عام ١٩٥٦ ، أى قبل أسابيع من سحب عروض القرض للسد العالى وبالتالى لقيام أزمة السويس ، وافق الملك حسين على اجراء انتخابات عامة جديدة فى الاردن . وحل البرلمان الاردنى ، وحدد شهر اكتوبر موعدا للانتخابات

الجديدة • وكان من المتوقع طبعا أن العناصر المؤيدة لمصر هى التى ستفوز فى هذه الانتخابات • وما لبث نورى ان طـــار فورا الى لندن متظاهرا ، بدافع العلاج وسوء حالته الصحية ، حيث أقام فيهـا طيلة شهر يوليو • وكان نورى السعيد ، فى الواقع ضيف ايدن على العشاء ليلة الســـادس والعشرين من يوليو ، أى فى نفس الليلة التى كان قد عرف من قبل بأنها ستحمل الى لندن أنباء بيان خطير سيلقيه الرئيس عبد الناصر ، ردا على قرار سحب عروض القرض للسد العالى •

وليس ثمة من يشك فى الدور الذى لعبه ايدن فى حمل بريطانيا على اتخاذ قرارها بسحب عرض القرض • ولقد سجل ايدن نفسه فى مذكراته ان نورى كان منذ بدء العام الجديد يعرب عن تدمره من عروض القرض • ترى ما هو الرأى الذى قدمه نورى الى أصدقائه الانكليز عن طريقة سحب العرض وعن رد فعل مصر المحتمل على هـــذه الخطوة ؟ أرى أن ليس من الصعب أبدا تحديد الرد على هذا الســؤال • لقد كان من رأى نورى أن السحب ان تحقق يجب أن يصدر عن الولايات المتحدة أولا لا عن بريطانيا • وهكذا يتحول غضب الرأى العـام العربى الذى توقعه نورى الى الولايات المتحدة بدلا من أن يتجه ضد بريطانيا التى يحس نورى بارتباطه الشخصى بمكانتها العامة فى الشرق الاوسط • وكان من رأى نورى أيضا ان طريقة سحب العرض يجب أن تكون حازمة ومهينة ، فلقـــد كان يعرف أن أى أسلوب آخر يجرى عن طريق التطوير والسرية فى مفاوضات تسير سيرا وديا سيسىء اليه والى حكومته • ترى ماذا سيحدث فيما بعد ؟

واذا صح ما قيل من أن ايدن ومستشاريه كانوا عاجزين عن التكهن برد فعل القاهرة ، فمن المتعذر على المرء أن يصدق بأن نورى كان عاجزا مثلهم عن معرفة الحقيقة • ان عقلا مثل عقل نورى ، كان يفترض أن الرئيس عبد الناصر سيشعر بالمهانة ، مصحوبة بالعجز عن أن يفعل شـــيئا ، فتتعرض فى مثل هذه الحالة مكانته عند العرب فى المنطقة الى التدهور • ولكن كان من المحتمل من الناحية الاخرى ، أن يبحث عبد الناصر عن رد عنيف حاسم ، وكان نورى يرى أنه فى مثل هذه الحالة ، ومهما كان رد عبد الناصر ، فانه سيؤدى حتما الى أزمة حاسمة فى العلاقات المصرية ـ الغربية • وكان يرى فى مثل هذه الازمة شيئا ضروريا للغاية ، ولم يكن ايدن فى حاجة الى من يقنعه بضرورتها • ولكن مهمـا كانت الطريقة التى ستتبع فى الاطاحــة بعبد الناصر ، فمن الواجب ألا تصدر عن بريطـانيا وحدها ، وألا تؤدى الى عودة النظام الاستعمارى القـديم الســابق • أن هذه الطريقة يجب أن تتركز على أساس مشكلة ذات طابع دولى (١) •

ولا ريب فى أن ماحدث ، كان صورة طبــق الأصل لهذا التخطيط فلقد أتاح تأميم شركة قناة السويس ، الفرصة التى كان الجميع فى حاجة

(١) يروى اللورد بيردوود هذه الآراء نيابة عن نورى السعيد • مع العلم بأنه يؤكد بأنها وقعت بعد التأميم • ولكن مما لا شك فيه أن نورى كان قادرا على أن يفكر هذا التفكير قبل السادس والعشرين من يوليو •
ـ المؤلف ـ

ماسة اليها ، اذ هيأ الظروف والشروط المسبقة لاستـخدام القـوة ضد عبد الناصر ، على النحو الذى كان ايدن ونورى يؤمنان بضرورته • ولما كان الحادثان الخطيران اللذان وقعا فى يوليو عام ١٩٥٦ وهمـا سحب المستر دالاس الاستفزازى لعروض قرض السد العالى ، وبيان الرئيس عبد الناصر الغــاضب بتاميم القنـاة ، بمثابه نعمـة ساقتهـا الاقـدار لفرنســا واسرائيل ، فقد كانا فى الوقت نفسه هدية من السماء أيضــا لكل من بريطانيا والعراق • ولما كانت الدول الأربع كلهـــا راغبة فى الخلاص من عبد الناصر ، فان هذه الرغبة انبثقت عن أكثر من سبب واحد خاص ، أو سبب مشترك بينها وعندما حل شهر يوليو عام ١٩٥٦ كانت هذه الحكومات الاربع تتـــحرك مدفوعة بسلسلة من الاحداث العرضية فى الطريق الى السويس •

ومع ذلك ، أرى ان الواجب يدعونا الى المزيد من الحيطة فى هـــذا التحليل الذى نقوم به • فالتحليل بعد ظهور الحقائق ، والتفسير الرجعى للتاريخ يعتبران خطرين كل الخطورة • وكثيرا ما تقع الاحداث العظمى • ومن المحتمل أن يكون كل ما وقع فى يوليو مجرد تفاعل ثورى متفجر بين أعمال جريئة وأعمال أخرى متهورة • وليس فى امكاننا حتى الآن أن نقيم نظرية أكثر تناسقا مما قلناه وأن ندعمها بالوثائق • وليس فى وســعنا حتى الآن أن نجد الوثائق اللازمة لتوجيه الاتهـــام الى حكومة أو أكثر من الحكومات الاربع ، بأنهـــا عملت عامدة قاصدة على تشجيع عمـــل استفزازى أمريكى على أساس الأمل بأن يؤدى هذا العمل الى دفع الرئيس عبد الناصر الى أن يخطو الخطوة التى تمكن هذه الحكومات من استخدام القوة ضده •

ولكن ليس فى وسعنا أن نستبعد هذه المجموعة الغريبة من الاحداث العرضية على أنهـــا أمور تافهة ، لمجرد افتقارنا الى الوثائق اللازمة لاقامة الدليل على وقوعها • ولم نستطع فى الوقت نفسه أن نجمع الأدلة اللازمة للبرهنة على أن رد فعل بريطانيا وفرنســا الرسمى على عمــل الرئيس عبد الناصر كان مصطنعا أو أنه كان فى محلة • وقد درسنا حتى الآن الأدلة التى تثبت أن جميع الحكومات الاربع كانت فى مطلع شهر يوليو مصممة على وجوب الخلاص من عبد الناصر ، وكانت تتبع سياسات تشير اشارات واضحة الى توقع أزمة بصدد قروض السد العالى •

ويمكننا أن نلخص بالتأكيد الصورة بالنسبة الى ايدن ونورى قبــل السادس والعشرين من يوليو على النحو التالى :

١ ـ أدت أحـــداث الاردن الى قيام تصميــم على وجـوب الاطاحــة بعبد الناصر ، على أعتبار أن هذا التصميم ينبعث عن عقيدة جازمة •

٢ ـ كان ايدن قد قرر قبــــل الخطوة التى خطاها دالاس ، ضرورة سحب عروض القرض للسد العالى •

٣ ـ يثير ما يدعيــه ايدن من براءة مما فعله دالاس ، وجهــل به ، الشكوك فى أن عكس هذا الادعاء بالبراءة والجهل هو الحقيقة الواقعة •

٤ ـ كان رد عبد الناصر ، هو ما توقعه أى انســـان يلم بالتاريخ المصرى ، ولم يكن فى وسع أى خبير أن يتجاهل موضوع شركة القناة ، لو طلب اليه أن يقدم تقريرا عمـــا يتوقعه من عبد الناصر كرد فعـــل على ما حدث .

٥ ـ يشير كل ما نعرفه عن تقويم ايدن لموقف عبـــد النـــاصر الى الاعتقاد بأن آخر ما كان يتوقعه ايدن وزملاؤه ، هو أن يقف عبد الناصر ، مجرد موقف سلبى غاضب فى القاهرة

٦ ـ ان كل ما فعله عبد الناصر فى الواقع كرد فعل على العمـــل الغربى الاستفزازى الذى ظل الشك يلف دور ايدن فيه ، قد خلق وضعا كان السير أنطونى ونورى السعيد يودان دون شك ، أن يجعلا منه مبررا وقاعدة لاستخدام العنف ضده .

أما وقد دونا كل هذا ، بات فى وسعنا أن ننتقل الآن الى موضوع السويس نفسه . ترى ما هو رد فعل ايدن على الانبـــاء التى وصلته فى السادس والعشرين من يوليو ؟ وهل كان هذا الرد أصيلا ومعقولا على ضوء ما فعله عبد الناصر ؟ وما الذى فعله عبد الناصر حقا بتأميمه شركة قناة السويس ؟ . وهل يبرر ما فعله اللجوء الى القوة أو التهديد باستخدامها؟ وهل كانت مطالبة السير أنطونى لمصر بايجاد تســوية سلمية للوضع فى قناة السويس تتفق بصورة خاصة وبشكل بارز مع عمل عبد الناصر ومع التفاسير التى قدمها هو ـ أى ايدن ـ لشعبه وبرلمانه والعـــالم بأسره ؟ وهل كان السير أنطونى وزملاؤه الفرنسيون يعتزمون الاطاحة بعبد الناصر منذ البداية وبطريق القوة ، مع العلم أنهم ظلوا ينادون بالاصلاح السلمى للوضع ، واللجوء الى القوة كملجأ أخير لهذه التسوية ؟ وهل كانت الصورة التى رسمها ايدن لهتلر ومنطقة الراين وتشبيههما بالرئيس عبد الناصر وقناة السويس صحيحة وتتفق مع الواقع ؟ وهل كانت هذه الصورة هى التى دفعت رئيس الوزراء حقا الى أن يفعل ما فعل ؟

أرى أن جميع هذه الأسئلة أساسية وجوهرية فى محاولة النفاذ الى جوهر ما وقع فى سيناء والسويس . وأرى لزاما علينا أن نقوم بدراسة هذه الأسئلة والرد عليها قبل أن ننتقل الى معالجة الخفايا الاخيرة للحرب الثلاثية نفسها .

- ١٠ -
التسوية السلمية

« تحتم علينا بوصفنا من الدول الموقعة على ميثاق الامم المتحدة ، أن نبحث أولا عن تســـوية بالوسائل السلمية .. دون أن نتخلى على أية حال ، عن فكرة اللجوء الى القوة ، كملاذ أخير . كان هذا دائما هو الموقف الذى اتخذته حكومة صاحبة الجلالة ، وحكومة فرنسا فى كافة مراحل النزاع ... »

ـ أنطونى ايدن فى مذكراته ـ

هل كان ايدن صادقا فى قوله هذا ؟ وهل كان متأثرا بهـذا المبدأ الذى حدده فى كافة مراحل النزاع ؟ أو أنه كان يعتزم منذ البداية ، هو وزملاؤه اللجوء الى القوة ، لا لاصلاح الوضع بالنسبة الى مشكلة القناة ، بل للاطاحة بحكم عبد الناصر ؟ وما الذى فعله عبد النـــاصر أولا وحقا فى تأميم شركة القناة ؟ وما الحقائق المتصلة بهذه القناة وشركتها ؟

القناة :

كانت شركة القناة فى الخامس والعشرين من يوليو ، والى أن أزفت ساعة التأميم هى المسئولة عن عبور البواخر فى الممر المائى ، واستخدام المرشدين ، وجبى العائدات وصيانة قاع القناة وجانبيها . وكانت هذه الواجبات قد حددت بموجب عقد امتياز بين الشركة وبين الحكومة المصرية التى سجلت الشركة رسميا لديها . وقد ضمن اتفـــاق عام ١٨٨٨ حرية عبور القناة ، وهذا الاتفاق هو تعـاهد قصد منه بوضوح أن يظل سارى المفعول ، مهما حدث لشركة القناة . ونصت المادة الرابعة عشرة من ميثاق عام ١٨٨٨ على ما يلى :

«ان مدة العمل بهذه الاتفاقية غير محدودة بفترة عقد الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس العالمية ... »

ولم تكن الشركة هى التى تملك قناة السويس بمياهها وقاعهـــا وشطئانها ، وانما مصر ، وحدها هى التى تملكها . وكـــان السير أنطونى ايدن نفسه هو الذى أقر اتفاق الجلاء لعام ١٩٥٤ ، الذى نصت المـــادة الثامنة منه بوضوح على أن قناة السويس البحرية .. هى جزء لا يتجزأ من مصر . والعامل الذى يجعل من القناة شيئا دوليا هو ما ترتبط به مصر من التزامات تعاهدية للسماح بحرية العبور فيهـا ، بالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهى أن تجارة أوربا الغربية كلها ، وتجـــارة عدة دول أخرى ، تقوم على الانتفاع من هذه الطريق المختصرة عبر العالم .

ولم تكن الشركة تملك أى سلطان يضمن حرية العبور ، كما أن هذا الضمان **لا يعتبر بحال من الاحوال جزءا من واجبها . وكان هـذا السلطان** فى يد بريطانيا ، عندما كانت قواتها تحتل منطقـــة القناة ، اذ كان فى مكنتها أن تحظر العبور ، كما حظرته ابان الحربين العالميتين . ولكن السير انطونى نفسه وافق على جلاء هذه القوات ، وقد جلت فعلا عن القناة فى مايو (ايار) عام ١٩٥٦ . ولم يطلب ايدن أو الحكومة الفرنســية ، من مصر قبل الجـــلاء أو بعده ، أية ضمانات اضافية خاصة ، بعد أن غدت صاحبة السلطان العسكرى الوحيد فى مصر ، لضـــمان حرية المرور . وكانت الضمانات الوحيدة القائمة لحرية المرور فى شهرى يونيو ويوليو من عام ١٩٥٦ ، ومنذ تم الاتفاق على الجــلاء فى عام ١٩٥٤ ، متركزة فى احترام مصر لميثاق عام ١٨٨٨ ، وقدرة أية دولة وحقهـــا فى الشكوى الى المحكمة الدولية ، على مصر فى حالة خرقها لهذا الميثاق ، وما يمكن للدول ان تتخذه من اجراءات نهائية ضد مصر ، فى حالة خرقها فعلا للميثاق .

ولم تكن هناك أية سلطة مانعة تستطيع أن تؤكد حرية العبور . ولم يكن موظفو الشركة أو مرشدوها ، يحملون أية أسلحة ، كما لم تكن هناك أية قوة عسكرية غير مصرية ترابط فى منطقتها . وكان فى مكـــنة مصر فى أى وقت بعد جلاء آخر جندى بريطانى عن القناة ، وحتى قبل هذا الجلاء بأمد طويل بالنسبة الى الملاحة الاسرائيلية ، ان تحرم العبور فيها على أية دولة من الدول . ولم يكن فى وسع الشركة أن تحول دون هذا ، ولم تحل بالفعل دون منع سفن اسرائيل من العبور فى الماضى . ولم يكن السير انطونى ايدن قد اقترح اســتخدام القوة ، أو حتى خلق أزمة دولية خطـــيرة بسبب منع مصر لسفن اسرائيـــــل من المرور فى القناة .

اذن ما الذى فعله عبد الناصر حقا فى الســادس والعشرين من يوليو ؟ ان كل ما فعله هو انتزاع ملكية الشركة صاحبة الامتياز . وقد تعهد فى نفس البيان الذى صدر فى هذا الصدد ، بالتعويض العادل على جميع حملة الأسهم ، طبقا لأسعـــــار الاغلاق فى بورصة باريس مســـاء الخامس والعشرين من يوليو . وأعلن كذلك أن سلطة مصرية رسمية ، ستتولى ادارة القناة ، فتجبى مصر عائداتها . وتنتفع من هذه العائدات فى تمويل السد العالى .

وقد أعلن الرئيس هذا القرار فى خطاب غاضب ثائر . تحدث فيه عن القومية العربيـــة التى وصفها بأنها بات شعلة ساعـرة من اللهب من « الخليج الى المحيط » . ولم يكن قد أنذر الشركة بأنه ســـيعمل على انتزاع ملكيتها ومصادرتها ، وبينما كان يلقى خطابه ، كانت ســـلطة القناة المصرية الجديدة تضع يدها فجأة على موجودات الشركة وتفرض سلطانها على موظفيها . ولم يقترح التفاوض مطلقـــا مع الشركة على تأميمها ، وانما جعل منه أمرا واقعا .

ولكن عبد الناصر تعهد رسميا بالتعويض . ولم تنطلق رصـــاصة واحدة ، ولم يرتكب أى عدوان . فالشركة مسجلة فى مصر ، والقنـــاة أرض مصرية . ولم يحظر على أية باخرة فجأة حق المرور . ولم تصدر

عن عبد الناصر ، أية بادرة جهرية أو سرية توحى بأنه يعتزم اغلاق القناة فى وجه بريطانيا أو فرنســـا أو أية دولة أخرى باستثناء اسرائيل التى انقضى أمد طويل على حصـــارها . فعلى النقيض من ذلك ، أوحى خطاب الرئيس عبد الناصر الذى أعلن فيه ان عائدات القناة ستســتخدم فى تمويل السد العالى ، بوجود مصلحة مباشرة لمصر فى الابقاء على القنـــاة مفتوحة أمام جميع البواخر ، ولا سيما تلك التى تعود الى كبار المنتفعين بها وفى طليعتهم بريطانيا التى ألفت بواخرها فى مجموع حمولتها ربع الحمولة التى مرت بالقناة فى عام ١٩٥٥ .

وكان من حق بريطانيا وفرنسا وغيرهما من دول العالم المنتفعـــة بالقناة ، أن تطلب الآن تأكيدات صريحة بأن مصر ستواصل احترام حرية المرور فيها ، وأن مصر بعد أن وضعت يدها على العائدات ، ســـتبقى الرسوم على مســـتواها الخفيض السابق ، وتحفظه مســـتقرا وواحدا بالنسبة الى جميع الدول ، وأنها لن ترفع هذه الرسوم الا بعد مفاوضات صحيحة مع المنتفعين(١) . وكان من حق العالم أيضا الحصــول على تعهدات صريحة وواضحة بأن نسبة معقولة من دخل القناة ستستخدم فى صيانة قاعها وضفتيها وفى تحسينها طبقا لاحتياجات العـــالم اليها . ولم تكن جميع هذه المطالب ، مجرد أمور مشروعة فقط ، بل ان الطريقة التى اتبعت فى هذا التأميم ، تفرض مثل هذا النوع من الالتزام (٢) .

(١) كان المؤلف منصفا كل الانصاف عند تحدثه عن حق مصر فى القناة ، ولكننا نعتقد أنه قد جانب هذا الانصاف عندما تحدث عن حق الدول فى مطالبة مصر بكيت وكيت ، من الشروط ، لا سيما بالنســـبة الى الطريقة التى صاغ فيها هذا الحق . فالقنـــاة أرض مصرية ، وان كانت تؤلف ممرا مائيا دوليا ، ولا يختلف وضعها من ناحية الســـيادة عليها عن وضع قناة بناما التى تمر فى أراضى جمهـــورية بناما ، والتى تفرض الولايات المتحدة عليها حق السيادة بطريقة لا نود الخـــوض فيها الآن . ولكن ما أود قوله هنا ، هو أن قوانين الملاحة الدولية هى التى تحدد حقوق مصر والتزاماتها بصدد السويس ، وأن لا مجال هنـــاك للتحدث عن حقـــوق أخـــرى للدول المنتفعة بالقناة . وكما أن قوانين الطيران الدولية هى التى تحدد قواعد استخدام المطارات والممرات الجوية العالميه بموجب اتفاقات دولية منظمة لا وجود فيهـــا لحقوق خاصـــة بالنسبة الى دولة أخرى غير الدولة التى توجد فيها أو تمر فى أجوائها . فان القوانين الدوليـــة البحرية هى التى تحـــدد الوضع بالنسبة الى ممر السويس المائى أيضا .

ـ المعرب ـ

(٢) أعتقد أن الانصـــــاف قد جاوز المؤلف ثانية هنا . فليس فى الطريقة التى اتبعها سيادة الرئيس عبد الناصر فى اعلان التأميم ، أى خروج على حقه المشروع فى تأميم القناة أو فى تأميم أية شركة أجنبية أخرى فى بلاده ، يمنحه اياه القـــانون الدولى . ولم يكن من المنتظر أن يقابل سيادته قرار الغرب بسحب العروض وهو القرار الذى حاوز كل مألوف دولى فى اعلانه وصيغته باللين والوداعة كما لم يكن من المنتظر أن ينأى عن المفاجأة فى الاعلان ، ليتيح المجال للشركة المستغلة تهريب أموالها وموجوداتها .

ـ المعرب ـ

ولكن السير أنطونى ايدن وزملاءه لم يطلبوا أى شىء من هذا القبيل وانما كان ما طلبوه فورا ، وهم يعدون عدتهم عسكريا مضفين عليها كل أشكال العلنيه والجهر ، ايجاد سلطة دولية « تتولى ادارة القناة » .

ولقد طلب ايدن أن تقوم هذه السلطة الدولية بتشغيل القناة عن طريق التعاقد مع المرشدين وتأمين عبور البواخر فيها وجمع العائدات واعطاء مصر حصـة معقولة (أى عقـل ؟) منها ، وصيانتها وتحسين أوضاعها . وقد يكون من الواضح أن هذه المطالب ، تعتبر تدبيرا نموذجيا لادارة كافة الموارد والتسهيلات ذات الصبغة العالمية سواء أكانت قنوات وممرات مائية كالسـويس أو بناما أو كييل ، أو مطارات جـوية ذات صبغة عالميـة . وهناك من ينادى أيضا بقيـام « منظمة عالمية عادلة » تتولى السيطرة على جميع الموارد والمرافق العالمية الاساسـية كالزيت والاورانيوم وغيرهما . ولكن مثل هذه السلطة الدولية حتى على الممرات المائية الدولية ، لم تكن مفروضة على أى ممر دولى كما لم يسبق لأحد أن طالب بها . فلماذا يستثنى ايدن قناة السويس من هذا الوضـع ويطلب لها تنظيما خاصا بها ؟

ولقد تركـزت حججه العلنية منـذ السابع والعشرين من يوليو على ما يلى :

« لن تقبل حكومة جلالتها أى ترتيب لمستقبل هذا الممر المائى العظيم يبقى عليها تحت السيطرة « غير المقيدة » لدولة واحدة » . (١)

ويضيف السير أنطونى ايدن فى نهاية قصته عن السويس ، تعريفا آخر ضمنه تنبؤا ينطوى على التشاؤم اذ قال :

« لا ريب فى أن أوربا الغربية ستكون من السذاجة بمكان عظيم اذا توقعت أن تضمن لها حرية المرور فى القناة فى أوقات الطوارىء الا اذا كان لديها القوة الكافية على فرض هذه الحرية ، وهى قوة لا أعتقد أنها ستتوافر لها من جديد » .

ان هذا التأكيد فى هذه العبارة على القوة الكافية ترمز الى قضايا فى منتهى الخطورة . فلقد ظل ايدن وزملاؤه طيلة الفتـرة التى تلت السابع والعشرين من يوليو والتى تظاهروا فيها بالعمل من أجل ايجاد حل سلمى للوضع يؤكدون أن عبد الناصر قد « اغتصب القناة » ، وهذا ماذكره ايدن فى اذاعته فى الثامن من أغسطس ، وأن مصر باتت تملك « سيطرة لا مقيدة » عليها ، وأن بريطانيا والعالم بأسره قد خسرا « القوة لفرض » حرية المرور فيها . ولكن ايدن فى قوله الى البريطانيين بأن عبد الناصر قد « اغتصب القناة » ، كان يرتكب مغالطة لا يمكن للمرء أن يشك فى أنها كانت مقصودة ومتعمدة . ولم يكن ثمة خارج مصر من انسان أكثر دراية ومعرفة بأن مصر لا تستطيع « اغتصاب القناة » **لانها مصرية لحما** ودما ، وطبقا لنصوص جميع الاتفاقات التى كان من ضمنها الاتفاق الذى

(١) خطاب ايدن فى مجلس العموم فى ٣٠ يوليو ١٩٥٦

وقعه ايدن نفسه . ومع ذلك فقد ظل السير انطونى ، وهو الدبلوماسى الفاره ، ذو الخبرة الطويلة طول حياته فى الدقائق القانونيه وأهميتها ، يردد منذ بداية تلك الازمة الى نهايتها ، وحتى فى مذكراته بعد انتهائها ، هذه الاكذوبة الضخمة ذات الطابع الملتهب بصـورة علنية (١) . ولقد نجح ايدن الى حد كبير فى ما هدف اليه ، اذ طبـع مغالطته فى عقول البريطانيين حتى اننا نرى التعبير الشائع حتى اليوم عند الاشارة الى أزمة السويس ، يتردد على ألسنة البريطانيين على هذا النـحو .... وعنده : اغتصب عبد الناصر القناة أو أممها . وليس المقصـود فى هذا التعبير مجرد المماحكة أو المشاكسة ، بل انه يؤلف خلاصة الازمة كلها وجوهرها .

ولعل ما هو أهم من هذا على أى حال ، ادعاؤه ، بأن مصر باتت تملك الآن « سلطة غير مقيدة » على القناة لاول مرة ، وكأنه يعنى بذلك ان هذه السلطة لم تكن موجودة لديها فى الوقت الذى كانت الشركة فيه تتولى ادارة القناة ، وان عمل عبد الناصر قد أدى الى اضاعة قدرة العالم « على فرض حرية المرور » . ولكن لو كانت الشركة قد ملكت فى يوم ما « السلطة على فرض حرية المرور » لكان فى امكانها حتما أن تجد القوة على مقاومة قرار مصادرتها فى السـادس والعشرين من يوليو . فالواضح أن الشركة لم تملك قط هذه السلطة . ومن الواضح أيضـا أن عمل عبد الناصر لم يفرض « سيطرة » جديدة على القنال ، اذ أن مصر كانت تملك هذه السيطرة الشرعية منذ سنوات طويلة . وجدير بنا أن نذكر ، أن وجود القوات البريطانية نفسها فى المنطقة حتى شـهر حزيران « يونيو » لم يحل بين مصر ، وبين ممارستها هذه «السيطرة» فى موضوع الملاحة الاسرائيلية التى منعتها من عبور القناة .

وكان هناك تناقض أكثر بروزا فى موضوع «الحل السلمى للوضع» والمبررات التى استخدمت له . فلقد اقترح السير أنطونى قيام سلطة دولية لتولى ادارة القناة ، وزعم أن وجود هذه السلطة ، سيزيل «سلطة مصر غير المقيدة » عليها . وليس ثمـة الا سبيل واحد ، تستطيع هذه السلطة الدولية أن تحقق بواسطته اقتراح ايدن . وهو ايجـاد قـوة عسكرية دولية ترابط دائما على ضفتى القناة لحماية «السلطة الدولية» وحماية البواخر التى تنشد عبورها ، من السلطان العسكرى المصرى . ولكن ايدن لم يتقدم بمثل هذا الاقتراح أبدا . فلقد طالب بأن يعمـل مجلس الادارة الدولى طبقا لاتفاق خطى يعقد مع مصر ، ولا يمكن أن يكون لهذا المجلس سلطان أضخم لفرض حرية المرور — من ذلك الذى كان فى حوزة الشركة وهى تتولى ادارة القناة . فالمعاهدات وحدها هى التى تضمن حرية المرور . فمصر وحدها ستظل حتى مع قيام هـذا

(١) كان من بين الحجج التى أوردها ايدن وموليه وشركة القناة . ان مقدمة ميثاق عام ١٨٨٨ ، « ضمنت » امتياز الشركة ، ولذا فان الغاء عبد الناصر للامتياز يعتبر خرقا للميثاق نفسه . ولكن ايدن وموليه ورجال الشركة لم يكلفوا أنفسهم عناء تذكير الرأى العام العالمى بأن المادة الرابعة عشرة من الميثاق تبطل هذه الحجة تمام الابطال . — المؤلف —

المجلس ، صاحبة السلطان الفعلى على القناة ، وصاحبة السلطة الفعلية فى منع حرية المرور للسفن التى ترغب حكومتها فى منعها .

ومع ذلك ، كان من حق العالم أن يطلب تأكيدات واضحة ومحدودة (١) من عبد الناصر بالنظر الى الطريقة التى اتبعها فى تأميم الشركة . وسنرى بعد قليل وبصورة مفصلة بأن عبد الناصر قد قدم مثل هذه التأكيدات بين السابع والعشرين من يوليو وبين السادس عشر من اكتوبر ، لا فى شكل تعابير عامة لا تحديد فيها عن حرية المرور فحسب ، بل فى شكل اقتراحات عملية محددة ومفصلة أيضا .

وسنرى فيما بعد أيضا أن ايدن وشركاءه لم يكتفوا بعد السابع والعشرين من يوليو ، بتجاهل هذه الاقتراحات المصرية تجاهلا كليا فحسب ، بل حاولوا منع عرضها على الشعب البريطانى وشعوب الغرب عامة . وواصل ايدن حتى فى مذكراته الرغبة فى منع الناس من تفهمها .

وبالاختصار ، حاول ايدن وزملاؤه منذ اليوم الاول للأزمة ، أن يشوهوا حقيقة ما فعله عبد الناصر ، وما يعنيه هذا العمل للمنتفعين بالقناة ، وأن يلقوا عليه لباسا من التضليل . ولقد تظاهروا بتقديم اقتراحات سلمية لا يمكن لها أن تصلح الوضع ولا أن تزيل الخطر « الكاذب » الذى حاولوا تصوير وجوده للناس . وشرعوا منذ البداية فى محاولة الحجب عن بريطانيا والعالم ، أن مصر كانت تؤكد وجود مصلحة كبيرة فى تأمين حرية المرور ، وانها كانت تعرض أوضح التأكيدات المتعلقة بكل نقطة من نقاط القلق المشروع على مستقبل القناة . ويزل القلم بيد ايدن وهو يدون مذكراته المليئة بمثل هذه الزلات ، فيعترف ، بحقيقة ما كان ينتويه ، باقتباس البرقية التى بعث بها الى أيزنهاور فى السابع والعشرين من يوليو والتى قال فيها :

« ومن الواجب ألا نسمح لانفسنا بالخوض فى مجادلات فقهية حول حقوق الحكومة المصرية ، فى تأميم شركة تعتبر اصطلاحا شركة مصرية .... واننى لأثق بأن الواجب يحتم علينا أن نثير المشكلة مع عبد الناصر على أوسع نطاق دولى ممكن » .

ويمكن لنا الآن أن نرى الطريقة التى عملت فيها هذه الخطة التى وضعها ايدن فى التأثير على الرأى العام ، من صورة التعليقات التى ظهرت فى صحيفة التايمز اللندنية . فلقد نشرت فور ظهور أنباء التأميم فى السادس والعشرين من يوليو ، مقالا يحمل توقيع «خبير» جاء فيه ان الشركة مصرية من الناحية القانونية ، ولكنه مضى الى القول ، بأن بقاء ميثاق عام ١٨٨٨ الذى يضمن حرية المرور نافذ المفعول حتى بعد زوال الشركة من الوجود ، « تعتبر ردا على أولئك الذين يقولون بأن تأميم عبد الناصر للشركة سيؤدى الى اغلاق القناة أو يهدد باغلاقها » . ولكن هذه الصحيفة نفسها عادت الى القول فى الاول من آب (أغسطس)

(١) سبق أن أوضحت فى صفحة سابقة أن لا وجود لهذا الحق مطلقا . ـ المعرب ـ

وبعد أن شرع ايدن يعمل على انهاء أى خوض فى بحث المجالات الفقهية » . مفيرة رأيها الاول على النحو التالى :

« ان النقاش فى القضايا الفقهية القانونية حول ما اذا كان من حق عبد الناصر قانونا أن يغتصب القناة . سلوك يطرب المتأنقين ويبهج ضعاف القلوب ، ولكنه لا يصل مطلقا الى صلب القضايا وجوهرها » .

صورة ايدن عن هتلر وانتزاع الراين :

أثبتنا حتى الآن أن رد فعل حكومتى ايدن ومولية على عمل عبد الناصر ، بالنسبة الى موضوع القناة ومستقبلها ، كان مصطنعا وزائفا كل الاصطناع والزيف . وأرى لزاما على قبل البحث فى الاسباب التى أدت الى هذا الاصطناع . أن أتعمق فى بحث دوافع ايدن الحقيقية والخاصة ، من «جهرية وخفية» . ويتلخص رأى بعض الذين يعتبرون أنفسهم وسطا بين الآراء المتناقضة كل التناقض حول قضية السويس، والذين يتميزون بشىء من التفكير ، فى أن ايدن كان يود بالطبع الاطاحة بعبد الناصر ، حتى ولو لم يجهر بعزمه هذا ، ويضيفون أن الحافز لايدن على اتخاذ هذا الموقف أصيل ومعقول ، اذ أنه كان يخشى أن يكون عبد الناصر ، صورة ثانية لهتلر وأن يكون تأميم القناة صورة أخرى لاعادة احتلال ألمانيا للرايخ . ولكن هل كان هذا الخوف أصيلا حقا ؟ أو أنه كان المبرر العاطفى ، والتبرير العقلى الظاهرى ، لحوافز أخرى ؟ حقا لقد كانت الصور التى استثارها ايدن فى هذا الموضوع مؤثرة الى حد خطير ، ولكن هل كانت صورا حقيقية يا ترى ؟

لا ريب فى أن هذه الاسئلة الطريفة للغاية كانت تسيطر على المرء عندما يشرع فى قراءة مذكرات ايدن . فالكتاب يعالج موضوع عبد الناصر ، والعلاقات بين مصر وبريطانيا ، التى كان ايدن مسئولا عنها منذ عام ١٩٥٤ . ففى القصة المفصلة والطويلة التى يعرضها فى كتابه نرى رأيين متعارضين يشكلان قطبين متباعدين ، بالنسبة الى وجهة نظره فى عبد الناصر . فهو يقول عنه بالنسبة الى عام ١٩٥٤ ما يلى : ـ

« ولم تظهر الادارة الجديدة فى مصر أيا من العلائم التى توحى بوجود تلك المطامح التوسعية التى ظهرت فيما بعد . ولهذا ظهر لنا اتفاق الجلاء بعد وزن ما فيه من مزايا وعيوب ، نافعا لنا وجديرا بتجربتنا » .

ولكن لم يكن قد ظهر حتى ذلك الحين أى مجال من أى نوع لتجربة الاتفاق . ولكن السير انطونى أحس بوضوح على أى حال . فى هذا العام الذى دون فيه مذكراته ، أى فى عام ١٩٦٠ ، بأن من واجبه أن يشير الى ان الاتفاق لم يكن الا مجرد تجربة ، وأنه كان يفكر طيلة الوقت بأن الضرورة قد تقضى بتعديلها ، ولكننا اذا مضينا فى حديثنا ، وجدنا القطب التاريخى الثانى من الصورة التى رسمها ايدن لعبد الناصر ، فى الصفحات الختامية من قصته عن السويس ، بعد أن كانت بريطانيا وفرنسا قد شرعتا فى تدخلهما ، اذ يقول :

« لقد تأخر الغرب كثيرا فى الاطلاع على الكتاب الذى وضعه عبد الناصر عن « فلسفة الثورة » كما تأخر فى الماضى عن قراءة كتاب « كفاحى » لهتلر ، مع أن الكتاب الجديد أقصر بكثير من سابقه ، وأقل تضخما ولكن حكام الشرق قد قرءوه » .

وكانت نظرية السير انطونى كلها . تقوم على أن الرئيس عبدالناصر قد أعلن ، مطامحه التوسعية المزعومة فى هذا الكتيب الصغير . وواصل ايدن وزمرته منذ أيام أغسطس الاولى ، تحذير بريطانيا والعالم بمنتهى الجد والخطورة ، من أن مافعله عبد الناصر بتأميم القناة لم يكن الا مجرد خطوة واضحة فى طريق تنفيذ مطامحه التوسعية الضخمة التى اعترف هو بنفسه بوجودها . وهكذا نرى أن ايدن يؤكد أن عبد الناصر لم يكن قد طلع بهذه « الاعترافات » فى عام ١٩٥٤ ، ولكنه طلع بها الآن فى أكتوبر عام ١٩٥٦ ، وان كان « الغرب » قد تأخر فى قراءتها كما سبق له أن تأخر فى قراءة « كفاحى » .

ولكن لنعد الى التاريخ قليلا ، فعندما وقع ايدن اتفاق الجلاء فى عام ١٩٥٤ ، كان كتاب « فلسفة الثورة » مطبوعا وموزعا . فلقد ظهر الكتاب أول ماظهر فى ابريل – مايو ١٩٥٤ ، فى شكل مقالات نشرتها احدى كبريات الصحف اليومية فى القاهرة ، وكانت تترجم فى كل صباح الى الانكليزية فى دار السفارة البريطانية فى القاهرة . ولو أردنا اضفاء شىء من المنطق على رواية السير انطونى ، لتحتم علينا أن نصدق ، أنه على الرغم من أن هذا الكراس قد تضمن المطامع المفزعة والمرعبة والشاملة التى حذر منها ايدن شعبه البريطانى ابان أزمة السويس فى عام ١٩٥٦ ، فان أى انسان فى السفارة البريطانية فى القاهرة لم يجد فيها فى عام ١٩٥٤ ، مايفزع أو يخيف مما يتطلب منه أن ينقله الى لندن وأن يلفت انتباه وزير الخارجية ، – أى ايدن – الذى كان يتفاوض آنذاك مع مصر على جلاء القوات البريطانية عنها .

وهناك شىء آخر ، فقبل أسبوع واحد من عقد اتفاق الجلاء بصورة رسمية الذى تم فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بدأ كتيب عبد الناصر ، فى الظهور على حلقات فى صحيفة الاوبزرفر اللندنية . ومع ذلك ظل ايدن – كما أعلن فى مذكراته – يرى آنذاك أن عبد الناصر لم يكن قد كشف – بعد عن مطامحه ، وهو يطلب الينا بعد ذلك أن نصدق ، بأنه هو وزملاءه فى وزارة الخارجية لم يعرفوا حتى ذلك الحين بأمر هذه الوثيقة التى عاد ووصفها بأنها مخيفة فى عام ١٩٥٦ .

ومضى ايدن يقول ... انه «ظل نحوا من اثنى عشر شهرا » بعد اتفاق الجلاء « لا يرى مدى مطامع مصر التوسعية » ويصل بنا قوله هذا الى نوفمبر عام ١٩٥٥ الذى نستنتج منه أن ايدن ظل حتى ذلك التاريخ كما يبدو لا يعرف شيئا عن « كراس » عبد الناصر ، مع أن هذا الكتاب كان قد انتشر انتشارا واسعا طيلة عام ١٩٥٥ فى طول الشرق الاوسط وعرضه ، اما على شكل مطبوع أو على شكل مذاع . وكانت الحكومة المصرية قد وزعت عن طريق سفاراتها فى كل مكان نسخا مطبوعة بالانكليزية من الكتاب . ومع كل هذه الحقائق السافرة ، يطلب الينا

ايدن أن نصدق أن أيا من موظفى جهاز وزارة الخارجية البريطانية سواء فى مركزها أو فى سفاراتها فى الخارج ، لم ير خطورة فيما نعته سلوين لويد فى الرابع عشر من آب (أغسطس) عام ١٩٥٦ ، باعترافات عبد الناصر الواضحة عن مطامعه .

وأرى هنا أن نسير قدما مع رواية ايدن الخطية ، وأن نتساءل عند هذه النقطه عن الطريقه التى عالج فيها فى مذكراته ما جرى بينه وبين عبد الناصر من اتصالات قبل عام ١٩٥٦ . ولقد روينا فى فصل سابق المبادرة المتعلقة بفلسطين والتى وردت فى خطاب ايدن الهام فى جيلدهول فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٥ . فلقد شرع فى ذلك التاريخ فى محاولة من أكثر محاولاته الدبلوماسية أهمية فى الشرق الاوسط ، عن طريق السعى للحصول على تأييد عبد الناصر ، سرا وعلانية بصورة سابقة عن البيان الذى انتوى الافضاء به . وقد هوجم ايدن . فى ذلك الحين هجوما عنيفا من اسرائيل عن طريق صحافتها وبياناتها الرسمية . اذ وصفت صحيفة « الجيروسالم بوست » الصهيونية خطوته بأنها « هجوم سلمى صدر عن وزارة الخارجية البريطانية فى القاهرة » . ولكن السير أنطونى يشير فى يومياته الى خطابه فى جيلدهول والى مبادرته الدبلوماسية اشارة عارية ، تعتبر الالفاظ التى لجأ الى التعبير عنها بها كثيرة الدلالة اذ قال :

« وتعمدت ألا أكون واضحا فى ملاحظاتى رغبة منى فى اثارة المحادثات حتى ولو باساليب الصاعقة ... وسيتطلب الوضع بعد ذلك اجراء مفاوضات طويلة وكثيرة الدقة ... وقد بدأت الآن فى التفكير انه بعد شروع الاسلحة الروسية فى التدفق على مصر بهذه الكميات الهائلة لم يعد من الحكمة فى شىء اثارة قضية الحدود . ولكن المحاولة فشلت على أى حال » .

ويتعمد السير أنطونى هنا أن يخفى حقيقة واحدة وهى أن هذه « المفاوضات الطويلة والكثيرة الدقة » ، قد وقعت بالفعل مع عبدالناصر كما روينا من قبل . وهو يسقط كذلك من مذكراته حتى الاشارة الى تلك القذائف المدفعية من نقد اسرائيل ، التى انصبت على رأسه . وهو يحاول أن يمر بالحادثة كلها مر الكرام ، بطريقة تجعل القارىء عاجزا عن تكوين أية فكرة عن الاتساق الذى كان قائما فى العمل بينه وبين عبد الناصر ، كما يخفى عليه ، أى على القارىء ، الحقيقة الواقعة وهى ان اسرائيل هى التى أحبطت خطوته السلمية هذه . ويتضح السبب الذى دفعه الى هذه المحاولة من اخفاء الحقائق فى مكان لاحق من مذكراته عندما تبنى ايدن وجهة نظر موالية لاسرائيل فى نزاعها الكلى مع العرب وأن ما أصل اليه من استنتاج ، بالنسبة الى هدف ايدن من تعمد حذف أية اشارة لعلاقاته بعبد الناصر ، فى مثل هذا الكتاب الذى يضم من التفاصيل الوافية ما يتناول كل موضوع ، هو أن السير أنطونى لم يرغب أبدا فى أن يظهر نفسه أمام شعبه بمظهر الذى نشد عون عبد الناصر فى أى وقت من الاوقات . ولا ريب فى أن ما أقوله هذا هو تصحيح رجعى للتاريخ .

ولكن ترى متى قرأ ايدن نفسه ذلك الكتيب الذى زعم أن محتوياته

تنطوى على الكثير من النذر؟ لو أخذنا بعين الاعتبار جميع الادلة السطحية لقلنا انه قرأه فى أغسطس عام ١٩٥٦ ، اذ أنه فى كتاباته يؤكد أن اطلاعه على الكتيب كان عاملا حاسما فى تقرير حياته الدبلوماسية كلها . ولو أخذنا بعين الاعتبار ، ماوجهه من نقد « الى الغرب » لانه لم يكن قد قرأ الكتيب قبل وقوع أزمة السويس ، لتبين لنا انه يحاول أن يوحى لقرائه بأنه قرأه فى ذلك الوقت ، وأن ما فيه من محتويات قائمة ، هى التى وجهته فى جميع ماقام به من تصرفات ابان الازمة . ومع ذلك فقد تجاهل ايدن فى جميع مذكراته التى وصفت بأنها « كتاب » ينطوى على جميع أفكار الساعة كما دونها فى وقتها لتتناول قضايا الساعة ، الاشارة الى التاريخ الذى لفت فيه نظره لاول مرة الى هذا الكتيب . حقا ان هذا أمر غريب كل الغرابة . وقد تشتد هذه الغرابة ، عندما نتذكر ، أن سلوين لويد وزير خارجية ايدن قد أعلن لبريطانيا فى اذاعته فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٦ ، بأنه قرأ كتيب عبد الناصر « قبل مدة قصيرة » . ومن هنا تزداد الشكوك لدينا بان نظرية « تشبه عبد الناصر بهتلر » ، قد اختلقت واختيرت لاغراض تتعلق بالجدل الذى أعقب نشوب أزمة السويس .

ويصبح شكنا هذا طاغيا عندما ندرك أن تفسيرات ايدن ولويد لما أسمياه « باعترافات عبد الناصر الواضحة » هى من الكذب والتضليل على درجة كبيرة لا بالنسبة الى نصوصها فحسب بل بالنسبة الى طاقة مصر الفعلية ، والى سلوك عبد الناصر الفعلى بعد عام ١٩٥٦ . ولا ريب فى أن هذا التشويه المقصود لعبارات عبد الناصر فى كتيبه ، ولايمكن أن أسميه الا تشويها من جانب ايدن ولويد ، مهم كل الاهمية لقصة العلاقات بين العرب والغرب ، وسأتناول تفصيله فى مكان لاحق من هذا التحقيق .

وأرى لزاما علينا بعد ذلك أن نسأل اذا كان ما فعله عبد الناصر يمكن أن يقارن ، طبقا لأية قواعد ، بما وقع فى « الراين » ، وهو تشبيه واصل ايدن ابرازه فى ذلك الوقت وكان مازال يحاول ابرازه حتى عند كتابة مذكراته . وحرى بنا قبل الخوض فى البحث فى هذه النقطة ، أن نقول ان هذا التشبيه لم يكن مجرد ابتكار من مراقب هاو للشئون الدولية ، بل كان صادرا عن رجل قضى حياته فى الدبلوماسية وبرز فيها وكان على أتصال دائم بأحداث فترة « الراين – ميونيخ » وما تبعها من تطورات (١) ونحن نرى ان ايدن يطلق تحذيرا فى مذكراته من المقارنات

---

(١) أرى لزاما على ان اشرح هنا ما يعنيه الغرب أو ايدن على الاخص بتشبيه أزمة السويس بالراين ، لقد نصت معاهدة فرساى فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، على ان تظل منطقة الراين الألمانية منزوعة السلاح ، لتكون فاصلا بين المانيا وفرنسا . وقد ظلت المنطقة على هذا النحو منذ عام ١٩١٩ حتى مارس عام ١٩٣٦ عندما أمر هتلر قواته التى كانت لاتزال ضعيفة حتى ذلك التاريخ باحتلال المنطقة عسكريا متحديا بذلك معاهدة فرساى . وتتابعت بعد ذلك أعمال هتلر من ضم النمسا فالسويد فأزمة ميونيخ ، فاحتلال تشيكوسلوفاكيا فالهجوم على بولنده . وقد =

الخطرة المستمدة من الماضى بالنسبة الى ماوقع فى الهند الصينية ، ولكنه لا يلبث أن يناقض نفسه تمام المناقضة فى هذا الصدد عندما يشرع فى الحديث عن السويس . انه يقول عن عام ١٩٥٤ ...

« ولم أقتنع قط بتأكيدات المستر دالاس آنذاك بأن الوضع فى الهند الصينية ... يشبه احتلال هتلر لمنطقة الراين » .

ولكن هل كان عمل عبد الناصر فى موضوع السويس يشبه عمل هتلر ؟ أنا لا أرى ضرورة هنا لتبرير ما عمله عبد الناصر ، أو لاضفاء صورة زاهية عليه فى عبارات براقة . ان القضية لاتعدو أن تكون مجرد التساؤل عما اذا كان عمل عبد الناصر فى السادس والعشرين من يوليو ، يمكن أن يقارن باحتلال الراين فى حدود التجارب التى مر بها السير أنطونى طيلة حياته ، وعلى ضوء تحذيره السابق من اجراء مثل هذه المقارنات . لقد تم تأميم القناة دون اطلاق عيار نارى واحد ، ولم يجتز اى جندى مصرى أية حدود ، كما لم يكن ثمة أى تهديد بعبور هذه الحدود . ولم تعلن مصر أية تعبئة لقواتها للقيام بهذا العمل . ولم تغتصب مصر بعملها هذا أرضا أجنبية أو أرضا يجرى النزاع حولها . ولم يكن حتى سلوين لويد كما يظهر قد قرأ مايسميه ايدن كذبا « باعترافات » عبد الناصر التى حاول تشبيهها باعترافات هتلر فى كتابه « كفاحى » ولم تمنع مصر أية سفينة بريطانية من عبور القناة أو تحاول حتى اعاقتها ، كما لم تهدد باتخاذ مثل هذا الاجراء ... فمن الصعب علينا والحالة هذه أن نجد أى وجه للشبه مهما كان بعيدا بين السويس وبين مشكلة الراين ، التى كانت ملامحها لاتزال حية الى حد كبير فى ذهن ايدن ، مما دفعه قبل عامين أى فى عام ١٩٥٤ ، الى التحذير من تشبيهها حتى بحرب فعلية كحرب الهند الصينية تقوم على قدم وساق .

وأرى من الانصاف للسير أنطونى أن أقول على الفور ، أنه لم يكن وحيدا فى ابراز هذه الصورة ، أى صورة الراين . فلقد بادر الى ذلك أيضا المستر جيتسكيل (زعيم العمال) ، فى الخطاب الاول الذى ألقاه فى البرلمان بعد أزمة السويس والذى تميز بالتعجل وعدم الاتزان فى التفكير ، والذى كان ولاشك حافزا للسير أنطونى ومشجعا له على أن يقول ماقاله ، كما زوده بالمادة الضخمة لمهاجمة جيتسكيل والمعارضة فيما بعد عندما شرعت تقف فى طريق تنفيذ خططه . ولكن صدور هذا التشبيه عن جيتسكيل لايبرر مطلقا لايدن أن يحذو حذوه . فلقد كان

= ظهرت فى الغرب كتب عدة تقول ان الغرب ، لو وقف من هتلر موقفا حازما فى عام ١٩٣٦ ، عندما عادت جيوشه الى احتلال الراين . وكان فى قدرته أن يقف نظرا لضعف الجيش الالمانى آنذاك لما تكررت أعمال هتلر ونشبت الحرب العالمية الثانية . ولكن هذا التشبيه الغربى يناقض تماما الحقيقة ، اذ ان سيادة الرئيس عبد الناصر ، لم ينقض معاهدة أو اتفاقا دوليا فى قرار التأميم ، وانما أصلح وضعا كان جائزا بالنسبة الى مصر ، ولم يكن فى يوم من الايام يفكر بالاعتداء على أحد ، وانما جعل رائده تحقيق رسالته الوحدوية التاريخية التى لاتنطوى على أى عدوان .

– المعرب –

الشخص الواحيد – اذا استثنينا تشرشل وقلة من الناس – الذى عاش فترة قيام هتلر على مقربة من الاحداث وعالجها واطلع على نتائج سياسة التهدئة التى اتبعت ازاءه .

ومع كل هذا نرى أن عبد الناصر ينقلب فى السادس والعشرين من يوليو « بقدرة قادر » الى هتلر ، وتتحول مصادرة شركة قناة السويس الى عملية « احتلال الراين » . ويصل بنا هذا ، الى النقطة الاخيرة فى هذا التحليل الخاص . فلقد رأينا كيف أن ايدن كان يشتبك منذ عدة أشهر قبل السادس والعشرين من يوليو ، فى صراع قلق مع عبد الناصر حول السياسات التى كان يتبعها فى جميع أرجاء الشرق الاوسط ، والاحداث التى دارت على مسرحه ، والتى كان من المعتقد أنه مسئول عنها مسئولية شخصية مباشرة كمظاهرات البحرين وطرد جلوب من الاردن وما شابه ذلك من أحداث . ولكننا لانراه على أى حال فى قصة تلك الايام القلقة التى سبقت السادس والعشرين من يوليو ، يلقى ولو مرة واحدة أية ذرة من الشك ، أو حتى يقوم بأية محاولة تشبيه اختيارية للوضع بقصة هتلر وحوض الراين . وهو مع ذلك يطلب الينا أن نصدق ، أنه على الرغم من أنه لم يقرأ كتاب عبد الناصر ، قبل نوفمبر عام ١٩٥٥ ، وان كان قد قرأه عندما نشأت أزمة السويس ، وأحس احساسا خطيرا بخطأ الغرب فى تأخره فى قراءته ، لم تدر فى خيالهصورة هتلر الجديد قبل السادس والعشرين من يوليو .

هناك سر خفى يحيط بهذه القضية ، وهو يتلخص فى الشك شكا هائلا فى أن تكون صورة « هتلر وحوض الراين » هى الحافز الجذرى الخفى الذى دفع ايدن الى سياسته الجديدة . ويتمثل هذا الشكأيضا فى انه هو وزملاءه ، قد نادوا عامدين متعمدين بتفسير لكتاب عبد الناصر على أساس أنه صورة أخرى « لكفاحى » ، وأن هذه الصورة كاذبة كل الكذب ، ومضللة كل التضليل . وانى لارى هذا التشويه الخاطىءيحيط بجميع القصة المسهبة التى أوردها ايدن عن علاقاته بعبد الناصر منذ عام ١٩٥٤ ، وبكل ما اتصل بها من تسلسل الحقائقالمتعلقة بهذاالكتيب . وليس ثمة ما يوحى مطلقا بأنالتفكير فى هتلر الثانى قد ظهر قبلالسادس والعشرين من يوليو ولاشك فى أن هذه المقارنة ، حتى على صعيد تعبير ايدن نفسه بالنسبة الى ماذكره عن الهند الصينية تعتبر ضعيفة الى حد يبعث على الالتباس والريبة . فكيف يمكننا والحالة هذه أن نفسر هذا الموقف ياترى ؟

دوافع ايدن الحقيقية :

قد لايكون هدفى من هذا البحث أن أظهر ايدن فى صورة « هتلر » التى رسمها ، بمظهر الانسان الافاك الذى يتعمد الكذب علنا . اذ أننى أعتقد أن الحقيقة أكثر تعقيدا ، من مثل هذا الايضاح المباشر ، لانها تتعلق كما تتعلق القضايا الرسمية دائما بتقويم لقائد مجموعة حاكمة بارز كل البروز ومتألق كل التألق ، كرجل ، وكفرد .

كان ايدن رجلا مريضا ، يحمل أعباء ضخمة من مسئوليات

الحكمولقد ظل حتى تبوأ رياسة الحكم فى عام ١٩٥٥ ، رجلاقضىحياته الرسمية الطويلة ، مفسرا – على حد تعبيره هو المجازى فى مذكراته المليئة بالاستعارات – للعبة الدبلوماسية . فهو يتقن تنفيذ السياسات التى يضعها سواه اتقانا كاملا ، كما يحسن التوسط فى مجال ، لايكون هو مسئولا عنه مسئولية سياسية تامة . وقد أظهر فى توليه قيادة الوساطة البريطانية فى أزمة الهند الصينية كل مالديه من كفايات . لكنه كان آنذاك ، مجرد ايدن الذى يقف خلف تشرشل العظيم بكل ما فيه منشموخ وقوى خلاقه تفرض ارادتها . أجل لقد كان ايدن الذى يعيش فى ظل شخص آخر يتولى خلق السياسة والرد عليها ، وعندما غدا رئيسا للوزراء ، وجد نفسه فى وضع مغاير كل المغايرة ، مختلف كل الاختلاف عما ألفه فى الماضى .

وكان ايدن رجلا عصبى المزاج ، شديد التفجر ، بالغ الحساسية الى درجة تختلف كل الاختلاف عن صورة ذلك الانسان المتأنق الذى يبدو فى رسومه الفوتوغرافية . وكان مصابا بعقدة التخوف الحاد المطلق من أن يبدو انسانا مفتقرا الى القدرة على العمل . وقد تضخمت هذه العقدة فى قرارة نفسه بعد أن صورته مجلة « بانش » الهزلية الانتقادية فى احدى صورها الكاريكاتورية الساخرة ، على شكل انسان « ضعيف خائر » يمضى الى جنيف فى عام ١٩٥٤ بدلا من ميونيخ التى ذهب اليها تشمبرلين من قبل . وبعد أن حمل عليه اليمينيون من أعضاء حزبه كما حملوا على تشرشل بتهمة « تقطيع أوصال الامبراطورية » نظرا لتوقيع اتفاق الجلاء عن السويس . وبات ايدن يخشى كل الخشية من أن يعجز عن اثبات «رجولته» أو عن اقامة الدليل على أنه رئيس وزراء دولة لا تزال قوية ، قادر على أن يعمل كسلفه تشرشل بجرأة والهام . وتبين له فى النصف الاول من عام ١٩٥٦ كما لم يتبين من قبل ، أن حزبه لايعبأ أبدا بزعامته للحزب . ولقى ايدن معاملة عدائية للغاية من مجلس العموم فى شهر مارس عام ١٩٥٦ ، ولاسيما بالنسبة الى مواقفه فى الشرق الاوسط والاردن ومسئولية عبد الناصر المزعومة عن طرد جلوب . ولم يستطع ايدن قط أن ينسى تلك المقابلة العاصفة التى قوبل بها ، والتى تعكس فى مذكراته لمحات خاطفة من آثارها النفسية عليه اذ يقول ...

« وقد تلقيت درسا بالغا لاأنساه فى مجلس العموم ، اذ ارتبك أصدقائى وغالى خصومى فى نقدهم ، وكان التعليق العام فى المجلس ، أننى بدوت ضعيفا فى معالجة موضوع كنت ولا شك أعرفهكل المعرفة » .

وقد أدت كل هذه العوامل ، الى مزيج من العصبية من الوقوف موقف التردد أمام أى تحد رئيسى ، ومن التلهف الباطنى الى التحدى وخوض المعارك . وكلنا يعرف أن الكثيرين من صغار الضباط يشكون عند تخرجهم من مدارسهم فى قدرتهم على الظهور بمظهر البسالة فى المعركة ، ويتحرقون شوقا مع ذلك الى الوقوف فى موقف التجربة والاختبار . وهكذا يمكن القول أن هذا السياسى الذى عاش طويلا فى الظلال وراء قائد آخر ، كان يحس الآن احساسا باطنا بالتلهف على تجربة تخوضها بريطانيا تحت لوائه .

وسواء أكان أيدن قد بادر الى خلق هذه التجربة فى يوليو عام ١٩٥٦ مدفوعا بوعيه أو بعقله الباطن ، لاسيما وقد عرفنا من قبل الدور الخطير الذى لعبه فى مقدمات أزمة القروض للسد العالى ، فان من الثابت أنه منذ اللحظة الاولى التى بدأت الازمة فيها ، كان واقعا تحت تأثير توتر نفسى حاد كل الحدة . وكان التأثير العاطفى باديا عليه منذ البداية ، وسرعان ما اتخذ هذا التأثير شكلا متزايدا . وتعرض لحث قوى من قرارة نفسه ومن المقربين اليه . وكان موقفه الشخصى من عبد الناصر كفرد ، متسلطا عليه كل التسلط الى الحد الذى أظهره حتى على شاشة التليفزيون بمظهر الحاقد عليه ، كما تبين هذا الحقد فى تقلبات صوته وهو يخطب أو يذيع عن أمر يتعلق بعبد الناصر . واتضح لكل من كان يعرفه آنذاك أنه ينظر الى الازمة بمنظار عاطفى شخصي خطر ، وكأنه يخوض معركة أو صراعا داخليا مع رجل يقيم فى القاهرة .

وليس لدى من ريب فى أن هذا الايضاح ، هو جوهر القضية وخلاصتها . فلقد كانت أزمة القناة من الناحية الرسمية حدا فاصلا فى العلاقات المصرية الانكليزية ، كما كانت نقطة حاسمة فى تاريخ التوتر القومى بين العرب والغرب الذى كنا نتابعه . لكن ايدن ظل ينظر الى القضية نظرة تحد شخصى ليس الا . ولا ريب فى أن هذه النظرة هى التى دفعته الى خلق صورة « الراين » ، وهى التى خلقت لديه فورا الحافز على خوض المعركة مع رجل واحد ، هو من المصريين ، لاسيما وان ايدن كان مصابا بأكثر من مجرد كراهية عادية لهم .. وشجعه خطاب جيتسكيل الاول على خوض المعركة ، وأتاح له قوة اضافية عززت مشاعره الشخصية الغريبة التى عاد ايدن عن طريقها بعقله وخيالاته الى ماكان يتسلط عليه من أحاسيس فى حقبة الثلاثين ومطلع حقبة الاربعين وليس ثمة من ريب فى أنه شرع يؤمن بكثير من القوة العنيفة . ضمن هذا الاطار النفسى من العقد العميقة ، بصورة « الحلقة الكاملة » لتشبيه عبد الناصر بهتلر ، والسويس بحوض الراين ، أما المستر جيتسكيل ، فقد استفاق لتوه من الصدمة الاولى وأعاد التفكير فيما قاله . وينطبق هذا الموقف على كثيرين من الزعماء العمال ، على الرغم من تأثر بعضهم تأثرا قويا بالدعايات الصهيونية عن عبد الناصر . لكن ايدن لم يفق الى نفسه قط ، ولم يعد النظر فى تفكيره ، ولم تمض أيام عشرة ، حتى بات يعتقد بانه لايواجه هتلر جديدا فحسب ، بل كان يود دائما بحافز من عقله الباطن لو واجهه ، وبات يؤمن بأن الواجب يدعوه الى استخدام هذه النظرية ــ نظرية تشبيه عبد الناصر بهتلر ــ سلاحا سياسيا لابد منه ضد خصمه . أما زملاؤه فى الوزارة ، وكانوا أكثر منه معرفة ، وأقوى صحة ، فقد حملوا هذه النظرية على أنها صورة حديثة فى عام ١٩٥٦ ، للصورة التى رسمتها صحافة القرن التاسع عشر عن «عرابى العصامى» مطالبين بعنف باستخدام القوة ضده .

وهكذا تحقق لايدن ماكان يحلم به دائما وينتظره ، ولكنه وجد نفسه ، وقد واجه الحقيقة ، أضعف من أن يحتملها . ولم تكن حالته الصحية أيضا تسمح له بأن يتصرف فى الاحداث التى أثارها هو ، تصرفا ينطوى على الكفاية ولاسيما بالنسبة الى السياسات المليئة بالخداع

والمناورة ، والمفاوضات المعقدة ، والاستعدادات السرية للحرب والتعامل مع دولة حليفة نفد صبرها وصارت متلهفة على العمل السريع كفرنسا ، والتصرف فى مشكلة هذا الوزير لخارجية أمريكا الذى لم تكن علاقاته به طيبة ، والذى كان يتعذر عليه دائما أن يفهمه ، وكذلك ــ ولعل هذه المشكلة هى الأهم ، المناقشات الحادة التى يتعرض لها من معارضة برلمانية يقظة ، غاضبة بشكل متزايد . وكانت كل هذه المشكلات بكل مافيها من جهد واخطاء متأصلة وبعد عن السلامة ، كافية لان تحطم أى انسان ، لكنها لم تحطمه .

وكانت هذه اللحظة غير عادية فى التاريخ البريطانى . ورددت الاجواء أصداء شيلبورن ، وأصداء كل القوى ذات النفوذ فى لندن التى دفعت جلادستون الى التدخل « فى مصر عام ١٨٨٢ ضد ضابط وطنى آخر هو (عرابى) » . وكان هناك أيضا الحافز الكامن المتوتر فى العلاقات بين البلدين ، والمرارة التى تحس بها بريطانيا من تبدل مركزها فى عالم القوى الدولية ، والعداء الضخم الكامن فى نفوس البريطانيين ضد المصريين . كانت هناك جميع هذه العوامل ، والى جانبها الحقيقة البسيطة المجردة ، وهى أن الكثيرين كانوا لايزالون يذكرون أيام ميونيخ التى ألفت بالنسبة اليهم مركز الحياة التى عاشوها . ولكن الحافز على جميع هذه العوامل الكامنة التى انطلقت من عقالها فجأة ، تمثل فى النفسية الغريبة التى حملها رئيس الوزراء ، واستعداد زملائه السليمى البنية لان يسمحوا له بل ويشجعوه على اطلاق اندفاعاته العاطفية . حقا لقد كانت لحظة خطيرة ، وكان تأثيرها خطيرا كما هو متوقع أيضا ، عندما وقف رئيس وزراء بريطانيا ليعلن الى مواطنيه والى العالم ، وهو يعرف انه ليس صادقا ، ظهور هتلر جديد .

هل كان هدف ايدن الخلاص من عبد الناصر ؟

مازالت أمامنا مجموعتان من الحقائق التى تتطلب مناقشتنا . وأولى هاتين المجموعتين هى الادلة التى يجب علينا أن نعرضها والتى تقول ان ايدن ومولیه وزملاءهما ، كانوا يعتزمون منذ البداية أن يحققوا عن طريق القوة هدفهم بالاطاحة بعبد الناصر ، وان هذا هو الهدف لا حل مشكلة السويس . وقد سبق لنا أن رأينا أن ايدن ومولیه ونورى السعيد والاسرائيليين كانوا يرغبون فى تحقيق هذا الفرض قبل السادس والعشرين من يوليه . ورأينا كذلك ، أن جميع ماقدمه ايدن بعد هذا التاريخ من تفاسير لعمل عبد الناصر فى موضوع القناة ، وان كل ماعرضه من حجج علنية « لاصلاح الوضع سلميا » ، وكافة شروحه « لاهداف عبد الناصر » البعيدة المدى ، كانت زائفة ، مخادعة . والآن ما الدليل المحدد على أن الهدف كان بعد السابع والعشرين من يوليو الاطاحة بعبد الناصر ؟

لقد كان ايدن ووزراؤه ينفون هذه الحقيقة ، فى ذلك الحين . وكانوا يعربون عن قلقهم على حرية العبور فى القناة طيلة الاسابيع الطويلة التى امتدت بين تاريخ التأميم فى السادس والعشرين من يوليو ،

ونهاية أكتوبر ، حيث تحول اتجاههم الى تبرير « التدخل » مع فرنسا بذريعة جديدة زعموها وهى الخوف الجديد الطارىء من انتشار الحرب المصرية — الاسرائيلية فى طول الشرق الاوسط وعرضه ، مما يعرض القناة نفسها لخطر الدمار . وراح وزراء ايدن ينهالون بعد ذلك على البرلمان بعد بدء « التدخل » بمجموعة ضخمة من المبررات الاضافية . وفى وسعنا أن نتجاهل كل ذلك وأن ننصرف الى البحث فى تاريخ الاحداث وسجلها .

حاول ايدن كما ذكرنا فى عنوان هذا الفصل أن يؤكد فى مذكراته مابذله من مساع لايجاد « تسوية سلمية » . وهو يقوم بذلك ليرد على السؤال الذى حمل بريطانيا وفرنسا على الامتناع عن الحركة فورا لاحتلال منطقة القناة . وأرى أن من الجدير بنا أن نعيد هنا ماكتبه هو :

« هناك ردان على هذا ، أولهما سياسى . فنحن كدولة موقعة على ميثاق الامم المتحدة وجدنا أن من واجبنا أن نبحث أولا عن استعادة حقوقنا بالوسائل السلمية ... وان كان هذا لا يعنى مطلقا تخلينا عن استعمال القوة كملجأ أخير . وكان هذا هو موقف حكومة صاحبة الجلالة والحكومة الفرنسية فى جميع مراحل النزاع ...

« وأما الرد الثانى فعسكرى . فاذا لم يكن فى الامكان اتمام العملية بواسطة القوات التى تحملها الطائرات وحدها ، فلا مناص من القيام بحملة عسكرية من جزيرة مالطة ... فقد استغرق الاعداد لغزو جزيرة صقلية ابان الحرب العالمية الثانية فى افريقية الشمالية قرابة ستة أسابيع . وصحيح ، كما قلت دائما أن العمل العسكرى ضد المصريين لايقارن عسكريا بالعمل ضد الالمان ... ولكن لم يكن فى الامكان توفير الطائرات أو الرجال بين عشية وضحاها » .

وهكذا نرى أن ايدن يركز قبل كل شىء على مسألة المبادىء والالتزامات تجاه الامم المتحدة ، والافتقار الى السوقيات الصالحة لتأمين القوات العسكرية وتزويدها باحتياجاتها . ولكن مهمة السير أنطونى فى اعداد قصة مطولة عن مشكلة السويس تقع فى نحو من مائة وستين صفحة يتولى هو تحريرها وتنقيحها واضفاء الزخرف عليها ، كانت تتطلب شكلا من أشكال العناية باتزان الفكر وثباته ، وهما أمران كان يفتقر اليهما افتقارا لايثير الدهشة . فنحن بعد صفحتين فقط مما رواه فى الفقرة السابقة نراه يعود فيقول ....

« وبدا الامريكيون فى مطلع الازمة بمظهر الراغب فى ... أن يفرضوا ضغطا أدبيا » على عبد الناصر ، وكانت هذه النية مقبولة لدينا ومرضية لنا ، لولا أنها لا تحسب حسابا لاحتمال أن يصم عبد الناصر أذنيه عن الاستماع للضغط الادبى ، فهذه النية تعنى من الناحية العملية عقد المؤتمرات ، واتخاذ القرارات دون القيام بأى عمل ، أى كلام فى كلام وبدأ الاشتباه فى هذا الخلاف بين وجهتى نظرنا يتضح فى التقارير التى كنا نتلقاها من واشنطن عن ردود الفعل الاولى فيها . ولكن مالبث هذا الخلاف أن برز بشكل واضح ... »

أولا يحق لنا بعد هذا أن نسأل ايدن عما اذا لم تكن « التسوية السلمية التى زعم أنه ينشدها ، وأنه جعل منها المبدأ الذى يوجهه ، هى الضغط الادبى بعينه وهى المؤتمرات والقرارات ؟ وهل هناك نوع آخر من التسويات السلمية فى العلاقات الدولية ؟ ان السير أنطونى يفضح نفسه منذ البداية تماما ولو شئنا أن نطيل امعان النظر فيما يقوله هو تحتم علينا أن نلاحظ اشارة خفية ، غريبة ، فى الفقرة التى رويتها قبل قليل . فهو يقول انه كان دائم الحث لزملائه ، على أن اعداد القوة التى تغزو مصر يجب ألا تستغرق أكثر من ستة أسابيع . ولكنه يعود فيعترف فيما بعد ، وكان فى هذه المرة وحدها صادقا فى اعترافه ، بأن الحملة الانكليزية الفرنسية ، كانت على أهبة الاستعداد (فى منتصف سبتمبر) أى بعد ستة أسابيع من بدء الازمة . ولهذا فهو لم يشعر بعد هذا التاريخ بأية حاجة للحث على الاستعجال . ولكنه كان ، كما يستنتج من اعترافاته هذه ، يحث قادة قواته المسلحة على ذلك فى الاسابيع الستة الاولى من الازمة وهكذا يظهر من زلات قلمه هذه كلها ، انه لم يكن صادقا فى القول بأن جماع نظريته فى تلك الفترة كان يتركز على متابعة البحث عن الحل السلمى أولا .

وما المدى الذى نعرفه فى الحقيقة عن هذه القضية ؟ اننا نعرف أن وضع أول خطة للغزو قد تم فى الاسبوع الاول من شهر أغسطس ، وهى تقضى بالنزول فى الاسكندرية والزحف على القاهرة وقد أطلق عليها اسم « عملية الفارس » (١) ونحن نعرف أيضا أن الفرنسيين كانوا متلهفين على السرعة فى العمل ، الى الحد الذى دفع سفارتهم فى القاهرة الى اصدار الامر للرعايا الفرنسيين من الاطفال والنساء فى الواحد والثلاثين من يوليو لمغادرة مصر . ونعرف أيضا أن فرنسا حشدت قبل الثانى من أغسطس أسطولا ضخما فى ميناء طولون يضم بارجة وحاملتين للطائرات وطرادا واحدى وعشرين مدمرة وست غواصات . ونعرف كذلك أن كل صحيفة مسئولة فى لندن وباريس فهمت قبل الاسبوع الثانى من أغسطس أن الهدف الحقيقى لايدن وموليه هو الاطاحة بعبد الناصر قوة واقتدارا . واننا لنذكر الآن أن صحيفة « التايمز » اللندنية نفسها ، نشرت فى ذلك الوقت ، على الرغم من تأييدها اللاحق لمذكرات ايدن ، أن اللجوء الى القوة كان « النتيجة الفريزية الاولى » لخطوة عبد الناصر . وقد أعلن الرئيس ايزنهاور فى الاول من نوفمبر مايلى :

« وكان ثمة بعض حلفائنا ينادون منذ اللحظة الاولى التى أعلن فيها تأميم شركة القناة ، بأن تكون القوة هى رد فعلنا الاول على التأميم »

وأعلن المستر دالاس فى التاسع والعشرين من يناير عام ١٩٥٧

---

(١) رواية الأخوين برومبرجر ، وغيرها من الروايات . وقد تحولت خطة النزول الى بورسعيد ومنطقة القناة فى أوائل سبتمبر عندما تبين للدولتين الغربيتين أن الهجوم المباشر على القاهرة سيؤلف عدوانا مكشوفا سافرا .

— المؤلف —

أمام لجنة الاعتمادات فى الكونجرس الامريكى ، بشىء من اللباقة التى منعته من الافصاح كل الافصاح ... مليلى :

« وقد أرادت بعض العناصر فى بريطانيا وفرنساالاستيلاء بالقوة على قناة السويس ، فور اعلان مصر قرار التأميم » .

وكان وزير الخارجية الامريكية قد مضى الى أبعد من هذا . فقد اتهم بصراحـة فور نشـوب حـرب السويس وسيناء . كلا من انكلترا وفرنسا بأن هدفهما كان طيلة أيام الازمة الاطاحة بعبد الناصر – وأرى قبل أن أعود الى الغوص فى كتابات ايدن نفسـه ، أن أقول بأن بورجيسى – مانورى ، وزير دفاع فرنســا ، حسر النقاب بعد انتهاء الازمة عن أن العملية المشتركة الفورية « أجلت نحوا من ستين يوما » . ونحن نعرف من مختلف المصادر أن هذا التأجيل تم لان العسكريين ولاسيما من قادة القوات المسلحة فى بريطانيا قد أبلغوا قادتهم السياسيين بصراحة بأن أى غزو يفتقر الى العون الامريكى لايمكن أن يتم بسرعة وبشكل قوى ، قبل الاعداد له اعدادا كاملا وطويلا . وكانت هذه التضحية العسكرية وحدها ، مضافة الى ادراك ايدن ومولية أن الولايات المتحدة سـتقاوم اللجوء الى القوة خارج نطاق الامم المتحـدة ، هى التى أدت الى هـذا التأجيل .

وستنجلى أمامنا الدلائل التى تثبت صحة هذه الاهداف الواقعية أكثر فأكثر ، عندما نصل الى تحليـــل الاحداث المفصلة التى وقعت فى النصف الثانى من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ . ولا يبقى أمامنا فى الوقت الحاضر الا أن ندون هنا ، ماسيحدث للقصة التى رواها السير أنطونى نفسه بعد وقوع الهجوم الانكليزى – الفرنسى . فلقد طفح كأسه بالمرارة من موقف الولايات المتحدة ، وانسابت منها الحقيقة العارية ، صارخة بما وقع اذ يقول ...

« ولا أجد مناصا هنا من المقارنة بين موقف أمريكا الآن ، وموقفنا نحن ابان حملة جواتيمالا . فلقد قام الامريكيون فى تلك البلاد بتشجيع انقلاب ضد الحكومة الواقعة تحت النفوذ الشيوعى ، اذ اعتبروها خطرا يهدد سلامة أمريكا الوسطى كلها . وقد تفهمنا الحـوافز التى دفعت أمـريكا الى ذلك العمل ، وعملنا كل ماقى وسعنا لنحـول دون عـرقلة جهودها فى مجلس الامن . ولكنهم الآن يسلكون سلوكا مغايرا لما سلكناه نحن تمام المغايرة » .

وعلى الرغم من هذا الانفجار العاطفى المذهل ، كان السير انطونى ، قبل صفحات قليلة من مذكراته يجزم جزما أكيدا بأن الهدف الاوحد من « التدخل » ، كان وقف الحرب المصرية – الاسرائيلية ، وحماية القناة . وهو يقتبس فى مذكراته صورة البرقية التى بعث بها الى ايزنهـاور فى الثلاثين من أكتوبر ، أى فى اليوم الذى وجهت فيـه بريطانيا وفرنســا انذارهما الى مصر ، والتى يقول فيها ... « أعتقد أن الفرصة قائمة فى أن يقبل الفريقان انذارنا » . وهانحن أولاء نعرف الآن أن النية الحقيقية

لم تكن متجهة الى قبول فريق واحد منهما – أى مصر – بالانذار وانما كانت تستهدف الاطاحة به نهائيا .

اذن لم تكن الغاية الوصول الى تسوية سلمية لمشكلة القناة ، كما لم يكن أيضا استخدام القوة لمجرد الوصول الى هذه التسوية وفرضها ، وانما كان استخدام القوة للاطاحة بالحكومة المصرية . هـذا هو الحكم الذى أدان به ايدن نفسه من مذكراته هو واقواله .

التظاهر بالتسوية السلمية :

واضطر ايدن ومولیه على أى حال الى قضاء أسابيع مريرة طويلة، يتظاهران بالعمل على التفاوض ، بينما كانا فى الحقيقة يحشدان قوات ضخمة ، ويبحثان عن ذرائع ومبررات جديدة . وانى لارى لزاما علينا هنا أن ندون بعض الوجوه والصور .

ووصل المستر دالاس الى لندن فى مطلع شهر آب (أغسطس) ، وهو يهدف الى عدة غايات متشابكة . فهو يريـد من الناحيـة الاولى توجيه بعض النكسات الحادة الى الرئيس عبد الناصر الذى كان يكره سياسته الحيادية أكثر من أى شىء آخـر . وكان دالاس قـد فوجىء مفاجأة كلية بخطوة التأميم التى خطاها عبد الناصر ، فلقد كانت بريطانيا وفرنسا قد ضللتاه بقولهما ان عبد الناصر لن يفعل شيئا اذا ماسحبت أمريكا وبريطانيا العرض بتمويل السد العالى ، ولذا فقد طار وهو واثق من هذه الفكرة الى جنوب أمريكا حيث كان يقضى ليلة السادس والعشرين من يوليو فى جمهورية « بيرو » . أما الآن وقد وصل الى لندن ، فى الرابع من أغسطس ، فقد وصف غضب مصر بأنه مجرد « شكاوى خيالية » ، وراح يعمل ليرغم الرئيس عبد الناصر ، على التساهل فى موضوع القناة ولكن تحقيق مثل هـذا الهدف من الارغام يتطلب الدرس المشترك مع الآخرين . وكان دالاس شديد القلق من ناحيتين ، فهو يخشى من الناحية الاولى أن تستغل موسكو الازمة التى نشأت فى الشرق الاوسط ضـد الغرب ، وهو يخـاف من الناحية الثانية أن يجد ايدن ومولیـه المبرر للادعاء بأن جميع المحاولات لايجاد حل سلمى قد منيت بالفشل . وقرر على الفور أن قضية القناة يجب الا تحال مطلقا على الامم المتـحدة ، اذ كان على ثقة من أن ايدن ومولیه سيعملان على أن تقوم روسيا باستخدام حق الفيتو مع أى قرار قد يتخذه مجلس الامن ليعلنا على الفـور انه لم يبق أمامهما أى مجال آخر سوى اللجوء الى القوة .

كانت هذه هى الدوافع التى حملت دالاس ، وهى متفقة مع منطقه وان كانت مثيرة لغضب ايدن ومولیه ، على أن يرفع فورا شعار الدعوة لاقامة ادارة دولية للقناة . وكان واثقا من أن ايدن قد بدأ يجهر بتمسكه بالحجج القانونية التى كان قد استبعدها فى البداية على أنها « ثرثرة قانونية » ، ثم مالبث أن شعر بالفائدة التى قد يحصل عليها منهـا . ويعترف ايـدن نفسه فى مذكراته بهـذه الشكوك الامريكية فى الحجج القانونية التى يستند اليها . ولم يكن دالاس ليخدع نفسه فى أن الادارة الدوليـة التى يقترحها قد تقدم ضمانات أوفى وأكثر فعلا وتأثيرا بالنسبة

الى حرية العبور فى القناة ، من الاقتراحات المصرية الجديدة أو من جهاز الشركة القديمة . فهو خبير كل الخبرة بالسلطات التى تشرف على ادارة القنوات الرئيسية ، اذ أن حكومته هى التى تشرف بسلطاتها على ادارة قناة بناما . ولكن دالاس وجد نفسه عاجزا بما لديه من سلطات محدودة عن ارغام بريطانيا وفرنسا على التمسك بمبدأ المفاوضات وعلى انكار حقهما فى اللجوء الى القوة . مما اقتضاه البحث عن سلطة جديدة . وأسفر هذا الموقف عن قيام تعقيدات يائسة جديدة فى العلاقات بين الدول الكبرى الواقعة على كلا جانبى المحيط الاطلسى . وشرع دالاس فى حديثه مع ايدن على أسس « الشرعية » ، وعندما واجهه ايدن بما يراه من حجج قانونية وأسس « دولية فى العلاقات العامة » (١) ، راح دالاس يناقشه فى قانونيتها وشرعيتها . وقد واصل الوزير الامريكى الحديث عن وجوب « قص أجنحة » عبد الناصر ، ولكنه ظل صامدا كل الصمود فى معارضة أى اجراء قد يقرب من « العمل » لتحقيق هذه الغاية التى كان يقول انه ينشدها . ولاريب فى أن ما أعقب هذا الوضع من فوضى تضرب أطنابها ، قد ظهرت بارزة كل البروز فى العرض الدقيق الذى قدمه ايدن فى مذكراته عن هذه الفترة .

ونشأت عن هذه الطريقة التى عالج فيها دالاس الموقف عدة نتائج خطيرة . فلقد منح سلطات اضافية « لسلطة الادارة الدولية » التى طالب باقامتها ، والتى سبق لنا أن رأينا مافى الحجج الداعية الى تكوينها من تناقض . ورفض دالاس العروض المقابلة التى قدمها عبد الناصر بنفس القوة التى رفضها بها كل من ايدن ومولية ، مدفوعا بما يحس به من كراهية لعبد الناصر ، ومتحديا فى رفضه هذا نصائح خبرائه ومستشاريه .. أدى موقفه هذا الى الاسهام فى الحملة التى شنها ايدن « لتجريم » القاهرة ودفعها « بالعدوان والصلافة ، والافتقار الى المرونة ورفض تقديم أية ضمانات الى العالم » .

ولكن عبد الناصر كان قد شرع على الفور فى القاهرة فى تقديم ضمانات يواجه بها هذه العاصفة الغاضبة من القلق الغربى الذى لم يكن ينتظره . (٢) وراحت القاهرة منذ السابع والعشرين من يوليو ، وماتلاه

---

(١) لا أعلم مايقصده المؤلف من ذكر هذه الحجج القانونية التى استند اليها ايدن ، فكل من يعرف شيئا عن القانون الدولى ، يعرف أن مصر كانت محقة كل الحق فى خطوة التأميم من الناحية القانونية أيضا ، أما الحجج التى قيل أن ايدن لجأ اليها فليست الا مبررات لفرض الاستغلال الاستعمارى .

المعرب —

(٢) يروى المؤلف فى هوامشه أن سيادة الرئيس عبد الناصر استدعى سفير أمريكا هنرى بايرود وكان لايزال فى القاهرة ، وان كان الامر بنقله قد صدر عن واشنطن ، وراح يسأله عن السبب الذى حدا بالغرب الى الهياج كل هذا الهياج من الخطوة التى قام بها وكان فى الثامن والعشرين من يوليو قد ضمن خطابا له العبارة التالية: «ترى هل كانت =

من ايام ، تكرر كل يوم وبصورة رسمية احترامها لميثاق عام ١٨٨٨ . ومضى عبد الناصر الى أبعد من ذلك فراح فى الواحد والثلاثين من يوليو ، يعلن ماعاد فأكده بصورة أكثر تفصيلا واسهاما فى الثانى عشر من أغسطس اقتراحاته العلنية الجديدة لعقد معاهدة جديدة توقعها كافة الدول المنتفعة بالقناة ، خلافا للميثاق السابق ، وتضع صورة رسمية منها فى الامم المتحدة لتكون بين وثائقها ، على أن تضمن هذه المعاهدة حرية الملاحة فى القناة . وكانت المعارضة فى لندن والصحف البريطانية قد أدركت الآن تمام الادراك حقيقة مايعتزمه ايدن ، فأخذت تطالب بالمفاوضات وتحذر من اللجوء الى استخدام القوة خارج نطاق الامم المتحدة . ولكن ايدن أصم اذنيه عن سماع صوت العقل ، وتجاهل عروض مصر ، وأخذ يتبجح الى أقصى حدود التبجح بما يقوم به من اعدادات عسكرية ، ويوقد أوار الهياج عند جماهير الشعب البريطانى . وكانت طريقته فى اثارة حماسة الجماهير واضحة كل الوضوح .

والقى ايدن فى الثامن من أغسطس خطابا ناريا أذاعه على الشعب البريطانى . ووصلت الى لندن صباح الثالث عشر من آب (أغسطس) اقتراحات عبد الناصر الجديدة ، لعقد معاهدة تضمن حرية الملاحة ، وراحت وزارة العمال الرمزية (١) ، تصدر بيانا فى نفس اليوم تقول فيه « اننا لو استثنينا الحصار الذى يفرضه عبد الناصر على اسرائيل ، فليس فيما فعله ، ما يبرر اللجوء الى استخدام القوة المسلحة » . وظهر منزيس (٢) رئيس وزراء استراليا تلك الليلة على شاشة التليفزيون فى لندن ، وكرر نظرية ايدن التافهة فى القضية كلها ، وأعاد قوله بأن عبد الناصر « أمم قناة السويس لاشركتها » وأحس ايدن بأنه فى حاجة الى المزيد من الهاب المشاعر ، فدفع فى الليلة التالية ، مساء الرابع عشر من أغسطس ، بوزيره الامين المخلص سلوين لويد الى مكبرات الاذاعة ،

= مثل هذه الضجة ستثار بعد اثنى عشر عاما » . وكتبت صحيفة اخبار اليوم القاهرية فى نفس اليوم تنشر مقالا لمصطفى أمين رئيس تحريرها يقول فيه : « علام كل هذه الضجة ، التى ما كانت لتحدث لو أن عبدالناصر قد القى بقنبلة ذرية ؟ »

(١) جرت عادة الحزب الذى يكون فى المعارضة فى بريطانيا أن يؤلف وزارة وهمية رمزية ، تماما كالوزارة القائمة ، لتكون على أهبة لتسلم الحكم فى حالة استقالة الحكومة القائمة .

— المعرب —

(٢) روى ايدن « قصة غريبة عن موقف الاذاعة البريطانية من خطاب منزيس ، ولكنه لم يذكر ابدا ، أنه بذل ضغطا لامثيل له ومخالفا للمألوف والعرف على مصلحة الاذاعة البريطانية للسماح لمنزيس بالظهور على شاشتها التليفزيونية . ولاريب فى أن سلوكه فى هذه القصة وحدها ، يشير الى ما بذله من جهد يائس ليضمن التأثير الدعائى على الشعب البريطانى .

— المؤلف —

ليوجه الى الشعب رسالة أكثر جدية وخطورة . وقد تحدث فى هذا الخطاب عن عبد الناصر بقوله ....

« كنت أقرأ فى ذلك اليوم كتيبا وضعه عن الثورة . وهو يكشف فيه صورة تفكيره ومطامحه . فهناك ثلاث مراحل واضحة كل الوضوح ، أولاها السيطرة على البلاد العربية وزيتها ، وثانيتها السيطرة على افريقية كلها ، والثالثة السيطرة على العالم الاسلامى كله » (١) .

وقد ترك هذا الانذار الذى لم يصدر عن كاتب مغمور ، وانما صدر عن وزير خارجية حكومة صاحبة الجلالة انطباعا فوريا وعلى نطاق عالمى ، وما زال هذا الانطباع قائما عند الكثيرين من بسطاء الناس حتى اليوم . ولقد ظهرت بعض اشارات فى بعض الصحف البريطانية تنعت عبد الناصر « بهتلر النيل » (٢) وان كانت التعليقات العامة ، قد شرعت تطالب بشىء من الحيطة والتعقل . ولكن الدولتان العظيمتان أصرتا على اصدار النذر متلاحقة وفى وقت واحد فى كل من باريس ولندن بأن « فلسفة الثورة » ليس الا طبعة جديدة من « كفاحى » . وفى وسع المرء أن يرى ردود الفعل فى كل مكان لهذه الدعايات (٣) ، وأن يشهد التحليلات تتعاقب فى هذه الصحف التى اخترت بعضها دون هدف معين . وكانت مجلة « التايم » المشهورة قد حملت فى عام ١٩٥٥ صورة عبد الناصر على غلافها ، وتناولته بالحديث فى مقالها الرئيسى (٤) دون أن تشير الى كتاب فلسفة الثورة فى مقالها الضخم هذا ، على الرغم من انقضاء أكثر من عام كامل على صدوره كما سبق لنا وأشرنا من قبل .

اما الآن ولم يكن قد مضى على خطاب المستر لويد أكثر من أسبوعين صدرت « التايم » تنشر قصة غلاف أخرى (٥) عن الرئيس عبد الناصر ، تقول استنادا الى ما زعمته بالمصادر الرسمية أن « عبد الناصر يرى فى نفسه رجل القدر ، الذى بعثته العناية الالهية ليلعب دوره فى الوطن العربى ، الذى كان يبحث ضائعا عن شخصية البطل » . وتضمن « الاطار » الذى احتل ثلثى صفحة من الصفحات مقتطفات من كتاب عبدالناصر تحت عنوان ضخم للغاية ، مع مقدمة خاصة من هيئة التحرير :

---

(١) لا ريب فى أن كل من يقرأ هذه الاقوال يدرك على الفور أنها خيالات لا تصدر الا عن مخيلة مريضة أو أعماها الغرض ، اذ أن سياسة الرئيس عبد الناصر لم تقم فى أى يوم على مثل هذه القواعد التوسعية كما لم تتناول فى أى يوم الرغبة فى اقامة جامعة اسلامية .

— المعرب —

(٢) حملت صحيفة الديلى ميل والديلى اكسبريس هذه العناوين فى شهر يوليو وبعده .

(٣) وحتى المستر دالاس نفسه استخدم هذا التشبيه فى خطابه الذى ألقاه فى « داره بلانكستر » فى السابع عشر من أغسطس .

(٤) عدد المجلة فى ٢٦ سبتمبر عام ١٩٥٥ .

(٥) عدد المجلة فى ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥٦ .

« الدور فى البحث عن البطل »

« الحلقات الثلاث فى طموح عبد الناصر »

« أضحى كتاب عبد الناصر الذى نشر قبل عامين من الكتب التى يجب أن تقرأها الجهات السياسية الرسمية فى الغرب . ويطلق عليه موليه رئيس الوزارة الفرنسية اسم « كفاحى » بقلم عبد الناصر . وقد تكون المقارنات فى أوقات الازمات فى مكانها المناسب ، ولكنها كثيرا ماتكون خادعة مضللة . ولكن كتيب عبد الناصر ، شأنه فى ذلك شأن « كفاحى » صورة ذاتية الانعكاس عن رجل قلق انتشى بأوسع المطامح » (١) .

وتلت هذه المقدمة مقتطفات من كتاب عبد الناصر ، الذى دونه بسرعة ، نال اثرها الكثير من الذيوع والانتشار ، ولاسيما فقرته المقتبسة من رواية لبيرانديللو (٢) ، يعقد فيها مقارنة مع الوطن العربى ، فيقول ان هذا الوطن كان قد أعد « دورا » طالت حيرته وانتظاره لظهور « البطل » الذى يمثله ، ثم يمضى فى لغة عربية نموذجية فى قوتها يقول.. « ان ظروف التاريخ مليئة بالابطال الذين صنعوا لانفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه » .

ولو أخذت هذه الفقرات التى جاءت بها المجلة وحدها بعد اقتطاعها عن محتوياتها ، لظهرت غريبة . ولكن أية قراءة موزونة

---

(١) أكثر الغربيون من رسم صور مشوهة لسيادة الرئيس عبد الناصر ولاسيما من رجال الصحافة الغربية الذين استهواهم فى وقت ما أن يسايروا التيار الضخم الذى ساد الغرب فى فترة أزمة السويس لتشويه صورة سيادته فى أذهان الشعب نتيجة الحملات الدعائية المضللة التى تولى قيادها ايدن وموليه ومن لف لفهما ، والتى عملت الصهيونية العالمية بما لها من سيطرة على الصحافة ووسائل الاعلام فى الغرب على ترويجها . وليس أصدق من هذا المثل الذىأوردته مجلة أمريكية واسعة الانتشار (كالتايم) ، فالمعروف أن سيادته ، بل كل من عرفه يؤكد أنه أبعد الناس عن الاوضاع القلقة فلقد أثبت أنه من أعظم الناس تحكما فى أعصابه فى أيام الشدائد التى مر بالكثير منها . ومثل هذا التحكم لايتفق مطلقا مع الاحساس بالقلق . أما الاشارة الى مطامحه فتهدف الى التشويه والتضليل اذ أن كل عربى يعرف أن كل مالدى الرئيس من مطامح هو أن يرى شعبه العربى فى وطنه الكبير متحررا موحدا ، وهى أمنية كل عربى مخلص لعروبته سواء أكان قائدا أم رجلا عاديا .

— المعرب —

(٢) لويجى بيرانديللو (١٨٦٧ — ١٩٣٦) كاتب مسرحى وقصصى ايطالى مشهور ، ولد فى صقلية ودرس فى جامعة روما ثم جامعة بون ومن أشهر كتبه « الجيوكوندا الشريرة » و « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . وله دراسة رائعة فى فن السخرية فى الكتابة .

— المعرب —

والذى ناقدة لكتيب عبد الناصر الذى يقع فى اثنتين وسبعين صفحة . جمع بين دفتيه المقالات الصحفية التى نشرت فى مستهل عـــام ١٩٥٤ ، تقيم بالدليل الذى لايقبل الشك ، ما فى هذه المقارنة مع هتلر وكفاحى من نبو عن المنطق وبعد عن سلامة التفكير وميل الى الشر والاذى ، اذ من الواضح لكل من يفهم مايقرؤه ، أن عبـد الناصر لم يكن يشير الى نفسه فى حديثه عن « البطل » وعن « الممثل » ، الذى يجب أن يتجـه البحث اليه فى الثورة المزدوجة التى يقوم بها الشعب العربى ، وانمـا كان يشير بصورة لاتقبل الريبة أو الشك الى « مصر » التى يجب أن تقوم بدورها القيادى فى ثورة الشعب العربى . فلقد تحدثت الفقرات التى تلت مبـــاشرة تلك الفقرة التى اقتبستها مجلة « التايم » عن دور الثورة التى جاءت أخيرا لتستقر « على حدودنا » فى تحقيق أهداف الشعب العـــربى المناهضـــة للاستعمار والمطالبة بالاصلاح الداخلى ، و « أننا نحن ، ونحن وحدنا بالنسبة الى وضعنا الجغرافى ، القادرون على أن نمثل هذا الدور » .

وليس فى أى جزء من أجزاء هذا الكتاب ، مايوحى حقا ، بمـا أوحاه ضلالا للغرب ، بأن عبد الناصر يربط نفسه غيبيا بالرســـالة التى اختـــارت الاقدار لمصر أن تؤديها . وما الـكتاب الا مزيجـــا من الذكريات الشخصية عن الافكار والتجارب الثورية المبكرة التى مر بها وتسجيلا وصفيا للافكار والآمال وخيبـــات الامل التى راودت حـــركة الضباط الاحرار قبل ثورة عام ١٩٥٢ وبعدها . ولا ريب فى أنماأورده سلوين لويد فى خطابه من مقتطفات فى كتاب عبد الناصر التى تحـــدث فيها عن دور مصر الحيوى ، ومجالها ، ومسرح نشاطها ، وعنرسالتها الايجـــابية وســـط هـــذه الامواج المتـــلاطمة ليس الا تأكيـــدا لما أراد عبد النـــاصر قوله من استحالة القبول بالعزلة الضيقة التى فرضت على مصر . (١)

وليس فى الكتاب أى تمجيـــد ذاتى أبدا . بل انه يضم عددا من الاعترافات من هذا القبيل .. «« ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أســـتاذ فى التاريخ » ، أو قوله : ولو خطر لى أننى أستطيع أن أحل كل مشاكل وطننا ، لكنت حالما ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالاوهام .. »

ولا ينطوى الـكتاب على أى تفـكير بالســـيطرة ، ســـواء أكانت عســـكرية أو عن أى طريق آخر . ولم تكن « المراحل الثـــلاث » التى أشار اليها سلوين لويد فى خطابه الا « الدوائر » الثلاث التى رسمهـــا عبد الناصر كمحيطات خارجية تقع مصر وسطها . أما المحيـــــط الاول الذى يعتبره عبد الناصر أكثرها أهمية ، فهو الوطن العـــربى ، الذى

---

(١) ورد مثل هذا الشرح ، للبحث عن هدف فى كتـــاب الباندیت نهرو « اكتشـــاف الهند » الذى ظهر مؤخرا فقـــد قال .... « هنـــاك أسئلة عدة تتناول الصورة التى ستكون عليها الهند الحـــرة وتتناول ما تنتويه من عمل وما يربطها من علاقات بالآخرين .

ــ المؤلف ــ

يصفه بأنه مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب . وكان عبد النـــاصر يطلق فى قوله هذا ماسبق لنا أن أوردناه ، من نظرية قومية عربيـــة شـــاملة عن الوحدة . وذكر وجود ثلاثة مصـــادر للقوة العربية وهى الروابط التى تجعل من الوطن العربى كلا واحدا متلاحما ، لا يقبـــل التجزئة ، والمركز الجغرافى الذى يجعل العرب يقفون على مفارق الطرق فى المواصلات العالمية ، والزيت الذى يعتبره العمود الفقرى للحضارة المادية . وليس فى هذا الكلام أو ماتلاه ، أيـــة اشارة أو تلميح لرغبـــة عبد الناصر فى سيطرة مصر أو سيطرته الشخصية « على الدول العربية أو الزيت » ، وهو ما اتهمه به المستر لويد اتهاما مباشرا » .

وننتقل بعد ذلك الى الحلقة الثانية التى رسمها عبـــد الناصر ، وهى القارة الافريقية التى ذكر أن مصر لايمكن لها بأى حال من الاحوال وحتى لو أرادت ذلك ، أن تظل بمنأى عن نضالها فى سبيل التحرر .. وراح يعرب عن أمله بعد ذلك فى أن تضم القاهرة فى وقت قريب «معهدا كبيرا » يتولى دراسة الشئون الافريقية ومجاهلها .

ويقع ماورد فى الكتاب من حديث عن افريقية فى مائتين وخمسين كلمة استخلص منها المستر لويد ما دعاه « بالمرحلة الثانية » التى صور فيها مطامح عبد الناصر « فى السيطرة على القارة الافريقية كلها » . ولم يشأ المستر لويد أن يقتبس من الكتاب الهدف الواضح الذى حـــدده عبد الناصر للمعهد الافريقى الذى تصوره عندما قال ...

« يسعى هذا المعهد لكشف نواحى القارة أمام عيوننـــا ، يخلق فى عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ، ويشارك مع كل العاملين من أنحاء الارض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها » (١) .

ومن الواضح أن فى وسع المرء أن يزعم بأن هذه الاقوال ستار أراد منه عبد الناصر أن يخفى به حقيقة نياته . ولكن سلوين لويد أكد فى اذاعته لبريطانيا والعالم ، انه قرأ فى هذه الفقرات نفسها اعترافا مباشرا وبيانا صريحا عن اهداف استعمارية تشبه الاهداف التى وضعها هتلر . ونجد مثل هذه الصعوبة أيضا عندما نتحول الى البحث فى الحلقة الثالثة التى تحدث عنها عبد الناصر فى كتابه ، وهى حلقة العالم الاسلامى ، فلقد تحدث هنا عن ضرورة قيام تعـــاون أوثق عرى بين جميع المسلمين فى العالم واشترط أن لايتجاوز هذا التعاون بالطبع حدود ولائهم للبـــلاد التى ينتمون اليها .

ولكن المستر لويد لم يشـــأ أن يقتبس هـــذا النص الذى أورده

---

(١) تعمد سلوين لويد طبعا حذف هذه الفقرة وأمثالها من مقتطفاته لان مجرد ذكرها ، يكشف الحقيقة للقراء غير البلهاء فى الغرب ، وهذا ما كان يستبعده الوزير البريطانى ولا يريده ، تحقيقا لاهـــدافه وأهداف رئيسه ايدن فى الحملة على سيادة الرئيس عبد الناصر .

ــ المعرب ــ

عبد الناصر فى الخطاب الذى أذاعه – أى لويد – للملايين من سامعيه . وهو مع ذلك يجد من السهل عليه أن يستخلص « اعترافا » آخر من المائتين والخمسين كلمة التى تحدث فيها عبد الناصر عن الروابط بين المسلمين والتى أورد فيها التحفظ الذى ذكرت قبل قليل . وكان هذا « الاعتراف » الذى استخلصه سلوين لويد هذه المرة هو أن عبد الناصر يهدف الى السيطرة على المسلمين فى العالم بأسره . وقد يصعب على المرء أن يصدق فى عام ١٩٦٢ ، أن مثل هذه الاقوال قد صدرت عن وزير يمثل حكومة جلالتها ، ولكنها صدرت بالفعل على شكل اتهامات موجهة الى الرئيس عبد الناصر .

وقد ادت هذه الاتهامات الى أضرار ضخمة ، سريعة . وسارعت الصحف فى جميع أطراف العالم الى نشر هـذه المقتطفات التي أوردها سلوين لويد من كتيب عبد الناصر ، وراح القراء فى كل مكان يفسرون هذه المقتطفات على النحو الذى اراده لويد من اتهاماته . ولم تكن اللحظة مواتيه . لأن يفكر الناس – الذين استمعوا الى وزير الخارجية وهو يذيع خطابه – تفكيرا متزنا فى حقيقة ما كان يقترحه الوزير ، هذا اذا شئنا تسمية تشويه الاصول والحقائق مجرد اقتراحات . ولكن دهمائيته فى التحدث الى الجماهير تركت آنذاك أعمق الانطباعات بحيث يتحتم علينا أن نقوم أقواله الآن تقويما «رجعيا» .

فهناك من الناحية الاولى زعيم ثلاثة وعشرين مليونا من المصريين الذين كانوا حتى ذلك الوقت أى فى عام ١٩٥٤ عنـدما وضع الكتاب يؤلفـون شعبا فقيرا للغـاية ، يسيطر عليه الجهل ، وتنتشر فى محيطه الامراض . ولايملك مصنعا حـديثا واحـدا للفولاذ . ولم تكن قواته المسلحـة فى ذلك التـاريخ تربو على المائـة الف . وان كانت الخطط الموضوعة تقضى بزيادتها الى الربع مليون . واذا أخذنا بعين الاعتبار أن سلوين لويد اتهم الجيش المصرى بالضعف فى عـام ١٩٥٦ ، أى بعـد سنتين من ذلك التاريخ (١) ، فكيف يمكن أن نصدق ، أن زعيم هـذه البلاد ، وهذه حالة شعبها وجيشها فى عام ١٩٥٤ ، يمكن أن يفـكر فى السيطرة على سدس مجموع سكان العـالم أى على نحو من أربعمـائة وخمسين مليونا من المسلمين الذين يأهلون ثلث مسـاحـة العالم كله . وكان على هذا الزعيم المصرى اذا أراد تحقيق هدفه « العالمى » هذا أن يتحدى سلطان عدد ضخم من كبريات دول العالم مساحة وقوة كروسيا

---

(١) نقلنا هذه الارقام التى أوردها المؤلف والتى لانود أن نناقش صحتها . لكى نثبت بما فيها من صـحة تقريبية على الاقل ، مـدى التضليل الذى لجأ اليه الغرب ، لتشويه صورة السيد الرئيس أمام الشعوب الغربية واظهـاره بمظهر الطامع فى التوسع ، وهو عين مايلجأ اليه عملاء الغرب من الحكام العرب حتى يومنا هذا ، مع أن الحقيقة هى أن أعمال الرئيس انعكاسات قيادية لما يطمح اليه الشعب العربى . فى الوحدة الشاملة .

– المعرب –

والصين وبريطانيا وفرنسا والهند وجنوبى افريقية وبلجيكا وغيرها من دول العالم ، التى تؤلف غالبيتها .

واذا شئنا أن نمضى فى هذا التقويم التدريبى مرحلة أخرى ، قلنا ان المشكلات الهائلة التى تنطوى عليها مثل هـذه المطامح الضخمة قد لا تعوق زعيم دولة كبرى متقدمة من الناحية الحضارية ، اذا كان مصابا بالعظام . ولكن لويد أو أيا من زملائه من ذوى السلطة لم يستطع أن يتهم الرئيس عبد الناصر ، بالافتقار الى اتزان التفكير ، بل على النقيض من ذلك ، وعلى سبيل المفارقة ، كان لويد نفسه ومن يستوحون منه الالهام من المسئولين ، ينعتون عبـد الناصر بأنه واسع الدهاء . دقيق كل الدقة فى حساباته ، التى يقدر خطاه وفقا لها . ولم يحاول لويد أن يرسم لعبد الناصر ، صورة انسان يتكىء على كرة من البلور الكريستالى فى « عش للنسر » كعش برختسجادن يتطلع منـه الى الآفاق البعيـدة أمامه ، فيشتد عظامه ، وانما كانت الصورة التى رسمهـا ، وأراد من الناس أن يأخذوا بها ، وقد أخذوا بها فعلا أخـذا ينطوى على الخطر ، تمثل عبد الناصر بشكل الانسان العاقل كل العقل ، الشديد الدهاء ، المتحكم فى عواطفه ، والذى يعلن بصراحة للعالم ، هذه الاهداف العالمية النطاق التى يسعى لتحقيقها . ولا أرى بى حاجة الى المزيد من القول ، ولكننى أريد أن أقول ان تبدل هذه الصورة ، التى حاول لويد ورئيسـه ايدن طبعها فى عقول الغربيين مستخدمين غاية الجهد هى عمليـة نفسية دقيقة تتطلب بعض الوقت .

ولا أكشف سرا ان قلت ان مجلس الوزراء البريطانى ، ألف فى ذلك الحين ، « لجنة لخلق الذرائع » وايجاد المبررات من بين أعضائه . والتأم عقد مؤتمر لندن ، بعد كثير من التردد الخفى من جانب الدول المدعوة ، لأنها أدركت أن دعوة ايدن ومولييه لها لم تكن بقصـد بحث الاقتراحات التى سيقدمانها ومناقشتها ، بل بقصد اقرارها ليس الا . وكان من المحتم أن يفشل المؤتمر ، وألا يكون مجديا ، لاسيما وقد أصر الرجلان على دعوتهمـا وعلى انعقاد المؤتمر ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى ان الدولة صاحبة الشأن الأول فى الموضوع ، وهى مصر ، قد رفضت حضوره ، لأن جدول أعماله نص على أن توافق مصر على الطلب المقـدم اليها بالتخلى عن ادارة القناة . وحاولت الهند أن توجه المؤتمر الى اقتراحات تصلح لكى تكون أساسا للمفاوضات ، وهى تنطوى على تأكيد ميثاق عام ١٨٨٨ وتعـديله بحيث ينطبق على سياسات العصر ، وعلى أن تتولى مصر ادارة القناة شريطة أن تقدم تقريرا سنويا عن ادارتها الى الأمم المتحدة وشريطة قيام اتصال منظم ، دائم بين المنتفعين بالقناة من ناحية والسلطة المصرية التى تتولى ادارة القناة . ولكن الرفض كان نصيب الاقتراح الهندى ، وقرر المؤتمر بدلا من ذلك ايفاد « منزيس » الى القاهرة ليقدم الى عبد الناصر طلبا بانشاء سلطة دولية لادارة القناة ، على أن تقتصر مهمته على الطلب دون المفاوضة . وأعد ايدن ومولييه العدة ، رغبة منهما فى زيادة حدة الوضع ضراما ، لكى يعلنا فى نفس اللحظة التى يؤم فيها منزيس القاهرة ، عن وصول القوات الفرنسية الى قبرص التى لا تبعـد أكثر من مائتين وخمسين ميلا عن

بور سعيد ، وعن اســتعداد ثمانى بواخر من ناقلات الجنود فى ميناء ساوثهامبتون للتحرك فى اتجاه الجزيرة نفسها ٠

وكان الرجلان قد بدءا فى الوقت نفسه فى تنفيذ مخطط آخر للعمل٠ فقد رتبا ليظهرا مصر بمظهر العاجزة عن تسيير الملاحة فى القناة على أى حال ، أن يمتنع المرشدون الموجودون فى الخارج فى أجازاتهم ، عن العودة الى عملهم ، وقد اعترف ايدن بهذه الحقيقة فيما بعد فى مذكراته ، وروى أنه والفرنسيين قد حثوا المرشدين على عدم العودة ، ورتبا أيضا أن تنشر الصحافة الغربية المقالات والبحوث الطوال عن الخبرة الفنية التى يطلب توافرها لارشاد السفن داخل القناة وان ترفض الصحف الغربية الموالية نشر مايصدر من اعلانات عن مصر طلبا للمرشدين من الخارج ، ولــكن القناة ظلت تعمل كعهدها ، وحصلت مصر على مزيد من المرشدين(١) ٠ وتم فى النهاية سحب من تبقى فى مصر من مرشدى الشركة ، وزعم ايدن فى مذكراته أنه لم يعد فى وسعهم البقاء فى مراكزهم ٠ وبدأت شركات الملاحة فى تحدى ايدن بدفع رسوم العبور الى الادارة المصرية ٠

وظهرت فى شهر سبتمبر أيضا ظاهرة غريبة أخرى ، فقد وزعت عن طريق البريد على جميع أعضـــاء البرلمـــان ورؤساء تحرير الصحف ومديرى شركات الزيت وغيرهم من كبار الشخصيات والمؤسسات الهامة فى بريطانيا وخارجها نشرة تحمل العنوان التالى: «مصر ـ معلومات عامة» وقد حملت النشرة فى ظاهرها كل دليل مصطنع ، على أنها نشرة رسمية مصرية ، وزعت عن طريق السفارات المصرية فى كل مكان ٠

وذكرت النشرة فى فصل حمـــل عنوان « مشروعات عامة » أن مصر تقترح انشاء منظمة عربية جامعة تحت اشراف مصر لتسوية الزيت ٠٠ ووردت تحت هذا العنوان ، الجملة الغريبة التالية التى تحمل كل نذر الشر

« وسيؤدى خلق هذه المنظمة الى حرمان أعداء مصر من الزيت بينما تضمن البلاد العربية التى تحظى بحسن نيات مصر ، تأمين حاجاتها» ٠

وانطوت هذه الخطة المذهلة على بعض التفاصيل الاخرى ، فقـــد ذكرت على سبيل المثال ، أن المؤسسة المصرية للبترول ســـتتولى تشغيل مستودعات الزيت البريطانية فى القناة ، وهى المستودعات التى حدد اتفاق الجلاء وضعها وضمنه ، وأضــــافت أن مصر ستتمكن عن طريق « حلفائها الجدد » وبمساعدتهم من بناء مصاف جديدة لتكرير الزيت ، (لاريب أن المقصود بالحلفاء الجدد هم الاتحاد السوفياتى والدول التابعة له) وبذلك يصبح العرب فى الواقع «سادة زيتهـم» وليس من المستغرب أن

---

(١) نسى المؤلف أن يشير هنا الى الدور البارز الذى لعبه المرشدون المصريون فى تأمين عمل القناة فى الايام الاولى من هذه المقاطعة ، والذى يرجع اليه أكبر الفضل فى ضمان سير الملاحة فى القناة نظرا لما بذلوه من جهود تفوق حدود الطاقة البشرية ٠

ـ المعرب

تكون هذه النشرة الصغيرة قد أثارت فزعا عظيما فى نفوس الكثيرين من الذين تلقوها أو اطلعوا عليها من ذوى النفوذ ، وراح الناس يتساءلون ، «أو لم يقل لنا لويد والوزراء الفرنسيون بمنتهى الجد والحزم بأن عبد الناصر كان صريحا فى اعترافاته بمطامعه ، صراحة هتلر فى الماضى ! أو لاتعتبر هذه النشرة ، مجرد اضافة على الاعترافات السابقة ؟ »

ولكن هذه النشرة كانت مزورة تزويرا كاملا ، فهى صورة طبق الأصل فى مظهرها وشكلها ، وغلافها ، وتبويبها ، واخراجها ، عن نشرة مصرية موجودة تحمل هذا الاسم ، ولكنها تختلف فى العبارة والمحتوى٠ ولو كانت الظروف عادية لتبين مافيها من تزوير على الفور آنذاك ، اذ أن جميع مافيها من معلومات كانت مصوغة فى عبارات تحمـــل معنى الاذى لمصر ، وهو مالايمكن أن يصدر عن مصر نفسها ، وليس ثمة من شك فى أنها قد «عكست» تماما عن أصلها المصرى الصحيح ، فقد أظهرت النشرة المزورة ، نسبة الأمية فى مصر ، وذكرت أرقاما «تافهة» لما تم توزيعه من أراض بموجب قوانين الاصلاح الزراعى ، **كما عرضت أرقاما** خفيفة جدا للدخل القومى فى البلاد ، ويدرك كل من يقرؤها استحالة صدورها عن أية حكومة شرقية كانت أو غربية اذ لايعقل أن تعرض مافيها من حقائق — اذا كانت حقائق فعلا — على هذا النحو ، لكن الظروف التى جرى فيهـــا التوزيع ، لم تكن عادية أبدا ، وقد تم فعلا فور البيان الذى أذاعه المستر لويد ، والذى رددت الصحافة صداه ، ولم يكن فى وسع واحد فى المائة من متسلمى النشرة الزائفة ، أن يقارنوا بينهـــا وبين النشرة الأصلية الصحيحة ، كما فعل مؤلف هذا الكتاب ٠ ولم تكن هذه النشرة الاصلية تتضمن أكثر من اشارة قصيرة واحدة لموضوع الزيت ، اذ ذكرت أن مصر تخطط لبناء مصفاة مصرية للزيت تعمل من أجل المصريين(١) ٠

وقد أحدث التزوير على الفور الأثر المقصود منه ، وفى وسعى هنا أن أسرد على سبيل المثال مانشرته مجلة لندن الصناعية المسماة « أسبوع البترول » ، فقد كتب محررو المجلة موضوعا تحت عنوان « مخطط مصر لزيت الشرق الأوسط » فقد كتب محررو المجلة موضوعا تحت عنوان : « زيت الشرق الاوسط » أكدوا فيه ثقتهم بصحة النشرة وأضافوا أن ما جاء فيها ينطبق على ماأعلنه عبد الناصر فى كتابه الذى أرخ فيه حياته ، ثم راحوا اكمالا للحلقة ، يقتبسون ما أورده لويد من آشارات لكتيب « فلسفة الثورة » (٢) ٠

وبادرت القاهرة الى اعلان تزييف النشرة ، ونفت نفيا باتا صدورها عن أية سفارة مصرية ٠ ولكن مثل هذا النفى ماكان ليجدى فى مثل ذلك

---

(١) فى وسع القارىء المهتم بهذا الموضـــوع وبالمقارنة بين الوثيقتين الأصلية والمزورة أن يرجع الى الصور الزنكوغرافية للنشرتين كما صـــدرتا بشكلهما الكامل فى صحيفة « الاجبشيان جازيت » فى عددها الصادر فى ١٢ من سبتمبر ١٩٥٦ ٠

(٢) مجلة أسبوع الزيت ـ العدد الصـــــادر فى ١٤ من سبتمبر ١٩٥٦ ٠

ـ المؤلف ـ

الجو الذى كان مسيطرا فى سبتمبر عام ١٩٥٦ • وقد جاء تأثير التزوير معززا تعزيزا قويا لنظرية المستر لويد ، مما تكشف عنه حقيقة المقال الذى نشرته صحيفة « أسبوع البترول » • وأجرى المستر ادوارد مارو مراسل اذاعة كولومبيا ، مقابلة صحفية وتلفزيونية ، مع الرئيس عبد الناصر فى أواسط شهر أكتوبر ، وسأله عما اذا كان يظن بأن المثل الذى ضربه فى موضوع التأميم ، قد تحتذيه دول عربية أخرى فى موضوع الزيت فرد عبد الناصر قائلا :

« أعتقد أن الوضع بالنسبة الى الزيت ، يختلف كل الاختلاف • اذا سألتنى عن السبب ، قلت ان قيامى بتأميم الزيت يتطلب منى أن أكون مطمئنا الى طريقة نقله وشحنه ، وواثقا من وجود « الزبائن » الذين يبتاعونه ، وقادرا على تأمين ماتحتاج اليه ادارة انتاجه فى حقوله من خبرة فنية » •

وعادت مجلة « أسبوع البترول » فنشرت مقالا آخر فى هذا الصدد دعمته بما أورده المستر لويد فى حديث تليفزيونى ثان ذكر فيه أن « أحلام عبد الناصر فى اقامة الامبراطورية التى يريدها • قد بدأت تطل برأسها » • وكان عنوان المقال الجديد •• « عندما يستعمل عبد الناصر صيغة المتكلم المفرد » • ولم يتركز المقال على ما وضعه عبد الناصر من تحفظات فى حديثه للتليفزيون الامريكى عن صناعة الزيت ، كما كان الواجب الصحفى يحتم على الصحيفة أن تفعل ، وانما ركز اهتمامه على الطريقة الانكليزية المثالية فى التعبير التى استخدمها عبد الناصر ، كقول أى انسان انكليزى ••• (ولو أردت أن أؤمم صناعة الفولاذ لتحتم على أن أفعل كيت وكيت » • ولكن لفظة « المتكلم » فى حديث عبد الناصر المشار اليه استخدمت كدليل جديد على أطماحه الشخصية وعلى ميوله الاستعمارية (كذا) بالنسبة الى الزيت الذى لا يوجد فى أرض مصرية • وراحت المجلة البريطانية بعد ذلك تقتبس من أقوال المستر لويد ما تريد لدعم نظريتها ، ثم مضت تتحدث عن تزوير النشرة على النحو التالى •

« وسواء أصح أن هذه النشرة بالذات مزورة أم غير مزورة ، فان هذا أمر لانعرفه ، ولايهمنا ولاسيما فى مثل هذه الاوقات ، على أى حال من الاحوال •

اما أن يكون ما فيها من أفكار أساسية انعكاسا لتفكير عبد الناصر ، فهذا هو المهم ، وهو ما اتضح للملايين من مشاهدى التليفزيون فى الاسبوع المنصرم ، عندما رأوا عبد الناصر يبتسم وهو يقول •••• وعلى اذا أردت أن أؤمم الزيت ، أن أفعل كيت وكيت » (١) ••

ولا ريب فى أن هذه الطرائق الغريبة والاساليب العجيبة هى التى أدت فى تلك الاشهر التى سادها القلق من عام ١٩٥٦ ، الى ظهور أعظم مثل فى أواسط القرن العشرين ، على الايحاء الجماهيرى على الصعيد العالمى ، عن طريق الترويج لفكرة معينة تستثير الذكريات

---

(١) مجلة « أسبوع الزيت » عدد ١٩ اكتوبر ١٩٥٦ •

المرعبة عند هذه الجماهير • وراحت مصر فى مثل هذا الجو المفتعل ، تطلع باقتراحاتها المتتاليه عن مشكلة القناه ، ليصطدم كل منها فور صدوره بالعقبات الناجمه عن مثل هذه المواقف العامه التى اصطنع حلفها ضد مصر وراح عبد الناصر فى الثالث من سبتمبر ، يعرض اقتراحا ما لبث أن اضفى عليه الكثير من التفصيل والصراحه فى العاشر من الشهر نفسه ، مضفيا عليه أشياء جديدة واضحة كل الوضوح • وتضمنت هذه الاقتراحات بالاضافة الى معاهدة جديده راى امكان توضيحها ، قيام هيئة من المنتفعين بالقناة تتولى التفاوض مع مصر لعقد « اتفاقات ملزمة » تحدد مستوى الرسوم ، واستخدام العائدات فى أغراض الصيانة ، والقيام بمشروعات مقبلة لتحسين الممر المائى • ولكن وزارة الخارجية البريطانية بادرت الى الاعلان بان اقتراحات عبد الناصر لا تنطوى على « أى شىء جديد » • وراح ايدن يعلن فى مجلس العموم فى الثانى عشر من سبتمبر أن « مصر رفضت كل مسعى لايجاد تسوية سلمية » • وزعم فى مذكراته فيما بعد ، بالنسبة الى هذا التاريخ أن مصر لم تتقدم بأية اقتراحات مضادة الى منزيس • وهنا يقوم التناقض الواضح الصريح مع الواقع •

وكان مجلس الوزراء ، قد أقر بالفعل الطريقة التى يجب أن تسير فيها الامور قبل أن يمضى منزيس الى القاهرة. وقد حاول سير انطونى هنا أيضا اخفاء هذه الحقيقة ، ولكنه لم يفلح فى اخفائها بسبب مافى كتابته من أسلوب موسيقى • فقد قرر مجلس الوزراء البريطانى فى الثامن والعشرين من أغسطس ، وكان قد أدرك ان الاستعدادات للحملة العسكرية قد شارفت على الكمال أن تلجأ بريطانيا وفرنسا الى مجلس الأمن فى حالة فشل بعثة منزيس التى كان المجلس على ثقة من فشلها (١) • ويقول ايدن فى مذكراته « ان مشروع القرار الذى ستتقدمان به سيقابل على الغالب بالفيتو الروسى » ويمضى بعد ذلك فيشرح تفكير مجلس الوزراء على النحو التالى :

« وفكرنا فى أن من الخير لنا أن نسارع الى عرض القضية ، وأن من الاهمية بمكان أن نأخذ زمام المبادرة قبل أن تأخذه مصر ، أو غيرها من الدول •••• ولكن لم يكن من الحكمة من الناحية الاخرى أن نلجأ الى مجلس الامن ، قبل أن تحصل بعثة منزيس على رد من عبد الناصر ••• مخافة أن يوحى ذلك بالانطباع فى اننا كنا نتوقع من الحكومة المصرية رفض مقترحاتها .

وليس ثمة ماهو أوضح من الهدف الذى توخاه ايدن فى اللجوء الى استخدام الامم المتحدة • وكان دالاس يعرف فى واشنطن هذا الغرض ، اذ أدركه ونقلت اليه المخابرات الامريكية أن الاعدادات العسكرية الانكليزية الفرنسية للحملة المقصودة ، تسارع نحو الكمال .

---

(١) « وتحتم علينا أن نستعد لتوجيه ضربتنا فى غضون أسابيع قليلة ، اذا صحت عزيمتنا على توجيهها ، اذ ان الابقاء على هذه القوات فى امكانها أمدا طويلا أمر باهظ التكاليف » فى مذكرات ايدن ص ٤٥٦ •
المؤلف

فراح يعمل الآن على ايجــاد وســيلة أخرى لحصر ايدن وموليه ضمن نطاق البحث عن حل سلمى ، ولابعادهما عن فكرة اللجوء الى الامم المتحدة • ويدون ايدن هنا ملاحظة أخرى من تلك الملاحظات التى يحاول طمرها تحت ستار لاخفائها ، ولكنها تظهر لتشير الى كل شىء وتفضــحه اذ يقول ، ان دالاس حذره من ان الولايات المتحدة لن تؤيد عرض الموضوع على الامم المتحدة لانهـــا تخشى أن يكون هــذا العرض وسيلة للحصول على غطاء للتعمية • وكانت الوسيلة فى منتهى البساطة • وقـد استخدمت بالفعل فيما بعــد لخلق أزمة فى الامم المتــحدة عن طريق التقدم بمشروع قرار من طراز لابد وأن تقابله روسيا باستخدام الفيتو ، ويكون غير مقبول بأى حال من الاحوال فى مصر ، فيقوم ايدن وموليه ، على اثر هذا التطور باعلان استحالة القيام بأية خطوة جديدة، وأن الوقت قد حان الآن للعمل .

وأدى خــوف دالاس من هــذا التطور ، الى تقدمه فى مستهل سبتمبر باقتراحاته الجديدة لانشاء هيئة المنتفعين بقناة السويس • وتقول رواية ايدن فى هــذا الصدد ان دالاس اقترح أن تتولى هــذه الهيئة تسيير بواخر اعضائها عبر القنــاة ، وأن تجبى الرســوم ، دون أن تأبه برأى عبد الناصر ، وأنه مالبث أن « تراجع » عن مشروعــه هــذا بالاعلان جهرا بأن أمريكا لن تدعم « هيئة المنتفعين » ضد مصر الى الحد الذى يؤدى الى استخدام القــوة • ولا يهمنى ان أورد التفاصيل الكاملة هنا فالمهم هــو ما نعرفه حقا ، وما لا يتطرق اليه الشك مطلقا • فقد لاحظ دالاس بين أوائل ٥ سبتمبر وأواسطه ، أن ايدن وموليه يحاولان استغلال مشروعه « لهيئة المنتفعين » وأن يجعلا منه أداة ينفذون عن طريقها ما يحــاول هو تجنبــه • فلقـد وضعا خطتهما على أن يستخدما المشروع وسيلة لاستخدام القوة ، عن طريق ايفاد باخرة تعــود الى الهيئة ، الى القنــاة عــلى سبيل التجربة ، على أن يرفض قبطانها معونة المرشدين المصريين أو دفع الرســوم الى الهيئة المصرية فاذا ما رفضت مصر الســـماح لباخرته بعبور القناة عمد ايدن وموليه على الفور الى اتهام مصر بخرق ميثاق عام ١٨٨٨ • ويصبح اســتخدام القوة فى مثل هذه الحالة مقبولا لدى الرأى العام العربى الذى مازال يحس حتى تلك اللحظة بالفزع من احتمال اغلاق القناة • وأعلن دالاس جهارا قبيل مغادرته لندن عائدا الى بلاده بعد ان أقر المؤتمر مشروع « هيئة المنتفعين » ، ان حــكومته لن تشترك فى أية عملية « لشــق الطريق عنوة » عبر قنــاة الســويس • وخيل اليه أنه قد كسب بعض الوقت على الاقل .وكان قد تقرر عقد اجتماع آخر ، ليحتفل رسميا بافتتاح « هيئة المنتفعين » بالقناة أن لا تجرى أية محاولة « اختبارية » من النوع المقترح قبل عقد هذا الاجتماع ، وقبل أن تشرع الهيئة الجديدة فى اجراء مفاوضات صحيحة مع مصر •

ولكن على الرغم من معارضة دالاس العلنية والمعروفة ، وقبل أن تولد « هيئة المنتفعين » بشكل رســمى ، راح ايدن ومولیــه فى الثالث والعشرين من سبتمبر ، تحيلان القضية برمتها الى مجلس الامن • وكانت الحملة العسـكرية قد باتت جاهزة للعمل • واحتشدت قوة هائلة

قوامها مائة ألف رجل وعدد كبــير من السفن الحربية والطـائرات ، فى البحر المتوسط ، على قدم الاستعداد للعمــل الفورى • وأحس دالاس بالفزع ، فشرع يعمل بالاشتراك مع همرشولد والوفد الهندى ، والدكتور محمود فوزى ، على وضع قواعد عملية سليمه تكون أساسا لقــرار يصدر عن الأمم المتحدة ويبعد الازمة ثانية عن مجال استخدام انجلترا وفرنسا للقوة العسكرية • وتمت بالفعل « صياغه » ستة مبــادىء ، تم الاتفاق عليها• ولكن الوفدين البريطانى والفرنسى أرفقا بهذه المبادىء ذيولا قدماها على شكل مشروع رسمى ، يدرك أى طالب فى الصف السادس الابتدائى، أن روسيا ستستخدم حق « الفيتو » لابطاله فى حالة اقــراره ، وان مصر ستعارضه حتما • وتضمنت هذه الذيول عدة بنود ينص أحدها على أن تتعاون مصر ، الى أن يتم الوصول الى تسوية ، مع هيئة المنتفعين بالقناة، وأن تبقى على القناة مفتوحة أمام كافة البواخر مهما كانت جنسياتها•وقد اعترف ايدن فيما بعد فى مذكراته انه أراد القيام « بتجربة » فى موضوع حظر مصر على السفن الاسرائيلية العبور فى القناة •

وكانت جميع الصحف الكبرى فى العالم آنذاك قد روت أن لنــدن وباريس تنظران الى « هيئة المنتفعين » نظرتهما الى « حصان طروادة » (أو ما نسميه نحن « مسمار جحا » ، وكان دالاس نفسه قد أعرب جهارا عن مخاوفه من أن يلجأ الانكليز والفرنسيون الى استخدامها وســيلة لخلق المشاكل واثارة المتاعب ، وتبرير اللجوء الى القوة • ولم يكن هناك أدنى أمل فى أن مصر ستقبل هذه « الذيول » • وكان ايدن يعرف هذه الحقيقة تمام المعرفة • وكان موليه لا يقل عنه علما بها • واستخدمت روسيا حق الفيتو • ورفضت مصر الاقتراحات البريطانية ــ الفرنسية • وخرج بينو فى مجلس الامن فى الحادى عشر من اكتوبر ليعلن أن « لا أساس هناك للمفاوضات » • ولحق به زميله ساوين لويد يقول ••• « لقد عملنا كل ما فى وسعنا » • ومضى دالاس وهمرشولد وأعضاء الوفد الهندى ومحمود فوزى فى محاولاتهم للتغلب على النكسة • ولكن التسوية السلمية كانت قد انتهت •

وانتهى معها مايحيط باللغز من غموض •••

- ١١ -

الحرب الثلاثية

« الأسرار أدوات حادة ...

ولذا يجب ابقاؤها بعيدة عن متناول الاطفال والمجانين .. »

السير مارتن مار ـ أول

***

هل كان ثمة تواطؤ بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل ؟ اذا كان الرد بالايجاب ، فمن الذى أوجده ، وفى أى تاريخ وجد ، وما هى الخطط التى وضعها ، وما توقيت تنفيذها ؟ وهل كان ايدن على علم بخطة الهجـوم الاسرائيلى ؟ وهل كان يعرف ان الفرنسيين سيقدمون الى اسرائيل عونا حربيا مباشرا ؟ وهل كانت اسرائيل عالمة بالانذار الانكليزى ـ الفرنسى سلفا وقبل تقديمه ؟ واذا صح انها كانت على علم به ، فما الذى استنتجته اسرائيل منه ؟

ان عرض هذه المرحلة الاخيرة من القصة ، عمل من أعمـال رجال المباحث . فهناك حشد ضخم من الحقائق المعروفة ، ومجموعة هائلة من الادلة والملابسات الثابتة ، وأجمات كثيفة من الفروض ، تضاف اليها كلها رواية ايدن البعيـدة عن العقـل ، والتى تضفى على القضية التى يراد اكتشافها المزيد من الغموض والتعقيد بدلا من التبسيط والايضـاح . ولقد حاول السير أنطونى فى مذكراته ألا يقول شيئا أيضـا عن هذه الاسرار التى تلف قضية السويس ، وأن يترك المجال مفتوحا أمام الاجيال القادمة لاكتشاف غوامضها ومكنوناتها . فلقد وضع عرضا لا يرد فيه أى ذكر لكلمة التواطؤ أو أى مرادف من مرادفاتها ، ولا يقر فيه حتى ولو فى جملة واحدة ، ان أحدا قد اتهمه بوجود هذا التواطؤ . وهو لا ينكر أى شىء لانه لا يقر بوجود ما يستحق الانكار أو النفى . وهو يعترف بالقليل، ولكن ما يرد على لسانه من اعترافات ـ هذا اذا استثنينا شطحات قلمه أحيانا ـ قد صيغ فى عبارات غامضة كل الغموض بحيث لا تصلح الا مادة لتحليل معقد متقاطع ، أو انها وضعت فى لغة تحمل الكثير من المعـانى والاحتمالات لما فيها من افتقار الى الوضوح . وسنتولى هنا تمحيص جميع هذه الامور ، مع تحذير القارىء سلفا وقبل كل شىء ، من أنه سيجد عقله وقد « داخ » فى بعض المواضع من هذه الاحجيات . ولكن قبل أن نتعمق فى هذه « الغابة » من التعقيدات والغموض ، أرى أن أورد هنـا ملاحظة أو ملاحظتين عامتين .

سبق لنا أن رأينا فى الفصـول السابقة كيف سعت الحكومات

الثلاث ، البريطانية والفرنسية والاسرائيلية ، الى الاطاحة بعبد الناصر ، وكيف كانت تقوم باعداداتها النشيطة للشروع فى هجوم عسكرى . ولكن فى وسعنا أن نكون واثقين من انه على الرغم من وجود هذا الهدف المشترك ، فلقد كانت هناك بعض التحفظات والكوابح الفردية عند حكومتين منها على الاقل ، وفى وسعنا أن نشرحها باختصار بادئين ببريطانيا .

كان تصميم السير انطونى الذى لايتزعزع ، كما حدده هو ، متركزا فى وجوب خروج بريطانيا من قضية السويس وهى تملك « سلطه » اكبر — على حد تعبيره هو — من السلطة التى كانت لها فى الشرق الاوسط العربى ، لا أقل منها . وكان هدفه بالاشتراك مع نورى السعيد،لا ينحصر فى الخلاص من عبد الناصر ، بل يتعداه الى اقامة نفوذ عربى — انجليزى دائم وجديد يحل محل نفوذ عبد الناصر ، يقوم ويتركز حول شخص نورى السعيد وقيام عراق أكبر ، يضم جميع الاردن أو بعضه على الاقل بصورة ثابتة . ولضمان النجاح فى تحقيق هذا الهدف النهائى ، كان هناك « مؤهل » لابد وان يوجد فى الطريق الى السويس والقاهرة . وليس هذا المؤهل بالشىء الجديد . فهو قديم قدم ايدن نفسه الذى عاش فيه ، اذ انه كان مبدأ أوليا من مبادىء السياسة البريطانية فى الشرق الاوسط . وهو يتلخص فى أن على بريطانيا أن تتجنب تماما فى كل ما تعمله ، أن يحمل أى طابع من طوابع العلاقة الظاهرية باسرائيل مهما ضؤل شأنه ، واعتقد ايدن ، وهو جد مخطىء أنه اذا خلص من « رجل » القاهرة ، فان العرب سيستجيبون الى قيادة نورى ، وان فى وسع هذا وغيره من « الاصدقاء » السيطرة على « الدهماء » . ولكن ايدن كان يعرف خير معرفة ، دون أن يتطرق اليه شك ، فى أن بريطانيا لو بدت تعمل متعاونة مع اسرائيل بأى سبيل من السبل ، فانها ستضيع على نفسها كل شىء . وتصبح هى وصديقها نورى « موسومين » بوسم لا يمكن محوه أو اصلاحه عند جميع العرب فى كل مكان .

علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا فى كل ما يلى من تحقيقات وعلينا أن نذكر أيضا ما لدى اسرائيل من تحفظات . فلقد رأينا فى الفصول السابقة ان عامل « تلقين العرب درسا لا ينسونه » كان مسيطرا على التفكير الصهيونى الحربى التواق الى العمل . وكان هذا الهدف أساسيا فى الخطة التى وضعتها اسرائيل للحرب فى سيناء ، فهى تريد أن تحقق نصرا عسكريا مثيرا ، يترك انطباعه عند العرب جميعا . وهى لا تريد أن يحول بينها وبين تنفيذ هذا الهدف ، ولا سيما بالنسبة الى مصر ، أية معارضة أو ضغط أجنبى ، أو تدخل آخر معاد لمصر ، يظهر معه ان اسرائيل قد حققت ما تريد من نصر عن طريق العون « الاستعمارى » . فهى تريد السلاح من الخارج ، ولكنها تريد أن تتولى هى القتال به ظاهرا على الاقل .

وسبق لنا أن رأينا أيضا أن بن جوريون كان يتوقع منذ البداية ، ان يؤدى احتلال اسرائيل لسيناء ، واقامة حدود جديدة لها على قناة

السويس الى ضرورة التدخل الخارجى فى منطقة القناة . ولكنه كان يتوقع مثل هذا التدخل بعد احتلال سيناء لا قبله (١) .

وكانت فرنسا هى الدولة الوحيدة بين الدول الثلاث ، التى لا تحدد
من حريتها فى الحركة ايه قيود أو مؤهلات . ولم يكن هناك ما تخشاه
من السير الى مصر جنبا الى جنب مع اسرائيل ، أمام بصر العالم وسمعه .
اذا كان هذا هو السبيل الامثل والانفع لها . ولم يكن القادة العسكريون
الفرنسيون من أمثال ماسو ، يتورعون عن القيام بأى عمل ، حتى ولا
اطلاق بعض فدائييهم من الطائرات فى سماء القاهرة ليعملوا كل شىء
للاطاحة بعبد الناصر (٢) ، اذا كان هذا سيحقق لهم بعض الانفراج فى
الجزائر ، ويثأر للكرامة الفرنسية الجريح ، التى أصابها عبد الناصر
فى الصميم بتأميمه شركة القناة . وهكذا كان تحالف فرنسا مع اسرائيل ،
الى حد كبير ، حلفا يقوم على أكثر المصالح الذاتية علنية وصراحة . ولم
تكن جماعات العسكريين تنظر الى حكومتها آنذاك أى فى عام ١٩٥٦ بعين
الاحترام والتقدير . ولم تكن هذه الجماعات أيضا فى وضع نفسى يسمح
لها بالتسامح مع ما تبديه لندن أو حتى اسرائيل من تحفظات تفرضها
الاوضاع الدقيقة .

وفى وسعنا الان وقد انتهينا من تدوين هذه الملاحظات الاخيرة عن
الاهداف والنزعات التى حملها منفذو حرب سيناء — السويس فى أفكارهم ،
أن نشرع فى سرد حقيقة ما وقع .

الحلف العسكرى بين فرنسا واسرائيل :

اتفق فى باريس فى السابع من أغسطس عام ١٩٣٧ ، على التفاصيل
النهائية المتعلقة بتسليم شحنات ضخمة وسرية كل السرية من الاسلحة
الى اسرائيل ، وذلك مع كبار موظفى وزارة الدفاع الاسرائيلية الذين أموا
العاصمة الفرنسية آنذاك . وتوقفت منذ ذلك التاريخ المعلومات التى تزود
بها فرنسا حليفتيها بريطانيا والولايات المتحدة ، عادة من شحنات الاسلحة
الفرنسية الى الشرق الأوسط ، عملا بسياسة التوازن فى التسلح التى
نص عليها البيان الثلاثى . وشرعت الحكومة الفرنسية تستأجر السفن
التى تستخدمها فى نقل الأسلحة الى اسرائيل ، بمنتهى السرية والتكتم ،
وكانت تدفع الى بحارتها أجورا اضافية لتضمن تكتمهم ، كما تعيد طلاء

(١) و (٢) انها مجرد أحلام كانت تراود أعداء العرب من مستعمرين
وصهاينة . وقد سبق لى أن أوضحت فى هامش سابق ، أن العدوان لو
لم يكن ثلاثيا واقتصر على اسرائيل وحدها ، لكانت نتيجته غير ما تحقق
لاسرائيل حتى فى الايام الاولى من المعركة . فلقد كان العرب على ثقة من
ان جيش مصر ، على الرغم من انه كان لا يزال وقت العدوان فى المراحل
الاولى من تسلحه وتنظيمه الجديدين ، كان قادرا على تلقين اسرائيل درسا
لا تنساه .
— المعرب —

هذه البواخر بين آونة وأخرى ذرا للرماد فى العيون (١) . وتدفق سيل المواد الحربية باستمرار منذ شهر أغسطس ودون توقف على اسرائيل .

ومضت الاتصالات الفرنسية ــ الاسرائيلية منذ مطلع سبتمبر فى الاتساع السريع شاملة جميع الحقول والميادين . وصدر تلميح من كل من موليه وبينو عن وجود « سر دبلوماسى » ، مما عنى ان موضوع استخدام القوة مع مصر لم يكن أمرا مستبعدا وأعلن بن جوريون فى اجتماع حزبى عقد فى تل أبيب فى الثالث والعشرين من سبتمبر ، ان « اسرائيل وجدت أخيرا حليفا صادقا لها » . وسنرى عما قريب أن تعيين هذا التاريخ أمر فى منتهى الاهمية والخطورة .

كتب السير انتونى ايدن فى شهر أغسطس يقول :

« وبينما كانت للمملكة المتحدة ارتباطاتها الواسعة المدى مع الاردن طبقا لمعاهدة التحالف بينهما ، كانت علاقات فرنسا وثيقة باسرائيل، وكان فى الامكان تسوية الخلافات بيننا وبين الفرنسيين عن طريق الدبلوماسية والاحداث ، ولكن هذه الخلافات لم تكن قد سويت فى ذلك الوقت بعد » .

ولعل هذا القول ، من الاشارات العديدة الواردة فى مذكرات ايدن والطافحة بالمعانى المتعددة ، اذ انه لا يعنى شيئا محددا بالذات ، ومع ذلك يعتبر رصيدا لرواية السير انطونى فى حالة ظهور قصة كاملة الوثائق عن سيناء والسويس . وتعزز المصادر الاخرى ، ما قاله ايدن هنا اذ تجمع هذه المصادر على أن الحكومة البريطانية لم تكن تعرف معرفة واضحة عن وجود تحالف فرنسى ــ اسرائيلى فى ذلك الوقت ، وان كنا قد لاحظنا من قبل أن فرنسا توقفت منذ شهر أغسطس عن تزويدها هى وأمريكا بأية تقارير عن الشحنات تبعث بها الى الشرق الاوسط .

لكن الوزراء الفرنسيين لم يحتفظوا الى حد كبير بسرية الحلف الذى عقدوه مع اسرائيل بعد انتهاء حرب السويس . فلقد أعلن المسيو بينو فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى شهر ديسمبر بصراحة قائلا : « كنا نعرف حقيقة نيات اسرائيل . أو لم يكن من الطبيعى والحالة هذه أن تتشاور حكومتانا ؟ » . وقال رئيس الوزارة الفرنسية موليه فى اذاعة تليفزيونية لامريكا فى التاسع من ديسمبر ما نصه : « لقد وفينا بما قطعناه من عهود لاسرائيل » .

ترى ما هذه العهود ؟ وما هو هدفها وهدف هذا التحالف ، اذا استثنينا موضوع الاسلحة ؟ وما هى الاتفاقات الاخرى التى تم الوصول اليها بين فرنسا واسرائيل ؟ وهل علم ايدن بهذه الاتفاقات فى أى وقت من الاوقات قبل بدء الهجوم على سيناء ؟ .

رسالة الى بن جوريون :

وانكشف سر من غياهب المجهول فى عام ١٩٥٩ أضاف الكثير الى ما كان هناك من أدلة عن هذه الاسرار التى كانت تكتنف حرب سيناء

(١) مجلة فرانس ــ اوبزرفاتور الفرنسية عدد ٢٥ نوفمبر ١٩٥٦

والسويس ، وهى مختلفة عن ذلك الطراز الذى يعرفه المحققون عادة من المصادر الخاصة . فلقد تحدث شخص يدعى العقيد (الكولونيل) هنريكس فى رسالة بعث بها الى مجلة « الاسبكتاتور » البريطانية يرد فيها على مقال طويل نشرته المجلة المذكورة تحت عنوان « الانذار » (١) ، فقال انه حمل رسالة من أحد أعضاء مجلس الوزراء فى لندن الى بن جوريون . وهنريكس هذا ، مؤلف مشهور ، وجندى بارز ، وينحدر من أسرة انجليزية ــ يهودية قديمة ، وقد بدأ اهتمامه بالصهيونية واسرائيل فى عام ١٩٥٦ ، ورتب لنفسه زيارة لها فى أواسط سبتمبر من ذلك العام . وقد روى فيما نشره فى الاسبكتاتور ، انه اجتمع قبيل سفره الى اسرائيل بعضو فى الوزارة البريطانية ، أطلعه على كثير من الامور ثم حمله الرسالة التالية الى بن جوريون ...

« على اسرائيل أن تتجنب الحرب مع الاردن مهما كان الثمن . أما اذا قامت بالهجوم على مصر فى نفس الوقت الذى سيقع فيه الهجوم البريطانى عليها ، فان هجومها هذا سيكون فى مصلحة جميع الاطراف المعنية . وستتظاهر بريطانيا باستنكار العدوان الاسرائيلى فى أقسى عبارة ممكنة . ولكنها ستعمل فى مفاوضات الصلح التى ستلى ذلك على مساعدة اسرائيل فى الحصول على أحسن شروط ممكنة » (٢) .

وأوضح العقيد هنريكس ، فى رسائل أخرى ، أضفت على قصته الكثير من الصحة ، وان ألقت عليها أيضا « ظلالا » مرعبة ، أن هذه الرسالة قد سلمت اليه ليتولى ايصالها ، بدلا من أن ترسل بالطرق الدبلوماسية العادية ، لانها لم تكن بقرار رسمى من حكومة جلالتها . وأضاف يقول : « ونقلت الرسالة الى بن جوريون وقلت له أيضا ان ثمة جانبا كبيرا من الرأى العام داخل حكومة جلالتها ، يؤيد كل التأييد مساعدة اسرائيل ، ويبدو ان هذا الوزير كان يعمل نيابة عن هذا الجانب من الرأى الوزارى » .

وتثير هذه القصة قضايا دستورية خطيرة ، تتعلق بالمسلك الوزارى الذى يمكن تسميته بالمسلك الذى لا يغتفر ، ولكننى لا أرى من المصلحة اضاعة الوقت فى مناقشتها . ولكن فى وسع كل انسان أن يدرك ما فى هذه القصة من أهمية جوهرية ، فهى تشير بوضوح الى ان النية كانت متجهة فى أواسط سبتمبر أى قبل ستة أسابيع من الهجوم على سيناء ، داخل الوزارة التى يرأسها ايدن الى التواطؤ مع اسرائيل فى شن الحرب على مصر . وكانت هذه النية قوية الى حد كبير ، ويتولى قيادة الدعوة اليها وزير خطير الشأن كان فى مكنته أن يبعث بمثل هذه الرسالة الى بن جوريون . وسنرى بعد قليل ان جميع التفاصيل التى أوردها الكولونيل هنريكس عن هذه الرسالة ، قمينة بالتصديق ، كما ان شخصية الوزير الذى بعث بها لا يمكن أن تخفى عن العيان .

(١) السبكتاتور عدد ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ .
(٢) السبكتاتور عدد ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

وعلينا الآن أن نعرض السياق الزمنى فى هذه القضية كلهـــا . فنحن نعرف الآن أنه فى منتصف شهر سبتمبر ، كان الحلف الاسرائيلى الفرنسى فى طريق التكوين بالنسبة الى السلاح ، وكان يسير فى الوقت نفسه وبسرعة فى طريق النضج على جميع المستويات السياسية . وعندما حل منتصف شهر سبتمبر كانت الحملة الانجليزية ـ الفرنسـية قد باتت على استعداد واتخذت القوات مواقعها ، وكان الفرنسيون يلحفون بوجوب الاسراع فى العمل الفورى . وبرز الاستهلال الانجليزى ـ الفرنسى بايفاد « باخرة التجربة » نيابة عن هيئة المنتفعين ولكن المستر دالاس ، أفلح فى احباطه منذ البداية . وفى الثالث والعشرين من سبتمبروكانت الرسالة الوزارية البريطانية قد سلمت الى العقيد هنريكس ، طلب ايدن ومولية أخيرا عقد جلسة لمجلس الأمن . وأصدر بن جوريون فى اليوم نفسه أى فى الثالث والعشرين من سبتمبر بيانه الهام الذى قال فيه ان اسرائيـــل وجدت أخيرا « حليفا » صادقا واحدا ، ولم يقل انها وجدت حليفين .

ويروى العقيد هنريكس أنه عندما سلم الرسالة الى بن جوريون ، اكتفى بمجرد بسمة لاحت على شفتيه . وبان على وجهه تعبير من يود أن يقول « ... لقد سمعنا مثل هذه الوعود كثيرا من قبل » . ويتفق هـــذا القول مع كل ما كنا نعرفه من قبل عن بن جوريون . فالمعـــروف انه والصهيونيين عموما ، لا يصدقون الا ما يقدم اليهم من وعود واضـــحة محددة عن المساعدة الخارجية ، ولما كانت بريطانيـــا قد وقفت مواقف متعارضة من سياستهم فى فلسطين حتى عام ١٩٤٩ (١) ، فانهم لم يكونوا ميالين مطلقا الى تصديق هـــذه الوعود . لكن بن جوريون كان واثقـا

(١) لا أدرى كيف يسمح المؤلف لنفسه ، وهو الحصيف فى معالجة الاتجاهات السياسية أن يقول ان بريطانيا وقفت مواقف متعارضـة من سياسات الصهيونية ، الا اذا كان يتقصد الدفاع عنها متذرعا بما ذكرهو من ان بريطانيا تتقصد اخفاء أى اتجاه منها تشتم منه رائحة الميـــل الى اسرائيل حرصا على مصالحها الكثيرة فى الوطن العـــربى ، وحفاظا على أصدقائها من حكام العرب الذين ينفذون سياستها من أن « يحرقوا » ـ وكأنهم لم يحرقوا ـ أمام الشعب العربى ، فالقول بأن سياسات بريطانيا وقفت موقف التعارض مع اسرائيل فى أى وقت من الاوقات مغالطة واضحة، تخفى اتجاها جديدا يصح أن نسميه اتجاه « الاستعمارية الجديدة » التى تحاول اقامة علاقاتها مع العرب على أسس جديدة من التقرب والاعتراف بالخطأ أحيانا . فبريطانيا ، ممثلة للاستعمار ، هى التى أقامت اسرائيل فى قلب الوطن العربى لتكون حاجزا بشريا غريبا فى قلب هـــذا الوطن يجزئه وينفذ للاستعمار أهدافه ومآربه . فهى التى أعطت الصهيونية وعد بلفور ، وهى التى عملت بسياساتها طيلة عهـــد الانتداب على تهيئة السبل لقيـــام الدولة اليهودية ، وهى التى أحالت القضية عام ١٩٤٧ الى الامم المتحدة ، وعملت « سرا » على انجاح التقسيم ، كما مكنت المشروع من التنفيذ عن طريق ايحائها لعملائها من حكام العرب بالعمل على تحقيقه ـ المعرب ـ

من موقف فرنسا ومطمئنا اليه . وكان لا يزال على موقفه المطمئن هذا فى الثالث والعشرين من سبتمبرعلى الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن الخطط الفرنسية بدت وكأنها قد تحطمت على صخرة الامم المتحدة ومناقشاتها الطويلة ، أو انحرفت عن طريقها على الاقل . وما نستنتجه من هذا الوضع وهو ليس مجرد استنتاج ، ان بن جوريون كان واثقا فى الثالث والعشرين من سبتمبر من أن فرنسا لاتنوى أن تسمح للامم المتحدة ، بالهائها أو صرفها عن أهدافها مدة طويلة .

ولكن ما موقف بريطانيا ؟ هل أصبحت الآراء التى تحملها مجموعة من وزراء حكومة جلالتها قرارا رســـميا اتخذته الحكومة للتواطؤ مع اسرائيل ؟ كان السير انطونى ايدن قد تحول فى شهر سبتمبر الى أشـــد أنصار اسرائيل تشيعا لها . وكان هذا الموقف تحولا أساســـيا عما كان يعتبر سياسة بريطانية تقليدية مشايعة للعرب . وقد أدت الى هذا التحول عوامل عدة ، أولها كراهية ايدن المتسلطة عليه لعبد الناصر مما أدى بحكم الطبيعة الى الاهتمام بجميع خصومه ، وحالته العقلية العامة وتأثره بالنفوذ الفرنسى ، وقد طبع هذا الشعور من الميل لاسرائيل حتى بعد ثلاثة أعوام، جميع ما كتبه فى مذكراته عن دورها فى أزمة السويس ، مستخدما ما هو مختزن لديه من الدعايات الاسرائيليـــة فى دعم حججه ، حتى فى أدق التفاصيل . وسبق لى أن دونت ، أن تأثره بهذه الاحاسيس الاسرائيلية قد حمله على تعديل ما سجله عن حياته الدبلوماسية بالنسبة الى موقفه بين مصر واسرائيل ، بحيث لا يجد القارىء فى مذكراته أى تلميـــح عن المحاولة التى بذلها فى نوفمبر عام ١٩٥٥ عن طريق عبد الناصر ، والتى تلقى عليها صدمة من بن جوريون بالنسبة الى اقتراحه الســـلمى الذى ضمنه خطابه فى جيلدهول .

لكن انحرافه الشديد نحو اسرائيل ، لم يقع الا فى شهر سبتمبر . وهنا نتساءل ، ومتى ازداد هذا الانحراف شدة وخطا خطوة جديدة؟وطار ايدن ولويد فى الســـادس والعشرين من سبتمبر الى باريس حيث قضيا يومين فى مناقشات حارة مع موليه وبونيه . وفى وسع المرء أن يستخلص اشارة صغيرة عن الاتجاه العام فى هذه المناقشات . فلقـــد اعترف ايدن نفسه فى مذكراته ، انه اتفق مع الفرنسيين فى المناقشــــة التى دارت للوصول الى قرار تقديم القضية الى مجلس الامن،أن « يمهدا الطريق لاجراء عملية اختبارية بالنسبة الى تحريم القناة على البواخر الاسرائيلية . وهكذا نجد ايدن بين السادس والعشرين من سبتمبر والعاشر من اكتوبر قد وافق على اقحام اسرائيل فى الجوانب السياسية والقانونية لازمة السويس ، مما يعتبر انعكاسا كاملا لسياسته التى كانت قائمة فى شهر أغسطس ومع ذلك فان هذه النتائج التى توصلت اليها ، لا تؤيد بعد القول بوجود تواطؤ محدود فى الخطط الحربية مع اسرائيل ، وان أوضحت اعترافات ايدن وجود مقدمات له . وقبل أن نتوغل فى الحديث عن أحداث الاسبوعين المحمومين الاخيرين من الازمة ، وما يحملانهما من أدلة كثـــيرة ، أرى أن أتساءل ، عما آذا كان هناك من أمور أخرى تستدعى الملاحظة والتسجيل أيضا .

الخطط الانجليزية – العراقية :

لعل من أكثر المظاهر بعثا للحيرة والدهشة فى هذه المرحـــلة من الازمة ، أن التوتر العربى – الاسرائيلى • كان أقوى على الحدود الاردنية – الاسرائيلية ، منه على أية حدود أخرى ، ومنها طبعا حدود مصر • وقد بلغت حوادث هذه الحدود فى أشهر أغسطس وسبتمبر ومطلع اكتوبر ، ذروة التوتر مما أدى الى انتشار الاشاعات الصحفية عن توقع حرب قريبة على حدود اسرائيل الشرقية • وشنت القوات الاسرائيليه عدة هجمات ثأرية ضخمة على الحدود الاردنية أسفرت عن قتل ثمانية وأربعين أردنيا واصابة ثلاثة وعشرين بجراح ، والحاق الدمار بقرية قلقيلية العربية فى العاشر من اكتوبر • ترى لماذا وقع هذا التطور ؟

من المعترف به الآن ، وحتى فى الروايات المتشيعة لاسرائيل ، ان هذه الحركات لم تكن الا مجرد ستار للتضليل ، وخداع يقصد منه خلق الانطباع فى الشرق الاوسط وفى الغرب أيضا ، بأن هـــدف الهجــوم الاسرائيلى اذا كان لابد من وقوعه ، سيكون الاردن • وكان فى الهدف الاسرائيلى بعض التعقيد ولكنه كان منسجما كل الانسجام مع التخطيط العسكرى الاسرائيلى العام الذى لا يتجاهل أبدا النواحى السياســـية والنفسية • فعلى أثر ما أبدته بريطانيا وفرنسا من استعراض للعضلات فى أواخر يوليو من استدعاء جنود الاحتياط وتجميع السفن الحربية وما شابهها من اجراءات ، سحب عبد الناصر نصف القوات التى يحتفظ بها عادة كحامية فى سيناء الى الغرب من القناة • وهكذا ظل فى شرقى القناة ، ثلاثون ألف جندى بدلا من العدد المألوف وهو ستون ألفا ، فقد سحبت فرقتان كاملتان ولواء واحد مدرع فى سيناء للدفاع عن مصر نفسها وعن منطقة القناة ضد أى هجوم قد يقوم به الانجليز والفرنسيون • وهكذا كان هدف اسرائيل الابقاء على الوضع على هذا النحو ، عن طريق تضليل مصر ، بتركيز اهتمام العالم على الحدود الاردنية •

وأتاح الخوف من هذه الحرب الرئيسية ، ويا للغـــرابة ، لايدن ونورى السعيد فرصا اضافية لتحقيق خططهما لاستيلاء العراق على الاردن • ولم تكن الانتخابات الاردنية قد جرت بعد • ولم يكن الملك حسين مطمئنا كل الاطمئنان الى ما يتمتع به الرئيس عبد الناصر من شعبية ضخمة فى مملكته • وخشى الضباط القوميون فى الجيش العربى الاردنى أن يؤدى انشغال عبد الناصر بالتهديد الانجليزى – الفرنسى ، الى عدم تقديمه عونا كافيا الى الاردن ضد الغزو الاسرائيلى ان وقع • وهكذا بذل نورى السعيد وايدن طيلة شهر سبتمبر ومطلع أكتوبر جهودا ضخمة عن طريق السفير البريطانى فى عمان ، وبعض المستشارين لاقناع الملك حسين وحكومتــه بقبول مجيء قوة عراقية كبيرة الى الاردن • وكان مثل هذا الطلب معقولا ومنطقيا بالنسبة الى الخطر الظاهر من ناحية اسرائيل على الاردن • أما الهدف الحقيقى فهو ضمان مجيء قوات عراقية الى الاردن ، والحيلولة دون تحول الانتخابات التى ستجرى فى الثانى والعشرين من اكتوبر باتجـاه مصر وسورية ، وللتأكد من ضم الاردن للعراق بسرعة عند وقوع الغزو الانجليزى – الفرنسى لمصر • ولكن ثبت فى السادس من أكتوبر ان الأمل

فى التأثير على الانتخابات الاردنية كان خائبا • فلقد تشكك قادة الاردن الوطنيون فى الغاية من مجيء القوات العراقية ، ورفضوا مجيء أية قوات عراقيه لا تـكون تحت القيادة الاردنية مبـاشرة • ممـا أدى الى توقف المحادثات • ولم تدخل القوات العراقية الى الأردن الا فى الثانى من نوفمبر ، وكان نورى السعيد قد أدرك فى غضون ذلك أن الخطة كلها قد تحطمت على صخرة ما أثير من ضـجة شـديدة عن موضـوع التواطؤ بين الدول الثلاث •

فكيف يمكن لهذه القصة أن تدخل فى نطاق ما نقوم به من تحقيق عن تفكير بريطانيا الرسمى فى موضوع اسرائيل ؟ لقد سبق لنا أن لاحظنا فى فصل سابق ان وزير الخارجيه الامريكيه اتهم ايدن بعد انتهـاء الحرب الثلاثيه اتهاما مباشرا بالتواطؤ فى وضــع المخططات الحربيه التى انطوت على سيطرة العراق على الاردن ليعقبه تقسيم البلاد بين العراق واسرائيل ، ولا ريب فى أن هذا الاتهام كان خطيرا لصدوره عن شخصية أمريكيـــة مسئوله ، لاسيما وانه لم يكن يفتقر الى الاسس أو القواعد • وكان من الممكن مقارنتها بالتهمة التى سبق للقاهرة أن وجهتها فى وقت مبكر أى فى يناير عام ١٩٥٦ ، وكان لهذه التهمة مغزاها على أســـاس اعتبارى • وأول هذين الاعتبارين أننا نعرف من مصادر لا عد لها ولا حصر ، بينها ما كتبه مؤرخ حياة نورى السعيد من أن رئيس الوزارة العراقية كان يرى أن تسوية مشكلة فلسطين أمر جد ضرورى ، اذا أريد الحيلولة دون قيام شخص اخر كعبد الناصر فى المستقبل • أما الاعتبار الثانى فهواننا نعرف ان بن جوريون وزملاءه كانوا يشتهون جزءا من الاردن على الاقل وهـــو الضفة الغربية الممتدة الى نهر الاردن ، لان هذه الضفة كانت جزءا من أرض فلسطين ، ولان بقاءها فى يد العرب يؤلف خطرا سوقيا (استراتيجيا) يهدد بقطع اسرائيل الساحلية الى شطرين (١) •

وفى وسعنا أخيرا أن نذكر ما تضمنته رسالة العقيد هنريكس التى حملها فى أواسط سبتمبر الى بن جوريون من أحد أعضـــاء الوزارة البريطانية » • فهذه الرسالة تحذر الاسرائيليين من مهاجمـــة الاردن ، وتعرب عن ترحيبها بمهاجمة مصر كبديل عن الاردن ، وتعد بأن تعمـل بريطانيا فيما بعد على مساعدة اسرائيل فى الوصــول الى أحسن تسوية صلح ممكنة • ولا ريب فى أن بن جوريون يرى ان التسوية المثلى يجب أن تتضمن تسليم الضفة الغربية من مملـكة الاردن الى اسرائيل ، وهو أمر تعرفه لندن تمام المعرفة •

ونصل الآن الى لغز القصة كلها فى أواسط شهر اكتوبر •

---

(١) راجع كتاب حكومة اسرائيل السنوى لعام ١٩٥٢ اذ يقول فى صفحته الثالثة عشرة : لقد تمكنا من بعث دولتنا فى الضفة الغربيـــة من البلاد ••• فى اسرائيل » وكان الصهيونيـــون يواصلون المطالبة بالهجرة الى شرقى الاردن منذ عام ١٩٢١ •

(المؤلف)

السادس عشر من اكتوبر ١٩٥٦ :

طار سلوين لويد صباح السادس عشر من اكتوبر عائدا الى لندن بعد انتهاء اجتماعات الامم المتحدة التى أصيبت بالتوقف والتأزم • وكان هناك اجتماع لمجلس الوزراء البريطانى بحضور رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية • وأعلن ايدن بعد ظهر ذلك اليوم أنه قرر أن يطير فورا الى باريس • وكان التفسير الرسمى لهذه الزيارة التى قدم موعدها فجاة بعد أن كان من المقرر وقوعها فى الثامن عشر من أكتوبر أن ايدن أراد أن يعود فى الوقت نفسه ليقوم بافتتاح معرض للسيارات » •

وهبط ايدن وسلوين لويد مطار باريس مع الغسق ، وسرعان ما عقدا فى غرفة مغلقة مع موليه وبينو ، اجتماعا سريا دام أربع ساعات لم يشهده أحد سوى الرجال الاربعة ، من المستشارين أو التراجمة، وعندما كان الوزيران البريطانيان يهبطان أرض المطار كان بينو يعلن فى مجلس النواب الفرنسى قائلا : « لدينا أوراق رابحة مهمة ما زلنا نحتفظ بها فى أكمامنا » • ترى ما هذه الاوراق الرابحة ؟ وما الذى بحثه الوزراء الاربعة طيلة تلك الساعات فى هذه الجلسة التى أحيطت بكل هذه الظروف من السرية والتكتم ؟ وما الذى حدث بعد السادس عشر من اكتوبر ؟

لنبدأ أولا بما رواه ايدن فى مذكراته • انه يقول أولا : « وبعد نحو من ساعة أو ما يزيد بقليل ••• أوقفنا اجتماعنا لننتقل الى غرفة أخرى كان فيها مستشارونا فى الانتظار » • ولسبب أو لآخر ما زلنا نجهله ، لم يرغب ايدن فى تذكير قرائه بالحقيقة التى لا يتطرق اليها الشك ، والتى اعترف بها حتى أكثر المدافعين عنه حماسة وهى أنه ظل مع رفاقه الثلاثة الآخرين وحدهم ، لايعاونهم موظفون أو مستشارون • فقد تناولوا العشاء وحدهم ، وتحدث بعضهم الى بعض دون أن يحضر أحد حديثهم(١) ولكن ترى ما الذى يقوله ايدن عن هذه المحادثات ؟ انه يقول ، انه ظهرت أخيرا وبعد عشرة أسابيع لمح عن وجود اقتراحات مصرية • ثم يروى بعد ذلك انه اتفق مع الفرنسيين على دراسة هذه الاقتراحات وبحثها • وراحوا بعد ذلك يبحثون فى الاحتمالات الخطرة فى الشرق الاوسط ، ولاسيما بالنسبة الى ما يحتمل أن تقوم به اسرائيل التى تشعر بالقلق والتى تتعرض للاستفزاز من هجوم على الأردن أو مصر • ونصل بعد ذلك الى فقرات أخرى من حديث ايدن من النوع الذى عودنا أن نجده محملا بالمعانى المختلفة اذ يقول :

« واذا لم يكن هناك من مندوحة من الهجوم ، فمن الافضل من وجهة نظرنا أن يكون على مصر • وعدنا ننظر الى الوضع من زاوية أخرى • فاذا ما وقع الهجوم على مصر ، فهناك أيضا مخاوف تعرض سلامة قناة السويس للخطر ، وقد درسنا جميع هذه القضايا من نواحيها السياسية والعسكرية، وكان علينا ، أن نبحث فى حذر مشترك الاجراءات التى يجب أن نقوم بها •••

---

(١) جون كونيل ـ البلاد الكثيرة الاهمية ـ كاسل ١٩٥٧ •

« وكنا فى الاشهر الاخيرة نضاعف استعداداتنا العسكرية لمقابلة أى اجراء من جانب عبد الناصر ضد بواخرنا أو رعايانا • أما الآن فقد بدأت سياسات عبد الناصر تتجه الى استفزاز اسرائيل بشكل لا يمكن تحمله ، فقد أصبح يتحتم علينا أن نستعد لهذا الطارىء أيضا » •

حقا انها لفقرة غير عادية ، فى كل حساب • وفى استطاعتنا أن نلحظ على التو ما بينها وبين رسالة العقيد هنريكس فى منتصف سبتمبر الماضى من تشابه فى اقتراح الهجوم على مصر •• فمثل هذا الهجوم كما تقول الرسالة « مناسب لجميع من يعنيهم الامر » كما أنها « أفضل من وجهة نظرنا » كما يقول ايدن بالنسبة الى أحداث السادس عشر من اكتوبر ولكن فى وسعنا أن نترك هذه النقطة عند هذا الحد ، وأن نمضى قدما فى عرضنا • فلقد كتب ايدن يقول انه مضى مع لويد عائدين الى الوطن ونقلا الى مجلس الوزراء فى الثامن عشر من أكتوبر رأيهما في أن الخطر آخذ فى الازدياد بأن اسرائيل قد تقوم بعمل عسكرى نتيجة استفزاز مصر » ثم قال :

« وكان الوضع خطيرا ، ولكن حكومة جلالتها قررت فى هذه المرحلة انتظار الاقتراحات التى قيل ان فى وسعها انتظار صدورها عن مصر » •

وتشير هذه العبارة التى تتميز بما فيها من مجافاة كاملة للمنطق الى محاولة ضخمة من محاولات التزويق البيانى • ويقول ايدن ان « الاقتراحات » التى وافق مجلس الوزراء على انتظارها فى الثامن عشر من اكتوبر كانت تتعلق بقضية القناة • فاذا كان ايدن يطلب منا أن نصدق بأن خطر الحرب العربية ـ الاسرائيلية أمر مختلف كل الاختلاف عن قضية قناة السويس ، فلماذا تقرر حكومته « ترقب » الاقتراحات المتعلقة بالقناة قبل أن تفعل شيئا فى موضوع الحرب التى يعترف بخطورتها ؟ سنرى عما قريب أن فترة الترقيب هذه اتخذت فى الحقيقة صورة تميزت بالنشاط غير العادى •

وفى كتابه أيضا قطاع قصير فصله عن غيره تتحدد فيه أفكاره تمام التحديد • ولا نرى فى هذا القطاع الا بضع عبارات قد لا تقتضى أن تعنى شيئا بحكم الضرورة ، ولكنها قد تكون أشبه « بالبذور » الكامنة تحت القشرة الخارجية ، عاجزة عن النشاط ، ولكنها لن تلبث أن تنطلق ، لتخرج الثمار الى الناس • اذا قدر لأى كاتب مذكرات فى المستقبل ، سواء أكان بريطانيا أم فرنسيا أم اسرائيليا أن يقول كل ما لديه •• اسمعوا ايدن يقول :

« وقد خبرت عددا كبيرا من هذه الاوضاع المماثلة من قبل ••• تتردى باستمرار ، ولكننى لم أجد فيها عنصرا جديدا أستطيع أن أتمسك به وأن أستخدمه ، ولم يكن هناك من هو على استعداد لادخال مثل هذا العنصر ••• »

ولكن ما هو هذا العنصر الجديد الذى كان ايدن ينتظر أن يمسكه وأن يستخدمه ، وأن يجد من يدخله • وماذا يريد السير انطونى أن

يقول ؟ لكى نفهم ذلك علينا أن نضع نصب أعيننا أنه أورد هـذه الفقرة بعد ان ابدا انه هو وزملاءه الفرنسيين كانوا قد « درسوا دراسة فاحصة مشتركة» ، أى اجراء يمكن لهم أن يتخذوه تجاه هذه «المخاوف الجديدة» « كضمان سلامة القناة مثلا » فى أية حرب مصرية — اسرائيلية • وها هو ذا يتحدث الآن عن ادخال عنصر جديد • وهو لا يحاول المزيد من ايضاح ما يعنيه سواء فى هذه الفقرة ، أو فى أية فقرة أخرى تنطوى على معان ضمنية أخرى ، ان المفهوم الذى يمكن اسـتنتاجه يظل قائما « يئز أزيزا مدويا » أمام الاجيال القادمة لنصل الى حقيقته •

ونصل الآن الى الخامس والعشرين من اكتوبر • ويقول ايدن انه تلقى تقريرا فى ذلك اليوم يفيد ان اسرائيل توشك على اعـــلان التعبئة العامة ••• ثم يمضى فيقول :

« وكان الوزراء قد درسوا فى اجتماعات عدة سابقة الطرق التى قد يتطور اليها الوضع • وتم تبادل الرأى بصددها مع الفرنسيين • ودرست الوزارة فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، بصورة محددة ، احتمـــال قيام صراع بين مصر واسرائيل ، وقررت من حيث المبدأ ما يجب عليها أن تفعله فى حالة وقوع هذا الصراع • وقررت الوزارة أن تقوم الحكومتـان الفرنسية والبريطانية فورا بدعوة الفريقين الى وقف الأعمال العدوانية ، وأن يسحبا قواتهما ، الى مسافة معينة من ضفتى قناة السويس فى فترة معينة ، فاذا رفض الفريقان الانصياع الى طلبنا فى الفترة المحددة ، تحتم على القوات البريطانية والفرنسية أن تتدخل ، للفصل بين المتحاربين ولضمان حرية المرور فى القناة »

لا ريب فى أن هذا القول يعتبر من أخطر البيانات التى أذيعت عن حرب سيناء والسويس • ويدعونا الواجب الى تحليـله بمنتهى الدقة • ولكن أرى أن نكتفى عند هذه المرحلة ، بتسجيـــل الجانب الذى اعتبره اكثر جوانب هذا القول أهمية وخطورة • فلقد زعم ايدن وزملاوه طيـلة عام ١٩٥٦ ان الانذار الذى أصدروه بالاشتراك مع الفرنسيين فى الثلاثين من اكتوبر ، والذى يأمر بوقف اطلاق النار وانسحاب المصريين والاسرائيليين من منطقة القناة قد وضع فى ذلك اليوم أى الثلاثين من أكتوبر ليس الا ، كاجراء وقائى طارىء أملته المفاجأة التى وقعت اثر الهجـــوم الاسرائيلى • وها نحن أولاء نرى ايدن يؤكد فى عام ١٩٦٠ أن هذا الانذار قد قرر قبل خمسة أيام من صدوره وقبل أربعة أيام من بدء الهجوم الاسرائيلى •

فترة « الترقب » بين ١٦ و ٢٩ أكتوبر :

ولنعد الآن قليلا الى الوراء ، لنجمع كل ما نعرفه عن حقيقة ما وقع فى السادس عشر من أكتوبر ، ابان تلك المحادثات المتناهية فى سريتهـــا فى باريس بين ايدن ولويد من ناحية ومولية وبونيه من الناحية الاخرى • وعما حدث فعلا قبيل ذلك التاريخ • علينا أن ندخل هنا فى صورتنـــا الصحفيين الفرنسيين ، الاخوين برومبرجر ، اللذين لا نشك مطلقا فى انهما كانا موضع الثقة ، عند اعداد كتابهما ، من أعلى الفرنسـيين مكانة

وشأنا ، وان كانا ولا ريب أيضا قد افهما من جانب الحكومة الفرنسـية او من جانب الجيش ، والفرق قائم بينهما ، ما تود فرنسا من العالم ان يصدقه • يقول الفرنسيان ان الجنرال الفرنسى شارل وصل الى لندن فى الخامس عشر من أكتوبر ، وراح يبلغ السـير انتونى ايدن فى مقره فى داونتج ستريت رقم ١٠ ان الاسرائيليين على وشك الشروع فى الهجوم على سيناء للوصول الى القناة • ويضيف الصحفيان ان ايدن رد عليه قائلا : « حقا أنها فكرة طيبة » ، ولكنه اصر على ألا يظهر التدخل الانجليزى — الفرنسى فيما بعد ، بريطانيا بمظهر الحليف لاسرائيل • ويعود الاخوان برومبرجر ، فيؤكدان أنه تم فى الجلسة السرية التى عقـدت فى باريس فى اليوم التالى اى فى السادس عشر من اكتوبر خلف الابواب الموصـدة تنسيق الخطط الانجليزية — الفرنسية مع الهجوم الاسرائيلى (١) •

ترى هل هناك مصادر أخرى تؤكد صحة هذه الرواية عن قيـام فرنسا بعمل ما اعتزم الاسرائيليون القيام به الى ايدن ؟ اجل هناك مصادر أخرى تؤكد صحتها ، وان اختلفت فى بعض تفاصيلها الثانوية عنهـا • فهناك أولا الزيارة التى قام بها المسيو البير جازييه الى لنـدن فى ذلك الوقت • ذكرت منظمة باريسية معروفة عادة بواسع اطلاعها ان المذكور نقل الى ايدن ، تنفيذا لتعليمات رئيس مجلس الدولة الفرنسى ، تفاصيل الضمانة الرسمية التى قدمتها فرنســا الى اسرائيل (٢) • ونشرت عـدة صحف غربية المعلومات التى جمعتها مع مراسليها ، بناء على ما وجهته هى اليهم من تعليمات لتحرى كافة التفاصيل الممكنة عن حـرب السويس ، والتى تتفق فى معناها تقريبا مع القصة التى رواها الاخوان برومبرجر عن اجتماع السادس عشر من أكتوبر (٣) •

لكن ما وقع فعلا بعد السادس عشر من اكتوبر ، هو الذى يفضح ما فى قول ايدن من « انتظار الاقتراحات المصرية » من أكاذيب • فقـد اتخذت منذ السابع عشر من اكتوبر الخطوات التالية ، دون أن ترافقها أية ضجة ••

١ — « تم حشد القوات الفرنسية فى منطقة مرسيليا — طـولون ومعها عربات كانت أساليب التعمية التى طبقت عليها من النـوع الذى يستخدم عادة فى الصحراء ، وقد أفهم رجالها بأنهم ليسوا متوجهين الى الجزائر • ووزعت أوراق نقدية تحمل عبارة « احتلال مصر » على ضباط الرواتب •

٢ — « خرجت ناقلات الجنود الفرنسية فى التاسع عشر من اكتوبر الى عرض البحر ، تحت ستار القيام بمناورات بحرية بسيطة •

---

(١) كتاب الاخوين برومبرجر — أسرار السويس •

(٢) مركز استعلامات الشرق الأوسـط الفرنسى — باريس نشرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧

(٣) من هذه الصحف الواشنطن بوست والنيويورك تايمز و لهيرالد تريبون والاوبزرفر •

٣ ـ « طارت قاذفات قنابل السلاح الجوى الملكى البريطانى النفاثة فى السابع عشر من اكتوبر الى مالطة .

٤ ـ « تلقت سفن الاسطول الملكى البريطانى فى السابع عشر من أكتوبر ، وهى فى طريقها من موانىء الشرق الأوسط ، أوامر بالعـــودة فورا الى المنطقة لتكون قريبة من مدخلى قناة السويس ومشـــارف مصر . ولعل أبرز مثل عليها المدرعة البريطانية « نيوكاســـل » وكانت تمخر عباب المحيط الهندى ، متجهة الى استراليا ، لحراسة الدوق ادنبره فى طريق العودة .

٥ ـ « توقف توزيع نشرات الوثائق الرسمية المصنفة على كبـــار الموظفين البريطانيين كالعادة ، وشطبت أسماؤهم من قوائم التوزيع حرصا على ما فيها من أسرار .

٦ ـ « منح أحد كبار خبراء وزارة الخارجية البريطانية فى شـئون الشرق الاوسط اجازة لم يكن يتوقعها ، كما منح عدد من كبـار الموظفين اجازات مماثلة .

٧ ـ « استقال السير وولتر مونكتون وزير الدفاع البريطانى فى الثامن عشر من اكتوبر لاسباب وصفها ايدن بأنها صـــحية ، وان كان المعروف ان الاستقالة نجمت عن معارضـــة الوزير لسياســـات ايدن فى موضوع السويس . ولم يدخله المستر ماكميلان فيما بعد فى أول وزارة ألفها ، كما لم يعهد اليه بأى منصب غير مغمور .

٨ ـ « قدمت اسرائيل فى السابع عشر من أكتوبر بهدوء تحفظاتها الى محكمة العدل الدولية فى موضوع صلاحيتها واختصاصاتها .

٩ ـ « استدعت اسرائيل سفراءها فى المراكز المهمة لموســـكو وباريس ولندن وواشنطن فطاروا اليها فورا .

١٠ ـ « بدأ شحن أضخم معدات رفع الانقاض اعتبارا من السابع عشر من أكتوبر الى جزيرة قبرص . ووصلت سفينة الجر المشـــهورة « ترمويل » الى ميناء فاماجوستا فى قبرص فى التاســـع والعشرين من أكتوبر وهى تجر رافعة عائمة ضخمة .

١١ ـ « وجد الدبلوماسيون الأمريكيون أنفسهم اعتبارا من السابع عشر من اكتوبر فى عزلة تامة عن اتصالاتهم الرسمية مع الموظفين الرسميين البريطان والفرنسيين والاسرائيليين فى لندن وباريس وتل أبيب .

١٢ ـ وصل العميد بيرنارد فيرجوسن فى الثانى والعشرين من أكتوبر الى قبرص حيث ظل مقيما . وقد أعلن فى الواحد والثلاثين من اكتوبر انه يتولى ادارة حرب الحلفاء النفسية والدعائية ضد مصر » .

ومن العبث أن نضيع وقتا أطول ، فى النقاش ، لنصـــل الى النتيجة الواضحة وضوح الشمس ، وهى انه تم الاتفاق فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر أى قبل تسعة أيام من شروع اسرائيل فى التعبئة العامة

نقواتها ، على المضى فى استخدام القوة . ونحن نعرف الآن أن أيزنهاور بعث فى ذلك اليوم برسالة الى ايدن (١) ، ولابد أن تكون هذه الرسالة اذا أخذنا بعين الاعتبار السرعة فى نقل الاتصالات البرقيه فى أيام الازمات قد وصلت الى ايدن ابان الجلسة التى عقدها مجلس الوزراء فى ذلك اليوم أو فى أثناء الاجتماع الذى عقده فى باريس مع موليه والذى انتهى فى الساعة الواحدة والنصف صباحا ولقد كان رأى ايدن فى الطريقـــة التى سيتبعها أيزنهاور فى السماح له بتنفيذ مخططه فى قضية السويس من غوامض أزمة السويس . ولكن المعلومات الواليـــة تشـــير الى أن هـــذه الرسالة التى بعث بها أيزنهاور انطوت على الوعد القاطع لايدن بتسـوية قضية السويس وان كان الرئيس الامريكى قد أكد فيها لما قيل ، أن يديه ستظلان مغلولتين حتى تنتهى الانتخابات الامريكية فى الســـادس من نوفمبر . وقد تواءمت هذه الانباء عن انشـــغال أمريكا مع المخطط الانجليزى ـ الفرنسى ، ولكن الرسالة طلبت ولا ريب من بريطانيا المزيد من الحرص ولاسيما فى الاسبوعين الاولين من الفترة الواقعة بين السادس عشر من اكتوبر والسادس من نوفمبر . واتضح أن أى عمل قد يثير فزع أيزنهاور وغضبه يجب ألا يتخذ الا فى أقصر مـدة قبـــل السادس من نوفمبر . فكل يوم قبل هذا التاريخ يزيد من خطورة تمكين أيزنهـــاور وحزبه من اتخاذ اجراء مضاد ، ووضع تفســـير له للمقترعين الامريكيين والشروع فى العمل فورا ، وعلى هذا الأســـاس قرر الوزراء البريطانيون والفرنسيون فى اجتماعهم فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر قطع جميع الاتصالات العادية مع الموظفين الامريكان كما دونا سابقا مخافة تسرب الأنباء المتعلقة بمخططهم الى ايزنهاور .

ولكن الاحداث أثبتت فيما بعد ، ان ايدن وموليه أتاحا لايزنهاور أسبوعا كاملا قبل يوم الانتخاب . ونتساءل هنا ، لماذا وقع هذا ؟ علينا لكى نرد على هـــذا السؤال ، أن نفحص أولا طبيعة العملية الانجليزية ـ الفرنسية . لقد تضمنت فى سياقها الزمنى ثلاث مراحل . ويزعم الاخوان برومبرجر بشىء من الامتعاض ، يتفق مع الصورة التى رسـمناها من أن فرنسا كانت تود أن تتخطى كل عقبة تقف فى طريقها ، ان هذا السياق الزمنى المنطوى على التوانى كان باصرار من ايدن . وتلخص المراحـــل الثلاث بوجوب تقديم انذار من نوع ما أولا ، ثم بالشروع فى حرب نفسية عن طريق الاذاعات العربية والقاء المنشورات العـربية على مصر مع اختيار الاماكن التى تقذف بالقنابل مع الحرص على عـــدم الحاق خسائر ضخمـة بالأرواح ثانيا ثم الغزو ثالثا . وكان القصـــد من مرحلة الانذار الأولى ، شرح العدوان للعالم والقاء الملامة على عبد الناصر . أما القصد من المرحلة الثانية فالتحريض على ثورة شعبية فى مصر ضد عبد النـــاصر ، بينما استهدفت المرحلة الثالثة احتلال قناة السويس والزحف منها على القاهرة

(١) هناك مصادر عدة لهذه الرواية . وقد حصل راندولف تشرشل أيضا على هذه المعلومات التى أوردها فى كتابه « ظهور وسقوط السير انطونى ايدن » من تعريب المعرب أيضا .

اذا تطلب الامر هذا الزحف . وتقرر ان تتولى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية الموجودة فى قبرص تحت اشراف العميد فيرجوسن توجيه الحملة الدعائية وتحريض المصريين على الثورة وهذا ما عملته المحطة فعلا . أما المنشورات فقد تقرر أن تتضمن تحريض المصريين على الثورة ضد عبد الناصر ، وترديد ما تبثه اذاعة الشرق الادنى الى المصريين قائلة : « لقد رأيتم كيف أنار عليكم عبد الناصر هجوم اسرائيل ، وها أنتم أولاء ترون كيف نستطيع قصف مطاراتكم بمنتهى الدقة ، وما لم يذهب عبد الناصر، فسنلقى قنابلنا عليكم ونقتلكم » .

وفى وسعنا الافتراض على أساس هذا السياق الزمنى للمراحل الثلاث ، ان توقيت الانذار وعمليات الارهاب الدعائيه والجوية ، قصد منه أن يتسق مع المراحل الختامية والمحمومة لحملة الانتخابات الامريكية شعورا من بريطانيا وفرنسا بان ايزنهاور سيكون عاجزا عن القيام بأى عمل قبل السادس من نوفمبر ، وأنه لا يستطيع استخدام القوات الامريكية دون تخويل من الكونجرس الذى لا يمكن ان يتسنى قبل انتهاء المعركة الانتخابية . وتوقعت الدولتان من أيزنهاور ألا يسرع فى أى اجراء ، حتى ولو كان بطيئا ، وضمن نطاق الامم المتحدة قبل السابع من نوفمبر ، وفى هذه الفترة — أى فى غضون بضعة أيام لن تتأخر عن العاشر من نوفمبر ، الذى تشير كافه الدلائل ، الى أن المخططات وضعت للشروع فيه بالعمليات البرمائية ، والنزول الى منطقة القناة ، سيكون « التدخل » الانجليزى — الفرنسى قد بات أمرا واقعا يواجه العالم ، ولما كان ايدن واثقا — وقد ثبت فيما بعد أنه كان حالما — من أن الشعب المصرى سيثور على عبد الناصر ، فقد كان يتوقع نشوب اضطرابات فى البلاد ، تجعل من المشكوك فيه تماما أن تقوم حكومته تتقدم بالشكوى من العدوان الى الامم المتحدة طالبة حمايتها . وليس أدل على وجود هذا الافتراض فى تفكير ايدن من طبيعة الحرب الدعائية التى شنها ، فمن الجنون كل الجنون أن تهدد شعبا بالقتل الجماعى ، الا اذا كنت واثقا ثقة عمياء بأن هذا الشعب سيقبل الحل البديل الذى تقدمه اليه ، وهو الثورة على حكومته. وليس ثمة من شك فى أن ايدن ومستشاريه كانوا على خطأ كامل بالنسبة الى تقديراتهم لموقف الشعب المصرى .

ولنعد الآن الى خطة الحملة على مصر. فالمفروض ان تاريخ «التدخل» قد حدد بحوالى السادس من نوفمبر ، بينما كان يوم الثلاثين من اكتوبر وهو اليوم الحاسم فى سياق الاحداث ، بعيدا كل البعد عن موعد الانتخابات الامريكية ، وتشير طبيعة عمليات الانزال كما وقعت أخيرا ، الى أن الخطة الاصلية قد تعرضت لبعض التعديل للاسراع فى تنفيذها، كما ان هناك بعض الدلائل على هذا الاسراع بالفعل فلقد كان هناك نحو من أحد عشر الفا من الرعايا البريطانيين فى مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ . ولم يصدر عن دار السفارة البريطانية فى القاهرة ، التى لم تكن تعرف فى الحقيقة ، شيئا ، أى عمل أو تلميح لتحذير هؤلاء الرعايا أو حمايتهم . وكان كل أمريكى فى الشرق الاوسط ، أمكن الاتصال به قد نصح قبل التاسع والعشرين من أكتوبر بأن يغادر المنطقة فورا .

أما حكومة ايدن فلم تكن حتى الثلاثين من أكتوبر وهو اليوم الذى أصدرت فيه أكثر الانذارات التى عرفها القرن العشرون استفزازا ، لمصر ، قد اتخذت أى اجراء أو خطوة لحماية أحد عشر الفا من رعايا جلالتها يقيمون فى تلك البلاد . فهل كان هذا الموقف ناجما عن الحاجة الى التكتم والسرية ، وصادرا عن قرار اتخذ على ضوء حسابات دقيقة ، وازنت فيها حكومة ايدن بين المصير المحتمل لهؤلاء الرعايا وبين المصالح القومية العليا لبريطانيا ؟ أو أنه كان ناجما عن الافتقار الى الاستعداد ، لان كل شىء قد اتخذ على عجل وبطريق الصدفة المباغتة ؟ أويمكن للمرء أن يتصور أن يصدر ايدن أكثر التهديدات عنفا وانذارا بسفك الدماء الى المصريين دون أن يبعث حتى برسالة رمزية الى سفير جلالتها فى القاهرة ليكون على أهبة الاستعداد لحماية رعاياها فى مصر ؟ أن الحقائق تثبت أن هذا السفير السير همفرى تريفليان ، لم يعلم بصدور الانذار الا من الرئيس عبد الناصر .

مساعدة فرنسا الحربية لاسرائيل فى القتال :

فاذا كان ايدن ومولية قد وضعا كافة هذه الخطط العسكرية الانكليزية — الفرنسية — فى السادس عشر من أكتوبر كما روينا من قبل ، فما دور اسرائيل فى هذه الخطط ؟ واذا كانت بعض نواحى الخطة قد انحرفت عما هو مرسوم لها ، فما الذى حدث وأدى الى هذا الانحراف يا ترى ؟ وما المدى الذى كان فيه ايدن على علم بالخطط الاسرائيلية ؟

لعل من الاهمية بمكان بالغ ، أن السير انطونى ، لم يأت فى مذكراته على ذكر الكثير عن بيانه التفصيلى الذى حاول فيه أن يوضح الاسباب والنتائج ، والذى ألقاه فى مجلس العموم فى العشرين من دسمبر عام ١٩٥٦ . لاريب فى أن أى قارىء لاينعم بذاكرة قوية ، أو لايملك مجموعة « هانسارد » التى تصدر دائما متضمنة سجل ما يدور فى مجلس العموم البريطانى من مناقشات ، لايمكن أن يعرف أن ايدن قد ألقى مثل هذا البيان . ولكننى انقل هنا ماقاله فى المجلس حرفيا بعد أن هب من نفسه ليرد على المناقشات قائلا .. « أود أن أجيب عن هذه الاسئلة »

ومضى ايدن يقول :

« أريد أن أوضح قبل كل شىء أنه لم يكن هناك قرار مشترك منا ومن فرنسا قبل وقوع الاعمال العدوانية الاسرائيلية بصدد استخدام حق الفيتو ، (أى فى مجلس الامن فى الثلاثين من أكتوبر بصدد مشروع القرار الذى يدين اسرائيل) . ولم يكن هناك قرار مشترك أيضا بصدد استخدام القوة الجوية الفرنسية قبل بدء العمليات العسكرية .. ولم نكن نعرف من قبل أن اسرائيل ستهاجم مصر ، أبدا ، أبدا . ولكن كان هناك شىء آخر .. كان هناك خطر من احتمال وقوع مثل هذا الهجوم ، وقد عرفنا بوجوده ، وكان لابد لنا أن نجرى بعض المباحثات

والمناقشـات فى هـذا الصـدد ، وهو ما أعتقد بصحته المطلقة ، كما أعتقد أن أى انسان آخر ، كان لابد وأن يفعل ما فعلته أنا » .

وقد ظهر ما فى هذا البيان الأخير الذى تلاه ايدن فى مجلس العموم من أكاذيب . قبل أن تصـدر مذكراته بمدة طويلة . فلقد اعترف المستر أنطونى هيد (وزير الدفاع البريطانى) ، فى الخامس من ديسمبر بأن أول ماوصل الى مسامع الوزارة البريطانية من معلومات، صحيحة كان عندما تلقت الوزارة نبأ التعبئة العامة الاسرائيلية فى الخامس والعشرين من أكتوبر . ولكننا رأينا أن ايدن فى مذكراته يؤكد ، أن توقعات مجلس العموم البريطانى فى ذلك اليوم نفسه أى الخامس والعشرين — ونود أن نستعمل هذه العبارة المتسـامحة — عن هجوم اسرائيلى كانت قد بلغت حدا من الضخامة بحيث بات لزاما عليه ، أى على المجلس ، أن يضـع خطة مفصلة عما يجب عمله « فورا » ، كتوجيه انذار نهائى يتضمن كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بوقف اطلاق النار والانسـحاب . وكان السير أنطونى من الذكاء بحيث أدرك أنه لا يستطيع ايراد هذه الصورة من الرواية ، فى الوقت الذى يعرض فيه ماسبق له أن قدمه من نفى قاطع فى البيان الذى أفضى به الى مجلس العموم فى العشرين من ديسمبر ، مما يظهر «كذبه» على المجلس ، فآثر أن يحـذف ذلك البيان كلية من مذكراته بمنتهى البساطة . ولكنه لم يكتف بحذف هذا البيان وحده ، وانما حذف من مذكراته أيضا ماهو أضخم وأكثر خطورة . نرى لزاما علينا التحدث عنه ، رغم محاولته اخفـاء ما يتعلق به من حقائق ، وهـو موضوع المساعدات العسكرية الفعلية التى قدمتها فرنسا لاسرائيل فى معركة سيناء . وجدير بنا أن نلاحظ أنه فى بيانه فى مجلس العموم فى العشرين من ديسمبر ، والذى أوردناه قبل قليل ، قد اعترف بصراحة بوجود مثل هذه المساعدات الفعلية ، ولكنه نفى اشتراك بريطانيا من قبل فى تقـريرها . ولكنه عاد فى مذكراته الضـخمة ، بكل ما فيها من اسهاب وتفصيل غزيرين ، يتعمد ، ألا يذكر أى شىء ، أو يشـير أية اشارة من أى نوع لعون فرنسا الفعلى لاسرائيل ، حتى ولو ما ورد عنها فى بيانه الرسمى الذى ألقاه فى البرلمان والذى آثر أن يحذفه من مذكراته . وهنا يظهر الكثير من التناقض الغريب الذى رأينا بعضه حتى الآن ، والذى سنرى الكثير منه فى تحليلنا المقبـل ، بين ما قاله ايدن فى تلك الايام ، وبين ما يحاول الآن قوله أو اخفاءه فى مذكراته .

فقد حلقت فى التاسع والعشرين من أكتوبر ، وهو يوم الصـفر بالنسبة للهجوم الاسرائيلى ، ستون طائرة فرنسية نفاثة يقودها طيارون فرنسيون من رجال السـلاح الجوى الفرنسى من قواعدهـا فى ديجون وسان ديزييه فى فرنسا قاصدة اسرائيل . وقد هبطت هذه الطائرات فى قبرص لتزود بالوقود وهى فى طريقها الى هدفها . ويقول الاخـوان برومبرجر ، على الرغم مما فى قولهما من غرابة تكاد تصـل الى حدود الخيال ، ان السلطات العسكرية البريطانية فى قبرص ، لم تعرف شيئا عن كل هذا ، كما لم تدر حتى بوجود عدد من ضباط الاتصال الاسرائيليين فى مطار اكروتيرى القبرصى ، الذى لا يبعـد أكثر من بضـع مئات من الياردات عن الخيمة التى اتخذتها القيادة العليا لقوات الحلفاء مقرا

لها . ولكن هـل يمكن تصديق هـذا ؟ حقا اننـا نعرف انه كان ثمة الكثير من الاضـطراب والفوضى ، والمجـادلات فى العملية الانجليزية — الفرنسية كلها ، كما نعرف أن قبرص كانت تعج فى التاسع والعشرين من أكتوبر بالرجال والطائرات والمعدات . ولكن على الرغم من كل ذلك يصعب علينا أن نصدق بأنه لم يلاحظ أى بريطانى فى المكان كله حتى ولا ضابط مراقبة المطار أو عامل الرادار ، مجىء ستين طائرة فرنسية تهبط لتتزود بالوقود ثم تستأنف طيرانها فى اتجاه اسرائيل .

وليس ثمة ريب فى أن هـذا النبأ قد نقل الى لندن ، ولـكن من المحتمل ألا يكون قد عـرض على مسامع ايدن حتى عشـية التاسـع والعشرين من أكتوبر أو بعده أيضـا — أى بعد أن كانت العمليات الحربية قد بدأت فعلا . فاذا افترضنا صحـة هذا الاحتمـال ، فان هـذا الافتراض يبرر النفى الذى تقدم به الى مجلس العموم ، وهـذا شىء ممكن بالنسبة الى تلك الظروف التى كانت تسود لندن وقبرص فى ذلك الوقت . ولكن مرور الطائرات الفرنسية يثير تساؤلا آخر ، وهو لمـاذا قبلت اسرائيل وهى التى كانت تسعى وتحلم فى احراز نصر وحدهـا ، هذا العون من الطائرات من دولة كبرى ، وأن تسمح لطيارى هذه الدولة بقيادة الطائرات . وهم فى بزاتهم العسكرية الفرنسـية ، وأن يقلعوا من مطارات اسرائيلية ؟ ولقد رأينا فرنسا تبعث منذ شهور طويلة قبـل التاسع والعشرين من أكتوبر ، بشحنات خاصة من الأسلحة الفرنسـية الى اسرائيل لتستخدمها هذه فى حرب اسرائيليـة خاصة ، وفى ظل ستار من الكتمان الشديد . فلمـاذا اذن يتيح بن جوريون الفرصـة للعرب لكى يقـولوا ان القوات الاسـتعمارية هى التى خاضت معركة سيناء الى جانب اسرائيل ؟

والرد على هذا السؤال معروف لدينا . ففى الساعة التى سبقت الصفر نقل قـادة القوة الجوية الاسرائيلية رأيهـم الى بن جوريون فى أنهم عاجزون عن تأمين الحماية الجوية فى سيناء فى نفس الوقت الذى يؤمنون فيه الحماية لمدن اسرائيل ضد طائرات الاليوشن المصرية من قاذفات القنابل ، أو ضد أية هجمات جوية عربية أخرى . وهكذا راح بن جوريون فى الثامن والعشرين من أكتوبر يطلب من باريس الحمـاية الجوية عن طريق طائراتها المقاتلة (١) ، ولعل هذه الطبيعة المتأخرة لهذا

(١) يروى الاخوان برومبرجر ، فى سلسلة المتناقضـات الكثيرة والمنطوية على الاهمال ، قصتين مختلفتين فى مكانين مختلفين فى كتابهما عن الطلب الذى تقدم به بن جوريون الى فرنسـا . فهما يقولان مرة انهما سمعا بأن بن جوريون طار الى باريس سرا فى الثانى والعشرين من أكتوبر ليطلب من موليه تأمين الحماية الجوية لقواته . ومن هذا يستدل أن رواية اجتماع بن جوريون بموليه كانت صحيحة ، وأن الاجتماع وقع فى وقت مبكر عما عرفت فيما بعد . ولكنهما فى مكان آخر من الكتاب يرويان أن الطلب قدم الى فرنسا فى الثامن والعشرين من أكتوبر وهذا هو الموعد الصحيح . وقد أيده العقيد هنريكس فى السبكتاتور — كما أيدته مصادر أخرى .

— المؤلف —

العون الجوى من جانب الطائرات الفرنسية المحاربة ، هى التى توضح فقط لماذا طارت هذه الطائرات الفرنسية الستون مع طياريها الفرنسيين فى أزيائهم الفرنسية . وكان الوقت أقصر من أن يسمح بمحو العلامات الفرنسية عن هذه الطائرات . فالأسراب مستعدة وعلى أهبة الطيران فى مطارات ديجون وسان ديزييه ، ولا يستغرق انتقال هذه النفاثات من فرنسا الى اسرائيل اكثر من أربع ساعات . وكان فى امكانها أن تصل الى هناك فى وقت يمكنها من أن تذهب فورا الى العمل العسكرى عند ما تشن اسرائيل هجومها . ولكن لم يكن هناك وقت متوافر لحمل الطيارين الفرنسيين على تبديل بزاتهم العسكرية بالبزة الاسرائيلية ، أو حتى لاقناعهم بذلك . ولعل هذا السبب هو الذى حمل عددا كبيرا من الصحفيين الغربيين فى اسرائيل ، على معرفة هذا العون العسكرى المباشر الذى قدمته فرنسا الى اسرائيل ، مع ما فى معرفتهم هذه ، من تعريض لنيةهذه فى الاحتفاظ بمظهر الفردية فى حركتها (١) .

وكانت هناك أشكالأخرى من المعونة الفرنسيةالعسكرية والفعلية لاسرائيل . فقلد تولت أربعون طائرة نقل فرنسية من طراز « نورد أطلس » حمل شحنات التموين والغذاء والماء ، من مطار تيمبو فى قبرص ، الى القوات الاسرائيلية فى صحراء سيناء ، بالاضافة الى ما كانت تقذفه اليها من عتاد وسيارات جيب . وتولت السفن الحربية الفرنسية حماية الساحل الاسرائيلى . وقام الطراد الفرنسى « جورج ليجوس » بقصف المواقع المصرية عند رفح بقذائف مدافعه عندما اصطدمت القوات الاسرائيلية بمقاومة عنيفة من هذه المواقع . وقد بدأ نقل المؤن والمعدات الى القوات الاسرائيلية فور بدء الهجوم عشية التاسع والعشرين من أكتوبر . أما القصف البحرى فقد وقع فى الساعة الرابعة من صباح الاول من نوفمبر .

اسرائيل والانذار :

ومن المحتمل أنتكون الوزارة الاسرائيلية فىهذه اللحظة منالخوف الذى يسبق المعركة ، قد أملت ألا تكون الحماية الجوية الفرنسية ظاهرة جدا الى الحد الذى يعرض ما تريده من «سمعة النصر المستقل» الى الخطر . وكان الاسرائيليون يأملون عن طريق النفى المتكرر لوجود عون فرنسى ، مع التأكيد المتواتر عن الانتصارات الوهمية فى سيناء ، أن ينشروا فى العالم عن طريق الدعاية الصهيونية ، الواسعة النفوذ ، رأيا يتغلب على قصة العون الفرنسى ويدفع بها الى مؤخرة الصورة ، فيحققون بذلك ما يريدونه من ارهاب العرب وتخويفهم . ولكن السؤال الذى يمثل أمامنا الآن ، هو هل كان الاسرائيليون حقا يريدون أن يوجه

---

(١) كان بين هؤلاء مراسلو روتر والمانشستر جارديان وبارى بريس وليموند وفرانس أوبزرفانور والنيوزكرونيكلالذين رووا أحاديث جرت لهم مع الطيارين الفرنسيين .

ـ المؤلف ـ

الانذار – البريطانى – الفرنسى المشترك بعد أقل من اربع وعشرين ساعة من هجومهم . وهل كان زعماء اسرائيل يرضون طوعا بأن يذهبوا الى المعركة ، وهم يعرفون ان الحرب الانجليزية – الفرنسية ستبدأ بعد تسع عشرة ساعة فقط ، من هجومهم ، وانهم سيحملون وصمة «مخلب الاستعمار» ، ويحرمون مما يحلمون به من نصر مستقل .

من المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد ظلوا يعتقدون حتى الثامن والعشرين من اكتوبر أن فى وسعهم ان ينتصروا وان هذا الاعتقاد اصبح معلقا بعد هذا التاريخ على الأمل فى تأمين ما يحتاجون اليه من حماية جوية . فلقد كانوا يعتمدون على الظن بأن مصر لم تكن قد استكملت بعد تدريب قواتها على الاسلحة التشيكية الجديدة التى لم تكن صفقتها قد عقدت منذ عهد بعيد ، وكانوا يعرفون ما سيواجهونه من هذه الأسلحة فى سيناء ، أما الحديث عن الهجوم المصرى الضخم القريب والمزعوم ، فلم يرد ذكره الا متأخرا أى بعد التاسع والعشرين من أكتوبر .

وأرى ان المجال صالح الآن للبحث فى القصة المتأخرة عن العدوان الشامل الذى زعم الاسرائيليون أن عبد الناصر كان يعده لشنه عليهم . ان هناك حقيقة واقعة ، وهى أنه لم يكن قد انقضى حتى ذلك الحين وقت طويل كاف لتدريب عدد ضخم من الجنود المصريين على الاسلحة السوفياتية الجديدة وبينها الدبابات . ويصدق هذا أيضا على الطائرات النفاثة من قاذفة ومقاتلة . ولهذا فقد كانت تلك اللحظة من أسوأ اللحظات للتفكير بأى هجوم شامل على اسرائيل ، اذ أن التدريب على الأسلحة الجديدة كان يتطلب عدة شهور أخرى . ولقد رأينا من قبل أيضا ان التهديدات البريطانية الفرنسية منذ شهر يوليو قد أرغمت مصر على سحب نصف قواتها من سيناء الى مصر للدفاع عنها ضد الدولتين الغربيتين . وكانت مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ . مشتبكة فى كفاح يائس للتغلب على مايواجهها من رأى عام عدائى فى الغرب . وكان عبد الناصر يعرف تمام المعرفة أنه لا يستطيع القيام بأى عمل حربى ضد اسرائيل قبل أن تتم تسوية مشكلة السويس . ومن هذا يتبينأن القصة التى نشرتها دول العدوان الثلاثى فيما بعد من أن الصور والأدلة التى عثر عليها فى سيناء قد حسرت النقاب عن وجود خطة مصرية للهجوم الذى كان مرتقبا فى كل لحظة على اسرائيل ، كانت قصة خرافية وان وجدت بعض الانتشار والكثير من الأثر . أما التهديدات العربية الصحفية والاذاعية فلم تكن بالشىء الجديد . وتظل هناك حقيقة تافهة رواها كثيرون من الاسرائيليين ، وهى ان القوات المصرية فى سيناء ، كانت فى مواقع أمامية ، وسنحلل هذه الحقيقة وأسبابها فى فصل لاحق .

وكان الاسرائيليون واثقين كل الثقة من أنهم اذا منحوا وقتا « كافيا » فسيلحقون الهزيمة بمصر وحدهم . وكان ايدن وموليه يحملان نفس الثقة أيضا ، اذ اعترف ايدن بها فى مذكراته ، وكانسلوين لويد قد ذكر فى مجلس العموم فى شهر يوليو ان ميزان القوى المسلحة

فى الشرق الاوسط يميل الى جانب اسرائيل . اذن ما الفائدة لاسرائيل من هذا الانذار ؟

زعم كثيرون من الصحفيين فيما بعد ، أن بن جوريون غضب أشد الغضب من التدخل الانجليزى — الفرنسى . (١) ولكن الاسرائيليين كانوا يعرفون منذ عهد طويل بهـذا التدخل فى حالة هجومهم ، وكانوا منذ أشهر يرون أنه جزء لا يتجزأ من خطتهم العسكرية الشاملة ضد سيناء. وقد أكد لهم الفرنسيون أن التدخل سيقع ، وأوضحت لهم الرسالة التى حملها هنريكس فى منتصف سبتمبر وجوده . ولكن ترى ما الذى ذكره موليه لبن جوريون ؟ هل قال له ان بريطانيا وفرنسا ستتدخلان بعد تسع عشرة ساعة فقط من صدور البلاغ الحربى الاسرائيلى الاول عن طريق توجيه انذار ، يصاغ فى عبارات تجعل أمر «التواطؤ» حقيقة واضحة محتومة ، ويوقت بحيث يغدو العمل العسـكرى الانجليزى — الفرنسى ضد مصر شيئا مؤكدا بعد انقضاء مدة الانذار المضروبة ، أى فى غضون اثنتى عشرة ساعة .

لا يمكن لاسرائيل أن تحقق نصرا سريعا على مصر فى سيناء فى غضون تسع عشرة ساعة أو حتى احدى وثلاثين ساعة ، فنحن نعـرف أن الخطة الاسرائيلية نفسها لم تكن تقوم على أساس مثل هذا النصر السريع ، وانما كانت تتوقع أن تطول الحملة أربعة أيام . وبالفعـل لم يتحقق مثل هذا النصر . ولكن النقطة المهمة ، ليست فيما ذكره البعض أحيانا من أن الاسرائيليين كانوا يعرفون أن مصر سترفض الانذار ، وأن الوقت سيتاح أمامهم لتحقيق مايطمعون فيه . وانما كانت النقطة المهمة، هى أن التعابير التى صيغ فيها الانذار نفسه ، قد قضت على كل حلم لاسرائيل فى أن تظهر بمظهر المنتصر . فلقد وصلت الطائرات البريطانية القاذفة للقنابل فى وقت أسرع مما كان متوقعا . يضاف الى هـذا أن الاسرائيليين كانوا جد مخطئين فى اعتقادهم ، بأن الرئيس الإمريكى الذى يخوض معركة انتخابية سيجد من الصعب عليـه أن يتخذ أى اجـراء ضدهم ، ولا سيما أن الانذار البريطانى الفـرنسى قد أتاح لايزنهاور كل ما يتوخاه من عون لانقاذ نفسه من الورطة الانتخابية التى يجد نفسـه فيها اذا استنكر عدوان اسرائيل .

وهكذا اختفى حلم « الانتصـار المستقل » الذى راود مخيلـة الاسرائيليين . وذلك عندما وقف ايدن بعد ظهر الثلاثين من أكتـوبر فى مجلس العموم ليوجه انذاره المشهور . ومن السهل والحالة هذه أن نفهم لماذا وجد الناطق الاسرائيلى نفسه مضطرا لوصف الانذار «بالقنبلة». لقد أخطأت حسابات اسرائيل . (١) وأساء بعضهم تنفيذ الخطة .

---

(١) عـدد الاوبزرفر فى ٢٥ نوفمبر فقد ذكـر ان اسرائيل كانت تتوقع عونا من فرنسا لتخوض هى معركتها وذكرت التايمز اللندنية أن بن جوريون لم يكن يرغب فى شىء من ألا يتيح للمصريين الفرصة فى القول بأن قوات الدول الثلاث هى التى حققت لاسرائيل ما تريده .

— المؤلف —

هل كانت اسرائيل هى التى أساءت التنفيذ أولا ؟

قبل تحديد المسـئول عن الخطأ وطريقته ونوعه ، أرى لزاما علـى أن أتحدث عن غريبة أخرى من غرائب سيناء والســويس . فلقد كانت الانتخابات الامريكية بالنسـبة الى بن جـوريون وايدن وموليه أيضا ، قضية حرجة نظرا لعلاقتها بتوقيت الهجوم . وكان هناك فى البـداية ميل قوى الى الاعتقاد بأن حزب أيزنهاور سيعارض معارضة شـديدة وطاغية فى أية خطوة قد يخطوها أيزنهاور فى معارضة اسرائيل فى المراحل الختامية من الحملة الانتخابية التى كانت الاصوات اليهودية تعتبر فيها دائما عنصرا مهما كل الاهميـة ، يجد التقـدير والاحترام من رجال السياسة . ولكن لماذا اختير يوم الصفر بالنسبة الى الهجوم الاسرائيلى قبل ثمانية أيام طويلة من يوم الصفر بالنسبة الى الانتخابات الامريكية؟ ولماذا حدد الهجوم الاسرائيلى فى التاسع والعشرين من أكتوبر بدلا من أن يكون الثالث أو الرابع من نوفمبر ؟

هناك احتمال معقول بأن تكون اسرائيل قد وجدت نفسها مرغمة على تقديم ساعة الصفر، وهناك تفسيران معقولان كل العقل لهذه الخطوة. فلقد روى الرئيس أيزنهاور — فى عام ١٩٦٠ فى تعليقـه على مذكرات ايدن كيف ان المستر دالاس اجتمع الى أبا ايبان سفير اسرائيل فى واشنطن قبيل سفر الاخير الى اسرائيل فى زيارة قصيرة وكيف أن دالاس قال للسفير ما معناه .... انه اذا كان يعتقد بأن عواطف اليهود الامريكيين قد تلعب دورا فى التأثير على الانتخابات أو أنها قد تؤثر عليه هو بالنسبة الى ما قد تقوم به الحكومة الامريكية من اجراء لمنع نشوب الحركات الحربية ، فانه — أى دالاس — يود أن يصحح له معلوماته ويقومها (٢) .

وقد حمل أبا ايبان هذا التحذير الى الاجتماع الخطير الذى عقده سفراء اسرائيل فى العواصم الحساسة ، مع بن جوريون فى تل أبيب بين السابع عشر والرابع والعشرين من أكتوبر . وكان لرأى أبا ايبان وزن كبير عند بن جوريون وغيره من المسئولين الاسرائيليين . ترى هل أثر هذا التحذير من أيزنهاور على التوقيت الذى كان بن جوريون قد قرره؟

---

(١) من الواضح أن اسرائيل كانت تريد ألا يظهر أى عون من جانب فرنسا أو انجلترا لحملتهما العسـكرية على سيناء ، وان كانت تعتمد كل الاعتماد فى خططها على هذا العون . فبالاضافة الى أنها حاربت بأسلحة فرنسا والى أن القوات الجوية والبحرية الفرنسية قد عززت هجومها التى لولاها لفشل الهجوم منذ اللحظة الاولى بسبب تفوق مصر الجوى والبحرى ، فان اسرائيل كانت تعتمد فى حساباتها على تخوف مصر من الهجوم البريطانى والفرنسى وكانت مطمئنة الى أنه مهما كانت نتيجة المعركة فلن يضيرها شىء بسبب عون هاتين الدولتين لها .

— المعرب —

(٢) عدد النيويورك تايمز فى ٢٧ من يناير ١٩٦٠ .

وهل حمله هذا التحذير على التفكير فى حسنات التبكير بموعد الهجوم؟ ولماذا هذا التفكير يا ترى ؟

وقعت مظاهرات فى بودابست فى الثالث والعشرين من أكتـوبر حملت ناجى الى رياســة الوزارة فى المجر . ولم يحل الخامس والعشرون من أكتوبر حتى كان قد أضحى من الواضح ، أن هناك ثورة على نطاق واسع ومناهضة للسوفيات ، تسير طريقها فى المجر. وأصدرت الحكومة الاسرائيلية فى تلك الليلة أول أمر لها باعلان التعبئـة العامة السرية فى مرحلتها الاولى . ولم يحل الثامن والعشرون من اكتوبر حتى كان قد بدا أن الولايات المتحدة لن تكون أقل انشغالا فى ثورة المجر من الاتحاد السوفياتى ولذا بادرت اسرائيل فى اليوم نفسه الى اعلان المرحلة الاخيرة التى لا يمكن النكوص عنها من التعبئة العامة ، وهى التى تقضى بدعوة أفواج الاحتياطى جهارا الى الخدمة ، مما لا يحتمل أى تأويل بأن القصد منه هو اجراء « تمرينات » من أى نوع . وكانت الصدفة رائعة ، فقد ظن بن جوريون أن حوادث المجر ، ستحول بين بن جوريون وبين الانتباه لما قد يقع فى الشرق الاوسط ، كما ستصرف اهتمامه عنه .

وهل هناك أى دليل على ان اسرائيل قد قدمت فعلا ساعة الصفر بالنسبة الى غزوها لسيناء . ؟ لم تحاول وزارة الخارجية الامريكية أن تتكتم ماحصلت عليه من معلومات تفيد بأن اسرائيـل قد باتت تخشى أن ينتبه البيت الابيض لما هو واقع فعلا ولذا قدمت موعـد الهجوم من يوم الى ثلاثة أيام بالنسبة الى ما كان مقررا من قبل . (١) وقد أيدت التحقيقات التى أجرتها صحف عدة هذه الحقيقة (٢) . يضاف الى هذا انه عرف بأن آخر شحنات الاسلحة الفرنسية ستصل الى اسرائيل بعد فترة تتردد بين يوم وثلاثة أيام من موعـد الغزو المقرر فى التاسـع والعشرين من أكتوبر (٣) وروت المخابرات الامريكية لحكومتها فى السادس والعشرين من أكتوبر وقوع زيادة غريبة فى الاتصالات البرقية بين فرنسا

---

(١) روت النيويورك تايمز هذه الرواية مسندة اياها الى «مصدر مسئول فى الخارجية الامريكية » .

(٢) الاوبزرفر عدد ٢٥ نوفمبر . وقد أكدت أن يوم الصفر الاصلى بالنسبة الى اسرائيل كان بين الثانى والتاسع من نوفمبر . وروت وكالة الصحافة المشتركة أيضا تاريخا متأخرا مماثلا .

(٣) أكد العقيد هنريكس فى السبكتاتور أيضا وجود عدة مصادر أخرى تؤيد هذا الموضوع . والجدير بالذكر أن تسهيلات هائلة قدمت لهنريكس ليضع كتابه الذى أسماه « مائة ساعة الى السويس » والذى اعترف فيه بأن حكومة اسرائيل قد راقبت النســخة الأصلية منه قبل نزولها الى المطبعه . ولم يحسر العقيد هنريكس النقـاب عن أى شىء يتعلق بالمساعدة الفرنسية أو التواطؤ ، أو تقديم موعد الهجوم فى كتابه الذى صـدر فى عام ١٩٥٧ . ولكنه ما لبث فى مقـالاته التى نشرها فى السبكتاتور بعد عامين أن دون أمورا عدة تستحق الملاحظة والتسجيل. فهو يقول ان آخر طائرات «الميستير » الفرنسية المشحونة الى اسرائيل ، =

واسرائيل ، مما يشير الى البحث فى شىء جد هام ويتطلب السرعة . حقا لقد كان هذا الشىء هو قرار اسرائيل بأن تبكر فى موعد هجومها.

ولكن هل عرف ايدن ؟

لا ريب فى أن القارىء قد لمس حتى الآن بأن الأدلة على وجـود خطط شاملة للتواطؤ بين الدول الثلاث من الوفرة بحيث لم تعد هنـاك ضرورة للمضى فى هذا التحليل . ولكن اذا كنا نشعر بالحاجة الى أن يكون تحقيقنا فى هذه القصة التى لا تكاد تصـدق ، صحيحا وسليما ، فان من واجبنا الا نتجاهل أية ناحية منها مهمـا ضؤل شأنها ، ومنطقية كانت او غير منطقية . وليس ثمة من ريب فى أن موقف ايدن ، وعلاقة الحكومة البريطانية بكل هذا ، هو الذى يستحق مثل هـذا التحقيق العميق . ولهذا أرى أن نعود الى خفايا الانذار من وجهة نظر ايدن البارزة نفسها .

ولقد سبق لى أن أشرت فى العدد الخاص من مجلة السبكتاتور ، أنه لو قدر لنا ان نصف ايدن وسلوين لويد بشىء من الذكاء العادى لكان من المحتوم عليهمـا أن يبحثا عن جدول أوقات للتواطؤ ، يظهـره بمظهر الشىء غير القائم أو الموجود بقدر الامكان . ولقد رأينا كيف جاء الانذار محطما لآمال اسرائيل . ولكنه لم يكن أقل من ذلك تحطيما لايدن نفسه، بينما لم يؤثر على الفرنسيين الذين لم يكن يهمهم مطلقا لو ظهر التواطؤ الخفى بين الدول الثلاث أو ظل سرا من الاسرار . وهذه نقطة فى منتهى الاهمية. اذ أن ظهور التواطؤ كان حريا بأن يأتى بنتائج عكسية لاسرائيل وبريطانيا وحدهما . فلو صحت عزيمة ايدن وسلوين لويد على حمـاية مركز بريطانيا المقبل فى الوطن العربى وبالتالى على حماية عهـد نورى السعيد ، بعد الاطاحة بعبد الناصر ، فمن الواجب أن يظل هناك فـرق زمنى واضح يزيل كل الشكوك بين الهجوم الاسرائيلى و « التـدخل » الانكليزى ــ الفرنسى . ولنضع هذه النتيجة المنطقية فى صورة أخرى . فى وسع اسرائيل أن تهاجم مصر اما قبل الحركة الانكليزية والفرنسـية أو بعدها ، سريطة ألا يقع الهجومان فى وقت واحد . يضاف الى هـذا انه كان من المهم جـدا بالنسـبة الى ايدن وبن جـوريون أن يشرعا فى حركتهما ضد مصر فى الوقت الذى تكون فيه يدا أيزنهاور مغلولتين تماما فى الانتخابات الامريكية . ففى مثل هذه الحالة وحدها يمكن أن تكون هناك نتيجة لسيناء أو للسويس ، وان تحقق حكومة ايدن واسرائـيل أهدافهما وتحميانهما .

ولنضف الآن الى كل ما قلناه حقيقة أخـرى ، وهى ان الوقائع

= لاستخدامها فى سلاحها الجوى لم تكن قد وصلت فى التاسع والعشرين من اكتوبر ، وان دبابات « شيرمان » الفرنسـية وصلت متاخرة بحيث مضت الى المعركة دون أجهزة « اذاعة » . وراح هنريكس فى مقالاته هذه يعكس ما كان قد ذكره فى كتابه بالنسبة الى توقيت الهجوم .
ــ المؤلف ــ

أثبتت ان العمليـة الانكليزية ــ الفرنسـية قد حـدثت دون أن تكون الاستعدادات قد استكملت فى الواحد والثلاثين من اكتوبر عندما شرعت القاذفات الانكليزية والفرنسية فى التحليق فوق مصر وضربها بالقنابل. وقد أشارت جميع التقـارير التى بعث بها الفريق كيتلى ، والتعليقـات التى صدرت على ألسنة العسكريين الفرنسيين للصحفيين معربة عن الملل من التأجيلات البريطانية وكذلك الدلائل التى قامت على أن انزال المظليين من الجو كان مقررا فى السادس من نوفمبر وان بدء العمليات البرمائية كان مقررا فى العاشر من نوفمبر ، الى هـذه الحقيقة التى أوردناها ، واذا ما أضفنا اليها كلها ، ما وقع من عدم تحذير السـفارة البريطانية فى القاهرة لرعاياها ، وفشلها فى مساعدتهم ، وما قيل عن دهشة بن جوريون وغضبه ، لان الانذار جاء بسرعة بعد بدء الهجـوم الاسرائيلى، وما صدر عن الوزراء البريطانيين من تعليقات فظة وصريحة، على اعتراف الفرنسيين فيما بعد بوجـود التواطؤ أثنـاء الضجة التى أثيرت (١) ، وما ظهر على ايدن وسلوين لويد وزملائهما من حيرة وعجز عن التقدم بأية ردود معقولة على الاسئلة التى أثيرت فى مجلس العموم، والتى كان لا بد لأى طالب فى الصفوف الابتدائية أن يتوقع اثارتها بعد « الفيتو » الانكليزى ــ الفرنسى فى مجلس الامن وبعد الانذار المشـترك فى الثلاثين من اكتوبر ، تبينت لنا الحقيقة واضحة جلية . وظهر لنـا أيضا أن أحدا لم يعرض بعد عرضا صحيحا الاعمال التى قام بها أعضاء مجلس الوزراء البريطانى فى ذلك اليوم .

ترى لماذا كان هذا الارتباك التافه مسيطرا على الجميع فى ذلك اليـوم ؟ أنا لا أشك فى أن الوزراء جميعـا كانوا يعـرفون بأن الاسئلة ستنصب عليهم انصبابا داخل مجلس العموم وخارجه . فقد تعرضت سمعة أولئك المسئولين عن الخطة كلها ومكانتهم الشـخصية للخطـر البالغ ، ومع هذا التعرض فقد ظهروا جميعا بمظهر الضياع والعجز عن أية ردود معقولة . لماذا ؟ ليس ثمة الا تفسير واحد ، وهو أنه طـرأ لسبب من الاسباب تبـدل جوهرى على الخطة كلها فى الثـلاثين من اكتوبر .

طلب الانسحاب :

واذا ما طرحنا افتقار الوزراء البريطانيين الى المنطق جانبا تبين لنا ، ظهور ثلاثة أمور جديدة من تسلسل الاحـداث التى وقعت يومى التاسع والعشرين والثلاثين من أكتوبر ، والتى أدت الى ظهور التواطؤ وبرهنت على عجزها الفاضح عن تأكيد ما وقع على الخطط من تبدل

---

(١) لنضرب مثلا بما قاله المستر بتلر .... « لقد أوضـحنا موقفنا ، كما أوضح المسيو موليه موقفه . وليس من حقى أن أرد على ما ذكرته الحكومة الفرنسية » . وقال ايدن فى العشرين من ديسمبر.. « اننى أعتبر نفسى مسـئولا عما أقوله فى هـذا المجلس ، لا عما يقوله الوزراء الآخرون فى البلاد الاخرى فى برلماناتهم » .

ــ المؤلف ــ

طارىء . وأول هذه الأمور ان اسرائيل ذكرت فى أول بلاغ حربى أصدرته فى الساعة التاسعة من مساء التاسـع والعشرين من اكتوبر ، عبـارة غريبة كل الغـرابة ، اذ زعمت أن قواتهـا قد باتت على مشارف قناة السـويس » . وكان هذا القـول فى منتهى الغرابة لسببين أولهما ان اسرائيل كانت كاذبة فيه ، اذ لم تكن قواتها فى تلك الساعة على مشارف السويس كما ادعت . وثانيهما أنه حتى ولو افترضنا جدلا صحة الادعاء الاسرائيلى ، فلماذا الاعلان عن هذه الحقيقة ؟ ولماذا تثير وهى المتلهفـة على أن تعـزو النصر لقـواتها وحـدها ، وباعلانها الى العالم الشديد «الحساسية» بالنسبة الى القناة فى ذلك الحين ، قلق هـذا العـالم ، من احتمال تعرضها الى الخطر بسبب العمليات الحربية فى الوقـت الذى لم تكن قواتها قد جاوزت حدودها الى مسافة بعيدة ؟ فليس ثمة ماهو أكثر مدعاة الى التدخل الدولى من أى نوع فى هـذه الحرب من مثـل هذا الاعلان ، وهو تدخل سيقع حتما قبل أن يتمكن بن جوريون من تحقيق ما يتلهف على الوصول اليه وما يريد أن يبرهن عليه .

أما السبب الثانى فى الغرابة ، فهو صـدور الانذار الانكليزى ــ الفرنسى فور صدور النشرة الاسرائيلية الاولى ، متضمنا طلبات تبدو متممة للبلاغ الحربى الاسرائيلى وان كانت فى الحقيقـة غير متفقة مع حقائق الوضع العسـكرى فى يوم صدوره أى فى الثلاثين من أكتوبر . فلقد صدر الانذار فى الساعة الرابعة والنصف من بعـد ظهر الثلاثين من أكتوبر ، وهو يطلب من اسرائيل ومصر وقف اطلاق النار وسحب قواتهما الى مسافة تبعد عشرة أميال عن كلا جانبى قناة السويس ، لا كلا جانبى خط الهدنة ، أو على الأقل من جانبى النقطة التى كانت فيها قوات الفريقين عند تسلمهما الانذار . فسرعان ما ظهرت الحقيقة الضخمة الصارخة ، وكان لا بد من ظهورها ، وهى ان أية قوات اسرائيلية لم تكن بعد ظهر الثلاثين من اكتوبر على بعد عشرة أميال من قناة السويس . ومن هذا يتضـح ان الانذار البريطانى ــ الفرنسى المشـترك ، كان بمثابة دعوة صريحة الى اسرائيل للتقدم غربا نحو القناة ، والتوغل داخل الاراضى المصرية ، حتى قبل أن توقف اطلاق النار طبقا لنص الانذار .

ولا تكشف هذه الحقيقة وجود التواطؤ فحسب ، بل انها أيضا تثبت وجود الكثير من الحماقة ، ومن الاثم الذى يستحق اللعنة . وهنا يجـوز لنا أن نتساءل ... هل كان من الممكن أن يضـمن القادة الاسرائيليون بلاغهم الحربى الاول ، تلك الاشارة الغريبة لو أنهم كانوا يعرفون أن انذارا انكليزيا ــ فرنسيا مشتركا سيصدر بعد تسع عشرة ساعة ، وسيكون محطما على هذا النحو لأهدافهم الرئيسية فى اخفـاء التواطؤ ، للظهور بمظهـر المنتصرين وحـدهم ؟ ولماذا بحق السماء . أدخل ايدن هذا الطلب بالانسحاب فى انذاره ثانيا ؟ ولماذا ، وقـد قرر أن يصدم العالم كله ويهزه هزة عنيفة باستخدام الفيتو ضد مشروع القرار الذى اتخذه مجلس الامن تجاه الهجوم الاسرائيلى ، وبات على استعداد ليهز العالم باصـدار انذاره الذى أصـبح وشيك الصدور ، يوافق على اضافة ذلك الطلب المؤذى والغريب الى انذاره ؟ ولا يبدو هذا العمل منطويا على الحمق فحسب ، بل يبـدو أمرا لا ضرورة له

مطلقا ، فليس من المتوقع الا يكون ايدن قد تصور ، أو حتى أراد أن يرفض عبد الناصر الانذار ، اذ أن كل خطوة تالية تتوقف على هذا الرفض . وكان مجلس الامن فى جلسات مستمرة ، كما كان الامريكيون على وعى بما هو واقع ، وقد استفزتهم الحركات الأخيرة الى الغضب والسخط . وكيف يمكن لبريطانيا أن تشرع فى حربها النفسية وفى القاء قنابلها للاطاحة بعبد الناصر كاجراءات تمهيدية لغزو مصر ، متجاهلة الامم المتحدة كل التجاهل ، اذا كان عبد الناصر ، سيرضى مذعنا بوقف اطلاق النار وباحتلال الدولتين الغربيتين لمنطقة القناة ؟

كان ايدن على يقين من أن عبد الناصر سيرفض أى انذار انكليزى ــ فرنسى مهما كانت شروطه وعباراته . وكان يتوقع أن يستمر القتال بين مصر واسرائيل أياما عدة . وعلى هذا الافتراض ، تصور ايدن أن الفرصة ستتاح للاسرائيليين للتوغل داخل سيناء حتى يصلوا الى ضفاف القناة . فلماذا اذن يكلف نفسه عناء الطلب منهم الانسحاب سلفا الى مسافة عشرة أميال من القناة ؟ لقد كان الوقت فسيحا أمامه لتوجيههذا الطلب فيما بعد ، أى عندما تحين ساعة المرحلة الثالثة من خطته ، وهى النزول الفعلى فى أرض مصر عن طريق القوات الانكليزية ــ الفرنسية . وكان فى وسعه أن يحقق هدفه هذا سرا ، عن طريق الاتفاق خفية مع الاسرائيليين ليعلنوا عند اقترابهم من القناة أنهم « أخذوا فى توطيد مراكزهم » على بعد عشرة أميال من القناة ، وهى خطوة عسكرية عادية . واذا كان تفكير ايدن منصرفا الى السماح لاسرائيل باحتلال سيناء كلها ، والاحتفاظ بها ، فقد كان فى وسعه أن يحقق هذا الهدف دون أن يعلن الى العالم الدعوة التى وجهها الى اسرائيل لتحقيق مايريد .

اذن ما الذى حمل ايدن على اقحام طلب الانسحاب فى الانذار ؟ ان ما نواجهه من صعوبة فى هذا التحليل ، يتلخص فى أننا نحاول اضفاء صفة المنطق على « اللامنطق » ، وهو ما تميزت به وجهتا نظر كل من ايدن وبن جوريون .

وقد سبق لى أثناء تحليلى للانذار فى مجلة « السبكتاتور » قبل أن يصدر ايدن مذكراته أن قلت ان هناك دلالة ضخمة بارزة ، على أن وثيقة الانذار ، تبدو اذا ما حللت كلمة كلمة ، كشىء أعد سلفا ليعالج وضعا مغايرا تمام المغايرة للوضع الذى صدر الانذار لمعالجته ، وهو وضع كان ايدن يتوقع ظهوره بعد انقضاء فترة من التثاقل الزمنى . من الواضح أن ايدن كان يتوقع وصول القوات الاسرائيلية الى القناة ، مما يخلق خطرا فوريا على الملاحة فيها من جراء تبادل اطلاق النار فوقها ، وهنا تتاح له المبررات لحمايتها ، « والفصل بين المتحاربين »، وتكون الحجة التى أوردها فى الانذار منطقية تمام المنطق ، ويصبح التدخل الانكليزى ــ الفرنسى بسبب ما يتصوره من انشغال أيزنهاور فى انتخاباته ، أمرا معقولا بالنيابة عن العالم كاجراء ضرورى وسريع . ومثل هذا الوضع حرى بألا يظهر وجود أى تواطؤ بين ايدن واسرائيل ، كما يحقق لاسرائيل هدفها فى نسبة « الانتصار » الى قواتها ، ويتيح

لبن جوريون الفرصة للموافقة على التدخل ، بالنسبة الى حدود اسرائيل الغربية ، الجديدة . وهكذا يكون الانذار فى صيغته وعباراته كلها ، وثيقة صالحة لمعالجة هذا الوضع . ومن هذا يبدو ، أن الانذار قد وضع من قبل ، وقبل الثلاثين من أكتوبر ، لمعالجة وضع خطط له أن يقوم ، ولكنه لم يكن قد قام فعلا ، عندما صدر الانذار .

رواية ايدن الجديدة :

ويعيدنا هذا الاستنتاج الى مذكرات ايدن نفسها ، والى ما حاول هو قوله فيها مبررا إنذاره . فلقد ذكر الآن ان شروط الانذار قد وضعت من قبل ، أى فى الخامس والعشرين من اكتوبر ، وبينهما بالطبع شرط الانسحاب . ولعل هذا هو السبب الذى دفعنى عندما اقتبست هذه الفقرة الى القول بأنها كانت من أهم البيانات التى صدرت عن قناة السويس . ويحاول ايدن أن يمر بهذه النقطة مر الكرام ، وأن لا يضع عليها أى توكيد معين . بل يجعلها فقرة من ألوف الفقرات التى وردت فى كتابه ، ليبدل القصة كلها . فلقد ظل هو ووزراؤه يزعمون باصرار طيلة عام ١٩٥٦ ، كما ظل زملاؤه الذين واصلوا الحكم بعد تنحيته يدعون ابان المعركة الانتخابية التى جرت فى اكتوبر عام ١٩٥٩ ، ان الانذار اجراء طارىء أملته الضرورة ، وقررته فى الثلاثين من أكتوبر لمواجهة الانباء المفاجئة التى حملها ذلك اليوم .

وجدير بنا أن نلاحظ أن ايدن على الرغم من هذا التبدل الهائل فى موقفه لم يعترف بالتواطؤ مطلقا . وان كان لم ينفه ، مكتفيا بتجاهله واهماله . وكان كل ما أراد التأكيد عليه الآن ، ان حكومته تميزت بالتبصر وحسن الفطنة ، فأعدت بدقة متناهية ، الانذار الذى وجدت أن من المحتم أن تصدره ، فيما اذا قامت اسرائيل بالهجوم على مصر . وهكذا يعترف ايدن بأن وثيقة الانذار قد أعدت سابقا ولكنه لا يعترف أنها أعدت لمواجهة وضع مختلف كل الاختلاف عن الوضع الذى صدرت فيه . فهل هذا الاعتراف الرواية التى يوردها أقرب الى العقل يا ترى ؟

وهكذا نجد أن ايدن يحاول أن يقول لنا فى مذكراته ان مجلس الوزراء ، قرر قبل أربعة أيام من وقوع الهجوم الاسرائيلى ، أن يصدر الأمر الى قوات مصر وقوات اسرائيل ، فور هجوم الاخيرة ، بالانسحاب من منطقة القناة ، ووقف اطلاق النار . ولكن هناك حقائق جغرافية وسوقية (استراتيجية) يجب تدوينها الآن قبل أن نمضى فى تحليلنا . فالهجوم الاسرائيلى يعنى ان قوات اسرائيل ستعبر خطوط هدنتها مع مصر ، وتبعد هذه الخطوط نحوا من مائة وخمسين ميلا عن قناة السويس . ويعنى الوصول الى القناة ان على قوات اسرائيل أن تقطع هذه المسافة البعيدة عبر صحراء سيناء . زاحفة على طرق صحراوية وعرة ، ومقاتلة نحوا من ثلاثين ألف جندى مصرى ، ومهاجمة بكل ما تتطلبه القوات من معدات موسوقة للقتال والمعارك . ولا ريب فى أن وزارة الحربية فى لندن ، كانت أكثر معرفة بهذه الحقائق من أية هيئة عسكرية أخرى ،

اذا استثنينا القيادتين المصرية والاسرائيلية . وتضم هذه الوزارة عشرات الخرائط التى تم اعدادها لشبه جزيرة سيناء على أيدى الخبراء بصـــورة متكررة ، وبكل ما فى المواقع الارضية من تفاصيل ، منذ استعداد الجنرال اللنبى للزحف شرقا عبر سيناء الى فلسطين التى كان يحتلها الاتراك فى الحرب العالمية الاولى . وقد تولى المهندسون البريطانيون فى تلك الفترة الطويلة شق ما فى هذه الصحراء من طرق واصلاحها بصورة مستمرة .

ولكن على الرغم من كل هذه الحقائق ، نجد ان قصة السير انطونى الهادئة ، والتى يضفى عليها الكثير من الوقار والجد ، تحاول أن تقنعنا ، بأنه هو وزملاءه ، تبصرا منهم بما سيقـــع قبل وقوعه ، وادراكا منهم لما يجب أن يفعلوه فورا ، اذا هاجمت اسرائيـــل مصر ، قد قرروا أن قوات اسرائيل يجب أن تكون عند القناة فى الوقت الذى يتحتم عليهم هـــم والفرنسيون أن يبادروا الى العمل العسكرى . وهكذا نرى ان ايدن يحاول اقناعنا . على الرغم من هذه المسافات الشاسعة التى كان يتحتم على قوات اسرائيل وهى وحدات عسكرية كاملة لا مجرد سيارات سباق خلوية ، وعلى الرغم من وعورة الطرق التى ستسير عليهـــا فى الصحراء ، ومن المقاومة المصرية التى يتحتم عليها أن تقهرها فى طريقها ، بأن الانذار الذى توصل اليه والذى يطلب سحب القوات الاسرائيلية من القنـــاة التى لم تصلها والتى لم يكن فى امكانها أن تصل اليها بمثل هذه السرعة الهائلة ، هو خير خطوة لمعالجة الموقف الذى كان قائما انذاك .

لم يسبق ان صدرت مثل هذه السخافات التى لا يمكن فهمها ، فى مثل هـــذا الوقار الذى اصطنعه ايدن ، عن أى رئيس وزراء عاقل . فى بيان رسمى يصدره . ولو شئنا أن نبسط الصورة للقـــارىء الانكليزى ليفهمها ، لقلنا ان مايريد ايدن اقناعنا به ، هو تماما كأن تقوم واشنطن ، وهى فى حالة قلق من وقوع هجـوم المانى على بريطانيا ، باتخـــاذ قرار سابق على ذلك ، بان تصدر «فور» سماعها ، بمغادرة أسطول الغزوالألمانى سواحل أوربا متجها الى بريطانيا ، انذارا للقوات الالمانية ، بالانسحاب من شوارع لندن .

ويحاول ايدن شرح المخاوف المحددة التى أحس بها مجلس الوزراء البريطانى من توقع الهجوم الاسرائيلى ، فيقول انهـــا انطوت على القلق مما قد يحل بقناة السويس من أضرار بسبب العمليات الحربية . ومن انتشار الصراع ليشمل الدول العربية الاخرى . ولكنه من الناحية الاخرى يريد منا أن نصدق بأنه هو وزملاءه ، رأوا من المناسب لحماية القناة من الضرر ، أن يضعوا صيغة انذار سابق ، يطلب من اسرائيل وقف اطلاق النار والانسحاب ، اذا كانت قواتها قد وصلت فعلا الى القناة . لكن ايدن لم يضع أية اشتراطات أو قيود فى الوصف الذى يقدمه الينا . وليس فى قصته ما يوحى بأن الوزارة البريطانية قـــد درست أية احتمالات أخرى للوضع العسكرى ، اذ انها لم تر ما يدعوها الى هذا الدرس . وكل مافعلته هذه الوزارة ، انها قررت فى الخامس والعشرين من آذار «مارس» ، مايجب أن تفعله الدولتان الحليفتان ، بريطانيا وفرنســـا ، عندما تحين ساعة

العمل الفورى . دون تفكير فى حقيقة ما سيكون عليه الموقف العسكرى بالنسبة الى اسرائيل فى ذلك الوقت .

وحرى بنا أن نسبر غور ما فى قصة ايدن من غرابة مذهلة طيلة الوقت . فهناك أولا ، مجلس وزراء ، يفكر سلفا بما قد يقـــع من جراء هجوم اسرائيلى يخشى وقوعه . ومن المفروض فى مثل هذه الحالة ، وطبقا لابسط قواعد المنطق ، أن يدرس هذا المجلس مدى السرعة التى ستصل اليه فيها أنباء المباشرة بالهجوم . ومن المفروض أيضا بالنسبة الى الوضع هذا ان تصل اليه الانباء بسرعة هائلة ، اذ أن صـحراء ســـيناء ليست من مجاهل الهيملايا البعيدة عن كل اتصال سريع بمـــا تبقى من أرجـــاء العالم . وبالاضافة الى احتمال صدور بيـــان اذاعى من اسرائيل باعلان الحرب ، والى احتمال صدور بيان اذاعى مماثل من مصر فور تلقيها الانباء اللاسلكية الاولى ، من مراكز حدودها الامامية ، كانت هناك فرق المراقبين الدوليين المرابطة على الحدود والمجهزة بآلات الارسال اللاسلكى المباشر . وفى مثل هذه الحالة يكون فى امكان مجلس الوزراء ، وهـــو الواقع تحت سيطرة الخوف من الخطر على القناة ، أن يتوقع تلقى الانبـــاء بعد مضى بضع ساعات من عبور القوات الاسرائيلية الحدود المصرية . فلمـــا اذن تكون ثمة حاجة الى انذار « فورى » يأمر بالانسحاب من مسافة تبعـــد مائة وخمسين ميلا عن الحدود التى تم اجتيازها قبل بضع ساعات فقط ؟ ولماذا لا يعد مجلس الوزراء هذا ، العدة لتوجيـــه انذار آخر يأمر اسرائيل بسحب قواتها الى ما وراء حدودها ، مهما كانت المسافة التى قطعتها عند تلقيها الانذار . كان هذا الطلب بالفعل ، هـــو ما تضمنه مشروع القرار الذى قدمته الولايات المتحدة الى مجلس الأمن . ولا ريب فى أن الحكومة الأمريكية وضعت صيغة قرارها وأبرقت به الى سفيرهـــا فى لنـــدن الذى تولى عرضه على سلوين لويد فى الساعة التاسعة والنصف من صباح الثلاثين من اكتوبر . ومثل هذا الاجراء ، ولا شـــك ، هو العمل المنطقى السريع والاصـــيل لوقف النزاع .. وبالتالى لحماية القنـــاة من الخطر .. ومنع انتشار الحرب الى الدول العربية الاخرى ، وهى الأهداف التى ادعى ايدن أنها وجهت حكومته فى اتخاذ قرارها باصدار الانذار .

ويبرز هنا ثانيا سؤال آخر . اذ لو كان صحيحا ما ادعاه ايدن من أن حكومته ، تبصرا منها بما يجب عمله فورا فى حالة هجوم اسرائيل ، قد قررت هنا بالاتفاق مع فرنسا اصدار هذا الانذار منذ أربعة أيام ، لماذا تقاعست بريطانيا وفرنسا عن اصداره عشية التاسع والعشرين من اكتوبر أى بعد صدور البلاغ العسكرى الاسرائيلى الاول فى الساعة التاسعةمساء؟ ولماذا التأجيل المطلق اذا صح ان الغاية من الانذار ، كانت العمل الفورى لحماية القناة ووقف الحرب والحيلولة دون امتدادها ؟

وهناك ثالثا تساؤل آخر ، سنعود اليه حتما فيما بعد ، وهو لماذا لم تقم حكومة ايدن ، اذا صح ادعاؤها بأهداف هذا التبصر البعيد النظر ، بتبادل الرأى مع أيزنهاور فى السادس والعشرين من اكتوبر بصدد هذه الاجراءات الوقائية التى أقرتها فى الخامس والعشرين منه ؟

أرى أن من مضيعة الوقت أن نقول أكثر مما قلنـــاه حتى الآن فى عرض هذا الجانب الخاص من رواية ايدن الجـــديدة على حقيقته ، وأن ننتقل منه الى البحث فى ما صدر عنه من أقوال أخرى . ويبدو لى انه وهو يخط هـــذه الفقرة الغريبة فى مذكراته عن قرارات وزارته فى الخامس والعشرين من اكتوبر ، قد أدرك أنها ستثير الدهشة عند الكثيرين . فهو يحاول على الفور أن يواجه هذه العقبة التى قامت أمامه ، وأن يزيل من نفوس القراء ما قد يثور من شكوك اذ يقول ..

« وقد تساءل النقاد لماذا نزلنا فى منطقة بعيدة عن ميدان القتال ؟ والرد على هذا هو أن النزول فى أية منطقة غير تلك التى سبق تحديدها فى الخطة الاولى كان سيؤدى الى التأخير حتما ، ولم يكن فى وسعنا أن نسمح بأى تأخير . يضاف الى هذا أننا كنا نعانى نقصا فى معدات الانزال وكان علينا أن نستعمل أحد الموانىء لهذه الغاية » .

ولكن ايدن يناقض فى قوله هذا قصته كلها بحذافيرها، وهى القصة التى تركزت على أن النزول لم يكن بعيدا عن منطقة القتال ، بل كانت فى المنطقة التى كان القتال يدور فيها وهى منطقة القناة . وهو يطلب منا فى مكان آخر ، أن نقتنع بأن الانذار الذى تمت صياغته فى الخامس والعشرين من اكتوبر ، ظل صالحا للعمل فى الظروف التى وجدت فعلا فى الثلاثين منه . ويمضى بعد ذلك فيقول .. انه كان من الضرورى بعد وصول أنباء الهجوم الاسرائيلى الى لندن ليلة التاســع والعشرين من اكتوبر ، التثبت من جميع الحقائق المتعلقة به . ويكفى أن نلاحظ هنا تعليقا على قوله هذا، بأنه لم تكن ثمة أية حقـــائق تتطلب التثبت ، لو كان ايدن صادقا فى أهدافه ، سوى أن القوات الاسرائيلية قد تخطت الحدود ، وهو أمر كان ايدن يعرفه حق المعرفة . ومع ذلك فهو يقـــول ان «القيادة البريطانية قامت بعمليات الاستكشاف عند الفجر صباح الثلاثين من اكتوبر لالتقاط بعض الصور للقوات المتحاربة وتحديد مواقعها ان أمكن » .

ثم يقول : « وتلقى مجلس الوزراء صـــباح الثلاثين من أكتوبر أن القوات الاسرائيلية وصلت الى نقطة تقع فى منتصف الطريق بين الحدود والاسماعيلية ، وقيل ان قوة اسرائيلية ثانية كانت تشق طريقهـــــا نحو السويس .. وكان هذا هو الموقف الذى بحثه مجلس الوزراء قبل خمسة أيام » .

وقد يصعب على المعلق الغاضب على هذا الاختلاق الصـــارخ، أن يمتنع عن القول ، بسلامة منطق ايدن فى هذه الفقرة ، لو أنه كان صادقا فيمـــا رواه منها ، ولكن السير انطونى مدفوعا بحرصه على أن يقدم كـــل تفصيل ممكن لما حدث قد حطم أى «منطق» أو «شبه‌منطق» فى قصته التى رواهـــا فى عام ١٩٦٠ ، اذ لم يكن فى وسع أية طائرة من طراز كمبيرا أو غــــير كمبيرا طارت فجر الثـــلاثين من اكتوبر ، أو أى شخص وقف على رمال

سيناء فى ذلك الصباح ، أن يحدد مواقع القوات الاسرائيلية فى المكان الذى حدده ايدن ، لانها لم تكن فى ذلك المكان أبدا ، وهو يذكـــر أن قوة اسرائيلية كانت تشق طريقها نحو الاسماعيلية ، وقد وجدت هذه القوة بالفعل ، ولكنها فى فجر الثلاثين من اكتوبر لم تكن فى المكان الذى زعم ايدن أن طائرات الكمبيرا قد صورت وصولها اليه ، بل كانت واقفـــة فى مواقعها التى لاتبعد أكثر من عشرة أميال داخل حدود سيناء فى نقطة تسمى أبو عجيلة ، وذلك بسبب المقاومة المصرية العنيفة التى واجهتها .. ولم يكن فى وسع طائرات الكمبيرا أن تحدد مواقع الاسرائيليين فى منتصف الطريق الى الاسماعيلية الا بعد يومين ونصف اليوم من ذلك التاريخ (١) ولم يكن فى الامكان أن يقع المسئولون فى خطأ فى تفسير الصور التى التقطها الطيارون ، اذ أن نقطة الوسط بين الحدود والاسماعيلية واضـــحة كل الوضوح من الجو ، اذ تبدأ منها مرتفعـــات أرضية لايمكن أن تغيب عن الصورة أو العين .

ويشير ايدن الى قوة أخرى ، كانت تريد الاندفاع باتجاه السويس ففى فجر الثلاثين من اكتوبر ، كان هناك فوج معزول من المظليين يعد نحوا من أربعمائة جندى ، يخنـــدق فى مواقعـــه ، وقد صـــدرت اليـــه الأوامر بألا يحاول حتى الاتجاه من المكان الذى هبط اليـــه فى مضيق «المتيلة» والواقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من السويس حتى تصـــل اليه النجدات . ترى هل كانت هذه هى القوة الثانية التى عناها ايدن ؟ ليس من الممكن أن تكونها ، اذ أن هذه القوة ظلت طيلة صباح الثلاثين من أكتوبر ولعدة ساعات تلت ، خافية على عيون الطائرات من جراء الضباب الذى خيم فوقها ، والذى حجبها عن عدسات الطائرات التى تحلق فوق ارتفاع عال . أما النجدات التى وعدت بها ، فكانت فى تلك اللحظـــة مبعثرة فوق مساحة واسعة لا تتجاوز النقطة الأمامية منها فى بعدهـــا عن الحدود الخمسين ميلا ، وكانت طلائعها مختفية بين أكواخ وأشجار واحة «ثامد» ، أما بقية اللواء فتخوض فى الرمال الى الخلف وقد توزعت عـلى مساحة واســعة ، ولم تتجمع هذه القوات عند « المتيلة » الا فى الساعة العاشرة والنصف من مساء الثلاثين من اكتوبر بينما زعم ايدن أن هـــذه القوات قد عززت بسرعة ، ولكن مالبث اللواء بكامله أن واجه قتالا عنيفا وعنيدا من القوات المصرية التى تحركت الى المنطقة بحيث تحطمت قواه ولم يستطع التقدم شبرا واحدا طيلة الأيام التى تلت حتى مساء الثانى من نوفمبر .

ولكن السير أنطونى ايدن ، رئيس وزراء بريطانيا ، يقف بعد ظهر

---

(١) اذا صح أن القوات الاسرائيلية قد وصلت الى تلك النقطة ، بعد يومين ونصف من ذلك التاريخ ، فذلك ناجم عن انسحاب القوات المصرية الذى بدأ فى الثلاثين من اكتوبر بعد أن تبينت للرئيس عبد الناصر حقيقة المؤامرة الثلاثية مما دعاه الى اصدار الأمر للقوات بالانسحاب الى غرب القناة تجنبا لوقوعها فى الشرك الذى نصبته دول العدوان الثلاثى لها .

— المعرب —

الثلاثين من اكتوبر ، فى مجلس العموم ، ويقول فى منتهى الجد والوقار ان القتال كان يدور فى تلك الساعة فى نقاط «قريبة» وقريبة جدا من القناة ، بل لعله يدور فى القناة نفسها • وهو قول لم يصبح حقيقة الا بعد أربعة أيام عندما أصبحت القوات الاسرائيلية تطل على القناة بعد انسحاب القوات المصرية تنفيذا لأوامر قيادتها العليا ، ولا شك أن ايدن فى قوله هذا ، كان أكثر اغراقا فى التفاؤل من الاسرائيليين أنفسهم ، اذ أن خطة القيادة الاسرائيلية نفسها كانت تقوم على أساس افتراض الوصول الى القناة فى غضون ثلاثة أيام ، ترى هل هناك من داع الى المزيد فى الايضاح ؟

ولكن ماالذى حدث حقا ؟

لسنا فى حاجة الى المضى مع ايدن فى مذكراته ، فكل مافيها أحاديث لاينطبق عليها أى منطق ، هذا اذا أردنا الاعتدال فى وصفها ، كقوله مثلا فى قصته التى يحاول استدرار الدموع بها ، ان الوقت لم يتوافر للحكومة للتشاور مع واشنطن أو مع مجموعة الشعوب البريطانية مع أنه هو يعترف أن الحكومة قد وقعت تحت سيطرة الخوف والقلق قبل بدء الهجوم الاسرائيلى بأربعة أيام ، أو كانفجاره الغاضب والفجائى بعد أن انتهى كل شىء معربا عن ألمه ، فى افشاء كل ما أحاط بحملة جواتيمالا من أسرار ، ولكن مازال أمامنا واجب تقرير حقيقة ماحدث ، فكل مافعلناه حتى الآن هو أن نظهر بأن الانذار لم يكن متفقا مع الحقائق ، ولا مع ضرورات اسرائيل وضرورات ايدن نفسه ، وانه أعد مسبقا – وهو مااعترف به ايدن أخيرا – وانه كان يقصد معالجة وضع مختلف كل الاختلاف – وهو مايحاول ايدن حتى الآن اخفاءه – ولكن ترى ماهو هذا الوضع المختلف ؟ وما الذى حدث حتى انقلبت الخطة رأسا على عقب ؟ ولماذا صدر الانذار فى شكله الاصلى فى الثلاثين من اكتوبر ولم يتبدل بتبدل ماوقع من تطور ؟

• هناك افتراض واحد ، وقد يكون أكثر من مجرد افتراض ، ولكن الوثائق التى تثبت تعديه هذه المرحلة لم تتوافر لاى كاتب حتى الآن ، وهذا الافتراض هو الذى يفسر دون سواه تسلسل الاحداث على النحو الغريب الذى وقعت فيه ، وليس ثمة من شك فى أن التواطؤ كان قائما . فلقد عرف ايدن وزملاؤه طيلة الوقت ، واطلعوا بالتفصيل منذ السادس عشر من أكتوبر على حقيقة ما تعتزم اسرائيل فعله ، وراحوا يعدون مع زملائهم الفرنسيين خطة تغالى فى عنايتها بكل التفاصيل حتى التافه منها لاستغلال الهجوم الاسرائيلى(١) • وقام الفرنسيون طيلة الوقت بدور

(١) هناك أدلة كثيرة أخرى تثبت هذه الحقائق وقد يكون المضى فى سردها مملا للقارىء ، فمثلا ألقت الطائرات البريطانية فى الواحد والثلاثين من اكتوبر منشورات باللغة العربية على مصر تشير بوضوح الى «الهجوم الاسرائيلى» فلو صح ما ادعاه ايدن ، بأن أنباء هذا الهجوم لم تكن أكثر من مجرد «تخوف» يسود لندن حتى ساعة متأخرة من ليلة التاسع والعشرين فكيف كان فى الامكان اعداد هذه المنشورات والموافقة =

الوسطاء ، ولكن ليس دائما وباستمرار ، فقد عرف أن موشى ديان القائد العام للقوات الاسرائيلية والذى تولى شخصيا قيادة حملة سيناء ، قام بزيارة لندن فى شهر اكتوبر ، وقضى وقتا لابأس به فى وزارة الحرب البريطانية ، وكانت الخطة كما يبدو على النحو التالى :

الخطة الرئيسية

٢ نوفمبر – الجمعة – يوم عطلة عند المسلمين ، يميل فيه المسلمون الى الراحة والتراخى ، وتبدأ فى نفس اليوم آخر عطلة أسبوع محمومة فى حملة الانتخابات الامريكية ، تقرر أن يبدأ هجوم اسرائيلى فى ساعات الصباح الباكر ، وأن يستمر منفردا حتى الخامس من نوفمبر .

٥ نوفمبر – يكون القتال مع القوات المصرية قد اقترب من القناة مهددا حرية الملاحة فيها ، يصدر الانذار البريطانى الفرنسى المشترك طالبا الى الفريقين الانسحاب الى مسافة عشرة أميال من القناة ، والى مصر قبول الاحتلال البريطانى الفرنسى المشترك للقناة ، سيكون ايزنهاور عاجزا عن القيام بأى اجراء ، وترفض مصر بالطبع هذا الانذار .

٦ – نوفمبر – يوم الانتخابات فى الولايات المتحدة ، ينتهى الأمد المضروب فى الانذار المشترك ، وتبدأ الطائرات البريطانية والفرنسية ضرب مصر بقنابلها ، تبحر القطع البرمائية من مالطة فى الطريق الى مصر التى تصلها بعد ثلاثة أيام عند بور سعيد ، يدخل المظليون فى الصورة ، يشتد الاضطراب فى الميدان الدولى ، يدخل نورى السعيد الى الأردن فى قوات كبيرة .

٧ نوفمبر – يتظاهر ايدن ومولیه بالعمل على فصل الفريقين المتحاربين من بعضهما ، يجتمع مجلس الأمن ولكنه لايتخذ أى اجراء حاسم ، ولاتتوافر الأغلبية لمعارضة نزول المظليين الانكليز والفرنسيين فى منطقة القناة .

١٠ نوفمبر – يبدأ الغزو البرمائى الكامل . اما أن يمضى عبد الناصر أو تأسره قوة ضاربة تتجه الى القاهرة ، يواجه العالم بالأمر الواقع .

* * *

هذا هو التوقيت الزمنى للخطة ، ويبدو الانذار المشترك على ضوء هذا التوقيت معقولا كل العقل ، فما الذى حدث ، وقلب الخطة والتوقيت معها ..

= عليها ، وصوغها بالأحرف العربية ، ثم طبعها بكميات هائلة تبلغ مئات الألوف وفى صور مختلفة ، ثم اعدادها فى مطارات قبرص قبل الواحد والثلاثين ، أى فى مثل هذه الساعات القليلة ؟ ولماذا رفض ايدن الاشتراك مع ايزنهاور فى توجيه تحذير لاسرائيل فى الثامن والعشرين من اكتوبر تنفيذا لاقتراح رسمى وعاجل من الرئيس الامريكى

– المؤلف –

أولا ، وقبل كل شىء تحركت اسرائيل قبل الموعـد المقرر ، وقد اضطر بن جوريون الى ذلك مدفوعا بثلاثة اعتبارات :

أولها – الخوف من أن يتدخل ايزنهاور على الرغم من انشـغاله فى الانتخابات .

وثانيها – الخوف من أن تؤدى الخطة كلها الى حرمان اسرائيل من «الانتصار المستقل» الذى تريده لنفسها .

وثالثها – ماغمره من ارتياح لادراكه أن احداث المجر وثورتها فى الخامس والعشرين من اكتوبر ، خلقت وضعا جديدا قد يشغل ايزنهـاور وايدن فترة طويلة .

وهكذا بدأت اسرائيل تعبئة قواتها فى الخـــامس والعشرين من اكتوبر ، وعرف الفرنسيون بالطبع بأمر هـــذه التعبئة ، كما عرف ايدن بها أيضا ، ولكن ايدن –وهو الرجل المريض للغاية– منذ أن فاجأته الحمى بشكل فائق للعادة فى مطلع اكتوبر بات أسير الهواجس والشكوك ، فهو لم يمض فى طريق مغامرته هذه بالاتفاق مع اسرائيل وهو مرتاح الضمير فالحوافز التى تدفعه كلها ، وكيانه العاطفى وأعصابه المجهدة ، كلها من النوع الشاذ وغير العادى ، وعندما اقترب «صريف الاسنان» وهى العبارة التى استخدمها هو فى مذكراته ، كان قد بات نهبا للشكوك والتردد ، فلقد تمكن المستر همرشـولد ومعـه دالاس ورجال الوفد الهنـدى والدكتور محمود فـــوزى فى الثانى والعشرين من أكتوبر ، من التغلب تماما عـلى جميع العقبات التى وضعها ايدن وموليه قبل عشرة أيام فى طريق الوصول الى تسوية ، وأغرقت الصحف بالمقالات والانباء المتفائلة التى تعـــارض استخدام القوة أو اللجوء اليها ، وهاهى ذى المجر تبرز الآن ماثلة أمام العيان . يضاف الى هذا أن الانتخابات الامريكية لم تشغل ايزنهـــاور وحكومته ، وهاهى واشنطن تسأل لندن كل يوم عن الاسباب التى تحول دون تشاورها معها ، وعما يدور فى الخفاء ، وتحذرها من أى حيل وأعذار واهية باطلة ، ولكن ايدن قد التزم ، وكانت العملية الانكليزية– الفرنسية المشتركة قد مضت فى طريق التأهب والاستعداد . ولا ريب فى أن هذا الجهد المرعب الذى عاناه هذا الرجل المريض فى تلك الايام الاخيرة ، قد أوصله الى صعدان خطرة . وهكذا مضى ايدن الى معركتى سيناء والسويس وهو فى أسوأ أوضاع يمكن لانسان أن يصل اليها .

وكان الفرنسيون يعرفون هذه الحقائق كلها ، ويعرفون أيضا ، أنه بعد الخامس والعشرين من اكتوبر ، ستزداد حدة تردد ايدن بعد أن تصل اليه أنباء تقديم اسرائيل لموعد ساعة الصفر بالنسبة الى هجومها ، وظـل الفرنسيون يتصلون به عن طريق الهاتف يوميا ليبعثوا فى نفسه الثقة والطمأنينة وقرروا أن لايفزعوه أكثر فأكثر بابلاغه ماطلبه الاسرائيليون من غطاء جوى فرنسى لحملتهم . ومن هنا يظهر أن ايدن كان صادقا عندما نفى

فى العشرين من ديسمبر معرفته بهذا الغطاء الجوى ، اذ أن هذا الموضوع لم يكن نتيجة «قرار بريطانى – فرنسى مشترك ومسبق» .

واتخذ الفرنسيون قرارا آخر ، كبير الأهميـــة ، وهو أن التوقيت الأصلى للخطة الانكليزية – الفرنسية المشتركة لم يعد صالحا ولا أمينا حتى ولو قدم موعده مع ابقاء مراحله على ماهى عليه للتـــوافق مع التـــاريخ الاسرائيلى الذى قدم موعده ، وقرر الفرنسيون ان لامعنى لأى تسويف بعد بدء الهجوم الاسرائيلى أو لأية فترة قبل البدء بالعملية البريطانية – الفرنسية المشتركة ، هذا اذا كان المطلوب أن يحافظ ايدن على كلمته ، واذا كانت الغاية الاطاحة بعبد الناصر والوصول بها الى النهاية ، وخشى الفرنسيون أن ينهار رئيس الوزراء البريطانى المريض فى الفترة الواقعة بين الهجومين ، وأن يفقد ارادته ، أو يخضع لواشنطن أو لأى ضغط قد يتعرض له من بعض زملائه فيعدل عن تنفيذ العملية كلها .

وكان موليه وبينو فى توصلهما الى هذا القرار متأثرين أشد التأثر بعامل آخر ، وهو ضغط العســكريين الفرنسيين ، فلقد كانت فرنسا الجمهورية الرابعة فى ذلك الحين قريبة من مرحلة الحكم الذى يقوم عـــلى التكافؤ بين ضدين ، هم السياسيون والعسكريون(١) . وكان العسكريون قد استهوتهم الفكرة القتالية أخيرا ، ودفعهم حماسهم لها الى الشك فى نيات الوزراء ، ولذا باتوا يلحون على موليه بوجوب الاسراع الى العمل ، بنفس القوة التى كان فيها هذا يلح على زميله ايدن ، وظلوا يتحرقون ارما وغيظا مدة ثلاثة أشهر طوال ، من هذا الحذر الذى تبديه بريطانيـــة ممثلة بساستهاوعسكرييها ، وراحوا ينذرون موليه ، بأن من الواجب وضع حد لهذا التردد .. والا ، وهــكذا اتخذ القرار القــدرى بأن يطلب موليه الى ايدن المبادرة فورا الى العمل ، دون انتظار الفترة بين الحركتين الاسرائيلية ، والانكليزية الفرنسية ، كما كان متفقا عليه من قبل .

ولكن موليه وبينو لم يبحثا موضوع هذا القرار الجديد من قبل لامع بن جوريون ولا مع ايدن . وعندما وافقا على طلبه تزويد اسرائيل بما تريده من غطاء جوى ، اقترحا عليه أن يضمن بلاغه الحربى الأول ، اشارة الى قناة السويس ، تفيد منها فرنسا فى حركتها المقبلة ، وأبلغاه فى الوقت نفسه انهما لن يبدلا شيئا من الخطة السابقة ، ويواصلا العمل بموجبها ، أى بعد انقضاء الفترة المقررة .

(١) وضعت الدوائر العسكرية الفرنسية فى الثانى والعشرين من اكتوبر بدون علم من موليه خطتها المنطوية على الخديعـــة والرامية الى الامساك بقادة الجزائر المجاهدين الذين كانوا يطيرون للاشتراك فى محادثات تهدف الى السلام تحت اشراف ملك المغرب ، وقد ألهبت هذه الخدعة مشاعر العرب فى كل مكان ، وهو ماكان الفرنسيون يهدفون اليه ، وكانت أيضا بمثابة تحذير الى موليه الذى لم ينس قط ماأصابه من اهانة فى الجزائر عندما قذفه المستوطنون الفرنسيون فيهـا بالطماطم أثنـاء زيارته لها فى السادس من فبراير عام ١٩٥٦ .

– المؤلف –

وهكذا مضى بن جوريون وزملاؤه فى تنفيذ الخطة كما كان مقررا لها من قبل ، دون أن يبلغوا بقية أعضاء الوزارة بما يعتزمونه الا فى الثامن والعشرين من اكتوبر ، وهو ماأعترف به بن‌جوريون نفســـه فى مجلس الكنيست فى الثانى من ابريل عام ١٩٥٧ ٠

وتوصل الفرنسيون أيضا فى هذه الساعات الأخـيرة التى سبقت الحرب الى قرار آخر ، قدر له أن يكون فى منتهى الأهمية والخطورة ، فقد تلقوا فى الثامن والعشرين من اكتوبر اقتراحا من الرئيس ايزنهاور الذى أفزعته الأنباء التى تلقاها عن اعلان التعبئة العامة فى اسرائيل يطلب فيه منهم ومن ايدن اصدار تحذير أمريكى - بريطانى - فرنسى مشترك ، الى بن جوريون ، وقضى شركاء أمريكا فى البيان الثلاثى لعـــام ١٩٥٠ من بريطانيين وفرنسيين طيلة الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من اكتوبر وهم يراوغونها ويتحايلون عليها للخلاص من هذا الطلب ، بينما واصـل سلوين لويد بعث الطمأنينة فى نفس السفير الامريكى فى لندن ، مؤكدا له أن لاعلم له مطلقا بما يدعو الى القلق ، واتضـــح فى باريس الآن ، ان ايزنهاور سيوجه فى اللحظة التى تبدأ فيها اسرائيل هجومها ، دعوة الى مجلس الأمن للاجتماع فورا ، وقررت فرنسا أن اســـتخدام الفيتو فى المجلس أمر ضرورى للغاية ٠ ولكن هذا القرار الخطير لم ينقـل الى ايدن أيضا ، اذ أن فرنسا لم تكن راغبة فى أن تزيد من حدة الحالة ، العصبية التى يعانى منها حتى اللحظة الأخيرة ، ومن هذا يتبين أيضا أن نفى ايدن فى العشرين من ديسمبر لموضوع الفيتو ، كان صحيحا أيضا ٠

وطار موليه وبينو الى لندن صباح الثلاثين من اكتوبر وقد صممـــا على أن يحملا بريطانيا على القيام بالعمل الكلى الشامل فورا ، وقد نقلا الى ايدن قرار فرنسا باستخدام الفيتو ضد مشروع القرار الامريكى فى مجلس الأمن الذى كانت الحكومتان قد تلقتا تفاصيله ذلك الصباح ، وراحـــا يؤكدان لايدن أن خطوتهما لن تجدى فتيلا ، اذا كانت فرنسا وحدها ، هى التى ستلجأ الى استخدام الفيتو ، فلقد حملت الحكومتان صـــــورة الحليفتين فى الشرق الأوسط أمام العالم كله ، وقد رصدت مئات الملايين من الفرنكات للحملة المشتركة ، ولا يمكن للرأى العام الفرنسى أن يسمح لبريطانيا بوقوفها موقفا متعارضا مع فرنسا فى الامم المتحدة ٠

وجدير بنا أن نذكر أن الرسالة التى حملها العقيد هنريكس فى منتصف شهر سبتمبر ، من الوزير البريطانى قد أوضحت لبن جوريون أن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة لاستنكار الهجوم الاسرائيلى بشدة أمام العالم ، وكان هذا هو ماأعتزمه ايدن دائما ، حتى وعندما أصبح من الواضح عدم اجراء مناقشة فورية فى هذا الموضوع فى حالة تنفيذ الخطة الاصلية ، وكان ايدن يرى فى هذا الاستنكار العلنى ، بالاضــــافة الى مختلف الظروف الأخرى ، الوسيلة لدفع الشكوك عنـــه وعن زملائه ، فستكون هناك قوات اسرائيلية تحارب فى منطقة القناة أو على مقربة منها ، وستقوم بريطانيا بتوجيه نقد علنى شديد الى العمل الاسرائيلى وسيقدم بعد ذلك انذار موجه الى الفريقين المتحاربين ٠

واذا ماجرؤ انسان على التساؤل عن الأسباب التى دعت بريطانيا وفرنسا الى المطالبة فى انذارهما بانسحاب القوات الاسرائيلية مســـافة عشرة أميال فقط عن القناة ، لابانسحابها الى ماوراء حدودها الاصلية فسيكون رد ايدن : أن النقطة المهمة الآن هى ضمان ابتعـــاد الفريقين المتحاربين عن القناة حرصا على سلامتها وضمان وقف الحرب بينهما وان حكومته والحكومة الفرنسية قد طلبتا هذا الاجراء حرصا منهما على ضمان قبوله من الفريقين ، وسيعمل استنكار بريطانيا العلنى لهجوم اسرائيل على الابقاء على «سلطة» بريطانيا ونفوذها فى عراق نورى الســعيد وفى العالم العربى على النحو الذى سيكون فيه بعد الاطاحة بعبد الناصر ، وفى وسع الدبلوماسية البريطانية فى المفاوضات التـــالية لعقد الصلح فى فلسطين أن تبعد مطالب الصهيونية عن مجالات النقد العلنى ٠

وقد ركزت كل التركيز على بحث هذه الناحية ، لأنى أراها كبيرة الأهمية فى الخطط التى وضعها ايدن ، ولان من المهم أن نلاحظ هنا بأن الخطة الاصلية كانت فى منتهى الذكاء والدهاء ، فلم تكن على النحو الذى ظهرت فيه فيما بعد ، صبيانية وحمقاء ومضحكة ، ولم تكن حكمة ايدن الدبلوماسية قد تعرضت بعد عند وضع الخطة الأصلية للتعطل والتوقيف وقد وافق المقربون من أعضاء وزارته على الخطة الأصلية ، على الرغم من أنهم لم يكونوا متحمسين للعمل من أساسه كحماسته هو ، لانها - أى الخطة - بدت أمامهم سليمة من الناحية السياسية ، بعيدة عن كل شكوك عامة ، ومن المتعذر علينا أن نحلل قضية السويس ، الا اذا وضعنا نصب أعيننا أن حكومة ايدن لم تكن مؤلفة من رجـــال ذوى ادراك وتفـــكير صبيانيين ٠

ولكن ايدن مالبث أن استسلم الآن ، أى فى الثـلاثين من اكتوبر لهذه الحجج الفرنسية الطاغية الأولى ، وحملت أسلاك البرق الى الســـير بيرسون ديكسون أوامر حكومته باستعمال «الفيتو» ضد مشروع القرار الامريكى ، ولم يكن هذا الاستسلام ٠ الا الأول من حلقة كبيرة من الاذعان وعلائم الاستسلام ٠ وكان الثانى تلبية لطلب فرنسا بأن تقوم الدولتان بالعمل فـــورا ، دون انتظار مهلة الايام القليلة التى كانت مقـــررة فى الســـابق ، فلقد أسرعت اسرائيل فى تخطى الحاجز ، وســـبقت الخطة الاصلية ببضـــــعة أيام ، وهاهو ذا ايزنهـــاور يثور ويبادر الى العمل فورا ، وهاهى ذى الأمم المتحدة تتداعى الى الاجتماع ، ولن تمضى بضع ساعات قبل أن تجتمع الأمم المتحدة ، وسيصبح من المتعذر فى غضون يوم أو يومين القيام بالعمل الوحيد وهو التدخل الانكليزى - الفرنسى للاطاحة بعبد الناصر ، ولذا بات لزاما الاسراع بالعملية كلها ٠ ومن الواجب صدور الانذار فورا ، وفى هذا اليوم ، ولا تستطيع فرنسا الاحتفـــاظ بكافة الأسرار السابقة ، اذا انهارت المغامرة كلها ، وقال موليه لايدن ، ان الجيش الفرنسى نفسه هو الذى سيتولى افشاء الاسرار ، وراح يسأله كيف يمكن له أن يبرر هو وبينو للجيش الفرنسى ولفرنسا كلها ، العدول عن الحملة كلها ووقف استعداداتها مع الابقاء على عبد الناصر فى الحكم ؟ ان مصير فرنسا كلها معلق بالقاهرة ٠

واستسلم ايدن ثانية ، وهو يدنو من الانهيار الكامل أمام هذه الحجج الملحفة من جانب موليه ، وتقرر اصدار الانذار المشترك فورا .. وأصر الفرنسيون على أن الخطة الأصلية مازالت صالحة للعمل . وراحوا يقولون لايدن ان التقارير التى تلقوها من سيناء تشير الى أن زحف اسرائيل فيها أسرع مما كان متوقعا . وأكدوا له أن قوات اسرائيل أصبحت على ابواب القناة ، وهو ماراح يسر به الى اعضاء مجلس العموم فى جلسة اليوم نفسه ، وأن الوضع الذى كانوا يريدونه فى خطتهم الاصلية ، سيتحقق فى غضون ساعات . ولم تتوافر لايدن معلومات مباشرة عن معركة سيناء . فلقد كان الفرنسيون هم الذين ظلوا طيلة الوقت على اتصال وثيق باسرائيل . (١) وقبل ايدن الصورة التى رسمها له الفرنسيون ، وأعتقد أن الانذار فى صيغته الاصلية التى وضع فيها مازال صالحا للعمل . ورأى ان فى وسع اسرائيل أن تحتفظ بسيناء ، وأن فى وسعه أن يستخدم احتلالها لها وسيلة للضغط ، لتقرير مصير قناة السويس ولاقرار الصلح فى مشكلة فلسطين على النحو الذى كان هو ونورى السعيد قد اتفقا على وضعه والدعوة اليه . أما الفرنسيون فكانوا بدورهم عازمين على أن تحتفظ اسرائيل بسيناء ، وأن يسترضوا بن جوريون الذى لابد وأن يغضب لما يظنه من خديعة تعرض لها من جراء تدخل الدولتين الحليفتين قبل الموعد المقرر

وحاول الفرنسيون أخيرا فى ذلك اليوم ، الثلاثين من أكتوبر ، اقناع ايدن بالتخلى ، عن فكرة العملية على مراحل دقيقة ، وأن يوافق على غزو مصر فورا عند انتهاء فترة الانذار ، على أساس افتراض رفض مصر لشروطه ولكن ايدن ظل مترددا فى الاستجابة لهذا الاقتراح . ولم يكن فى الامكان الوصول الى اتفاق فى هذا الصدد فى ذلك اليوم ، الذى صدر فيه الانذار المشترك . ولم يذعن السير أنطونى لرغبة حلفائه الفرنسيين والحاحهم المتواصل الا بعد مدة ، وبعد أن كان الضجيج قد علا فى كل من لندن والجانب الثانى من المحيط الأطلسى وبات النزول البرمائى ، عملا يقرب من الكارثة . وانهار ايدن انهيارا محزنا وكاملا أمام هذا الجهد المرعب الاخير وامتدت روح الثورة الآن الى معظم أعضاء وزارته وكان بين هؤلاء عدد من الوزراء الذين كانوا قد أيدوه تأييدا حماسيا فى الاشهر السابقة ، ولكنهم وقد رأوا الآن مكانة بريطانيا المالية على وشك الانهيار تحت هذا الضغط الهائل على الجنيه الاسترلينى ، أخذوا يهددون ايدن بالاستقالة الا اذا أذعن لقراراتهم الجديدة . وقد اغفلت العروض التصويرية المطبوعة الحديث حتى الآن ، عن الطريقة التى انتهت فيها قصة السويس داخل

---

(١) اعترف المستر هيد وزير دفاع بريطانيا بذلك فى مجلس العموم فى الواحد والثلاثين من اكتوبر عندما قال : « ليست لدينا معلومات مباشرة عن العمليات الحربية بين مصر واسرائيل » . ولا أرى بى حاجة الى القول ، بأن أيا من الوزراء ، لم يشر فى أى لحظة . فى تلك الايام الى قيام طائرات الكاميرا بأعمال التصوير الاستكشافى ، لأسباب لاتخفى على القارىء اللبيب .

– المؤلف –

داوننج ستريت رقم ١٠ عندما قررت الحكومة البريطانية الاذعان أخيرا للأمم المتحدة .

ويعرض الاخوان برومبرجر هذه الفقرة التى لا تكاد تصدق فى كتابهما المشحون بالأخطاء ..

« وقبيل صدور الأمر النهائى بوقف اطلاق النار ، اقترح الفرنسيون القيام بهجوم آخر لاحتلال القناة قبل انتهاء المهلة المقررة فى الأمر ... وهتف رئيس وزراء بريطانيا قائلا .. « آه اذن هذا ماتريدونه . ليتقدم أصدقاؤكم على طول القناة . وفى مثل هذه الحالة نستطيع أن نقصف كلا من الاسرائيليين والمصريين معا بقذائف مدافعنا .

ولم أحاول فى هذا التحقيق أن أعنى بالقضايا التى تختلف عليها الاحزاب فى بريطانيا أو الشخصيات داخل حزب المحافظين ، كما أنى لاأود أن أخوض فى مثل هذه التفاصيل ، فى قصتى هذه . ولكن من المسموح به فى رأيى أن أدون هنا أن هذه الصورة التى رسمها الاخوان برومبرجر على الرغم من عدم اتفاقها فى أى شكل من الأشكال مع الصورة العامة التى رسمت لايدن قبل أزمة السويس الا أنها تتفق فعلا مع صورته بعدها ، الممثلة فى شخص رئيس وزراء محطم صحيا يحاول أن يمسك حتى النهاية بأية وسيلة يعيد سياسة بلاده التقليدية تجاه اسرائيل ، الى سابق عهدها وهو عهد لم يكن هو راغبا شخصيا فى تحطيمه ، ولم يفكر فى يوم ما بأن اتفاقاته السرية ستحطمه . وقد حاولت الحكومة البريطانية بالفعل كل ما فى وسعها أن تعيد هذا العهد الى ما كان عليه، ولهذا لم تعترض بريطانيا على قرار الأمم المتحدة الذى يطلب سحب اسرائيل لقواتها سحبا كاملا . وان كانت فرنسا قد اعترضت عليه .

وهكذا تنتهى القصة . لقد كان هناك تواطؤ . ولكن أحسن وصف يمكن اطلاقه على هذا التواطؤ ، هو أنه انقلب فى اللحظات الحرجة الأخيرة الى تواطؤ مزدوج وفردى من جانب فرنسا ، وهى الشريكة الوحيدة التى لا تحمل أية تحفظات أو أية شكوك تجاه ظهورها بمظهر الاتصال مع اسرائيل والدولة التى تقع حكومتها المدنية تحت وطأة ضغط عنيف من جانب جيشها نفسه . ولم يكن ايدن وبن جوريون قد توقعا فى أى يوم مضى ، أن تتلاحم العمليتان العسكريتان بمثل هذا الوثوق ، ومثل هذه الادانة لكليهما . وكانت فرنسا هى العامل الأخير فى تحقيق هذا الالتحام . لكنها قصة لم يجرؤ ولا يجرؤ حتى الآن ايدن ولا أى من وزرائه على روايتها . وقد تعمد ايدن عند كتابته مذكراته ، التقليل من الاشارة الى فرنسا ودورها فى أزمة السويس قدر الامكان . فليس ثمة من ذكر لمساعدة فرنسا الفعلية لاسرائيل فى معركة سيناء ، وليس ثمة أكثر من مجرد ايماءات عابرة عن طريق تعبيرات لفظية غامضة ، كقوله يصف المحادثات العميقة التى جرت بينه وبين الفرنسيين حول موضوع خطر الهجوم الاسرائيلى على مصر ، بأنهم « أحاطوا » علما بهذا الخطر . ويبدو أن الفرنسيين قد غضبوا غضبا شديدا بعد انتهاء العملية ، لما صدر عن الوزراء البريطانيين من تعليقات على دور فرنسا .

وأفضى موريس شومان بعد أن بدأت الضجة الهائلة فى موضـــوع التواطؤ ، بتصريح أشار فيه ، وهو العارف ببواطن الأمور ، اشارة زمنية غامضة اعتبرت آنذاك رامزة الى وقت أبكر من نهاية أكتوبر اذ قال :

«أيجوز لنا أن نعنف الحكومة الفرنسية لانها وافقت على تلاحم عسكرى قوى دون أن تصر فى الوقت نفسه على تلاحم سياسى مماثل ، يضمن عـدم انسحاب أى من الدولتين من العملية دون موافقة الدولة الأخرى ؟ ان الرد على هذا السؤال يكون بالايجاب ، هذا اذا لم تجد فرنسا نفسها مضطرة للتغلب على تردد بريطانيا والقيود التى فرضتها » ٠

وأرى الوقوف هنا ، فهذا الكتاب لا يتنـاول الديموقراطية البرلمانية البريطانية ، ولذا ، فهو ليس بالمكان الصالح للتعليق الشامل على المعـانى العميقة لهذه الحرب الثلاثية فى تاريخ تلك الديموقراطية وتركيبهـــا ٠ ولا ريب فى أن آلاف القراء من ذوى النية البريئة السليمة قد قبلوا التاريخ الذى وضعه السير أنطونى ايدن عن حرب السويس سواء فى مذكراته التى أصدرها ككتاب أو فى مذكراته التى نشرها فى الصحف كأجزاء ٠ فقـــد سبق الاعلان عنها بدعاية ضخمة أضفت عليها صورة الصحة والصـــدق ، وأفلحت الطبول التى قرعت فى تحقيق غايتها ٠ وصدرت أقوال عن مراجع رسمية مسئولة تقول ان المذكرات قد سـجلت الحقـائق ، والوقائع التى حدثت فعلا » (١) ! وقد نسى الناس فى بريطانيا الآن الا قلة قليلة قضية « السويس » ورفض المسئولون كل ماقدم من طلبات لاجراء تحقيق رسمى وساعدت الانتخابات العامة التى جرت فى عام ١٩٥٩ ، هؤلاء المسئولين فى رفضهم (لأنها أسفرت عن نجاح المسئولين عن «السويس ») ، ومازال أى فرد عاجزا حتى الآن عن عمل أى شىء لمواجهة هذا الرفض ٠ وضاعت أرواح بريطانية كثيرة ، وتحطمت حقبة كاملة من حقب الدبلوماســـية البريطانية ، وبلغت تكاليف العملية أكثر من مائتين وخمسين مليونا من الجنيهـات ٠ وانى لارى من واجبى دون التحيز الى أى رأى من الآراء ، أن أقول بأن ما وقع سيظل مصدرا ضخما من مصادر القلق ، والافتقار الى راحة الضمير ، لا سيما وقد أذيع عمـا وقع ، بعض الأسرار ، ولم يدفع ما أذيع الناس الى كشف الحقائق الكاملة ، التى ترك أمر كشفها الى ضمائر المخلصين من خلصاء السير انطونى وزملائه ٠ ولا يمكن للانسان أن يبعد عن نفسه الشعور بأن النسيج الدائر والمستمر للحياة البرلمانية البريطانية يتضمن خيوطا من الاكاذيب ونواحى الوهن والضعف حيكت فيه حياكة غير محكمة وقد يختفى العيب عن عيون الناس شهرا بعد شهر أو عاما بعد عام ، ولكنه مازال قائما ٠

وقد لا تشكل العيوب السابقة فى الجهاز الديموقراطى أى خطر مقبل الا على صعيد بقـاء المواطنين جهـلاء لا يعرفون عن وجودها ، ولا يتعظون بعبرها ولا بما يجب أن يتعلموه منها من دروس يتطلبها الوعى والحرص فى المستقبل ٠ وعلى هذا الصعيد وحده ، هذا اذا أغفلنا الآثار الدائمـــة

(١) صحيفة التايمز اللندنية ٠

التى تركتها حرب الســـويس خارج بريطانيا ، سيظل ماوقع عام ١٩٥٦ خطرا كامنا ، طالما انه يحتاج الى الايضاح والشرح ٠

***

ان ما حدث فى مصر فى غضون هذه الأيام المجنونة ، يحسر النقاب فى حد ذاته ، عن الجهل الفاضح الذى سيطر على حكومة ايدن وعلى الذين يتولون تقدير المواقف لها ، بحقائق الأوضاع فى الشرق الأوسط ٠ ولما كانت حقيقة مادار من قتال فى سيناء مازالت مجهـــولة الى حد كبير ، فسأتولى الحديث عنها فى الفصل التالى ٠ لكن ما أود قوله هنا أنه لم يكن هناك « انتصار اسرائيلى ساحق » كما حاولت الدعايات تصويره ، بل كان هناك انسحاب كامل من سيناء ، تم بأمر صريح من القاهرة ، فور قيام طائرات السلاح الجوى البريطانى بقصف المطارات المصرية ٠ ولم تشـترك الدول العربية فى الحرب ، لأن الحكومة المصرية طلبت اليهم التريث حتى تحين الفرصة المواتية ، التى لم تحن قط ٠

وحلقت الطائرات البريطانية فى سماء مصر ٠ وهـدرت وزمجرت ، وألقت بالألوف من المنشورات تحض الشعب على الثورة على عبد الناصر ، وتحذره من تصديق عبد الناصر ، ولكن الثورة التى توقعوها لم تقع ، وانما وقف الزعيم المصرى يوجه رسالة الى شعبه بصـــوته الرنان ، وهو يردد القول المأثور ٠

« ســـنقاتل فى كل معـركة من قرية الى قرية ومن مكان الى مكان ، ليكن كل فرد منكم جنديا فى القوات المسلحة ٠٠ وليكن شـــعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم ٠٠٠ سنقاتل ٠٠ سنقاتل ولن نسلم »

وأعلن الزعيم المصرى أنه سيظل مع حكومته فى القاهرة ٠ ثم راح يسير فى شوارع العاصمة ، فى سيارة مكشوفة ليؤدى الصلاة فى أحـــد مساجد المدينة (الأزهر الشريف) ٠ وأمر بتوزيع ألوف البنادق على نفس المواطنين المدنيين الذين أغرقتهم المنشورات الانكليزية ــ الفرنســية ، والذين أمطرتهم الدعايات الاذاعية بوابل من منشوراتها، طالبة اليهم الثورة عليه ، وصدرت الأوامر الى الجنود المنسحبين من سيناء ، بالعودة الى قراهم وأعدت العدة لحرب من أعنف حروب الفدائيين وأكثرهـــا دماء ، ليخوض الشعب المصرى غمـارها ضد الغزاة فى حالة اسـتمرار الغزو ، ولم يكن ثمة هلع أو ذعر ٠ وأثبتت فرق مكافحة الغارات الجوية من رجال الدفـاع السلبى كفايتها وحسن تدريبها ، وهرع الشبان والشـيوخ الذين يمثلون مختلف نواحى الحياة المصرية الى مراكز التطوع والتدريب فى الميادين العامة ليتسلموا بنادقهم ويتدربوا عليهـــا ٠ وعومل الأحد عشر ألفا من الرعايا البريطانيين فى مصر ، الذين أعرب ايدن فى مجلس العموم ، عن تخوفه من مصيرهم ، دون أن يكلف نفسه عناء الايعاز لسفارته فى القاهرة بتحذيرهم قبل البدء بعدوانه ، معاملة تنطوى على الطيبة وضـــبط النفس ، وأغلقت مصر قناة السويس ، واحتفظ عبد الناصر بقوته الجوية فى مواقعهــــا الأرضية ، قائلا لطياريها المتلهفين لخوض المعركة أنهم أعز عليه ، وأثمن

من أن يضحى بهم فى معركة جوية غير متكافئة وضد قوات هائلة تفوقهم عددا وكما .

وهكذا وجدنا ساسة الغرب ، مندفعين وراء نتيجة مغايرة لما وقع فعلا يتوخون الوصول اليها ، يضعون مصر للمرة الثانية ، فى غضون أشهر قليلة ، أمام المحك والتجربة . تجربة للكرامة ، عند رجال ، كان ايدن وأضرابه عاجزين عن فهمهم ، ولم يكونوا يتوقعونها من مصريين أو عرب ، لأنهم من جبلة تختلف عن جبلة الذين عرفوهم فى الماضى من الباشوات والشيوخ . وكانت اللحظة غريبة كل الغرابة فى تاريخ العلاقات بين الغرب والعرب . ففى نوادى بريطانيا ومواخيرها ، كان البريطانيون الذين أفلح ايدن وسلوين لويد فى اثارتهم وتحريضهم ، يغرقون فى الحديث عن هؤلاء « المصريين » و « الدهماء » و « الأهالى » وغير ذلك من العبارات التى تنطوى على الزراية والامتهان التى الفوا توجيهها عندما يقرعون « أجراس » فندق شبرد لاستدعاء الخدم . لكن هؤلاء «المصريين » « والدهماء » و « الأهالى » كانوا يقفون منتصبى القامات رافعى الهامات يدافعون عن كرامتهم ووطنهم وقال لى أحد المصريين .. « لقد حملت على عبد الناصر فى وقت مبكر من هذا العام . أما الآن . فانى نادم . لقد ثبت أنه كان على حق . واننى لأحس بشعور غريب كل الغرابة ، ولاول مرة فى حياتى . أننى أحس بأن فى وسعى أن أرفع الآن رأسى أمام أى شخص من أمثال ايدن وموليه ودالاس وحتى بولجانين ، على الرغم من مساعدته لنا » . وتوقف لحظه يبحث عن عبارة يود أن يوضح بها ما يريد قوله .. ثم قال .. « وحتى الآن لم أكن فخورا بنفسى وشعبى ، ولكننى الآن فخور » .

ولم يكن هذا الاحساس خاصا بمصر أو ماجاورها ، بل كان شعورا ساد الشرق الأوسط برمته . ولم تكن « كسرة » سيناء بالشىء الذى يعلق الشعب عليه كبير أهمية ، ولكن ما همه أكثر من أى شىء آخر ، هو ان هذا الزعيم « وهذا الشعب » ، وقفا صامدين أمام هذه القنابل التى تقذفها طائرات دولتين كبيرتين ، مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ولم يكن فى وسع انسان أن يتوقع أن « تنتصر » مصر عسكريا على القوة المشتركة لدول ثلاث هى بريطانيا وفرنسا واسرائيل . ولكن كان هناك نصر من نوع آخر نصر طالما كان العرب فى حاجة اليه ، وطالما استهوى نفوسهم فى كل مكان أكثر من انتصار السلاح ، وهو نصر الكرامة . ومن هنا يظهر المعنى العظيم للشعار الذى رفعه الشعب العربى بعد انتهاء معركه السويس والذى تغنى به وهو « انتصار بور سعيد » ، ولم يؤد الافتقار الظاهرى للوحدة العسكرية بين العرب انتصارا لمصر عند العرب الى نفس الاستنتاجات التى توصل اليها الغربيون بسرعة فائقة . وصدق العرب فى كل مكان ماقاله لهم الرئيس عبد الناصر ، من أنه هو الذى اعتذر عن قبول عروض المساعدة من بعض الدول العربيه بينما كانت الشكوك تغلى وتتقد فى صدور بعض العرب الآخرين ، عاكسة المسئولية فى ذلك على العهود القديمة وفى طليعتها عهد نورى السعيد فى العراق ، الذى كاد ينهار آنذاك .

ومع هذا الاحباط الكلى لآمال الرسميين الانكليز والفرنسيين فى حوادث مصر التى أثبتت عكس ماتوقعوه عجز الغرب كل العجز عن هضم ماعناه « نصر » بور سعيد للعرب ، مما أشار الى الهوة الضخمة من سوء الفهم التى تقوم بين الغرب والعرب . وكنت أقف ذات يوم من أيام أواخر يناير عام ١٩٥٧ ، عند ناصية أحد الشوارع الرئيسية فى القاهرة ، وقد حملت نسخة من احدى صحف لندن كانت صادرة قبل أربعة أيام فقط وقد تضمنت نبأ قالت انها استقته من أحد المصادر العليمة ، يقول ان عبد الناصر يعيش فى « خوف دائم من قيام ثورة شعبية عليه » وفى نفس اللحظة التى كنت أحمل فيها الصحيفة التى نشرت هذا النبأ تحت عنوان بارز ، مر « الرجل الذى يعيش فى هذا الخوف الدائم » أمامى فى سيارته المكشوفة وسط جماهير غفيرة من الناس ، وقفت لتراه وتهتف له ، لا لتثور عليه . ولم يقتصر مروره على شارع واحد من شوارع المدينة أو جزء من شارع ، اذ سار موكبه يذرع القاهرة طولا وعرضا .

***

قد يكون من اللازم اللازب ، أن نوضح بدقة ، حقيقة ماحدث فى سيناء والسويس . لقد قامت حكومة بريطانية تمثل حزب المحافظين بعدوان متعمد وضعت له الخطط المحكمة ، متعمدة تعمدا كليا ، ومدروسا ، تضليل مواطنيها وبرلمانها ، ودول جامعة شعوبها ، وحلفائها فى حلف الأطلسى ، وأعضاء الأمم المتحدة . وقد وضعت خططها متظاهرة بأنها تهدف الى انقاذ الممر المائى العظيم ، مع علمها الثابت الأكيد ، بأن عدوانها سيغلق هذا الممر فى وجه الملاحة الدولية عدة أشهر ومستغلة معرفتها المسبقة الواضحة بالعدوان الذى تعتزم دولة أخرى القيام به وهى اسرائيل ، وزاعمة أن كل ما تفعله انما يرمى الى رفع لواء القانون الدولى ، وسيادة الأخلاق ، وأنه يتفق كل الاتفاق مع شرعة الأمم المتحدة .

ولما كانت كل هذه الادعاءات قد لامست حالة من الانفعال والتشنج عند الرأى العام البريطانى ، فان العقيدة التى ما زالت سائدة عند الكثيرين هى أن كل ما وقع من خطأ فى معالجة قضية السويس انما نجم عن خطة « غير محكمة » الاعداد ليس الا . ومن المعقول أن يكون هذا الشعور بتحميل مسئولية ماوقع لمجرد «عدم احكام» الخطة ، هو الذى أنقذ حزب المحافظين من الفشل فى الانتخابات ، بالاضافة الى هذا « الكابوس » من المرارة والعداء الذى يسيطر على هذا الرأى العام تجاه ذلك « الرجل » ، الذى تقررت الاطاحة به ، ولكنه صمد وظل قائما .

وأرى لزاما على أن أؤكد هنا بكل ما فى التأكيد من شدة ، انه لم تكن هناك فرصة ، ولا للحظة واحدة ، فى تحقيق أهداف حكومة ايدن . ولو افترضنا جدلا أن العدوان قد استمر ، وأن الانكليز قد استولوا على القاهرة ، وأسروا عبد الناصر أو قضوا عليه أو ابعدوه ، فان أهداف ايدن ماكانت لتتحقق أبدا . اذ أنى على يقين من أنه حتى ولو صحت هذه الافتراضات ، فان روح المقاومة فى مصر كانت ستستمر ، وستقوم حرب عصابات مخيفة تدوم الى أمد غير محدود .

وأى نوع من الحكومات يا ترى كان فى الامكان ضمان قيامها لتخلف حكومة عبد الناصر ، ان ما عجز ايدن عن فهمه ، هو أنه لم يكن فى استطاعة أية قوة سياسية فى مصر فى عام ١٩٥٦ ، ان تقيم حكومة ثابتة مستقرة ، تعيش فى ظل قوى الاحتلال الأجنبى • ولو وجد من يؤلف هذه الحكومة وأنا أشك فى وجوده ، فان حكومته ما كانت لتعمر طويلا اذ سيطاح بهـا حتما • ولم يكن فى وسع أى من الزعماء السياسيين السابقين أن يشرع حتى فى فرض سيطرته على البلاد • وكل ما كان يمكن وقوعــه ، هو أن يقوى عود فلول الشيوعيين والاخوان المسلمين ، ليس الا •

ولو حدث هذا أيضا لتعرضت أرواح الرعايا البريطانيين والفرنسيين وممتلكاتهم للخطر ، اذ أن تلك الاصالة فى ضبط النفس وكبت العواطف من المصريين حكومة وشعبا ما كانت لتستمر مع وجود هذا العدوان الباغى وما يصاحبه من عنف ، الا اذا افترضنا أن المصريين من الملائكة ، لا سيما وأن وصول المحتلين الى القاهرة ، كان يعنى زوال حكومة عبد الناصر ، التى ضمنت من شعبها هذا الانضباط الرائع •

ولو حدث هذا أيضا ، واستمر الغزو ، فان النتيجة الحتمية ، هى أن يقــوم الوطن العــربى كله ، من المحيــط الى الخليج قومة رجـل واحد كمرجل يغلى بالعنف ، ليحطم كل رمز من رموز الســيطرة والنفوذ البريطانيين والفرنسيين فى هذه المنطقة ، وكان هــذا التحطيم سـيتخذ صورة «اضرب واهرب» ، لا سيما وقد دلت الأحداث التى وقعت ، على أن السير انطونى ايدن وجى دى موليه قد اقتربا فعلا من مرحلة اشعال النيران فى المنطقة كلها ، تاركين آثارا مرعبة لا يستطيع المرء تصويرها •

وكان ثمة تناقض غريب فى الطريقة التى اتبعت فى وقف الهجوم فقد أسدلت ستارا كثيفـــا من الغموض على بعض الدروس والعبر الكثيرة الأهمية • والتى كان من الواجب تعلمها بسرعة وبصورة كاملة ، لضرورتها لأى اعادة نظر للســياسات الغربيــة فى الوطن العــربى • وكان حــريا بالمستر دالاس • وبقيادة حزب المحافظين وبعض زعماء حزب العمال ، أن يتعلموا هذه الدروس وأن يعوها تمام الوعى • ولا يكفى أن ندين قضية السويس » بالخطأ وان نحكم على خططها بأنها كانت « غير محكمة » فلقد كان هناك خطأ أكبر بكثير من كل هذا ، يقبع خلف هذه المأساة ، ويمس بجريرته كل مصلحة ضخمة من المصالح التى يحتاج الغرب الى الحفاظ عليها فى الشرق الأوسط • (١) ولكن لما كانت كل هذه الاخطاء العميقة قد ظلت أسرارا لم تكشف كارثة السويس عنها ، ولما كان « الكابوس

---

(١) تبدو فى هذه الحملة وما يتبعها من عبارات طبيعة المؤلف ، فى صورتها الصحيحة • فهو غربى قبل كل شىء • واذا كان قد توخى الحقائق فى كتابه هذا الى حد كبير ، فالدافع له على توخيها هو حرصه ، على الحفاظ على ما للغرب من مصالح فى الوطن العربى ، شريطة ان يقوم هذا الحفاظ على أسس التفهم المتبادل والمتكافىء •

ـ المعرب ـ

الذى جثم على صدر ايدن ، مازال حيا ويجثم على صدر الكثيرين فى الغرب فان الغرب قد خسر الكثير ولا يزال يخسر • وضاعت العلاقات الغربية ـ العربية فى متاهات من سوء الفهم التلقائى الوضع والخلق • وهذا الكابوس القائم حتى الآن ، كغيره من الكوابيس العميقة الضخمة ، لا يرتفع بسهولة بعد أن يبدأ جثمه على صدور من يصابون به • وســـيظل الكثيرون من الغربيين طيلة السنوات القادمة ، يلفظون عبارة « عبد النـاصر » بطريقة تنطوى على الانحراف والخطأ اللفظى ، مع بقاء ما فى هذه العبـارة من معان بعيدة عن عوامل « الزمن » و « الواقع » • ولقد جعلت الاسباب العـامة لهذا الكابوس جزءا لا يتجزأ من قصتى هذه كلها • لكن أية دراسة دقيقة لطبيعته ، ستساعد الغرب ، على الرغم مما فيها من مرارة ، على تجنب كوابيس مماثلة نحملها عن الآخرين •

***

تلعب شخصية « القائد » دورا أكثر أهمية فى قضايا الســياسة الدولية ومشكلاتها من النحو الذى نود نحن أن نؤمن به فى دولنا الديمقراطية ونحن ندون هذه الملاحظة تبعا لما نبديه من اهتمام بالمذكرات التى وضعهـا « رجالنا العظام » عن أيام الحروب ، وفى أوضاع لا نود أن تسود عندنا فى أيام السلم أو فى الايام التى تسبق الحروب • ونحن نفترض أيضـا أن الشخصيات الذاتية لرؤساء وزاراتنا أو رؤساء جمهورياتنا لا تستطيع أن تؤثر تأثيرا خطيرا على تمثيلهم لنا ولآمالنا ومخاوفنا وطرائق حياتنا ، وسياساتنا الخارجية التى نود من قادتنا أن يعرضوها • ولكننا نسارع رغم ذلك الى الافتراض بأن الشخصية الذاتية للقائد الوطنى الذى نتهمـه « بالفردية » هى التى تقرر طريقة تعاملنا معه • ولقد وقع جيل الساسـة الذين تولوا قيادة مصائرنا فى حقبة الخمسين فرائس لهذا الافتراض الخاطىء فلقد كانوا يشعرون بالنسبة الى سياساتهم فى الشرق الاوسط ، أنهم انما يعاملون « عبد النــاصر » عاجزين تبعا لذلك عجزا مضاعفا عن تفهم الشعب الذى نبع منه « عبـد الناصر » والمحيط الذى دفعه والتراث التاريخى الذى حركه • ولعل هذه الهوة فى النظرة الى الشخصية قد سارت فى خط متواز مع الهوة فى تقرير السياسات التى توســعت مع مضى السنوات التى سبقت ظهور عبد الناصر ، وهى جديرة بملاحظتنا وتدويننا •

فعبد الناصر ، لم يكن قديسا من القديسين كما أنه لم يكن ولن يكون انسانا متعطشا للدماء كما حاولوا تصـــويره • هذه حقيقة واقعة يجب أن نسجلها • فلقد رفض عندما كان الزعيم المنتخب لحركة الضباط الاحرار ، القيام بانقلاب على العهد فى عام ١٩٥٢ ، تسفك فيه دماء فاروق ورجال عهده ، ولذا كانت الثورة التى تولى قيادها ثورة بيضاء • ولقـــد ظل طيلة حكمه رجلا يكره الدم ، ويعارض سفكه • وروى لى قصة رآهـا فى شبابه جعلته يكره كل أمر دموى ، وذلك عندما ســألته ذات يوم عن السبب الذى يمنعه من قتل نورى السعيد •• ثم قال •• « لقد كان فى مكنتنا دائما أن نقتل نورى ، ولكننى ضد الاغتيال ولا أوافق على هـــذا الطراز من العمل مطلقـــا • ثم ما جدوى قتل رجل فرد ، اذا كان نظامه سيبقى ؟ » •

ولكن هذه « النزعة السلامية المتأصلة فى نفس عبد الناصر » ، على حد تعبير صحفى بريطانى موضوعى كتب عنه (١) لا تنعكس فيما يعرفه الغرب عنه ، على ضوء ما ينقل اليه من ترجمة مشوهة لأقواله • وهويرى فى هذا الرجل الهادىء الحديث الذى تمتزج ابتساماته بصلابته ، والذى قابله المئات من ساسة الغرب ومبعوثيه وصحفييه فى سنوات الأزمات صورة واحدة ظاهرة تخفى الصورة الحقيقية ، وليس هذا الرأى فى الواقع الا التعبير عن الموقف العام الذى يقفه الغرب من كل زعيم قومى • يقف مصارعا له • أما الجانب الثانى من الصورة ، فيعكس ما يراه العرب فى شخص ايدن ، وهو رأى اذا تحرينا الموضوعية ، يتمثل فى شخصية الرجل الهادىء الذى تظهر فيه رقة أبناء المدينة ، والذى يقدم فى نفس اللحظة التى يتحدث فيها الى هذا الزعيم الوطنى ــ أى عبد الناصر ــ متقربا اليه ، على محاولة طعنه فى ظهره بالدعوة لحلف بغداد وزعامة نورى السعيد فيصدق فيه وصفهم لأمثاله بالرجل ذى الوجهين •

ولكن المفارقة بين طبيعة عبد الناصر السلامية الاصيلة وبين مسلكه الظاهرى ولهجته تقوم فى سياق تعابيره • فهو انسان هادىء كل الهدوء ، ولكنه يثور لكرامته أشد الثورة ، وقد تجلت ثورته هذه فى غضبه الذى بلغ الأوج عندما تعرض للضغط الغربى الخارجى الذى جعلته موضوع هذا الكتاب «وللضغط الخارجى من الشرق كما حدث فى مستهل عام ١٩٥٩» فهو رجل يقف وسطا بين عالمين مصطرعين • نشأ فى الريف المصرى فاحتفظ بذلك الوعى المتقد ، الذى ألهبت مصر كلها من جراء ما تميز به الماضى من استغلال واذلال • وهذا الاتصال بجماهير الشعب من الفلاحين كان أكثر اصالة وأقوى غريزة عنده ، من اتصال نهرو مثلا ، الذى ولد فى طبقة أرستقراطية ثرية ، وقام اتصاله بجماهير القرويين فى بلده نتيجة الفكر والادراك ، والتماس العاطفى الذى نشأ أول مانشأ تحت تأثير غاندى • أما عبد الناصر ، الذى نما من وسط شعبه وفلاحيه ، ورفع التعليم من شأنه ، فقد ظل على وعى ، بأن انفصامه عن شعبه وماضيه • وان كان ممكنا لايستطيع أن يبعده عن قرارة عواطفه التى هى عين عواطف أولئك الفلاحين الذين لم يكونوا يجدون الطاقة على التعبير عنها ، وان ظلت أملا يتعلقون به . وظل عبد الناصر مفتقدا لذلك الحد من الانفصام عن العواطف التى تأصلت فى نفسه ، والذى نؤثر نحن فى الغرب تسميته « بالفراهة السياسية » • فلم يكن من أبناء تلك « الطبقة الوسطى » التى يستطيع أفرادها ، أن يقفوا بهدوء فى نوافذ وزارات الخارجية فى مدنهم ، وهم يرون عروض السد العالى تسحب بمثل تلك الصلافة ، وانما كان فردا متحررا من أبناء تلك الطبقة البائسة من « الفلاحين » الذى يشعرون شعورا عميقا ، بأن ليس من واجب مصر أن تتعرض لمثل هذا النوع من الضغط الأجنبى ويجب أن لا تتعرض له •

ولكن هذا الرجل الذى ارتفع الى المسئوليات الثورية والدبلوماسية

---

(١) يعنى توم لتيل مؤلف كتاب مصر • لندن ١٩٥٧ •

كان من عالم يختلف نفسانيا كل الاختلاف عن ذلك العالم الذى ينتمى اليه
أمثال ايدن ولويد وماكميلان وحتى دالاس ، وهم الذين ظلوا طيلة الوقت
يعتقدون بأنهم انما يتعاملون معه وحده • ولعل هذا السبب هو الذى
جعل من بعد النظر الذى تميز به بشكل خاص ، مبعوث أو مبعوثان من
ممثلى الغرب فى القاهرة ، أمرا لا يقدر بثمن للغرب الذى أضاعهما فى الفترة
المبكرة فى الصراع • فلقد كان هذان المبعوثان هما الوحيدان اللذان
يستطيعان أن ينفذا الى قلب هذا الضابط الشاب القادم من قرية « بنى
مر » وأن يفهما مزاجه النابض بالحيوية والاندفاع • وأول هذين المبعوثين
هو هنرى بايرود سفير الولايات المتحدة • الذى أدت به صراحته فى
الحديث عندما كان يقضى أجازته فى بلاده ، الى تعرضه لحملات دالاس
والكونجرس والصهيونيين الامريكيين الذين اتهموه بمحاولة « استرضاء »
عبد الناصر ، وسلبوا منه منذ مطلع عام ١٩٥٦ كل نفوذ وتأثير • وأما
المبعوث الثانى • فهو السفير الكندى اللامع نورمان الذى قضى وقتا قصيرا
بعد أفول نجم بايرود ، والذى بات فريسة بائسة لاضطهاد المكارثية
الظالمة التى هاجمته بعنف متهمة اياه بالانحرافات الشيوعية ، مما ضاق
به ذرعا فآثر الانتحار فى القاهرة فى ابريل عام ١٩٥٧ • وكان فى وسع
الدكتور محمود فوزى وزير خارجية مصر ، الدبلوماسى المصرى المحترف
والناشىء على الأساليب الغربية فى الدبلوماسية ، ان يبذل كل مافى وسعه
لسد الثغرة القائمة بين خريجى كلية « ايتون » من الساسة البريطانيين
ودالاس المتعلق بمثل طائفة «المتطهرين» « البيوريتان » وأخلاقهم من ناحية
وبين هؤلاء الشبان الخارجين من حصار « الفالوجة » من الناحية الاخرى
ولكن عند ما انهار الموقف ، أصبح من الأسهل على رجال من أمثال سلوين
لويد أن يتحدثوا الى القمر ويتفاهموا معه من أن يتحدثوا الى عبد الناصر
ويتفاهموا معه ، وكانت القفزة ويا للأسف مفاجئة من عصر الى عصر • فلقد
اختفت عبارة « الأهالى » من قاموس مصر ، واختفى معها استدعاء «الخادم»
فى فندق شبرد بمجرد لمسة سحرية من الجرس ، وأصبحت رسالة جورج
واشنطن الوداعية للمستعمرين الانكليز ، النور المهيمن على القارتين
الافريقية والآسيوية • لكن كل هذه المعانى التى عمت الآفاق كلها لم تصل
الى مسامع القابعين فى « داوننج ستريت » فى لندن وشارع بنسلفانيا
فى واشنطن (يعنى المسئولين الانكليز والامريكان) ، ولم يكونوا قد
أدركوها بالنسبة الى الوطن العربى •

ولم يكن العنف الذى بدا فيه عبد الناصر فى بعض مواقفه العامة
ناجما ، عن سورة عارضة من سورات الغضب ، أو من ضعف سيطرته
على القائمين بأمر دعايته من المتحمسين • وانما كان ناجما عن شىء أصيل
فى قرارة نفسه حمله معه من قرية « بنى مر » ، فلقد كان يعرف ما يتميز
به الفلاحون من قصور ذاتى وطاقة على الاستمرار فى الحركة • وكان يعرف
أن الوطن العربى لم يكن من القوة فى أى عنصر من عناصره ، بحيث يضمن
بصورة آلية فرض احترامه على ساسة الغرب واسرائيل • ولو لم يتلق
عبد الناصر ، تينك الصدمتين المترابطتين زمنيا من حلف بغداد وغارة غزه
لظل اتجاهه الاساسى قائما على التركيز على بعث متدرج للنهضة فى بلاده

وضمان قوتها عن طريق الاصلاح الداخلى والزيادة فى الانتاج . ولقد رأيناه فى منتصف عام ١٩٥٤ ، يصدر النداء تلو النداء الى شعبه معلنا أن الصراخ مهما علا لا يجدى فى ميدان القوى .. وأن تغيير الماضى لا يمكن أن يتم بجرة قلم واحدة . ولكن عبد الناصر ، رأى فى حلف بغداد وغارة غزه ، كما رأى غيره من القوميين العرب ، نذرا عاجلة ، بأن ايدن لم يكن يعنى ما يقول ، عندما أعرب عن أمله فى قيام « عهد جديد » بين البلدين أثر اتفاق الجلاء .

وهكذا فحماية البيت الذى نبنيه « على حد تعبير الرئيس عبد الناصر تتطلب استثارة المصدر الوحيد للقوة العربية وبعثه الى الحياة ، وهو الكرامة وهو مصدر ظل كامنا لا يجد من يبعثه ، وينفخ به فى روح الجماهير وارادتهم ، داعيا الى الوعى الجديد بين الفلاحين . ولقد قال لى الرئيس عبد الناصر ذات يوم .. « لا أدرى ان كنت قد حققت شيئا ، ولكننى آمل اننى نجحت فى أن أعيد لأبناء شعبى احساسهم بكرامتهم » .

لكن هذه المواقف التى كان عبد الناصر يقفها ، وهذه الروح التى ينفخها فى شعبه ، كانت تبدو فى عيون المسئولين الغربيين شيئا مناقضا كل التناقض للكرامة، وهنا يظهر من جديد هذا التناقض فى النظرة والفهم بين الفريقين وكما أن أى واحد من النواب البريطانيين الذين أطلق عليهم اسم « ثائرى السويس » لمعارضتهم حكومتهم فى الجلاء عن مصر ، لم يكن ليتأثر مطلقا من رؤية عبد الناصر ، يقف ودموع الفرح تنساب من عينيه على وجنتيه ، يرفع العلم المصرى على بور سعيد فى يونيو عام ١٩٥٦ ، بعد أن تحررت مصر نهائيا من جنود الاحتلال ، فان أى غربى كان يرى فى تحدى زعيم مصر للدول العظمى، أمرا زريا ، أجوف. فمن القواعد التقليدية العميقة الجذور فى « الفراهة السياسية » عند الغربيين ، أن لا تتبع أية حكومة سياسات لا تملك « السلطان » لفرضها ، وهم يعنون بالسلطان القوة العسكرية والانتاج الاقتصادى والمكانة الدولية المعترف بها . وكان الغربيون يعتقدون أن عبد الناصر لا يملك أيا من هذه العناصر الثلاثة للسلطان لدعمه . وكل ما يملكه فى رأيهم هو حماسة الجماهير والدهماء.

وبينما كان هذا الافتقار لعناصر السلطان التقليدى . يبدو للغرب شيئا زريا ، كان عبد الناصر ، يرى فيه دعوة صريحة الى استخدام وسائل أخرى للتعويض عنه . وسيطرت عليه بعد حلف بغداد وغارة غزه مشاعر من الخوف من دوام السيطرة الأجنبية فى وطنه ، الا اذا استفاقت الحركة العربية القومية ، ووحدت شعبا يغرق ثمانية أعشاره فى حالة من اليأس والقنوط ، وينشغل العشران الباقيان فى مناقشات جدلية سفسطائية ومطامع شخصية انتهازية . ورأى ان عامل الزمن ليس فى صالحه ، فهو لا يستطيع الاعتماد على اليقظة البطيئة المتدرجة عن طريق الاصلاح الداخلى فى ميدان الاقتصاد والاجتماع ، ولذا فقد قال : « لقد حاولنا جهدنا أن نتجنب معركة صريحة ، فقد كنا ندرك حاجتنا الى الوقت لكى نبنى بلادنا ولكن الاستعمار كان يرى غير ماكنا نراه » .

وكان هذا الوضع فريدا من نوعه فى سلسلة التجارب التى مر بها

الغرب مع الحركات القومية فى آسيا بعد الحرب العالمية الثانية . ويرجع السبب فى هذا التفرد الى عاملين أولهما ان الغرب لم يفرض مثل ما فرضه من ضغط هنا على أى جزء آخر من المنطقة الافريقية — الآسيوية ولم يقاوم التطور فيه كما قاومه هنا ، وثانيهما أن أية حركة قومية أخرى ، لم تجد نفسها معرضة كتعرض الحركة العربية ، لمثل هذا العدوان الفعلى ، أو حتى مكشوفة له . وكان عبد الناصر بعقلية المتخرج فى كلية أركان الحرب ، والمدرب عسكريا أحسن تدريب ، لايرى فى وطنه جزيرة ، أو شبه قارة متماسكة الاطراف ، ذاتية الاكتفاء واضحة الحدود الطبيعية. وكثيرا ما قال فى وصفها انها منطقة مكشوفة وهو يعنى بذلك أنها منطقة فسيحة الأرجاء ممتدة على أنحاء واسعة من الجيوب التى تفصلها الصحارى يسكنها شعب عربى واحد ، يتيح موقعها هذا للدول الغربية الكبرى فرصا مختلفة لا حد لها للعودة اليها اذا ما خرجت من الباب ، « من النوافذ الخلفية » . ومن هنا تنشأ ضرورة الحملات لليقظة والاستعداد لمقاومة أية مؤامرات جديدة .

ولم يكن عبد الناصر ، ذلك الرجل الماكر الذى رآه الغرب فيه ، فهو اذا ما استثنينا أهدافه ومثله العليا ، وما يضعه بمعونة مستشاريه من خطط التنمية الاقتصادية والتطوير الاجتماعى لبلاده ، لا يضع نصب عينه مشروعات طويلة المدى من النوع الذى يتصوره الغرب فيه . وقد صرفته الاحداث التى وقعت بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٩ الى محاولة تلطيفها أو الرد عليها ، فى سلسلة متلاحقة الحلقات من الاعمال . ولقد قال لى ذات مرة ... « ان منطقتنا غنية بالمفاجآت . ولن تتركنا الدول الكبرى وشأننا قط ، وهى لن تنسحب من منطقتنا نهائيا كما انسحبت بريطانيا من الهند. فكيف نستطيع أن نخطط لأنفسنا ؟ ان كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نرد على ما نواجهه » . ولقد أيد سجل الاحداث ما قال منذ حلف بغداد وغارة غزة حتى اليوم . فهو يخوض معركة دفاعية — هجومية متصلة الحلقات منذ ذلك الحين ترتكز على حركة غربية كبيرة أو اسرائيلية ، لا تلبث أن تهدأ ، ويشرع العرب فى التعلق بأهداب الامل فى أن « يتركوا هذه المرة وشأنهم » راكنين الى فترة من الاستجمام والراحة فى المعركة ليبدأوا «تطعيم الشعب ضد الخطر وتهيئته للغد»(١) حتى ينطلق انفجار غاضب آخر ، ضد حادث جديد ، وترتفع الصيحات عن وجود « مؤامرة » جديدة ، وعن شن حملة دعائية عنيفة أخرى . ولا تشير كل هذه الاحداث المتلاحقة الى تخطيط سابق من جانب عبد الناصر ، وانما تشير الى النقيض من ذلك ، وهو الرد على ما يحاك ضد بلاده .

وكان أمل عبد الناصر فى البداية ، أن يكون ايدن قد عنى حقيقة

---

(١) من مقال لسيادة الرئيس عبد الناصر فى مجلة «لايف» بتاريخ السابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٩ . وكان يشير الى حملته الاخيرة ضد الشيوعية رابطا بينها وبين حملاته ضد حلف بغداد ومشروع ايزنهاور .

— المؤلف —

ما قاله وهو قيام « عهد جديد » بين مصر وبريطانيا ، منطو على سلامة النية والاخلاص. أما فيما بعد، فقد استند فى الآمال التى كانت تعاوده بين الفينة والفينة ، الى تقديره المبنى على أساس التجارب ، لما اعتبره مصالح غربيه ، لا يستطيع أى سياسى غربى ، أن يفكر فى تعريضها للخطر . وعلى هذا الاساس وصف الانذار الانكليزى ـ الفرنسى المشترك والهجوم الذى تلاه بقوله :

« لقد أثبت ايدن انى كنت على خطأ .... فقد أقمت تقديرى للموقف على أساس وجهة نظره هو .... وكنت أناقش أنهم من وجهة نظرهم هم ، سيفقدون الكثير بل أكثر من الكثير » (١) .

ولا ريب فى أن هذه العبارة التى انطلق بها لسان عبد الناصر قد تضمنت من السخرية أكثر مما كان يتصور . ولكن المسئولية فى ذلك لا تقع على عاتق ايدن وزملائه وحدهم . فقد نمت فى الغرب قبل عدوان السويس وابانه وبعده حملة من سوء الاعلام التى شملت تقريبا كل وجه من وجوه الاتصال بين الشعوب ، وبانت وقائعها فى جميع الصحف والمجلات من الاكاديمية العلمية الى صحف التوزيع الجماهيرى الواسع. وقد تأثرت بهذه الحملة تأثرا مؤسفا كل الاسف مقاييس الدقة وتحرى المصادر وانتقاء العبارات التى نعتز بها فى الغرب أشد الاعتزاز ويبدو هذا واضحا عندما نعرض أوضاع صحافتنا ووسائل نشرنا . فلقد ظهرت فى انكلترا مثلا ابان أزمة السويس، نشرة رخيصة تافهة تؤكد أن مصر تحكمها زمرة من مقلدى الفاشية الموسولونية (٢) . وعلى الرغم من أن هذه النشرة كانت بقلم شخص كان يعتبر فيما مضى حجة فى شئون الشرق العربى ، الا أنها تضمنت أخطاء واقعية مذهلة للغاية ، كقولها ان عبد الناصر لم ينضم الى جماعة الضباط الاحرار الا بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥١ ، بينما تثبت الوقائع ان عبد الناصر هو مؤسس الجماعة فى مطلع حقبة الاربعين ، وحاولت النشرة أن تثبت أن القاهرة كانت تثير فى دعايتها المسلمين ضد المسيحين واستشهدت على قولها هذا بأقوال زعمت أنها اقتبستها من اذاعات القاهرة فى تواريخ اختلقتها . وكانت الصورة التى رسمتها النشرة من النوع المرعب الى الحد الذى يرغم الانسان على تحرى صحتها . وكان بين الخطباء المزعومين الذين اتهمتهم النشرة بالحملة على المسيحية الاستاذ عباس محمود العقاد ، الذى تبين أنه مؤلف سفر جليل عن حياة السيد المسيح ، أصدرته احدى دور النشر المشهورة . وزعمت النشرة أيضا أن خطيبا آخر هو سليمان حزين قد ذكر من اذاعة القاهرة أن «المسيحية عنصر غريب حتى على أوروبا » ، وقد تبين بعد قراءة نص الحديث الاذاعى ان ما قاله الدكتور حزين هو « ان المسيح كان ولا ريب رسول السلام والحب والتسامح».

وزعمت النشرة فى أماكن أخرى من مزاعمها الكثيرة ، وهى نشرة

---

(١) حديث صحفى مع ديزموند ستيوارت مؤلف كتاب « مصر الحديثة » ١٩٥٨ .

(٢) وولتر لاكير فى كتابه « مصر عبد الناصر » نيكولسون ١٩٥٦.

واحدة من مجموعة نشرات مماثلة ، أن اذاعة القاهرة بدأت فى عام ١٩٥٥ حملة « تمجيد لكل ما هو سوفياتى » . وادعت أن هذه الاذاعة قد أذاعت فى الحادى عشر من أكتوبر عام ١٩٥٥ ، ان « الديموقراطية الامريكية تتيح المجال للرأسمالية للتحكم فى البلاد ... وان الاتحاد السوفياتى هو البلد الذى تتمثل فيه الديموقراطية الصحية». وعندما قمت مرة ثانية بتحرى حقيقة ما أذاعته القاهرة فى ذلك اليوم تبين انها أذاعت ما يلى :

« ليس ثمة ما يدعو الولايات المتحدة الى التخوف من احتمال انتشار الشيوعية بين العرب عن طريق استخدام الاسلحة السوفياتية والقروض الروسية ، وذلك لان للعرب مبادىء ونظما وعقائد ، لا يمكن لهم أن يتخلوا عنها » .

وكانت هناك مصادر عدة لهذا التأييد المتعمد لهذه الافكار المسيطرة على الشرق الاوسط ذاته . وبذل المسئولون الاسرائيليون وأنصار الصهيونية والحانون عليها فى جميع أنحاء العالم ، كل ما لديهم من جهود، لبعث الفزع والهاب مشاعر الغرب ضد الزعيم المصرى الذى يمثل البعث العربى الجديد والوحدة العربية ، وهما أمران تشعر اسرائيل بحتمية التخوف منهما على حد اعتراف بن جوريون نفسه . وتمكنت صحيفة النيويورك تايمز من أن تنشر فى أواخر شهر أغسطس ، رسالة أنباء صحفية تلقتها من تل أبيب ، كأخبار واقعية لا مجرد تعليق ، تقول ان اسرائيل لم تعد تقف وحيدة ضد عبد الناصر وأحلامه التوسعية فى اقامة الامبراطورية » . ولا ريب فى أن هذا القول ، كان بمثابة دليل قوى كل القوة .

ونجد من الناحية الاخرى ، أن حكام العرب من رجال العهد القديم ، كانوا يؤكدون النظرية القائلة بأن عبد الناصر « شيوعى مقنع » وأنه على حد تعبير نورى السعيد « يود أن يتألق كزعيم للعرب كلهم وهذا هو خطؤه » (١) ، وكان الصحفيون الغربيون وقد ألفوا هؤلاء الحكام ، ونعتوهم بأنهم من مؤيدى الغرب لأنهم وقعوا أحلافهم معه ، يميلون الى تقبل ما يصدر عنهم من بيانات وتصريحات على اعتبار أنها حقائق واقعة لا تقبل الشك أو النقض . وبات الاجراء الطبيعى عند هؤلاء الصحفيين أن يصدقوا كل اتهام يوجه الى مصر فى أى موضوع يتعلق بمؤامرة لاغتيال أحد الناس ، على أنه حقيقة ثابتة ، وأن ينشروا هذا الاتهام تحت عناوين بارزة ، كما ينشرون نبأ طرد الدبلوماسى المصرى، الذى يوجه اليه رجال العهد القديم هذا الاتهام ، ثم يمتنعون بعد ذلك عن نشر أية أنباء لاحقة قد تتعلق بالموضوع ولا سيما اذا كانت تحمل طابع النفى للتهمة أو دحضها . أما اذا أعلنت القاهرة نبأ مؤامرة تحاك ضد مصر ، أو الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد ، فان هؤلاء الصحفيين المغرضين يصفون هذه التهمة بأنها « أكذوبة كبيرة » . وليس

---

(١) حديث نورى السعيد الى صحيفة الديلى تلفراف اللندنية عدد ٣٠ مارس ١٩٥٦ .

ثمة من ينكر أنه كانت هناك حلقات متصلة من التآمر والتجسس . يقوم
بها رجال العهد البائد ضد مصر وسورية والقوميين العرب . وليس
ثمة من ينكر أيضا أنه كان هناك تفاهم وتعاون بين الدباوماسيين المصريين
وبين القوميين العرب الذين يلقون الاضطهاد من حكوماتهم ، وكان هذا
يتم دون علم أحيانا من الرئيس عبد الناصر . وهكذا نشأت فى الغرب
حالة تشبه حالة « العسكر والحرامية » فلا خطأ فى رأيه يمكن أن ينجم
عن عهد مناوىء لعبد الناصر وموال للغرب ، ولا اتهامات كاذبة يمكن أن
تصدر عنه . وكانت الاتهامات التى يوجهها مثل هذا العهد ، تقبل على
علاتها ، وجملة وتفصيلا ، أما الاتهامات التى توجه الى هذا العهد نفسه
فلا تلقى تشجيعا ولا تنشر فى الغرب مطلقا ، الا اذا كان القصد من النشر
تكذيب القاهرة أو دمشق (١) .

وكانت هناك أيضا عملية غير عادية من الاطراء المستمر فى الصحافة
الغربية لعهد نورى السعيد . ولقد قيل مثلا لقراء صحيفة التايمز
اللندنية قبيل حرب سيناء والسويس ، ان « العراق يؤثر الازدهار
الاقتصادى على الفكرة القومية » . ومع ذلك فقد كان نورى السعيد
وايدن يعدان العدة فعلا فى تلك الآونة لاستيلاء العراق على الاردن
وضمه اليه . وأخذت الصحف الغربية بعد انتهاء حرب السويس تبرز
القصص الموحى بها من العراق ، بأن سورية توشك ان تصبح دولة
شيوعية تابعة . ومع ذلك ، كان نورى السعيد فى الوقت نفسه ينشط
فى اعداد العدة لانقلاب مسلح فى دمشق ، ويبعث بالاسلحة اللازمة الى
سورية لضمان نجاحه. وعندما أحبطت الحكومة السورية هذا الانقلاب،
وقدمت المتآمرين الى المحاكمة ، راحت بغداد تكيل التهم بأن المحاكمة
ليست الا صورة من « المحاكمات السوفياتية الصورية » ، وهى قصة
راحت الكثيرات من صحف الغرب تنشرها بدقة وأمانة . وبينما كان
المستر ماكميلان ونورى السعيد يتهمان الجمهورية العربية المتحدة علنا

---

(١) من أمثلة هذه المواقف التى وقفتها الصحف الغربية
الاتهامات التى ادعاها الملك حسين عن مؤامرة «ابريل» المزعومة فى عام
١٩٥٧ ، والتى سأتولى شرحها فى مكان لاحق . ومنها أيضا مزاعم المسيو
سوستيل المرتكزة على « اساءة الترجمة » من اللغة العربية ، والتى
ادعى فيها ان عبد الناصر يسيطر سيطرة مباشرة على الثورة الجزائرية
ويوجهها .

أما المثل الثالث فهو ما زعمه الملك حسين فى عام ١٩٥٨ من محاولة
الطائرات السورية النفاثة الاعتداء على طائرته . وقد اتهم الجمهورية
العربية المتحدة ، بأنها أعدت مؤامرة لاغتياله ، واحتل اتهامه الصفحات
الاولى من الصحف الغربية التى نشرته تحت عناوين بارزة . أما ما أبرق
به بعض المراسلين الغربيين الكثيرى النشاط من حقائق تفند هذا الاتهام
وتظهر بطلانه ، وبينها نفى وكالة الامم المتحدة لما ادعاه حسين من أنه طلب
الاذن بالطيران فوق أراضى الاقليم السورى عن طريقها ، فلم يلق أية
عناية من هذه الصحف .

ــ المؤلف ــ

فى يونيو عام ١٩٥٨ ، «بالعدوان غير المباشر» ، كانا يبحثان فى الوقت نفسه
موضوع غزو يقوم به العراق لسورية ، وهكذا طيلة هذه الفترة من
السنوات الطويلة كانت صحافة الغرب تمجد « حسنات القيادة الثابتة
المستقرة » فى العراق ، بينما كانت تصم أذنيها عن سماع ما يقوله أولئك
الذين كانوا يعرفون خير معرفة أن نورى السعيد انما يجلس على فوهة
بركان من الاقطاع سينفجر حتما مفجرا معه كل ما للغرب من مصالح
ومطيرا هذه المصالح وعهد نورى السعيد معها فى السماء .

وتظهر أية دراسة تشخيصية دقيقة لصحافة الغرب فى هذه
السنوات وحتى عند وضع هذا الكتاب ، صورة أخرى من هذه العملية
المشحونة بالضرر والأذى . فكثيرا ما تكون الصورة والتعليقات التى
يرسمها محررو بعض الصحف البارزة والمجلات الاسبوعية ومراسلوها
الدبلوماسيون مختلفة كل الاختلاف عن البرقيات التى يبعث بها مراسلو
هذه الصحف والمجلات فى الشرق الاوسط الى الدرجة التى يصعب
لحينها على القارىء أن يصدق بأن تلك التعليقات وهذه الرسائل تظهر
فى صحيفة واحدة . والسبب فى هذا التباين واضح كل الوضوح ،
وبسيط كل البساطة ، فمكاتب التحرير فى الصحف واقعة تحت تأثير
اعلامى معين ، رسمى أو غير رسمى ، ولهذا فهى لا تأخذ بعين الاعتبار
ما يرد اليها من مراسليها فى المنطقة من أنباء وصور تختلف عن الصورة
المرسومة لها فى الوطن ، وتعتبرها « غير صالحة » ، وتكون النتيجة
الثانية لهذا الوضع ، أن يتعرض المراسلون فى الشرق الاوسط لضغط
مستمر من ادارات صحفهم ، لاخفاء « لون معين » على ما يبعثون به
من برقيات . وكثيرا ما صبغت الحقائق الاساسية فى عبارات تحمل
معانى الشك والزراية ، تلبية لرغبات المكاتب الرئيسية فى الوطن ،
وارضاء لأذواق جماهير القراء فى الغرب الذين يحملون صورا مشوهة
عن العرب ولا سيما عن المصريين . ولو قمنا بعملية مقارنة دقيقة بين
البرقيات الصحفية التى صدرت عن الشرق الاوسط بين عامى ١٩٥٥
و ١٩٥٨ ، وتلك التى صدرت عن جنوب شرق آسيا مثلا ، لتبينت لنا
حقيقة واقعة ، وهى أن برقيات الشرق الاوسط لم تكن تسير فى طريق
صحيح وسليم .

وكان ثمة عامل مهم آخر ، وهو الطريقة التى تتبعها اذاعات الغرب
وصحافته فى التعبير . فكثيرا ما كنا نسمع بعبارات من أمثال « موال
للغرب » أو « معاد له » و « موال لعبد الناصر » أو « معاد له » ، ولم
تكن هذه التعبيرات الا ناجمة «عن رغبة هيئات التحرير» فى الصحف فى
الاختصار بالتعبير لأداء المعانى من ناحية ، وعن ظهور نوع من «المكارثية»
السياسية التى تحث على استخدام طريقة للتفريق بوضوح للقراء بين
العهود الموالية للغرب فى الشرق الاوسط ، وتلك التى تقف مناوئة له ،
وكثيرا ما تكون هذه التعبيرات خالية من أى نوع من أنواع التحليل
لأسباب الموالاة أو العداء ، مما يجعلها تترك أثرا سيئا كل السوء فى
توجيه الرأى العام .

ولم تكن عبارة « موال للغرب » تعنى فى عين الحقيقة المجردة أكثر من

وجود انسان من طراز نورى السعيد ، على استعداد للاشتراك فى تنفيذ سياسات معينة يروجها الساسة الراهنون ترويجا آليا فى بعض الدول الغربية ، أى انهم يتلونون ويختلفون مع تلون تلك السياسات واختلافها. أما عبارة « معاد للغرب » فلا تعنى الا أولئك العرب الذين يعارضون منفذى تلك السياسات من أمثال نورى السعيد والسياسات نفسها . ويصدق هذا التفسير أيضا على عبارة « معاد لبريطانيا » . ومع ذلك فقد أدى تكرار هذه التعابير الى تثبيت أكثر الصور التعميمية خطورة فى عقول الغربيين العاديين ، وهى صور « العرب الطيبين » أو « العرب الأخيار » ، وهم الذين يعتبرون الى جانبنا ، وصورة « العرب الأشرار » الذين يريدون « دمارنا » . وأدت هذه العناوين البارزة التى تظهر فى صحف الغرب عن « الفتن التى يثيرها العرب المناوئون للغرب » الى احياء ذكريات الحروب الصليبية وأغانى رولاند وصليل السيوف ، فى أذهان الغربيين بصورة جماعية ، وكان عبد الناصر ، قبل أى انسان آخر المحور الذى تتركز عليه كل هذه الرؤى والصور .

ولو هبطنا من مستوى الصحف الكبيرة ، الى المستويات الخفيفة من صحف الاقاليم ذات التوزيع الضخم فى الغرب ، وما تنشره من صور ، لتمثلت لنا فيها صورة الرئيس عبد الناصر ، التى وجدت فيها « نغمة » ركزت عليها أكثر من أربع سنوات طويلة ، لتبغضه الى قلوب الناس من قرائها .

ولم يقتصر هذا الاتجاه على الصحافة وحدها ، ففى مطلع عام ١٩٥٨التقطت شبكة تليفيزيونيةأمريكية شريطا لمقابلة صحفيةاستغرقت عشرين دقيقة بين الرئيس عبد الناصر ، وبين مراسلها المقيم فى القاهرة، وظهر الرجلان فى الشريط يتحدثان بهدوء وقد ارتديا الملابس المدنية. ونقل الشريط بالطائرة الى نيويورك ، وعندما عرض على مديرى الشركة ، وجدوا أن الشريط « يفتقر الى القوة » ، وسرعان ما حذفوا من الشريط صوت مراسلهم فى القاهرة ، واستعاضوا عنه بصوت رجل أمريكى اجش ، يوجه أسئلة قاسية توحى بوجود جو من التوتر بين الرجلين ، كقوله ... موجها الحديث المدسوس الى الرئيس ... « هل لك باسيادة الرئيس أن تعترف أو تنكر كذا وكيت » وسرعان ما استخرج المسئولون أشرطة قديمة من محفوظاتهم يعود تاريخ بعضها الى أربع سنوات ، وقصوا منها ما يعجبهم من صور أدخلوها غشا ، وتضليلا على الشريط الجديد . وعندما عرض الشريط بشكله المزور ، على جماهير النظارة من الامريكيين ، سمعوا أسئلة استفزازية وتنطوى على الشك توجه الى الرئيس ، واستمعوا الى ردود أضفوا عليها نغمات عدوانية ، ورأوا عبد الناصر وهو فى زيه العسكرى يتحدث الى جماهير ثائرة من الناس يهدرون ويزمجرون . وعمت الدهشة سفارة الجمهورية العربية المتحدة فى واشنطن ، من رؤية موظفيها رئيس جمهوريتهم وقد عاد الى ارتداء بزته العسكرية ، فأبرقوا الى القاهرة ، ينقلون اليها ما رأوه . وغضب الرئيس عبد الناصر لهذا التزوير الفاضح ، وامتنع لمدة ستة أشهر أخرى عن السماح للصحفيين الغربيين بمقابلته .

وقد سبق لى فى فصول سابقة أن استعرضت الاسباب الاخرى التى تدعو الى مثل هذا التركيز . ولكننى أرى الواجب يحدونى هنا الى ذكر سببين آخرين ، أولهما أن عبد الناصر كان أول حاكم قومى عسكرى يظهر على المسرح الافريقى الآسيوى بعد الحرب العالمية الثانية، وثانيهما ما يقوم فى أذهان أفراد الدوائر المتحررة الفكر فى الغرب ، والمتيقظة عادة ، من ردود فعل تجاه ما يتسلط على المسؤولين المحافظين من ضغوط فكرية مسيطرة ، تثير الشكوك العميقة والامتعاض . وليس من اضاعة الوقت فى شىء أن نتساءل اذا كان « كابوس » عبد الناصر !! كان سيمضى عميقا فى سيطرته على أذهان هؤلاء ، لو أن الغرب فى عام ١٩٥٦ ، الف قيام الحكام من الثائرين العسكريين ، وكان قد فهم ما يساور الدنيا الافريقية الآسيوية من شكوك فى اصلاح النظم الغربية البرلمانية لها ، مما أدى الى قيام عدد كبير من أمثال هذه الانظمة الجديدة فى الحكم فى عام ١٩٥٨ (١) .

وأخيرا يمكن القول ان الشرق الاوسط ، لم يكن فى نظر هؤلاء الاحرار من الغربيين ، منطقة مستعمرة . ولم يكن هؤلاء الاحرار فى نظرتهم الى المستعمرات سواء أكانت بريطانية أم فرنسية أم هولندية يأخذون بما تلجأ اليه السلطات الرسمية من تعابير محافظة لنعت الحركات الوطنية فيها كعبارتى « المطامع الشخصية » ، و « حفنة من مثيرى الشغب » ، وغيرها من عبارات الاغراق فى تبسيط الامور ، بل كانوا ينظرون اليها نظرة الشك وعدم التصديق . أما بالنسبة الى العرب ، فلم يحمل الاحرار أمثال هذه الشكوك أبدا تجاه ما يصدر عن الدوائر الرسمية المحافظة من تعبيرات . ولم يكن هناك قط بالنسبة الى العرب ، نفس الاحترام الذى يبديه الاحرار تجاه الحركات الوطنية فى أى مكان آخر من المستعمرات ، اذ أن العرب كانوا يعتبرون «أحرارا» يضاف الى هذا ، أن الصهيونية لعبت دورا كبيرا فى تشويه الموقف الليبرالى الغربى من السياسات العربية ، اذ أن دعاتها ـ أى الصهيونية ـ كانوا يواصلون وبنجاح نشر فكرتهم فى أن الشرق الاوسط ، لا ينطوى الا على حركة وطنية صحيحة واحدة وهى حركتهم .

ولعل من المهم هنا أن نلاحظ ، ان الصحف والمجلات البريطانية نشرت صورا « كاريكاتورية » بعد صدور تقرير ديفلين عن نياسالاند ، تمثل الافكار المتسلطة عليها تجاه الحركات الوطنية ، ولم تظهر بينها أية صورة لاى زعيم عربى . وكانت هذه الرسوم تمثل صورا تاريخية لشخصيات وطنية تحدت السلطة الاستعمارية البريطانية وأدينت بتهم « القتل والارهاب واثارة الفتن » لتعود فتعترف بها كشخصيات قادة لها وزنها واحترامها . وكان بين هذه الشخصيات التى أظهرتها هذه

---

(١) كان بين هذه الانظمة الجديدة نظام الفريق عبود فى السودان، وقاسم فى العراق ، وأيوب خان فى الباكستان ونيوين فى بورما وناسوتيون مع سوكارنو فى اندونيسيا ، وكذلك نظام نكروما فى غانا .
ـ المؤلف ـ

الصور ، ديفاليرا ، ونهرو ونكروما ومكاريوس ، وكذلك الدكتور باندا ، وهو يقف وراء القضبان ينتظر دوره ليصبح فى عـداد أولئك القادة . ولكن لم يكن بين هؤلاء حتى سعد زغلول أو أى قائد وطنى آخر من قادة الشرق الاوسـط ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن تاريخ زغلول لا يختلف مطلقا عن تاريخ هؤلاء حتى فى أدق تفاصيله ، وبينهـا النفى بالطبع . لكن سعد زغلول ، لم يعمر حتى تستقبله لندن كما استقبلت قادة البلاد الاخرى التى استقلت . لكن هذه الحقيقة لم تكن السبب فى عدم ظهـوره أو ظهور شـخصية عربيـة أخرى بين قائمة هـذه الشخصيات التى جالت فى خواطر راسمى الصور الكاريكاتورية فى لندن فى عام ١٩٥٩ .

***

ويظل امامنا فى هـذه الدراسة التى نقوم بها لحـرب سيناء والسويس ، موضوع أساسى يجب أن نتولى التحقيق فيه . فلقد كانت هناك معركة سيناء نفسها فى خضم هذه الازمات التى لفت العالم كله فى الايام الاولى من شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ . وكانت الصورة العـالمية الشاملة التى برزت لنتائجها هى السبب فى اضفاء لون جديد على أفكار الغرب تجاه الشرق الاوسط منذ ذلك الحين ، كما أثرت تأثيرا حيـويا على جميع التقديرات اللازمة الاكثر اتسـاعا ، والتى انهيت دراسـتها الآن . والآن أرى أن نتساءل ... ترى ما الذى وقع فى سيناء حقا ؟

- ١٢ -

حرب سيناء

« لقد كانت حملة مستقلة ، خاضها الاسرائيليون وحدهم . وقد حاربوا فيها دون أى ارتبـــاط بالقوات البريطانية أو الفرنسية .. ودون أى عون منهما »

« من أكاذيب جون كونيل فى كتابه الذى أصدرته الهيئات الصهيونية » .

بنيت من قبل أن الاسرائيليين استهدفوا من هجومهم على سيناء كغاية قصوى الاستيلاء على شبه الجزيرة كلهـــا ، وتأمين الوصول عن طريق التدخل الانكليزى - الفرنسى اللاحق فى وقت معين الى حدود غربية جديدة لاسرائيل تقف منسجمة ومتجاورة مع منطقة قنـــاة السويس التى سيتم تدويلها . وكان أدنى ما طمعت فيه اسرائيل ، احراز نصر مستقل . ينتشر مره فى جميع ربوع الشرق الاوسط ، وجميع أرجاء العالم . ويبدو أن سرائيل وقد عجزت عن تحقيق هدفها الاقصى . أرادت اقناع العالم بأنها جحت فى تحقيق هدفها الادنى ، والخلاص من حرب سيناء والســـويس بأقل ما يمكنها من مغانم ، فراحت تعمـــل على صدور تصريحات وأقوال كالذى أوردته فى مقدمة هـــذا الفصل . يتـــاح لها أوسع انتشار فى الصحافة الغربية . مما أدى الى تصديقهـا على نطاق عالمى واسع . وبدأ الناس فى الغرب يتحدثون عن « انتصار » سيناء ، حتى أن هذه الدعاية باتت جزءا من التاريخ الذى يكتب فى الغرب . وقد أدى تكرار هـــذه الادعاءات الى أنها باتت تصور على أنها حقائق .

ولكن سبق لنا أن رأينا ان الحقائق الواضحة المستندة الى التقارير المستقلة الموثوق بها والتى لا يمكن نعتها لحظة واحدة بالتحيز الى المصريين تناقض هذه الادعاءات المزعومة عن الزحف الاسرائيلى السريع الذى قامت به القوات المهاجمة . وسبق لنا أن رأينا أيضا كيف انهارت المزاعم التى وردت عن هذه الفترة من تاريخ الشرق الاوسط . واحدا اثر آخر ، على أنها أساطير وأكاذيب . ولهذا فان أى تحليل لحرب السويس ، لا يمكن له أن يمر مر الكرام بحقيقة ما دار من قتال فى شبه جزيرة سيناء . هل كان هناك نصر اسرائيلى حقا ؟ هذا هو السؤال أما الرد عليه ، فيتطلب من المحقق أن يجمع الحقائق وأن يربـــط بينهـــا ويظهر أوجه التناقض بين مختلف المصادر سواء أكانت مستقلة أم اسرائيلية أم مصرية . وأنا لا أعرف ان دراسة موثوقا بها ومحايدة حقا قد صدرت حتى الآن عن هذا الموضوع بكل ما فيه من تفاصيل . لكن فى وسع القارىء أن يعثر على وقائع الميدان المجردة بتفاصيلهـــا واردة فى السرد الذى سأتلوه . والذى نشره الرائد

ادجار أوبالانس فى كتابه « حملة سيناء » ، وهو الكتاب الذى لا يمكن لانسان أن يتهمه بالتحيز لمصر · (١)

وأرى قبل كل شىء ، أن نتناول بالشرح والتفصيل الفكرة القائلة بأن حملة سيناء كانت « حملة مستقلة » ، بين اسرائيل ومصر ، ولا شأن لأحد آخر بها · وهنا أود أن أقول : ان هذه الحرب كانت بالطبع ومنذ البداية حربا ذات طابع دولى كامل ، منذ استهلالها فى التاسع والعشرين من أكتوبر ، بل وقبل هذا التاريخ مذ كان فى وسع واضعى الخطط العسكرية الاسرائيلية استغلال العوامل الدولية · فلقد رأينا فى فصل سابق ، ان القاهرة اضطرت منذ أواخر شهر أغسطس ، الى سحب نصف قواتها التى ترابط فى سيناء للدفاع عنها وبينها لواء مدرع كامل · الى مواقع أعدت للطوارىء غرب القناة· كرد على ماصدر من الدولتين الغربيتين الكبيرتين – بريطانيا وفرنسا – من تهديدات راعدة ، ومن حشود عسكرية بيتت نية العدوان ، فى جزيرة قبرص ، وعندما أتمت اسرائيل تعبئتها العامة · كان الجنرال دايان يعرف تمام المعرفة انه لن يواجه فى سيناء ، القوات المصرية العادية المؤلفة من ستين ألف جندى بسلاحها المدرع · وانما سيواجه ثلاثين ألفا فقط ، وكان على يقين أيضا من أنه لن يجد أمامه قوة الدبابات السوفياتية الضخمة التى زعموا وجودها فيما بعد ، وانما سيجد نحوا من سبعين دبابة معظمها من الدبابات الانكليزية والامريكية القديمة · وقد حشدت اسرائيل أمام هذه القوة الدفاعية ، نحوا من خمسة وأربعين ألفا من الجنود ونحوا من مائتين وثلاثين دبابة · وعلينا أن نضيف الى هذه المقارنة العددية حقيقة واقعة أخرى ، وهى أن ثلث القوة المصرية المؤلفة من ثلاثين ألف جندى كانت من جنود خط القتال المحاربين ليس الا ، أما نسبة الجنود المحابين الى غيرهم من الفئات العسكرية الاخرى ، فكانت أعلى فى القوة الاسرائيلية ·

وكان ثمة عامل آخر أكثر أهمية ، يجعل هذه الحملة بعيدة عن أن تكون حملة اسرائيلية · فلقد دخل الجنرال دايان معركة سيناء ، معتمدا على العون الفعلى المباشر من جانب فرنسا ، المتمثل فى قاذفات سلاحها الجوى المقاتلة النفاثة وفى البحرية الفرنسية · أجل لقد اتكل على ما سيلقاه من عون من ستين طائرة فرنسية نفاثة من القاذفات المقاتلة وأربعين طائرة أخرى من طائرات النقل من طراز « نورد أطلس » ستتولى نقل المعدات والمؤن من قبرص لقذفها من الجو الى القوات الاسرائيلية الامامية ، والى ما ستضفيه السفن الحربية الفرنسية من حراسة على المدن الساحلية الاسرائيلية لحمايتها من أى عمل حربى مصرى · واذا ما أردنا

---

(١) اكدت عبارة « وقائع الميدان » بالنسبة الى هذه الدراسة ، لانى لا أعتبر أن الكتاب الذى لا يشير الى المعونة العسكرية الفرنسية الفعلية لاسرائيل أو حتى الى احتمال وجود التواطؤ كهذا الكتاب مصدرا مقبولا تماما كحجة فى الموضوع· وجدير بالذكر أيضا أن الرائد أوبالانس قد قبل أيضا بصورة خاطئة التاريخ الذى قيل ان اسرائيل قد قررت الهجوم فيه · فهو تاريخ خاطىء روجته الدعايات الصهيونية · – المؤلف –

تقويم العون الذى حصلت عليه اسرائيل من القاذفات المقاتلة الفرنسية وحدها ، أمكننا أن نؤكد تأكيدا قاطعا ، بأن هذه الطائرات قد أتاحت مجال التفوق الجوى على مصر فى النفاثات الخارقة لحجاب الصوت · وكانت مصر تملك فى عام ١٩٥٦ ، نحوا من مائة طائرة من طراز ميج (١٥) وخمسين طائرة (اليوشين) من القاذفات النفاثة وثمانين طائرة من طراز ى فامباير وميتور ونحوا من عشرين طائرة قديمة من الطائرات القاذفة التى عرفتها الحرب الثانية ·(١) وكانت اسرائيل تعرف(٢) انه فى اكتوبر عام ١٩٥٦ ، كان تدريب الطيارين المصريين على هذه الطائرات الروسية الصنع ، الحديثة ، قد بدأ قبل فترة قصيرة للغاية ، وانه لم يكن لدى مصر أكثر من ثلاثين طيارا مدربا على الميج وعشرة طيارين على الاليوشن ، وان عددا آخر من الطيارين كان لا يزال يتدرب خارج البلاد · تنفيذا لصفقة الاسلحة التشيكية التى نصت على أن يدرب الطيارون المصريون فى أوربا الشرقية لا فى مصر ، منعا لمجىء عدد كبير من المدربين الى مصر نفسها ·

وهكذا لم يكن لدى مصر فى الواقع الا ثلاثون طائرة ميج عاملة فعلا وعشر طائرات اليوشن وأربعون طيارا يصلحون لقيادة الطائرات النفاثة البريطانية القديمة · وكانت اسرائيل تملك مقابل هذا نحوا من ستين أو سبعين طائرة « ميستير » نفاثة ، وهى التى كشف عنها الرئيس عبد الناصر فى عام ١٩٥٥ ، وستين طائرة «ميستير» من السلاح الجوى الفرنسى وبعض الطائرات الامريكية من طراز (ف – ٨٤) واثنتى عشرة نفاثة من طراز أوراجان · وخمسا وعشرين طائرة من طراز ميتور وبعض طائرات الفامباير والموستانج القديمة · ومن هذا يتبين أن قوة الطائرات المحاربة عند اسرائيل – وبينها الطائرات الفرنسية الفعلية طبعا – كانت تبلغ أكثر من مائة نفاثة مقابل ثلاثين مصرية ، مع شىء من التعادل فى الطائرات القديمة · وكانت لدى مصر عشر طائرات قاذفة تستطيع أن تهاجم اسرائيل ذاتها ، اذا تمكنت من خرق ذلك السياج الواقى من الطائرات المقاتلة التى تفوق الصوت فى سرعتها ·

وهناك أخيرا عامل مهم آخر ، من عوامل المساعدة الخارجية التى

---

(١) لايعنى ادراج هذه الارقام التى وردت فى الكتاب الانكليزى أى اقرار بصحتها ، كما أن نقلها لايعنى مطلقا الكشف عن أسرار حربية ، اذ أن هذه الارقام انتشرت فى النص الانكليزى للكتاب وهو فى متناول العدو وكل ما قصدناه من نقلها ، هو أن نعرض وجهة نظر الكاتب فى حقيقة مادار فى حرب سيناء ·

– المعرب –

(٢) اعترف حتى العقيد هنريكس المعروف بتشيعه للصهيونية فى المقالات التى كتبها عن حرب سيناء، والتى تشبعت بروح التشيع لاسرائيل، أن واضعى خطة الهجوم فى سيناء من الاسرائيليين قد ركزوا خطتهم على أساس « أن مصر لاتستطيع استخدام أكثر من نصف مالديها من الطائرات لافتقارها الى الطيارين المدربين » ·

– المؤلف –

تلقتها اسرائيل ، فى التاسع والعشرين من اكتوبر ومن الواجب أن نذكر
فلقد ظلت اسرائيل طيعة أكثر من ثلاثة أشهر قبل الهجوم ، تقوم بعملية
تظاهر مدروسة ومحكمة فى خلق التوتر مع الاردن وهدفها اقناع القاهرة
واقناع العالم أيضا ، بأنه اذا كان ثمة من خطر لحرب حــول فلسطين فان
هذا الخطر قائم على الحدود الاردنية لا فى سيناء . وكل ما ظهر فى هذه
الفترة بالطبع سلسلة من الاتهامات توجهها اسرائيل الى الاردن بتهمة خلق
حوادث الحدود ، وسرعان ما تتبع هذه الاتهامات بغارات انتقامية على قرى
حدود الاردن كالغارة التى وقعت على قلقيلية مثلا فى العاشر من أكتوبر .
وقد اعترف الاسرائيليون بعد انتهاء حرب سيناء بأن كل ما وقع من نشاط
على حدود الاردن لم يكن أكثر من مجرد ستار أو غطاء تخفى به خطتها التى
وضعتها لسيناء .

وسمعنا السير انطونى ايدن ، فــور حادث الاعتداء على قلقيلية
يحذر اسرائيل علنا من مهاجمة الاردن . وكان التفسير الرسمى الذى صدر
للعالم عن ذلك الاجتماع الخطير الذى عقد فى باريس فى السادس عشر من
اكتوبر ، أن الدولتين الكبيرتين ، أى بريطانيا وفرنســا ، وجدتا ضرورة
للبحث فى «الوضع الاردنى» . وتعنى هذه الحقــائق بالاختصار ، ان
بريطانيا وفرنسا وقد كانتا تعرفان حق المعرفة حقيقة نيات اسرائيل
واتجاهها قد تعاونتا معها فى حملة تضليلها وخداعها ، وساعدتا على ابعاد
العالم عن رؤية الاتجاه الحقيقى للخطر . ويقال أن القــاهرة لم تكن
تعرف فى التاسع والعشرين من اكتوبر بأن اسرائيل ستهاجم ســيناء ،
مما يشير الى أن حملة « الخداع » التى قامت بها الدول الثــلاث قد حققت
غايتها (١) .

وأعدت اسرائيل خطتها العسكرية ، على أساس الافادة مما حققته
الاستعدادات السياسية والعسكرية والنفسية التى قامت بها الدول الثلاث
من ثمار ونتائج . وقد عرفت المخابرات الاسرائيلية ، ان مصر قد ركزت
قواتها الدفاعية الامامية على حدود قطاع غزة ، وعلى مراكز تقاطع الطرق
المهمة فى العوجة ، لمنع اسرائيل من تكرار اعتداءاتها ، على مدن القطاع كما
وقع فى فبراير عام ١٩٥٥ عندما اغار الاسرائيليون على مدينة غزه ، كمـا

---

(١) قد لايكون قول المؤلف صحيحا هنا ، ولكن القاهرة ، وهى تتجه بانظارها الى هذه الحشود الهائلة التى تحشدها بريطانيا وفرنسا من قوات عسكرية وأساطيل بحرية وجوية فى جزيرة قبرص ، وغيرها من قواعد البحر المتوسط ، والتى تتوافد الانباء اليها عن عزمها – أى هذه الحشــود – على مهاجمــة مصر ، لم تكن لتستطيع أن تفعــل شــيئا أكثر مما فعلته . فهى تدرك أن الخطر الهائل ماثل فى هذه الحشود الضخمة من قوات الدولتين الكبيرتين ، وأن عليها أن تعد العدة لمواجهته حــال وقوع العدوان . ومن هــذا يتبين أن حشود الدولتين الكبيرتين كانت أقوى عامل لعب اثره ، فى حرب سيناء ، اذ لولاها ، لرتبت القيادة المصرية خطتها على أســاس مواجهة عدو واحد هــو اسرائيل ، وكان حريا بهــذه الخطة أن تضمن هزيمة اسرائيل ، لو كانت وحيدة فى هجومها على مصر .
– المعرب –

عرفت تبعا لذلك ان القوات الدفاعية فى منطقة سيناء نفسها ، ولا سيما
على الطريق الصحراوى الممتد من الكنتلا عبر مضيق المتيله الى بور توفيق
على قناة السويس ، لم تكن كثيفة لان التركيز فى الدفاع كان قائما فى
المنطقة الساحلية . ولم يكن بالفعل فى هذه المنطقة الصحراوية فى التاسع
والعشرين من اكتوبر عام ١٩٥٦ أكثر من ألف وخمسمائة جندى موزعين
على بعض النقاط المهمة كثامد ونخل .

وهــكذا تركزت الخطة الاسرائيليه كمــا يظهر فى الخريطة الملحقة على
القيام بتوغل عميق فى هــذه المنطقة الوسطى الصحراوية عن طريق القاء
قوات من المظليين على مضيق المتيله وارسال لواء مدرع على جناح السرعة
بطريق البر على طريق (الكونتيلة – المتيلة) للاتصال بالمظليين . واعتقد
الاسرائيليون ان نجاح هذه الخطة سيذهل القيادة المصرية ويحول انتباهها
فورا الى مضيق المتيله ، مما يؤدى الى اغلاق الطريق الى وسط شبه جزيرة
سيناء نفسها . وهنا يبدأ تنفيذ المرحلة الثانيه من الخطة الاسرائيلية .
بعد أن يكون اهتمام القوات المصرية قد انصرف الى المتيلة فى الصحراء
وهى تقضى بهجوم قوى باتجاه الغرب من مثلث العوجة على الخطوط المصرية
الدفاعية حول « أبى عقيله » باتجاه الطريق المهم الآخر الذى يعبر سيناء
الى الاسماعيلية وتبدأ المرحلة الثالثة فى موعد مقرر بعد ذلك بشن هجوم
رئيسى ثالث على رفح فى الشمال لعزل قطاع غزه وفتح الطريق الساحلى
الى القنطرة على القناة . بينما تتجه قــوة رابعة من ميناء أيلة فى الجنوب
على طول ساحل خليج العقبة للوصول الى شرم الشيخ .

وأود أن أؤكد نقطة مهمة هنا ، وهى أن بن جوريون ودايان ، على
الرغم من اعتمادهما الكلى على تواطؤ فرنسا وبريطانيا معهما . وعلى ما يتيحه
لهما هذا التواطؤ من مزايا ، لم يقيما خطتهما لحملة سيناء على أســاس
قصف الطائرات البريطانية لمطارات مصر بعد ثمان وأربعين ساعة من بدء
الهجوم على سيناء ، أو على التدخل البريطانى – الفرنسى عن طريق الانذار
المشترك بعد أربع وعشرين ساعة من نقطة البداية . فلقد أوضحت من
قبــل ، ان الخطة الاسرائيليــة كانت تستهدف منذ البــداية الحصول على
« نصر مستقل » وهو ما كان ايدن يريده أيضا لابعاد شبهة التواطؤ عن
بريطانيا . وتنتج عن هــذه النقطة عدة ملاحظات يجب ايرادها ، وهى أن
الاسرائيليين لم يفترضوا أن يقوم السلاح الجوى البريطانى بابعاد سلاح
مصر الجوى عن سماء المعركة ، فى مثــــل هذا الوقت القصير . وكانوا
يفترضون انهم سيواجهون قوة مصر الجوية العـــاملة والتى شرحناها من
قبل . ولم يكن الاسرائيليون أيضا يتوقعون عملية انسحاب مصرى مبكر
من سيناء أمام التدخل الانكليزى – الفرنسى ، وانمــا كانوا يركنون الى
شىء آخر . وهو أن التدخل الانكليزى – الفرنسى بعد أربعة أيام من بدء
هجومهم سيؤدى الى عزل القوات المصرية فى سيناء ، والى ابعــاد الطيران
المصرى عن سماء المعركة بعد هذه الايام الاربعة .

وليس المهم فى ايضاح هذه النقطة . مجرد النزاهة فى العرض
بل تبيان المصدر الذى دفع اسرائيل الى الاقدام على هذا الهجوم كله ، مع

مالها من مخابرات نشيطة • فالصورة الظاهرية للوضع ، تتمثل فى أن اسرائيل قد أقحمت نفسها فى هذه الحرب الصحراوية ودفعت اليهـا بالقسم الأكبر من قواتها كلها ، لتواجه دولة عربية واحدة لهـا حليفتان عربيتان أخريان ترتبط اليهما بالتزامات عسكرية ثابتة وهما سـورية والاردن ، بينما تقوم وراءهمـا دولة عربية ثالثة هى العراق لا تستطيع تحت تأثير شعبها الوقوف مكتـوفة اليدين فى أية حرب عربية اسرائيلية شاملة • لكن اسرائيل كانت واثقة بل لعلها كانت وقحة فى ثقتها هذه • فهى مغترة أولا بما حققته من مكاسب فى حرب عام ١٩٤٨ ، وان لم تكن عمياء عما طرأ على الجيوش العربية بعد ذلك التـاريخ من اعادة تنظيم واعادة تجهيز وبعث للمعنويات • وقد تستطيع اسرائيل الهجـوم على الاردن ، والوقوف موقف الدفاع من سورية ومصر ، ولكن الهجوم بجيش قوامه خمسة وأربعون ألفا من الجنود وبضعف ما تملكه من الدبابات على الاقل على صحراء سيناء ، التى تبعد مسـافات نائية جدا عن أية جبهة جديدة قد تفتح عليها ، شىء آخر ، لا سيما اذا تحقق لها ما هدفت اليه من خرق الجبهة المصرية فى «أبو عقيله» ورفح والتوغل عميقا فى سيناء •

وهنـا بالذات ينشأ الترابط فى التوقيت بين الهجوم الاسرائيلى والحملة البريطانية ـ الفرنسية • فلقـد كان بن جوريون ودايان على ثقة بأن الدولتين المتواطئتين معهما ستتدخلان بعـد أربعة أيام على الاكثر • واقاما تبعا لذلك حساباتهما على قيام فترة أولية من الاضطراب فى الوسط العربى ، ومن الاتصال بين القاهرة والعواصم العربية الاخرى ، مما يتيح لهما مجالا للتنفس قبل أن تقـدم أية دولة عربية أخرى على شن هجوم مؤيد لمصر • وكان كل ما تخشاه اسرائيل انيا ، وفى الفترة الاولى ، قيـام الطائرات من الدول العربية الاخرى بالاغارة عليها ، كرد فعـل آنى ، وقد عالجت خوفها هذا ، بالستين طائرة الاضافية الفرنسـية التى استقدمتها لمساعدتها فى حربها وكلها من أحدث المقاتلات النفاثة • وكانت تتوقع من الناحية الاخرى أن يؤدى توغلها السريع الأولى ، فى اتجـاه لا يتوقعه العرب ، الى خلق شىء من الاضطراب والتردد عند الدول العربية الاخرى ، وهذا يفسر زعمها فى بلاغها الحربى الاولى بأن قواتها وصلت الى مشارف القنـاة • وسيؤدى هـذا التردد الى كسب الوقت الثمين الذى تريده اسرائيل ، قبل أن تشرع الدول العربية الاخرى بهجوم جدى مضاد عليها ، هذا اذا قدر لهذا الهجوم أن يقع مطلقا ، ليحين موعد التدخل الانكليزى ـ الفرنسى ضامنا لها ما أرادته من نصر مستقل ومحافظا لهـا على غنيمتها الكبرى فى سيناء • وآنذاك لا يعود ثمة مجال لتدخل عربى آخر ، أمام التدخل الغربى •

وكانت المغامرة والحالة هذه خطيرة ، ولكن ما يخفف من خطورتهـا أن لها فترة محدودة ضمنهـا التواطؤ بينها وبين الدولتين الغربيتين وهو التواطؤ الذى يحول حتما دون وقوع أى هجوم من دولة عربية أخرى • وكان مدى التوغل عاملا هاما فى انجاح الخطة الاسرائيلية ، مما دفع قادتها المسئولين الى الادعاء فى البلاغ الحربى الاول ، زورا وبهتانا • بأن قواتهم وصلت الى مشارف القناة • ومن هنـا تظهر أهمية النزول من الجو فى

مضيق المتيلة ، فى الخطة الاسرائيلية كلها ، اذ أن هـذا النزول ، كان يهـدف الى اكساب اسرائيل ما تريده من هدف عن طريق ادعاء التوغل البعيد المدى ، بالاضافة الى ما يتركه من آثار نفسية فى القـاهرة وعمان ودمشق وغيرها من العواصم العربية ، وكذلك من آثار فى دول العـالم تهيؤها لقبول فكرة التدخل الانكليزى ـ الفرنسى • ولا أكون مبالغا أن قلت ، ان محور الخطة الاسرائيلية كلهـا قد تركز على هؤلاء الاربعمائة مظلى ، الذين انزلتهم الطائرات فى المتيلة ليكونوا محور المفهوم الاسرائيلى التقليدى عن « السوقية اللامباشرة » •

وقد استهلت حملة سيناء بحركة أخرى تنطوى على الحيلة والخداع اتجهت نحو الاردن عندما تحرك اللواء الاسرائيلى المدرع الثانى بعد المائتين ناقصا فوجا واحدا ، فى التاسع والعشرين من اكتوبر باتجـاه الحدود الاردنية على مسمع من العـالم وبصره • أما الفوج الناقص ، فقـد حملته طائرات النقل ، ليهبط رجاله فى الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه عن طريق المظلات فوق مضيق المتيلة ، فى الوقت الذى حولت بقية اللواء اتجاهها فجأة لتذرع الارض بسرعة نحـو سـيناء ، ونقطة الحدود فى الكونتيلة على الطريق الى المتيلة • وكانت الطائرات الفرنسـية الستون بطياريها الفرنسيين • رابضة فى مطارات اسرائيل بعد أن قطعت البحر المتوسط ، متأهبة لخوض المعركة • وأقلعت من مطـار تيمبو فى جزيرة قبرص الطائرات الاربعون من طائرات النقل الفرنسية فى طريقهـا لتلقى الى المظليين الذين هبطوا فى المتيلة ، ما يحتـاجون اليه من معدات وعتاد وأسلحة وذخـائر ومؤن • واندفعت من مثلث العـوجة الذى اغتصبته اسرائيـل متحديه الامم المتحـدة فى سـبتمبر عام ١٩٥٥ ، ثلاثة ألوية اسرائيلية كاملة ، أحدها مدرع ، لتهـاجم الخطـوط الدفاعية المصرية الرئيسية عنـد « أبو عقيله » • واجتـازت الوحدات الاولى من الرتل الاسرائيلى المندفع من ميناء « ايلة » جنوبا خطوط الهدنة فى زحفهـا على شرم الشيخ • ووقفت السفن الحربية الفرنسية وفى طليعتها جورج ليجى وسيركوف وكير سانت ، تحمى سواحل اسرائيل ومشارفها البحرية على المتوسط • وهكذا بدأ سباق اسرائيل مع الزمن •

ووصلت أنباء الهجوم الاسرائيلى عبر خطوط الهدنة الى القـاهرة ، وكان جل اهتمامها منصرفا الى هذه الحشود البريطانية الفرنسية الهائلة فى قبرص ، والى تلك المناورات الخادعة التي تقوم بها اسرائيل على حدود الاردن • وتلقت القيادة العامة من قائد السرية المصرية فى المتيلة نبأ هبوط المظليين الاسرائيليين فراحت تبعث بأولى النجدات الى ذلك الموقع ، وهى مؤلفة من فوجين من أفواج المشاة • ولم يكن قد اتضح للقاهرة بعد حقيقة ما تنويه اسرائيل • وهل تقصد من هذه الحركات تغطية هجوم شامل على الاردن ، لا تستطيع القـاهرة أن تقف منه مكتوفة اليدين على الرغم من تركيز جل اهتمامهـا على حشود قبرص ، ولم تمض بضع ساعات حتى كانت الأوامر قد صدرت بارسال نجدات قوية على جناح السرعة الى سيناء بعد أن اتضحت حقيقة الاهداف الاسرائيلية • وعلى الرغم من هذا الواقع الذى أضحت مصر تجابهه ، لم تستطع القـيادة العامة ، وحشود قبرص

ماثلة أمامها أن تبعث الى الميدان بأكثر من عشرة آلاف جندى أخر ، معهم مائتا دبابه . وهكذا اضطرت مصر . حتى فى تلك اللحظة التى تواجه فيها هجوما اسرائيليا عاما . ألا ترسل الى سيناء العشرين ألفا الآخرين من الجنود الذين كانت تحتفظ بهم عادة فيهـا ، بسبب ما تتوقعـه من هجوم الدولتين الغربيتين عليها ، نتيجةهذه الحشود الضخمة فى قبرص . وطبعا اعتمدت اسرائيل فى حساباتها على هذا الواقع ، كمـا اعتمدت على المدى الزمنى الذى يتطلبه نقل النجدات عبر سـيناء الى الجبهة الرئيسية فى منطقة العقيلة ـ رفح ـ غزه ، أمام هجمات من الجـو تشنها الطائرات الفرنسية والاسرائيلية . ولكن فى وسع المرء أن يقول ان المعركة دارت فى صباح الثلاثين من اكتوبر فى أقصى شدتها .

وقد تميزت المعركة بمرحلتين واضحتين ومختلفتين فرضتهما القوى الخارجية ، أولاهما سياسية نفسية وثانيتهما عسكرية وقعت فيها نقطة تحول ، بدلت طبيعة المعركة كلها . ولن أحاول فى هذا الكتاب سرد وقائع المرحلتين ساعة بعد ساعة ، اذ اننى أعتقـد أن مما يفى بالغرض من هـذا البحث ، أن اكتفى بدرس ما كان واقعا أولا عند صدور الانذار الانكليزى ـ الفرنسى فى الساعة السادسة مسـاء (وقت سيناء) فى الثلاثين من اكتوبر ، وما حدث عندما بدأ السلاح الجـوى البريطانى فى قصف مصر بصورة مستمرة فى الساعة السابعه والنصف من مساء الواحد والثلاثين من أكتوبر . وتظهر الخريطتان الملحقتان الاخريان حقيقة الوضع فى هذين التاريخين .

عندما أعلنت الدولتان الغربيتان انذارهما المشـترك ، وراح ايدن يعلن فى مجلس العموم متحدثا عن القتال الاسرائيلى ـ المصرى ان الحرب أخذت تدور على مقربة من القناة بل لربما كانت تدور الآن فوقها . لم تكن اسرائيل قد حققت أى تقـدم بارز ومهم ، الا على الطريق الصحراوية بين الكونتيلة والمتيلة ، الخالية من وسائل الدفاع . فقد تمكن اللواء الاسرائيلى الزاحف بدباباته للاتصـال بالمظليين الذين أنزلوا فى مضيق المتيـلة من التغلب على مركز واحد فى ثامد ، لا تدافع عنه الاسريتان من المشاة ظلتا تقاتلان ببسالة وبطولة حتى خسرتا أكثر من ستين جنديا من رجالهما . وواصل الاسرائيليون تقدمهم فى طريق خالية لا يعوقهم شىء الا مايتعرضون له من الغارات الجوية المصريه ، والتى أنزلت بهم خسائر فادحة للغاية . الى أن وصلت مظلة جوية من الطائرات الفرنسـية والاسرائيلية لحمايتهم بعد ظهر ذلك اليوم . وعندما صدر الانذار كان الاسرائيليون قد شرعوا فى هجومهم على نخل ، وهى المركز الدفاعى الوحيد بين ثامد والمتيلة . وجدير بنا اذا أردنا أن نفهم طبيعة العملية كلها فى هـذه المنطقة من أواسط سيناء ، أن نتحرى بعض الشىء عن حقيقة موقع نخل ومعركته .

كان للمصريين فى هـذا الموقع فوج واحد من أفواج المشاة تؤلف السريتان اللتان كانتا تتوليان الدفاع عن الثامد جزءا منه . وقـد هاجم الاسرائيليون هذا الموقع بقوة تضم نحوا من ألفى جندى تعززهم مجموعة من دبابات Anx الفرنسـية الجـديدة ، وخمس وثلاثون من العـربات

نصف المجنزرة التى تجعلها نصف ـ دبابات ، وثمانية عشر مدفع ميدان وثمانية عشر مدفع هاون ثقيل . وليس فى المعقول ألا تفلح هـذه القوة الهائلة من الاسلحة الثقيلة فى التغلب على القوة المدافعة الصغيرة . وكان هذا العامل ، هو الذى مكن القوات المهاجمة من الوصول الى مضيق المتيلة، وهو الذى يقيم الدليل على بطلان الادعاء بأن اسرائيل حققت نصرا ساحقا على قوات تفوقها عدا .

وتعرض المظليون الذين هبطوا من الجـو فى مضيق المتيلة لنيران السرية المصرية المرابطة فى المكان ولنيران الطـائرات المصرية التى أغارت عليهم فى فترات متعاقبة الى أن وصلت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية فضمنت لهم شيئا من الغطاء الجوى . وأقام المظليون فى خنـادق حفروها فى التلال الصخرية بعد أن جمعوا ما قذفته اليهم طائرات النقل الفرنسية من مؤن وعتاد بواسطة سيارات الجيب التى أنزلتها اليهم هذه الطائرات فى الليل أيضا ، وتعرضوا طيلة اليوم الثلاثين من أكتوبر لنيران حامية من مدافع الهـاون المصريه التى ردت عليهـا الطائرات الفرنسية بصواريخها منزلة بعض الخسائر بالنجدات الوافدة من السويس . ولم يتقدم المظليون شبرا واحدا طيلة ذلك النهار ، وظلوا فى حالة سيئة الى ان وصلت اليهم طلائع اللواء المدرع فى منتصف ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر .

أما فى الشمال الشرقى حيث وقع الاندفاع الرئيسى ضد «أبو عقيلة» فى الطريق الى الاسماعيلية ، وحيث واجه المهـاجمون الخطوط الدفاعية المصرية الجدية ، فلم يتمكن هؤلاء من احراز أى تقدم يذكر قبـل صدور الانذار المشترك . ولم يكونوا قـد توغلوا أكثر من عشرة أميـال عن الحدود(١) . وكانت القوة الاسرائيلية المهـاجمة تتألف من ثلاثة ألويه أحدها مدرع ومعها خمس وثمـانون دبابة ثقيلة ومتوسطة الحجم . أما المدافعون المصريون فقد تألفوا من ثلاث كتائب مشاة . ولم تكن هـذه الاميال العشرة التى اجتازتها القوات الاسرائيلية الا نتيجة حركة التفاف فى نصف دائرة الى الجنوب عبر القسيمة . ولكن الخطوط المصرية التى تحمى شمال سيناء كله ، كانت صامدة كل الصمود ولم تظهر أية اشارة تومىء الى ضعفها . وأرى من الجدير بنا أن نسجل هنـا ملخص الوصف الذى عرضه الرائد اوبلانس عن صورة الوضع العسكرى فى نهاية الثلاثين من أكتوبر اذ قال :

« احتل الاسرائيليون القسيمة بصعوبة هائلة وبعد خسائر جسيمة، وفشلوا فشلا ذريعا فى مضيق المتيلة ، كما ردوا على أعقـابهم عند «أبى عقيلة» . وكان المصريون من الناحية الاخرى ، قد بوغتوا فى بداية الامر . ولكنهم سرعان ما نجوا من وطأة البغتة ، ولم تمض اثنتا عشرة سـاعة على

---

(١) حرى بنـا هنا أن نعيـد ما زعمـه ايدن فى مذكـراته من أن طائرات الكمبيرا التقطت صـورا فى فجـر الثـلاثين من أكتوبر للقوات الاسرائيلية وهى فى منتصف الطـريق الى الاسماعيلية ، لتظهر مـدى ما أورده هذا الرجل من افتراءات .

ـ المؤلف ـ

بدء العمليات العسكرية حتى كانت النجدات القـوية تتحرك بسرعة الى الجبهة » .

« لاريب فى أن هذه الصورة الشاملة للوضع العسكرى ، بعد انقضاء ثلاثين ساعة على بدء الحرب ، تثبت بالدليل القاطع أن اسرائيل لم تكن قد حققت حتي ذلك التاريخ أى مساء الثلاثين من اكتوبر عندما صدر الانذار البريطانى الفرنسى المشترك أى نصر مهما كان شكله . ولا ريب أيضا فى أنها تنفى نفيا قاطعا ، كما سبق لى ان قلت ، أية حجج يتذرع بها للدفاع عما جاء فى الانذار من نص وتعابير . فالقتال بين مصر واسرائيل ، لم يكن عند صدور الانذار يهدد القناة أى تهديد . وحتى القوات البرية المتقدمة فى وسط الصحراء الى مضيق المتيلة ، لم تتمكن من الوصول الى الاربعمائة مظلى المحصورين فى المضيق الا بعد انقضاء عدة ساعات على صدور الانذار . واذا ما استثنينا هذه القوة الصغيرة المحصورة ، التى لا تؤلف خطرا فى حد ذاتها بالاضافه الى أنها كانت بعيدة عن القناة أكثر من أربعين ميلا . فان أية قوة اسرائيلية لم تكن فى نقطة يقل بعدها عن المائة والعشرين ميلا من القناة نفسها .

وهز الانذار المشترك ، القاهرة هزة عنيفة ، ولم يصدق الناس فيها ما سمعوه حتى فى هذه المرحلة . وأعلن الرئيس عبد النـاصر جهارا أنه لايصدق كون هذا الانذار أكثر من مجرد « بلفة » ، وانه لايصدق بأن الحكومة البريطانية ستهاجم مصر ، حتى تقذفها فعلا بقنابلها ، وهو ماوقع بعد أربع وعشرين ساعة من صدور الانذار . وتؤيد الاعمال التى قامت بها مصر فى غضون هذه الساعات الاربع والعشرين حقيقةهذا الاتجاه الفكرى . وصحيح أن مصر لم تأمر بارسال نجدات أخرى فى غضون هذه الفترة الى سيناء ، ولكن النجدات التى صدر الامر بارسالها قبل طلوع الانذار كانت لا تزال متجهة الى الشرق ولم تتلق أى ايعاز بوقفها عن السير بله ارجاعها. وواصلت جميع المواقع الدفاعية المصرية بذل أقصى طاقاتها فى المقاومة . وانتهت المهلة التى أعطاها الانذار فى الساعات المبكرة من صباح الواحد والثلاثين من اكتوبر ، ولم يقع أى هجوم فرنسى ـ انكليزى . ومر النهار دون أى هجوم . ولم يقبل عبد الناصر ورفاقه مرارة الواقـع ويبادروا الى العمل الا فى الساعة السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم عندما ظهرت الموجات الاولى من طائرات السلاح الجوى البريطانى فى سماء مصر .

ولا يشكك أحد ، أو أى حجة موثوق به . فى القرار الذى اتخذه عبد الناصر ورفاقه . كما لا تجرؤ السلطات الاسرائيلية نفسها على انكاره سرا. وان كانت قد أصرت على رفض الاعتراف به علنا وطواعية لاسباب واضحة سأتولى الآن شرحها . كان هذا القرار يتلخص فى سحب كل جندى وكل معدات ممكنة على التو ، وفى أقصى السرعة ، من شبه جزيرة سيناء كلها قبل أن يتمكن الغزو الانكليزى ـ الفرنسى من قطعها ، وايقاعها فى الشرك. وتتابعت الاوامر صادرة عن القاهرة منذ الساعة التاسعة من مســاء ذلك اليوم ، ويرجع التأخر فى تنفيذ بعضها مما أثار بعض الشكوك فى أنها قد تكون صادرة فى وقت لاحق الى سببين ، أولهما مادار من نقاش بين القاهرة

وبين قادة الميدان . حول ما تنطوى عليه هـذه الاوامر من مساس بمصر وثانيهما ما دار أيضا من نقاش كثير حول خير السبل لانفاذ هذه الاوامر . وقد نص الأمر الأساسى على وجوب انسحاب جميع الوحدات التى لم تكن قد اشتركت بعد فى المعركة فورا ، أما الوحدات المشتبكةفى القتال فيتحتم عليها أن تبدأ فورا بانسحاب متدرج ، يقرر طبيعته قادتها ، على أن تستمر عمليات الاعاقة فى المؤخرة . وكان الاستثناء الوحيد ، متعلقا بالقـوة المرابطة فى قطاع غزه والمؤلفة فى نحو خمسة آلاف جندى . فقد كان عبد الناصر ورفاقه يعرفون ان نشوب أية معركة رئيسية فى القطاع ، سيؤدى الى خسائر مريعة فى أرواح اللاجئين الفلسطينيين الذين يكتظ بهم القطاع الضيق والذى يربو عددهم على المائتى ألف . ولكن القاهرة كانت تخشى أيضا أن يؤدى أى انسحاب من القطاع الى خلق حالة من الفزع والرعب ، قد تسفر عن نتائج لا تقل خطورة عن نتائج الصمود . ولهذا فقـد صدر الامر الى الحاكم العسكرى للقطاع ، بأن يستسلم عنـدما يقرر ان اللحظة تحتم عليه التسليم .

وليس ثمة من شك فى أن قرار القاهرة بالانسحاب من سيناء مهم بالغ الأهمية فى تقدير المعركة كلها ، مما يحتم علينا على الأقل تحليـله باختصار ، وهنا لابد من القول أولا ، وقبل كل شىء ، انه ليس «تراجعا» أبدا أمام الاسرائيليين أو تسليما لهم نتيجة نجاح حققوه ، فلم يكن هناك حتى هذه اللحظة ، ورغم انقضاء يومين كاملين على بدء المعركة ، أى نجاح ظاهر ، ولـكن الامر جاء نتيجة قرار عسـكرى حتمه الخوف من سـقوط قوات سيناء كلها فى فخ تنصبه حركة كماشة اسرائيلية ـ فرنسية ـ انجليزية وكان قصف مصر جوا على صعيد ما جاء فى الانذار منبئا بغزو انكليزى ـ فرنسى شامل ، لمنطقة السويس كلها ، قاذفا بخط من النار والفولاذ تملؤه دولتان عظيمتان ، يقام عبر الممر الوحيد الذى ستنسحب منه القوات من سيناء أو الذى سيجرى تعزيزها عن طريقه ، ولم يكن فى وسع أى قائد عسكرى فى القاهرة سواء أكان مصريا أو غير مصرى ، أن يصل فى مثل هذا الوضع الى غير النتيجة التى توصل اليها عبد الناصر فى ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر تلك ويمكن القول أيضا أن أى جيش فى الحروب الحديثة لم يواجه مثل هذا الموقف اليائس الذى واجهه جيش مصر ، أو مثل هذا القرار الحتمى الذى لم يكن ثمة مناص منه .

ولقد أطلقت حكما عاما فقلت ان اسرائيل لم تكن قد حققت أى نجاح فى سيناء . عندما هدرت طائرات السلاح الجوى البريطانى مرعدة فى سماء مصر ، وعندما وصلت القاهرة الى مثل هـذا القرار المتناهى فى خطورته ، وأرى لزاما الآن أن أفصل هـذا الحكم وأن أسنده بالادلة والبراهين ، ولنأخذ المعـركة قطاعا بعد قطاع ، بادئين بالقطاع الجنوبى ، لم يكن زحف اسرائيل فى اتجاه شرم الشيخ فى هذا الوقت قد بدأ حركته الرئيسية باتجاه الجنوب على الساحل بعد . ولم يكن أكثر من فوج واحد قد اندفع الى ماوراء رأس النقب .

أما فى الجهة الوسطى ، عند مضيق المتيلة ، فقد انضمت بقيـة

اللواء المدرع الى المظليين الأربعمائة ، الذين كانوا قد هبطوا من الجو ، ولم تتمكن هذه القوات كلها طيلة الواحد والثلاثين من اكتوبر من عمل شئ سوى تعزيز مواقعها فى «حيطان ديفلة» فى منطقة الممر ، ولقد ذكر الرائد أوبيلانس فى كتابه أن هذه المعركة كانت أقسى ماعرفته الحملة كلهـــا وأكثرها ضراوة ، وأضاف أن الاسرائيليين كانوا قد وصلوا الى حالة شنيعة من الجهد والانهاك .

وأما فى الشمال فى منطقه « أبو عقيلة » فقد صد المصريون كافة الهجمات الاسرائيلية من الشرق ، وصمدت مواقع المصريين الأســـاسية صمودا رائعا ، وان كان الاسرائيليون قد قاموا بحركة التفاف من الجنوب يضاف الى هذا ان أيا من النجدات التى يبلغ تعدادها العشرة آلاف لم تكن قد وصلت الى هذا القطاع من الجبهة بعد ، لاهى ولا دباباتها المائتان وكانت لا تزال تتحرك شرقا على الطريق من الاسماعيلية ، وعلى الطريق الساحلى ، وهى تواصل تقدمها رغم ما تتعرض له من غارات جوية عنيفة تقوم بها الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، وثبت أن دايان نفسه شعر ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر بالقلق الزائد على مصير معركة «أبوعقيلة» فى حالة وصول هذه النجدات المصرية اليها .

وكان الاسرائيليون قد فتحوا جبهة جديدة فى الشـــمال الأقصى باتجاه رفح لدى سماعهم بسقوط أول قنبلة من قنابل الحلفاء على أرض مصر ، ولم تكن هذه المعركة قد سارت سيرا حسنا بل كان الهجوم قد توقف وظل متوقفا الى أن تعاونت المدافع الاسرائيلية والبوارج الفرنسية فى قصف المواقع المصرية فى الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر .

ويلخص الرائد أوبالانس الذى عاد فاستعمل عبارة «انتصار» فى النهاية فى سرده للقصة ، الوضع عشية الواحد والثلاثين من اكتوبر على النحو التالى :

«وتبين بعد يومين من القتال أن الاسرائيليين لم يكونوا قد حققوا بعد شيئا على النحو الذى كانوا يطمعون فيـــه ، وان كانوا قد أحرزوا بعض التفوق .. أما بالنسبة الى المصريين ، فلم يكونوا قد أضاعوا كل شىء بعد فهناك لواء مدرع يزحف على الطريق الوسطى ولم تكن رفح قد ســقطت بعد ، كما لم تكن مواقع «أبو عقيلة» قد ضعفت أمام المهاجمين ولم يكن الهجوم على العريش قد بدأ بعد » .

ويستحق هذا التلخيص للوضع أيضا بعض الانتقاد لمـــا فيه من تناقض غريب ، ولانه لايؤلف صورة صحيحة عن الوضع كما كان عليـــه ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر ، ولا سيما بالنسبة الى ماكان متوقعا ، وكل ماحدث بعد الآن كان شيئا حاسما حتما ، فالرائد أوبالانس يعترف بتأثير أوامر القاهرة بالانسحاب ، ولكن اعترافه جاء فى صورة غريبـــة ومخالفة للواقع الذى تحتمه الطبيعة العامة للمعركة .

فلقد توقف الوضع منذ تلك اللحظة عن أن يكون حربا ، وشرعت قوات مصر الرئيسية فى تلك الليلة ، أى ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر فى تنفيذ أوامر الانسحاب من قطاع اثر آخر ، متراجعة على طرق صعبة

الى الغرب باتجاه القناة . وفى الشمال البعيد ، أى فى رفح ، تلقى القائد المصرى وهو يرى مدافع البارجة الفرنسية جورج ليجو ، والمدافع البرية الاسرائيلية تصب نار قذائفها على مواقعه ، الامر من القاهرة بالانسحاب وتمكن رغم الهجوم الجديد الذى شنه الاسرائيليون على مواقعه تلك الليلة وفى الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر من اخراج معظم قواته وسحبها باتجاه العريش ، بفضل الحماية التى أمنتها له وحدات صغيرة قاتلت قتال مؤخرة تميز بالبسالة طيلة الوقت ، قبل أن تسقط رفح فى ذلك اليوم .

وتكرر نفس الوضع ، وان تأخر بعض الشىء فى قطاع أبو عقيلة فلقد كان الانسحاب من هذا القطاع ، صعبـــا بعض الصعوبة من جراء حركة الالتفاف التى وقعت من ناحية الجنوب ولكن وحدات المؤخرة تمكنت من الصمود طيلة اليوم الاول من نوفمبر فى المواقع الرئيسية الى أن تم انسحاب الجزء الاكبر من القوات المصرية نحو الغـــرب ، ولم يتمكن الاسرائيليون من احتلال هذه المواقع الا فى صباح الثانى من نوفمبر .. عندما وجدوها تقريبا خالية من جنودها .

وأصبحت الطريق الى الاسماعيلية الآن من الناحية النظرية مفتوحة ولكن حرى بنا أن نتوقف قليلا عند هـــذه الطريق لنشرح كيف وقع الانسحاب ، ففى الساعات المتأخرة من صباح الاول من نوفمبر اندفعت الوحدات الامامية من الحركة الالتفافية حول العقيلة باتجـــاه الغرب على الطريق تعززها قوة كبيرة من دبابات شيرمان الضخمة ، ولكن هذه القوات الاسرائيلية ، اصطدمت فى «بئر سالم» بالعناصر الامامية من رتل النجدات المصرى الذى كان يتحرك شرقا باتجاه « أبو عقيلة » منذ الثلاثين من أكتوبر رغم مايتعرض له من هجمات جوية عنيفة ، ودارت معركة عنيفة بين عدد متساو تقريبا من دبابات شيرمان الاسرائيلية ودبابات (ت ٣٤) المصرية مما أدى الى وقوع اصابات وتلقت القوات المصرية آنذاك الامر بالانسحاب فانسحبت غربا ، بينما ظلت القوات الاسرائيلية فى مواقعها أربعا وعشرين ساعة أخرى طلبا للراحة من المعركة العنيفة التى خاضتهـــا ، ولو صح مازعمه العقيد هنريكس وغيره من الكتاب المتشيعين للصهيونية من أن مصر قد «هزمت» فى هذه المعركة لكان الانسحاب المصرى فى معركة «بير سالم» قد تحول الى هزيمة يسيطر عليها الذعر ، ولا تقف حدودها الا عنـــد الاسماعيلية ، ولكن القوات الاسرائيليـــة مالبثت أن اشتبكت فى «بئر جفجفة » فى صباح الثانى من نوفمبر أى بعد مضى أكثر من يوم على صدور الأمر من القاهرة بالانسحاب مع الدبابات المصرية ، ولننقل هنا ما قاله الرائد أوبيلانس عن هذا الاشتباك .

«ودارت معركة دبابات استمرت طيلة ساعات بعد الظهر ، ومنى فيها الفريقان بالخسائر ، ولكن المصريين تمكنوا من صد الاسرائيليين حتى حل الظلام ، وراحت دباباتهم تتراجع بنجاح وبسرعة فى اتجاه القناة»

ويتبين من هذا أن القوات المصرية كانت تقوم حتى مساء الثـــانى من نوفمبر بعمليات مؤخرة تعويقية لتغطية الانسحاب ، وهنـــا كان الاسرائيلون قد وصلوا الى النقطة . التى كان ايدن قد زعم وصولهم اليها

فى الثلاثين فى أكتوبر أى قبل ثلاثة أيام كاملة • ومع ذلك لم تكن القوات التى وصلت الى هنـــاك الا طليعة أمامية فى الدبابات ، مافتئت حتى تلك اللحظة تلقى مقاومة مصرية منظمة وعنيدة ، رغم انقضاء يومين على صدور الامر بالانسحاب •

وتظهر نفس هذه الصورة عندما نستدير جنوبا الى مضيق المتيلة وكان القائد المصرى هناك قد تلقى الاوامر بالانسحا بفى ساعة مبكرة من ليله الواحد والثلاثين من أكتوبر ، وشرع على الفور فى تنفيذها وهكذا عندما شرع اللواء الاسرائيلى الكامل فى الهجوم فى الصباح ، وجد أنمعظم الخطوط المصرية قد أخلى من الجنود الذين خلفوا وراءهم جماعات مؤخرة صغيرة لتغطية الانسحاب بزرع الالغام فى الطريق، واعاقة التقدمالاسرائيلى ولكن الاسرائليين وقد أنهكهم القتال ، على حد تعبير الرائد أوبيلانس ، لم يحاولوا التقدم غربا طيلة ذلك اليوم كله ، ولم يحاولوا أيضا التقدم باتجاه القناة طيلة الثانى من نوفمبر ، اذ لم يستطيعوا اسكات آخر جيب من جيوب المقاومة المصرية الصغيرة فى المضيق قبل الثالث من نوفمبر •

ونعود فنتطلع الآن الى الوضع فى أقصى الجنوب فى شرم الشيخ • لم يكن التقدم الاسرائيلى نحو حامية هذا الموقع قد حقق نجاحا كبيرا ولم يشرع فى هجومه الفعلى قبل الرابع من نوفمبر ، وكان القائد المصرى فى شرم الشيخ قد تلقى أمرا من القاهرة بالانسحاب ، ولـكنه رد على ذلك باستحالة التنفيذ وانه سيقاتل والحالة هذه حتى النهاية ، وكان الضابط يقود ألفا ومائتين من الجنود ليس الا ، تواجههم قوة اسرائيلية ضخمـة مؤلفة من لواء مدرع كامل ، وبعض القطع البحرية فى أيلة ، وتعززها غارات جوية تقذف قنابل النابالم المحرقة، وتنزل المظليين فى بعضالمناطق ومع ذلك ظل القائد المصرى صامدا حتى النهاية رغم ما أصيب به من خسائر أربت على المائتى شهيد والثلاثمائة جريح ، ولم يستسلم الا فى الخامس من نوفمبر أى بعد خمسة أيام كاملة من تلقيه ما يشعره من القاهرة باستحالة وصول أية نجدات اليه ، وما يبلغه أن بقية القـوات المصرية ، أخذت تنسحب من سيناء ، وهنا يجوز لنا أن نتساءل ، هل هذه الحقائق الثابتة المؤكدة تنطبق مع ما زعمه الاسرائيليون من « نصر خاطف » أو « هزيمة » ؟

وأرى أن أنتقل الآن بعد أن سردت ماوقع بعد ليلة الواحدوالثلاثين من أكتوبر، من صدور الأوامر بالانسحاب، البحث فى عامل آخر ذى أهمية عسكرية بالغة الخطورة • فعندما وصلت التقارير الى الرئيس عبد الناصر فى الأول من نوفمبر عن نتائج الغارات التى قامت بها الطائرات البريطانية على مطارات مصر • اصدر الزعيم المصرى امرا آخر • وكانت هذه الغارات قد انزلت بعض الخسائر بالمطارات المصرية ، فتوصل عبد الناصر ، عـلى الرغم فى حماسة قادة سلاحه الجوى ، الى قرار آخر بوقف كل نشـــاط جوى مصرى • وكانت حفنة الطيارين المصريين الممتازين قـد قامت بنحو من (١٥٥) عملية طيران فوق سيناء طيلة الثلاثين والواحد والثلاثين من اكتوبر ، وحققت نجاحا ، يفوق كل ما عرف من أرقام قياسة ، وان كانت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية النفاثة التى تفوق سرعة الصوت ، قـد

بدت متفوقة كما على الطائرات المصرية • أما الآن فقد تغير الوضع تماما • وبات لزاما على الضربات المصريه ان تخترق السياج الجوى الذى فرضته الطائرات البريطانية والفرنسية فوق مصر ، قبل أن تصل الى سماء المعركة لتواجــه الطائرات الفرنسية والاسرائيلية النفاثة التى تفوقها عددا والتى تعمل من مطارات سيناء نفسها • وآمن الرئيس عبد الناصر ، أن قيـــام الطيارين المصريين بأية حركات جديدة فى مثل هذه الأوضاع ومن مطارات تتعرض باســتمرار للقصف الجوى من الطائرات البريطانية والفرنســية يعتبر عملا انتحاريا ولاجدوى منه مطلقا •

ولم يكن هناك فى القاهرة من يستطيع التكهن فى هذه المرحلة أى بعد الاول من نوفمبر ، بحقيقة ما سيحدث ، وان كان التصميم قائمــا على القيام بنضال طويل ضد الغزو الانكليزى ــ الفرنسى وضد اسرائيل أيضا• وقرر عبد الناصر ان حفنة الطيارين المصريين الموجودين أثمن من ان نضحى بهم عبثا ، لأن مصر ستكون فى حاجة اليهم فى نضالها الطويل المقبل • ولهذه الاسباب كلها ، أصدر الرئيس عبد الناصر أوامره بوقف كل نشاط جوى ، وراحت طائرات الاليوشن والميج ، يقودها طياروها ، تجـد الملجأ الأمين لها ، فى مناطق بعيدة لا تصل اليها طائرات الدول المعتدية • وقامت بعض الطائرات العاملة من مطارين عسكريين فى سيناء ، بآخر طيران بعد ظهر الأول من نوفمبر • وباتت الاجواء منذ تلك اللحظة على حد تعبير الرائد اوبيلانس ، السخيف ، تحت سيطرة القوة الجوية الاسرائيلية • ولكن يجب ان نضيف ، اذا كان هو قد نسى هذه الاضافة أو تجاهلهــا ، ان الأجواء باتت تحت سيطرة القوة الجوية الفرنسية العاملة فى سيناء على مســاعدة الاسرائيليين •

وأثر خلو الجو من الطائرات المصرية على القوات المنسحبة غربا فى سيناء باتجاه القناة ، اذ أخذت الأرتال المنسحبة تتعرض لجحيم من نيران الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، كما تعرضت لهذا الجحيم أيضا القوات التى كانت لاتزال صامده فى العريش وخان يونس وشرم الشيخ • وكان حاكم قطاع غزة قد نفذ أمر التسليم ظهر الثانى من نوفمبر ، لكن حامية خان يونس قررت أن تصمد ، وحاولت أن تستمر فى القتال ، ولكنها لم تستطيع المقـاومة أمام ما تعرضت له من جحيم الدبابات والطـائرات ، فانهارت صباح الثالث من نوفمبر •

وكان الانسحاب أمرا شاقا فى وجه هذه الاوضاع التى لم يلقهـــا جيش من الجيوش فى الحروب العصرية ، لا ســيما بعد أن فقدت القوات المنسحبة أى غطاء جوى ، بعد قرار وقف النشاط الجوى المصرى ، وأصبحت هدفا صالحا للطائرات النفاثة المغيرة التى تستخدم ضدها المدافع الرشاشة والصواريخ والقنابل وقذائف النابالم المحرقة • ولا يعنينى هنا أن أبحث فى أمر ما تميزت به هذه الغارات من بعد عن كل ما يسمى « بالاخلاق » لأن الطيارين الفرنسيين والاسرائيليين ، كانوا يعرفون أنهم لن يواجهوا أية مقاومة سوى ما يحمله الجنود المنسحبون من مدافع وبنادق • ولكن

الحاجة الى وضع الصورة على حقيقتها ماسة لاثبات ما فى كلمة « نصر » من زيف ومين .

ولم يكن هناك أمل فى النجاة أو فى الرد على الطائرات المغيرة ، أو فى النجدة تأتى من أية جهة كانت . وكان الضباط والجنود يعرفون ان بلادهم تتعرض لهجوم من دولتين عظيمتين ، وأن الأوامر صدرت اليهم بالانسحاب من ميدان المعركة مع اسرائيل . وهم يرون أنفسهم سواء أكانوا مشاة أم فى سيارتهم هدفا يائسا لنيران الرشاشات والصواريخ والقنابل والقذائف المحرقة والتى تحدث أزيزا مخيفا وهى تنزل عليهم من الطائرات الفرنسية والاسرائيلية التى تروح وتغدو كما تشاء . ولم يكن ثمة مكان تختفى فيه هذه القوات ، فالأرض صحراوية ومكشوفة تعلوها الرمال .

ولا أدرى ما سيكون عليه موقف جنود اسرائيل لووجدوا أنفسهم فى مثل هذه الأوضاع النفسية والبدنية . ولكن ما أعرفه أن سلوك جنود مصر ، لم يكن مختلفا عن سلوك أى جنود يمتون الى أعظم الدول العسكرية. فالجنود ينسحبون وفقا لخطة مرسومة من القتال ، ويجدون أنفسهم فجأة وقد فقدوا كل حماية جوية ، وليست لديهم مدافع كافية ضد الطائرات وليس أمامهم من ملجأ أمين أو غطاء طبيعى من صخور أو أشجار تخفيهم عن عيون الطائرات المغيرة عليهم باستمرار .. انها أوضاع لا تنطبق فى رأيى على أى عرف للمعارك . ومع ذلك فقد أثبت جنود مصر شجاعة وبسالة فائقتين فى دفاعهم مما اضطر بن غوريون نفسه ازاءه الى الاعتراف به وهو مندهش فى أول تقرير عسكرى قدمه الى برلمانه .

ولو أخذنا بعين الاعتبار عدد الذين استشهدوا فى معارك « شرم الشيخ » و« قسيمة » و« حيطان ديفله » و« أبو عقيلة » طبقا للأرقام التى اعترفت بهما اسرائيل نفسها لتبين لنا ، بوضوح ، أن هذه الارقام لا يمكن أن يقدمها الا شجعان بواسل ، صمدوا فى مراكزهم يقاتلون حتى النهاية .

وأرى لزاما على الآن ان الخص الوضع . ففى التاسع والعشرين من اكتوبر ، لم تكن اسرائيل قد حققت أى نصر فى سيناء ، واذا كانت قد حققت أى نجاح ، فان هذا النجاح لم يكن اسرائيليا ، وانما كان بريطانيا – فرنسيا – اسرائيليا . وفى وسعى أن أقول ، انه لم يكن هناك أى«نصر» بما تحمله هذه الكلمة من معنى حتى بدأ القصف الجوى البريطانى والفرنسى على مصر . وأما بعد صدور أوامر الانسحاب ، فلم يكن هناك فى رأيى الا « نصر » واحد تستطيع اسرائيل أن تتبجح به فى سيناء ، وهو ما أنزلته ، بهؤلاء الجنود المنسحبين المفتقرين الى كل حماية جوية من خسائر فى الارواح .

ونتساءل الآن ... ما مدى أهمية أوامر الانسحاب فى المعركة ؟ ان الرائد أو بالانس الذى سمح لنفسه باستعمال عبارة « نصر » رغم عدم وجودها ، والذى لا يمكن للصورة التى رسمها أن تسمى « مؤيدة لمصر » يحكم على الاثر الذى تركه التدخل » الفرنسى الانكليزى على النحو التالى :

« لو لم يقع التدخل ، لطالت حملة سيناء أياما وأياما ، وأسابيع واسابيع وقد لا تتغير النتيجة ، ولكن اسرائيل ، كانت ستخرج من القتال حتما ، وهى مثخنة بالجراح ومجهدة ماليا واقتصاديا وماديا ، وكانت خسائرها فى الأرواح ستبلغ حدا مرعبا بالنسبة الى دولة صغيرة كاسرائيل » (١) .

وكانت العوامل الرئيسية فى هذه الحرب ، مقررة فى مجموعها منذ أمد طويل ، وهى من الوفرة بحيث يجب تقديمها فى أى تكهن عن الحرب لو وقعت فى شكل مغاير ، وكان من المستحيل أن نفترض حربا تقع فى شكل مغاير فى عام ١٩٥٦ ، فلو افترضنا مثلا عدم وجود «تدخل» فرنسى – انكليزى ، لتحتم علينا أن نفترض أيضا عدم وجود « تواطؤ » سابق ، ومثل هذا الافتراض ، يستلزم أن لاتكون هناك أزمة «قناة» وما رافقها من تهديدات انكليزية – فرنسية مستمرة ، قبل سبتمبر وبعده ، واذا افترضنا أن «التدخل» الانكليزى – الفرنسى لم يقع تحتم علينا أن نفكر «بتدخل» عربى ، كان لابد وان يقع ، ولم يمنع وقوعه الا طلب القاهرة من الدول العربية ، بأن لاتتدخل وان تقف دون حراك .

وعلينا فوق هذا كله ، اذا افترضنا عدم وجود «تدخل» انكليزى – فرنسى ، أن نضع بعد ذلك السؤال العريض الضخم .. هل كان فى الامكان فى مثل هذه الحالة أن يقع هجوم اسرائيل ؟ انى أرى للأسباب الذى شرحتها فى هذا الفصل وفيما سبقه من فصول ، ان ثمة مبررات تدعو الى الاعتقاد بأن مثل هذا الهجوم ماكان ليقع ، ولو وقع لما وقع فى اتجاه سيناء أبدا ، وهل كان فى وسع موشى دايان أن يتحدى القوة المصرية الكاملة التى تحتفظ بها عادة فى سيناء ، والقوات الاضافية التى كان فى وسعها أن تزج بها فى الميدان لولا الخشية من حشود قبرص ؟ وهل كان فى وسعه أن يتحدى قوة مصر الجوية بدون هذه الطائرات النفاثة الفرنسية الستين التى جاءته لنجدته ؟ وهل كان فى وسعه أن يتجاهل الدول العربية الاخرى ؟

أجل لقد كان هناك نصر لاسرائيل فى سيناء ، ولكنه نصر على الورق ليس الا ، وفى صحافة الغرب وبرلماناته التى خلقت أسطورة « النصر الاسرائيلى المستقل» ولم تكن هذه الأسطورة الا واحدة من الأساطير العديدة التى ظل الصهيونيون يخلقونها فى الغرب طيلة أربعين عاما .

---

(١) هذا ما رآه هذا الكاتب المشايع لاسرائيل والذى يظهر تشيعه فى اشارات الكاتب اليه وفى استخدامه لعبارة «نصر» اكثر من مرة ، وهو ادرى من سواه بأنه لم يكن هناك أى نصر من أى نوع ، أما رأى المحايدين فيختلف كل الاختلاف عن هذا الرأى ..

– المعرب –

- ١٣ -

الى النقطة التى لا ردة عنها

« كان فى وسع الولايات المتحدة الامريكية فى شهر أغسطس عام ١٩٤٥ ، ان تعمل على مساعدة البعث الثورى لآسيا ، وان تعترف بالتبدل الحتمى فى الاوضاع الراهنة ، وأن تتولى قيادة الثورة نفسها .... وكانت تلك الفترة بالنسبة الى آسيا من أكثر الفترات حراجة فى تاريخ العالم .... ولكن الولايات المتحدة فشلت فى أن تحمل لواء رسالتها التاريخية فى آسيا ، وذلك لان الحكومة الامريكية كانت آنذاك أكثر اهتماما بميزان القوى منها بالبواعث الاجتماعية » .

روبربرت بين ـ ١٩٤٩
فى كتاب «تقرير عن أمريكا» لجون داى

***

« هل ترانا سنكون مخلصين لتقاليدنا عندما نرى الشعوب الآسيوية تتقدم الينا طلبا لتفاهم والثقة » أو هل سيكون موقفنا منها موقف الزاجر ، مرددين نغمتنا المأثورة .... سيسيطر عليكم الروس اذا لم تفتحوا عيونكم ؟ » .

شيستر باولز فى كتابه
« تقرير سفير » ـ لندن ١٩٥٤

***

هناك نوع من التآلف التاريخى بين هذه المعارك الضخمة التى تخوضها الآمال ضد التقاليد الاستعمارية وبين هذه الكوابيس التى تخوض معاركها ضد الواقع . ولقد أتيحت للدول الكبرى ، المرة تلو المرة ، أوضاع نسميها نحن بنقاط التحول التاريخية ، تكون فيها دروس الماضى وعبره تحت تصرفها . ولكن هذه الدول الكبرى ، كانت تمر بهذه النقاط بشىء من التردد المنجم من الكرام ، فيظل الصراع قائما بل ويمضى فى الحدة والاشتداد . وآنذاك تقع النقاط التى لا تحول فيها ولا ردة عنها ، والتى لا يمكن التأجيل فيها فى اعادة تقدير المواقف ، لأن السياسات والمواقف التى تتطلب اعادة التقدير والنظر قد هوت حطاما ، وقد انتقل زمام المبادرة الغربية فى الشرق الاوسط ، بعد نقطة التحول فى السويس الى الولايات المتحدة ، وانتقلت معه الفرصة التى لا تقدر بثمن ، للافادة من عبر السويس ودروسها .

وكنت ذات يوم من أيام ديسمبر عام ١٩٥٦ ، أتحدث فى حانوت صغير فى بلدة أريحا (فى الاردن) الى رجل مثقف من اللاجئين الفلسطينيين عن الاثر الذى تركه عدوان السويس عند الخمسة والثمانين ألف لاجىء فلسطينى المقيمين عند سفح جبل التجربة (جبل قرنطل وراء أريحا) فقال لى الشاب ... « أعرف . انه امر مدهش . فنحن كبار السن نهتم بالسياسة طبعا ، ولكن الغريب أن أجد ولدى الذى لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، يتحدث فيها ويفكر كما نفكر لأول مرة » .

وسألت الرجل بالطبع ، عما قاله الصبى حتى حمله على قول ما قاله ، فأبلغنى ان زلزالا ارضيا عنيفا وقع ذلك اليوم وهز الاردن كله . وجاءه ولده يسأله عن سبب وقوعه ، فلما رد الوالد بانه لا يعرف ... انفجر الولد هاتفا ... كم كنت أود لو وقع فى لندن وباريس وهدمهما.

وسأله أبوه ... ولماذا لندن وباريس ؟ لا موسكو وواشنطن مثلا ؟ ... فرد الصبى والدهشة تعلو وجهه ... لا . لا . انهم أصدقاؤنا .

***

وكان نقع سيناء وبورسعيد قد بدأ ينجلى ، كما أن سورة الغضب العاصف ، أخذت تهدأ شيئا فشيئا . ولقد انتهى الخطر الحاد الماثل . وسلبت حكومتا ايدن وموليه بلاديهما ما كان لهما من نفوذ نافع فى الوطن العربى ، وكان ايدن فى هذا أكثر ضررا من زميله . فلقد كان فى مكنة العرب أن يفهموا أن تخوض فرنسا حربا ضدهم فى مصر ، طالما انها تخوض حربا ضدهم فى الجزائر ، ولذا لم يكن عدوانها غريبا بالنسبة اليهم ، لكنهم أصيبوا بما يشبه الصدمة العنيفة من جراء عمل بريطانيا. وكانت هذه الظاهرة غريبة ولكنها مألوفة فى المفاهيم القومية . ففى هذه الموجة من الغضب الثائر ، كان المرء يسمع أحيانا من العرب قولهم ... « لا ريب فى أن ايدن رجل مريض . ومريض للغاية . اذ ليس من المعقول أن تقدم بريطانيا على مافعلته » . ويميل الانسان الوطنى الى دراسة الحدود المحتملة لما يمكن أن يقوم به خصمه من أعمال على ضوء مصالح هذا الخصم وحدها . وعندما يقوم هذا الخصم بعمل يقضى على مصالحه هو ، فان الوطنى لا يكتفى باظهار الدهشة وحدها ، وانما يحس أيضا وبطريقة غريبة بالألم من أجل خصمه . وليس هذا الشعور زائفا ولا مصطنعا ، وانما هو شعور حقيقى أصيل .

لكن كل هذا لم يكن أكثر من مجرد التفاتة متباطئة الى الماضى. فلقد خلفت الدولتان الكبريان فعلا فراغا فى المنطقة ، وكان فى وسع المرء أن يلمس هذا الفراغ فى كل مكان . ولكن ترى أى نوع من الفراغ خلفتا ؟ وجد العرب أنفسهم يتأرجحون بين الاحساس بالاعتراف بالجميل للاتحاد السوفياتى ، وبين التوقعات المذهلة والتى لا تكاد تصدق من جانب أمريكا . حقا لقد كان هذا هو الميزان الصحيح ، الاعتراف بجميل موسكو ، والامل فى واشنطن . وأخفتت أصوات المدافع فى بورسعيد وسيناء ، وتلك التى ما زالت مدوية فى الجزائر منذ عام ١٩٥٤ ، هدير الدبابات السوفياتية وهى تقتحم شوارع بودابست .

ولكن ان ظلت مذابح المجر ، خفية على العـرب لا يرونها . فان موقفهم الأساسى من الحيـاد لم يتبدل أبدا . وعاد الغرب يخطىء فى قـراءة الوضع وتفهمه من جـديد . فالشعور بجميـل موسكو لا يعنى مطلقا الاستعداد لتوقيع أحلاف معها ، أو منحها اية قواعد . وعلى النقيض من ذلك تماما ، فان الطـريقة التى اتبعتها روسـيا فى تهـديد بريطانيا وفرنسا بالصواريخ ، قد ذكرت القادة الوطنيين بشىء من القوة ، بان هناك دولة عظمى أخرى . (١)

واخطأ عدد كبير من العـرب فى الوقت نفسـه ، فى فهم ما عملتـه أمريكا . وقد اعتبر هؤلاء عملها مجـرد استنكار لهجوم استعمارى . وانطلقت بارقة أمل لفترة قصيرة فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ ، ما لبثت أن عمت العرب ، فى أن تكون الولايات المتحدة قد تخلت عن ذلك الطراز من السياسات الذى ورطها فى سحب عروض القروض للسد العـالى ، وانها قد عادت الى تقاليدها المناهضة للاستعمار . واذا كان قد وجد فراغ فى الشرق الاوسـط ، فان هـذا الفراغ لم يكن متعلقا بالنفوذ بل بالامال المتجهة الى أمريكا . وليس ما أقوله مجرد تلاعب فى الالفاظ أو اسـتعارات ، بل كانت اللحظة تاريخيـة من تلك اللحظات التى يمكن مقارنتها بما وقع فى آسيا فى عام ١٩٤٥ . والتى يمكن اعتبارها نقـاط تحول لا ردة عنها .

ولم يتح للولايات المتحدة فى أى وقت منذ عام ١٩٤٨ ، أن تقف مثل هذا الموقف الملىء بالفرص فى الشرق الأوسط . ويتساءل المرء ماذا عنته تلك الفرص يا ترى ؟ لم تكن الحاجة ماسة آنذاك لأية خطـوات مثيرة ، كما لم يكن هناك أى مجال لترياق شاف ، ولم يكن فى الامكان اجراء أية محاولة فى موضوع فلسطين لعدة أشهر قادمة على الاقل ، كما لم يكن من المتوقع القيام بأى شىء عاجل فى موضوع قناة السويس . وكل ما كانت الحاجة ماسة اليه آنيا ، هو أن تتبع أمريكا سياسة حـذرة ، واضحة تعمل على تشجيع ثقة القوميين العرب بها ، وتسـتغل ببطء ولكن بشىء من التأكيد ، ذلك الوفر الضخم من الآمال التى علقهـا العرب عليها من جراء موقفها تجاه العدوان الثلاثى على السويس .

وكانت الحاجة ماسة من الناحية العقائدية الى ايماءات واضحة من جانب الولايات المتحدة تشير الى استعدادها للتسليم للعرب بموقف عدم الانحياز الذى سلمت به للهند ، والى اعترافها وتفهمها لحلم العرب فى وحدتهم ، وأنها على استعداد للسماح للعرب باختيار القيـادة التى

(١) القى الرئيس عبد الناصر خطابا عنيفا فى الواحد والعشرين من نوفمبر ١٩٥٦ أعلن فيه ان مصر لن تصبح دولة تابعة لأية دولة عظمى، وقال انها لن تسـير فى ركاب الماركسـية أو الفاشـية أو العنصرية أو الاستعمارية أو الاستيطانية . ولا ريب فى انه كان مصمما على مراقبة شـعور الاعتراف بالجميـل الذى غمر جمـاهير شعبه . وظلت اذاعة القاهرة تذكر المستمعين طيلة الفترة التالية بأن القومية العربية لا تعنى الشيوعية .
ـ المؤلف .

يشاءونها . أما اذا تعـذر على الولايات المتحدة أن تتخذ هـذه المواقف كلها . فقد كانت فرصتها تحتم عليها على الاقل أن تمتنع عن مطالبـة العرب ، وهزة العدوان الانكليزى ـ الفرنسى ، مازالت حية وقوية فى أذهانهم ، بالاعتقاد بانهم معرضون لخطر العدوان السوفياتى .

لكن شيئا واحدا ، كان واضحا كل الوضوح بحيث بدا لى أن من الفجاجة بمكان أن أدونه وأنا أطوف أرجاء المنطقه فى نوفمبر عام ١٩٥٦ اذ لم يكن من مصلحه أمريكا نفسها ، ولا من مصلحة الغـرب عامة فى المنطقة أن تبحث هى عن الحصول على التزامات سوقية (استراتيجية) جديدة من المنطقة أو من أية دولة عربية ، مهما كان الاسم الذى ستحمله هذه الالتزامات . ولم يكن الوضع يسمح بتفضيل دولة عربية على أخرى أو اختيار تلك العهود الراغبة فى قيام مثل هذه الالتزامات . فلقد جاء عدوان السويس بمثابة دليل جديد للشباب العربى بأن الحلف الاجنبى فى أى مكان من الوطن العربى يهدد المنطقة كلها . ولم يكن ثمة جـدوى من مناقشة هذا الرأى ، فهناك حقيقة مجردة وهى أن التسهيلات الخاصة لاتفاقات حلف بغداد والتى تشمل السماح بقيام قواعد للسلاح الجـوى البريطانى فى العراق ، كانت جزءا لا يتجزأ من الشبكة السوقية لدولة عظمى ، لم يمض طويل وقت على غزوها مصر .

يضاف الى هذا أن تبنى الولايات المتحدة لسياسة عدائية تجاه مصر وسورية ، يعرضها لعداء الملايين من العرب خارج هذين البلدين ايضا . فلقد تحطم النسيج الغربى كله عن موقف عبـد الناصر ، على صخرة السويس التى أدى هو الى العدوان عليها ، ولم تكن هـذه النتيجة مجرد تخمين أو افتراض مطلقا .

لا انها ليست فرضية بل حقيقة واقعة ، انطلق صوتها عاليـا فى سماء كل عاصمة بل قرية عربية ، ولم يكن المستر ايزنهاور فى حاجـة الى أن يهدى الرئيس عبد الناصر مسدسا آخر مطليا بالفضة ، عربونا على صداقته وكان فى وسع ساسة أمريكا أن يحملوا مايشاؤون من آراء شخصية عن الرجل . ولكن كان من الضرورى جدا تجنب سـياسات تتعارض مع الاتجاهات التى جعلت من عبد الناصر الزعيم والرمز للعرب جميعا .

ولم تكن هذه الضرورات بالنسبة الى السياسة الامريكية تمثل مثالية أو احسانا ، وانما كانت فى حكم كل تقويم صحيح ، الرد المصلحى والصادق على « المقدمات » السوفياتية . فلقد أضحى الاتحاد السوفياتى فى الواقع دولة من دول الشرق الاوسط فى دبلوماسيته ، وهـو وضع لم يكن فى الامكان تبديله فى عام ١٩٥٧ كما لم يكن فى الامكان تجنبه فى عام ١٩٥٤ . وقد قرر الاتحاد السـوفياتى أن يدخل حلبة الصراع الثقافى المستمر فى الوطن العربى الثورى . وبينما كانت مراكب الانقاذ التابعة للامم المتحدة تتولى تطهير القناة . كانت فرقة للرقص الشعبى التشيكى تؤدى أدوارها على مسرح دار الاوبرا فى القـاهرة .. وهى الدار التى بنيت للامبراطورة الفرنسية يوجينى عند مجيئها الى القاهرة لافتتاح قناة السـويس . والتى كانت أوبرا « عائدة » لفيردى ، أول ما مثـل على

مسرحها . ولم يكن فى الامكان أيضا الحيلولة دون اشتراك الاتحاد السوفياتى فى هذه المنافسة الثقافية . وكان الاتحاد السوفياتى قدأخذ يسعى الى التغلغل عميقا فى أسواق تجارة الوطن العربى ومشاريعونه الاقتصادى .. وقرر الاتحاد السوفياتى أن يكون دوله عظمى ذات مهابة فى عيون العرب ، بتولى الدفاع عن حركاتهم الوطنية . والتأكيد لهم باحترامها لحيادهم ، وبيعهم مايحتاجون اليه من سلاح وسلع ، دون أية اشتراطات سياسية ومقدمة اليهم مايحتاجون اليه من قيود غير مشروطة بفوائد طويلة الاجل لاتعدو الاثنين والنصف فى المائة . فهل كان فى مكنة الغرب أن يرد على الاتحاد السوفياتى ردا ايجابيا فى كل هذه النواحى ؟

وكانت هناك فى التركيب المعقد للسياسات السوفياتية ، بعض الآمال التى تنال حق الاولوية والتفضيل على غيرها . وكان أول هذه الآمال ، امكان العثور ضمن الحركة القومية العربية التى يسميها الشيوعيون « بورجوازية » والتى يقودها الرئيس عبد الناصر ، على عدد كاف من الرجال المتسترين عقائديا بحيث يصبح فى الامكان اخفاء تصاميم الصداقة العربية ـ السوفياتية ـ الصينية ، على المشهدالكامل للحركة العربية . لكن آمال الخبراء الروس فى شئون الشرق الأوسط فى تحقيق هذا الهدف مالبثت أن طاشت فى نهاية عام ١٩٥٦ . ففى مصر ثبت أن عبد الناصر لايمكن أن يكون من ذوى العقائد الانطوائية المتسترة كما توقف فى سورية التعاون التكتيكى المعادى للرجعية بين البعثيين الاشتراكيين وبين شيوعيى خالد بكداش . أما الشيوعيون فى مصر . فكانوا اما رهن المراقبة الشديدة أو رهن الاعتقال . وكانت موسكو نفسها قد يئست من نشاطهم وحيويتهم ، وأصبحت تطلق عليهم اسم الانتهازيين (١) .

ولكن ظل هناك هدف بعيد المدى ، وهو السعى الى الرفع من مكانة الاتحاد السوفياتى دائما فى عيون العرب ، بحيث اذا حلت لحظة ثورية مواتية فى مكان ما خارج مصر ، ظهر حزب شيوعى محلى ، ضمن اطار جبهة تقدمية ، يفرض عن طريقها سلطانه السياسى المباشر . وكان الابقاء على هذا الاحتمال قائما ، يتطلب ثلاثة شروط أساسية أولها اهتبال الفرص المستمرة المواتية للظهور أمام العرب بمظهر المدافع عنهم أمام المطامع الاستعمارية الغربية وثانيهما استغلال كافة الفرص للظهور أمامهم أيضا بمظهر الدولة الكبرى الوحيدة التى تمنح القروض غير المشروطة الى دولة الحياد العربى ، وثالثها ، الابقاء على التجزئة الرسمية والسياسية بين العرب ، بحيث يمكن القيام بعمل مرن متلون لمواجهة زعامة عبد الناصر .

---

(١) قام المؤلف بتحقيقات خاصة فى هذا الموضوع لدى عدد من مصادر الاعلام . ففى عام ١٩٥٧ ، منع عرض أحد الافلام السوفياتية فى دمشق . وألغى عرض سلسلة من الافلام السوفياتية فى مهرجان سينمائى فى القاهرة .

ـ المؤلف ـ

وكان من الواضح الى حد بعث الرعب فى النفوس ، أن فى امكان الاتحاد السوفياتى . ان يحقق هذه الشروط الثلاثة بسهولة مابعدها من سهولة ، اذا سلكت الولايات المتحدة سلوكا خاطئا بعد انتهاء مشكلة السويس . وكانت الدول المعتدية الثلاث فى سيناء والسويس ، قد حاولت علنا وجهارا ، أن تبرر عدوانها بين ماقدمته من تبريرات بالحاجة الى مواجهة خطر العدوان الروسى فى الشرق الاوسط . وكان هذا الادعاء بمثابة تضليل وخداع صارخين فى عيون العرب ، بل حجة باطلة لجأ اليها الاستعمار الغربى ، أظهر الموقف الذى اتخذه الاتحادالسوفياتى بطلانه وكذبه ، ولقد ثبت للعرب ، أن المساعدات الغربية مشروطة ، بل مغالية فى شروطها . وبدت حكومتا سورية والاردن (فى عهد الحكم الوطنى) ووراءهما تأييد شعبى قوى ، راغبتين رغبة أكيدة سجلتها الوثائق الرسمية ، فى اقامة اتحاد تعاونى (فيدرالى) مبكر ، مع مصر ، كخطوة حثيثة فى طريق انجاز الوحدة العربية الشاملة التى جاء عدوانا سيناء والسويس دليلا واضحا على ضرورتها السريعة . وهكذا ظهرت ثلاثة تساؤلات جوهرية أمام العرب ، كان على الولايات المتحدة أن تجيب عنها . وقد توقف على طريقة جوابها ، كل ما للغرب من علاقات مع العرب ، وكل ما لموسكو من فرص فى المستقبل .

وظهر هناك عامل آخر فى هذه الفترة من الترقب فى أواسط نوفمبر عام ١٩٥٦ ، ويتلخص فى مخاوف رجال العهد القديم المحافظ فى الشرق الاوسط وأهدافهم ، من جماعات نورى السعيد وشمعون ، وساسة المدرسه القديمة فى الاردن ومعظم أفراد الاسرة المالكة السعودية ، اذا وجد هؤلاء الافراد عونا خارجيا قويا ، وكان نورى السعيد قد اعتمد سنوات طويلة ، على ذريعة الخطر الشيوعى لاضطهاد المعارضة الوطنية داخل العراق ، والحفاظ على العون الغربى لعهده ونظام حكمه ، ورأى رجال المدرسة القديمة فى العهود الرجعية فى الشرق الاوسط ، فى الجهود المحمومة التى بذلتها حكومة ايدن لتبرير عدوانها على السويس بادعاء وجود قواعد سوفياتية فى سيناء ، دليلا مرشدا لهم يستطيعون السير على منواله والتمسك به . وكانت الدولة الغربية الوحيدة التى ظلت تملك شيئا من المبادرة فى الشرق الاوسط ، هى الولايات المتحدة وكانت مصابة بعصاب أكبر ضد الشيوعية ، يبلغ حدود الهوس . وقد فشلت الخطة التى رسمها نورى السعيد مع ايدن لضم الاردن الى العراق ، وجرت انتخابات حرة هناك فى الواحد والعشرين من أكتوبر أسفرت عن فوز العناصر الوطنية بالاغلبية الحاسمة . لكن الخطر من قيام وحدة بين مصر والاردن ، ظل متوقفا على قيام وحدة بين مصر وسورية . ورأى نورى السعيد وهو الماكر الداهية ، فى سورية الفرصة لاعادة التوازن مع القومية العربية الفتية التى يمثلها عبد الناصر ، وللحصول على عون أمريكى حاسم . وكانت هناك حتى فى صفوف الجيل العربى الجديد جماعات من المثقفين ثقافة غربية ، وكانوا يخشون متأثرين بالدعايات الغربية الكاذبة التى يقرأونها من أن يغدو عبد الناصر أسير السياسة السوفياتية . ورأى نورى السعيد فى كل هذه العوامل فرصة فعزم على اهتبالها ، ولم يضيع وقته .

وصـدرت فى أواسط نوفمبر موجة صوتيـة متصـاعدة تنشر الشائعات التى تبعث الرعب ، وتنسبها الى المصادر الموثوق بها ، ناقلة اياها الى الغرب ، زاعمة أن المقدم عبـد الحميد السراج رئيس المكتب الثانى السورى (آنذاك) ، يوشك أن يصبح « القوميسار الاحمـر فى سورية » وقيل ان هناك انقلابا مشابها للسوفيات يوشك أن يحدث فى سورية ، كما قيل ان الطائرات السوفياتية النفاثة شوهدت فى مطارات سرية فى سورية ، وأن الخبراء السوفيات يتدفقون على البـلاد ، وهم متنكرون تنكرا بسيطا ، ولم يكن فى سورية الا عدد قليل من الصحفيين الغربيين ، اذ ان البلاد كانت لاتزال فى حالة طوارىء نتيجـة العـدوان الثلاثى ، وكانت تغلق حدودها اغلاقا محكما . وانتشر الذعر فى الغرب انتشار النار فى الهشيم ، تغذيه الروايات التى تصدر عن بغداد وبيروت وأنقرة وباريس ولندن . (١) ولكن مؤلف هذا الكتاب ، تمكن من التجول بحرية فى سورية داخلا اليها وخارجا منها كما يشاء . وتبين له أن كل هذه الشائعات ، كاذبة ولا أساس لها من الصحـة ، وأن عبد الحميـد السراج ليس الا ضابطا وطنيا شابا ، وقد أثبتت الايام صحة رأى المؤلف اذ أن السراج سرعان ماقاد فى عهـد الجمهورية العـربية المتحدة حملة لمكافحة الشيوعية فى الاقليم السورى . وبينما كانت الانباء الرسمية المستمرة التى يوحى بها شـمعون ، تحتـل صحف بيروت متحـدثة عن الخطر الشيوعى فى سورية ، راح ضابط كبير فى المخابرات اللبنانية يعترف لى بصراحة ، أنهم على يقين من أن السراج ليس شيوعيا .

لكن الضرر كان قد وقع وحتى قبل أن يتمكن رجـال من أمثـال هانسون بلدوين المحـــــرر بصحيفة « النيويورك تايمز » من الطيران الى سورية باحثا عن القواعد السوفياتية ليعود فيبعث الى صحيفته بأنه لم يعثر على قاعدة واحدة منها . وراح المستر دالاس يعلن تأكيد بلاده مساعدتها لحلف بغداد . وأخذت واشنطن تعج بالانباء الرسـمية عن خطوة أمريكية جديدة تهدف الى « مواجهة الخطر الشيوعى فى الشرق الاوسط » ومعالجة وضع « فراغ النفوذ » الذى خلقته أزمة السويس. وراح نورى السعيد فى أواسط شهر دسمبر وبعد أن تمت له تهيئـة الرأى العام فى الغرب ، يحاول القيام بانقلاب عسكرى مسلح فى دمشق ، فيبعث بالأسلحة العراقية عبر الحــدود الى شركائه من الســوريين المتآمرين . (٢) وتمكنت الحكومة السورية من احبــاط المؤامرة ، ولكن

(١) نشرت « التايمز » اللندنية فى عددها الصادر فى ٢٨ نوفمبر عام ٩٥٦ ا رسالة من بغداد تقـول أن المستشارين الروس يتدفقـون على سورية . وان الاسلحة الروسية بدت تغمرها وان رئيس الوزراء صبرى العسلى رجل لاحول له ولا طول ، وأن السراج هو حاكم سورية المطلق . ـ المؤلف ـ

(٢) عثر على الأدلة القاطعة على محاولة الانقلاب فيما بعد فى أوراق نورى السعيد الخاصة بعد ثورة العراق ، ولم يحاول أى من رجال نورى السعيد انكار صحتها فى محاكمات بغـداد عام ١٩٥٨ ، وان كان هؤلاء قد انكروا بعض التهم الاخرى التى وجهت اليهم . ـ المؤلف ـ

عندما بدأت محاكمات المشتركين فى المؤامرة الانقلابية ، أخذت بغداد فى اشباع وسائل الاعلام الغربية بنظريتها عن « المحاكمات الصورية على الطراز الشيوعى فى سورية » .

وحملت أسلاك البرق ليلة الخامس من يناير عام ١٩٥٧ الى بيروت الرسالة الخاصة التى وجهها الرئيس ايزنهاور الى الكونجرس الامريكى والتى باتت تعرف بمبدأ ايزنهاور . وكانت هـذه الرسالة أول بيـان رئيسى عن السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط منذ انفجار سيناء . وقد ضمت الرسالة عدة ألوف من الكلمات ، وكانت موجهة قبل كل شىء الى الكونجرس الامريكى ، وان كانت الاستعدادات الرسمية والدبلوماسية قد اتخذت من قبل لضمان وصولها الى أكبر عـدد من العرب . وعلى الرغم مما فى الرسالة من عدد كبير من الكلمات ، فان الفقرات التالية ، كانت الاشارات الوحيدة التى تمت ولو من بعيد الى الافكار والمخاوف والعواطف التى كانت تجتاح الوطن العربى عندما خرج من محنة السويس وسيناء ... قالت الرسالة :

« وقعت مؤخرا حركات حربية أقحمت فيها الدول الغربية التى كانت تتمتع بنفوذ كبير فى المنطقة نفسها . وأدى الهجوم الكبير نسبيا ، الذى شنته اسرائيل فى شهر أكتوبر الى توسيع شقة الخلافات الاساسية القائمة بينها وبين جيـرانها العـرب . وعملت الشيوعية الدوليـة على تضخيم ماوقع من عدم استقرار ، مستغلة اياه أحيانا كل استغلال ... ولن يحل هذا البرنامج الذى وضعت ، جميع مشاكل الشرق الاوسط .. فهناك مشاكل فلسطين ، ومشكلة مستقبل اللاجئين العرب .

« وهناك مشكلة الوضع المقبل لقناة السويس . وتزيد الشيوعية الدولية فى حدة هذه المتاعب ، ولكنها تظل فى معزل عن تهديدها .

ويهدف التشريع المقترح الى معالجة احتمالات العدوان الشيوعى سواء أكانت مباشرة أم لا مباشرة » (١) .

وهكذا كان المستر ايزنهـاور يتحدث عن « شرق أوسط » لا يشبه فى قليل أو كثير « الشرق الاوسط » الذى كان مؤلف هذا الكتاب وغيره من الصحفيين الغربيين يتولون آنذاك دراسة أوضاعه . فلقد كان الوطن العربى لايزال يترنح من صدمة العدوان الغربى الثلاثى . ومع ذلك يقوم رئيس الولايات المتحدة بعد أن يعرض لهذه الاحداث بعبارتين يصف فيهما عدوان الدولتـين الـكبيرتين « بالحـركات الحربيـة » وعدوان اسرائيـل « بالهجوم الكبير نسبيا » ، فيبدى رأيه فى أن هذه الاحداث لايمكن أن تقاس بخطر العدوان الشيوعى . وراح مراسـل التايمز اللندنيـة فى واشنطن يبعث بعد أسبوع من صدور رسالة ايزنهاور الى صـحيفته بالبرقية التالية .

« كانت وزارة الخارجية الامريكية تأمل منذ وقت ليس بالقصير

(١) عدد النيويورك تايمز فى ٦ يناير ١٩٥٧ ، نص رسالة ايزنهاور

انه فور جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن الاراضى المصرية ،وفور خلاص عبد الناصر من الضغط الاجنبى ، سيتعرض عبد الناصر لمظاهر جديدة من الضغط من أسرة الدول العربية ، تفرض نفسها عليه فرضا فتخفف من غلوائه وعناده . ومن المتوقع أن تعنى وزارة الخارجية بتشجيع هذه الامتعاضات ضمن الاسرة العربية الواحدة ، عن طريق تطبيق وسائل الاغراء أو الوعيد مع مجموعة الشخصيات العربية البارزة التى ستقصد واشنطن عما قريب » (١) .

وكانت هذه المجموعة من الشخصيات التى أشار اليها المراسل البريطانى تضم الملك سعود ، وشارل مالك وزير خارجية لبنان الجديد والامير عبد الاله ولى عهد العراق اسما وملكه فعلا . وقد تحدث الى فى هذه الآونة فى بيروت موظف كبير فى شركة الزيت العربية الامريكية (أرامكو) فقال ان شركته هى التى اعدت أمر زيارة ملك العربية السعودية الى واشنطن ، أملا منها فى أن يغدو الملك سعود الشخصية التى تلتف حولها « جميع القوى المعادية لعبد الناصر والمناهضة لسياسة الحياد » . وكانت وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) ، متلهفة على الوصول الى اتفاق عقد اجارة طويلة المدى لقاعدة الظهران الجوية التى كان يستخدمها السلاح الجوى الامريكى حتى تلك اللحظة بموجب عقود ايجار شهرية . وكان سعود بدوره متلهفا لزيادة عائداته ، التى كانت على الرغم من موارد الزيت أقل بكثير من نفقاته الشخصية ونفقات أسرته المالكة التى تبلغ عشرين مليون جنيه فى السنة ، أى خمس مورد الزيت والتى يدفعها كمرتبات شخصية لنحو من ألف أمير من أقربائه(٢)

ووقع تطور مهم آخر فى مصر فى شهر يناير ، لم يلق آنذاك أية عناية من مناقشات الصحافة العالمية . فلقد أدى تجميد أرصدة مصر من الاسترلينى والفرنك والدولار منذ شهر أغسطس عام ١٩٥٦ ، وما تبعه من وقف وصول المؤن ابان حرب السويس وسيناء ، الى البلاد ان أشرفت على الشلل الكامل . وتبلجت الحقيقة ذات يوم من أيام مستهل يناير ، عندما أدركت السلطات المسئولة ، أن مخزون الحنطة فى البلاد لايكاد يفى باحتياجاتها الاستهلاكية مدة أسبوعين وان مخزون الزيت (البترول) ، لايكفى لاربعة أيام ، وان مافى البلاد من كميات البنسلين وبعض أنواع العلاج الاخرى ، قد استهلك فى مستشفيات بورسعيد

---

(١) عدد « التايمز » فى ١٢ يناير ١٩٥٧ .

(٢) كتاب سنت جون فيلبى « عبد الله فيلبى » – أربعون سنة فى الصحراء .

والمعروف أن نفقات الملك سعود الشخصية قد تجاوزت هذا الرقم الذى أورده فيلبى بكثير ، ولا سيما فى السنوات الأخيرة ، عندما كثرت رحلات الملك الى الخارج وتزايدت نفقاته على هذه الرحلات وعلى ما يقوم به من مؤامرات فى أرجاء الوطن العربى . والمعروف أيضا أن هذه النفقات قد أربت مؤخرا على الاربعين مليونا من الجنيهات أى مايزيد على ربع الميزانية العامة كلها .

– المعرب –

وفى تلبية طلبات الجماهير فى بلاد يسهل انتشار الامراض السارية فيها اذا ضعفت الرقابة الصحية عليها . وناشدت الحكومة المصرية الولايات المتحدة أن تبعث اليها بعون عاجل ، ولكن المستر دالاس ، رفض تلبية هذا النداء ، وبعثت مصر بطلب آخر الى واشنطن ، تسألها فيه الافراج عن بعض أرصدة دولاراتها المجمدة لتتمكن من شراء ماتحتاج اليه البلاد حاجة ماسة . ولكن أمريكا رفضت تلبية هذا الطلب أيضا (١) وراح عبد الناصر بعد ذلك يبرق الى بولجانين فتلقى ردا فوريا منه بان السلع التى تريدها مصر ، قد شحنت حالا وبينها ستمائة ألف طن من القمح . وعرف المصريون فى شهر فبراير من لون الخبز الذى أكلوه ، أن روسيا قد أقامت الدليل على أن الصديق عند الضيق » . أما ماحققه المستر دالاس من رفضه ، فكان أقل وضوحا وجلاء .

وعلى الرغم من أن دالاس كان ينفى بين الفينة والفينة مايقال من أنه يرى أن هناك « فراغ نفوذ » فى الشرق الاوسط ، وان احدى الدول العظمى يجب أن تملأه ، الى أن هذا التعبير ظل ينتشر ويذيع عند الناس ولاريب فى أن هذا التعبير كان يعتبر عند الوطنيين العرب استفزازيا فى معناه . وعلق البانديت نهرو من مكانه البعيد فى دلهى الجديدة غاضبا على هذا القول بأن هدف الوطنية الاصيلة ، الحلول محل كل نفوذ دخيل غريب . وقمت فى القاهرة بزيارة المكتبة التى أنشأها مكتب المعلومات الامريكى ، وواجهتنى فى مدخلها لوحة اعلانية ضخمة تقول ان هناك نسخا مجانية للتوزيع من « مشروع ايزنهاور » وقد حملت العنوان الضخم التالى : « هل هناك فراغ فى الشرق الأوسط ؟ »

وأوفد الرئيس ايزنهاور المستر ريتشاردز مبعوثه الخاص بمشروعه ليجول أرجاء الشرق الاوسط ، ويطلع الحكومات العربية على مضامين السياسة الامريكية الجديدة . واكتسب المشروع نتيجة هذه الزيارات طابع الاتفاقات الثنائية التى يعقدها مع الحكومات الراغبة ، لمقاومة الشيوعية وسياسة الحياد وذلك فى البلاغات المشتركة التى كانت تصدر اثر زيارة المبعوث الامريكى لكل عاصمة عربية . وأخذت الخرائط الجديدة تظهر مرحلة اثر أخرى ، فى الصحف الامريكية والصحف البريطانية المحافظة مقسمة الشرق الاوسط الى مناطق « موالية للغرب » وأخرى « موالية لعبد الناصر » ، طبقا لموقف كل حكومة من مشروع ايزنهاور الجديد . وكان الوطنيون العرب ، يرون كل هذا ولايغيب معناه عن أذهانهم . واعلنت الولايات المتحدة الامريكية فى الثالث

---

(١) عدد صحيفة « التايمز » اللندنية فى ١٨ يناير ١٩٥٧ . لمراجعة التفاصيل . وقد أطلع المؤلف على تفاصيل أخرى عن طريق التحقيقات التى قام بها فى ذلك الوقت ، والتى تأيدت له فى المقابلة الصحفية التى أجراها مع الرئيس عبد الناصر فى أواخر عام ١٩٥٨ . راجع أيضا مقابلة الرئيس مع رؤساء تحرير الصحف الامريكية فى مارس ١٩٥٧ .

– المؤلف –

والعشرين من مارس انها ستنضم الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد . وكان المستر دالاس قد أقسم قبل أيام ، بأن الولايات المتحدة لم تأسف أبدا على قرارها سحب عرض القرض للسد العالى ، وأن « الاحداث » قد برهنت على أن هذه العروض لم تكن فى مصلحة امريكا أو بريطانيا . ولا ريب فى أن مثل هذه التصريحات كانت تزكى شكوك العرب وتؤيدها وهكذا لم تمض فترة خمسة شهور ، حتى كانت أمريكا قد أضاعت الفرصة التاريخية التى أتيحت لها . فقد اتخذت السياسة الامريكية الجديدة شكلا ، كان فى امكان المرء أن يتوقع نتائجه ، وهى النتائج التى تحققت وانتهت فى يوليو ١٩٥٨ .

***

من المتعذر على الكاتب أن يعرض فى مجلد واحد ، كل ماوقع فى تاريخ الشرق الاوسط بعد أزمة السويس من أحداث ، عرضا عميقا مفصلا ، متحدثا عن أزمة الاردن فى ابريل عام ١٩٥٧ وثورة لبنان ، والنقطة التى لاردة عنها فى بغداد فى الرابع عشر من يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ وقد لا أوافق على التزمت والاصرار على رأى معين فى التاريخ الانسانى لان من طبيعة الانسان الشك فى كل تزمت ولكن القضية هنا من القوة والطغيان بحيث يتضح لكل انسان أن العوامل التى دفعت السياسات الغربية فى الشرق الاوسط الى تلك النقطة التى لاردة عنها لم تكن بنت ساعتها ، وانما كانت تنمو وتقوى منذ أمد بعيد قبل أزمة السويس . وكل ما آمله الآن ، أن تكون هذه الآراء السياسية والافكار والاخطاء ، قد أصبحت واضحة لقراء هذا الكتاب . ويمكن تلخيص ماأدت اليه هذه الآراء والاخطاء فى ثلاث من دول الشرق الاوسط على النحو التالى : (١) الاطاحة بحكومة شعبية منتخبة فى الاردن ليحل محلها عهد يقوم على الاحكام العرفية ويستند الى الولايات المتحدة وبريطانيا ، و (٢) ثورة أهلية فى لبنان كلفت مئات الارواح وكادت تنقلب الى حرب أهلية طائفية لولا أن اللبنانيين ـ لا الامريكان ـ قد حالوا دونها فى الوقت المناسب ، و (٣) ثورة فى بغداد قذفت بكل ما للسياسة الغربية من بنيان الى الحضيض ، محطمة اياه من أساسه .

أزمة الاردن فى ابريل عام ١٩٥٧ :

حملت الانتخابات التى جرت فى الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، أى قبل بضعة أيام من بدء حرب سيناء والسويس ، والتى تعتبر حتى على حد تعبير التايمز (١) اللندنية ، « أهدأ ما عرفته البلاد فى تاريخها من انتخابات وأكثرها نزاهة » الى مقاعد البرلمان غالبية من الوطنيين . وأعلنت الحكومة الجديدة التى انبثقت عن البرلمان المنتخب والتى رأسها سليمان النابلسى ، السياسات التى كانت الاحزاب المشتركة فيها قد تعهدت أبان المعركة الانتخابية بتبنيها ، وهى سياسات تسير فى التيار المباشر للقومية العربية التى يتولى قيادها عبد الناصر .

(١) عدد « التايمز » اللندنية فى ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦

وتضمنت هذه السياسات اقامة قيادة عربية مشتركة مع مصر وسورية وقيام علاقات دبلوماسية مع موسكو وبكين ولكن مع التزام سياسة الحياد ، والغاء المعاهدة الانكليزية ـ الاردنية ، والسير فى خطوات فعلية للاتحاد مع سورية . وأوضحت المقابلة الصحفية التى أجراها النابلسى مع مراسل « التايمز » (١) هذه السياسات ايضاحا أوفى اذ قال ان الاردن سيواصل قبول العون الامريكى غير المشروط وسينشد السلاح فى الغرب أولا ، ولكنه لن يتوانى عن أخذه من أى مكان آخر اذا اقتضت الضرورة . وبدأت على الفور الخطوات اللازمة للاتحاد مع سورية ، اذ توحدت المناهج الدراسية وتم التوقيع على وحدة جمركية . وكان النابلسى صريحا كل الصراحة فى تحديد الهدف عندما قال فى بعض خطبه ان مصير الاردن النهائى ، هو أن « يختفى » كيانه ويذوب فى وحدة عربية أشمل . ولم يحتج أحد على هذه الاقوال أو تلك السياسات ، ولم تقع مظاهرات عدائية ، فالهدوء يعم المملكة « المفتوحة » لكل انسان ، وذلك لان حكومتها كانت تتمتع بتأييد شعبى لاشك فيه .

وحظى الملك حسين الشاب ، آنذاك بقسط من هذه الشعبية . وسمح قادة الاردن الوطنيون سواء فى الجيش أو خارجه ، للناس بأن يصدقوا أن حسين وحده ، هو الذى طرد جلوب باشا فى مارس عام ١٩٥٦ ، وقبل الملك الغلام تتنازعه سرا عوامل الادراك لما يريده شعبه حقيقة ، وماتفرضه عليه كبرياؤه الملكية ، نتيجة الانتخابات ، متظاهرا بالترحيب بها ، ونال الملك اعجاب حتى الغالبية من رعاياه من أبناء فلسطين الذين لايدينون بأى ولاء خاص للاسرة الهاشمية وتقاليدها . وراحوا يقولون عنه ... « يبدو انه قد تحول الى أكثر من ملك ، وأصبح وطنيا عربيا » .

لكن حسين لم يكن فى الحقيقة من ذلك الطراز الوطنى العربى الذى خاله شعبه وحكومته الجديدة ، والذى ظنه الرأى العام السائد فى الشرق الأوسط (٢) . اذ لم يكن طويل وقت قد مضى على اخراج جلوب من البلاد ، عندما وقع حادث فى القصر أوضح الخلاف فى الرأى بين الوطنية التى يفهمها هو ، والوطنية التى يفهمها شعبه . فقد استدعى الغلام الضباط الاحرار ، الذين كانوا قد شجعوه على طرد جلوب ، وأعدوا بالفعل خطة ابعاده . وراح يشكرهم ، ثم قال لهم انه يأمل فى أن يساعدوه الآن فى المهمة العظمى وهى « الدفاع عن القومية الاردنية ضد أعدائها » وخيم صمت قصير على الموجودين ، وانبرى على أبو نوار الضابط الشاب الذى يتزعمهم يقول : « لانفهم ياصاحب الجلالة ماتعنيه كلمة القومية الاردنية . ولم يحدث قط أن تحدثنا اليك عنها . فنحن لا نعرف الا قومية واحدة ، هى القومية العربية » .

(١) عدد « التايمز » اللندنية فى ٢٨ ديسمبر ١٩٥٦ .

(٢) كان السبب الحقيقى الذى حمل حسين على الموافقة على طرد جلوب . مقالا قرأه فى نهاية فبراير عام ١٩٥٦ فى احدى مجلات لندن ، تصف جلوب بأنه « ملك الاردن المتوج » .

ـ المؤلف ـ

وقد تأجل منذ ذلك الحين ، الصدام بين الاهداف وان ظل قائما وراء الكواليس . وكان السبب الوحيد فى هذا التأجيل ، هو أن حسين ورجال العهد القديم الذين يحيطون به فى القصر ، لم يستطيعوا ايجاد مخرج لهم من هذه الورطة . وتبخر بعد معركة السويس كل أمل لحسين فى العون البريطانى . وكان حسين يعرف أنه مع العجز الذى يبلغ الاربعة عشر مليونا من الجنيهات فى العام فى موازنة حكومته ، لايستطيع البقاء مستقلا اذا توقفت المعونة المالية البريطانية التى تنص عليها المعاهدة ، فى حالة الغائها ، ولكنه كان يعرف أيضا ، أن شعبيته كلها تعتمد على السماح بالالغاء الموعود للمعاهدة بل على تشجيعه لهذا الالغاء . وكان يعرف أيضا أن الخطوة التالية لالغاء المعاهدة هى الانضمام الى سورية وضياع عرشه . وبدا لحسين وساسة العهد القديم حتى شهر يناير عام ١٩٥٧ ، أنهم عاجزون عن عمل أى شىء مع هذه القوى الجديدة التى اقر حسين نفسه بظهورها . وبالفعل تم فى التاسع عشر من يناير اقرار معاهدة المعونة العربية المشتركة للاردن التى وقعتها كل من مصر وسورية والعربية السعودية .

لكن شيئا خفيا كان يدور فى تلك الآونة وراء الكواليس وظل مستمرا حتى ابريل من ذلك العهد ، وهو الخطوة الحاسمة التى قامت بها الولايات المتحدة ، وأطلقت عليها اسم « مشروع ايزنهاور » . وكان الرئيس النابلسى قد طلب معونة غير مشروطة من واشنطن بقيمة ثلاثين مليون دولار ، ولكن واشنطن رفضت طلبه هذا . وراح السفير الامريكى فى عمان فى هذه اللحظة ، يهمس فى أذن الملك حسين على انفراد بأن الولايات المتحدة ستعين الملك فى المحافظة على « استقلال » الاردن ، اذا تخلت حكومته عن سياسة الحياد وعن اقامة العلائق الدبلوماسية مع موسكو وبكين .. وراح السفير يطمئنه ، بأن أمريكا لاتطلب منه أن يؤيد مشروع ايزنهاور تأييدا علنيا ، نظرا لكراهية الشعب له ، ولكنها تشترط عليه أن يقيم الدليل للكونجرس على وجود خطر شيوعى فى الاردن ، وان الملك قادر على السيطرة على ذلك الخطر .

واستهل الملك الفتى العنيد تنفيذ اتفاقه مع السفير الامريكى ، برسالة وجهها فى الواحد والثلاثين من يناير الى الرئيس النابلسى ، يحذره فيها من الشيوعية ، وأمر باذاعتها ونشرها حتى قبل أن تصل الى رئيس وزرائه الموجهة اليه ، اذ رأى فى هذا العرض الامريكى الوسيلة التى تخرجه من الورطة التى يجد نفسه فيها . وكانت الخطوة الغربية فى هذا الموضوع أمريكية الصفة تماما ، ولكنها استخدمت معونة العربية السعودية الدبلوماسية . (١) لكن وزارة الخارجية البريطانية كانت على اطلاع على هذا الاستهلال فى المناورة الجديدة ، وعملت على مساعدته عن طريق تساهلها فى الغاء المعاهدة مع الاردن بعثا للآمال فى نفس حسين (٢) وأخذ النزاع يشتد احتداما أسبوعا بعد آخر بين الملك الذى انتحل لنفسه

---

(١) عدد الايكونومست الصادرة فى ٤ أيار ١٩٥٧ .

(٢) حصل السفير البريطانى مثلا على موافقة حسين على احتفاظ بريطانيا بحقوقها السابقة فى مرور قواتها العسكرية جوا فى

سلطات دستورية اضافية وبين الحكومة . ولكن الجانبين حرصا على ابقاء الخلاف بعيدا عن أعين الجمهور ، وكان دافع الحكومة الى ذلك ، أن كثيرين من أعضائها كانوا لايزالون يأملون فى امكان اقناع حسين بتقبل التيار الشعبى الواضح ، بينما كان دافع حسين والساسة القدامى الذين دبت الحياة فيهم من جديد ، تجنب كل مايؤدى الى الاضعاف من موقفه كوطنى عربى أمام الجماهير . ولم يدهش معظم الاردنيين من تصريحات حسين المعادية للشيوعية ، لانهم كانوا قد سمعوا من عبدالناصر أكثر من مرة أن « الشيوعية ليست طريق القومية العربية » . وكان الرئيس النابلسى قد أوضح هذا الامر أيضا أكثر من مرة ، وعاد فى التاسع عشر من مارس فكرر « أن الاردن لن ينتمى الى الكتلة الغربية أو الكتلة الشرقية » .

وألغيت المعاهدة الانكليزية ـ الاردنية بصورة رسمية فى الثامن عشر من مارس عام ١٩٥٧ ، وشارك حسين مرة أخرى وزارته فى الشعبية العظيمة التى نالتها عند الاردنيين الذين طربوا ابتهاجا . ولكنه أحس أن الوقت قد حان الآن للعمل . وأوفد حسين فى الاول من ابريل رئيس ديوانه الى القاهرة ليطلب الى الرئيس عبد الناصر عقد اجتماع لرؤساء الدول العربية . ولم تعرف الحكومة الاردنية بما وقع الا بعد وقوعه . وطلبت الحكومة من حسين التمسك بالدستور ، وان يطرد عددا من كبار الموظفين الرجعيين الذين يحتلون مراكز حساسة . والذين يؤازرونه فى أعماله هذه المنافية للدستور . ولكن حسين رفض اجابة طلب الحكومة .

وتزعم الروايات الغربية فى حديثها عن أزمة ابريل التى وقعت فيما بعد ، أن الملك اكتشف مؤامرتين متعاقبتين للاطاحة به ، وأنه «بشجاعته» احبطهما وأنقذ الاردن من السيطرة الناصرية والشيوعية . ويجد القارىء الذى يهمه الموضوع ، صورة صحيحة لما وقع فى الذيل الذى ألحقته بهذا الكتاب . ويكفى أن أقول هنا ، ان حسين نفسه هو الذى « اصطنع» هاتين المؤامرتين المزعومتين بمنتهى الذكاء ، كالوسيلة الوحيدة للخلاص من حكومة النابلسى ، مع الاحتفاظ لنفسه بالشعبية التى تمتع بها ، وذلك اعتقادا منه بأن هناك مجالا فى أن يلقى الدعم من الاردنيين اذا صدقوا بأن الحكومة كانت على وشك الاطاحة به ، بينما سيفقد هذا الدعم حتما اذا اكتفى باقالة حكومة النابلسى دون أى سبب من الاسباب .

وأقال الملك حكومة النابلسى فى العاشر من ابريل . وقدم وفد من النواب فى الثالث والعشرين من ابريل سلسلة من المطالب الى الملك الذى رفضها . ووقعت فى اليوم التالى مظاهرات جماهيرية واسعة واضرابات عامة شملت البلاد كلها ، فلجأ الملك الى اذاعته وألقى حديثا

= سماء الأردن ثم جاء الى مائدة المفاوضات ليواجه الوفد الاردنى بقبول الملك كأمر واقع . ولكن الوزارة رفضت اعطاء بريطانيا هذه الحقوق .

ـ المؤلف ـ

اتهم فيه مصر بأنها كانت وراء المؤامرتين اللتين سبق أن أعلن وقوعهما للاطاحة به ، واتهم النابلسى بالعمل فى خدمة الشيوعية واسرائيل ومبدأ ايزنهاور (وهى مزيج غريب من التهم يكفى مافيها من غرابة لاظهار بطلانها) . وراح يعلن فى تلك الليلة نفسها فرض الاحكام العرفية . وشرعت قوات البدو الموالية له باعتقال الوطنيين ، وسرعان ماصدر عن واشنطن أكثر الاعمال خطورة منذ اعلان مشروع أيزنهاور . فلقد هرع الاسطول السادس الى الناحية الشرقية من البحر المتوسط ، وهو يوجه انذارات صريحة مكشوفة بان المظليين الامريكيين على استعداد للنزول فى الاردن لحماية « كيان المملكة واستقلالها » . وراحت واشنطن تعلن تقديم منحة فورية وغير مشروطة قدرها عشرة ملايين دولار الى الملك حسين .

ولم ينته شهر ابريل حتى كان كل شىء قد انتهى فى الاردن . وأضحى أكثر من خمسمائة شخص من الوطنيين رهن السجون ، ورزحت البلاد تحت نير الاحكام العرفية الصارمة مدة سنة ونصف السنة . وبدأت مع مطلع مايو الحرب الكلامية التى تبودلت فيها الاتهامات بين حسين والزمرة التى تحيط به فى قصره من ناحية وبين دمشق والقاهرة من الناحية الاخرى . وهكذا أطاحت الولايات المتحدة بحكومة شعبية وببرلمان انتخب انتخابا حرا لم يقدر لهما أن يعيشا أكثر من أربعة أشهر وظهرت أمريكا فى عيون العرب فى كل مكان بمظهر الوارث لبريطانيا تقوم عنها بأداء الدور الذى اضطرت هى الى التخلى عنه . وكان عبد الناصر قد حذر الغرب منذ أكثر من عام من أن « الشيوعية لاتكون خطرة الاعندما تستغل الرأى الجماهيرى للحركات الوطنية » . وهكذا أفسح المجال لروسيا ، بعد أن سلمتها اياه الولايات المتحدة على طبق من الفضة .

واذا لم تكن الشيوعية فى الواقع قد أحرزت تقدما عظيما فى الاردن بعد ابريل عام ١٩٥٧ ، فان الفضل فى ذلك لايعود الى مشروع ايزنهاور ولا الى الموقف الذى وقفه الملك والذى راح الغرب يتغنى بشجاعته وعناده ، وانما يعود ، وهنا تقوم المفارقة العجيبة التى تعتبر من زمرة المفارقات الكثيرة والتى لاتكاد تصدق فى هذه الفترة من تاريخ الشرق الاوسط ، الى تعلق عرب الاردن تعلقا قويا بالقومية التى يتولى عبد الناصر وأنصاره قيادتها ، وهى نفس القوة التى كان الغرب متلهفا على تحطيمها . ولننتقل الآن الى لبنان ، حيث وقع ما هو أسوأ بكثير .

ثورة لبنان :

كانت حقائق الشعور الشعبى فى الاردن ووقائعه واضحة كل الوضوح بعد أزمة السويس لاى خبير أمريكى كلف نفسه عناء دراسة وضع الانتخابات التى أوصلت وزارة النابلسى الى الحكم . ولاريب فى ان كل ماوقع فى الاردن مما سردناه قبل قليل ، نجم اما عن جهل فاضح بواقع الوضع وحقائقه أو عن تجاهل متعمد لهذا الواقع وتلك الحقائق ، ولم تكن هناك فى لبنان بعد حرب السويس وقائع أقل وضوحا وجلاء من مثيلاتها فى الاردن .

ولقد ظل الميثاق الوطنى الذى عقد عام ١٩٤٣ والذى اتفق عليه قادة المسلمين والمسيحيين ليوحدوا كلمتهم ضد السيطرة الفرنسية هو الموجه طيلة ثلاثة عشر عاما لسياسة الجمهورية الصغيرة الخارجية ولم يكن هذا الميثاق الا اتفاقا كريما عقد بين زعماء الطائفتين الكبيرتين ليكون أساسا لحركتهم المتحدة فى سبيل الحرية وهو ينص فى جوهره ، على وجوب التفاهم بين المسيحيين والمسلمين على سياسة « وسط » بالنسبة الى علاقات لبنان المتحرر مع العالم الخارجى . ووافق المسلمون على الرغم من تشبعهم الفطرى بالروح القومية التى تسود جيرانهم من العرب على أن يظل لبنان بلدا مستقلا ، شريطة أن « يظل له وجهه العربى » (١) ووافق المسيحيون بعد أن اطمأنوا الى ماحولهم من قومية عربية يسيطر عليها المسلمون أن يظل لبنان حرا من أية أحلاف مع أية دولة أجنبية ، اى مع الدول الغربية (٢) وكانت لدى الفريقين ذكريات قوية أخضعوها لارادتهم عندما توصلوا الى هذا الاتفاق « الوسط » . وكان المسيحيون بما لهم من ارتباطات ثقافية بالغرب ، يذكرون ماحدث فى عام ١٨٦٠ ، بينما كان المسلمون يذكرون أن فرنسا ظلت طيلة قرن كامل ، ومعها بريطانيا الى حد ما ، تحاول استغلال وجود الجيوب المسيحية على سواحل البحر المتوسط لتؤمن لنفسها القواعد والسيادة على المنطقة .

وهكذا كان ميثاق عام ١٩٤٣ ، مقامرة جريئة فى الفراهة السياسية اذ أنها أتاحت للمسيحيين شيئا من التفوق فى السلطان الداخلى . ولكنه نجح نجاحا كاملا فى السياسة الخارجية . وكان لبنان واقفا مع أشقائه العرب فى موضوع اسرائيل . وتمكن بانضمامه الى الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ من ضمان سيادته ، اذ ان ميثاق الجامعة العربية يضمن سيادة جميع الدول الاعضاء فيها . ولكن ميثاق عام ١٩٤٣ حال بين لبنان وبين الانضمام الى حلف بغداد . وكان يتولى رئاسة الجمهورية فى اكتوبر عام ١٩٥٦ مسيحى هو كميل شمعون بينما كان يتولى رئاسة الوزارة ، وذلك طبقا للعرف الدستورى المتبع ، مسلم هو عبد الله اليافى وكان الاول معاديا عداء ظاهرا للتيار القومى الجديد الذى يتولى قياده عبد الناصر بينما كان الثانى يعرب عن عطف مسلمى لبنان على هذا التيار . وعلى الرغم من هذا التضارب كان فى مكنة لبنان أن يظل هادئا هدوءا معقولا فى أموره الداخلية عن طريق هذا التوازن الدقيق المعقول .

وجاءت أزمة السويس فكادت تمزق لبنان شر ممزق ، وذلك

---

(١) هذا القول مقتبس من العبارة الشهيرة التى وردت على لسان المرحوم رياض الصلح عند توقيع الميثاق فى اكتوبر عام ١٩٤٣ . ويمكن للقارىء الحصول على نص الميثاق من الصحف العربية التى صدرت فى ذلك التاريخ ومن مجلة « منبر الشرق الاوسط » من مقال للسيد ديب فى يناير ١٩٥٧ .

(٢) قال المرحوم رياض الصلح .. « لا يريد اخواننا فى الوطن العربى من لبنان أن يكون للاستعمار مقرا ، أو ممرا » .

— المؤلف —

بالنسبة الى ماوقع من خلاف حول الاجراءات التى يجب على الحكومة القيام بها . فلقد اتقد غضب المسلمين من جراء العدوان الثلاثى على مصر ، وطالبوا لبنان بأن يقطع على الاقل علاقاته الدبلوماسية بالدولتين الباغيتين ، اى بريطانيا وفرنسا . ولكن الفئة المسيحية الحاكمة والتى يتولى شمعون رئاستها رفضت أن تقوم بهذا الاجراء . (١) واشتد التوتر بين الجانبين . وفرض شمعون الاحكام العرفية ، ولم يكن فى الامكان حفظ النظام فى البلاد لولا الجهود التى بذلها قائد الجيش اللواء شهاب ، الحيادى النزعة ، وذو الكفاية الكبيرة . وآثر رئيس الوزراء اليافى الاستقالة على أن تنقسم البلاد الى قسمين ، بعد أن توصل الى اتفاق وسط مع الرئيس شمعون قضى بأن يقترع لبنان فى الامم المتحدة مستنكرا عدوان بريطانيا وفرنسا ، دون أن يقطع علاقاته بهما . وتولى رئاسة الوزارة ، سامى الصلح الكبير السن . الكثير الاستسلام ، وأصبح الدكتور شارل مالك ، الذى تعرفه أمريكا أكثر مما يعرفه لبنان وزيرا للخارجية . وأعربت الصحف اللبنانية عن ارتياحها لحل المشكلة الحل الذى حفظ لها وحدتها وصان لها ميثاقها الوطنى ، واستقبل اللبنانيون عام ١٩٥٧ وقد هزتهم الازمة الماضية هزا ، وهم لايكادون يصدقون ان الجمهورية قد اجتازت المحنة وعاشت .

وفى هذا الجو من الهدوء الذى يعقب العاصفة ، والذى كان الحياد فيه بالنسبة الى لبنان أكثر من ضرورة قصوى ، نقلت أسلاك البرق الى بيروت ذات ليلة من ليالى يناير عام ١٩٥٧ نص مشروع ايزنهاور الجديد . وليس لهذا المؤلف من فضل أن يذكر ان لبنان لو قبل تلك السياسة الامريكية الجديدة على النحو الذى اعلنت فيه ، لانفجر فى حالة من الاضطراب والفوضى لم يسبق له أن رأى مثيلا لها من قبل . ولم يمض اسبوع على اعلان المشروع ، حتى بدأت الانباء تتردد وبصورة لاتكاد تصدق بان واشنطن تأمل فى تركيز نفوذها على لبنان والعربية السعودية ... اذ يقال ان لبنان سيكون أول دولة تتلقى المعونة الاقتصادية ، على اعتبار أنه سيكون مركز الاستقطاب فى المنطقة الى الناحية الثانية» (٢) ولاريب فى أن هذا الاستقطاب لم يكن يعنى فى عرف المستر دالاس الا اتخاذ موقف العداء للناصرية (٣) .

وهذا ماحدث فعلا . فقبل أن يقر الكونجرس الامريكى التشريع

---

(١) رحب شمعون وأنصاره سرا بالهجوم على مصر . وقد روى المعلق المعروف درو بيرسون أن شمعون قال له ، ان الخطأ الوحيد فى الهجوم هو أنه لم يسمح لاسرائيل بتوجيه ضربة قاضية الى الرئيس عبد الناصر .

ــ المؤلف ــ

(٢) صحيفة التايمز اللندنية عدد ١٨ يناير ١٩٥٧ .

(٣) يطلق الغربيون اسم « الناصرية » على الفكرة التى ينادى بها الرئيس عبد الناصر من دعوة الى التحرر والحياد الايجابى والاشتراكية والوحدة ، وما تتضمنه هذه الفكرة من مذاهب سياسية واجتماعية وفكرية .

ــ المعرب ــ

اللازم المتعلق بمشروع ايزنهاور ، راح شارل مالك يعلن موافقة لبنان على المشروع ، بينما شرعت أجهزة الاعلام والدعاية فى البلاد ، فى شن حملة تأييد ضخمة له . ولعبت « مغانم » المعونة الامريكية ومخاوف المسيحيين ، وحملات التخويف من شيوعية السراج فى سورية ، والرشوة دورها فى الحصول على أغلبية فى البرلمان اللبنانى أيدت المشروع . واستقال سبع أعضاء المجلس على أى حال فورا احتجاجا على نتيجه الاقتراح . ورفض الرئيس شمعون طلبا للمعارضة بتأليف حكومة انتقالية تشرف على الانتخابات العامة التى تقرر شهر يوليو موعدا لها ، وتمكنت حكومة شمعون ــ مالك ، من احراز الاغلبية الجديدة التى تريدها عن طريق تزييف الانتخابات . وكان هذا التزييف واضحا لجميع المراسلين الصحفيين الغربيين الذين يقدرون مسئولياتهم ، ولكن غطت على أنبائه فى الصحافة الغربية الاتهامات العالية التى وجهت عن وجود « تدخل » سوفياتى ومصرى وسورى فى هذه الانتخابات ، وأعتقد أن ايراد مثال واحد على ما وقع فى هذه الآونة أمر كاف. فلقد وقعت فى هذه الايام مظاهرة عدائية لمشروع أيزنهاور وانفجرت فى المظاهرة بعض القنابل ، وراح المسئولون يعلنون أنها من صنع سورية وبتحريضها ، وهو مانقلته الصحف الغربية تحت عناوين واسعة ، ولكن ضابطا لبنانيا من ضباط الامن العام ، أعلن فى شهادة قدمها فى المحكمة فيما بعد أن الاوامر صدرت الى دائرته باصطناع الانفجارات ، من حكومة شمعون ــ مالك . ولم تنقل الصحافة الغربية بالطبع نبأ هذا الاعتراف .

وانطلقت الآراء المناهضة لمشروع ايزنهاور الى العراء واضحة مكشوفة ، حتى قبل بدء المعركة الانتخابية . ولم يخف البطريرك المارونى نفسه وجهة نظره فى معارضة المشروع ، كما خرج الشيخ بشارة الخورى أول رئيس للبنان المستقل فى أواخر شهر مايو عن صمته السياسى الذى استمر ست سنوات ، ليعلن استنكاره لقبول مشروع ايزنهاور على اعتبار أن هذا القبول خروج على الميثاق الوطنى لعام ١٩٤٣ . ولكن البادرة الاستهلالية أحرزت نجاحا مؤقتا وساعدت فى نجاحها ، زيارات الصداقة وحسن النية التى قام بها الاسطول الامريكى لميناء بيروت ووصول الاسلحة الامريكية الجديدة التى رافقتها طبول الدعاية ، عن طريق الجو الى لبنان عشية يوم الانتخاب . وأخذ لبنان يسير قدما نحو الفوضى والاضطراب بسبب غضب المسلمين على ماقام به الامريكيون فى الاردن ، وبسبب ماانتشر من فضائح مالية وأخلاقية طيلة الشتاء نسبت الى كبار موظفى الدولة (١) وتزايد هريب الاسلحة عبر الحدود تزايدا خطرا . لكن الاعتقاد ساد الغرب كله ، بأن لبنان بات كسبا مستقرا مؤيدا للغرب فى نزاعه مع الناصرية .

---

(١) ادعت الانباء التى نشرتها الصحف الغربية فى هذه الآونة أن أموالا قد صرفت فى لبنان ابان المعركة الانتخابية لانجاح مناهضى مشروع ايزنهاور ولكن ما ظهر فيما بعد فى محاكمات بغداد من وثائق يثبت أن نورى السعيد كان يدفع رواتب منظمة لبعض الشخصيات الرسمية فى لبنان .

وجاءت أنباء الوحدة بين مصر وسورية المجاورة للبنان فى مستهل فبراير عام ١٩٥٨ وسرت هذه الانباء التى سنشرحها فى فصل لاحق سريان الكهرباء فى لبنان كله . وأخذ الالوف بعد الالوف من اللبنانيين يقطعون التسعين ميلا من الارض الجبلية الى دمشق لحضور احتفالات الوحدة ، ولكن زعماء المسلمين على الرغم من التحيات التى كانوايزجونها للوحدة، ظلوا يصرون على استقلال لبنان وكيانه، ومع ذلك مالبث المسيحيون أن هاجوا وماجوا بعد أن راح الرئيس شمعون يتهم فورا الرئيس عبد الناصر بصورة علنية ، بأنه يعتزم فى خطوته الثانية ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة . ولم يكن هذا الاتهام مجرد كذب صراح بل كان أكثر من ذلك ، اذ لو قبلنا جدلا وجود الاطماع المزعومة عند عبد الناصر . فان لبنان لم يكن بالهدف المغرى أبدا . فضم لبنان يستدعى ترويض نحو من ستمائة ألف مسيحى ، كما يستفز غضب الغرب وتدخله العسكرى بصورة حازمة . وتعتمد تجارة لبنان ، وهى كثيرة الازدهار والثراء فى ظاهرها ، على تجارة الاستيداع والعبور ، والتعامل بالنقد ، وهو ازدهار لايلبث أن يزول اذا مافقد لبنان سيادته. ولم يكن فى وسع عاقل أن يتجاهل كل هذه الاخطار التى لا يمكن قهرها أو التغلب عليها ، وليس ثمة من يقول بأن عبد الناصر ليس بالانسان الذكى الواسع الادراك والذى يحسب للعواقب حسابها ومن هذا يظهر أن هذا الاتهام حتى فى معايير المناهضين لعبد الناصر ، باطل ولاصحة له .

لكن الاتهام ترك على أى حال آثارا ضارة كل الضرر فى كل من لبنان والغرب . وسرعان ما اتضح هدف شمعون من توجيهه . فلقد سمح فى مستهل شهر ابريل بأن يقال على لسانه بأنه يعتزم ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية مرة ثانية ، ولما كان الدستور يحظر انتخاب الرئيس لدورة ثانية ، فقد بات لزاما أن يعدل الدستور ، لتحقيق غايته ، ولما كانت المعارضة قد أدركت الآن أن الاسلحة الامريكية الجديدة باتت توزع على الفئات المؤيدة لزمرة شمعون الحاكمة ، فقد وحدت جهودها استعدادا للمعركة الفاصلة ، وأخذت تعمل على تسليح رجالها بشراء الاسلحة لهم من الاسواق غير الرسمية فى سورية . واغتيل فى الثامن من مايو رئيس تحرير صحيفة التلغراف ، الاشتراكى النزعة والمناهض لمشروع أيزنهاور ، ولحكم شمعون ، وكان من المسيحيين الذين يعارضون دكتاتورية شمعون ومساعيه لاعادة انتخابه . ولم تمض أربعة أيام حتى انفجر لبنان ، فانتشر الاضراب ، وقامت المظاهرات ، ووقعت الاصطدامات مع الشرطة ، وتحول الوضع الى ثورة داخلية عنيفة . وبدأ مشروع ايزنهاور الذى طبق عن عمد على أكثر الدول ضعفا فى الشرق الاوسط، يجنى ثماره الكئيبة المرة .

وتقدمت حكومة شمعون — مالك ، بتأييد علنى من أمريكا وبريطانيا بشكوى الى مجلس الامن من أن الجمهورية العربية المتحدة تقوم « بتدخل جماعى » فى لبنان . وجريا على مألوف هذه السنوات ، تجاهل الغرب كل التجاهل الحقيقة الواقعة وهى أن جميع وزراء خارجية لبنان السابقين منذ بدأ عهد الاستقلال ، قد استنكروا فى مذكرة

جماعية هذه الشكوى ، وان بطريرك المسيحيين وشيخ عقل الدروز قد استنكراها أيضا ، وأن ضابطا كبيرا من ضباط الشرطة ، قد استقال احتجاجا على تسليح الجماعات العسكرية المسيحية مثل أفراد الكتائب. وكانت الأدلة التى قدمها شارل مالك ، وتبنت الولايات المتحدة تأيدها، سخيفة الى درجة لا تكاد تصدق (١) . وعندما جاءت هيئة المراقبين الدوليين الذين انتدبتهم الامم المتحدة للتحقيق فى أمر التدخل ، لم تجد أى أثر لأى تدخل جماعى أو غير جماعى ، اذ لم يكن هناك فى الحقيقة أى تدخل .

ولا أجد مبررا يدفعنى الى المضى فى سرد كل ما وقع بعد ذلك ، اذ ما زالت الاحداث المتلاحقة التى وقعت ماثلة فى الخواطر ، وبينها بالطبع نزول قوات البحارة الامريكية فى لبنان، وتجمع القوات الامريكية داخل لبنان وخارجه ، والانضباط الذى تميزت به هذه القوات فى أثناء أدائها لمهمة لم تكن واضحة لها، وتسليم شمعون أخيرا بالامر الواقع ، وانتخاب اللواء شهاب الذى ظل طيلة الوقت يرفض استخدام الجيش فى سحق المعارضة والثورة ، رئيسا للجمهورية . ومضى مشروع ايزنهاور الى زوايا الغيب والنسيان . ولم يحقق الغرب أى كسب من قبول لبنان بصورة غير ديموقراطية وآلية رتيبة للمشروع ، رغم ما فى هذا القبول غير المشروع من استفزاز لثورة نصف سكان البلاد وغضبهم استفزازا قد يستدعى استخدام القوة معهم ، لقمع ثورتهم . وبالطبع لم يكسب لبنان من كل هذا بل خسر خسارة كبيرة . فقد أدت الثورة الى ضياع المئات من الارواح ، الذى تقع مسئوليته على جهة لا تخفى على اللبيب .

واذا كان ثمة من كسب ، فان هذا الكسب ساخر مضحك . ففى هذه الثورة الغريبة التى كانت أشبه بمسرحية ساخرة ، شرع اللبنانيون كبارا وصغارا يفكرون لاول مرة فى الشؤون السياسية ، وفى الشرور الطائفية الكثيرة القائمة فى حياة بلادهم الداخلية والتى ظلت لا يلمسها أحد من قريب أو بعيد ببحث أو درس . ولن يعود لبنان قط الى ما كان عليه قبل الثورة . فلقد بعث الى الحياة ذلك البحث عن انهاء الطائفية الذى كان رياض الصلح فى عام ١٩٤٣ قد ناشد شعبه أن يقوم به ، ولكن الوقت لتحقيق هذه الغاية بات ضيقا للغاية .

ولكن السخرية فى هذه القضية مزدوجة . فهذا الشد والجذب فى الحياة الداخلية اللبنانية انما جاءا نتيجة ما وجده الشعب اللبنانى كله ، لا المسلمون وحدهم ، أخيرا من مفارقة لا يستسيغونها بين ما تعلموه من البعثات الامريكية من رسالات سامية قبل نحو من قرن وبين هذه

---

(١) تضمنت الأدلة التى عرضها شارل مالك صورا فوتوغرافية لرشاشات زعم انها من صنع مصر فى عام ١٩٤٩ ، وكان ضباط المخابرات البريطانية والامريكية يعرفون تماما أن مصر لم تكن تصنع الرشاشات فى عام ١٩٤٩ . ولكن هذه الصور رغم ما فيها من تزوير ظاهر ، وجدت مجالا واسعا للنشر فى الصحافة الغربية .

— المؤلف —

السياسات التى تتبناها الحكومة الامريكية الآن اى فى عام ١٩٥٨ . ولقد صور معلق أمريكى واسع الادراك ، الوضع كما رآه عندما حلت اللحظة الثانية من لحظات الدهشة الامريكية فى يوليو عام ١٩٥٨ ، عندما هوى كل شىء للغرب فى بغداد متحولا الى خرائب وأنقاض فقال ..

« لقد ظللنا نقيم أوضاعنا بالاستناد الى الملوك لا الى الشعوب ، تماما كما فعل الانكليز من قبل . وعلى أساس الوضع الراهن الذى توقف عن الوجود منذ أمد طويل . تماما كما فعل الانكليز » (١)

ونصل الآن الى النقطة التى لا ردة عنها فى القصة الطويلة المؤلمة ... الى الثورة فى العراق .

الثورة فى العراق :

كان نورى السعيد الذى علق عليه ايدن أكبر الآمال فى خلق العهد الجديد فى العلاقات العربية - الانكليزية بعد الاطاحة بعبد الناصر ، الضحية الأولى ، فى الحقيقة لحرب سيناء والسويس . وكان الرد الطبيعى على هذه الحرب فى العراق ، أن تقوم الثورة الحتمية لولا مشكلة ظلت تقض على الوطنين العراقيين مضاجعهم عدة سنوات طويلة ، فلقد كان الاشتراك بين السلطان البريطانى الممثل فى قاعدة السلاح الجوى الملكى ، وفى كل ما قام من علاقات بين انكلترا والعراق ، وبين نظام الامن الذى أقامه نورى السعيد وفرضه على البلاد متينا وقويا . ولم يكن بالامكان تحدى نظام الحكم عن طريق الاجراءات الدستورية . وكان معارضو العهد ، يجدون أنفسهم وراء القضبان لمجرد أن تثير تصرفاتهم شكوك الشرطة السرية ، وأن تعتقد هذه الشرطة بأن ثمة احتمالا لوقوع أى اضطراب . وكانت البرلمانات تحشد دائما بالانصار ، وتعطل اذا ما ظهر منها اى اعتراض . ولم يكن فى المستطاع قيام تنظيم صحيح للضباط الأحرار يتطور فى طريق النضوج ، داخل نطاق القوات العراقية المسلحة ، لأن هذه القوات كانت تتعرض دائما لعمليات تطهير شاملة ، وكانت التفرقة تسود صفوفها بفضل ما يلجأ اليه كبار الضباط الذين يحسن نورى السعيد انتقاءهم من اجراءات . وعلى هذا الأساس ظل مفتاح الثورة فى يد نورى السعيد الذى تمكن باجراءاته الماكرة من الحيلولة دون وصول أية وحدات عسكرية يشك فى قيادتها الى بغداد أو الى مقربة منها ، ومعها عتادها وذخيرتها .

وهكذا عاش نظام نورى السعيد وعبد الاله ، اكثر من سنة واحدة بعد عدوان السويس وسط جو من النقمة الشعبية المتزايدة ، بينما ظل التردد يسود أوساط القوميين من المدنيين والمؤيدين لهم من رجال الجيش ، متأثرين بالكثير من الاحداث التى يقف فى طليعتها نجاح الانقلاب الرجعى الذى قام به الملك حسين فى الاردن ضد شعبه وحكومته وجيشه . وجهد نورى متعاونا سرا ، تعاونا وثيقا مع الحكومة

---

(١) اذاعة لهوارد سميث من شبكة كولومبيا فى ٢٠ يوليو ١٩٥٨

التركية . ومع شمعون رئيس لبنان ، ومكميلان وسلوين لويد ، للاطاحة بالحكم الوطنى فى سورية ، محاولا تحقيق ذلك ، المرة تلو المرة . وأقام نورى حساباته مع ماكميلان . فى عام ١٩٥٧ على أن السبيل الامثل « لعزل عبد الناصر » يتوقف على خلق نوع من التحالف (غير المقدس طبعا !) فى الشرق العربى يضم العراق ، والاردن بعد خلاصه من الحكم الوطنى ، ولبنان فى ظل حكومة ثابتة فى ولائها للغرب ، وسورية بعد تطهيرها من الحكم الوطنى الحيادى فيها . وراح دالاس فى واشنطن يمنح بركته لهذه المشروعات ، ويتعاون تعاونا متعمدا يفتقر الى الادراك فى انفاذها أما التعمد فقد أوضحناه فى سياسات مشروع ايزنهاور التى سبق لنا أن أوضحناها . وأما الافتقار الى الادراك والذكاء فقد ظهر فى تصديق واشنطن لهذه الانباء الزائفة التى تروجها بغداد وعمان وبيروت وأنقرة ولندن عن هذا « التغلغل السوفياتى » فى سورية خالقة نوعا من الذعر عند الرأى العام الامريكى يتطلب من حكومته المبادرة الى الاجراءات المضادة .

ولا أجد نفسى فى حاجة الى المزيد من التفصيل ، للتدليل على أن الاثر الوحيد لهذه السياسات فى العراق ، وفى أجزاء المشرق العربى الأخرى ، يتمثل فى تقوية العداء الشعبى وتركيزه فى النفوس ضد نورى السعيد ، وضد جميع اولئك الذين كان ماكميلان يصر على مجيدهم فى الخطب التى يلقيها فى ويستمنستر (مجلس العموم) ناعتا اياهم « بالاصدقاء المخلصين جدا » ، والذين اتجهت نية دلاس الى ضمهم الى صفوف « حلفائنا فى العالم الحر » . وقد ظل هذا التضليل مستمرا طيلة عام ١٩٥٧ . وما كاد عام ١٩٥٨ ، يهل على الوطن العربى ، حتى جاءت مفاجأة الوحدة بين سورية ومصر فهزت قواعد السياسة الغربية هزا . وأحس نورى السعيد وحسين بنذر الشر ، التى اشترك معهم فى الاحساس بها كل من مكميلان ودالاس وشمعون ، فهرعا يقيمان اتحادا عربيا (بالاسم فقط !) يضم العراق والاردن ويوحد بين العرشين الهاشميين فى نظام اتحادى تعاونى . لكن النتيجة الحتمية ظلت تواصل السير فى طريقها نحو النهاية .

والتقى عدد من ضباط الجيش العراقى ، وكلهم من رتبة العميد (الزعيم فى الاصطلاح العراقى) فى ايار (مايو) عام ١٩٥٨ أثناء مناورات عامة ، وكانت المرحلة السلبية فى تفكيرهم قد وصلت الى نهايتها . واتفقوا على ان الأمل الوحيد فى الخلاص ، وفى الثورة المبكرة ، يقوم على اهتبال أول فرصة ممكنة ، يعرضها وصول احدى وحداتهم الى العاصمة لأمر ما ، وهى فى كامل أهبتها وعتادها . واتفق المجتمعون على أن يقوم أى منهم تتاح له هذه الفرصة بالقبض على ناصية السلطان فورا ، ليلحق به الآخرون على الاثر . وبالطبع لم تكن هذه هى الطريقة المثلى فى الاعداد للثورة .

وعندما نشبت الثورة فى لبنان ، قرر نورى أن يعين شمعون ، فى احتلال سورية ، والاطاحة بحكومة الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ، محطما بذلك وحدته مع الاقليم الجنوبى فى مصر ، ليقيم اتحاد الهلال الخصيب الذى تتزعمه بغداد ، والذى كان تفكيره

قد انصرف اليه منذ عام ١٩٤٢ . ووضع خطته للشروع فى العمل فى يونيو ، ولكنه اضطر الى التأجيل بسبب النصيحة التى تلقاها من ماكميلان ، نتيجة وصول مراقبى الأمم المتحدة الى لبنان . واتضح فى شهر يوليو ، ان المد الثورى فى لبنان يسير معاكسا لشمعون ، كما أن قرار مراقبى الأمم المتحدة ، ، جاء معاكسا له تماما . ووصلت أوامر نورى السعيد الى الزعيم عبد الكريم قاسم ، قبيل الرابع عشر من يوليو ، وقد تضمنت أن يمضى فورا بالوحدة التى يتولى قيادتها الى الاردن ومعها كامل معداتها وعتادها ، ليفض بعد وصوله اليه ، غلافا يحمله ، يتضمن أوامره الجديدة . (١) وكان الشرق الاوسط يعج بالشائعات بأن شمعون قد طلب الى نورى السعيد مساعدته وتدخله ، وان هذا الموضوع سيدرس فى الاجتماع الذى ستعقده دول حلف بغداد فى انقره فى الخامس عشر من يوليو . وتوصل قاسم عن طريق الاستنتاج ، الى ما يمكن ان تحتويه الرسالة السرية التى يحملها من اوامر لا يجوزله ان يعرف محتوياتها الا عند وصوله الى الاردن على مقربة من الحدود السورية . وكان يعرف كما يعرف غيره من الضباط العراقيين ان نورى السعيد ، كان يرسل الاسلحة سرا وبطريق الجو الى شمعون منذ عدة سنوات .

وفى الساعات المبكرة من صباح الرابع عشر من يوليو ، دخل العقيد عبد السلام عارف ، الذى يعمل تحت قيادة قاسم (٢) بوحدته الى بغداد بحجة تنفيذ الاوامر الصادرة باجتياز المدينة فى الطريق الى الاردن وقام بتنفيذ انقلاب خاطف بسرعة البرق ، قابضا على زمام السلطان

---

(١) يبدو أن المؤلف اعتمد فى التحقيقات التى قام بها فى هذا الصدد على كتاب اللورد بيردودر الذى وضعه عن تاريخ حياة نورى السعيد ، والذى كان متشيعا لنورى كل التشيع . ولكن ما كشف من أسرار الثورة العراقية حتى الآن ، تختلف فى نقاط كثيرة عن هذه الرواية ، فهناك أدلة ثابتة على أن الضباط الاحرار ، الذين أعدوا للثورة ، لم يكونوا كلهم من رتبة العميد « الزعيم » كما قال المؤلف ، بل كان الكثيرون منهم دون هذه الرتبة ، كالعقيد عبد السلام عارف مثلا ، أو كالعقيد الشهيد رفعت سرى . يضاف الى هذا أن هناك حقيقة ثابتة أيضا ، وهى تختلف فى مضمونها عما أورده المؤلف ، وهى أنه كان ثمة تنظيمان سريان يعملان للثورة ، وأن هذين التنظيمين اللذين ينتمى قاسم وعارف الى أحدهما ، قد وحدا جهودهما فى الايام الاخيرة التى سبقت الثورة .

على أى حال . أنا لا أرى هنا أن المجال فى هذا الهامش الصغير يفسح لاستعراض الوقائع التى سبقت الثورة ، فلها مكانها فى أى تاريخ صحيح يوضح عنهما .

(٢) أعتقد أن المؤلف قد أخطأ هنا ، اذ أن عبد السلام عارف لم يكن مرؤوسا لقاسم . وان كان أقل منه رتبة ، اذ كان عارف يقود وحدة أخرى غير وحدة قاسم ، نيابة عن قائدها الاصيل .

— المعرب —

فى العاصمة . واذا كنت فى هذا الكتاب سأمر مرا عارضا يالتفاصيل الكاملة لما وقع فى الساعات المذهلة والمرعبة الأولى ، فاننى أرى على أى حال . أن من الواجب عدم التقليل من اهميتها . لقد كانت الثورة العراقية . عند مقارنتها بثورة مصر البيضاء فى عام ١٩٥٢ تفجرا دمويا . ولا ريب فى أن أسباب البون بين الثورتين فى منتهى الاهمية . ففى مصر ، كان هناك تنظيم سرى للضباط الوطنيين يعمل فى الخفاء منذ سنوات . وكانت الخطط توضع وتدرس و محص ، ويجرى النقاش حول القرارات فى لجان خاصة . كما كان على رأس الحركة ، زعيم ، هو عبد الناصر ، يعارض سفك الدماء ، وقد اختبر زملاؤه قيادته وتقبلوها باعجاب . أما ثورة العراق ، فلا تحمل أى وجه شبه لهذه العوامل . وقد تم تنفيذها بشىء من السرعة المباغتة لأن الفرصة للتنفيذ لاحت أخيرا . وكل ما يمكن أن يقال . الى أن تتوافر جميع التفاصيل الثابتة ، هو أن قاسم وعارف ، لم يختارا لحظة يمكن فيها اعتقال عبد الاله وفيصل الثانى ونورى السعيد ضمن اطار خطة مدروسة تتنكب العنف سبيلا لها (١) .

لكن ما وقع فى ثورة العراق من حوادث عنف ، انما نجم عن حقيقة واقعة ، وهى أنها كانت تفجرا ثوريا اجتماعيا شاملا ، يتشابه الى حد كبير مع ما وقع فى باريس يوم الباستيل فى الثورة الفرنسية . فلقد اندفع من أحياء بغداد الفقيرة ، ومن « صرايفها » القذرة الالوف من الناقمين ، الذى أعماهم الجنون الثورى ، والاندفاعات العاطفية يجتاحون الشوارع كالحمم البركانية تجرف كل ما أمامها . واتصلت أنباء الثورة بنحو من مائتى ألف رجل يعيشون فى اكناف المدينة القائظة فى أكواخ من القصب والاغصان ، مفتقرين الى كل وسائل الصحة العامة الى الحد الذى يجعل حتى جراثيم البلهارسيا عاجزة عن العيش فى المياه الملوثة التى يشربونها ، فاندفعوا الى المدينة ، ولم يحل دون ما يؤدى اليه انفجارهم الرهيب الا مبادرة قاسم وعارف الى نشر القوات العسكرية لمنع تدفقهم على العاصمة . ولكن حوادث العنف التى قام بها « دهماء » المدينة نفسها أدت الى اختفاء بعض الأجانب الأبرياء (رأى المؤلف !) فى اتونها . وحاول نورى السعيد الهرب فاعتقل وقتل . وعلقت جثة عبد الاله بعد تشويهها خارج بوابة وزارة الدفاع ذات الاقواس . ووقفت بين جماهير الشعب الغاضب الثائر ، التى احتشدت لمشاهدة هذا الاحتفال المكفهر ، السيدة ديفارج ، أرملة الضابط الوطنى ، سراج الدين ، الذى كان عبد الاله قد أعدمه ، وعلق

---

(١) تقول الرواية الرسمية للثورة أنه عندما دخلت جماعة من الجنود القصر الملكى لاعتقال الملك وولى عهده عبد الاله ، انتضى الاخير مسدسه ، وأطلق حراسه النار ، فوقع ما وقع نتيجة معركة استخدمت فيها المدافع والبنادق

— المؤلف —

جثته فى نفس هذا المكان العام من الفجر حتى الظهر فى عام ١٩٤٨ .(١) وحاول أحد الزعماء الوطنيين من المدنيين ، مناشدة الجمهور الساخط انزال جثة عبد الاله ، مؤنبا اياه على هذا السلوك « غير المتحضر » فقابله الناس بالصفير والسخريه وهم يقولون ... «هل نسيت سراج الدين؟». هكذا تعمل ذكريات الشعوب .

وأعاد قاسم وعارف الأمن الى نصابه ، وبدأت الدول الغربية فى ردود فعلها على ما حدث ، والذى اعتبرته أعظم صدمة فردية منيت بها فى الشرق الاوسط فى أواسط القرن العشرين . واقتنع المستر دالاس ، بما جاء فى تقارير مخابراته بأن موسكو والقاهرة ، هما اللتان خططتا للثورة ، ووضعتا تصاميمها ، وان الثورة نفذت بأمر من عبد الناصر وأصدرت الحكومة الامريكية أمرها بالتدخل العسكرى على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، قبل نصف ساعة من تلقيها طلب شمعون الرسمى للتدخل . وطلب الرئيس أيزنهاور عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن الدولى ، ولكنه أصدر أمره لقواته بالنزول فى لبنان ، وفى نفس الوقت الذى ارسلت فيه قوات المظليين البريطانيين الى الاردن ، قبل ان ينعقد المجلس . ولم يكن التدخل الأمريكى اجراء « طوارىء » لاطفاء نار شبت بصورة مفاجئة ، وانما كان تنفيذا لعملية عسكرية خطط لها منذ امد ما ، واعدت على شكل انزال متسلسل الحلقات ، وضعت تصميماته الكاملة والمعقدة من قبل ، وتدعمه قوات جوية وبحرية ؛ وعمليات تموينية تامة الاعداد . وتبينت فى غضون يوم واحد ، الطبيعة الكلية لهذه العمية ، وتبين بالدليل أنها فى جوهرها ، ليست الا عملية واحدة من العمليات العديدة التى تم تدريب الأسطول الامريكى السادس على القيام بها وفقا لدراسات كاملة ، لمواجهة بعض حالات الطوارىء .

ولا أرى بى حاجة هنا الى الاكثار من الاهتمام بما دار من جدال حول طبيعة الحوافز التى دفعت الى حركات النزول البريطانية والأمريكية ، ومبرراتها . أما العامل الكامن فهو عجز هاتين الدولتين عن فهم امكان القيام بثورة داخلية يخطط لها من الداخل ضد

---

(١) ارتكب المؤلف هنا بعض الاخطاء ، فالمقصود بالضابط الوطنى «سراج الدين» هو المرحوم العقيد الشهيد صلاح الدين الصباغ أحد قادة الجيش الاربعة الذين اشتركوا فى ثورة رشيد عالى الكيلانى فى عام ١٩٤١ . وقد اعتقل الشهيد فى تركيا بعد مضى مدة على انتهاء الثورة وسلم الى السلطات البريطانية التى تولت بدورها تسليمه الى حكومة نورى السعيد فى العراق ، فقضت باعدامه . والمعروف أن عبد الاله قد حضر تنفيذ الاعدام الذى تم فى الخامس عشر من اكتوبر عام (١٩٤٥) وليس فى عام (١٩٤٨) كما ذكر المؤلف خطأ ، واصر على تعليق جثته امام وزارة الدفاع تشفيا وانتقاما وليكون عبرة على حد قوله للعراقيين . ولكنه لقى نفس المصير ، الذى لقيه خصمه الشهيد مع الفارق طبعا بين الميتتين على ضوء معايير الشرف والكرامة . أما السيدة ديفارج فهى زوجة الشهيد الاول وهى من أصل فرنسى .
— المعرب —

« أصدقائهما » ولم تكن حكومة ماكميلان تتوقع مطلقا نشوب ثورة فى العراق ، ولهذا فان الصدمة التى واجهتها كانت عنيفة الى الحد الذى جعلها عاجزة عن التفكير بهدوء وروية واتزان . وكان الملك حسين قد وضع نفسه بتشجيع من الانكليز والامريكان فى مأزق خطر مع شعبه ، الى الحد الذى يخشى معه أن تؤدى أحداث بغداد الى اشعال نار الثورة عليه فى الاردن فورا . اما بالنسبة الى الاثر فى لبنان ، فان تقديرات المخابرات الامريكية للموقف عن وجود تدبير « شيوعى — ناصرى » للثورة فى بغداد ، قد جعل التفكير الهادىء المتزن فى واشنطن أمرا مستبعدا أيضا . ولو كان هناك شىء من التبصر والتفكير ، لمثلت أمام المسئولين فى واشنطن الصورة الصحيحة وهى أن جيش الجمهورية العربية المتحدة ، سواء فى مصر أو سورية لم يكن قد عبىء أو وضع فى حالة الطوارىء وأن عبد الناصر نفسه كان فى يوغوسلافيا عندما وقعت الثورة .

وراحت المصادر الرسمية فى واشنطن ولندن ، تدعى فيما بعد ان خطر تحرك اسرائيل ضد الاردن للحيلولة دون وقوع أى تبدل فى نظام الحكم فيه ، هو الذى أدى قبل أى عامل سواه ؛ الى اتخاذ القرار بارسال القوات الى لبنان وعمان . ولو صح هذا الادعاء ، فان من المؤسف حقا ، أن تحمل أعظم دولتين غربيتين العالم معهما الى شفير الحرب النووية المفاجئة ، لمجرد ان دولة صغيرة — كاسرائيل — أدينت قبل عامين بالعدوان، كانت لا تزال قادرة على التهديد باتخاذ عمل من جانب واحد . واذا افترضنا جدلا أن من حق بريطانيا وأمريكا أن تخشيا على اسرائيل من هجوم يقع عليها من وحدة جديدة لم تقع بعد بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن ، فان مثل هذا الهجوم لا يمكن أن يقع فور تحقيق الوحدة ، وبين عشية وضحاها . ولم نكن نحن فى عام ١٩٥٨ ، لنتسامح فى أى مكان فى العالم باللجوء الى التهديد بالحرب ، الا اذا كان القصد من هذا التهديد الحيلولة دون هجوم مفاجىء . وتحتاج هذه النقطة الى بعض التأكيد والشرح ، لان هذا الوضع ، ما زال قائما عند وضع هذا الكتاب . فلقد كان أمام اسرائيل متسع من الوقت فى عام ١٩٥٨ ، وسيظل دائما أمامها هذا المتسع من الوقت، فى أية لحظة يتم فيها انضمام الاردن الى دولة عربية أخرى ، للتقدم بالشكوى الى الامم المتحدة ، واقامة الدليل أمامها على وجود الخطر الفورى الذى يهددها . ففى عام ١٩٥٨ ، وعندما زعمت لندن وواشنطن ان تهديد اسرائيل هو الذى دفعهما الى فعل مافعلناه ، لم تكن الجيوش العربية المعنية قد عبئت ، ولم تكن مصر قد طلبت أو ضمنت حتى انسحاب قوات الطوارىء الدولية من الحدود التى تفصلها عن اسرائيل . ويدرك كل من يعرف شيئا عن الشئون العسكرية ان هاتين الخطوتين ضرورتان لازمتان لاى هجوم ، وأن تنفيذهما يتطلب بعض الوقت . وليس ثمة من مبرر من أى نوع ، لا لاسرائيل فى التهديد بحرب من جانبها اذا تغير الوضع القائم فى الاردن ، ولا لاية دولة غربية فى أن تقبل ببساطة هذا التهديد وان تكيف اجراءاتها على ضوئه دون أن تحسب حسابا مطلقا للامم المتحدة .

وعلى الرغم من كل هذا ، فما زالت الحجج التى تذرعت بها الدولتان الغربيتان لتبرير تدخلهما فى لبنان والاردن تحتل مكانتها عند الغربيين

ولا سيما تلك التى تقول بأن التدخل كان نافعا للجميع – وحتى العرب – لأنه حال دون وقوع حرب بين العرب واسرائيل . ولقد كان من مقاييس المواقف الشاذة كل الشذوذ التى وقفها الرأى العام الغربى والتى ما زال يقفها حتى الآن من قضية فلسطين ، ان سلوك اسرائيل لم يكن يتعرض فى أية حالة من الأحوال للنقد ولا للمناقشات الحادة . ولم نسمع الا أصواتا قليلة فى الغرب تتعالى موجهة السؤال الذى لابد وأن يسأله كل عاقل ، وهو ... اذا كانت اسرائيل تشعر حقا بمثل هذا الخطر فلماذا رفضت ولاتزال مصرة فى رفضها السماح لأية قوات من الامم المتحدة بالمرابطة فى جانبها من حدود الهدنة ، حيث فى مكنة هذه القوات ان تبقى لحماية اسرائيل ؛ حتى لو طلبت الجمهورية العربية المتحدة سحب قوات الطوارىء الدولية من ناحيتها ؟ ولم يسأل أحد من الغربيين عن الأسس التى استند اليها بن جوريون فى الاقتراح الذى قدمه آنذاك ، لتجريد الضفة الغربية من الاردن من السلاح ، تحت اشراف الامم المتحدة ، دون أن يقترح تجريد منطقة مهما كانت صغيرة من السلاح على الجانب الاسرائيلى من الحدود، وكان رد أسرائيل فى الرفض بالنسبة الى السؤال الأول ، انه ليس ثمة مكان فى اسرائيل للقوات الاجنبية . ولم يكلف الكثيرون من المعلقين الغربيين انفسهم عناء الطعن فى هذا المبرر عن طريق القول بأنه يتناقض تمام التناقض مع الحملات السنوية التى تقوم بها حكومة اسرائيل لتأمين الهجرة الواسعة النطاق الى تلك المنطقة التى يحتجون باكتظاظها بالسكان.

ولقد نسى الغرب حركات النزول الانكليزية والامريكية فى الاردن ولبنان. وتم سحب تلك القوات دون أن تطلق رصاصة واحدة. ولم يحدث أى انفجار فى المنطقة أو تسودها أية فوضى . وتقول الحجج الرسمية ، ان التدخل كان مفيدا ، ويقول البعض أن فائدتها تقوم فى تجنب خطر اسرائيل، وقد ناقشنا هذا القول من قبل ، ويقول البعض الآخر ان فائدتها قائمة فى انها حالت على أى حال بين عبد الناصر وبين «ابتلاع» أراض جديدة ،(١)

(١) كثيرا ما تحدث الغربيون عن اطماع عبد الناصر التوسعية وعن « ابتلاع » أراض جديدة . والسبب فى هذا الحديث أن الغرب لا يريد أن « يفهم » ، وان فهم فهو لا يريد أن يقبل ، وحدة عربية تضم ارجاء الوطن العربى ، لأن فى هذا الوحدة القضاء النهائى على نفوذه ، وتعرض مصالحه للخطر . ولقد أدى الاستعمار الغربى دوره فى تجزئة الوطن العربى للحفاظ على هذا النفوذ وتلك المصالح ، ومازال يستخدم نفوذه وأمواله ، وأجراءه ، ومؤامراته ، للحيلولة دون تحقيق هذه الوحدة التى يقصد من اقامته «لاسرائيل» فى قلبها ، منع وجودها . ولو فهم الغربيون هذه الحقائق أو اعترفوا بفهمهم لها – والفهم واقع – لما قالوا أن لعبد الناصر « أطماعا » ، فما الرئيس الا الانعكاس القيادى لآمال الشعب العربى كله فى الوحدة ، واذا كان يعمل لها ، فلأن عمله تعبير عن ارادة هذا الشعب الذى أسلمه قياده بكل ايمانه وجوارحه .

أما نزول القوات الامريكية فى لبنان والقوات البريطانية فى الاردن ، فلم يهدف الا لتقوية مركز الملك حسين فى الاردن وهو المركز الذى كان

وأرى من الضرورى أن نناقش هذا القول اذا أردنا أن نحكم أخيرا على الطريقة التى انتهت بواسطتها فى عام ١٩٥٨ حقبة طويلة من العلاقات العربية – الغربية . ولكن هذه المناقشة تتطلب تقويما شاملا لحركة الوحدة العربية ، وهو ما يقتضى البحث فيه فصلا منفردا .

= ينتظر له أن يهوى بعد انتفاضة العراق ، ودعم العناصر الرجعية فى لبنان ، والتمهيد لضرب الثورة فى العراق التى حطمت للغرب أهم قاعدة له فى المنطقة ولكن وعى الشعب العربى ، والموقف الخالد الذى وقفه الرئيس عبد الناصر ، ونقمة الرأى العام العالمى ، هى التى حالت بين الغرب وبين هدفه فى ضرب ثورة العراق .

– المعرب –

- ١٤ -

الوحـــدة العربيـة

اليوم اتحد الشعب العربى فى سورية مع الشعب العربى فى مصر، وكونت الجمهورية العربية المتحدة ، هذه الجمهورية ستكون سندا للعـرب جميعا ، ستكون قوة للعرب جميعا ..

لننظر الى القومية العربية التى نادينا بهـا والتى حلمنا بها والتى كانت لنا من الامـــانى وسنعمل جميعا بعون الله على تثبيت أهــداف القومية العربية وعلى تثبيت أسسها » .

من اعلان الوحدة المشترك فى أول فبراير سنة ١٩٥٨

« اننى لأثق نفس ثقتى بالله ، أن هـــذه التجربة لن تكون الاخـيرة ، انما كانت التجربة عملية رائدة استفدنا منها الكثير فى تقديرنا ، أعان الله سورية الحبيبة على أمورها وسدد خطاها وبارك شعبها » .

من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بعد الانفصال فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٦١ .

* * *

أعلن فى الرابع من فبراير عام ١٩٥٨ ، فى كل من القاهرة ودمشق، عن قيام أول وحدة فعلية بين دولتين عربيتين ذواتى سيادة ، وقد استقبل بعاصفة ضخمة من الحماسة الاصيلة عند جماهير العرب فى طول الشرق الاوسط وعرضه . ولا ريب فى أن قيام الجمهورية العربية المتحدة التى ضمت مصر وسورية كانت نقطة تحول ، وكانت المحاولة الاولى لدحض التشاؤم فى موضوع الوحدة العربية الذى عبر عنه ابن خلدون قبل قرون خلت ، والذى جعله الكثـــيرون من المعلقين موضوع تعليقاتهم فى القــرن العشرين (١) ولكن هذه الوحدة ما لبثت أن تحطمت بعد ثلاثة أعوام ونصف العام ، على أثر حركة انقلابية مفاجئة قام بها ضباط الجيش السورى

(١) فائز صايغ ـ الوحدة العربية نيويورك ١٩٥٨ .

ضد ما أسموه ، واشتركت معهم فى تسميته وزارة السياسيين التى أقاموها « بالطفيان المصرى » (١) .

وكان رد الفعل عند الغربيين لهذه الاحداث المثيرة ، التى وقعت فى أواخر عام ١٩٦١ ، التى كانت للعـرب مفجعة حقا ، يشير الى شىء من التحسن فى الفهم . فلقد ظهر لاول مرة حقا منذ نمت فى الغرب تلك الافكار المسيطرة عليه عن عبد الناصر ، استعداد جديد لتفهم بعض الدوافع الحقيقية القائمة عند عبدالناصر خلافا لما يحمله الغـرب من أفكار عن اطمـاعه الاستعمارية الشخصية . وقد أصيب معظم المعلقين الغربيين بالدهشة المطلقة عندما رفض عبد الناصر كرئيس للجمهورية العربية المتحدة استخدام القوة ضد الثائرين ، مؤكدا أن الوحدة داخل سورية نفسها هى أهم شىء عنده ، وعندما أوضح أن حكومته لن تعارض فى عودة سورية من جديد الى عضوية الجامعة العربية أو الأمم المتحدة . ولكن هذه الدهشة لم تكن الا انعكاسا للظنون السيئة السابقة . ومع ذلك فقد كان هناك استعداد متجدد فى الغرب ، للاعتراف بهذه الدهشة ، وللاعتراف على سبيل التغيير بوجود دوافع معقولة عند عبدالناصر . (٢) وقد كشف رد الفعل هذا عند الغربيين، مافى قرارة نفوسهم من شعور بالابتهاج لانحلال الجمهورية العربية المتحدة، ولما توهموه من «هزيمة شخصية» لعبدالناصر، لم تتحقق عند عدوان السويس . وهناك صورة ثانية صحيحة وان كانت سلبية قد بدأت الآن فى الظهور فى ردود الفعل الغربية ، فقد تبين للغرب أخيرا أن عبد الناصر ليس بالموالى للشيوعية ، وأن خطر الانفصال يتمثل الآن فى احتمال انتهاء ما كانت تنعم به من استقرار من ناحية مكافحة الشيوعية .

ولكن ترى ماذا حدث حتى انهيار هذا الحلم المكبر الذى مثلته الوحدة لجميع العرب فى كل مكان ؟ لا ريب فى أن تحلل الوحـــدة الممثلة فى الجمهورية العربية المتحدة ، يحمل أكثر من تفسير واحد . فلقد نجـم عن مجموعة من الأعباء الخفية التى فرضتها الوحدة ، مضافة الى الاخطـاء المصرية والسورية ، وعوامل الضغط الخارجى . وأرى أن يبدأ أى تشريح لكل هـذه العوامل ، بعرض موجز عن طبيعة الجمهـورية الســورية وشخصيات قادتها .

الجمهورية الســورية :

انتقل ماتبقى من سورية الكبرى فى عام ١٩٤٦ بعد قصف المدافع الفرنسية لدمشق الذى أدى الى مصرع أكثر من ألف انسان ، الى مرحلة

(١) لم تقم بالحركة الانفصالية الا فئة قليلة من ضباط الجيش السـورى ، تجمع بين فـريقى الانتهازيين والعملاء ، وقد ثبت أن الايدى والاموال الاجنبية لعبت دورا كبيرا فى الحركة الانفصالية . أما الادعاء بوجود «طغيان مصرى» فلم يكن الا ذوبعة زائفة لجأ اليها الانفصاليون، لتغطية الجريمة الكبرى التى ارتكبوها بحق الوطن العربى . المعرب

(٢) مقتبس من مقال فى عـدد ٨ أكتوبر عـام ١٩٦١ من صحيفة « الساندى تايمز » .

السيادة المطلقة بعد أكثر من حقبتين من السيطرة الفرنسية الانتدابية . وكانت للحساسية التى تسود السوريين تجاه الاجانب ، وهى ما يطلق عليه الغربيون اسم « كره الاجانب » أسباب وجيهة ملموسه ، تتعدى حدود الاوضاع النفسية التى تعقب الصراع مع الاجنبى عادة . فلقد بدأ هذا الصراع العاطفى أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى وقيام الحلفاء بتجزئة سورية — على الرغم من اشتراكها المفروض فى حرب التحرير ضـــد الأتراك — بين بريطانيا وفرنســا ، والصهيونية . وعندما بدأت حقبة الخمسين أحس القوميون العــرب فى سورية ، الذين تحمل عاصمتهم ذكريات الخلافة الأموية العظيمة ، أن مخلفات هذه التجزئة تحيط بهم من كل ناحية .

فالى الشمال ، تقوم تركيا ، الدولة العضو ، فى الأحلاف الغربية السوقية (الاستراتيجية) . والى الغرب يقوم لبنان الانعزالى ، الذى استغلت فيه فرنسا المدارات الطائفية كسلم لبسط نفوذها على المشرق العربى مدة مائة عام . والى الجنوب الغربى تقوم فلسطين العربية التى كانت أيضا جزءا من سورية ، والتى اغتصبت الصهيونية معظم أجزائها بموافقة الغرب وتأييده ، بعد أن طرد معظم أهلها العرب عن طريق القوة والارهاب ليجبروا على الاقامة فى معسكرات اللاجئين . والى الجنوب يقع الاردن الذى يسـيطر عليه البريطانيـون ، والذى يحتفظ فيـه ملوكه بأطماعهم فى الاستيلاء على دمشـق . والى الشرق يقـوم عراق نورى السعيد وعبد الاله ، المربوط أيضا الى عجلة بريطانيا . والذى يتلهف حكامه أشد التلهف للسيطرة على اتحاد يضم سورية الى العراق . وفى عام ١٩٥٥ أضيفت شبكة حلف بغداد الى هذه الاجواء المحيطة بسورية ، رابطة بين العراق وبين تركيا ، مع احتمال شد الاردن اليه أيضا .

ومن مثل هذا الجو النفسى المفعم بالمرارة والشكوك ، بدأت تظهر فى سورية موجة من المد الوحدوى ذى طابع تقـدمى اشـتراكى تثبت وجودها فى سورية . وقد تبلور هذا الاتجاه الوحدوى الاشتراكى فى حزب البعث الاشتراكى وبين الضباط الشبان فى الجيش السورى ، وأخـذ يتطلع والأمل يحدوه والسخط على الأوضاع القائمة فى الوطن العـربى يحرقه ، الى ثورة مصر وعبد الناصر ، لتحقيق ماينشده ، وكان الشيوعيون العرب ، بعد أن فقدوا أملهم فى غضون ذلك ، فى العثور على أرض خصبة فى مصر فى ظل عبد الناصر ، قد ركزوا اهتمامهم وجل نشـاطهم فى سورية . وبدت سورية بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ ، الحقل المفضل لانتشار الشيوعية فى الشرق الاوسط . فلقد كانت تلتزم سـياسة الحياد ، وكانت شكوكها فى الدول الغربية الكبرى قد حملتها على رفض كل نوع من أنواع العون الغربى الرسمى . بينما يفتقر تكوينها السـياسى والاقتصادى الى الاستقرار والاصلاح .

وأخذت الاحداث المتلاحقة على حدود سورية ، كحلف بغداد وبعثة تمبلر فى الاردن ومؤامرة نورى وايدن لضم الاردن الى العراق وحـرب السويس وسيناء ومؤامرة الاسلحة العراقية السورية ، وحرب التشهير بالمقدم السراج والتلويح بالخطر الاحمر ، ومشروع أيزنهاور وانقـلاب الملك حسين الرجعى فى الاردن ، تضخم بصورة متدرجة ، من هذا الجيشان

العميق الجذور فى صدور السوريين . ولم يحل صيف عام ١٩٥٧ ، حتى أخذ الرأى العام فى سورية يميل ميلا متزايدا الى التطلع الى الاتحـاد السوفياتى كالصديق المخلص الذى لا قيد له ولا شرط لنقومية العربية . وأخذت اذاعة موسكو تحسن من برامجها العربية وتكسب فى كل يوم أنصارا أخر مع كل خطيئة جديدة ترتكبها أمريكا .

وفى هذه الآونة ، بدأ الهيكل السياسى الداخلى فى سورية يتفاعل مع الأخطاء الغربية الضخمة ويصطدم بها وباتت هذه المصادمات بمثابة مقدمة للوحدة مع مصر . ولم تكن هناك أية ثورة اصلاح داخلى فى سورية . وظل البرلمان واقعا تحت سيطرة أغلبية من «المسقلين» ، ومن حزبين هما حزب « الشعب » اليمينى والحزب « الوطنى » اليمينى — الوسط ، وجميع هؤلاء وأولئك من النواب المحافظين من أصحاب الأرض والتجار وأرباب المصارف وفئات الطبقة الوسطى .

وكان الشىء الجديد الوحيد هو دور البعثيين لا فى مجلس النواب حيث لم يكن لهم الا ستة عشر نائبا من مجموع مائة اثنين وأربعين نائبا بل فى الوزارة السورية التى تألفت فى عام ١٩٥٧ . وكان الدور المحورى الذى لعبه الحزب فى هذه الوزارة مشجعا وتافها فى آن واحد ، اذ كان ثمرة المناورات التى تقع فى المسرح السياسى السورى غير المستقر والذى تسيطر عليه الخلافات الحزبية .

وقد أسقط اكتشاف مؤامرة الأسلحة العراقية من قيمة حــزب الشعب الذى كان زعماؤه يتطلعون بصورة تقليدية الى الاتحاد مع العراق . وقد لعب حزب البعث وانصاره من العسكريين دورا كبيرا فى الحط من قيمة حزب الشعب . وكان الاتجاه البعثى اليسارى قد نال من التأييد الشعبى ما ضمن لقادته أن يكونوا عنصرا أساسيا فى كل وزارة شريطة أن تكون ائتلافا يضم العناصر السياسية الأخرى . وأقام الحزب الوطنى الدليل على أنه حليف ودود للبعث ضد حزب الشعب ، ولذا فقد كان ممثلا فى الوزارة . ولما كان خالد العظم قد ألقى بثقله بين النواب « المستقلين » وراء حزبى البعث والوطنى ، فقد كوفىء بمقعد وزارة الدفاع . وقد أشارت هذه الضرورة الى وجود الأخطار المتأصلة فى السياسات السورية الداخلية فى عام ١٩٥٧ ، ولا ريب فى أن استخدام خالد العظم لوزارة الدفاع قد فجر أخطارا أخرى .

يعتبر خالد العظم من أكثر الناس ثراء فى الهلال الخصيب وواحـدا من القوى الفعالة على مسرح السياسة المحورية . وكان له مطمح واحد ، يكاد يلهبه ، وهو أن يغدو رئيسا لجمهورية سورية ، ولم يترك ناحية من نواحى المحيط السياسى فى سورية ، دون أن يطرق بابهـا ناشدا عبثا مساعدتها فى تحقيق هدفه . وكان يكفى للمرء أن يقابله فى واحد من بيوته التى تشبه القصور فى عام ١٩٥٧ ، ليدرك ان هذا الرجل يمكن أن يكون كل شىء الا أن يكون مشايعا للشيوعية ، ومع ذلك فلم يكن يتورع فى أن يلجأ الى الاستعانة بالشـيوعيين وبما يقف وراءهم من مكانة سوفياتية . وقد أتاح له منصبه كوزير للدفاع فى أغسطس عام ١٩٥٧ هذه الفرصة التى كان ينشدها .

ووقع الوفد السورى الذى يرأسه خالد العظم فى السادس من أغسطس فى موسكو اتفاقا أساسيا نص على تقديم أنواع مختلفة من العون السوفياتى ، العسكرى والمالى لسورية . ووجه العام وهو فى موسكو دعوة شفوية الى الزعماء السوفيات لزيارة سورية ، دون أن يكون مخولا فى الحكومة السورية بتوجيه هذه الدعوة ، وعندما عاد الى دمشق ، استخدم صلاحياته كوزير للدفاع فى اقالة رئيس الاركان العامة وعددا من الضباط الذين يحتلون مراكز حساسة ، مستعيضا عنهم بآخرين سرعان ما أقاموا الدليل على أنهم من المؤيدين لتوثيق علاقات الصداقة مع روسيا . وقام بمحاولة لابعاد السراج المناوىء للشيوعية عن البلاد ، ولكن بقية أعضاء الوزارة أحبطوا محاولته هذه فى الوقت المناسب .

ولم تكن الوزارة فى أغسطس عام ١٩٥٧ أكثر تشيعا للسوفيات مما كانت عليه فى بداية ذلك العام . وكان قد اتجهت الى موسكو تطلب عونها لنفس الأسباب التى حملت مصر على طلب عونها من قبل ، ولعل فى مقدمتها ان موسكو تعرض مساعداتها دون قيود أو شرط . ولكن قدرة الاتحاد السوفياتى والزعيم الشيوعى الكبير خالد بكداش على استغلال هذا العون استغلالا خطرا كانت تعتمد كل الاعتماد على الطريقة التى ستسلكها الولايات المتحدة فى الرد على هذه الخطوات السوفياتية الجديدة . ولم يكن كل شىء قد ضاع فى سورية بعد فى أغسطس عام ١٩٥٧ ، وكان فى مكنة السياسة الرشيدة لو اتبعها الغرب ، أن تسمح للرئيس القوتلى وقادة حزب البعث وغيرهم من الزعماء ، بأن يواصلوا سياسة الحياد . ولكن العمى الاخرق الذى تميزت به كل خطوة قامت بها واشنطن فى المنطقة فى هذه الآونة ، أتاحت لخطط خالد العظم أن تخلق حالة من الهوس الجنونى فى سورية .

وراح المستر دالاس يبعث فى التاسع والعشرين من أغسطس بالمستر لوى هندرسون فى رحلة صحبتها حملة من الدعايات العريضة يطوف فيها عددا من بلدان الشرق الأوسط باستثناء سورية نفسها ، معلنا فى الوقت نفسه أن لدى « جارات سوريا » كل مبرر للفزع حقا من الحالة فيها . ونقلت كميات ضخمة من الأسلحة الأمريكية بطريق الجو الى سورية فى تلك الآونة مصحوبة بحملة دعائية مثيرة ، كما أقلع الاسطول السادس الى القسم الشرقى من البحر المتوسط من جديد . وراحت الحملات الصحفية الخرقاء ، تزيد النار ضراما بعناوينها الهوجاء من أمثال . . . «رأيت المتطوعين الحمر ، و « الرجال القساة الجامدى الوجوه بالألوف » . وتبودلت وجهات النظر بين الملك سعود وحسين ونورى وحكومة شمعون ــ مالك . ومضى سعود ونورى السعيد الى دمشق ، (١) فقوبلا برد فعل عنيف من الشعب السورى ، ووجد أن

---

(١) أعتقد أن المؤلف خلط هنا بين نورى السعيد ، وعلى جودت الأيوبى ، فلقد كان الأخير هو رئيس الوزارة العراقية فى تلك الآونة ، وهو الذى أم دمشق ، وأصدر البيان المشار اليه هنا .

ــ المعرب ــ

الحكمة تتطلب منهما أن يصدرا بيانا ينفيان فيه ادعاء المستر دالاس الذى زعم فيه أن هناك ما يبرر لجيران سورية فلقهم من الوضع فيها . وراحت اذاعة موسكو وقد ساعدها اطلاق القمر السوفياتى الاول « سبوتنيك رقم واحد » تستغل جميع الفرص الذهبية التى أتاحتها لها تصرفات واشنطن الحمقاء .

وكان عبد الناصر يرقب جميع هذه الاحداث من القاهرة بشىء من القلق ، وقد بذل كل ما فى وسعه لمساعدة الوزارة السورية . وقد أصدر بيانا حازما يعلن فيه تأييده لسياسة الحياد السورية . وعندما اشتدت الأزمة على الحدود بين تركيا وسورية فى سبتمبر عام ١٩٥٧ ، كجزء من الخطة الغربية العامة للضغط على سورية ، راح عبد الناصر يبعث الى شمال سورية بوحدة من القوات المصرية كرمز على التضامن معها . وكان هذا العمل أول تنفيذ فعلى لاتفاق القيادة المشتركة بين البلدين الذى قرره الميثاق الدفاعى المعقود بينهما فى عام ١٩٥٥ . ولكن الغرب اعتبر هذه الخطوات ، محاولة استعمارية من مصر للاصطياد فى مياه سورية العكرة » كما اعتبرها اجراء محتملا يحقق الأهداف الموالية للسوفيات أيضا . ولعل المفارقة الغريبة فى الموضوع أن مصر كانت تحاول الرد على الاستغلال السوفياتى لاخطاء السياسة الامريكية ، فى الوقت الذى تعين فيه سورية على دفع أى تدخل تركى أو عراقى . ولاريب فى أن السوريين كانوا سيستديرون حتما نحو موسكو لولا العون الذى جاءهم من مصر

ولكن الضرر الذى سببه حمق الغرب وهوسه ، تركز الآن فى نقطتين فى سورية ، فلقد ارتفعت أسهم خالد العظم فى عيون ضباط الجيش السورى ، على اعتبار أنه الرجل الذى حصل للجمهورية على سلاحها الجديد الذى تحتاج اليه لا للدفاع ضد اسرائيل فحسب ، بل لمواجهة الخطر المتزايد فى تركيا والعراق أيضا .

ونال خالد العظم عن طريق القرض الكبير الذى حصل عليه من موسكو ، مكانة بارزة عند الشعب أيضا » . وراح الشيوعيون السوريون الى جانب هذه التطورات ، يستغلون هذا الضغط الذى يفرضه الغرب على بلادهم ، وما تلقاه من عون سوفياتى لدرئه ، ولم يكن للشيوعيين الا مقعد واحد فى البرلمان ، وهو المقعد الذى يشغله خالد بكداش . ولكن منظمى الحزب وأركانه أخذوا يكسبون القوة فى المجالس البلدية ، وكان لهم عدد من المؤيدين فى أوساط الجيش . وأدرك البعثيون ورفاقهم فى نهاية عام ١٩٥٧ . أن التحالف بين خالد العظم والشيوعيين أصبح احتمالا تكتيكيا قويا . وبدا حقا أن سورية ماضية فى طريقها نحو الفوضى . وقد شرح لى صلاح البيطار الزعيم البعثى هذا الوضع عندما اجتمعت اليه . . . فقال . . .

« . . لم يكن هناك خطر عاجل من قيام انقلاب شيوعى . ولكن كان من المحتمل أن يغتنم الانتهازيون الفرصة وأن يكسبوا عن طريق استغلالهم تأييد الشيوعيين ، والسمعة التى يتمتع بها الاتحاد السوفياتى ، وكنا نخشى خشية أكيدة ما قد يسفر عنه هذا الائتلاف من نتائج فى الانتخابات

النيابية التى كان من المقرر اجراؤها فى هذه السنة ، وما قد تؤدى اليه هذه النتائج من تطور فى انتخابات رئيس الجمهورية .

.. وكان لزاما علينا أن نختار هذه اللحظة لتحقيق الوحدة . اذ أنها كانت لحظة لو أضعناها ، لضاع علينا حلمنا لسنوات طويلة فى هـذا الجحيم من دوامة الديموقراطية البرلمانية الزائفة » (١)

ويجدر بنا أن نذكر أن هذه هى صورة الاوضاع التى كانت تسود سررية والتى وضعها البعثيون أمام الرئيس عبد الناصر ليدعموا بهـا طلبهم تحقق الوحدة الفورية والكاملة مع مصر .

نداء الوحدة

لم تكن فكرة الوحدة جديدة ، عندما طار وفد من الساسة السوريين والضباط القوميين فى الجيش ، وفى طليعتهم ممثلو حـزب البعث الى القاهرة ، يحملون معهم نداء الوحدة . فلقد كان الدستور السورى لعام ١٩٥٠ يتصور شعبا عربيا واحدا فى المستقبل تضمه دولة واحدة . ونص دستور مصر الذى صدر فى عام ١٩٥٦ على أن مصر جزء من الوطن العربى .. وقد أدى هذا الاتجاه الذى سبق لنا شرحه لايجاد تعاون وثيق مع مصر الى اتخاذ قرار بالاجماع فى المجلس النيابى السورى فى الخامس من يوليو عام ١٩٥٦ ، للشروع فى مفاوضات لخلق اتحاد تعاونى (فدرالى) بين البلدين . ولكن هذه الخطوات ما لبثت أن توقفت بسبب الأزمات التى توالت فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ وفى طليعتها أزمات السويس ومشروع أيزنهاور وانقلاب الاردن الرجعى . ولكن الدولتين أعلنتا فى الرابع من سبتمبر ١٩٥٧ وصولهما الى اتفاق مبدئى على قيام وحدة اقتصادية بينهما يتم تنفيذها عن طريق اقامة صناعات ومصارف وشركات للنقل مشتركة وأن تنتهى هذه الخطوات باقامة نقد موحد . وتم الاتفاق فى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٥٧ على الشروع فى مفاوضات لاقامة اتحاد تعـاونى (فيدرالى) بين البلدين .

ولكن على الرغم من الموافقة على أهداف الوحدة ، الا أن القاهرة لم تكن تتوقع صورة هذه الوحدة التى طلبها السوريون الآن ولا توقيتها . ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان معظم المعلقين الغربيين ومعهم الدعاية الاسرائيلية يتهمون عبد الناصر ، بعملية ضم « سـورية الصغيرة التى لا حول لها ولا طول » ، ويشبهونها بضم هتلر للنمسا (الانشلوس) ، ويصورونها على أنها الخطوة الرئيسية الأولى فى طريق اقامة «الامبراطورية» التى كان الحديث عنها دائرا على قدم وساق منذ عام ١٩٥٥ . لكن الواقع كان يختلف عن هذه الدعايات اختلافا عموديا كاملا . وقد اعتمدت فى هذا السرد الذى سأتلوه هنا ، عن حقيقـة ما دار على المعلومات التى جمعتها من الفريقين .

---

(١) مقابلة للمؤلف مع صلاح البيطار فى القاهرة فى أكتوبر عام ١٩٥٨ .

لقد دهش عبد الناصر وزملاؤه دهشة حقيقية مماتضمنه الطلب
السورى من حث على الاسراع فى تحقيق الوحدة ، ومن تطرف . وكان
عبد الناصر يتوقع كما كان يتوقع أى انسان آخر ، أن تستمر المفاوضات
التى تم الاتفاق على الشروع فيها لتحقيق الاتحاد التعاونى سنوات عدة .
ولم يكن الزعيم المصرى قد ضمن برامجه الأولية أية أهداف لوحـدة
دستورية بين البلاد العربية حتى ينـاير عام ١٩٥٨ . وكان ينشد أول
ما ينشده « التضامن » وهو التعبير الذى طالما استعمله ، فى شئون الدفاع
والسياسات الخارجيـة ، لينقل من مرحلته الى مرحلة الاصـلاحات
الداخلية ، ومن ثم الى الوحدة الاجرائية فى الشئون الاقتصادية والتربوية
والدفاعية ، على أن لا تتحقق الوحدة أخيرا الا بعد اتفاق يقوم على دراسة
حذرة ودقيقة . وكان يدرك ، ادراكا عاما ، ما تتعرض له سورية من أخطار
سياسية . وكان أول رد فعل صدر عنه بعد أن استمع الى العرض الكامل
الذى قدمه اليه السوريون عن أوضاعهم ومشاكلهم ، توجيه النصح اليهم ،
بأن يقوموا الآن بذلك الطراز من الثورة الداخلية ضد الرجعية وضـد
ما يبدو من ضعف فى النواحى الخـارجية ، الذى تبناه هو وزملاؤه من
الضباط الاحرار فى ثورة عام ١٩٥٢ .

ورد السوريون قائلين بأن جيشهم يفتقر الى الوحدة التى تسود
الجيش المصرى . وأن الوقت لا يسـمح لهم بأى ابطاء لتمهيد الطريق
تمهيدا سليما لتحقيق تلك الثورة . وأضـافوا أن السبيل لتحقيق
ماينشدونه من اصلاح لا يتم الا عن طريق تقوية وضعهم باقامة الوحدة
مع مصر التى تلقى تأييدا شعبيا طاغيا . وعندما تساءل عبد الناصر ، عن
السبب الذى يحول دون قيام الاتحاد التعاونى (الفدرالى) الذى سبق
لهم أن تصوروه ، ردوا بأن هذا المشروع لم يعد يفى بالفرض من ايجاد
القوة المنيعة . وهنا أضاف السوريون بعض الحجج التى انطوت على شىء
من الملامة وراحوا يتساءلون .. ولماذا لا نحقق الوحدة الكاملة على أى
حال ؟ أو لا تحقق هذه الوحدة بالتأكيد الهدف القومى العربى ، وتحظى
بالتأييد الطاغى من جماهير العرب ؟ أولا يشير تاريخ العرب الحديث الى
الضير من التردد والخوف من التقدم الى الامام ، مما يترك ثغرات للدسائس
الاجنبية التى تكدس التجزئة ؟ وهل يرضى عبد الناصر أن يترك سورية
العربية تهوى فريسة للشيوعية أو للعناصر الرجعية الانتهازية المتحالفة
مع عراق نورى السعيد والدول الغربية ؟

ولقد قدر للرئيس عبد الناصر بعد ثلاث سنوات ونصف السـنة
أن يستذكر هذه الحجج والأقوال بشىء من السخرية المـرة التى يمكن
فهمها ، مهما كانت الاخطاء التى وقعت فى هذه الآونة . (١) ولكنه فى

---

(١) قال الرئيس عبد النـاصر فى خطابه الذى ألقاه فى الثامن
والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦١ : « لقد قلت ان الوحدة تحتاج الى تمهيد
الوحدة متاعب والوحدة مشاكل والوحدة امتزاج .. قلت هذا ولكنهم
قالوا لى أين الاهـداف التى أعلنتها ؟ هل تتنكر لهذه الاهداف ؟ وهل
تترك سورية ؟ هل تتركها لتتنازعها الاحقاد ؟ هل تترك سورية لتضيع ؟»
المؤلف

يناير عام ١٩٥٨ ، راح نهجا لثلاث مؤثرات ، فلقد أدرك أولا . أنه لا يستطيع هو ولا يستطيع سفيره فى دمشق الذى كان يوصى بالأناة والتمهل البالغين فى موضوع الصاب السورى ، أن يسبرا حقا عور الخطر على سورية ، كما يستطيع السوريون أنفسهم أن يسبروه . ولكنه كان من الناحية الثانيه يحس فى قرارة نفسه بذلك الشعور الحماسى لتحقيق هذه الوحدة . الذى يسيطر على الشرق الاوسط بكامله . ويرى أهمية ما فى سبق الزمن من قيمة للحركة العربية . ومع ذلك فقد ظل يحتفظ من الناحية الثالثة بذلك التشكك العميق ، من جراء الانغماس فى مثل هذا الالتزام الجذرى بدون أن تسبقه دراسات عميقة ودقيقة للغاية . وأدرك أن هذه الوحدة التى يصر السوريون على تحقيقها ، ستواجه عداء متواصلا من الحكام العرب الرجعيين ومن الصهيونية والدول الغربية والشيوعية . وأدرك أن هؤلاء الأعداء ، سيجدون منافذ تتمثل فى أى مصدر من مصادر الضعف فيها أو من علائم الفرقة الداخلية ، لطعنها ومهاجمتها . ولكن كانت هناك الاحتمالات الأخرى التى عرضها السوريون ، فاما أن تتعرض بلادهم لانقلاب شيوعى ، أو الى حالة من الفوضى يستغلها نورى السعيد بموافقة الغرب أو حتى عن طريق تدخله الفعلى ، مما يعرض قيادته للحركة العربية للخطر .

ولعل من الصعب على المرء أن يتصور معضلة تعادل تلك التى واجهها عبد الناصر . وكان ما توصل اليه من حل أخيرا هو أن يضع أمام الوفد السورى تلك الشروط ، التى يرى ضرورة توافرها أولا وقبل كل شىء حتى تقبل مصر تحمل هذا الالتزام العظيم . ولقد أكد زملاؤه فيما بعد لمؤلف هذا الكتاب ، أن عبد الناصر كان يأمل فى أن تؤدى هذه الاشتراطات التى وضعها الى أن يعيد السوريون النظر فى موقفهم ليقرروا ما اذا لم يكن من الأفضل لهم أن يحاولوا الوصول الى علاج أقل جذرية ، أو يقرروا على الاقل أن الاتحاد التعاونى (الفيدرالى) قد يكون أصلح لهم من الوحدة الكاملة .

ونصت الشروط التى وضعها الرئيس عبد الناصر ، على أن واقعية الوحدة الكاملة تتطلب القيام فى سورية بخطوات لمواجهة العوامل السياسية تضاهى ما اتخذ فى مصر لمواجهة العوامل المشابهة ، كحل الاحزاب السياسية كلها فى سورية والاستعاضة عنها بتكوين اتحاد قومى ، كما نصت أيضا على وجوب ابتعاد الجيش السورى ابتعادا تاما عن السياسة وعلى ان يختار الضباط الراغبون فى العمل السياسى أو الحكومى بين هذا العمل وبين مناصبهم العسكرية . وأضافت أن الوحدة الكاملة تتطلب الدمج بين اقتصادى البلدين ، وان تشمل قوانين الاصلاح الزراعى وخطط التنمية الاقتصادى التى توجهها الدولة الاقليم السورى أيضا . وحذر عبد الناصر الوفد قبل كل شىء ، من أنه فى حالة اتمام الوحدة على النحو الذى يطلبونه ، فمن الواجب ألا يكون هناك أى تأفف أو تذمر ظاهر ، وكما أنهم قد ذكروه بمسئولياته تجاه القضية القومية كلها ، فانه يود أن يذكرهم أيضا بمسئولياتهم ، هذا اذا كانت القضية ستتعرض لامتحان من جراء هذه المغامرة الشاقة .

وطار الوفد عائدا الى دمشق للتشاور ، ولكنه ما لبث أن رجع الى القاهرة قبل انقضاء بضعة أيام ، وقد حمل الموافقة على جميع الشروط وقبول الرئيس شكرى القوتلى للمشروع . واقترح الوفد مع هذه الموافقة ، اعلان الوحدة فورا كاجراء عاجل على أن يترك أمر التخطيط للمستقبل . وهكذا لم يحل اليوم الأول من فبراير عام ١٩٥٨ ، حتى اهتز الوطن العربى كله بذلك الاعلان القصير الذى نقلته فى مستهل هذا الفصل .

أما الان وبعد أن وقع الانفصال فليس فى وسع أى انسان ان ينكر لحظة واحدة ، بأن تلك الخطوة كانت تاريخية عند العرب جميعا ، اذتفجرت فيها الآمال ، والأمانى المشرقة ، وارتفعت مشاعر الاعتزاز الى أسمى الذرى ، بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ العرب الحديث ، وانتقل عبد الناصر الى سورية . وتدفقت الجماهير أياما ثلاثة متوالية من جميع أنحاء البلاد ، لترابط أمام القصر وقد زحفت اليه لرؤيته ، حتى اضطر الى مناشدتها شخصيا العودة الى الأماكن التى جاءت منها لمباشرة أعمالها . واذا كان الأجنبى الغربى الذى لا علاقة له بالموضوع يحس بالألم كلما عاد بذاكرته الى تلك اللحظات ، فان من الممكن أن نتصور مدى الآلام التى أحس بها الكثيرون من العرب عندما انفصمت عرى الوحدة التى أحاطوها بمهجهم .

وعندما رد الغرب ، بتوجيه التهم الى الرئيس عبد الناصر ، بأنه ضم اليه سورية عنوة كما ضم هتلر النمسا الى المانيا وعندما سارع الغرب الى اقامة الاتحاد الهاشمى المنافس القصير العمر بين عرشى بغداد وعمان ، ظل عبد الناصر من ناحيته متخوفا كل التخوف . ولقد سمعناه بعد أربعة أيام من الاعلان التاريخى الذى عمت أنباؤه الشرق الاوسط باسره ، يقول فى خطاب ألقاه عن الوحدة ...

« ان الطريق الذى نقبل عليه طويل وشاق ..

« ان رحلتنا عليه ليست نزهة نروح بها عن النفس ..

« وانما رحلتنا هى مشاق ومتاعب ، وكفاح وجهاد ..

« ... ولكن علينا أن ندرك أن لهذه الفترة الرائعة اخطارها أيضا . وربما كانت شهوات أنفسنا هى أكبر الأخطار التى يتعين علينا مواجهتها لقد مرت علينا قرون من الزمان ، وأحلامنا وأمانينا ورغباتنا ، وأهدافنا حبيسة وراء الحواجز والسدود التى صنعها الاستعمار .

« ولقد تهاوت الحواجز والسدود ، لما زال وجود الاستعمار من بلادنا،وهكذا بدأت الاحلام والامانيوالرغبات والاهداف تنطلقمن عقالها. وتتدافع بسرعة فى مثل تدفق الفيضان .

« ولقد كان هذا هو التفسير الحقيقى لسرعة الحوادث فى جيلنا ، وهذا أمر طبيعى ، بعد أجيال عديدة مكبوتة ، ولكن هذا أيضا تحذير كما هو تفسير .

« آنه تحذير بأن من أول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانات على

أمانينا ، ثم تفتح عيونها ليمر التيار ٠٠ على شكل الفيضـــــان المنظم ، ولا يخر فوق رءوسنا كالطوفان العالى الشديد ٠ (١)

ولا ريب فى أن هذا القول غريب على زعيم كان الغرب يفترض فيه بصورة عامة ، أنه كان منتشيا فى تلك الايام بتحقيق « امبراطـــوريته الجديدة » وأنه كان قد شرع يتطلع حوله لتوســــع جديد فى العراق أو الاردن أو لبنان ٠ ولم يكن هذا القول على أى حال آخر دلالة على تحفـظ عبد الناصر فى موضوع الوحدة العربية الدســــتورية وعلى شكوكه فى موضوع الوحدة مع سورية ٠ ففى الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٥٨ ، كان العراق يعيش فى ظل موجة عارمة من الحماسة الثـــورية ، وكان الغرب واقعا تحت سيطرة كابوس التخوف من استعمارية عبد الناصر ، وكان الجانبان يتوقعان منه أن يدعـــو الى الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية الجديدة ٠ ولكن عبد النـــاصر ، أشار فى الخطاب الهام الذى أذاعه فى ذلك اليـــوم الى الخطر الذى قد ينجم عن التسرع فى اقامة الوحدة (٢) ٠ وأضاف أن الوحدة مع ســـورية قد تمت بصورة عاجلة ، دون أية دراسات مسبقة من النوع المعتـــاد وأن حكومته

---

(١) خطاب سيادة الرئيس الى مجلس الأمة فى الخامس من فبراير ١٩٥٨ وقد نقلته الاذاعة أيضا

(٢) أنا اختلفت مع المؤلف فى رأيه هذا عن تخوف الغرب من سيادة الرئيس عبد الناصر ، وان كنت لا أنفيه ٠ أو انفي وجـــوده ، فالغرب يتخوف من الوحدة العربية التى يحمل سيادته راية الدعوة اليهاويمثلها ٠ وهو ـ أى الغرب يناهض تحقيقها ، ويحاول الابقـــاء على تجزئة الوطن العربى رعاية منه لمصالحه ٠ ولهذا الســــبب أقام اسرائيل ، ويبقى على العروش الوهمية فى المنطقة العربية ، ولهذا السبب أيضا قام بعدوانه على السويس وارتكب ، ما ارتكب مع العرب من آثام ٠ فالاستعمـــار الغربى يرى فى القومية العربية التى يحمل سيادة الرئيس لواء الدعوة اليهـــا ٠ «البعبع» الذى يفزعه ٠ ولقد سبق له أن عارض الوحدات التى كان يحاول القيام بها حتى من يسميهم أصدقاءه ، فلقـــد عارض فى وحدة الاردن والعراق فى عهد الملك عبد الله فى عام ١٩٥٠ مـــع أن عبد الله وعبد الاله ومعهما نورى السعيد كانوا يســـيرون فى ركابه ويأتمرون بأمره ٠ لأنه يخشى مستقبل هذه الوحدة لاحاضرها ، ويخاف من تحولها مع الايام الى أيدى الشعب من أيدى الاعوان ٠ واذا كان قد وافق فى عام ١٩٥٨ على الوحدة المصطنعة بين العرشين الهـــاشميين ، فى الاردن والعراق ، فلأنه وجد نفسه مضطرا لقبولها ليواجه بها الوحدة الحقيقية المنبثقة من ارادة الشعب والتى يتولى قيادها الزعيم المؤمن الملهم الرئيس عبـــد الناصر ، والتى خلقت الجمهورية العربية المتحدة ٠ فالخوف اذن هو من الوحدة ، ولأن الرئيس هو الذى يتولى لواءها منطلقة من الايمان الاصيل بها وحدة متحررة من كل نفوذ وتبعية ، فان الغرب يخشاها كل الخشية وقد عمل وما زال يعمل على احباطها والحيلولة دون قيامها ٠

ـ المعرب ـ

لم تكن قد درست حتى الميزانية السورية التى ثبت وجود عجز كبير فيها ٠

ورحت أسأل الرئيس عبد الناصر ، فى حديث طويل أجريته معه فى شهر اكتوبر عام ١٩٥٨ ، عمايراه فى حركة الوحدة العربية ، وعن المرحلة التى يعتقد أنها وصلتها ٠ فكرر على مسامعى ما سبق له ان ذكره أكثر من مرة ، وان هدفه الاول هو التضـــامن فى السياسة الخارجية وشـــئون الدفاع ، وتوحيد الخطة الرامية الى تحقيق الاصلاح الداخلى ٠ وقال ان هذا الرأى انما نجم عن الثورة العراقية وأضاف أن ليست لديه أية خطط عن الوحدة مع العراق ٠ أبدا أية خطط ٠ ثم قال « لقد مللت من تكرار هـــذا القول دفعا لما يوجهه الغرب الى من اتهامات ٠ ورحت أسأله عما يمكن فعله الآن فى موضوع الوحدة طالما أن العرب ٠ ينادون بها سواء أكانت هنـــاك خطط موضوعة أو لم تكن فقال ٠٠

« لا ريب فى أنك تعلم أننا كنا حتى الآن نفكر على صعيد روحى أو معنوى لا على صعيد محـــدود ، وأن تفكيرنا لم يكن يعدو حدود الامانى والآمال ٠ ويشبه موقفنا وضـــع ذلك الشاب الذى لا يتوقف عن الاحلام قبل الزواج ٠٠ قل لى هل أنت متزوج ؟ »

وقلت للرئيس اننى متزوج ، واننى فهمت ما يعنيه فابتسم ، ولكنه ما لبث أن قال بمنتهى الجد وهو يبحث عن الكلمات التى يريد أن يرددها على مسمعى وسط سحابة من دخان لفافة التبغ التى كانت فى يده ٠٠

« ٠٠ اذن فالشاب يوالى بحثه وهو حالم ، يأمل فى الحب ، وفى المرآة التى يبنى بها ، والاطفال الذين سينجبهم والاسرة التى سيبنيها ، وكل ذلك بطرق روحية ٠ ويحقق أمله أخيرا فيتزوج ٠ وهنا تبدأ المشاكل فى البروز أمامه ٠ فعليه أن يجد القوت والملبس لزوجته وأطفاله ، وعليه أن يؤثث بيته ٠ وأن يخطط لغده ٠ وأن يبقى على علاقاته الجديدة فى أسعد حال ٠ وسرعان ما يجد ان تفكيره العملى لم يهيئه لمواجهة كل هذه المشاكل العملية ٠٠

هذا على ما أظن هو حالنا الآن بالنسبة الى القومية العربية والوحدة ٠ فالاحلام وحدها لا تكفى ٠ »

تبعات الوحدة ومسئولياتها :

ولدت الجمهورية العربية المتـــحدة أول ما ولدت تحت كنف من التبعات والمسئوليات المتأصلة ، التى لو قمنا بتعدادها وحدها ، لتبين لنا الكثير مما دعا الى تحللها ٠ فليست هنـــاك حدود مشتركة بين مصر وسورية ، وانما تقوم بينهما الاردن واسرائيل ٠ ولم يمر شعباهما بفترة تمهيدية من التعارف المشترك الذى ينضج ببطء واستمرار ، ولا تقتصر فيها الاتصالات على الزعماء والمسئولين عن الحـــكم أو حتى البارزين من المواطنين بل تتعداها الى مختلف الفئـــات لخلق جو من التفهم الصحيح للفروق بين الامزجـــة والطباع والبيئات ٠ ولكن فجـــأة ، وبين عشية وضحاها ٠ وجد هذان الشعبان نفسيهما شعبا واحدا فى دولة واحدة ذات

علم واحد . ويصح أن يقال ، ان مثل هذا الوضع لم يحدث من قبل فى أى مكان آخر فى العالم(١) .

وكان هناك أيضا عامل الحجم ، فالاقليم المصرى عملاق فى حجمه ، اذ يضم ستة وعشرين مليونا من السكان ، وهو يتحد مع الاقليم السورى الصغير . والذى لا يتجاوز تعداد سكانه الاربعة ملايين ونصف المليون من الناس . ولو كانت الوحدة التى قامت من نوع الاتحاد التعاونى (الفيدرالى) الذى تحتفظ فيه الاطراف بسيادتهـا ، لكان فى الامكان تدبير مشاعر الاحتكاك الناجمة عن الاتحـاد ، ولكان فى مقدور القائمين عليه ، ازالة الشعور الحتمى الذى يخالج الشريك الاصغر دائمـا بأنه واقـع تحت سيطرة الشريك الاكبر . أما بالنسـبة الى الاندماج الكلى الذى خلقته الوحدة الكاملة بين اقليمى الجمهورية العربية المتحدة ، فان هذا العامل وحده كاف لخلق مشاعر التوتر الحادة ، حتى ولو كانت الاوضاع القائمة فى الجمهورية العربية المتحدة وحولها مثالية فى صلاحها لدعم الوحدة . مع العلم بأن هذه الاوضاع لم تتوافر أبدا .

عوامل الضعف الاقتصادية :

وفى وسعنا أن نتميز المصاعب التى فرضتها الوحدة بوضوح ، اذا لاحظنا بعض الاوضاع المعـاكسة التى نشأت منذ البداية . وقد تبين أن الفروق بين الكيانين الاقتصاديين والاجتماعيين فى مصر وسورية ، قـد ألفت مصدر الخطر الاكبر منـذ البداية . فلقد بدأت مصر التى ضاقت بسكانها ثورة داخلية جذرية ، تقضى على الامتيازات الاقتصـادية وأوجه السلطان السياسى السابق ، التى كان يتمتع بها الاقطاعيون الاغنياء والقلة

(١) وقع المؤلف هنا فى خطأ أسـاسى أوصله الى النتيجة الخاطئة التى سجلها هنا . فهو كما يبدو يفترض وجود شعبين مختلفين فى مصر وسورية ، تختلف أمزجتها وطباعهما وبيئاتهما ، مع أن الشعب واحد فى البـلدين ، وفى الاجزاء الاخرى من الوطن العربى التى ما زالت تتلهف لتحقيق الوحدة . ومن هنا تجاهل المؤلف الدوافـع المـادية الملموسة والعوامل الروحية التى تقوم حتمية الوحدة العربية على أساسها ، ولعله لم يستطع أن يعرف أن للشعب العربى كله تاريخا واحدا ومشتركا . وأن أرضه واحدة مشتركة تؤلف كيانا ماديا متكاملا ، وان له لغة واحدة ، وان اختلفت لهجاتها ، وفكرا واحدا ، وتراثا قوميـا واحدا ، ومصالح مادية واحدة ، بالاضافة الى ما يوحده من نضال مشترك ضد عدو استعمارى واحد ، وان اختلفت الدول التى تؤلف جبهته .

وأرى لزاما علينا هنا أن نؤكد نقطة واحدة . وهى ان الشـعب السورى لم يكن هو الذى فصم الوحدة التى كان الفارض لها ، وانما الذى فصمها ، جماعات من الانتهازيين المرتدين والتجار ، والرجعيين من كبار الرأسماليين والاقطاعيين ، وعملاء الاستعمار .

ـ المعرب ـ

من التجار وذوى المهن . وكان فى مصر اصلاح زراعى يسير فى طريقه ، وكانت هناك تنمية اقتصادية توجهها الدولة ، كمـا كانت هناك رقابة صارمة على التجارة والصيرفة ، وأعمال البنوك . ولم تؤد هذه الاجراءات الهادفة الى ازالة عدم التكافؤ الاقتصادى والاجتماعى الى أية هزة سياسية لأن معظم أصحاب الامتيازات الذين فقدوها لم يكونوا من المصريين بل من المقيمين الاجانب من بريطانيين وفرنسيين وبلجيكيين ويونانيين وغيرهم .

أما فى سورية ، وعلى سبيل المقارنة المرعبة ، فلم تكن هنـاك أية ثورة داخلية من أى نوع ، كما يدلل على ذلك العدد الصغير من نواب حزب البعث الاشتراكى فى البرلمان . وعندما وقعت الوحدة كان فى سـورية نظام اقتصادى ، يفوق فى حريته وعدم تقييده ، وانفتاحه أمام أصـحاب الاعمال أى نظام آخر ، فى أى بلد ثان بعد الحرب العالمية الثانية . وكان التجار وأرباب المصارف السوريون قد تعودوا على ما ألفه القرن التاسـع عشر من افتقار الى تدخل الدولة فى توجيه الاقتصاد ، لا سيما وانهم هم الذى يسيطرون على هذه الدولة مباشرة أو عن طريق الفئات المختلفة من ضباط الجيش . وليس ثمة من يشك أو يناقش فى ان سورية كانت فى حاجة ماسة الى الاصلاح الداخلى ، وفى حتمية هـذه الاصلاحات . ولكن عندما بوشر الآن فى التطبيق ، ولا سيما فى حدود القرارات الاشتراكية العربية التى صدرت عن الرئيس عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٦١ ، صبت الفئة القليلة من ذوى الامتيازات فى سورية جام نقمتها على مصر وعلى الوحدة . ولم يكن عدد الاجانب من ذوى الامتيازات فى سورية كبـيرا جدا بحيث يمـكن حرمانهم منهـا . وتحتم أن يكون الصراع الذى سيحدث بين السوريين أنفسهم . وكان الخطر قد اتضح منذ السنة الاولى للوحدة فى بيان صريح كل الصراحة صدر عن الرئيس عبد الناصر ، اثر مقابلته لوفد من غرف التجارة فى سورية جاء يشكو اليه فلقد قال .. « اذا بعثنا اليكم ببعض مسئولينا ، قيل انهم جاءوا ليحكموا سـورية ، أما اذا امتنعنا عن ايفادهم ، فيقال ان مصر لا تهتم بسورية» (١) .

(١) هناك حقيقة واقعة يجب أن لا نتغافلها . وان تغافلها المؤلف ، وهى ان سورية كانت تضـم طبقة من الاقطاعيين والرأسماليين وذوى المصالح شأنهـا فى ذلك شأن الاجزاء الاخرى من الوطن العربى الذين أفزعتهم القرارات الاشتراكية لما سـتؤدى اليه من تهـديد لمصالحهم الشخصية الاستغلالية التى تقـوم على ابتزاز عرق العامل والفـلاح وجهدهما ، وان أفراد هذه الطبقة تتشابك مصالحهم دائمـا مع مصالح الاستعمار ، وان لم يكونوا يرتبطون به رباطا مبـاشرا فى الظاهر على الأقل . ولما كان هم الاستعمار أن يفصم الوحدة . حرصا على مصالحه ، وابقاء على ربيبته اسرائيل التى كانت الوحدة تمثل الخطر الاول عليها ، فقد اسـتغل عن طريق أعوانه واجرائه فى الاجزاء الاخرى من الوطن العربى ، هذا الشعور الطبقى عند الفئـات الرجعية والرأسـمالية فى سورية ،وسخر أفرادها بعضهم عن طريق العمالة المباشرة ، والبعض =

واذا أضفنا الى هذا العامل المعاكس ، بعض الاخطاء التى وقعت - تبينت لنا صورة عن الاوضاع . فلقد افترض المخططون والاداريون ، ان ما يصلح لمصر من أساليب واجراءات ، يصلح لسورية أيضـــا . وكثيرا ما ضاق هؤلاء صبرا ، من رؤيتهم الاقليم الشمالى ، لا يتقبـــل بسهولة مفاهيم التنمية الاقتصادية التى تخططها الدولة وتوجههـــا ، لان هـــذا الاقليم لم يألفها . وصحيح ان الحاجة الى الاصـــلاح والتخطيط كانت قائمة ، الا ان المثقفين السوريين وحتى المؤمنين منهم بمثل هذه الاصلاحات الاشتراكية ، لم يكونوا يحسون بالحاجة الملحة اليها ، والتى تتسلط على التفكير فى الاقليم المصرى بسبب الضغط الناجم عن تكاثف السكان .

عوامل الضعف السياسية :

هناك عدد كبير من علامات الاستفهام التاريخية فى قصة الوحدة بحيث يصبح من الصعب ، لا سيما وأن الوقت لم يطل بعـد ، على وقوع المأساة ، للحكم على ما اذا لم تكن المتناقضات الاجتماعية – الاقتصـــادية الاساسية من النوع الذى سيطغى على أى حال . ولكن المشاكل السياسية الداخلية فى الجمهورية العربية المتحدة ، كانت من نوع ضخم أيضا . ولقد كان أول رد فعل عند الغرب لحركة الانفصـــال هو الافتراض بأن القوى الديموقراطية فى سورية قد ثارت على ما أسمته بالسيطرة المصرية . لكن ما يبدو فى هذا الافتراض من بســـاطة . سرعان ما ظهر بطلانه من الحقيقة الواقعة . وهى ان العهد الانفصـــالى نفسه . لم يتح للاحزاب السياسية حريتها ، ولم يسمح بقيامها . وسأتولى فى الفصل المقبـــل البحث فى مفهوم عبد الناصر ، عن البنيان السياسى الذى يقوم على عدم وجود الاحزاب ، وهو مفهوم يسير فى خط مماثل ومتواز مع كل مفهـــوم من نوعه فى الدنيا الافريقية – الآسيوية . ولكننى أرى من الاهمية بمكان هنا أن أشرح بعض نقاط الضعف فى جهاز الاتحاد القومى الذى قبل به السوريون أنفسهم كشرط من شروط الوحدة الكاملة التى أصروا هم على قيامها .

واذا ما وضعنا نصب أعيننا حقيقتين أساسيتين ، وهما حجم مصر الضخم وزعامة عبد الناصر الشعبية الجـــارفة الطالعة من القاهرة ، فان سؤالا ضخما سرعان ما يبرز أمامنا ، وهـــو ألم يكن الوفد السورى الذى ذهب الى القاهرة فى يناير عام ١٩٥٨ ، ســـعيا وراء الوحدة ، يدرك أن مصر ستكون هى صاحبة الدور الاكبر ، كنتيجة طبيعية فى الاندماج الذى يطلبه ؟ ان الرد على هذا السؤال يتطلب منا نظرة أعمق تجـــاه الاهداف الايجابية التى دعت زعماء البعثيين للمطالبة بالوحدة ، ويبدو لمؤلف هذا الكتاب أن هذا الرد يعرض قضية عقائدية أساسية بالنســـبة الى خالقى الوحدة . فاكرم الحورانى الزعيم المحترف لحزب البعث ، وميشال عفلق

= الآخر دون وعى وادراك فى العمل على تحطيم الوحدة . ولهذا لعبت هذه الفئات دورا بارزا فى عملية الانفصال .

– المعرب –

وصلاح البيطار ، الزعيمان العقائديان للحزب ، كانوا جميعـــا يرون فى شخص عبد الناصر الزعيم الصادق والنزيه ، وذا الدور التنفيذى التاريخى للحركة العربية ، وكانوا يؤمنون بأن مصر يجب أن تكون مركز الثقل فى هذه الحركة . ولكنهم مدفوعين بشىء من الغرور والاغراق فى الثقة بالنفس اللذان يظهران بوضوح فى غموض برامجهم ، كانوا يعتقدون أن هـــذه الحركة فى أشد الحاجة الى محتواهم العقائدى وسياساتهم المتلاحمة . وعلى الرغم من اعترافهم ، أى زعماء البعث بأن قيادة عبد الناصر ما لبثت أن طلعت بمحتواهـــا ومفاهيمها العقائدية ، الا أنهم ركزوا عند طلب الوحدة ، هدفهم على أســـاس الافتراض بل النيـــة ، على أن يكون التلاحم قائما بين قيادة عبد الناصر ، ومفاهيمهم العقائدية .

ولم تمض بضعة أسابيع على صدور اعلان الوحدة ، حتى كان زعماء البعـــث يسرون حتى الى رجال الصحـــافة الغربية بأنهم يتوقعـــون بسرعة الحصول على نفوذ مسيطر لامجرد نفوذ نسبى ، أو حتى متكافىء فى حكومة الجمهورية العربية المتحـــدة كلها . ولا ريب فى أن هـــذه المطامع هى التى حدت بهم الى ذلك التسرع فى تجاهل جميع تلك الاخطار الضخمة من قيام وحدة متسرعة وغير مدروسة أو مقامة على أسس خطط لها ، وهى الاخطار التى حذر الرئيس عبد الناصر منها عندما حاول اقناعهم بتعديل مطالبهم . وكان البعثيون بالنســـبة الى قرار حـــل الاحزاب ، قد رأوا ، وهم الذين يعتبرون منظمتهم أكثر من مجرد حزب ، ان هذا الحل لا ينطبق عليهم ، اذ أنهم توقعوا أن يصبح البعث فى الحقيقـــة الحركة « الرسمية » فى الاقليم السورى .

ولا ريب فى أن هذه القضية الباطنية من الثقـــة الغريبة التى لعبت دورا هاما فى الجمهورية العربية المتحدة ، هى أحد العوامل الصعب جدا على الباحث أن يحكم على المدى الذى كان فيه عبد النـــاصر غير محـــق فى خلافه مع قادة البعث أو على المـــدى الـــذى كان لا بد لهـــذا الافتراض الغريب الذى أشرت اليه والمختفى وراء هدفهم ، من أن يجعـــل الصدام شيئا حتميا ويستفزه . فلم تكن الحقائق الواضـــحة فى « الواقع الســـياسى الســـورى » داخـــل سورية نفســـها تبـــرر ما قام به الرئيس عبد الناصر فى بادىء الامر من العطف عليهم كل ذلك العطف الذى جعله يرفعهم الى مركز الزعامة القيادية فى سورية . وكان هدفه الرئيسى من اقامة « الاتحاد القومى » ومفهومه ، اقناع جماهير السوريين بأن الاحزاب السياسية أصبحت شأنا من شئون الماضى . ويجب علينا على كل حـــال أن نقول ان حزب البعث ، كان العنصر السياسى الواضح الوحيد فى سورية الذى يحمل مفاهيم اصلاحية متطرفة أمام الناس وأمام مؤيديه من ضباط الجيش والموظفين ذوى النزعات المتطرفة . وعلى هـــذا الاساس فقـــد كان الحزب ، النواة التى تلتف حولها الحركة النضالية الطبقية ضد الطبقة المختارة القديمة بشكل واضح عند السوريين . وعندما وقعت القطيعة بين الرئيس عبد النـــاصر ، وبين قادة البعث فى عام ١٩٥٩ ، لم تنبثق زعامة شـــعبية سورية جديدة ، من صفوف الاتحـــاد القومى الذى كان لا يزال يمر بفترة من فترات التجربة البطيئة .

وهكذا يمكن تلخيص النتيجة فى عبارات عامة . ففى الوقت الذى شرع فيه عبد الناصر ضمن اطار هذه الوحدة التى كان من الطبيعى تفوق العنصر المصرى فيها ، فى تنفيذ برامج الاصلاح والتطور والانماء فى سورية ، مستفزا بذلك صراعات طبقية حادة ، لم تكن هنـاك على المسرح السياسى السورى ، قيادة شعبية متطرفة . ولم يكن هنـاك الا حب الجماهير من السوريين الذى يبلغ درجة العبادة لعبد الناصر المقيم فى القاهرة . وجهاز الاتحاد القومى الجديد الذى مازال موضع التجربة . يضاف الى هذا انه كان هنـاك سـخط متزايد النمو لدى الفئات المثقفة الفتية من الســوريين على الاجــراءات البوليسية التى يقوم بها المسئولون فى الاقليم السورى .

نقطة ضعف خارجية :

وقد يغدو الحكم على الفرقة التى وقعت بين الرئيس عبدالناصر وحزب البعث أكثر صعوبة عندما نضـــيف الى الموضـــوع الهـــدف الاساسى الثانى الذى حمله البعثيون عند سعيهم الاساسى لتحقيق الوحدة. فلقد كانوا كمعظم القــوميين السوريين مع بعض الغلو فى التطرف . وذلك بسبب مفاهيمهم العقائدية ـ الفلسفية المســتمدة من التــاريخ العربى ، ولذا فقد آمنوا بما كانوا يسمونه دائما « بالمراحل التاريخيـــة الحاسمـــة » . وكانوا يعتقدون أن الشــعب العربى يواجــه الكثير من المصالح الداخلية التى تجد استثمارها فى الانفصال والتجزئة ، كمـــا يواجه الكثيرين من اعداء الوحدة من الاجانب بحيث باتوا يرون التـــدرج فى تحقيق الوحدة عملا لا أمل فيـــه بل قــد يكون معـــرقلا لها . وكانوا يعتقدون أيضا أن هناك لحظات حاسمة فى التاريخ العربى وتطوره ،يكون فى وسع عمل ثورى جرىء يتميز بالدينامية فى طريق الوحدة ، أن يغير الصورة العربية كلها ، بينما قد يؤدى التردد الى تأخير الحركة كلها مدة حقبة كاملة .

وهكذا رأوا فى أزمة سوريا الداخلية فى يناير عام ١٩٥٨ ، لحظـــة من تلك اللحظات التاريخية الحاسمة ، التى قد يتحول فيها المأزق الى نصر حاسم . ولم يدركوا قط أن الزمن عامل أساسى فى الوحدة بين مصر وسورية ، وان تحقيقها يتطلب بعض الوقت . فعلى النقيض من ذلك : كانمن الطبيعى بالنسبة الى مواقفهم أن يصروا على اكثر أنواع الوحدة اثارة وحماسة ، كما كانت ثقتهم بأنهم سيسيطرون هم على الوحـــدة ، هى التى دفعتهم ايضا الى المطالبة بسرعة ضم العراق والاردن اليها . وكانوا يعرفون أحسن من غيرهم من الفئات العربية الاخرى ان مايراه عبد الناصر من شروط يجب توافرها فى المراحل التى تسبق الوحدة ، يختلف عن مفاهيمهم تمام الاختلاف . ولكنهم كانوا يتوقعون أنيكسبوه الى صفهم ، وان تمتد الجمهورية العربية المتحدة وتتسع بسرعـــة عن طريق القدوة والدعوة ، والقوة .

القضية العراقية :

وقع الخلاف بين الرئيس عبد الناصر وبين البعثيين بالنســبةالى هذا الهدف الخارجى بعد أشهر قليلة من تحقيق الوحدة ، اى بعـــد الرابع عشر من يوليو عندما وقع الانفجـــار الثورى فى العـــراق ، وليس ثمة من شك فى أن نداء الوحدة فى تلكالايام الاولى منثورة العراق ، التى تميزت بالحماسة والتفجر العـــاطفى ، كان يلقى لو صـــدر عن الرئيس عبد الناصر ، استجابة جماهيريةطاغية فى العراق . وكانالناس يتوقعون تحقيق الوحدة بين العراق والجمهورية العربية بين لحظة وأخرى ، اذ انها تعتبر مستلزما أساسيا من مستلزمات الثـــورة . أو لم يكن نورى السعيد على أى حـــال هو الذى عزل العراق عن العرب وأبقى على عزلته هذه ؟ أولم يذهب العقيد عبد السلام عارف « بطل بغداد » على الفور الى دمشق لتحية عبد الناصر باسم الثورة ؟ ومع ذلك ظلت القاهرة على صمتها ولم تصدر عنها اية دعوة للوحدة أو حتى أية اشارة . وبدلا من أن تصدر هذه الدعوة راح عبد الناصر بعد تسعة أيام من قيام الثورة ، يلقى ذلك الخطاب الهام الذى تحدث فيه عن مساوىء التسرع فىتحقيق الوحدة على أسس غير مدروسة وانقضت الايام . وطار كامل الجادرجى الزعيم العراقى ورئيس الحزب الوطنى الديموقراطى ، الى القـــاهرة ، بعد أن رأى العقيد عارف وجماعة البعث فى العراق ينادون علنا بتحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، رافعين شعارها . وبعد أنرأى أن بعض المسئولين المصريين فى بغداد . يفترضون ان الوحدة واقعـــة لاريب فيها . وعاد المذكور الى بغداد ، وقد زالت من نفسه الشكوك بعد أن قابل الرئيس عبد الناصر ، واقتنـــع بأنه لا يريد أية وحـــدة عاجلة (١) .

وكان الرئيس عبد الناصر ، على الرغم مما تعـــرض له من ضغط شديد من وزرائه ، قد نقل وجهة نظره هذا الى عبد الكريم قاســم (٢) . وكان عبد الناصر يؤثر الوحدة العملية على الوحدة العاجلة ، وتم الاتفاق فعلا عليها ، واتخذت خطوات فعالة لتنسيق شئون الدفاع والتعليم والتخطيط الاقتصادى بين البلدين(٣). وذكر عبد الناصر لقاسم، أنه حتى لو طلب العراق الحديث علنا الوحدة مع الجمهورية العربية المتحـــدة ، فانه ـ أى عبد الناصر ، سيصر أولا على وجود براهين واضحة تثبت أن الغالبية الطاغية للرأى العام العراقى تؤيدها ، وثانيا على اجراء مفاوضات ودراسات طويلة ودقيقة . واتفق بصراحة ، على وقف أى حـــديث عن

---

(١) مقابلة صحفية للمؤلف مع الجادرجى بعـــد مقـــابلته للرئيس عبد الناصر .

(٢) مصادر قاهرية عديدة فى سبتمبر ١٩٥٨ وفى حديث شخصى بين الرئيس عبد الناصر والمؤلف .

(٣) استقرت وحدات من الطائرات العربية النفاثة فى العراق وكان طياروها يتولون تدريب العراقيين . وذهبت بعثات تعليمية واقتصادية وزراعية عربية الى العراق .

المؤلف

الوحدة ، سواء أكان بالسلب أم بالايجاب . وقد يقال ان هـذا الصمت كان ينطوى على شىء من الخطأ ، اذ لو صـدر بيان مشترك يدعو الى وقف كل نقاش فى الموضوع ، لامكن عن طريق هذا البيان تجنب الكثير من المتاعب . ولكن لم يكن من المعقول ،أن يتولى الرئيس عبد الناصر اصدار هذا البيان بشكل منفرد ، لان قادة الثورة العراقية ، كانوا قد انقسموا فى الموضوع .

ومع ذلك استمرت الضجة فى طلب الوحدة من جانب البعثيين فى سورية وممثليهم فى حكومة الجمهورية العربية المتحدة من ناحية ومن جانب العقيد عارف والبعثيين العراقيين من الناحيـة الثانية . وكانوا على ثقة من ضرورتها وكانوا يعرفون أن الرئيس عبد الناصر ، لايستطيع أن يرفض طلب الوحدة ، اذا جاء مطلبا شـعبيا عاما ، وكانوا يخشون خشية كبيرة من أن يتم اتفاق بين الدول الغربية والشيوعيين العراقيين وأن يؤدى اتفاقهم الى تعقيد قضية الوحدة وتأجيل قيامهـا . وكانت هناك قوتان تعـاكسان عارف والبعثيين ، وأولاهمـا الحـزب الوطنى الديموقراطى الذى يعارض فى الوحدة ، لانه يخشى من أن يؤدى تحقيقها الى الحيلولة دون قيـام نظام ديموقراطى على الاسس الغربيـة ، هم يؤثرونه ويودون وجوده عندهم ، وثانيتهما تمثل الشيوعيين العراقيين ومعهم حلفاؤهم من الاكراد الانفصاليين الذين يؤلفون نحوا من ثمانمائة ألف . ويقيمون فى شمال العراق — ويعارضون فى قيام الوحدة . وبدا للشيوعيين العراقيين والعرب والسوفيات والصينيين أن الثورة فى العراق قد أمنت لهم تلك الفرصة التى طال ترقبهم لها فى الشرق الاوسـط ، والتى طالما ضاعت منهم ، وهى فرصة أسـتغلال المكانة السوفيـاتية واقامة قاعدة محلية للسلطان الشـيوعى المحلى النموذجـى والفعلى . وكانت الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة التى لايسمح فيهـا بأى نشاط شيوعى . والتى ستؤدى الى تقوية زعامة الرئيس عبد الناصر على الصعيد العربى العام ، تعتبر بمثابة « مصيبة » تحل بهم . ولقـد كانوا كالديموقراطيين الوطنيين يريدون حرية حـزبية كاملة يستغلونها لتحقيق أهدافهم .

وكان عبد الكريم قاسم هو مفتاح هذا الصراع كله . وكان مفتاح السلوك الغريب الذى يسلكه قاسم ، هو افتقاره الى الشخصية الثابتة المستقرة ، وهو مالا حظه الشيوعيون الغربيون منه والذين لم يفصحوا فى بادىء الامر عن حقيقة ميولهم العقائدية ، وأخذوا فى استغلاله . وقد اكتشف الشيوعيون فيه ظـاهرتين نفسيتين أولاهمـا المساس الكامن العقلى بفكرة واحدة وثانيتهما عقـدة الاحساس بالاضـطهاد التى كثيرا مايصـحبها نوع من ازدواج الشـخصية . (١) وكانوا يحثون هـذا « الزعيم » الانطوائى المعقد المفتقر الى كل تجربة وعقيدة سياسيتين بان

(١) لايشك أى من المراقبين المدققين فى هذه الظواهر النفسية ، ولكن الواقع أنها ظواهر غير مستمرة وانما تقع فى شكل نوبات . وتعتبر مطالبته بالكويت فى عام ١٩٦١ ، دون مشاورة مجلس الوزراء . احدى أمثلة هذه الظواهر .
— المؤلف —

يظل « فوق الأحزاب » وأن يغدو « الزعيم الأوحد » للعراق الجـديد ، وراحوا يوحون له بأن العقيد عارف والبعثيين يتآمرون عليه وهو مابدا معقولا لديه بسبب دعوتهم المستمرة للوحدة . وأخذوا يقنعونه بصورة بطيئة ولكنها مستمرة ، بان لايصدق مايقال له من أن الجمهورية العربية المتحدة لاتقف وراء عارف والبعثيين فى دعوتهم الوحدوية .

وظل قاسم فى بادىء الامر يرفض هذه الاقوال التى يهمسون بها فى أذنيه عن عارف وعن البعثيين . ولكنه مالبث أن أخـذ يصدقها ، فأنزل من مكانة عارف ، وأقصى حزب البعث عن تأييده وعطفه . ولكنه ظل واثقا من تأكيدات الرئيس عبد الناصر ، حتى بعد أن أبعـد العقيد عارف فى أكتوبر عام ١٩٥٨ الى منصب فى المانيا الغربية . (١) لكن هذه الثقة أخذت تقلق عبد الناصر ، الذى ساورته المخاوف من ظهور هذه العناصر الشيوعية القوية التى أحاطت بقاسم واحتلت المناصب المهمة(٢) وتزايد الضغط على قاسم . وشرع الشيوعيون العراقيون الذين يحتلون المراكز الهامة ، التى تسللوا اليها ، يشنون الحملات العلنية على عبدالناصر والجمهورية العربية المتحدة . وتمكنوا من اقناع قاسم بأن عبد الناصر هو عدوه الاول . وانفجرت الحملات الشيوعية داخل محكمة الثورة ، وفى صفوف فرق المقاومة الشعبية وعلى صفحات الصحف وعبرموجات الاذاعة ، بينما بدا رئيس الوزراء المفتقر الى الاستقرار وكأنه قد تخلى عن الحكم .

وبعث عبد الناصر فى هذه المرحلة بأربع رسائل متتابعة الى قاسم مقترحا عليه عقد اجتماع عاجل طبقا للظـروف التى يقـررها قاسـم والموعد الذى يحدده . (٣) واعترف رئيس وزراء العراق بتسلم الرسالة الاولى ، ولكنه لم يرد على أى منها . واعتقـد الشيوعيون العـرب فى ديسمبر عام ١٩٥٨ ان الفرصة أصبحت مواتية لهم للاسراع فى تنفيذ مخططهم البعيد المدى ، فشرعوا فى حملة اثارة مكشوفة داخل سورية يحرضون الناس ضد الوحدة مع مصر ، ويفهمونهم أن « مصـير سورية الطبيعى » يقوم فى ارتباطها مع العراق . وفى غضون ذلك ، كان جميع القوميين فى العراق ، حتى المعتدلين منهم فى سعيهم وراء الوحدة ، أو أولئك الذين يرونها الهدف النهائى كزعماء حزب الاستقلال مثلا ، قد عدوا اما رهن السجون أو تحت الرقابة ، أو مبعدين فى الخارج أو مختفين فى الداخل .

وهنا فقط يدعى نقاد عبد النـاصر من البعثيين ، شرع الرئيس العربى فى حملته العلنية ضد الاتجاه الذى يسير فيه العراق ، وأصابت حملته هذه برشاشها حتى نيكيتا خروشوف . ولكن هذا التسلسل فى الاحداث أدى — الى تدعيم اتجاهين رئيسيين فى الجمهورية العـربية المتحدة ،

(١) مصادر عراقية رسمية فى بغداد والقاهرة .
(٢) مقابلة شخصية مع الرئيس عبد الناصر .
(٣) مصادر رسمية فى الجمهورية العربية المتحدة ، وأكدتها مصادر بغداد .
— المؤلف —

أولهما الخلاف بين الرئيس عبد الناصر ، وبين قادة البعث السوريين ، وثانيهما اتكاله على قوات السراج ، لمقاومة الحملة الشيوعية ضد الوحدة فى سورية . وعندما حل منتصف عام ١٩٥٩ ، لم يعد الخلاف قائما بين عبد الناصر والبعث فحسب ، بل ركزت جميع العناصر الناقمة على الوحدة فى سورية ، سخطها على البعث ، على اعتباره عاملا رئيسيا فى قيامها . ونفد صبر المثقفين السوريين المخلصين للوحدة ورئيسها عبد الناصر من تصرفات أكرم الحورانى الذى كان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة . وأسفرت الانتخابات التى أجريت فى سورية فى يوليو عام ١٩٥٩ للجان الاتحاد القومى . عن فشل المرشحين المعروفين بميولهم البعثية على الرغم من أن الحزب كان قد حل رسميا مع بقية الاحزاب . واتسعت شقة الخلاف مع هلال عام ١٩٦٠ ، واستقال الوزراء البعثيون الاربعة من حكومة الجمهورية العربية المتحدة .

وقوى نفوذ السراج فى غضون ذلك فى سورية . فقد اضطر الرئيس عبد الناصر ، نظرا لاستمرار الحملة الشيوعية من ناحية ، وبعث عبد الكريم قاسم لمشروع العراق القديم فى وحدة « الهلال الخصيب » متحديا بذلك وحدة الجمهورية العربية المتحدة تحديامباشرا وكذلك نظرا لمعارضة الطبقات الرجعية المتسترة للوحدة فى سورية الى اللجوء الى سياسة الحذر ، والقبض على ناصية الامور بالحزم والشدة وكان يوفد الى دمشق بين الفينة والفينة نائب رئيس الجمهورية المشير عبد الحكيم عامر الذى يأمر بتقديم الشكاوى من السوريين اليهمباشرة وقد خوله الرئيس الصلاحيات المطلقة لابدال أية سياسات فى الاقليم فورا اذا اقتضى الامر . فقام مثلا بمحاولة اجراء تعديلات فى سياسة الاصلاح الزراعى ، فور ظهور أية أخطاء فيها ومع ذلك فقد برزت من جديد وعلى هذا الصعيد قصة الحزازات الاقليمية بين المشير والسراج وهو آخر سورى كان فى وسع الرئيس أن يركن اليه (١) .

وحفزت قرارات عبد الناصر الاشتراكية فى أواسط عام ١٩٦١ وتوسيعها على صعيد الجمهورية العربية كلها ، جماعات المعارضة اليمينية فى سورية للوحدة الى العمل المباشر . ووجد هؤلاء الرجعيون بعض التأييد لدى فئات الطبقة الوسطى وبعض العناصر المحافظة من ضباط الجيش . واستغل هؤلاء جميعا وجود فئة أخرى من الضباط الذين لم يكونوا يعارضون الوحدة ، وانما كانوا مستائين من بعض الأوضاع فاعتقدوا ان فى امكانهم الركون اليهم . ورأى المتآمرون أن القيام بعمل حاسم يتطلب المزيد من الضباط المتعاونين معهم . وكان المشير فى سورية

---

(١) اخطأ المؤلف فى رد ماوقع فى آخر أيام الوحدة من خلاف بين نائبى رئيس الجمهورية المشير عبد الحكيم عامر والسيد عبد الحميد السراج ، الى النزعة الاقليمية . فلقد كان من الواضح أن الخلاف قائم فى الآراء حول خير الوسائل لتعزيز الوحدة وخدمة الجمهورية العربية المتحدة . — المعرب —

فى نهاية سبتمبر عام ١٩٦١ . وقام الرئيس حسما للخلاف بين المشير والسراج ، بتعيين الاخير كنائب للرئيس فى القاهرة ، بعد أن عدل الوزارة وجعلها مؤلفة من أربعة عشر من الاقليم السورى وخمسة وعشرين من الاقليم الجنوبى ، كما أصدر أمرا بمنع اعتقال أى انسان دون أمر من النيابة العامة . وأشار المقدم النحلاوى ، السكرتير الشخصى للمشير وهو من أركان المؤامرة . على قائده باجراء بعض التبديلات فى الجيش الاول واحالة عدد من الضباط الى الاستيداع ، فوقع المشير الامر الذى استغله النحلاوى فى اقناع الضباط الذين وردت أسماؤهم فى الامر ، بالاشتراك فى المؤامرة الانفصالية .

بعض الاحكام :

لم يكن من السهل على وأنا أكتب هذا الفصل بعد أسبوعين من الانفصال ، أن أتوصل الى احكام جازمة عن الاسباب العميقة التى أدت اليه ، أو الى تكهنات صادقة عما سيؤدى اليه من نتائج . ولكن يتضح من التعقيدات التى أوردتها عند التحدث عن الاسس التى أدت الى الانفصال ، أن من المستحيل ظهور ايضاحات جلية فى مثل هذا الوقت القصير . أما الزعم الذى ساد أوساط الغرب بأن الانفصال لم يكن الا هزيمة « لاطماع عبد الناصر الاستعمارية » فليس الا نتيجة تلك الضغوط الغربية التى تسيطر على عقول الغربيين وليست الا تجاهلا للحقائق الاساسية . فلقد كانت هنالك وحدة لم يكن عبد الناصر متوقعا لها بمثل هذه السرعة ، ولم يكن هو الذى فرضها على سورية ، وانما حمل نفسه اعباءها تلبية لطلبات السوريين العاجلة الملحة . وكان عبد الناصر هو أول من اعترض على طبيعتها المتلاحمة الاندماجية ، وأول من خاف من نتائج التسرع فيها . وكان عبد الناصر أيضا « هو الذى رفض باصرار توسيع حدودها بشىء من التسرع ، رغم الفرص العظيمة التى أتيحت له ، كما كان هو الذى رفض الابقاء عليها باستخدام القوة وقت الانفصال . ومن الواجب أن لاتلقى جميع هذه الحقائق دهشة من أحد ، اذ انها تتفق مع ماضى عبد الناصر ، وأهدافه المعروفة سابقا وفلسفته السياسية .

ولقد وقعت بعض الاخطاء فى تنفيذ سير الوحدة ، أما اذا كنت على غير استعداد لاستنكار الاشراف المركزى على سورية أيام الوحدة ، فان مرد ذلك الى سبب واضح ، وهو أن ما نعرفه نحن فى الغرب كحرية لايمكن أن يصلح للتطبيق العملى فى مجتمعات لا غربية كالمجتمعات الافريقية الآسيوية اليوم . وسأحاول شرح هذه النقطة بمزيد من التفصيل فى الفصل المقبل . وهناك سبب وجيه آخر ، يدعونى الى تسخيف تلك الانتقادات التى يوجهها الغربيون للحكم المركزى فى سورية ، وهو أن الديموقراطية القائمة على سياسات الاحزاب ، ظهرت كتجربة فاشلة فى سورية ومالبثت أن انهارت . ولاريب فى أن تلك الديموقراطية التى أسماها صلاح البيطار نفسه بالزائفة ، كانت تسبب أخطارا على استقرار البلاد وكيانها ، وتعرضها لمخاطر التغلغل الشيوعى والسيطرة النهائية على الجمهورية .

ولا ريب فى أنه كان من الخطأ السماح لسيطرة المباحث فى الاقليم السورى ، بالوصول الى أقصى حدود التطرف . ولكن قبل القول بأن الواجب كان يحتم السماح للسوريين بممارسة النظام السياسى الذى يرغبون فيه ، أرى من الضرورى الاشارة الى تحفظين . فما الذى يعنيه المعلقون الغربيون بعبارة « السوريين » عندما يستخدمونها ضمن هذا المحتوى ؟ هل يعنون الجناح اليمينى المحافظ من الطبقة المختارة ؟ أو هل يعنون التركيب القديم من القادة السياسيين وضباط الجيش المتنافسين وأصحاب المصالح المستثمرة ، والذى أوصل سورية الى تلك الأوضاع ، التى شرحها الوفد السورى لعبد الناصر فى يناير عام ١٩٥٨ ؟ أو هل هم أولئك الفريق من المتخلفين تعليميا ، والمحرومين من الامتيازات ، والذى يحسبون اسميا من جماهير المقترعين فى أية انتخابات ؟ ان الردود على هذه الاسئلة هى فى أيدى السوريين من جديد ، وأنا غير متفائل من أنها ستجد التعبير الصحيح . وها هى ذى جميع العناصر السورية القديمة ، قد عادت وأنا أدون هذا الفصل الى الظهور من جديد على المسرح السياسى .

وأرى لزاما علينا ثانيا ونحن نحاول الحكم على الاسلوب الذى كان من الواجب اتباعه لسياسة الحكم فى سورية فى ظل الوحدة ، أن نتذكر الخطر الشيوعى الذى كان مبعث الدعوة العاجلة الى الوحدة ، والحمله التى كان الشيوعيون قد شرعوا فى شنها فى سورية . وكانت هذه الحملة التى تبدأ بخروشوف وتنتهى بأصغر شيوعى ، قد بلغت ذروتها فى العراق الذى تسوده الفوضى ، والمجاور لسوريه ، وامتدت الى نشاط الشيوعيين السوريين فى الاقليم الشمالى .

وكان الامل متركزا في أن تقوم قيادة سورية تتمكن من كسب التأييد الشعبى ، وتقف وسطا لتحول دون ٣ساط اليمين المتطرف واليسار المتطرف أيضا . وهناك حقيقة لا يمكن نكرانها أو مناقشتها ، وهى أن سوريه كانت تفتقر الى مثل هذه القيادة ، فى يناير عام ١٩٥٨ ، وذلك باعتراف الذين كانوا يرشحون أنفسهم لها ، وقد أدى هذا الافتقار الى قيام الوحدة مع مصر . فهل كان فى الامكان أن تخلق هذه القيادة فى غضون السنوات الثلاث والنصف التى انقضت منذ قيام الوحدة ؟ ويعيدنا الرد على هذا السؤال الى قضيه العلاقات بين البعثيين وبين عبد الناصر ورفاقه ، اذ أن عملية خلق قادة جدد وشخصيات جديدة لتولى القيادة من قاعدة الاتحاد القومى ، كان لا بد وأن تكون بطيئة كل البطء حتى فى أحسن الاحتمالات . وقد اعترف الرئيس عبد الناصر فى الخطاب الذى ألقاه فى السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦١ بأن نظام الاتحاد القومى لا يفى بالاغراض المتوخاة منه .

وتطور الخلاف مع حزب البعث تطورا سريعا ، ولا سيما بعد ان ظهرت أطماع قادته ، ولاسيما أطماع زعيمهم أكرم الحورانى ، مثل غيره من السوريين ، فى الحصول على النفوذ المسيطر ضمن الجمهورية العربية المتحدة ، وسرعان ما لحق به أيضا الخلاف على توسيع الوحدة ومدها الى أقطار أخرى . ولا ريب فى أن مما يستدعى المناقشة التساؤل عما

اذا كان من الصواب التخلص منهم وأبعادهم عن الحكم ، أو أن الصواب هو الاحتفاظ بهم على الرغم من أن الرأى العام السورى الذى كان قد تحول ضدهم تحولا ظاهرا ، وعلى الرغم من أطماعهم التى تكشفت ، ولكن خلف كل هذه التكهنات ، كان يقوم عامل أساسى أصلى ، وهو أن الوحدة كانت متسرعة بين شريكين يختلفان كل الاختلاف ، وكان صفيرهما فى طلبه للوحدة ، ينشد حماية الشريك الاكبر من مكامن الضعف التى يعانى منها (١) .

والآن ترى ما هى التركات التى خلفتها تلك الوحدة السيئة الحظ والطالع . كان العهد الانفصالى الجديد فى سورية ، عندما كنت أضع هذا الكتاب ، قد وجد نفسه مضطرا الى الاشادة بالاصلاحات التى حققتها برامج

---

(١) لا ريب فى أننا نختلف مع المؤلف فى الكثير من النقاط التى أوردها فى تحليله لأوضاع الوحدة ، ونتائجها ودوافع الانفصال وأسبابه ، وكذلك بالنسبة الى ما أورده من استنتاجات لجميع هذه التحليلات التى أوردها . وقد آثرنا ان ننقل وجهات نظر المؤلف كما هى ، دون أن يعنى ذلك أننا نتبناها ، ليطلع القارىء على وجهة نظر كاتب غربى ، لا نشك فى سعة فهمة للامور ، ولكن مناقشة كل نقطة من هذه النقاط ، يتطلب أكثر من مجرد تعليق فى هامش . لكن هناك نقاطا نحب أن نؤكدها ، لا سيما وقد مرت على الانفصال مدة كافية تبينت فيها الكثير من غوامضه وخفاياه ، وأهمها ان الانفصال كان جريمة فى حق الامة العربية ، تقع مسؤوليتها على الفريق الذى دبر مؤامرته بليل ، ليفصم عرى الوحدة تنفيذا لمآرب الاستعمار وأعوانه ، وخدمة مباشرة للصهيونية وأهدافها ، وعلى الفريق الذى انساق مدفوعا بانتهازيته التاجرة أو المرتدة ، أو بحزازاته الشخصية وراء الفريق الأول ، منفذا له أغراضه ، وقد ثبت ان الحملات التى شنت على طريقة الحكم فى الاقليم السورى أيام الوحدة ، كانت منبثقة اما عن العناصر اليمينيه الرجعية التى هالها التقدم الذى حققته الوحدة فى الطريق الاشتراكى السليم ، أو عن العناصر الشعوبية التى تجد فى ظل الفوضى السياسية والحكم الرجعى الارض الخصبة لانتشارها وطعن الوحدة فى ظهرها ، أو عن العناصر الخائنة التى تدين بالولاء للاستعمار وأعوانه فى المنطقة ، الذى هاله قيام الوحدة لتهديدها لمصالحه فى الصميم ولما يمكن أن ينبثق عنها — ولا بد أن ينبثق — من خطر على اسرائيل التى خلقها الاستعمار ركيزة له فى الوطن العربى .

وقد تبين بعد انقضاء أكثر من عام على الانفصال أن المبررات التى قيلت فى السابق ، لوقوعه ، لم تكن الا مجرد ادعاءات « زائفة » قصد منها تخدير جماهير الشعب السورى المؤمنة بالوحدة بعد أن تبين لهذه الجماهير هول ما وقع . وقد نجح هذا التخدير فى تحقيق غايته بعض الوقت ، ولكن ارادة الشعب العربى فى الوحدة ستنتصر فى النهاية ، ولا سيما بعد أن تبينت لجماهيره الحقيقة ، وبعد صحوة الضمير ، عند بعض الفئات التى انساقت وراء الانفصال فى البداية .

— المعرب —

التطور فى سورية منذ تمت الوحدة فى عام ١٩٥٨ ، وكان قد عكس أيضا بعض الوعى لدى الفئات الرجعية القديمة الناعمة بالامتيازات ، فى أن ليس فى وسعها أن تعود بعجلة التقدم الى الوراء ، وأن تعود الى سابق عهدها فى التنعم بامتيازاتها كما كانت قبل الوحدة . وقد بدأ الكزبرى أول رئيس وزراء بعد الانفصال ، عهده باعلان العودة الى نظام « حرية المشاريع والعمل الاقتصاديين » . ولكن هذه الوزارة نفسها وجدت من الضرورى لها أن تعلن بعد أسبوعين فقط من قيامها ، عزمها على التمسك بمعظم نواحى الاصلاح الزراعى التى حققها عهد الوحدة ، ومعظم القوانين التى قضت باشتراك العمال فى أرباح المؤسسات التى يعملون فيها ، وبمعظم القرارات التأميمية التى اتخذها ، والقيود على الارباح التى أقرها . ولكن مهما كان نصيب هذه العهود للشعب السورى من الصدق أو الخداع ، ومهما حدث لها ، فان هذه العهود نفسها ، حتى ولو عاد النظام السياسى فى البلاد الى ما كان عليه قبل الوحدة ، ستؤلف تركة من أهم التركات التى خلفتها الوحدة .

لكن أهم تركة خلفتها الوحدة فى رأيى هى ذلك التشبيه الذى رسمه الرئيس عبد الناصر ، والذى صور لى فيه ذلك الشاب الذى يحلم بالزواج والأمل قائم فى سورية وفى جميع ارجاء الوطن العربى فى أن تؤدى تجربة الوحدة بين سورية ومصر ، الى درس ما وقع فيها من اخطاء ، وان تكون حافزا أخيرا للقوميين العرب لوضع الوقائع العملية فى صف واحد مع أحلامهم النبيلة . (١) ترى ما هذه الوقائع ؟ وما المصاعب الحقيقية التى يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند نشدان وحدة عربية تجمع بين الهـدوء والثورية ؟

العقبات أمام الوحدة :

هناك أولا عدد من المشاكل الجغرافية والسكانية الاساسية فالعـالم المتعرب (تسمية غريبة من المؤلف للوطن العربى) لا يؤلف وحدة جغرافية متلاصقة ، وانما هى مجموعة من الجزر الانسـانية فى محيط من الرمال والسهوب يمتد فوق مساحة تعدو الخمسة ملايين من الأميال المربعة ، أو ما يعادل جزءا من أحد عشر من مساحة اليابسة فى

---

(١) ليست الوحدة العربية حلما يتطلع العرب الى تحقيقه ، سـواء اتصف هذا الحلم بالنبل أو لم يتصف ، بل هى حتمية وجود ، يفرضه الواقع المادى والواقع التاريخى . ولو ارتفعت من الوطن العربى عوامل التجزئة التى فرضها الاستعمار عليه على اختلاف صـورها ، وهى كثيرة لحظة واحدة ، لرأينا الشعب العربى يتحد فى ومضة عين فى كيـان موحد ، ليس فيه أى أثر لهذه المصاعب التى يتصـورها المؤلف والتى لا تعدو أن تكون من تلك العوامل التى خلقها الاستعمار بوسائله السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية لفرض التجزئة وليس أدل على هـذه الحتمية من وحدة الشعب العربى فى كل مكان فى الاهداف التى تؤلف الجمهورية العربية المتحدة طليعتها القيادية والتى يمثل الرئيس عبد الناصر انعكاسها القيادى .

— المعرب —

الكرة الارضية . وقد أزالت طرق الاتصال الحديثة ، العزلة عن هذه الجزر من الانسـانية المستعربة ، بالنسبة الى ماكانت عليه فى أيام الامبراطورية العربية القديمة . ولكن الحقيقة الواقعة تظل قائمة وهى ان الأوضاع الجغرافية للوطن العربى لا تؤدى الى وحدة سياسية متماسكة (١).

---

(١) و (٢) — هناك نقاط عديدة فى هذا البحث ، نختلف فيها مع المؤلف . أولا : نحن لا نقر هذه التسمية التى يطلقها المؤلف على الوطن العربى ، وهى « العالم المتعرب » ، وما الهدف من هذه التسمية الا الادعاء بأن الوطن العربى من المحيط الى الخليج لم يكن عربيا وانما استعرب بعد الفتح العربى . ولست الآن فى معرض التدليل على الجذور العربية التى كانت فى جميع أرجاء هذا الوطن قبل عهد الفتوحات العربية ، ولكننى أود أن أقول ان الاخذ بهذا المنطق الظاهرى للمؤلف ، يعنى حرمان كل بلد فى العالم من قوميته الراهنة . فانكلترا لم تكن انكليزية قبل القرن السابع الميلادى وانما كانت « كلتيه » ، وكذلك الحال بالنسبة الى فرنسا التى جاءتها قبائل الفرنجة فى القرن الرابع للميلاد والمانيا التى جاءتها قبائل التيوتون فى القرن الرابع قبل الميـلاد . وأخيرا القارة الامريكية كلها ، التى جاءها أهلها بعد اكتشاف أمريكا فى عام ١٤٩٢ . فاذا أخذنا بهذا المنطق لم تبق لاى بلد من بلاد العالم طبيعية القومية الراهنة .

ثانيا — نحن لا ندرى هذا المنطق فى اعتبار الصحارى أو السهوب أجزاء منفصلة عن الوطن أو حدودا تفصل بين أجزاء الوطن الواحد ، ولو أخذنا بهذا المنطق لتحتم تقسيم الولايات المتحدة الى وطنين تفصل بينهما صحارى تكساس وكولورادو وسهوب الوسط ، وتقسيم الاتحاد السوفياتى الى عدة أوطان تفصلها الصـحارى والسهوب وكذلك الحال بالنسبة الى الصين والهند واستراليا وكندا والبرازيل ومئات البلاد غيرها .

ثالثا — لا يمكن لاتساع مساحة الوطن الواحد أن يكون عاملا أصليا فى التجزئة ولاسيما فى هذا العصر الذى قربت المواصلات الحديثة بين الابعاد وجعلت العالم « عالما واحدا » . واذا كان الوطن العربى الحالى بما كان يتبعه من بلاد ضمت أسبانيا فى الغرب ، وايران وشطرا من الهند والصين فى الشرق ، قد ألف وحدة واحدة ، لها دولة واحدة ونظام واحد ، قبل ثلاثة عشر قرنا عاشت مئات السنين فى عهـد الراشدين والامويين وشطرا من الخلافة العباسية ، فكيف يمكن لهذا العـامل الجغرافى الذى يعرضه المؤلف أن يعتبر عائقا فى طريق الوحدة العربية الراهنة اليوم !!

رابعا — لم يعتبر العرب فى أى وقت من تاريخهم وحدة الدين عاملا أساسيا فى مفاهيمهم القومية ، فللرابطة الاسلامية قوتها ولا شك ، ولكنها لا تؤثر على المفاهيم السياسية ، ولعل خير تدليل على ذلك ، ان العرب كانوا يعطفون على نضال القبارصة اليونانيين القومى فى سبيل التحرر مع ما فى ذلك من تعارض مع مصالح الاتراك المسلمين . وهناك أمثلة كثيرة من تاريخ العرب القديم والحديث على هذه الحقيقة لا مجال لسردها الآن وان كنت أود التأكيد على ان مقومات القومية العربية هى مقومات كل قومية أصيلة ، من وحدة الارض والتاريخ واللغة والثقافة والهدف والمصالح المـادية والنضال فى سبيل التحرر .

— المعرب —

وهناك تناقض عجيب فى الاثر الذى تخلفه هذه الاوضاع الجغرافية فلقد أدى الافتقار الى حدود طبيعية واضحة ، بدوره ، الى محاولات لايضاحها من الشعوب التى تعيش على جانبى الوطن العربى ، مما دفع العرب الى أن يدون بحثهم عن شخصيتهم القومية مرنا ومائعا حقا • فانسياب اى جزء من الارض العربية انسيابا يؤدى فى النهاية الى الاختفاء فى الصحراء ، او فى سهب من السهوب التى يعيش فيها الناس بشكل متناثر ، قد أدى الى أن تكون القضايا الكبرى المتعلقة بالعقيدة القومية وبالتركيب القومى أكثر عرضة للانفتاح فى هـذا الوطن منه فى غيره من الاوطان • لكن هذا الانفتاح ، ساعد من الناحية الأخرى على ظهور حلم قوى يتغنى بالقومية فالحلم بوجود شعب واحد تقوم مقوماته فى التقاليد المشتركة ، واللغة الواحدة ، والدين السائد المشترك الى حد ما قد أضحى أكثر تأثيرا من النواحى العاطفية (٢) ، لأن الخصائص المميزة للوطن المستعرب الواحد قد ضعفت نتيجة العزلة • ويؤلف الشعور الاسلامى بالأخوة الدينية جزءا واحدا فقط من القومية • ولا يتطلب هذا الشعور الكثير من التشابك الانسانى على نطاق واسع ، كما أن أوجـه التباين المحلية فى البيئات والطباع ، لا تعتبر المقياس لهذا الشعور ، اذ ان هذه الفروق ، لاتتضح للعرب ، لأنهم لا يعيشون فى حالة من الامتزاج الكامل •

لكن هذا الانفتاح ، وتلك المرونة ، وذلك الشعور العاطفى فى الاتجاه القومى يمكن أن تكون « موجودات » ضخمة تعمل على تحقيق الوحـدة الحقيقية • فالعوامل التى تدعو العرب الى الوحدة على الرغم من تنوعها ، أكثر منها عند اى شعب آخر فى العالم • ووحدة اللغة التى تضمهم تعطيهم ميزة فريدة على غيرهم من الشعوب على صعيد هذا البحـث عن الوحـدة ولهذا فان ما يقوله الغربيون دائما من « أن العرب يدعون الاخوة بينما يمسك البعض منهم بخناق البعض الآخر » ليس الا قولا زائفا • ولـكن الغرب لا يكلف نفسه عناء السؤال عن سبب هذا الواقع • ان كان واقعا ؟ ولا ريب فى أن ليس فى مصلحة الغرب نفسه أن يردد هذا القول ، اذ أن مسئوليتنا عن فرقه العرب الظاهرية مسئولية كبرى حقا •

فلقد استغل الغرب أوضاع العـرب الجغرافية وماكانوا عليه من ضعف سياسى نتج عن قرون طويلة من الحكم التركى الاجنبى ، فراح يعمل فعلا على تجزئة الجماعات العربية التى لم تكن فى حاجة الى هـذه التجزئة ، ويرغمها على أن تستنفد كل مالديها من طاقات سياسية لرفع كابوس السيطرة الغربية عنها ويميل بعض الغربيين الآن الى صرف النظر عن هذه التذكيرات المستمرة بالحقائق المـرة التى هى من هذا النوع • ويحملون على من يورد ذكرها قائلين انها باتت من شئون الماضى والتاريخ واذا صح أن هذه المرحلة من العلاقات العربية ـ الغربية الحديثه قد انتهت الآن ، الا أنها لم تنته الا منذ سنوات قليلة ، ولا يمكن أن تتم الوحـدة العربية من النوع الذى يريده العرب فى غضون سنوات قليلة (١) •

---

(١) لكن هذه المرحلة لم تنته حقا • فما زالت للاستعمار قواعده فى الوطن العربى ، وما زال له نفوذه فى بعض أرجائه وما زال له أعوانه ، أجراؤه الذين ينفذون له غاياته ، وما زال هذا الاستعمار مستخدما جميع سبل

وحتى لو افترضنا أن أسوأ أوضاع الصراع بين العرب والغرب ، قد انقضت الان ، فان ذروة هذا الصراع فى حقبة الخمسين ، ولدت عددا من الحوافز التى تخلق صعوبات فى طريق الوحدة الهينه • وكان بين هذه الحوافز السعى من الغرب دائمـا لموقوف موقف الخصم من قيـادة عبد الناصر الثوريه الدينامية . وادى هذا الى تولد الشعور لدى عبد الناصر وغيره من القوميين العـرب فى كل مكان الذين يتطلعون الى دور مصر القيادى والمؤازر ، بان الواجب يدعوهم الى حشد العرب فى كل مكان فى صف واحد ، والى بث ذلك الاحساس بالكرامة والانفه والتصميم الحازم لمقاومه الضغط الاجنبى ، لا سيما وان هذا الحشد هو السلاح الوحيـد المتوافر فى أيديهم • ولكن مع هذا الحشد ، ومع جميع الشعارات التى يرفعها القوميون فى وجه الاعداء الاجانب ، يقف أيضا حافز قوى يدعـو الى تحقيق الوحدة العربية • وظل عرب الاردن ، الذين أفزعهم هدير النفاثات البريطانية وهى تطير فى موجات كان القصـد منها أن تبث الرعب فى نفوسهم فى يوليو عام ١٩٥٨ (بعد ثورة العراق) ، يتعلقون بحبال ثلاثة آمال ضخمة • فهم لم يركزوا آمالهم فحسب على الخـلاص مما يعـانونه من كبت واضطهاد فى داخل الاردن يفرضها عليهم ملك « مرتد » ، ولا فى الخلاص مما تمثله تلك الطائرات النفاثة من ضغط أجنبى يهدف الى دعم ذلك الملك ، وانما ركزوا أملهم العظيم الثالث ، الذى تغذيه فى كل يوم اذاعات القاهرة ودمشق وبغداد فى مطلع عهد الثورة عن طريق دعاياتها القومية ، فى أن يحققوا اخوتهم مع العرب الآخرين ضمن اطار وحدة ايجابية محددة •

وهكذا نشأ هذا « الطوفان من الامانى » الذى اضطر عبد الناصر نفسه الى التحذير من خطره عند ما دارت محادثات الوحدة مع سورية وكان الشعار البعثى باقتناص « اللحظات التاريخية الحاسمه » واقامة الوحدات فورا ثم البحث عن التفاصيل العملية ، هو التعبير العقائدى فى معناه الصحيح عن الاحساس القومى العربى الجماهيرى بالضرورة الماسة القصوى فى تحقيق الوحدة العاجلة • ولكننا رأينا من قبل ان القيـادة المسئولة عن تعبئة هذا الرأى العام على صعيد جماهيرى ، للاحسـاس بخطورة الحاجة الى الوحدة لمواجهة الضغط الغربى ، لم تكن ميالة الى المغامرة فى اقامة وحدة متسرعة لا تلبث أن تتطاير شذر مذر • وهنـا يتساءل الغربى •••• « أو لم يكن فى استطاعة عبد الناصر أن يوضح ايضاحا أكثر جلاء للعرب ، الفرق بين « التضامن » و « الوحدة » ؟

هناك أسباب تدعونا الى حد ما الى الاعتقاد بأن عبد الناصر كان قادرا على أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يفعله ولم يكبح من جماح الدعايات

= والوسائط ، يقف سدا منيعا فى طريق الوحدة ، ويحاول تحطيم ما يتحقق منها كلما تمكن العرب من فرض مشيئتهم ، ولعل ماقام به الاسـتعمار من دور غير مباشر فى انفصال سورية ، وما يقوم به الآن عن طريق أعوانه فى محاولة العدوان على اليمن ، خير مثل على ماتقول •

ـ المعرب ـ

اليومية التى كان ينشرها ويذيعها معلقوه الاذاعيون • ولكن القضية تكن فى رأيى على هذا القدر من البساطة • فالدائرة المفرغة التى تشبه « هل البيضة من الدجاجة أو الدجاجة من البيضة » والمتعلقة بالاحاجى التى تنطوى عليها الحركة العربية هى أكثر تعقيدا من أن يستطيع أى انسان ، حتى ولو كان عبد الناصر نفسه ، حلها • فليس فى وسعه مع ماله من شعبية هائلة ، تحتل قلوب الملايين أن يكتفى بمجرد القول للعرب ، أن ليس فى الامكان اقامة وحدات دستورية لهم الا بعد سنوات طويلة من الدراسات العميقة الممحصة • ولو قال لهم هذا القول ، لمـا فهموه أبدا • فهناك أربعة اشتراطات جوهرية يجب توافرها فى الفراهة السياسية المرتبطة بالحركة القومية فى المنطقة ، وما لم تتوافر هـذه الاشتراطات وتفهم فهما كاملا فان ما فى دائرة الاحاجى العربية المفرغـة من تعقيدات لا يمكن أن يحل •

القيادة المركبة أو الجماعية :

أول هذه الاشتراطات التى يجب أن أسردها بايجاز ، هو القيادة المركبة أو الجماعية التى يجب أن تتوافر فيها نفس الخصائص الاساسية ومثل هذه القيادات وحدها ، اذا انبثقت من كل جزء من أجزاء الوطن العربى هى التى تستطيع وقف المد القومى الثائر فى فيضانه (١) • ولو القى المرء نظـرة الى « الخريطة السـياسيه للشرق الاوسط » لرأى أنهـا لا تتـألف فقط من مجرد عدد من الـكيانات المصطنعة على الغـالب ، بل تضم أيضا طرزا من أنظمة الحكم المجزأة ، داخل كل كيـــان من هذه الكيانات • واذا كانت الوحدة العربية ، ستعنى أكثر من مجرد ترابط رسمى ظاهرى ضمن نطاق الجامعة العربية ، وهى تعنى بالفعل للفكر القومى العربى الحديث أكثر من هذا الترابط ، فان تحقيقها ، لا يمكن أن يتم والحالة هذه الا عندما تختفى هذه الفروق كلها ، أو معظمها على الأقل • ولا ريب فى أن ثمة حقيقة لا تقبل نقاشا أو جدالا لما فيها من وضوح ، وهى أن هذه السنوات الشاقة المرهقة الأخيرة ، التى بلغ فيها المد القومى أوجه ، لم تدفع الى الصف الأمامى فى أى بلد من بلاد الشرق الأوسط ، قائدا يستطيع أن يقف موقف المضـاهاة أو حتى التشبيه بعبد الناصر •

وليس من الحتمى أن تكون هذه القيـادات الجماعية فى الاجزاء الاخرى من الوطن العربى منبثقة عن الجيش أو ممثلة فى شخص قـائد

---

(١) ومن قال للمؤلف ان أية قيادات عربية تود «وقف المـد القومى الثائر فى فيضانه » فالمد القومى سيظل هادرا فى كل مكان من أرجاء الوطن العربى ، أما ماكان يفتقر اليه فى مراحله الأولى من تخطيط صحيح عـلى أسس روحية ومادية سليمة فهو فى حيز الوضع الآن ، وقد خطط الميثـاق الوطنى الذى قدمه سيادة الرئيس عبد الناصر الى الشعب خطوطه العريضة التى سيكون من مهام الاتحاد الاشتراكى العربى وضع تفاصيلها •

— المعرب —

قومى ذى شخصية طاغية ، بل يكفى أن تنبثق عن حكومة ثورية مهما كان تركيبها ، شريطة أن تكون متمتعة بتأييد شعبها ، ميالة ميلا أصيلا الى الاصلاح • حيادية النزعة فى سياساتها الخارجية ، ومستقرة فى بلدها استقرارا معقولا • ولا ريب فى أن الغرب يخطىء أشد الخطأ ، اذا أنحى بالملامة على عبد الناصر ، لعدم ظهور مثل هذه القيادات فى الاجزاء الأخرى من الوطن العربى • فاذا كانت الفرصة قد أتيحت للأردن بعد انتخابات اكتوبر عام ١٩٥٦ ، فى اخراج مثل هذه القيادة ، فان هـذه الفرصة ما لبثت أن ضاعت وحرم منها عـرب الاردن بفضل الانقلاب الرجعى الذى قام به الملك حسين واشرف على تنفيذه الانكليز والامريكيون بعد نحو من ستة أشهر • أما فى سورية فكان ضعف هذا الطراز من القيادة وان كانت قد انعكست اسميا فى الوزارة التى تألفت فى عـام ١٩٥٧ ، قد بلغ حدا خطيرا ، حمل الذين كانوا يدعون لها ، الى البحث عن وحدة وثيقة العرى مع مصر لحماية ماتمكنوا من تحقيقه • أما فى العراق ، فقد وصلت التناقضات الداخلية بعد الرابع عشر من يوليـو عام ١٩٥٨ الى ذروتها •

فلقد كانت القيادة الثورية التى نجمت فى العراق نتيجة سنوات طويلة من القمع الذى يسنده الغرب للقومية الفتية من الطراز الضعيف ، غير المستقر • وقد تضاعف هذا الضعف وذلك الافتقار الى الاستقرار ، نتيجة ظهور النشاط الشيوعى الضخم ، والخوف من الذوبان فى تلك الوحدة العظيمة المتمثلة فى الجمهورية العربية المتحـدة ، والناتجة عن ضعف القيادة السورية (١)

واذا ما استثنينا هذه الفرص القصيرة ، غير الكافية لقيام قيادات جماعية عربية مركبة أو متشابهة فى تفكيرها ، فان الشرق الاوسط مازال فى حاجة ماسة الى انتاج قيادات من طراز يختلف عن طراز السـلالات التقليدية • وشبه الاقطاعية (٢) • وكانت نتيجة هـذا الوضع ، تركيز الاهتمام الاخرق من الغرب على شخص واحد ، تحمله كل التبعات ومن العرب الذين يحملونه كل ما فى القومية من مسئوليات ومتطلبات ، مع أن هذا القائد يمثل عهدا يقوم فى بلاد كان تفوقها على غيرها من أجزاء الوطن العربى فى نواح عدة مصدر ضعف كما هو مصدر قوة فى الحـركة الوحدوية •

---

(١) أعتقد أن المؤلف يخطىء كثيرا عندما يربط بين الوحدة وبين ضعف القيادات العربية الاقليمية أو قوتها ، فالدعوة الى الوحدة ليست ناجمة عن الضعف أبدا والتصميم على الانفصال ليس ناتجا عن قوة القيادة مطلقا وانما ينجم عن تفوق النزعات الانتهازية عند هـذه القيادات على النزعات القومية الصافية والصادقة مصحوبة بالكثير من المشاعر الانوية الانانية •

— المعرب —

(٢) لقد استثنيت عن عمد عهد الرئيس عبود فى السودان والقيادة التى ظهرت فى لبنان بعد ثورتها من هذا التقييم للأوضاع ، وذلك بسبب وجود مشاكل خاصة فى هذين البلدين ، تجعلهما خارج التيار الرئيسى الاولى للجدل فى موضوع القومية العربية •

المؤلف

الثورة الاجتماعية :

وتعرض القيادة العربية الجماعية أو المتشابهة فى تفكيرها ، بدورها اشتراطا ثانيا وهو مد الثورة الاجتماعية الاساسية فى الوطن العربى لتشمل أجزاءه الأخرى . وقد غالى عبد الناصر ، وأنصاره الذين لا يعدون ولا يحصون فى جميع أرجاء الوطن العربى فى تقويم الدور الذى لعبته العناصر « الرجعية » فى الانفصال السورى . فمن الواضح أن التوترات التى وقعت ابان الوحدة قد انطوت على أكثر من مجرد المعارضة الشخصية الأنانية التى واجهت بها الجماعات الثرية فى سورية اصلاحات عبد الناصر الاشتراكية . ولكننى لا أنكر أن الرجعية كانت موجودة ، وأنها كانت فى قلب الحركة الانفصالية ، وكان دورها الضخم السابق فى « مناورات الديمقراطية الزائفة الجهنمية » فى عهد ما قبل الوحدة ، قد ترسب فى قرارة ما واجه الوحدة المتسرعة من معارضة داخل سورية ، وليس هذا هو كل ما فعلته الرجعية ، بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك . ولا ريب فى أن القوميين العرب الشبان على حق تماما عندما يرون فى « الرجعية» عقبة أساسية من العقبات التى تقف فى طريق الوحدة ولا ريب أيضا فى أنهم رأوا ولم ينسوا المثل البارز لما تلعبه الرجعية فى معارضة الوحدة فى المؤامرة السعودية الملكية التى جرت فى مطلع عهد الوحدة لاغتيال الرئيس عبد الناصر ، والحيلولة دون تحقيقها . (١)

واذا كان الغرب لم يفهم فهما كاملا أهمية هذا العامل فان القوميين العرب أيضا فى حاجة الى دراسة موضوع «الرجعية» من جديد . فليس ثمة من مشكلة كبيرة بصدد السعوديين وما يشبههم من عهود حاكمة . وقد يندفع الأمير السعودى مع التيار القومى العام ، متأثرا بالمفاهيم القبليه التى ترجع الى عدة قرون والتى تعنى اعتزاز البدوى بالقبيلة التى ينتمى اليها . ولكن هذا المفهوم غير المفهوم الذى يحمله العالم العربى الجديد الفتى عن القومية ، أوما يفهمه الافارق الجدد عن حركاتهم القومية أو عن الجامعة الافريقية (٢) . ولا تستطيع الوحدة التى ينشدها قوميو العرب اليوم أن تستسيغ الاستغلال الملكى السعودى ، ولا التزمت العقيدى الوهابى . وليس ثمة من شك فيمن سينتصر فى النهاية . ومن المؤكد أيضا ، أنه عندما توجه التعليقات الغريبة نقدها للقوميين العرب

---

(١) سبق لى أن ذكرت فى هذا الكتاب أن حقيقة هذه المؤامرة لايتطرق اليها أى شك أبدا ، وان كان الغرب قد تجاهلها ، وتجاهل مغازيها
ـ المؤلف ـ

(٢) لقد تغير هذا الوضع بالنسبة الى الأحرار من الأمراء السعوديين فلقد تخلى طلال واخوته عن لقب « الامارة » ، وجاء تخليهم دليلا على أن مفاهيمهم باتت عين مفاهيم الشباب العربى القومى ، فى النواحى القومية .
ـ المعرب ـ

لما يبدونه من عدم احترام « لكيانات » كالكيان السعودى ، فان هذا النقد يخلق فرقة جديدة بين عالمى الغرب والعرب فالغرب يمتعض مما نسميه «بالتدخل» ولكن القوميين العرب يحسون بالسخط على ما يبذره المالكون السعوديون من دخل هو دخل الشعب العربى فى السعودية كله . ويتحرقون لهفة على وضع نهاية لهذا السفه فى تبذير أموال الشعب العربى فى السعودية .

وستظل هناك حتى تقع تبدلات أساسية فى العهود العربية التى هى من هذا النوع ، مساحات كبيرة بيضاء فى الخريطة المثالية التى يرسمها الشباب العربى فى فكره عن الوحدة . ولكن المشكلة الأكثر تعقيدا وصعوبة بالنسبة الى القوميين العرب هى تحديد « الرجعيه » فى الأجزاء الأكثر تقدما من الوطن العربى . أو بكلمة أخصر تحديد الاختلافات العرضية فى مفاهيم الاشتراكية العربية ، وقد ثبت أيضا بوجه التحديد ان المصالح المستثمرة فى وجود عدم التكافؤ والفروق الطبيعية على الصعيدين الاجتماعى والاقتصادى ، انما نجمت عن الكيانات العربية المتفرقة التى ظهرت فى القرن الحالى . ولعل عبد الناصر كان عظيم التوفيق عندما حدد أكثر هذه المصالح ظهورا بعبارة واضحة جلية ذكرها فى خطاب أخير له قال فيه انه « لم يعد فى مجتمعنا متسع لأصحاب الملايين » (١) لكن الصعوبة تنشأ على صعدان أخفض من صعيد أصحاب الملايين ، أى [illegible] الطبقة التى يسميها الغرب «بالوسطى» والتى تضم التجار وأرباب الصناعة والمهن . وليس ثمة من شك فى أن لأفراد هذه الفئات مصالح يستثمرونها [illegible] الأوضاع الراهنة وفى بقاء التجزئة العربية . ولقد ارتفعت مستويات الحياة التى يعيشها افراد هذه الفئات وارتفع دخلهم عبر حقب من التجزئة التى فرضها الغرب . ولم يكن جميع هؤلاء من الاوغاد الجشعين . أو من المحتالين أو المتميزين بأنانيتهم كما لم يكونوا جميعا عاجزين عن الاحساس بما يحس به القوميون العرب من أمانى الوحدة ولا سيما الفتيان والفتيات منهم . ويؤلف الانطباع الذى تخلفه الاشتراكية والتقليل من الكيانات فى كثير من الحالات صراعا بشريا طبيعيا يعمل فى صدورهم بين الوطنية والولاء للأسرة .

ولا ريب فى أن هذا الصراع الطبقى المتزايد فى الوطن العربى ليس الا النسخة المتأخرة فى صورة الصراعات الطبقية فى الغرب . ولكن تجربة الوحدة بين مصر وسورية أوحت بعبرة ضمن محتوى الوحدة العربية وهذه العبرة هى أن أى اتحاد تعاونى « فيدرالى » رخو الوشائج

---

(١) وردت هذه العبارة فى الخطاب الذى ألقاه الرئيس عبد الناصر فى السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦١ والذى حدد فيه أهداف حكومته الاشتراكية وأخطاء الماضى .

ـ المؤلف ـ

أما التوترات والأزمات التى تفرضها الثورة الاجتماعية على البلاد التى تشترك فى وحدة أوثق عرى ، حتى ولو اختلفت هذه البلاد فى مراحل تطورها الاجتماعى ، فهى اعظم من ان تتصور • وليس ثمة من شك فى أن مثل هذه الازمات والتوترات ، كانت ستظهر حتما لو وقع اندماج بين سورية والعراق ، على غرار الوحدة التى تمثلت فى قيام الجمهورية العربية المتحدة •

الانظمة السياسية :

ولو افترضنا أن الثورة الاجتماعية قد خلقت جيلا جديدا من القيادات العصرية والمستقرة ، والمتجانسة فى تفكيرها ، وان هذه القيادات قد تمكنت من رسم مخططات الوحدة والتفاوض بصددها ، فان ثمة اشتراطا أساسيا سيظل قائما وجوهريا ، يتطلب التحقيق • فمن الطبيعى أن يظل الشعب الذى لم يتأكد من أى السبل هى الامثل لحكم نفسه ، مترددا فى الاندماج مع ما يحمله من شكوك فى أى شعب آخر • فهناك عدة قوى طاردة من المركز (طرد بمركزية) قوية فى الوطن العربى ،من النوع الواقعى ، الذى يجعل من الاستقلال الداخلى الذاتى ضرورة أساسية فى أية عملية وحدوية ، كما أن النظام المركزى فى الحكم ، هو الذى يهدم كل استقلال داخلى ذاتى• وأرى أن هذا العامل أيضا يتطلب تفهما من الغرب من ناحية ومن العرب من الناحية الأخرى • فمن الثابت أن من المشاكل الخطيرة التى واجهتها الوحدة السورية ـ المصرية ، مشكلة الافتقار الى نظام سياسى يسمح بشىء من الحكم الذاتى ، ولكن جدير بنا أن نضع الى جانب هذه الحجة حجة منطقية أخرى ، وهى أنه لو « سمح » لسورية بالاحتفاظ « بالديموقراطية » التى كانت قائمة فيها ، فان هذا السماح يعنى تجاهل الاوضاع التى كانت قائمة فى الجمهورية السورية عندما تمت الوحدة • ولا ريب فى أن من الجرأة بمكان كبير ، أن يقدم أى معلق غربى على القول بأن « الديمقراطية » على النحو الذى يفهمه الغرب ، قد زالت من سورية بعد تحقيق الوحدة •

وكانت المشكلة الآن تتلخص فى الطريقة التى يمكن بواسطتها اعادة بناء المنظمات الديموقراطية المهدمة أو تحديدها على الاقل • وستقع مسئولية البحث فى هذا الموضوع على عاتق الفصل المقبل • ولكن يبدو لى من زاوية الوحدة العربية التى أفرق دائما بينها وبين التضامن العربى أن على القوميين العرب ن يواجهوا هذا التحدى بشكل أكثر واقعية • فاذا ظلت الانظمة السياسية الديموقراطية الجديدة صعبة على التطور أو بطيئة فيه ، فليس هناك مرة ثانية من وحدة أكثر أمنا وسلاما للعرب من الاتحادات التعاونية (الفدرالية) • وقد يكون من الخداع القول بأن الفكرة « الناصرية » تؤلف عقبة خاصة فى هذا الصدد ، اذ يمكن للمعلق أن يفهم بوضوح ان أية وحدة بين أية دولتين عربيتين مهما كان الحكم القائم فيهما فى الوقت الحاضر ،قد تضمن وجود أنظمة ديموقراطية فيهما متحررة من الناحية السياسيه بحيث تضمن لهما حتى بعد الاندماج، نوعا من الاستقلال الذاتى •

وليس هذا التحدى للعرب لدراسة ما اذا كانت الاندماجات الكلية

لا تحد من المتاعب السياسية الفردية الراهنة للدول العربية الا طريقة أخرى من صرف عرض الحاجة الماسة اليها • ولم نتوافر فى الشئون العربية فترة طيلة القرن الحالى ، كهذه الفترة ،التى يتمكن فيها علماؤهم السياسيون وقانونيوهم الضليعون ، واقتصاديوهم وساستهم ،من بحث المشاكل العملية للوحدة العربية بحثا دقيقا موزونا • وكان التفكير المنظم وتبادل الآراء فى الموضوع ، يتعرضان دائما لازمات داخلية وخارجية والى كبت واضطهاد من الخارج وشكوك متبادلة ومراقبة من الداخل • وكان طوفان اللهفة الساعرة للوحدة الذى يواجه مثل هذا العدد الضخم من الاعداء كالغرب والصهيونية والعهود القديمة والشيوعية مؤخرا، أشد عنفا من أن يتغلب عليه الحذر أو الروية • وهل كان فى وسع الرئيس عبد الناصر أن يتبنى عملية درس من هذا النوع ؟ لو أنه فعل ذلك لسارع الغرب وأصدقاؤه الى اتهامه من كل ناحية بالتآمر « لاقامة امبراطورية له » • وهل كان فى وسع العراقيين أن يتولوا مثل هذه الدراسات ؟ ان عهد نورى السعيد الذى كان الانكليز يؤيدونه ، ما كان ليسمح بأى نقاش فى موضوع الوحدة الا على شروط نورى وعبد الاله • ويصدق هذا القول على بقية أنحاء الوطن العربى •

وانى لأتمنى لو أن الكتاب الأمريكى « أوراق فيدرالية » يوزع باللغة العربية فى المنطقة كلها ، ليطلع العرب، لا عن طريق الوصاية بل عن طريق انود ، على ما فكر به شعب ثورى آخر ، وما ناقشه من مشاكل ، وهو يسعى الى وحدة ولاياته• وليس للامريكان الذين تعود الى ذاكراتهم أحداث الحرب الاهلية التى سببت أشد الآلام لاتحادهم قبل أن يمضى على قيامه سبعون عاما أو للاوروبيين الذين يذكرون ولا شك أحداث التاريخ الاوربى الحديث أن يظهروا استنكارهم لما يحس به العرب من عذاب والم • ولكن العرب فى حاجة حقيقية ماسة الى « أوراق اتحادية » عربية ، فى كمها وعربية فى تنوعها •

التحرر من الضغط الاجنبى :

ونصل الآن الى الاشتراط الجوهرى الرابع للسير الهين فى طريق الوحدة العربية ، وهو التحرر من كل ضغط أجنبى • فلقد ادعى الغرب فى افريقية اليوم ، كما ادعى فى الوطن العربى من قبل ، أنه قد تخلى فى سرعة البرق الخاطف عن ضغطه السابق ، وأن عهد الضغط قد انتهى • ولهذا السبب نرى الغربيين يصفون التهم التى يوجهها القوميون ضد « المؤامرات الاستعمارية » وضد « الرجعية التى يؤيدها الاستعمار » مجرد دعاية • وقد تكون هذه التهم أحيانا كذلك ، ولكن اذا فهم الغرب مرة واحدة ، أن الوعى السياسى اليومى عند العرب فى كل مكان الآن لا ينحصر فى البلد الذى يسكنون فيه بل يشمل منطقتهم كلها ، فان ما يبادر به العرب من سخرية عاجلة سرعان ما ينقلب الى شعور بالخجل • ولا ريب فى أن كل من يقوم بتحقيق دقيق فى المنطقة العربية اليوم ، أى فى عام ١٩٦١ أو عام ١٩٦٢ ، يجد حتما أن الضغط الغربى لم ينته من المنطقة مطلقا •

ففى المغرب العربى ما زالت هنـــاك قواعد عسكرية أمريكية يكره الشعب وجودها فى مراكش ، كما توجد فيها بعض رواســب الاستعمار الفرنسى الجديد . وتوجد حرب مكشــوفة فى الجزائر مع فرنسا (انتهت هذه الحرب والحمد لله باستقلال الجزائر) ، وهناك فى تونس أكثر من ألف أسرة تبكى أبناءها الذين استشهدوا فى معركة بنزرت . وهنـاك قواعد عسكرية أمريكية وبريطانية فى ليبيا ، لا يستسيغ الشعب وجودها ، على الرغم مما تحمله الى البــلاد من موارد مالية ، كنفقات يصرفهــا القائمون عليها . واذا ما اتجهنــا شرقا وصلنــا الى مصر ، حيث لا تزال ذكريات العدوان على السويس القريبة عالقة فى الاذهان ، وحيث يقوم وعى كامل بما يحمله الغرب لها من عداء مستمر . وفى السودان ذكريات ، وفيهــا احساس بالوجود الاستعمارى فى افريقية . ويؤلف الاردن حالة خاصــة ظاهرة تحتاج تعليقا خاصا منا . وتؤلف مأساة فلسطين رمزا حيا مستمرا على الضغط الغربى ، وكأنها خنجر يظل دائم الحركة فى جرح لا يندمل . ولم يمض على ارتحال القوة الحربية الامريكية عن لبنـــان أكثر من أربع سنوات. أما سورية فقد سبق لنا أن شرحنا ما أحاط بها من أجواء نفسية غريبة . وفى العراق احساس بوجود الحلف المركزى فى جارتين من جيرانها، وبوجود الســلطان البريطانى العسـكرى والسـياسى فى الخليج والبحـر العربيين ، وما حدث مؤخرا من اطلاق بريطانيا سراح الـكويت ، ليس الا نموذجا بارزا لمـا يجب على بريطانيا أن تفعـله الآن على طول السـواحل العربية ، هذا اذا أردنا حقا أن يزول من الاذهان تماما الاحساس العربى بوجود الضغط الامريكى .

ولا ريب فى أن الأثر الجماعى على العرب لهذه الامثلة الواقعــة عن «الوجود» البريطانى فى بلادهم ضخم هائل . وهو مختلف كل الاختلاف حتما عن الصورة التى تنطوى عليها العبارة التى كثيرا مانسمعها ، .... «حسنا لقد خرجنا ... او لم نخرج » ، ولا ريب أيضا فى أن هذا الخلاف يمثل مظهرا جديدا من مظاهر الانقسام بين العرب والغرب . ويتحول هذا الشعور بالضغط الى حافز جديد يدفع العرب دفعا الى البحث عن الوحدة. حتى فى المناطق التى لا وجود فيها لاية عقبة غربية تقف فى طريق الوحدة . وليس ثمة من شك فى أن هذا الخوف من الغرب . قد لعب دورا لا يقل عن الدور الذى لعبـه التخوف من الشـيوعية فى الاسراع بقيـام الوحدة بين مصر وسورية وكان السوريون يعرفون كما يعرف عبد الناصر نفسه أن فى استطاعة نورى السعيد ان يضمن تأييد الغرب لأى مشروع يضعه للتدخل فى سورية ، معتمدا على الأمل برغبته فى ابعاد الخطر الشيوعى عنها . ولا نستطيع نحن فى الغرب أيضا أن نحلل أنفسنا من مدى المسئولية فى الضغط الذى فرضناه على الوحدة ، مما أدى الى تشديد قبضة عبد النـاصر على سـوريه . وكان عـداء الدول الغـربية للوحدة من الحقـائق المكشوفة الصريحة فى عام ١٩٥٨ حتى قيام ثورة العراق ، ولا يمكــن لانسان أن ينفى الادلة القاطعة على ان الغرب والدول الشيوعية قد تعاونا فى أواخر عام ١٩٥٨،فى تشجيع الخلاف الذى عاد الى الظهور والاستقطاب

بين القاهرة وبغداد . وتجدد شك العرب فى السياسة الغربية واستمر فى الوجود .

وظلت الاردن تحتل النقطة الأساسية فى اقحام الغرب لنفسه فى معارضة بحث العرب عن الوحدة . وكان لابد أن تتخذ بريطانيا والولايات المتحدة قرارا نهائيا فى موضوعه ان آجلا وان عاجلا . ومهما كانت صفات الجرأة والاقدام التى يحاول الغرب الصاقها بالملك حسين فان عهده يؤلف مفارقة خطرة على نفسه وعلى الغرب والعرب أيضا . فكل سلطة فى الغرب تدرك حق الادراك ان عهــد الملك لا يحظى بأى تأييــد شعبى . ولا يعيش هذا العهد الا على حراب جنوده من البدو وما يقومون به من اجراءات القمع والاضطهاد والا على ما يلقاه من عون مالى مستمر وتأييد عسكرى متحفز للعمل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، وعلى تسامح الدول الغربية بتهديد اسرائيل الدائم باحتلال الاردن فى حالة وقوع أى تبدل فى نظام الحكم فيه . ولا يكاد يقع أى اضطراب فى الاردن ، أو تجرى أية محــاولة على الملك . أو تصل اذاعة القاهرة الذروة فى حملتها عليه ، حتى ترتفع الصيحة بصورة متأججة فى الغرب نصرة للملك . ولكن لا تكاد تمضى بضعة أسابيع حتى يصدر اعتراف جديد من جانب الغرب فى أكثر من صحيفة واحدة ، بأن عهده لا يحظى بأى تأييد من الشعب الأردنى .

ولا يعنى هذا الوضع أى استقرار ، وانما يعنى فرض سياســيات القوة التى لا تعــدو نهايتهــا حقيقة واحدة يمــكن التكهن بها بسهولة . وهو يعنى أيضا التحريض المستمر للقوميين العرب على أن يمارســوا مساعدة منهم لعرب الاردن ماتمارسه الدول الغربية نفسها فى الأردن . ولا شك فى أن استنكار الغرب للهجمات التى يشنها العــرب على عهــد حسين فى نفس الوقت الذى تقدم فيه له عمدا ومباشرة ، واحيانا عسكريا اذا اقتضى الامر العون الذى يحتاج اليه للصمود أمام غالبية الشعــب الأردنى ، رياء لا يمكن للغرب أن يستمر فيه فى الشرق الأوسط الى أجل غير مسمى .

وقد تكون الحقائق مرة أحيانا ، ولكن يجب على المنصف ان لايتردد لحظة واحدة فى قولها . فلقد كان الغرب هو الذى استن سنة « التدخــل الخارجى » بين الدول العربية ، وهو الذى أرغمها على ممارستها بين بعضها البعض ، ولعلها حقيقة ثابتة لاتحتمل أى نقاش ، اذ باتت جزءا من التاريخ انه لم تمر سنة واحدة على الوطن العربى ، منذ عام ١٩٢٢ لم تتدخل فيها الدول الغربية تدخلا مباشرا ومتعمدا . فى شئون دولة عربية أو بينهــا وبين دولة أخرى . ومن المرغوب فيه كل الرغبة . أن يجد العرب وسائل لاشأن للعنف فيها لتحقيق الانسجام بين بعضهم البعض . ولقد سبق لنا ان رأينا استحالة توقف مايطلق عليه الغرب اسم « التدخل الخارجى »الا اذا أفلحت الثورة الاجتماعية فى جميع أجزاء الوطن العربى فى ابعاد تلك القوى التى تحتم عليها مصالحها واوضاعها مقاومة القومية العربية فى أى مكان عن مجالات الحكم والسلطان . ولكن الغرب لايستطيع ادعاء البراءة فى موضوع الاردن أو فى غيره من المواضيع ، وما دام الغــرب يلجأ الى تطبيق وسائله القديمة فان كابوس « الاستعمار » الذى يجثم على صدور

العرب سيستمر ، وسيظل سعى العرب الى الوحدة مرتكزا على الاساليب التى يستهجنها الغرب .

وقد يكون من المفيد أخيرا ان نعرض فى فكرنا صورة قاتمة أخرى فيها بعض المفارقة عن قصة القومية العربية وتطورها حتى اليوم .فليس ثمة من شك ، على الرغم من وجود بعض مظاهر الرياء والنفاق . ومن عمليات محاولة الابقاء حتى اللحظة الاخيرة ، فى أن الغرب يرغب على العموم فى الخلاص من مشاكل الوطن العربى ، وأنه قد بدأ يفهم فى أن من حق العرب أن ينشدوا الوسائل التى يريدونها لتحقيق وحدتهم (١). ولكننا لم نستفق الى الواقع والحقيقة الا متأخرين ، فقد وقفنا أمدا طويلا نحول بين العرب وبين تطورهم الاجتماعى ، ونفرض عليهم التجزئة ، ولم نكد نفكر فى الخروج من المنطقة حتى ظهر على عتبتها عدو جديد للوحدة العربية . وقد تبنت الشيوعية التى تسيطر عليها روسيا الآن نفس سياسة « فرق تسد » التى كنا نتمناها ، لتحقق لنفسها السيطرة ، ولتعرقل كل وحدة لاتضمن لنفسها حق الاشراف عليها . وقد سبق لى أن أوضحت فى فصل سابق حقيقة الوضع فى عراق الثورة وما حوله من بلاد . وليس ما وقع هناك الا مقدمة أو مجرد بداية . ولا أرى أن العبر التى تعلمناها من مواقفنا السابقة تجاه الوحدة ، ومن ظهور قيادة عبد الناصر فى مظهرها المتميز بالنشاط وبالانسجام العقائدى ، بعيدة عن الشيوعية ، وكذلك من آخر المواقف التى وقفها الغرب والتى عملت بصورة ساذجة على دعم الشيوعية ، تتطلب مزيدا من الشرح والتفصيل ، واذا كان على العرب أن يواجهوا اليوم بشىء من الفجيعة هذا التحدى الجديد لتطلعهم الى الوحدة ، فأن الغرب سيواصل معارضته لها مع ما فى ذلك من تعريض لنا ولهم للخطر .

الوحدة العربية ـ المستقبل :

ترى ما الذى نصل اليه من كل هذا البحث الدقيق وعرض ما فى هذا الأمل الذى يطمح اليه العرب من مصادر القوة والضعف ؟ فهذا الامل هو فى الواقع حلقة مفرغة شريرة ذات طابع تاريخى معقد من الحوافز والعقبات ومن القوى المركزية الطاردة والجاذبة التى تعتمل فى أفئدة تسعين مليونا من البشر يؤلفون واحدا من ثلاثين من مجموع ابناء الجنس البشرى. ومن الواجب أن يكون واضحا لكل انسان أن الكثير من العقبات التى تقف فى طريق الوحدة العربية ان لم يكن معظمها لم تكن وليدة الحاضر الذى نعيش فيه بل وليدة حقب طويلة تمت فيها وتطورت .

---

(١) لا أرى من أين جاء المؤلف بهذه الفكرة الجديدة من أن الغرب قد غسل يديه فى وطننا العربى وعدل عن مقاومته لوحدتنا . اننا لم نر أى تطور فى سياسة الغرب فى هذا الاتجاه ، فهو لايزال يبقى على العهد الرجعى فى الأردن ، وهو يحتل سواحل الجنوب العربى وهو الذى يحيك المؤامرات ضد الوطن العربى ووحدته وقد ظهر ذلك فى هذه الحركات العدوانية التى يقوم بها فى اليمن لوقف المد التحررى العربى .

ـ المعرب ـ

فهل يمكن لأية صورة عن الوحدة العربية المقبلة أنتكون ذاتمعنى؟. فى وسعنا فقط أن نتصور خطوطها العريضة بالاضافة الى كل ما بحثناه حتى الان من عناصرها . وهناك بالنسبه الى الحاضر الفورى الجامعة العربية ، التى تعتبر هدفا لحملات الغلو فى نفاد الصبر ، عن جمودها الناجم عن وجود جذورها فى حقبة « العهود القديمة » والقادرة حتى الآن على العمل الايجابى الخلاق الذى يحمل طابع الالهام كما ثبت فى عملها بالنسبه الى أزمة الكويت . ويبدو لى أن هذا الترابط الرخو بين الكيانات الرسمية سيظل الى أمد ما المحور الذى يرتكز عليه التعاون العربى النافع رغم ما فيه من تقلب .

وفى المتوقع ان تقوم حلقة اقليمية من الوحدة فى المغرب العـــربى الكبير بعد أن تحل المسأله الجزائرية حلا نهائيا . وتقوم هناك «موجودات» وحدوية خاصة تعمل على تعزيز الدعوة للوحدة واهمها وجـــود العنصر الثقافى البربرى الخاص ، والدروب الثقافية الفرنسيه الخاصه والمـــوارد الاقتصادية المشتركة .(١) وقد اتفقت الاحزاب الرئيسية فى المغـــرب والجزائر وتونس فى المؤتمر الذى عقدته فى ابريل عام ١٩٥٨ على اتحـــاد تعاونى (فدرالى) فى المستقبل يضمها مبتدئا بقيام مجلس استشارى . وليس هناك من يتجـــاهل وجود صراعات داخل المغرب عن الصحراء بين النزعة المحافظة فى المغرب (مـــراكش) والبورقيبية التونسية ، والاشتراكية الوطنيه الديناميه فى الجزائر . ولكننى أعتقد أن العوامل الوحدوية ستتغلب على هذه الخلافات المؤقتة فور خروج الفرنسيين من البلاد . ولا يستبعد ان تتطلع ليبيا غربا نحو هذه الوحدة . (١)

---

(١) اختلف مع المؤلف فى هذا الرأى الذى أورده بالنسبة الى الوحدة المغربيه ، ولا سيما ما يتعلق منه « بالعنصر الثقافى البربرى الخاص » بما اسماه ، فليست هنـــاك أية نزعة عنصرية بربرية خاصـــة ، وان كان الاستعمار الفرنسى قد حاول طيلة المدة الطويله التى قضـــاها فى اجزاء المغرب العربى ، ان يخلق هذه النزعة وأن يستغلها فخابت مساعيه كلها . وأثبت النضال الجزائرى الجبار ، الذى اشترك فيه العرب والبربر معا فشل الاستعمار الفرنسى فيما هدف اليه ، اذ أن قبـــائل البربر ، فى الجزائر ومراكش وتونس ، تعتبر نفسها جزءا من الشعب العربى فى المغرب الكبير ، ولقد كانت دوما كذلك كما يثبت التاريخ العربى بأدلته وشواهده ، ويكفى أن نقول ان طارق بن زياد ، الفاتح العربى الاعظم كان من اصل بربرى . ويؤكد التاريخ ان قبائل البربر هى من موجات الهجرة العربيه من الجزيرة العربيه .

(٢) ان الشعب العربى ســـواء اكان فى المغرب العربى او الوسط العربى والمشرق العربى أو الجنوب العربى شعب واحد ، له هدف واحد ، وهو الوحدة العربية الكاملة الشاملة . أما القول بالاتجاه غربا او شرقا أو جنوبا ، فلا يعنى مطلقا البحث عن وحدات خاصة . وانما يعنى تحرى خير السبل المؤدية الى تحقيق الهدف الكبير .

ـ المعرب ـ

وتقف الجمهورية العربية المتحدة (مصر) الآن ، أمام قرارات جديدة وستظل اتجاهاتها الخارجية دائما . مزدوجة ، وهى العمل على وحدة وادى النيل مع السودان والقيام بدور فعال فى الاتجاه الوحدوى ضمن المنطقة العربية كلها . وانا لا أعتقد باحتمال قيام أية حكومة سودانية فى المستقبل القريب بالدعوة الى أكثر من مجرد وحدة اجرائيه عامله مع مصر . بسبب ذكريات تعود الى المحاولات التى كانت تبذلها الملكية الرجعية القديمة فى مصر للسيطرة على أعالى النيل ، وبسبب الحاجة الماسة الى تحقيق وحدة اقوى عرى داخل السودان نفسها بين شمالها وجنوبها . وستحول هذه المشكلة السودانية الداخلية فى الوقت نفسه وهى تعريب قبائل الجنوب ودمجها قوميا فى السودان ، دون اشتراك السودان اشتراكا فعليا فى الشئون العربيه الداخلية .

ومن الصعب على أن اتصور أن الرئيس عبد النّاصر سيقبل بأية وحدة متسرعة لاتقوم على أسس ثابتة مع أية دولة من دول المشرق العربى . ولكن من الصعب على فى الوقت نفسه أن أصدق أن الرئيس سيتخلى عن القومية العربية التى جعلها عقيدة يؤمن بها أشد الايمان . وكان أول رد فعل له لحركة الانفصال السورية ، مناشدة الشعب المصرى التمسك بعروبته ، وعدم قبول العزلة الروحية ضمن حدود وادى النيل ودلتاه . (١) وتشير الخطب الأولى التى ألقاها الرئيس بعد الانفصال الى أن تفكيره اتجه اتجاها جديدا وهو وجوب تحقيق الثورة الاشتراكية العربية قبل السير فى أية محاولات جديدة نحو الوحدة . ولكن هذه النتيجة التى توصل اليها ليست غريبة ، ولا تمثل أى تحول أساسى فى تفكيره ، فلقد كانت

---

(١) هناك نقطة واحدة يبدو أنها غابت عن تفكير المؤلف ، وهى ان كارثة الانفصال ، رغم ما فيها من فجيعة ، قد أظهرت بجلاء ، حقيقة لا تقبل الشك ، وهى استحالة « التهادن » بين القومية العربية التى يمثلها الرئيس عبد الناصر ، وبين الرجعية العربية التى تعمل «مخلب قط» للاستعمار ، وان ظهور هذه الحقيقة قد ادى الى قيام المعركة السافرة بين هذين الاتجاهين الذى ظهر بجلاء ما بعده جلاء ، فى الثورة التحررية الرائعة التى قامت فى اليمن للخلاص من عبودية الرجعية والانطلاق فى الطريق التحررى السليم ، وما عقب هذه الانطلاقة الجدية فى الجنوب العربى ، من وقوف الجمهورية العربية المتحدة بكل امكاناتها تنصر الانطلاقة ، التى سيكون لها شأن وأى شأن فى تحطيم معاقل الرجعية العربية فى كل مكان من أرجاء الوطن العربى . كما أثبتت الانطلاقة ان الاستعمار ، واعوانه من ملوك الرجعية لم يفلحوا فى الغاية الاساسية التى توخوها فى مؤامرة الانفصال وهى عزل الجمهورية العربية المتحدة ، وصرف أنظارها عن التيار الوحدوى ، بل فشلوا فشلا ذريعا اذ ظلت الجمهورية وستظل قلعة النضال العربى ، كما اثبتت مؤامراتهم ان وحدة الهدف الذى يتلخص فى « التحرر والاشتراكية والوحدة » هى أقوى أثرا من الوحدات «الشرعية» التى يظل للرجعية فيها دورها ، وأنه لم يعد هناك مجال لما يسمونه بالتضامن العربى أو بكلمة أصح التهادن مع الرجعية .

— المعرب —

ماثله فى خاطره فى يناير عام ١٩٥٨ عندما طلب الى أعضاء الوفد السورى الذى جاء يسعى للوحدة . أن ينظموا شئون بلادهم الداخلية قبل التفكير فى الوحدة .

ومن الصعب على المؤلف ، ولم يمض على الانفصال الا أمد قصير جدا أن يتكهن بالأثر الذى سيتركه هذا الانفصال على مكانة الرئيس عبد النّاصر فى الوطن العربى (١) فهناك عدة عوامل تقوم وراء الافتراض المتسرع بفقد شيىء من المكانه . فسيظل العرب الى الشرق من مصر ، يتطلعون اليها كعنصر جوهرى لا غنى عنه فى أيه وحدة عربية ، سواء فى شئون الدفاع أو فى شئون الزعامة القومية والاصلاحية ، ولم يكن عبد الناصر هو الذى خلق هذا الرباط المقدس . بل كان القائد الذى عرف كيف يوجهه وكيف يمثل له الرمز الدينامى الفعال . ولكن الاحداث قد تثبت ، انه الى أن يتحقق الاصلاح الاجتماعى الداخلى فى كل من العراق وسورية والاردن ، والى أن يتحقق الاستقرار فيها على أسس شعبية ، فان المشكلة المعقدة ستظل قائمة وهى كيف يمكن لمصر أن تكون أوثق اتصالا بالمشرق العربى . ويرى كثيرون من القوميين العرب الذين يؤمنون بزعامة مصر وقيادة الرئيس عبد الناصر ، ان البرامج الاشتراكية العربية التى يقوم الرئيس بتطبيقها فى مصر الآن عظيمة الأهمية لهم أيضا ، وان فى وسعهم انتظار نتائجها . وقد يصل عبد الناصر الى نفس النتيجة أيضا . وستواجه القرارات الاشتراكية التى أصدرها فى يوليو عام ١٩٦١ والتى تعهد بتنفيذها فى شهر أكتوبر أعظم تحد لها وسيتوقف على نتائجها الكثير (٢) .

ويبدو أن أية محاولة جديدة ، فى غضون هذه الفترة لتحقيق وحدة أوثق لدول الهلال الخصيب أى العراق وسورية والاردن ستكون موضع النقاش ، عما قريب . ولقد بات مستقبل سورية السياسى كله يؤلف من جديد علامة استفهام كبيره . ولا يمكن لأى عهد وطنى أصيل ويسارى وشعبى فى سورية أو العراق أن يتصور امكان الارتباط فى وحدة مع

---

(١) نود أن نطمئن المؤلف بأن مكانة الرئيس العربى جمال عبد الناصر ، قد ازدادت قوة ورسوخا بعد الانفصال عند جماهير الشعب العربى فى كل مكان ، فقد تبين لهذه الجماهير نتيجة الحلف غير المقدس الذى قام لدعم الانفصال فى سوريا بين قوى الاستعمار والرجعية العربية والانتهازية المرتدة والشيوعية المحلية ، والذى تؤيده اسرائيل بصورة لا مباشرة ان لم تكن مباشرة ، ان القومية العربية التى يمثلها الرئيس العربى هى العدو المشترك . ورأت هذه الجماهير أن من واجبها الوقوف وراءه فى معركة العروبة .

— المعرب —

(٢) لم يعد هناك مجال لهذه المخاوف التى أعرب عنها المؤلف . فقد أثبتت تجربة الاشتراكية العربية نجاحها لانبثاقها عن دوافع مادية وروحية أصيلة . وها هى ذى تجربة الاتحاد الاشتراكى العربى تسير فى طريقها الصحيح الذى يعلق عليه كافة القوميين العرب أضخم الآمال .

— المعرب —

عهد الملك حسين فى الاردن الذى تشرف عليه بريطانيـــا وأمريكا (١)
ولا ريب فى ان الغموض الداخلى الذى يكتنف قيـادة قاسم فى العراق ،
ما يرافقه من اضطرابات ضخمة تقوم بها الاقليه الكردية الكبيرة هناك •
سيدفع اليمين السورى واليسار اللاشيوعى الى الحذر من أية وحدة مـــع
العراق •

وقد أتيحت الآن فرصة جديدة لموسكو ولشبكات الشيوعيين العرب
فى خضم هذهالمجهولات الجديدة فى الميدان السياسى فى المشرق العربى •
ولكن هذه المجهـــولات ، ستظل تدفع جميع القوميين العرب فى المشرق
العربى الى التطلع نحو مصر وعبد الناصر ، كما ستدفع هذين الى التطلع
اليهما بشىء من القلق والتخوف على مصيرها •

وهكذا سيظل التطلع مستمرا نحو الوحدة ، فى منطقة يرتبط أهلها
العرب فى جزء من أجزائها بأوثق العرى بأهل الجزء الآخر ، وسيظل هذا
التطلع يحمل طابع اللهفة والايجابية ، ويهدف الى الغايات الدفاعية والمادية
العملية • وقد يكون تفهم هذه المشاعر الايجابية أكثر صعوبة على الغربى
من تفهمة لما فى الدعوة الوحدوية من أصطفانية وتنافضـــات (٢) • وليس
تقبل عبد الناصر لما وقع من انفصـــال الا مثلا واحدا فى معنـــاه لهذه
التناقضات (٣) والتباين فى الشـــعور بين العربى المغربى وبين العربى
العراقى اللذين تفصل بينهما ألوف الأميال مثل آخر (٤) • أو كيف يمكن

---

(١) لا يمكن لأى عهد وطنى أصيل يرتكز الى ارادة الشعب فى سورية ، كما يصفه المؤلف أن يتجه أى اتجاه سوى العودة الى الوحدة مع مصر ، أما مشروع الهلال الخصيب وغيره من المشاريع التى يقصد منهـــا عزل « مصر عربيا » ، فلا يمكن أن تحظى بأى تأييد شعبى من الجماهير الواعية •
— المعرب —

(٢) سبق لى فى هامش تعليق سابق أن أوضحت عـدم وجود أية تناقضات فى الدعوة الوحدوية ، لان حوافز الوحدة عند العرب أكثر اصالة منها عند أى شعب آخر •

(٣) لا ريب فى أن المؤلف مخطىء كل الخطأ ، عندما يقول ان سيادة الرئيس عبد الناصر قد تقبل الانفصال كأمر واقع • أما ما حدث فعـــلا فهوان سيادته رغب مدفوعا بنزعاته الاصيلة فى تجنيب الشعب العربى فى سورية الفتنة الداخلية التى كان لا بد من وقوعها لو اتخذ موقفا آخر غير الموقف الذى اتخذه ، مع ما قد ينجم عن ذلك من نتائج دامية هى أبعد شىء عن تفكير الرئيس لتناقضها مع جبلته الطبيعية • ولا ريب ان الرئيس كان مدفوعا الى موقفه ذلك ، بايمانه المطلق فى انتصـــار ارادة الشعب العربى أخيرا فى سوريا الذى لا يقبل عن الوحدة بديلا •

(٤) ليس هناك من فروق بين عربى المغرب وعربى العراق ، الا بعض الفروق الوهمية التى خلفها الاستعمار طيلة حكمه الطويل للوطن العربى ، وهى فروق سطحية لا تلبث أن تنهار أمام الدعوة الوحدوية الاصيلة •
— المعرب —

لنا أن نفسر كيف أن الموظفين الســـوريين الذين كانوا يشتركون فى
المناقشات الحادة حول حسنات الوحدة ومساوئها قبل وقوع الانفصال ،
أحسوا بما يشبه اليأس وتفجرت دموع الألم والقنوط من مآقيهم عندما
حانت ساعة الانفصال فعلا ؟ • لقد كانت هذه العواطف أكثر من مجرد
التعبير عن ألم لانقضاء عهد زمالة شخصية •

وقد تكون هذه التناقضات الواضحة منافذ للغربيين يعربون فيهـا
عن ارتياحهم او سخطهم أو طربهم ، طبقا لما يحملونه من اتجاهات تختلف
باختلاف أشخاصهم • ولكن لمـــا كان العرب فى كل مكان سيواصلون
مساعيهم لتحقيق الوحدة وسيواصلونها حتما ، مهما كانت العقبات التى
تقف فى طريقهم • فان من الخير لنـــا نحن فى الغرب أن نبحث هنا عن
المكان الذى تقـــوم فيه مصالحنا حقا • ولن يكسب الغرب من استمرار
التجزئة العربية ، ومن خلافاتهم المهلكة ومن تبديد مواردهم الاقتصادية ،
كما لم يكسب شيئا من السنوات الطويله التى قضاها فى اقرار مثل هذه
التجزئه • ويحس الغرب بمثل هذا الواقع بالنسبة الى افريقيه التى تنطوى
دعوتها الى الجامعة الافريقية على مشاكل وظواهر متباينة تفوق ما تنطوى
عليها الدعوة الى الوحدة العربية من مشـــاكل وظواهر • وقد ظهر على
المسرح الآن ، العنصر الجديد الذى يفيد من بقاء التجزئة العربية ، وهو
الشيوعية التى قد تفيد فعلا من بقائها ، بينما لم تفد الدول العربية منها،
وذلك لأن الشيوعيين أكثر عناية بشئون الظلم الاجتماعى واصلاحها من
الغربيين •

واذا كان لابد للغرب من أن يتابع التمسك بدوافعه السلبية لسياساته
فى الوطن العربى ، فان حاجته الى التعرف على ما يختلج فى نفوس العرب من
شوق متحرق تصبح أشد وأكثر مساسا • فبالاضافة الى المشاعر الانسانية
التى تدعو الغرب الى العطف على الوحدة ، هناك عامل ايجابى آخر يجب أن
يحفز الغرب على تأييد الدعوة الوحدوية • فوراء هذه الدعوة فكرة نحن نسهم
فى المسئولية عنها ، وهى مفهوم الشخصية القومية الذى نقلناه الى العرب ،
وأدخلناه فى تقاليدهم ، وروابطهم المشتركة • (١) وقد حان الوقت لنـــا
للاعتزاز بهذا الاسهام ، وقد حان الوقت أيضا لنا للتوقف عن معارضـة
نتائجها السياسية واعاقتها ومحاولة تهديمها • وحان الوقت كذلك لنتخلى
عن مخاوفنا القديمة ولنساعد العرب على دحض مادعاه ابن خلدون فى
القرن الرابع عشر من تشاؤم بصدد الفكرة العربية الوحدوية وعلى الساسة
ورجال الصحافة والمعلقين من أهل الغرب ، الذين يجدون فيما يحس به

---

(١) سبق لنا أن بينا فى تعليق سابق أن المؤلف يخطىء كل الخطأ فى اعتباره الوحدة العربية فكرة مقتبسة أو مستقاة من الافكار الغربية أو مقلدة لاية فكرة سابقة • فالحركة الوحدوية العربية ، حركه أصيلة ، منبثقة من ضرورة الوجود العربى ، ومن حوافزه المادية ، ورسالته الروحية ، وتاريخه المشترك ، وتقاليده الواحدة ، ولغته ، وعاداته وثقافته وثرائه الحضارى •
— المعرب —

العرب من عذاب لعدم تحقيق وحدتهم وسيلة سهلة لاظهار تفوقهم فى فن التهكم ، أن يدركوا أنهم انما يهزأون ماجنين ، بأروع ما قدمه الغرب للوطن العربى من اسهام ادراكى . وعليهم أن يدركوا أيضا أنه كلما قرأ عربى أو سمع هذا التهكم الماجن منهم على مشكلة يعتبرونها أعمق المشاكل التى تحز الألم فى نفوسهم ، فان خيطا آخر من خيوط الايمان العربى بالثقافة الغربية سينقطع حتما .

ولا استطيع انهاء هذا الفصل الا باعلان أحدد فيه ايمانى . أن وحدة هذه الملايين من العرب ، قادمة حتما ، ولكنها قد تتأخر بعض الشىء ، وقد لا تكون فى شكل دولة جامدة مركزية الحكم تمتد من المحيط الى الخليج . ولكن اليوم الذى سيعثر فيه العرب على الواقع السياسى والدستورى لحلمهم ولقوميتهم « التى لا ترسم حدودها على الأرض بل فى القلوب والارواح» (١) قادم حتما . ولا ريب ان امام العرب مهمة شاقة ، وعملا مجهدا ، وتفكيرا مضنيا واصلاحا يجب أن يتحقق قبل أن يتحقق الحلم . وليست المشكلة أمام الغرب الا أن يتقبل العرب على حقيقتهم بشرا ، لا يشعرون بالتفوق أو الامتياز ، ولا نعتبرهم متخلفين أو غير مروضين على حكم أنفسهم بأنفسهم . واذا ما وصل الى هذه المرحلة التى يتخلى فيها عن أفكاره السابقة ، أصبح لزاما عليه أن يعيد النظر فى سياساته السابقة ، وأن يبعد منها آخر أثر من آثار مساعيه لوقف مدهم الوحدوى . أجل سنرى عما قريب الولايات المتحدة العربية . وأنا لست واثقا من أن علاقاتنا بها ستكون آنذاك صدوقة ودية ، اذا لم نسرع الآن ، وقبل فوات الآوان الى تنمية هذه العلاقات .

---

(١) من كتاب « فرق تخسر » لميشيل ايونيدس – من تعريب المعرب .

- ١٥ -

الثورة الداخلية

« وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنيا والسباق مروعا مخيفا » .

من كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس عبد الناصر

« لم تعد التربة الاقتصادية والاجتماعية فى الشرق الاوسط بعد عميقة عمقا يكفى لتمكن جذور الديمقراطية السياسية من النمو والانبات ... ويتطلع معظم سكان الشرق الاوسط الى حكوماتهم طلبا للتوجيه والمبادرة كما أن بعضهم يتوخى أقصر الطرق بواسطة الانقلابات العسكرية . ويستحق هذان الاتجاهان عناية أكثر وتفهما أعمق مما حصلا عليه حتى الآن من المراقبين الانجلو – سكسون » .

الاستاذ شارل عيساوى فى مقال له فى مجلة الشؤون الدولية عدد يناير ١٩٥٦ .

« ترى متى يتخلى العالم الغربى من فلسفة حكوماته التمامية » فينوبابهاف الهندى فى كتاب « القديس يسير » .

* * *

عالجت فى هذا الكتاب حتى الآن سير الثورة الخارجية فى الوطن العربى وتفاعلها مع السياسات الغربية . ولكن فى كل ما كتب عن الازمات المتلاحقة فى هذا الوطن ، كانت الثورة الداخلية العربية تعترض طريقى وتبرز كعامل له اثره أيضا فى تلك العواطف الهوجاء من سوء الفهم فى العلاقات العربية الغربية فالثورتان متلاحمتان ولا يمكن تجزئتهما مطلقا اذ أن المشاكل الداخلية المتعلقة بالتطور السياسى والاقتصادى عند العرب تؤثر تأثيرا مباشرا على سعيهم المتواصل لتحقيق الوحدة ، كما تؤثر على بحثهم عن العون الخارجى . وعلى قدرتهم على « النفاذ » الى عقول ساسة الغرب ومعلقيه كشعب عاقل له مكانته التى يجب أن تحمل على محمل الجد .

ولقد تركز اهتمام الغرب على مصر فى الدفقة الطويلة من الازمات

التى تتابعت بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، ولذا فمن حقنا ان نشرع فى هذا البحث فى عرض ما حظيت به ثورة مصر الداخلية من اهتمام ضئيل جدا فى أوساط الغرب . فلقد سادت الغرب فكرة شائعة ، وهى أن عبد الناصر قد « تخلى » عن نياته السابقه فى الاصلاح الداخلى والتطوير الانمائى ، التى كان الغرب قد لاحظها عنده قبل عام ١٩٥٥ وذلك لانشغاله فى « المغامرات الخارجية الشامله ، والحملات الجماهيرية » وليس ثمة من شك الآن ، فى أن هذا الانطباع كان خاطئا وأن عبد الناصر ، كان قد ركز الكثير من اهتمامه فى تلك السنوات على القضايا الخارجية . ومن الواضح أيضا أن نسبة كبيرة من موارد مصر الاقتصاديه ، وامكانات قروضها الخارجيه قد أستهلكت فى « تعصير » قواتها المسلحة عن طريق صفقة الأسلحة التشيكية . وقد شرحت فى الفصول السابقة الاسباب التى أدت الى هده الخطوة . ولكن مما يجب سجيله أيضا أن الحكومة المصرية كانت حتى فى تلك السنوات من الازمات الخارجية غارقة فى مشاريع انمائها ، لا تتخلى عنها وانما تعمل على توسيعها .

وقد مضت حكومة القاهرة قدما فى تطبيق الاصلاح الزراعى واعادة توزيع خمس الأراضى المزروعة التى تمت مصادرتها ، واقامة حزام من الزراعه التعاونية فى الاراضى الموزعه حديثا وفرض الحد الأعلى لاجور الارض الذى قررته الحكومة لاول مرة فى تاريخ مصر . ومضت أعمال التنمية الأخرى من توزيع البذور الجديدة وربية الماشية ، وتحسين وسائل الرى قدما فى الأراضى الاخرى مؤديه الى زيادات ملحوظه فى نسبة الانتاج السنوى . وقطعت الخطط الرامية الى تنفيذ مشروع السد العالى كما ذكرت سابقا خطوات ضخمة ، هادفة الى غاية مزدوجة وهى زيادة مساحات الارض المزروعة ، وتثبيت موارد المياه السنوية ، وتأمين القوة المحركة للمشاريع الصناعية الجديدة . وقامت وحدات خاصه باعمال المسح الصحراوية ، مما ضمن توفير مليونى فدان أخرى للمشاريع الزراعيه . وتم تنفيذ مشروع استنباط القوة الكهربائية الجديدة من خزان اسوان الحالى ، حتى قبل الشروع فى السد العالى ، وبدأ المولد الجديد الجبار فى انتاج قوة كهربائية بمعدل (٣٤٥) ألف كيلو واط ، فى عام ١٩٦٠ . ونفدت الحكومه اصلاحات ضخمة فى حقل الوقاية والصحة العامة ، وبينما كان وباء التيفوس قد ادى فى عام ١٩٤٧ الى وفاة اكثر من ثمانية عشر ألف شخص ، لم تقع فى عام ١٩٥٨ وفاة واحدة بهذا الوباء ، وبينما كانت نسبة انتشار البلهارسيا تبلغ فى عام ١٩٥٢ الثمانين فى المائة من مجموع عدد السكان ، هبطت هذه النسبة فى عام ١٩٥٨ الى أربعين فى المائة . وشرعت الحكومة منذ عام ١٩٥٤ فى مشاريع ضخة لتأمين مياه الشرب النقية لجميع سكان البلاد بينما لم تكن نسبة أهل الريف الذى يشربون المياه الصالحة تربو قبل هذا التاريخ على الخمسة عشر فى المائة . واستمرت عملية بناء « الوحدات المجمعة » فى القرى والأرياف وتزويدها بالموظفين ، وفى كل وحدة منها طبيبها الخاص والعدد اللازم من المساعدين والموظفين الزراعيين لتقدم

خدماتها لاكثر من خمسة ملايين انسان فى سنوات الازمات . وتضاعف عدد المدارس الابتدائية فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٨ . وتم التعاقد على انشاء مصنع جديد للحديد والصلب خارج القاهرة وقد تم بناؤه لتبلغ طاقته الانتاجية مائتى ألف طن فى السنة الواحدة مستمدا مواده الاولية من مسحوق الحديد الذى عثر عليه فى مصر العليا حديثا . وتم بناء مصنع مارد لانتاج الاسمدة الكيماوية فى أسوان ايضا .

ومن المحتمل أن يكون بعض الابطاء قد وقع ، وأن تكون أخطاء قد حدثت ، ولكن مهما قيل عن هذا الابطاء أو تلك الاخطاء ، فان ما حدث فعلا يختلف عن الصوره الشامه التى كان يحملها الغرب عن أحداث مصر الداخلية فى هده السنوات . وليست القضيه أننا ركزنا أنظارنا فى الغرب على سياسة مصر الخارجيه فحسب ، بل ان مصر نفسها قد ركزت الاهتمام فى الظاهر على النواحى الخارجية أيضا ، مما أدى الى غلو الغرب فى ادعائه بأن حكومة عبد الناصر وزملائه لم تحقق الا القليل فى الميدان الداخلى بينما تشير الحقائق الى عكس هذا الادعاء والى أن ثورة أساسية فى الميدانين الصناعى والاجتماعى مضت قدما فى مصر أمام أعيننا .

ولا ريب فى أن عقد الكراهية التى سبق لى أن شرحتها فى فصل سابق قد ساعدت على بقاء هذه الثورة الداخلية خافية عن عيون الغربيين .

ولا ريب أيضا فى أن الدعاية الصهيونية قد لعبت دورا بارزا فى هذا المضمار . مدفوعة الى ذلك بأمانيها العذاب من ناحية فى بقاء العرب على تخلفهم ، واصرار الصهيونية المتعمد على نظريتها القديمة القائله بان العرب قوم متخلفون ، وان اسرائيل التى يدعمها الغرب ويتولى حمايتها ، هى القادرة وحدها على نشر التقدم الحضارى الحديث فى الشرق الاوسط . ولكن العرب ظل على تاثره بهذه الدعايه وهو تاثير يجب ان نتجه اليه فى بحثنا الان لنستجلى أسبابه ونستشفها . والمشكله لا تقتصر على نطاق العلاقات بين مصر والغرب ، بل تمتد الى العلاقات العربية الغربيه كلها ، ونصل الى حدود العلاقات الغربية فى المنطقه الافريقية الاسيوية كلها أيضا .

ونميل نحن فى الغرب ، اكثر من غيرنا من الجماعات الثقافية وذلك بسبب ما كان لجماعتنا نحن من ارتباطات مغالية فى ثقتها بنفسها مع خارج حدودنا ، الى فحص المجتمعات الأخرى وتتويجها على أساس قواعدنا وتجاربنا . فنحن نقيس « الحكم العسكرى المطلق » على ضوء مقاييسنا ، ونحن نعنى بالديمقراطية ، مفاهيمنا الديموقراطية الغربية . ولا تعنى « الاشتراكية » فى نظرنا الا الاشتراكية على قواعدها الأوربية ، وهكذا دواليك . وكانت الحاجة التى « نفترضها » الى من نسميهم « بأصدقائنا » فى الشرق الاوسط هى التى دفعتنا كما سبق لى وان أوضحت فى جميع الفصول السابقة فى عملياتنا الدبلوماسية والعسكرية اليومية ، الى تجاهل

ما يرتكبه هؤلاء « الأصدقاء » من أخطاء فى سياساتهم الداخلية . وفى وسعنا تلخيص النتائج التى حققناها من هذه المواقف .

تكونت لدينا فى الغرب وجهة نظر عميقة الجذور ، لا بالنسبة الى العرب وحدهم بل الى جميع الشعوب الافريقية – الآسيوية ، تنطوى على عقدة محافظة مترمته بأن أى شعب لا يقيم نظام حكمه بعد استقلاله على أسس الديمقراطية السياسية الغربية ليس بالشعب الذى يستحق الاستقلال . ونجم عن هذه الفكرة خيبة أمل حتى عند العناصر الليبرالية فى الغرب ، سرعان ما تحولت الى شكوك ، وذلك عندما انتهت الفكرة الليبرالية الداعية الى تلقين أسس الديموقراطية الغربية الى الشعوب الحديثة بقيام الديكتاتورية عند هذه الشعوب . وكانت السلطات الغربية المحافظة أكثر استعدادا للوثوق بارستقراطيى القرن التاسع عشر « فى عقليتهم » من العرب ، والذين يحكمون حكما ديكتاتوريا صريحا ، منها بالضباط القوميين الشبان ، الذين يرفعون صادقين شعارات الديموقراطية وان كانوا يرفضون أن يقيموا فى بلادهم أنظمة الحكم الديموقراطية الغربية . وكان هؤلاء الغربيون يثقون كل الثقة بنورى السعيد مثلا . لأنهم يرون « ان بغداد لا تعرف الهزل ، وان ابناء الصحراء فى حاجة الى حاكم قوى يسيطر عليهم » ولكن هؤلاء المحافظين انفسهم يرون « الشر » فى عبد الناصر » لانه كما يقولون لا يحكم حكما ديموقراطيا .

هذا بالنسبة الى المحافظين ، أما بالنسبة الى الأحرار (الليبراليين) فقد كانوا يرون فى حكم نورى السعيد لعنة من اللعنات ولكن نظرتهم هذه قد تكون اسوأ بالنسبة ، الى الحكم فى القاهرة ، لانهم يرون فيه انحرافا عن الثورة التقدمية ، نجم عن المطامح الشخصية . وقد ضخمت الدعايات الصهيونية هذه النظرة ونشرتها وعملت على أن يحاول الليبراليون المقارنة دائما بين هذه الفكرة ، وبين ما تعرضه لهم من ادعاء التقدم الاجتماعى فى اسرائيل لتكون هذه المقارنة منبر مراقبة يتطلع منه الغرب الى الوطن العربى (١) . ومع ذلك فقد ظل هناك بعض الاحرار الذين يشكون فى دقة ما تقدمه الدعايات الصهيونية اليهم من معلومات عن المسرح العربى والذين لا ينسون الحقيقة الواضحة وهى ان الغربيين أنفسهم هم الذين اقاموا هذه المنظمات التقدمية فى اسرائيل ، وانفقو عليها مساعدات تفوق حدود التصور اذ تبلغ ما معدله ثلاثمائة ألف جنيه فى اليوم الواحد ، يدفعها الغرب لاسرائيل .

لكن كلتا النظريتين خاطئتان ، وعلينا أن نحكم على الانظمة

---

(١) نشأت هذه الصورة الخاطئة عن الدعايات الصهيونية المضللة التى تسيطر على وسائل الاعلام فى الغرب . ولا حاجة بى الى التدليل على خطئها ، لا سيما وأن المؤلف كان موفقا كل التوفيق فى بيان خطئها وبالنسبة الى أن لقوله وزنا أكبر لعدم وجود أية عوامل تدعوه الى التحيز مع العرب .

– المعرب –

السياسية والاجتماعية الراهنة من زاوية مختلفة تماما . علينا أولا وقبل كل شيء ان نرى ما اذا كان المجتمع العربى اليوم يشبه فى أى صورة من الصور فى تركيبه أو قواعده المجتمع الغربى الذى تنفذ فيه مفاهيمنا الديموقراطية . ومن المفروغ منه وان لم يكن كذلك فعلا فى الغرب حتى الآن ان على الغرب اذا أراد الحكم على أى مجتمع عربى أو أفريقى آسيوى على أسس المفاهيم الغربية ، أن يرى أولا وقبل كل شيء أن هناك قواعد متشابهة بين هذين المجتمعين .

علينا أولا أن نبرز وجود عدة صراعات فى المجتمع العربى نجمت عن تأثيرات الحضارة الغربية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ولم تحل بعد فقد فصلت الدنيا المسيحية بشكل رسمى بين السلطتين الدينية والزمنية . وقد انتقلت مسئوليات الفرد الاجتماعية ودوره فى المجتمع الذى ينتمى اليه بصورة متدرجة الى رمز زمنى أو علمانى دائم التطور والانتشار اتخذ شكل الدولة القومية والحكومة الوطنية وجدير بنا أن نلاحظ هنا تحقيقا لهدفنا من هذا التحليل الذى نقوم به الان ، ان الحكومة الوطنية فى الدولة القومية هى ثمرة هذه العملية التطورية لا بدايتها .

ولم تقع فى المجتمع الاسلامى ولا فى المجتمعات الآفريقية الاسيوية الى حدما عملية مماثلة من هذا النوع . وفى وسعنا ان نرسم صورة المجتمع العربى – الاسلامى على النحو الذى كان فيه قبل أن يتاثر باشعاعات الغرب فى القرن التاسع عشر على النحو التالى :

« ١ – كان الفرد فى هذا المجتمع يعى تمام الوعى أنه عضو فى الأمة او فى المجتمع الاسلامى الذى ينظم شريعته طريقه سلوكه ، كما تحدد له الخطأ والصواب ، طبعا لعمق عقيدته ، ولتقبله أحكام العلماء . ولا يختلف هذا التعريف بالنسبة الى المجتمعات المسيحية المستقلة استقلالا ذاتيا والموجودة فى الوطن العربى .

« ٢ – ظل نشاط الفرد فى المجالات السياسية والاقتصادية محصورا فى حدود جماعته الاجتماعية المباشرة والجهة التى ينتمى اليها سواء أكانت قبيلة تعيش فى الصحراء ، أم جماعة تعمل فى الزراعة ولكنها منظمة قبليا ، أو نقابه مهنية مدينية ، أو اتحاد أو اخوة صوفية .

« ٣ – وبدت السلطة المركزية او سلطة « الدولة » كمنظمة ازدواجية تجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، وتتولى المهام العسكرية والسياسية والاقتصادية المشتركة للامبراطورية العربية الاسلامية . وظلت هذه السلطة المركزية المستودع الأمين للاسلام . ولكن لما كان الاسلام لم يحل مشكلة « الخلافة » حلا واضحا ، فان « الدولة » غدت فريسة للمنازعات بين السلالات المتنافسة . وقد تعرض زعماء المسلمين الدينيون لهذا الصراع مما أدى الى أنهم باتوا غير قادرين على فرض سلطة سياسية مركزية . كما لم يستطيعوا عزل ونفسهم عنه لخلق طبقة وراثية حاكمة ، ولم يجدوا من يرغمهم على عزل أنفسهم عنه أو على حل الخلافات العقائدية بالنسبة الى الامة كلها

« ٤ ـ وهبطت منزلة الزعامات الدينية فى ظل السيادة العثمانية التى بدأت فى القرن التاسع عشر الى القيام بدور الوساطة بين السلطة السياسية للامبراطورية القائمة فى أيدى الخلفاء المسلمين ، وبين التوترات الداخلية التى تخلفها الشيع المختلفة . وتدهورت قيمة الجماعات الصوفية . وسار الحكم فى الولايات العربية العثمانيه على أسس اقطاعية قريبا ، ولم يندمج اهلها لا سياسيا ولا اقتصاديا فى اى كيان للدولة الامبراطورية .

« ٥ ـ وهكذا حرم الفرد من أى رمز حافز له يقوم على رأس مجتمعه الدينى وظلت الدوله التى كان عليه يدين لسلطانها الزمنى بالولاء أو كان عليه أن يثور عليها اذا لم يكن راضيا عنها تحمل فى نظره طابع الطغيان وتقع بعيدة عنه فى أعمالها السياسية ـ الاقتصادية وظلت هذه السلطة فى شكلها الخلافى البعيد غير العربى فى القسطنطينية ، تمثل له رمزا يحيره ويذهله .

كانت هذه هى الاسس الاجتماعية القائمة ، عندما القت المفاهيم الغربية عن الدولة القومية العثمانية ، بما فيها من حكم منظم ومن تقدم ومن عقيدة عن الشخصية القومية ، بثقلها على جمهرة من الفئة العربية المثقفة فى القرن التاسع عشر . وهنا لابد من التحديد والايضاح ، فبينما قام عثمانيو القرن التاسع عشر ، وأسرة محمد على فى مصر ، باقتباس خصائص الدولة الحديثة الاجرائية والتكوينية ، وراحت أقلية من المفكرين المثقفين تبحث عن الطريقة اللازمة لاقتباس ما وراء هذه الدولة العقائدية ، هى مفهوم القومية . ولكن الجماهير الطاغية من العرب ظلت تعيش فى أوضاع من الشك والعجز والفقر ، وفى حالة من الخواء الاجتماعى العميق ، بعيدا فى الريف . وظلت العقيدة الدينية متراخية فى استجابتها للاثار الغربية العقلية . واذا كانت بعض تعاليم المصلحين العظام الحديثة الداعية للتجديد والبحث قد توصلت الى التأثير على جماهير العرب المسلمين ، فان وصولها لم يتم على الطريقة التى يعرفها الغرب عن تعاليم الكنيسة اذ لا نظام يشبه النظام الكهنوتى فى الاسلام . ولكن هذه التعاليم لم تخلق أية روابط اجتماعية جديدة لملء الفراغ . واحتفظ العلماء المحليون بسلطانهم رغم هذا التجديد فى التعاليم .

واذا شئنا التعميم قلنا ان مفهوم الدولة القومية وأعمالها وصل الى المجتمع العربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين عن طريقة القمة فى هرمه الاجتماعى . ويمكن القول أيضا بالنسبة الى المدى الذى يقوم فيه تنظيم اقتصادى مركزى ، أن هذا المفهوم من الناحية الاقتصادية قد فرض أيضا فرضا على المجتمع من عل . وهكذا يتضح الفرق بين هذا الوضع وبين تطور المجتمع الديموقراطى العربى الحديث فى نواح عدة . ولعل أبرز مثل على ذلك هو أن حكومة الدولة القومية قد أقيمت فى المجتمع العربى ، دون أن يكون لها تقاليد حية من الحكومات الذاتية . المحلية ، وان نظام الحكومة المركزية قد نشأ دون أى نمو يصاحبه فى هيئات الحكم المحلى ، البلدية والقروية ، ولا نستطيع الغلو

فى تأكيد هذه النقطة ، ففى نظم الحكم التى عرفها الوطن العربى فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان الحكام الذين تعينهم الحكومة المركزيه أو المجالس التى تختار هى اعضاءها من النبلاء الاثرياء يقومون بالاعمال الادارية التى يتوجب اجراؤها على المستويات المحليه، كما يقوم بها أيضا موظفو الحكومة المركزيه وشرطتها وعسكريوها ، والشيوخ أو كبار الملاك الذين تنتدبهم هى . ولم يكن هناك عند العرب ما يماثل المجالس البلدية او القروية الانكليزية التى عرفت منذ قرون أو الهيئات البلدية الامريكية .

ووسعت الدولة من نفوذها مع تطور التنظيم السياسى والاقتصادى والتعليمى . ولكن البرلمانات التى خلقت مع هذا التطور ظلت تضم « ممثلين » عن الاغلبية الساحقة من أبناء الريف العربى . ينتمون الى الطبقات التقليديه من صاحبات السلطة أو من محدثى النعمه من أرباب المال والتجارة . وكان جل هؤلاء فى مصر مثلا من كبار ملاكى الارض والتجار ، وكبار أرباب الصناعه المحدثين . اما فى العراق ، فقد سيطرت على برلماناته المتعاقبة ، طبقة شيوخ القبائل ، الذين وسعت سلطاتهم ضمن اطارات التشريعات ـ الاقتصادية الجديدة التى ضمنت توزيع أراضى الدولة عليهم . وكانوا يعودون من بغداد بعد انتهاء الدورات البرلمانية الى مناطقهم فى الارياف . وهى المناطق التى يحكمونها كشيوخ قبليين وكنبلاء اقطاعيين ، ولا يمثلونها تمثيلا صحيحا . ولم تكن الحكومه المركزية التنفيذية لتصل الى أوساط جماهير أهل الريف ، الا على شكل مراسيم وأوامر وغرامات وضرائب . ولم يكن من السهل فى مثل هذه الاوضاع أن يجتذب المزارع العربى الى اسهام ذاتى الشعور فى هيكل اجتماعى ، يزيد عن القرية التى يعيش فيها المجتمع البدوى الذى ينتمى اليه . اذا قدر للتعليم المجانى أن يصل اليه ، وحدث عرضا أن تضمن هذا التعليم القواعد الاساسية فى مسؤوليات التربية الوطنية وتبعاتها . فان هذا القروى لا يجد فى محيطه المباشر اى تنظيم سياسى يستطيع عن طريقه تطبيق ماتعلمه من أفكار . واذا حدث وتسربت اليه أفكار الخلاص من الفقر ومن الدين ، وقد تسربت فعلا ، فانه يجد نفسه لايزال محروما من التنظيم الاقتصادى والطبقى الذى يستطيع عن طريقه التعبير عن مطالبه .

وفى هذا التركيب الاجتماعى ، قامت بين طبقتى الشعب السائدة الحاكمة ، والمسودة الفقيرة ، طبقة من الاقلية التى أخذ عددها فى النمو ، تضم المثقفين الذين نميل نحن فى الغرب الى تسميتهم بالطبقة الوسطى على الرغم من ان هذا الابراز للتجربة الغربية قد ينطوى على شىء من التضليل . وقد انتشرت بين هذه الطبقة انتشارا ينطوى على القلق ونفاد الصبر ، مفاهيم العدالة الاجتاعية والاقتصادية الحديثة المقتبسة من الغرب ، ومفاهيم الديموقراطية البرلمانية الصحيحة . ويمكن للانسان أن يقول أن تسعة أشعار الشبان والشابات العرب ، الذين ولدوا بين عامى ١٩١٠ و ١٩٣٠ والذين هيأت لهم الظروف الحصول على تعليم ثانوى أو تعليم عال ، قد تشبعوا بالمبادىء الغربية العامة عن الديموقراطية السياسية والاجتماعية . وعلى ضوء هذه الحقائق يتبين

إن الضباط الاحرار من أبناء هذه الاجيال الذين قاموا بثوراتهم ، انما كانوا يحملون نفس الافكار التى يحملها أبناء جيلهم من المثقفين المدنيين ، وقد بينا من قبل أن الافتراضات الغربية . عن انهم يمثلون طبقة « فاشيه » عسكريه ، خاطئه كل الخطأ ، على ضوء هذه الحقائق التى التى اوردتها .

ولم يكن عبد الناصر ، نسيجا وحده فى هذا الموضوع . فلقد كان فى عام ١٩٥٢ ، المدافع الاول بين اخوانه الضباط الاحرار ، عن الرأى القائل باعادة الديموقراطيه البرلمانية فورا . وعندما رفض اخوانه الضباط من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى نهاية يوليو عام ١٩٥٢ ، اعادة السلطان الى البرلمان . انسحب الرئيس من المجلس اذ كانت نتيجة لاقتراع سبعة مقابل واحد . وراح زملاؤه يفكرون فى اليومين التاليين فيما يفعلونه ، وما فتئوا أن استدعوه وأعلنوه بموافقتهم له على ما يراه .. واقترح عبد الناصر تكليف حزب الوفد بالحكم مقابل شرط واحد وهو أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، فرفض الوفد هذا الشرط . وهكذا أحس عبد الناصر لاول مرة بخيبة الامل ، ومضى مجلس الثورة يصدر قانونا بمرسوم ينص على الاصلاح الزراعى ، فى مطلع شهر أغسطس كما أصدر قرارا اخر بالشروع فى التحقيقات اللازمة حول نزاهة الحكم فى جميع الاحزاب السياسية .

ولكن عبد الناصر واخوانه لم يكونوا يفكرون بالاحتفاظ بالحكم السياسى بصورة دائمة . وكانوا يعتقدون أن البلاد بحاجة قبل كل شىء الى ازالة ماللملكية من ثروة خاصة وسلطان ، والى ازالة ما للاقطاعيين والتجار الفاسدين من نفوذ ، والى فرض الاصلاح الزراعى وتوزيع الارض على مستحقيها . وكانوا يتوقعون أنه بعد تنفيذ هذه الخطوات الاصلاحية الجديدة ستقوم فئات من الساسة المدنيين من غير ذوى المصالح الذاتيه ومن ذوى العقول الاصلاحيه النيرة بممارسه الحكم البرلمانى .

وكان ايمانهم بما فى الديموقراطية الحزبية من صلاح طبيعى للعمل . لا يزال قويا الى الحد الذى دفعهم الى الاعتقاد بأن دورهم لا يعدو تطهير مجتمعهم الفاسد مما فيه من أدران وجراثيم . وكان الرئيس عبد الناصر لا يزال يقول علنا وجهارا فى عام ١٩٥٤ ، طبقا لايمانه الشخصى ... فى كتابه فلسفة الثورة ..

« وأما دورنا فهو دور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص .. الحراس لمدة معينة بالذات موثوقة بأجل » .

ووصف مهمة الضباط الاحرار بأنها تجميع « قافلة هاجمها اللصوص وقطاع الطرق ، فتفرقت ، ومضت كل جماعة منها فى طريق ثم قال ...

« وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير » .

واعتقد الفريق أيوب خان فى الباكستان عام ١٩٥٨ ، أن فى وسع

الجيش أن يترك الحكم لجهاز الموظفين ، ولكن سرعان ما تبين له أن الفساد قد استشرى أيضا بين الموظفين الى حد كبير . وفى مصر بدأ عبد الناصر ورفاقه يتساءلون يوما بعد اخر ، عن الطريقه التى يمكن بها أن يعود الحكم الى أيدى المدنيين . وقد نما الشك فى امكان تحقيق ذلك فى غضون مرحلتين ، أولاهما مرحلة الشك المتزايد فى امكان العثور على قوة سياسية : متحدة ومستقرة ومتحررة الى حد معقول من المصالح الاقتصادية الخاصة ، وغير خاضعة لسيطرة الاخوان المسلمين أو الشيوعيين . أما المرحلة الثانية ، فقد وقعت فى مطلع عام ١٩٥٧ ، عندما بدأ الشك فى امكان تطبيق الديموقراطية الحزبية على النظام الغربى فى مصر تطبيقا أصيلا يضمن تمثيل جماهير الفلاحين التى تنقذ سبعين فى المائة من السكان وتضمن خلاصهم من الاستغلال .

وقبل أن ننتقل الى حث ماتنطوى عليه هذه الشكوك من مغاز سياسيه خطيره . أرى لزاما علينا أن ندون بعض المشكلات الاجتماعية ، والاقتصاديةالتى تواجه الراغبين فىأن يغدوا من الاشتراكيين الديموقراطيين فى الوطن العربى . ومن بين الاتجاهات التى كثيرا ما أوغرت صدور الاشتراكيين الغربيين قيام دعاة الاصلاح من الافريقيين الاسيويين باغداق الوعود بأنهم عندما يصلون الى الحكم سيقومون باعادة توزيع الثروات والاراضى ، فاذا ما وصلوا اليه فشلوا فى توزيع شىء ، أو اذا ما قاموا بتنفيذ أية اصلاحات فانها تكون من النوع المعتدل ، الذى يشير الى ميولهم فى اثارة حماسة الجماهير بدلا من أن يشير الى عقيدة راسخه لديهم . فهم لا يقدمون على أى اصلاح زراعى الا من النوع الجزئى ، ولا يكادون يمسون أنظمة الضرائب التى وجدوها عند وصولهم الى الحكم . ويبدو هؤلاءالمصلحون خائفين أو غير راغبين فى سن أية قوانين تمس الطبقات الثرية من أبناء المدن ، لمنفعة الجماهير . وقد حافظت الطبقة الوسطى فى المدن على مستوى معيشتها المرتفع نسبيا ، وبدت قادرة على المضى فى استهلاك السلع الكماليه التى تستخدمها الطبقات العالية والتى يجب استيرادها مبددة فى ذلك الارصدة الثمينة من النقد الاجنبى .

وتقوم وراء هذه الايماءات ، مشاكل عميقة ، تشير بوضوح أيضا الى الفروق الجوهرية الهائلة القائمة بين الاوضاع الاسيوية – الافريقية والاوضاع العربية . وظهرت الحركات الاصلاحية والعهود الثورية فى هذه البلاد تحمل طابع « الطبقات الوسطى » ، اذ أن القائمين عليها ، كانوا يجدون استحالة فى أداء أى من الخطوات البارزة التى يعتبرها الاشتراكى الغربى ضرورة أوتوماتيكية رتيبة بالنيابة عن جماهير الطبقة العاملة « البروليتارية » . واذا ظلت الاسباب التى تقوم وراء هذه المواقف غير مفهومة ، فان الحوار الدائم بين الانسان الغربى والانسان الافريقى – الاسيوى يظل مفتقرا الى الواقعية .

فالطبقة العمالية العربية ، التى تؤلف خمسة وسبعين فى المائة أو يزيد من مجموع سكان البلاد ، ليست طبقة من أهل المدن أو من الفئات المثقفة أو المنظمة أو التى تعمل فى الصناعة . انها طبقة ريفية تعمل فى

الزراعة جاهلة لا تعرف القراءة والكتابة ، محدودة فى آفاقها السياسية والاجتماعية (١) وقد أخذ تكوينها الاجتماعى القديم فى الانهيار ، ولكن لم يقم حتى الآن أى بنيان دينامى جديد يحل محل البنيان القديم · وما زال الفلاح يعيش فى حالة من الجمود فى ذلك الخواء الاجتماعى الذى نجم عن أوضاع التأثيرات الغربية السابقة والتى شرحتها فى فصل سابق · ولقد باب الفلاح على وعى متزايد بامكان التبدل ، وبان ليس من الضرورى أن يموت الاطفال الرضع ،وان فى الامكان القيام باجراءات غريبة فى الحقل الزراعى لزيادة المحصول· ولكنه لا يملك من العلم ومن التقنية ، حتى فى أبسط اشكالها ما يضمن له القيام بالاصلاح اللازم بنفسه · وهو مدرك أيضا بشىء من الاعتزاز وبكثير من الحماسة للنظرية القومية بمفاهيمها الواسعة ، عن وجوب الخلاص من المحتل الاجنبى · ولكن مفهومه عن دوره لا يتعدى ، وهذا امر مهم بل فى غاية الاهمية ، حدود التابع للبطل ، وهذا البطل هو جمال عبد الناصر· ولكنه لا يستطيع من الناحيه الايجابية ومن ناحية التفهم ، أن يربط بين بطله « جمال » وبين المفهوم الواقعى عن « حكومة الدولة القومية التى يعتبر نفسه مواطنا فيها عليه واجباته وله حقوقه » · فعلى النقيض من ذلك، يميل الفلاح فى هذه المرحلة الحالية من مراحل تطوره الاجتماعى ، الى مقاومة الفكرة القائلة بأن « بطله » هو « الحكومة » لان الحكومة تحمل الى ذهنه ذكريات ذلك الرجل الذى يصل الى قريته ليصدر الاوامر ويفرض الغرامات ويجبى الضرائب والاتاوات · ولم تكن للفلاح أيضا تنظيمات سياسية أو اقتصادية ، ولا يحمل فراغه الاجتماعى أيا من هذه النواحى ، ولم تعمل الاحزاب القديمة على تشجيع اقامة الخلايا القروية عنده ، لان السلطات المحلية التقيدية عنده من شيوخ وعمد وعلماء تعارض وجودها .

واذا كان هذا أحد الفروق الجوهرية بين الوضع هناك وبين العناصر الجذرية فى الديموقراطية الاشتراكية الغربية ، فان هناك فروقا أخرى أيضا · ويعتمد العمل فى مجتمع الدولة العربية ، فى حالة وجود أى تنظيم فيه على الاقلية المثقفة التى نسميها بالطبقة الوسطى والتى يود مناضلوها الشبان سواء أكانوا من المدنيين أم العسكريين أن ينفذوا الديموقراطية الاشتراكية فى بلادهم · وقد ألفت غالبية هذه الفئة طرازا معينا من الحياة ذا مستوى خاص ، وهم على أى حال من البشر · ويكتفى المصلح بنزع ملكية الثروة الأرضية من الفئة المختارة القديمة ، لكن هذا الاجراء يثير المشكلة الحقيقية ، التى تتلخص فى سؤال واحد ، وهو الى أى حد متطرف يمكن تغيير نظام فى مثل المجتمع الذى يبرز فيه الثراء الصارخ المفرط ؟ وما هى يا ترى الاجراءات المعقولة ، والاجراءات التى يمكن تنفيذها ؟

---

(١) لعل الاستثناء الوحيد الظاهر لهذا الوضع يقوم فى تونس ، حيث توصلت خلايا حزب الدستور الجديد الذى أقامه أبو رقيبه الى فئات الطبقة العمالية فى كل قرية · ولكن هناك عاملا خاصا سرعان ما يبرز ، وهو أن ثلث السكان من أهل المدن وأن التنظيم النقابى متقدم تقدما غير عادى ·

واذا كانت ادارة البلاد كلها تتركز فى أيدى قلة صغيرة تعودت أن تعيش فى مستوى أرفع من ذاك الذى تعيش فيه الكثرة ، فهل تؤدى الارباح الناجمة عن اعادة توزيع شىء من ثرواتهم الى موازنة الخسائر ، وقد تطلب هذا النوع من الثروة الاشتراكية على أى حال حيوية متحمسة من بلاد جديدة طليعية لا من مجتمعات قديمة تؤلفها التقاليد وتربطها . واذا كان من الصعب توليد هذا الطراز من الروحية بين الجماهير ، فهل من الحكمة أن نهدم ذلك الطراز من الروحية، التى تسيطر على الاقلية ؟ ولكن هل يمكن الابقاء على ثروتها الكبيرة نسبيا سليمة لا تمس ، لا فى حدود الحاجات المالية ولا فى حدود السخط الشعبى المتزايد ؟

هذه هى بعض المشاكل القاسية التى كانت تقف وراء القرارات الخطيرة، التى اتخذتها حكومة عبد الناصر، فى البرامج الاشتراكية العربية والتى أعلنها عام ١٩٦١ ، ولا ريب فى أن مشاكل مماثلة لها تواجه كل حكومة افريقية آسيوية . ولا ريب فى أن الحد الاعلى للدخل الذى حدد بخمسة آلاف جنيه فى بلد كمصر – التى لا يتعدى متوسط الدخل الفردى فيها الخمسين جنيها فى السنة – يعتبر مبلغا ضخما ، ومع ذلك فان تقبله يتطلب ثورة نفسية فى أوساط أقلية « الطبقة الوسطى »· واذا ما أخذنا بعين الاعتبار مشكلة تزايد السكان فى البلاد بشكل ضخم، مع بقاء الارض محددة لا تزيد ، فان تخفيض الحد الاعلى لملكية الارض من مائتى فدان الى مائة فدان يبدو شيئا حتميا ، ومع ذلك فان الاقلية من الطبقة الثرية قد لا ترضى به .

وأخذ قادة الشعوب الافريقية – الاسيوية المناضلون ، يواجهون بصورة متزايدة ، موضوع ما اذا كانت الاصلاحات التى هى من هذا النوع يمكن أن تصدر على شكل قوانين تقرها برلمانات ، تسيطر عليها « الطبقات الوسطى » . ولكن المشكلة لم تكن أهون بالنسبة الى أى حكم مركزى ، وكان على عبد الناصر أن يتكل على هذه الطبقة تماما كما يتكل عليها نهرو فى الهند . وكانت المشكلة بالنسبة الى الحكمين ، فى موضوع اعادة توزيع الارض هى : هل يمكن العثور على عدد كاف من رجال الشرطة النزيهين، الذين يستطيعون تنفيذ مثل هذه الاجراءات ؟

وعدم النزاهة تعبير لا معنى له تقريبا فى الاوضاع التى يسودها الفقر المدقع ، ولقد كان يسود الغرب فى يوم ما· وقد تشتد هذه الظاهرة فى المجتمعات التى يرتفع فيها عدد أفراد الاسرة الواحدة الى المئات ، اذ ان الالتزامات العائلية على الذين لديهم شىء ما بالنسبة الى أولئك الذين لا يملكون شيئا تكون كبيرة، ومن هنا يشتد الضغط على موضوع النزاهة الى حد مخيف . فالموظف ينشأ على التقليد القائل بأن عليه أن يؤمن القوت للفقراء من أبناء عمومته . فاذا وجدت وظيفة خالية ، فكر أول ما فكر فى اعطائها الى ابن عم له دون أن يكون للكفاية أى وزن . ومن هنا ينشأ الضعف فى الجهاز الادارى من ناحية ، ويكون التجاهل للقانون كجهاز للخير العام من الناحية الاخرى .

وليست هذه الا بعض الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى حفزت

على اثارة الكثير من الشكوك فى الدنيا الافريقية الآسيوية فيما اذا كانت الديموقراطية السياسية الغربية التى تقوم على نظام الاحزاب صالحة على الاطلاق لهذه البلاد • ولا تكون هذه « البدع التوظيفية » على حد ما يوجهه أى مفكر غربى حر أو مثقف افريقى ـ آسيوى ثقافة غربية ، من تسمية لهذا الوضع • شيئا يعتبر فسادا، أو حكما متسلطا فى أى بلد من البلاد، فهى ترتكز من ناحية على الاشكال السياسية الغربية الصورية ، ومن الناحية الاخرى ، على الجهد المضنى فى المحاولات الواقعية لايجاد مجتمعات أفرو ـ آسيوية تتوافر فيها العناصر الاولية التى ترتكز عليها الديمقراطية الغربية نفسها، وقد يؤدى الشك بالطبع الى اتاحة الفرص لبعض المصابين بالعظام من الافراد ، للتعبير فى السياسات العامة التى يتبنونها ، عن الافتراض ، بأن فى وسعهم أن يحكموا ويقودوا بشكل افضل بسبب الافتقار الى نظام أخير • ولكننى أرى أنه من الخطأ بالنسبة الى الغرب أن نعتبر كل من يحمل هذا الرأى فى الدنيا الافريقية ،الاسيوية ، مصابا بشهوة الحكم • فأنا اعتقد أن مثل هذا التفكير يصدر أيضا وبصورة طاغية عن قادة يؤمنون ايمانا قاطعا بأن الحكومة يجب أن « تنبثق من الشعب » وأن يتولاها « رجال من الشعب » لتعمل فى سبيل « خير الشعب » ، ولكنهم لا يجدون فى الاوضاع الاجتماعية الراهنة فى بلادهم ، أى وجه شبه مع المجتمع الغربى ،الذى نبتت فيه هذه العقيدة مصورة فى منظمات تنبض بالحيوية •

وأرى لزاما على قبل أن نعرض ما فى هذا القول من شرعية على محك التجربة ، أن ندون عاملا آخر فى الوطن العربى ، وهو عامل الضغط الاجنبى والتصادم بين سياسات القوة وبين التطلع العربى للاصلاح الاجتماعى. ولم تمر سنة واحدة طيلة الاربعين سنة الماضية ، لم تتعرض فيها أى بلاد عربية ، للمناورات التى تقوم بها دولة أو أكثر من الدول الكبرى ، عن طريق ذوى المكانة العالية فى تلك البلاد أو عن طريق مجموعات من الساسة من ذوى النفوذ أو الاحزاب السياسية • ولقد لاحظنا من قبل أن الضغط الغربى كان أكثر مباشرة ، ويتخذ أشكالا تتراوح بين الضغط الاقتصادى، وبين الدبلوماسية التى تفرضها « البوارج الحربية » ، فالهجوم المباشر الواضح • وأنا لا أرى أن هناك جزءا آخر من الدنيا الافريقية ـ الاسيوية قد تعرض لمثل هذا الضغط الخارجى المستمر الذى تعرضت له أرجاء الوطن العربى • وسواء أكان هذا الضغط فى أى وقت من الاوقات واقعيا أم خياليا ، وسواء أكان أحيانا وسيلة لتبرير الحكم الفردى ، فان الحقيقة الواقعة تظل ماثلة ، وهى أن مثل هذا الضغط الخارجى وحده سبب كاف ليجعل قيام الديموقراطية الحية الاصلية أمرا يشبه الاعجوبة أو المعجزة • وقد بات الاتحاد السوفياتى الآن يمارس هذا الضغط ممارسة كاملة • وبات لزاما على الدول الغربية الكبرى الثلاث أن تضع سياسات واضحة تجاه المنطقة وأن تقيم علاقاتها معها على أسس غير الضغط والتآمر والتناور ، والا فان الغرب نفسه سيسهم اسهاما فعالا فى قيام أشكال الحكم الفردى التى يشكو هو من وجودها •

وهناك أسباب جوهرية أخرى تبعث على هذا الشك فى الديموقراطية

القائمة على نظام الاحزاب • فالنظام البرلمانى المستند الى الانتخابات التى تجرى من حين الى حين يفترض وجود المستلزمات التالية :

١ ـ أن تكون هناك أغلبية من المقترعين قادرة على تقرير مواقفها فى السياسات القومية المختلفة التى تعرضها الاحزاب السياسية على ناخبيها بعد استثناء القواعد الثلاث التى تتفق عليها جميع الاحزاب وهى التحرر الوطنى والحياد والوحدة .

لكن التجارب الماضية وحتى النقدات المنبثقة عن العطف، على الاوضاع الاجتماعية الراهنة والمستويات التعليمية بالنسبة لجماهير الفلاحين العرب ، لا توحى بأن هذا الوضع متوافر وقائم •

٢ ـ أن تؤلف الاحزاب السياسية على أساس التقاليد السائدة بوجه عام ، والفروق القائمة فى الدخل والطبقة ، والتباينات الواضحة بين السياسات الوطنية المنبعثة من هذه الموارد •

ولكن ليست هناك تقاليد حزبيه سياسية فى الوطن العربى تشبه من قريب او بعيد تقاليد المحافظين والعمال فى بريطانيا أو تقاليد الجمهوريين والديموقراطيين فى الولايات المتحدة . وليس ثمة شك فى أن الاحزاب التى تقوم على الاسس الطبقية العربية الراهنة ، تكون ممثلة ، كما يفترض للطبقة الفقيرة التى تؤلف جماهير الشعب من ناحية والطبقة الوسطى الصغيرة من الناحية الثانية، وهما طبقتان تتصارعان وتتصادمان طبقيا فى موضوع الفقر القومى • والخلاف فى السياسات بالنسبة الى المرحلة الراهنة من التطور الاقتصادى، ضئيل جدا الى الحد الذى يجعل من الاحزاب السياسية فى الدنيا الافريقية ـ الآسيوية، اذا استثنينا البعض منها، غير ممثلة فى الواقع لاية قضايا تتطلب من المقترعين أن يختاروا •

٣ ـ أن يقوم هناك توازن كاف فى السلطان الاقتصادى والفرص ، والدينامية الاجتماعية ، والقيادة السياسية النيرة ،بين مختلف قطاعات الناخبين ، بحيث تدور المنافسات الطبيعية على الحكم ، الذى تقضى به الديموقراطية الحزبية فى جو من احترام القانون ، وتفوق رأى الاغلبية فى الاقتراع • وحرية الاجتماع والدعاية الانتخابية •

ولكن ما يتميز به الفلاحون العرب من جمود وأمية وخواء اجتماعى ، وما يظهر منهم من اندفاع فى تيار انتقال الفائض من العمال الى المدن والبلدان الصغيرة ، مشاكل تجعل من العسير وجود هذا التوازن بين عشية وضحاها • وينتج عن هذا أن تكون الاقلية الصغيرة المثقفة هى التى تتولى تاليف الاحزاب السياسية العربية وتوجيهها وقيادتها والتأثير عليها الى حد كبير جدا فى الدعايات الانتخابية •

٤ ـ أن توزع أعمال الرأى التمثيلى فى الحاجات الملموسة والقضايا العامة ، عن طريق التدرج فى جهاز الدولة القومية ، وهذا يعنى أن يقوم التوازن بين الجهاز الممثل للبلاد على صعيدها العام فى مناقشاته وتقرير سياسته وبين أنظمة الحكم المحلى الممثلة فى البلاد والمجالس القروية .

ولكن سبق لى أن قلت ان دساتير البلاد العربية ومنظمات القومية ، قد صيغت لأوضاع مجتمعات عربية لا تقاليد لها فى الحكم الدستورى، ولم يسبق لها أن مارست أنظمة الحكم المحلى الذاتى .

هذه أربعة من المستلزمات الجوهرية التى تتطلبها الديموقراطية الغربية الحزبية لتكون قواعد لها ووسائل لتطبيقها . واذا ما طبقنا هذه المستلزمات على الاوضاع فى الوطن العربى فى ظروفه الراهنة ، تبين لنا خطل ما فى الافتراض بأن « الديموقراطية » على النحو الذى يفهمه الغرب، يمكن أن تعيش وتزدهر بين العرب، وقد قام المؤلف بتعميم هذه المشاكل فى البنود السابقة ، وان كانت قوتها وضعفها تختلفان بين بلد وآخر . ولكن هذه هى الوقائع ، بكل تأكيد ، التى حاول الغربيون أن يعرضوا عن طريقها اعتقادهم المتحمس بأن هذا الشكل من أشكال الديموقراطية يمكن تحقيقه بوجه عام .

ويصل المفكرون العرب ، ومعهم معظم المفكرين الافريقيين ـ الآسيويين شيئا فشيئا الى استنتاج جوهرى ، وهو أن حكومات الاحزاب السياسية كانت ولا تزال وستظل « ديموقراطية زائفة » حتى تتوافر للمجاهير العربية الحوافز والوشائج العقائدية اللازمة التى تربطها بفكرة الدولة القومية ، وحتى تتهيأ لها سبل التعليم والسلطان الاقتصادى التى تمكنها من الشروع فى تمثيل نفسها . وهم يشعرون ، أنه ما لم تتوافر هذه الشروط فان حكومات الاحزاب السياسية تخلق خطر البطء فى تنفيذ الاصلاحات الاساسية ، كما تخلق العقبات فى طريق برامج الانماء والتطور ، التى لا يتناولها على أى حال ، أى مجال أساسى للخيار ، وتسبب أوضاع المحسوبية فى الحصول على الوظائف والدعايات الانتخابية على أسس رجعية من قبلية أو طائفية ، أو ما شابه ذلك . وعن طريق وجوه البلاد المحليين المعترف بهم كالاقطاعيين والشيوخ والعلماء الذين تتعارض مصالحهم تمام التعارض مع تحرر الفلاح من الرق والجهل .

وتنشق عن هذه الشكوك ثلاث فكر ايجابية تهدف الى خلق «طريق رابعة» بالاضافة الى الطرق الثلاث المعروفة ، وهى الديموقراطية الغربية ، والجماعية الدكتاتورية ، والشيوعية . أما الفكرة الاولى فتقول : أن العيوب الثابتة التى نجمت عن وضع السلطة التنفيذية (الوزارة) تحت رحمة البرلمان القائم على الاساس الحزبى ، قد أدت ـ مع ما يصاحبها من الاتجاه القومى للعثور على القيادة القومية الملهمة فى أوساط الجماهير ـ الى النزعة الى قيام سلطة تنفيذية ينتخبها الشعب لفترة مقررة ، ولا تكون للبرلمان السلطة على الاطاحة بها . ولا ريب فى أن هذا الاتجاه هو الذى يسيطر على جميع البلاد التى تمزقت فيها أحزاب التحرر الوطنى بعد الاستقلال ، كمصر والمغرب والباكستان وبورما واندونيسيا .

وتقضى الفكرة الثانية بالتأكيد على صرورة تأمين التمثيل المحلى
أولا لجماهير أبناء الريف عن طريق أجهزة ، يتناقشون فيها ويتحملون
مسئولياتهم ، ويتدربون فيها على الديموقراطية الصحيحة ويكتسبون
الاحساس بالاسهام كأفراد فى مجتمعات أكبر من المجتمع المباشر الذى
ينتمون اليه كالقرية أو الاسرة أو العشيرة . وقد هدف الرئيس
عبد الناصر عن طريق الاتحاد القومى « وعن طريق الاتحاد
الاشتراكى العربى الجديد) ، الذى يقوم على أساس الانتخابات الشعبية
للجان المحلية ، الى تحقيق هذه الغاية ، وقد أقر الرئيس صراحة
فى عام ١٩٦١ ، بوجود بعض الاخطاء فى هذا التنظيم التى نجمت
عن الهوة بين الحكومة المركزية والقرية ، (وهى الاخطاء التى يتوخى
الاتحاد الاشتراكى العربى اصلاحها) . وقد شرعت الباكستان مؤخرا
فى مثل هذا التنظيم الذى أطلقت عليه اسم «الديموقراطيات الأساسية» ،
ولكنه ما زال فى مراحله الاختبارية الاولى ، وقد تكلل بالنجاح .
وتمثل الفكرة الثالثة ، وهى مهمة كل الاهمية ، مابتنا نشهده فى
معظم الاقطار الافريقية الآسيوية فى بعث العقيدة الاغريقية القديمة
المتركزة فى « اجماع الرأى » . وهذه الفكرة هى التى تقبع وراء التعبير
الذى بتنا نسمعه أكثر فأكثر فى الاوساط السياسية العربية والافريقية
الآسيوية عن « الديموقراطية غير الحزبية » . ومن الامور البارزة مثلا
ان الزعيم الاشتراكى الهندى جايا براكاش نارايان ، تلميذ الفيلسوف
الهندى فينوبا بهاف ، استقبل استقبالا حارا فى الشرق الاوسط أثناء
الرحلة التى طاف بها أرجاءه . وقد قضى نارايان ـ الذى يظهر شكوكه
فى صلاح الديموقراطية الغربية الطراز للهند وقدرتها على العمل فى
أوضاعها الراهنة ـ نحوا من اثنتى عشرة ساعة فى أحاديث مع قادة
الاتحاد القومى فى مصر . وعندما عاد نارايان الى الهند ، أعلن فى تصريح
علنى أفضى به فى بومباى ، أنه يعتقد اعتقادا جازما بأن عبد الناصر ،
ديموقراطى مخلص فى ديموقراطيته . وأثارت آراء نارايان الاهتمام
الكبير فى عراق الثورة ولا سيما عند زعماء حزب الاستقلال من أمثال
صديق شنشل .
وتتلخص زبدة هذه الفكرة فى أن من الضرورى فى شعب يعتمد
تقدمه ورخاؤه ، على العمل والتضحية ، ويعيش حاليا فى وضع يائس
من الفقر ، أن يكون فى الامكان خلق « اجماع فى الرأى » على كل مستوى
من مستويات الحكم من المحلى الى القومى ، دون الحاجة الى أية احزاب
سياسية . ويشعر أصحابها أنه ليست هناك قضايا جوهرية «تجزىء»
الشعب ، وأنه لا يمكن السماح بتجزئة الشعب دون خلق الفوضى ، وأن
من الواجب العثور على وسائل جديدة ، لحشد رأيه وراء الحكومة ، عن
طريق قيام « اتحاد قومى » متحرر من المنافسات بين الاحزاب العديدة.
واذا كان الغربى يرى فى هذه الفكرة شيئا من « ديكتاتورية الحزب
الواحد » ، فان شكوكه يجب أن تكبت ، فليس من قبيل الصدفة
أن يظهر تعبير « الاتحاد القومى » شيئا فشيئا فى أسماء الاحزاب
الجديدة التى تظهر فى الدنيا الافريقية ـ الآسيوية ، وفى أحاديث
السياسة ، فى هذه الدنيا الجديدة . ويعكس هذا التعبير لهفة مخلصة
لايجاد الحيوية الجماعية وللتضحية بالذات الجماعية وللحد الجماعى

للاطماع الشخصية أو الطبقية . وهو ينشد بصورة خاصة أن تحد الاقلية المتعلمة ، الاكثر رفاهة مادية والتي يحتم أن تتولى زمام القيادة لعدة سنوات قادمة على الاقل ، من حرصها على مصالحها الشخصة وهى تطالبهم كمواطنين بأن يكونوا على استعداد للعمل ضمن منظمة سياسية شاملة الى الوقت الذى يخلص فيه مواطنوهم فى القرى من اوضاعهم الجامدة الراكدة ، ومن شقائهم ومن خوائهم الاجتماعى .

ولا ريب فى أن هذه الفكرة رائعة كل الروعة . وقد ناشد غاندى المؤتمر الهندى بعد تحقيق الاستقلال ، عبثا ودون استجابة ، أن يتبنى هذا المفهوم وأن يطبقه فى عمل من أعمال الانكار الذاتى روحيا وجماعيا . ويأمل ناريان فى أن يحقق هذا النكران للذات عن طريق صناديق الاقتراع . ويحققه بورقيبة عن طريق السلطان الجماعى القوى لحركة حزب الدستور الجديد التى حققت الاستقلال وعن طريق اخفاق أية معارضة جدية . ويمثل اتحاد تنجانيقا الافريقى الوطنى الذى أقامه جوليوس نايرى ، صورة ثانية من صور مفهوم الديموقراطية غير الحزبية وسيتعرض لمحك التجربة بصورة كاملة عما قريب . وتحاول مصر والباكستان ، حيث كان النظام الحزبى قائما ، تطبيق هذه الفكرة عن طريق القانون . فالاحزاب ممنوعة فى البلدين . وتنحصر مهمة المؤتمر العام للاتحاد القومى فى الناحية الاستشارية ، مما يضع السلطة على عاتق الهيئة التنفيذية التى يتحتم عليها أن تظهر للنواب أن انتقاداتهم تلقى التقدير والعناية دون أن تكون مبعثا لخوف الجهاز التنفيذى . ويشير تكوين الاتحاد الى احتمال النجاح . فالنواب أعضاء فى اللجان الاقليمية والمحلية ، التى تضم ممثلين عن لجان القرى والمدن . وعلى هذا يترتب أن تكون هناك طريقة سليمة فى الربط بين القضايا المحلية والقضايا العامة ، لتتمكن جماهير المواطنين من الحصول على ما هى فى حاجة اليه من فهم لدورها على جميع المستويات .

وليست هذه الطريقة الا واحدة من طرق اختبارية أساسية عدة لتحقيق الديمقراطية التى تتجاوب مع الاوضاع السائدة فى الوطن العربى . فهل يمكن لهذه الطريقة او لاية طريقة أخرى ، تقوم على أساس اللاحزبية ، أن تحقق النجاح فى عملها ؟ من الصعب علينا أن نصدر أحكاما جازمة متيسرة ، ولكن ثمة مخاطر ومتطلبات يجب ادراجها وايضاحها .

تشترك هذه الانظمة كلها فى شىء واحد ، وهو انها تؤمن شيئا جديدا لجماهير الشعب فى الوقت الذى تحد فيه من الحرية السياسية للاقلية أو ما نسميها فى الغرب بالطبقة الوسطى المثقفة ثقافة غربية . ولا يمكن للفكرة أن تسير فى طريق النجاح فى قطاعى الشعب ، الا اذا تضمن تطبيقها العملى عدة عناصر . فاذا أخذنا جماهير الشعب الجاهلة التى تمر الآن – على حد تعبير الرئيس عبد الناصر – فى مرحلة التمرس على الديموقراطية ، وهى المرحلة الجديدة والغريبة التى تتضمن اختيار المثلين ، ومناقشة السياسة ، وممارسة الحوافز الفردية ، فان هذه الفكرة لا يمكن أن تعيش ويكون لها معنى ، الا اذا كانت مترابطة مع

المشاكل التى يستطيع الفلاح فهمها ومع الامور التى تتصل بحياته
اليومية . ومن الواجب أن تظل « لجنة الاتحاد القومى » التى يشترك
هو فيها ، على اتصال دائم ، ومسئولة بشكل متزايد عن عمليات التطوير
المحلية كشق الطرق مثلا ، والعناية بالصحة القروية وبناء المدارس ،
واقامة التعاونيات الزراعية . ومن الواجب أن يكون للجان القروية
ميزانياتها الخاصة التى تتولى الانفاق منها بمشورة الخبراء المختصين .
ومن الواجب أيضا عدم توفير أى جهد لدمج كافة اجراءات التمثيل
السياسى والتنمية الاقتصادية ، والعناية بالرفاء الاجتماعى فى تجربة
متكاملة واحدة ومستمرة . فعن طريق الملموسات اليومية التى يصطدم
بها الفلاح فى حياته ، يستطيع أن يدرك المكان الذى يحتله هو ويحتله
صوته فى الحياة القومية .

أما العنصر الثانى الذى لا يقل أهمية وحيوية فى القطاع الشعبى ،
فهو السرعة التى يتحقق فيها التقدم الاجتماعى والاقتصادى . ولقد
قال لى الرئيس عبد الناصر ذات يوم ... « ان الشعب يتوقع منا أن
نقطع عصور البخار والكهرباء والزيت فى ومضة عين لنجد أنفسنا على
عتبة العصر الذرى ، وذلك لان الجماهير على الرغم من أن غالبيتها لاتقرأ
ولا تكتب الا أنها تعرف عن طريق الاذاعة ، أن هذه المعجزات ممكنة ،
وهى تريد أن نحققها فى سرعة هائلة » .. ويطلق القادة المعارضون
بصلابة للشيوعية ، من أمثال عبد الناصر – عن طريق فتح القرى العربية
أمام الحياة والفكر العصريين وأغراءاتها – قوى نفاد الصبر الجديدة من
عقالها . وما لم تسر مجالات التقدم الاقتصادى على نحو مطابق فى سرعته
لذلك التطور ، شريطة أن يكون هذا التقدم حقيقيا ومعقولا ، فان النتائج
ستكون فى منتهى الخطورة ، وقد يكون من المفارقات ، على الرغم مما فيها
من صحة ، أن احدى الدعامات المؤقتة الضخمة التى تستخدم حاجزا ضد
التحديات الشيوعية الرئيسية فى الوطن العربى ، هى العزلة الجامدة
التى تفرض على الفلاحين ، مع العلم بأن الزحف الشيوعى فى العراق ،
مثلا ، لم يتم الا فى المدن فى البداية . ولا ريب فى أن البحث عن
الديموقراطية الاصيلة ، سيسارع فى انهيار هذه الدعامات . وسيتمثل
الخط الفاصل فى المستقبل بين لجنة قروية غير شيوعية من لجان الاتحاد
القومى وبين كوميون شعبى قروى فى شق طريق جديدة ، أو فتح
عيادة قروية ، أو بناء قناة للرى فى الوقت المناسب ، أو التأخر فى القيام
بمثل هذه الخطوات اللازمة ، مما يتيح المجال لانتشار الشيوعية .

وتتطلب هذه السيولة المتزايدة فى المجتمع الريفى العربى ،
المترابطة مع مشاكل الفقر والأمية الاساسية ، المعونة الكبيرة من رءوس
الاموال الاجنبية . وما لم تفهم الدول الغربية المتقدمة حراجة هذه
المشكلة المعينة بالنسبة الى افريقية وآسيا ، فستفيق ذات يوم ،
بعد سنوات طويلة من السفسطة العقيدية فى اظهار مساوىء الافتقار
الى الديموقراطية الغربية الطراز ، ومقارنته بهذا العبث من المطبوعات
التافهة ، لنجد أن الوسيلة الممكنة الوحيدة لتحقيق مثلنا وأهدافنا ، قد
هزمت هزيمة نهائية حتى قبل أن نتفهم هذه الحقيقة . وعلى الغرب ،
والحالة هذه ، أن يقدم عونه بسرعة ووفرة ودون قيود أو شروط .

ولنستدر الآن الى قطاع الاقلية من الشعب ، لنرى أن هناك تحديات خطيرة مماثلة ومتعادلة بالنسبة الى الاصلاحيين والهراطقة الجدد من أهل البلاد الافريقية الآسيوية ، من ناحية ، والى الغرب من الناحية الاخرى . ولا يقل العربى من خريجى جامعات هارفرد وكمبردج والسوربون وبيروت والقاهرة فى عدم تفهمه للديموقراطية غير الحزبية وشكه فيها عن الليبرالى الغربى (١) . ولم يستطع دعاة هذه النظرة الاصلاحية المتطرفة حتى الآن أن يوضحوا نظريتهم هذه ايضاحا متلاحما ودقيقا وعميقا (٢) لأنها تتناقض مع كل مفهوم ومع كل سابقة فى الكتب العلمية الموثوق بها عن الديموقراطية . ومن هنا تنشأ الشكوك والفوارق العاطفية عند الفئات المثقفة التى لا تقدر وطنيا بثمن . ويعتقد الكثيرون من أبناء هذه الفئات ان القادة ، من أمثال عبد الناصر ، مخلصون كل الاخلاص ، وهم يعجبون أشد الاعجاب بتجردهم الشخصى وتطهرهم المسلكى ، وقد وقفوا يؤيدونهم طيلة الازمات الخارجية فى حقبة الخمسين . ولكن هؤلاء الشبان والشابات الذى يتلقون ايحاءهم من الثقافة الغربية قد اقتبسوا من الغرب العقيدة القائلة : أنهم بالنظر الى ثقافتهم ، وعلو كعبهم فى الادراك يستحقون أن يتحملوا المسئوليات الديموقراطية كأوصياء على اخوانهم المواطنين الأميين . وهم يتململون من أية قيود قد تفرض على نشاطهم السياسى أو الفكرى أو الصحفى . وهم ينتظرون الايضاح ، فى حدود التعابير التى يفهمونها لهذه العقائدية الجديدة التى تقوم وراء فكرة الديموقراطية غير الحزبية .

ومن هذا يبدو لى ، أن هناك اشتراطين أساسيين تماما لهذه التجربة الجديدة الخارجة على القواعد المألوفة ، يجب توافرهما ، ولم

---

(١) أعتقد أن المؤلف قد أخطأ فى تعميم هذا الحكم ، فهناك المئات بل الالوف من خريجى الجامعات التى ذكرها ، الذين باتوا يؤمنون عن اقتناع ، بأن « الديموقراطية الزائفة » التى كانت متبعة فى بعض أرجاء الوطن العربى ولا تزال متبعة فى بعض أرجائه الاخرى ، عقبة كأداء فى طريق التقدم الحضارى الصحيح ، وأن الديموقراطية الحزبية ضمن المفهوم الغربى لا تصلح لأوضاع الوطن العربى الراهنة ، لما تؤدى اليه من بقاء سيطرة طبقة واحدة هى طبقة الاقطاع ورأس المال المستغل على الحياة السياسية وبالتالى الحياة الاجتماعية فى الوطن العربى . وقد آمن هؤلاء عن اقتناع بأن الديموقراطية غير الحزبية ، التى تعمل على تمثيل جماهير الشعب كلها ، على مختلف الصعدان هى الوسيلة الصحيحة لدفع عجلة التقدم الحضارى الى الامام بسرعة تتفق مع عصر الصاروخ شريطة توافر فرص النقد والنقد الذاتى اذا كانا من الطراز البناء ، وكانا صادرين عن وعى وفهم صحيحين للمسئوليات والتبعات الوطنية .

(٢) أصدر المؤلف كتابه قبل صدور الميثاق الوطنى الذى حدد فيه سيادة الرئيس عبد الناصر بوضوح وجلاء كل هذه النقاط التى يوردها المؤلف ، فكان بذلك النهج العقيدى لهذه المفاهيم الجديدة .

ــ المعرب ــ

يتوافرا بعد . وأول هذين الاشتراطين ، أنه لما كان من المعروف ضمنا ، أن أى تنظيم حزبى أو نشاط سيحظران قانونا خارج نطاق « الاتحاد القومى » ، فان من الضرورى خلق جو من الحرية والتحرر الفكرى فى الصحافة والطباعة والمناقشة والنشر ، يتيح للمثقفين العرب ، الحافز والمجال لبيان ما لديهم من أفكار بناءة . ولن يكون فى امكان أى قدر من النيات على تحقيق الديموقراطية أخيرا ، أو أى قدر من اعلان هذه النيات ، أن يخلص حكومات « الانتقال » من الاقدام على خلق تجمد فكرى عن طريق الرقابة والخطر ، ومن الواجب ألا يعتبر هذا « الجو من الحرية » امتيازا أو تساهلا . فعلى القادة من أمثال عبد الناصر وعبود وبورقيبة وأيوب خان وغيرهم ان يتبينوا أن الحيوية الفكرية عند الاقلية المثقفة هى رأسمال ضخم . فهى كنز لا يقدر بثمن ولا تقل خطورة كبتها مهما خلصت النيات عن خطورة السماح بالصراع الحزبى الفوضوى غير المقيد . ولكن على الغربيين ألا يقللوا من صعوبات تأمين هذه « الاجواء الحرة » فى الاوضاع العربية الراهنة ، حيث لايزال القادة العرب يواجهون مشاكل ضخمة كمشكلة الصراع لتحقيق الوحدة العربية ، ومشكلة مواجهة التحدى الدينامى الجديد للشيوعية . ومع ذلك لايستطيع أى من هؤلاء القادة احتمال مثل هذه الأجواء . واذا كان من المقرر أن تتوقف هذه الاقلية المثقفة عن ممارسة عملها السياسى على المقاييس الغربية ، فلا بد أيضا ، أن يعتبر السماح لها بمقاييس تفكيرها وتنميتها ، أمرا حكيما وعادلا .

أما الاشتراط الثانى ، وهو يتصل بالاول تمام الاتصال ، فيتناول العزلة غير المستحبة القائمة بين القادة القوميين وبين المثقفين من رجال ونساء ، الذين تعتبر طاقاتهم الفكرية وعبقرياتهم وحماسهم القومى ، واحساسهم بحاجة الوطن اليهم ، أرصدة وطنية ضخمة لاتقدر بثمن . وأرى من الضرورى أن يبذل كل جهد ، وأن يبتكر كل تنظيم ممكن لاشراكهم فى أعمال الحكم والقيادة والتوجيه والتخطيط السياسى . وأرى أن الحاجة تفوق مجرد الاكتفاء بالمشورة الظاهرة فى المنظمات الرسمية الاستشارية ، التى لا أعتبرها أكثر من مجرد صمام أمن . وانى أرى أن هناك كل ما يبرر الاستعانة بهم فى أكثر من مجرد العمل الرسمى ، وان يكونوا جزءا من الرسالة الوطنية . وليس لدى شك فى أنهم سيستجيبون استجابة دينامية ، اذ أن هذا هو ما ينشدونه ، على ضوء أى تحليل ، وهو أن يشعروا بأنهم يستخدمون فى خدمة شعبهم وأن خدماتهم تختبر الى أقصى حدود الاختبار ، اذ أن تحقيق هذا الارضاء لمشاعرهم يفوق فى استهوائه لنفوسهم السماح لهم بتأليف الاحزاب السياسية . ولقد لمست هذا الشعور بالعزلة من رجال يمكن أن يكونوا موضع الثقة والاعجاب ، وهو شعور يجب أن يقهر .

ولقد كنت فى سردى لهذه الضرورات السالفة أشير بصفة خاصة الى الفئة المختارة من الطبقة المثقفة فى الوطن العربى . ولكن هناك طبقة أخرى ، وهى الطبقة المتزايدة عددا والتى تضم الشباب من ذوى التعليم الثانوى والمهنى الذين يحتاجون بدورهم الى طراز جديد من التوجيه . وهنا يتجه المرء بفكره بصورة خاصة الى فيالق الشباب التى يجند

افرادها تجنيدا ديموقراطيا لأعمال التطوير الوطنى . وقد شرعت الجمهورية العربية المتحدة فى مثل هذا التنظيم الذى يسمى « بمنظمة رعاية الشباب » ، كما أقامت غانا تنظيما مماثلا أسمته « لواء البنائين » . ومن الواجب ايلاء هذه التنظيمات الكثير من العنايه فى ادارتها مخافة أن يؤدى بعض الاهمال أو الانحراف الى تحولها الى منظمات شبه عسكرية للمجندين . لكن هدف هؤلاء الشباب يجب أن يظل ، تأليف فرق طليعية ريادية لعمل والخدمة الوطنية ، وتحويل الطاقات والاحاسيس التى كانت منصرفة حتى الآن الى القضايا الوطنية الخارجية الى أقنية لبناء التطورات الداخلية المثمرة .

وللغرب فى هذا التطلع المائع والمعذب للعثور على طريق جديدة للديموقراطية الاصيلة فى البلاد العربية والافريقية الآسيويه ، دور آخر لا يقل أهمية عن الدور الذى سبق لى أن أشرت اليه وهو تقديم المعونة الاقتصادية والتقنية الضخمة . فعلى الغرب أن يظل الحارس الامين لمفاهيم الحرية السياسية التى تسربت الى هذه الشعوب (١). ولا يعنى ظهور ما فى الأمل الليبرالى الغربى التقليدى من غرس هذه المفاهيم عند هذه الشعوب جنبا الى جنب مع نقل الحرية السياسية اليها ، من تفاهة ، ان على الغرب أن يضعف من الدور الذى يجب أن يتولاه كحارس ومدافع بليغ الحجة عن هذه المفاهيم .

فمهمتنا الآن أكثر دقة وصعوبة . اذ علينا من الناحية الاولى ان نواصل الرقابة والتذكير والنصح بوجوب الاحتفاظ بالمثل الديموقراطية مخافة أن تنحسر هذه المفاهيم بصورة مبتسرة ، وعلينا من الناحية الثانية أن نعين ديموقراطيى الغد فى الدنيا الافريقية الآسيوية على قبول التحدى ، الذى لم نهيئهم له أثناء مدة وصايتنا ، والذى لم نتهيأ له تهيؤا كاملا . وفى وسع الغرب أن يقدم هذا العون عن طريق الوقوف موقفا أكثر تفهما وأقل سخرية من هذه التجربة السياسية التى تقدم فى هذه الدنيا الجديدة ، والتى لا نزال نسميها « هرطقة » بالنسبة لمفاهيمنا ، وان يتمثل هذا العون فى مقالات وتعليقات ودودة تظهر فى الصحافة الغربية التى ما زال لها قراؤها من الافريقيين – الآسيويين . فهناك شعور متزايد فى هذه المنطقة كلها من السخط ونفاد الصبر تجاه ما يبدو للافريقيين الآسيويين بمظهر الفطرسة الثقافية الغربية المندفعة. وهم يرون هذه الفطرسة فى الادعاء بأن كل ما يمكن تعلمه عن الديموقراطية وعرضه وتطبيقه ، هو من منجزات الغرب ، وهو صالح للتطبيق فى كل

---

(١) قد يحمل هذا القول رغم ما فيه من تظاهر بالتحرر معنى دوام السيطرة الفكرية بعد زوال الاستعمارين السياسى والاقتصادى . لكن الشعوب الافريقية – الآسيوية التى تحررت وتود استكمال تحررها من كل قيود التبعية ، لا يمكن أن تقبل بالتبعية الفكرية . اذ أن فى وسعها أن تختار لنفسها ما يتفق مع أوضاعها من مفاهيم وعقائد دون تبعية أو تأثر .

– المعرب –

مكان فى العالم . ولكن ترى هل نحن نؤمن حقا بما نقول ؟ انى أشك فى ذلك كل الشك . ومع ذلك فنحن نوحى للناس بأن هذا هو ايماننا .

وهناك ضرورة أخرى تقف وراء هذا العون المتمثل فى تحديد المواقف ، وهى أن يواصل الغرب الحث على القيام بدراسات علمية أكاديمية جديدة لمشاكل الحرية والسياسة فى هذه الدول القومية المتخلفة والناشئة . ولعل الدليل النافع على وجود الحاجة الى هذه الدراسات ، تقوم فى أن المراجع أو الكتب التى توضع عن اعادة التفكير المتفتحة والجدية فى موضوع الديموقراطية على النحو الذى يمكن فيه تعهدها فى خارج الغرب ، قليلة للغاية . ولقد التقيت بعدد من القادة الافريقيين والآسيويين فى مكاتبهم التى تغص بالرفوف التى صفت فوقها عشرات المراجع الغربية وكتب الفلسفة السياسية ، وكانوا يشيرون بمنتهى الصدق والمنطق الى هذه الكتب قائلين – بشىء من اليأس . . « لم نعثر فى كل هذه الكتب على ما يفيدنا نحن هنا فائدة عملية » .

ويمكن للغرب عن طريق تنقيح كتبه الجامعية ، وتخصيص المنح للدراسات الجامعية الاكاديمية على أسس جديدة ، أهمها أن أشكال الديموقراطية الدستورية والعلمية فى الغرب ، قد لاتكون ملائمة للشعوب الافريقية الآسيوية ، وعن طريق الاشراف على عقد المؤتمرات والحلقات الدراسية المتكررة مع المفكرين الأفرو – آسيويين ، أن يعمل الكثير لضمان قيام الديمقراطية أخيرا عند هذه الشعوب التى تبلغ ثمانمائة مليونا ، وقد يدعونا هذا ؟ الى حد ما الى مواجهة تحد جديد وهو أن نزيل صورة « غربية أخرى كانت تحجب الواقع والحقيقة عن عيوننا أمدا طويلا . وهذه الصورة هى جزء من الرحالة الفكرية التى كانت مغلقة على الغرب من ناحية والشعوب الافريقية الآسيوية ولا سيما العربية منها من الناحية الثانية . وعندما نكون نحن فى الغرب ، قد بتنا حقا فى أمس الحاجة الى اعادة التفكير جديا فى نواحى ديموقراطيتنا ضمن نطاق منطقتنا نفسها ، فان هذا الحافز الاضافى بالنسبة الى الدنيا الافريقية – الآسيوية ، لا يعتبر بحال من الاحوال شوكة ناخزة مذلة . وحرى بى أن أقتبس هنا بعض العبارات التى أوردها مراقب بريطانى معروف عن الوضع العربى اذ قال :

« لو كان هناك نظامان محدودا المعالم قادرين على أن يضمنا تعلم الناس لهما وتطبيقهما ، فان فكرة الاختيار الواضح بينهما ، تصبح أمرا مفهوما . ولكن ليس هناك مثل هذا التجديد . فالقضية فى البلاد المتخلفة ليست قضية الاختيار بين نظام معروف ونظام آخر . وانما هى قضية ابتكار طرق جديدة لضمان سير الامور وتنفيذها . . .

« ويمثل التحدى الحقيقى لابتكاراتنا التنظيمية العملية ، لا لما فى محطات اذاعاتنا من قوة ، أو لما فى كتابات واضعى شعاراتنا من صقل

لفظى ، أو لما فى تصرفات المحاربين من ساستنا من نعومة ، أو حتى لما فى جيوشنا من قوة » • (١)

ولم نشرع نحن فى الغرب حتى الآن فى فهم ما فى هـــذا التحدى الواقعى من اهمية زمنية • ولكن هذا التحدى بدأ فعلا فى الوطن العربى • وفى أنحاء الدنيا الافريقية الاسيوية • وفى مارس عام ١٩٦١ قال نيكيتا خروشوف لوفد برلمانى من الجمهورية العربية المتحدة ، كان يزور موسكو ما نصه :

« سيكون التاريخ الحكم الفصل بيننا . فنحن شيوعيون ، وأنتم لا علاقة لكم بهذه الكلمة • ولكن التاريخ سيعلمكم ••• انكم لا تريدون الشيوعية الآن . حسنا فليكن ما تريدون . ونحن لا نغضب من هذا. ولكنكم ستجدون فى المستقبل اننا على حق » .

وسرعان ما ردت الجمهورية العربية بجواب نشر فى القـــاهرة • ولاريب فى أن هذه الوثيقة فى منتهى الاهمية والخطورة ، ولكنها لم تحظ كالعادة بأى اهتمام من الغرب . وترجع زبدة هذا الرد أصداء الافكار التى تعم الدنيا الافريقية الآسيوية كلها ، كما تؤلف جزءا من الحوار المستمر حينا مع الغرب وحينا آخر مع الكتلة السوفياتية ــ الصينية ، والذى يؤكد فيه القادة الافريقيون ــ الآسيويون حقهم المطلق والمستقل فى تكوين تنظيماتهم على النحـــو الذى يريدونه . قال رد الجمهـــورية العربية المتحدة ...

« وفيما يتعلق بالرأسمالية والشيوعية ، فاننا لا نقتنع حتى الآن بأن التطور التاريخى للانســـان يسير فى طريق مســـدود ، الرأسمالية بدايته ، والشيوعية منتهاه الحتمى وانما نحن نعتقد أن مجال الاجتهاد الفكرى مفتوح لجميع الشعوب •••

« ان شعبنا لا يقبل أن يكون محصورا فى هذا الخيار ويعتقد أن الافق الفكرى للعالم الآن أرحب من هذه الدائرة المغلقة » (٢) •

ويؤلف هذا الرد العربى على خروشوف تحديا أيضـــا للغرب • ومن المؤسف أننا حتى هذه اللحظة لم نظهر أى احســـاس مناسب به ، اذ أن الغرب فى هذا الطراز من التطلع الافريقى ــ الآسيوى ، يتفـــوق تفوقا واضحا على الصينيين ــ الســـوفيات • فنحن هنا فى بلادنا ، نظهر اعتزازنا ونتفاخرنا بما فى منتظماتنا من مرونة ، وذلك من ناحية استعدادنا

---

(١) رسالة من ميشيل ايونيدس فى صحيفة التايمز بعنوان «معركة آسيا » عدد ١٣ يناير ١٩٥٩ .

(٢) نشر هذا الرد فى عدد صحيفة الاهرام الصادر فى التاسع من يونيـــو عام ١٩٦١ لا فى الثالث من مايو كما يقول المـــؤلف . وكان الرد صادرا عن السيد أنور السادات رئيس الوفد البرلمانى العربى الذى قام بزيارة موسكو والذى واجهه خروشوف بتلك الاقوال .

ــ المعرب ــ

لتعريض اجراءاتنا السياسية والاقتصادية ضمن اطار مثلنا العليا .
وعلينا ، حرصا على مصلحتنا نحن ، أن نبذل عناية خاصة فى أن نظهر
للعرب بل ولجميع الافريقيين الآسيويين أننا نقبل حقهم فى أن يفعلوا
مثلما نفعل ، وسنرى أشياء غريبة تعزى الى تعابيرنا « كالديمـــوقراطية
مثـــــلا أو « الاشـــتراكية » ، وهى التعـــابير التى نفترض عن
ثقة وايمان باننا الوحيدون القادرون على تفسيرها وشرحها . وسنسمع
القادة القوميين العرب ينادون بسياسات « الاشتراكية الديمقراطية
التعاونية » ، وقد نجد من الصعب علينا أن نتميز ما نعنيه نحن بمثل
هذه التعابير فى حقيقة ما يقومون به هم • وليس من حقنا مهما كانت
الظروف أن نتوقف أو نهمل الحكم حكما نقديا على ما يقومون به من
تجربة وما يتطلعون اليه من أهداف • فهناك طراز من النقد يكون فى
نصه ومحتواه نافعا كل النفع لهذه الشعوب الحديثة .

ولكن كلما قرأت فى صحيفة غربية ما يشبه السخرية المتغطرسة،
ورأيت التطبيق الذى يحمل طابع التقريع لشعاراتنا وتعبيراتنا الفربية
المتزمتة ، وذلك فى التعليق على ما يبدو على هذه الشعوب من حيرة
اصيلة فى بحثها ونشدانها الحقيقة ، أتذكر فورا ، ذلك العربى الذى
قذف بالصحيفة الغربية التى كان يقرأها ذات يوم من يده ، ملتفتا الى ،
وفى وجهه سيماء السخط ، قائلا عبارة أرى أنها خير خاتمة لهذا العرض
لما فيها من بساطة... «انك تعرف أننا كما تقولون قد انتهينا من مرحلة
الحاجة الى التعهد والتنشئة ، ولكن بحق السماء ، لماذا تحـــاولون فى
الغــرب ، كما يحاول الشـــيوعيون ، الافتراض بأن لديكم الحلول لكل
ما يواجه المجتمع الانسانى من مشكلات ؟ »

الخـــاتـمة

« لا بد بالطبع من الواقعية ، اذ ليس ثمة من بلاد تقيم سياساتها الداخلية أو الخارجية على مجرد حسن النية أو التحليق فى الخيال . ولكنها الواقعية الغربية هى التى تتشبث بفوقعة الماضى الجوفاء وتتجاهل أو ترفض فهم حقائق الحاضر القاسية ، التى لا تتناول النواحى السياسية أو الاقتصادية فحسب ، بل تشمل أيضا مشاعر عدد كبير من الناس وأمانيهم » .

جواهر لال نهرو ـ عام ١٩٤٤

***

هناك دلائل برزت منذ وقوع جـــوائح عام ١٩٥٨ انهـــا ليست جوائح بالنسبة الينا ، على أن حكوماتنا وعددا من معلقينا العامين ، قد شرعوا فى تبين الدروس والعبر الواضـــحة التى تمخضت عنها الأعوام الأربعون من العلاقات العـــربية الغربية ولكننى اعتقد بضرورة ايلائها المزيد من الايضاح هنا .وقد بتنا الآن أكثر تسامحا مع سياسةالحياد أو اللانحياز التى تتبعها القارة الافريقية الاسيوية مما كنا عليه فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ . وليس ثمة من شـــك فى أن أية حكومة بريطانية ما عادت لتفكر مجرد تفكير بالقيـــــام بمغامرة كمغامرة سيناء والسويس . ومن المأمول أيضـــا الا تفكر الحـــكومة الامريكية الجديدة فى أية عملية تقويض لحكومة عربية تنال تأييد شعبها وبرلمانها كالعملية التى قامت بها الحـــكومة الامريكية السابقة عن طريق الملك حسين فى الأردن عام ١٩٥٧ للاطاحة بالحكم الوطنى فيها . (١)

ولم يصـــدر حتى هذه اللحظة اى بيان يثير الدهشة عن داوننج ستريت يقول ان ريح التطور قد اكتشفت وهى تهب عبر أرجاء الشرق الاوسط .ولكن اكتشاف رياح مماثلة فى سماء افريقية قد يعكس تبدلا كافيا فى التفكير عند اولئك المســـئولين عن السويس ، ليشمل بآفاقه العلاقات الغربية ـ العربية أيضا . وهناك احتمال فى ان يأمل الانسان بأن يكون العهد القديم قد مضى وانقضى .

---

(١) لكن مهزلة الهجوم على كوبا فى عام ١٩٦١ تلقى بعض الشكوك على هذا القول ـ المؤلف .

ولكننى كغربى لا أستطيـــع أن أحس بأية كبرياء وأن كنت أحس
بشىء قليل من الارتياح ، لانقضـــــاء تلك العقبه ، ذلك لانها خلفت
من الجراح عند العرب ما لا يمكن له أن يندمل بسرعة وقد تبقى أمدا أطول
مما نعترف به ونقره ، لا سيما وأن الفضل فى انقضاء تلك الحقبة يعود الى
العرب لا الى ساستنا . واذا كان عرب الشرق الاوسط لم يتحولوا « الى
الشيوعية » فان هذا تم على الرغم من السياسات الغربية التى كانت
تبدو وكأنها تقصد تحويلهم الى تلك النتيجة . واذا كنا قد تخلينـــا عن
تلك السياسات الى حد كبير ، فان السبب فى ذلك يرجع الى تبيننا فى
اعقاب عام ١٩٥٨ ، أن هذه الســـياسات لا يمكن لها أن تكلل بالنجاح ،
فلقد اختفت معظم العهود التى كانت تلك الســـياسات تعتمد عليها .
واذا كان لا يزال هنـــاك عند العرب بعض الشعور العميق بالاحترام
للغرب ، والاهتمام به بحيث تستطيع بعض « فضائل » ثقافتنا أن
تسهم فى خلق مستقبل عربى أفضل ، فان مرد ذلك الى أن كثيرين من
العرب، ظلوا يرفضون دائما التخلى عن أملهم فى الثقـــافة التى استمدوا
من منبعها الكثير من الالهـــام على الرغم من كل ما فعله ساستنا لتشويه
ذلك الالهام . (١)

ترى ما هى الجراح التى خلفناها وراءنا هناك ؟ أول هذه الجراح
هو الشك ، الشك العميق المستشرى كالسرطان فى عقول الشـــبان
العرب ، بأن أسوأ ما عند دول الغرب قد انتهى . ومن سوء حظنا أن
ليست هناك دلائل كثيرة على أن الغرب فى مجموعه يدرك هذه الحقيقه .
فلقد كان فى وسع بعض الصحف والشخصيات العامة فى الغرب ، أن
تظهر الحنق حتى فى عام ١٩٦١ ، على ما تواصله القـــاهرة من حملات
دعائية ضد بريطانيـــا ، وكان فى مكنة بعض المعلقين عندنا ان يقولوا
بمزيج من الهيـــاج والســـخرية ، أن القوميين العرب ما زالوا يرون
فى الاســـتعمار الغربى السبب فى كل نكبة . ولكن هذه الاقوال تصدر
ولما تنقض على آحداث العدوان على بور سعيد وقيام أهلهـــا بانتشـــال
جثث الضحايا من أقربائهم من تحت الانقاض اكثر من خمس سنوات ،
ولما تنقض اكثر من ثلاث ســـنوات على رؤية القـــوات المسلحة للدول
الغربية تجتاح بلدين عربيين (لبنان والاردن) ، ودون أن تمضى أية مدة
على حشـــد دولة غربية اخرى لنحو من أربعمائة الف جندى ضـــد
اخوانهم العرب فى الجزائر . حقا ان أمرنا عجيب ، اذ أننا نطلب من
الشعوب ان تنسى بسرعة . وقد يكون من الفطرسة كل الفطرسة ان
نتوقع من العرب أن يعدلوا عن شكوكهم فى بريطانيا ، بينمالايزاليحكمها

---

(١) يغالى المؤلف كل المغالاة فى حديثه عن الهام الثقافة الغربية
وأثرها على العرب . وفى ربطه بين التـــأثير الثقافى والتأثر السياسى .
فالثقافة تراث حضـــارى واحد تتناقله الشعوب وقد أخذ العرب عن
الغرب فىالقرون الاخيرة ، كما اخذ الغرب عن العرب فى نهاية القرون
الوسطى . ولهذا فلا شأن لتأثر العرب بثقافة الغرب فى اتجـــاهاته
وروابطه السياسية .

ـ المعرب ـ

رجال كانوا من المسئولين عن السـويس ، ولم تصدر عنهم أية ايماءة تشير الى الندم عى ما فعلوه . انها غطرسة ، اذ كيف يمكن لمصر أن تنسى وهى لا تزال تبكى موتاها فى سيناء وبورسعيد .

وهناك نقطة أخرى ، ولعلها من أكثر المفارقات سخرية ، وهى أننا لا نستطيع أن نفهم ما خلفناه من شكوك ومرارات فى مصر ، اذ ان الانكليز الأفراد ، مازالوا يستقبلون استقبالا حارا فى مصر . وتقوم السخرية فى الحقيقة الواقعة وهى أن معظم العرب فى الشرق الاوسـط كله ، ما زالوا يعتقدون بأن غالبيـة البريطانيين العاديين كانوا يعارضون فى عدوان السـويس . لكن الحقيقة اكثر مرارة . ولعل مما يسرى عن النفس ، ان هذا الوهم الذى يعيش فيه العرب ، هو دليل جديد على ايمانهم الدائم والمستمر بالغرب ، وبان شعوب هذا الغرب فى عزلة عن سياسات حـكوماته . وانى لأرى فى هذا التناقض مبعثا على الشعور بالخجل والعار من جانبنا .

ولكن هناك ارثا أقدم ، يتصل باسـاءة لا يمكن أن تغتفر وبجرح لا يمكن ان يندمل . فليس ثمه من عربى مفـكر يعتقد بأن تحقيـق الوحدة ، أية وحدة سواء أكانت ديناميه تورية ، أم هادئة هنية ، يمكن أن يتم بسهوله . وهو فى كل مرة يستعرض العـالم الذى يعيش فيه اليوم ، يرى يد السياسه البريطانيه تحول طيله اربعين عاما دون تحقيق أهدافه وتفرض عليه هذه التجزئة المتعمدة والمصطنعة ، لكى تصبح الان ثابتة الاقدام فى وطنه وبين شعبه . وفى كل مرة يكتب فيها مقـال فى الغرب ، أو ترسم صـورة كاريكاتورية ، أو يبرق بتعليق عن التجزئة العربية ، يرى العربى فيها حافزا يذكره بمسـاوىء السياسة الغربية الماضية . وقد شرع الافارقة اليوم فى نضالهم من أجل التغلب على الحدود المصطنعة التى رسمت فى قارتهم . ولكنهم يفعلون ذلك كرعايا مستعمرات تحرروا بوضوح وجلاء ، ويرغبون فى الوحدة على النحو الذى يريدونه أما فى الشرق الاوسط فقد أقمنا حواجز صناعية . وأقمنا فيها مصالح مستثمرة ، ثم أعلنا حرية كل جزء منها ، وقضينا اثر ذلك عشرين عاما نلجأ الى كل وسيلة وبينها الحرب ، لنحول بين حريتها فى الاتحاد ، الا اذا كان هذا الاتحـاد وفق مشيئتنا وأهوائنا وشروطنا . ولا ريب فى أن قليلا من ذلة الندم على هذه المواقف قد تساعدنا الآن ونحن نتطلع الى الوراء على اقامة علاقات أفضل من التفاهم المتبادل مع العرب .

وهذه القضية التى تتعلق بجوهر مواقفنا مع العرب ، هى فى حكم الحقيقة والواقع المشكلة الكبرى الراهنة فى عـلاقاتنا معهم . ولو كنا صادقين مع أنفسنا بعض الصدق ، لتحتم علينا أن نعترف بأننا هنا فى الغرب ، لا نولى العرب ذلك الاحترام الاسمى الذى نوليه لغيرهم من الشعوب فى الدنيا الافريقية الاسيوية . فهناك نغمة خاصة فى المقالات التى ننشرها عن الشئون العربية . ويبدو أن أكثر صحفنا مسـئولية تحتفظ ولو عن غير عمد بأكثر التعابير سخرية وتهكما عندما تتحدث عن العرب . وتقوم الاسباب كما سبق لى أن أوضحت فى قرون طويلة من

التاريخ . ولكن عنصر المقـارنة بين سلوك العرب ، وسلوك غيرهم من الشعوب الافريقية الاسيوية فى السنوات الاخيرة يعتبر سـببا آخر ، وسببا له وزنه الطبيعى . فلا يمكن للعرب مثلا أن يقـارنوا حتى ولو ظاهريا ، بالهنود فى حقبة الخمسين .

وحتى بعد هذا الاعتراف بالمشكلات الضخمة التى ورثتها الهند الحرة وأنا آخر من يقلل من خطورتها ، أرى من واجبى أن أسأل اذا كن هذا الطراز من المنارنة مجديا أو مفيدا . ولنفكر ولو بصورة مختصرة ، وعلى وجه عام بما لم نخلفه فى الهند وراءنا عند تخلينا عنها . فنحن لم نضمن خلق دولة كاسرائيل فى قلب الهند وعلى أرض يسكنها الهنود . ولم نرسم سياستنا فى الهند على أساس ظهورها فى أواسط القرن العشرين بمظهر الخرقة المرقعة التى تضم عددا من الدويلات المجزأة المصطنعة السيادة والتى تقوم على أمرها حكومات رجعية لا تحظى بأى عطف شعبى ، تتحكم فى شعب يريد أن يتحد .. ولم نطلب من الهند قبل تخلينا عنهـا أية قواعد استراتيجية ، كثمن على انسحابنا منها . ولم نعمـل على تحقيق غايتنا هذه عن طريق المؤامرات التى تستهدف الفرقة والخلاف ، أو عن طريق الضغط الاقتصادى أو حتى الحرب ، الحرب التى تعاونا فيهـا وتواطأنا مع اسرائيل .. وفى وسعى أن أواصل هذه السلسلة الطويلة من الفروق . والنتيجة التى نتوصل اليها من كل ذلك ، والتى لا أشك فى أن البانديت نهرو سـيكون أول من يقرها ، هى أن الهنـد كانت ستسلك سلوكا مغايرا لغاية لو أن قصة الشرق الاوسط قد أعيد تمثيلها بحذافيرها فى وسطها .

وهكذا نصل الى هذه النتيجة ، وهى أن عقولنـا محشوة بالظنون السيئة عن العرب . وما زالت سمعتنا بينهم حتى هذا اليوم ملطخة بما الحقناه بهم من اضرار سياسيه دائمه ، لا تنل حطـورة ان تبز فى خطورتها أية اساءات ارتكبناها فى الدنيا الافريقية الاسيوية . ولا ريب فى انهم سيتمكنون من التغلب على هذه الاضرار التى الحقناها بهم ان عاجلا وان آجلا ، واذا تطلب هذا التغلب مزيدا من النزاع مع المحاورة الاخيرة من سياساتنا القديمة فان اللوم فى ذلك يقع على عاتقنا نحن دون غيرنا ، وستكون الضحية فى ذلك مصالحنا الحقيقية فى الشرق الاوسط . وفى وسعنا أن نعدد الاماكن التى ما زلنا فيهـا نعرض خير مصالحنا للهزيمة والخيبة وهى الاردن وفلسطين وعدن ومشيخات الجنوب العربى المرتبطة بمعاهدات عتيقة بالية ببريطانيا وكذلك الجزائر . ولم نستطع بعد الخروج من أجمة القصة الطويلة لصراعنا مع العرب . ولكن ما نحتاج اليه أكثر من أى شىء آخر هو المزيد من الحرص ، وتنقية عقولنا ومقالاتنا وكتبنا من الشوائب والاقرار بمسئوليتنا التاريخية عن الكثير مما يستثير سخطنا من الاوضاع فى الوطن العربى ، وأن يتبع ذلك تبدل حكيم فى سياستنا تماما كما يعقب الليل الحالك السواد ، وضح النهار .

ولعل من قبيل المناقضة أن نقول ونحن على وشك الاعتراف بكل هذه الأخطاء ، أن مما يساعدنا كثـيرا ، أن ندرك نحن الغربيين ، بأننا

مسئولون مسئولية هامة عن جزء كامل من نفس الفكرة القومية التى كنا
نقاومها عند العرب • فلقد اقتبسوا عنا فكرة ما لبثوا أن صاغوها لتصلح
لهم ، ثم ألبسوها ثوب شخصيتهم النامية وأضفوا عليها احساسهم المعتز
بماضيهم • ورحنا ننهمك فى محاربة الرسالة التى حملناها لهم لسنوات
أكثر عددا مما يحلو لنا تذكره • أما فى فلسطين فلم نكتف بحرمانهم من
هذه الرسالة فحسب ، بل قمنا ، اذا كنا صادقين شرفاء ، فى اعترافنا ،
بالعمل على حرمان شعب من وطنه ، وطنه الذى يملكه بموجب كل عرف
وطبقا لكل تعريف ، لنفى بدين علينا ، لا على العرب ، لشعب آخر •

وأمامنا نحن والعرب الكثير مما يجب علينا أن نفعله ، هذا اذا أراد
الجانب منا أن يكفر للآخر عن الماضى ، ويفى بالتزاماته له (١) . فاذا
تمكنا من أن نشرع فى العمل مع حركتهم القومية ، على اعتبار انها تمثل
فى نظرنا تجربة ايجابية ، يجب علينا جميعا أن نسير فيها ، لأنها تمت
فى بعض نواحيها الى تراثنا . فاننا لابد وان نحصل منهم على استجابة
سريعة لتعاوننا هذا • ولا ريب فى أن هذه الحركة القومية التى تدين بها
هذه الشعوب الفتية فى وثبتها العريقة فى ماضيها ، حركة غريبة . فهى
حركة انسانية تعبر عن فكرة الكرامة الانســانية ، ولذا فهى تنطوى على
جذور الاخوة العالمية • ولكن من الواجب أولا ، أن يعثر هـــذا الشعب
العربى على مكانته وسط المجتمع الانسانى • وقد يبدو سعى هذا الشعب
الوسيط المتداخل ، وسط ما تبذله الشعوب المستقلة الاقدم تمركزا من
بحث أضخم فى مجالاتها ، أمرا يثير الحنق ، ولكن الخطأ فى ذلك ليس
خطأهم وليس من الحق أن نحرمهم من نشــدان ما يتطلعون اليه • وقد
يبدو استنكارنا لحركات الشـــعوب الافريقية الاســيوية القومية على
اعتبارها «موضة قديمة» ، أمرا ينطبق مــع نظرتنا العصرية ، لكن هذه
النظرية ليست فى صالح تلك الشـعوب ، وليست فى مصلحتنا نحن
اذ أننا مشدودون اليهم شدا وثيقا ، شئنا ذلك أو أبينا ، فى هذه المغامرة
المشتركة •

. كان هذا هو الوضع دائمـــا ، فالموقف لم يتغير بالنسبة الى العرب
ولن يتغير • وعندما ندرك نحن فى الغرب ذلك حق الادراك ، يصبح فى
وسعنا أن نبدأ من جديد ، اذ نوفر سنوات أخرى من العذاب •

كم أرجو أن نفهم ذلك ، بأقص سرعة ممكنة •

---

(١) أعتقـــد أن التفكير يجب أن يكون من جانب واحد ، هو جانب
الغرب • اذ اننا لم نسىء اليه بشىء ، وانما كنا دائمـا وما زلنا حتى هذه
اللحظة ، نتعرض لاســاءاته وجرائره ، التى لا تغتـــفر وما فلسطين ،
ولا الانفصال ، وما يقع فى اليمن والجنوب العربى ، وما وقع فى الجزائر
الا بعض من كل من أمثلة على هذه •

ــ المعرب ــ

تعقيب لابد منه

أرى لزاما على وقد انتهيت من تعريب هذا الكتاب القيم ، وتقديمه
الى القارىء العربى الكريم أن أدون ثلاث ملاحظات ، لا بد منها ، أعوض
بها ما فاتنى قوله فى المقدمة •

أولى هـــذه الملاحظات ، أن ما قدمته من تعليقات ، على بعض أقوال
للمؤلف أو آراء لا تتفق مع آرائنـــا ، كان مقتضبا فى الغالب ، نظرا
لطبيعة التعليق التى تتطلب الاقتضاب ، فهى والحالة هذه لا تمثل كل
ما أحمله من رأى ، اذ أن بعض الموضوعات التى طرقهـــا المؤلف ، والتى
تناولتها بالتعليق تتطلب أكثر من بحث وأكثر من كتاب ، بالاضافة الى
حقيقة ثانية ، وهى أن ما أغفلت التعليق عليه ، لا يعنى أنه متفـــق كل
الاتفاق مع آرائنا وأفكارنا ، فلقد راعيت القول المأثور •• ما يصعب كله
لا يترك جله •

وثانية هذه الملاحظات ، أن تعليقاتنا يجب ألا تترك لدى القارىء
انطباعا سيئا بالنسبة الى المؤلف • فهو على النقيض من ذلك ، من أكثر
كتاب الغرب تفهما لمشـــاكلنا ولوجهات نظرنا ، ومن القلة النادرة منهم
التى تقف موقفا لا متحيزا وصادقا من قضايانا • ولعل هذا على الأقل ،
هو ما ننشده من كتاب الغرب الذين يعالجون قضايانا ببحوثهم ، اذ أننا
لا نطلب أكثر من التجرد والنزاهة والموضوعية ، وهى صفات ثلاث اعتقد
انها متوافرة لدى المؤلف ، وان توافرها النسبى هذا ، يجعله الى حد ما ،
فى منزلة الكاتب المنصف الصديق • أما ما نختلف معه عليه من آراء ،
فقد يكون ناجما عن حسن نية ، وهذا ما نفترضه فيه •

وثالثة هذه الملاحظات وآخرها ، أن المؤلف رغم تجرده وموضوعيته
غربى قبل كل شىء ، يضع مصالح الغرب فى المنزلة الاولى من تفكيره ،
ولهذا فان ما هدف اليه من كتابه ، هو الدعــوة الى وضع علاقات الغرب
بالعرب ضمن اطار جديد من التفاهم المتبادل ، متناسيا حينا أو أحيانا
الحقيقة الواقعة ، وهى ان سياسة العرب الاحرار ، تقوم على أساس عدم
الانحياز المطلق على الصعيد الدولى ، وأن العرب لا يقيمون سياساتهم
ولا سيما ما يتعلق منهـــا بأهدافهم التحررية ، ونشدانهم الوحدوى ،
وتطلعهم الاشـــتراكى الا على قواعد متينة من واقعهم المـــادى وتراثهم
التاريخى •

ــ المعرب ــ

ملحق (١) تطور ازمة السويس

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	الصحافة
٢٦ يوليو	تأميم شركة القناة : التعهد بتعويض حملة الاسهم				
٢٧ يوليو		الوزراء يعلنون استنكارهم بوجه عام			صحافة لندن المحافظة تدعو الى استخدام القوة
٢٨ يوليو		تجميد أرصدة مصر من الاسترليني والفرنك			
٣١ يوليو	مصر تؤكد حرية الملاحة في القناة وتقترح عقد اتفاق جديد للقناة	أعلن ايدن « الاجراءات الاحتياطية للطوارئ » فرنسا تطلب الى رعاياها من النساء والاطفال مغادرة مصر			
٢ أغسطس		المطالبة بالاشراف الدولى – الدعوة الى مؤتمر في ١٦ أغسطس	استدعاء الاحتياطى ، ايفاد قوات جوية بريطانية الى مالطه تأهب الاسطول الفرنسى		الايحاء للصحافة بالتحدث عن اللجوء الى القوة اذا لم تقبل مصر فورا طلب الدولتين الغربيتين الاشراف الدولى على القناة

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركه عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	الصحافة
٣ أغسطس	مواصلة التأكيد بحرية الملاحة مع طلب فورى بالاعتراف بحق مصر فى التأميم	موليه يقول : سنفرض على عبد الناصر ما نتخذه من قرارات	وصول أركان الحرب الفرنسيين الى لندن		
٨ أغسطس	أعلنت مصر عن طريق سفارتها فى لندن ، انها تعتبر من الأمور الحيوية لها ، المحافظة على حرية الملاحة فى القناة ، والعمل على زيادتها .	وجه ايدن اذاعة هامة : « ان نزاعنا ليس مع مصر وليس مع العالم العربى . انه مع عبد الناصر» . واتهم الرئيس بسلسلة طويلة من الأكاذيب والاجراءات المعادية لبريطانيا ثم قال : « لقد عرفنا هذا جيدا من الفاشيين ، كما عرفنا الثمن الذى ندفعه نتيجة التسليم لهم .			
١٢ أغسطس	عقد عبد الناصر مؤتمرا صحفيا مهما ، رفض فيه مؤتمر لندن ، ولكنه عرض عقد معاهدة جديدة تسجل فى الامم المتحدة		استمرار الاعلان عن التحركات والاستعدادات العسكرية – الاستيلاء على السفن	شركة القناة فى مشاورات مستمرة مع سلوين لويد .	دعوة الصحافة للتحدث عن ابحار الجنود .

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	الصحافة
١٣ أغسطس		تحسن الموقف بالنسبة الى مصر اثر حملات المعارضة فى البرلمان على اجراءات الحكومة			الصحف تتحدث عن معارضة الولايات المتحدة لاستخدام القوة . شرعت بعض الصحف التى كانت تؤيد استخدام القوة فى مهاجمة ايدن
١٤ أغسطس	السفن تمر كالمعتاد . السماح للمرشدين بالاجازات	اذاعة هامة لسلوين لويد يحذر فيها من تجارب الماضى ويعلن ان عبد الناصر دون مطامحة فى السيطرة على العالم والزيت العربيين ، وعلى افريقيا ومسلمى العالم		أعلنت الشركة ان جميع مرشديها مخلصون لها . أعلن مديرها بيكوان تحذيرا منه سيشل العمل فى القناة	
١٥ أغسطس	مصر تبدأ البحث عن المرشدين للاستعانة بهم عن الذين تركوا الخدمة عن طريق الاعلان والقنصليات المصرية .		الحشد العسكرى مستمر ، محادثات عسكرية مشتركة بين بريطانيا وفرنسا دعوة ٢٥ ألفا من الاحتياطى .	رفض نشر الاعلانات المصرية بطلب المرشدين . فى عدد من الصحف . دفع زيادات لمرشدى قناة كيبل	شرعت الصحف الغربية فى الدعوة لنظرية لويد ومولية عن ان « فلسفة الثورة نسخة أخرى من كفاحى » .

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	الصحافة
١٦ أغسطس	مصر توفد مراقبا الى لندن . الهند تتحدث باسم مصر .	عقد مؤتمر لندن الذى ضم ٢٢ دولة .			
٢٢ أغسطس	مصر تعلن تقدم عشرة مرشدين للعمل فى القناة			٥٨ مرشدا يمضون فى أجازة بطلب من الشركة ـ تأخر ٢٧ عن العودة .	الصحف تتحدث عن المهارة التى يتطلبها العمل فى ارشاد السفن
٢٣ أغسطس		بعثة منزيس تستعد للسفر الى القاهرة لتقترح تشكيل مجلس دولى للقناة .			
٢٧ أغسطس		منزيس يتحرى عما اذا كانت مصر مستعدة للتفاوض .		الشركة تتخلى عن مسئوليتها تجاه المرشدين الى الحكومتين البريطانية والفرنسية	أنباء صحفية موحى بها عن اللجوء الى القوة اذا رفض عبد الناصر .
٢ سبتمبر		منزيس على وشك الوصول الى القاهرة .	بيان خاص يعلن ابحار القوات الفرنسية الى قبرص . اعلان آخر بأن (٨) ناقلات للجنود على استعداد للابحار من موانئها	خطب تحمل روح الحرب من الوزيرين انطونى هيد وبينو .	

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى فرنسى	الصحافة
٣ سبتمبر	عبد الناصر يقترح عقد اتفاقات منزمة فى موضوع الرسوم				
٥ سبتمبر		استمرار محادثات عبد الناصر – منزيس .		الشركة تعلن ان المرشدين فى حالة اعياء	حملة صحفية على المتعب فى ارشاد السفن فى القناة
٩ سبتمبر	عبد الناصر يرفض فكرة المجلس الدولى ، ويؤكد حرية المرور من جديد	فشل بعثة منزيس			
١٠ سبتمبر	عبد الناصر يقترح مؤتمرا لجميع المنتفعين بالقناة لتأليف هيئة تتولى التفاوض فى موضوعات حرية المرور والرسوم وتحسين القناة .	منزيس يعلن ان الوضع خطير للغاية .		نشرات مزورة يزعم نها صادرة عن سفارات مصر توزع على أعضاء البرلمان البريطانى والصحف وتتحدث عن مشاريع مصرية مزعومة لمنع عبور البترول الى أعداء مصر .	
١١ سبتمبر		وزارة الخارجية البريطانية تقول : لا جديد فى اقتراح مصر .		الشركة تسحب جميع مرشديها .	

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى – فرنسى	الصحافة
١٢ سبتمبر	بقى فى القناة ٧٠ مرشد من مجموع ٢٠٥	ايدن يعلن فى مجلس العموم ان مصر رفضت كل محاولة للوصول الى حل سلمى ، ويقترح انشاء هيئة المنتفعين ، ويذكر أن مستوى الحياة فى غرب أوروبا أصبح تحت رحمة عبد الناصر اذا أهملت اقتراحاته . يهدد بالقوة اذا لم تسمح مصر لبواخر الهيئة بالمرور			
١٣ سبتمبر	مصر تعلن رسميا التزوير فى المنشورات	يقول موليه ان فرنسا تحتفظ بحقها فى استخدام القوة اذا منعت مصر مرور هيئة المنتفعين بالقناة – دالاس يرفض استخدام القوة .		تحويل البواخر الى طريق رأس الرجاء الصالح ، شركة لويد ترفع رسوم التامين	الصحافة تقول ان «هيئة المنتفعين» ستبعث بباخرة تجربة الى القناة .

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية – فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى – فرنسى	الصحافة
١٦ سبتمبر	حركة المرور تضرب رقما قياسيا – عبور ٤٢ باخرة				استمرار الحملة الصحفية الضخمة فى الغرب تغذيها أموال شركة القناة لنشر الاشاعة بأن الفوضى تسود حركة المرور فى القناة بسبب جهل المرشدين
٢٣ سبتمبر		ولدت هيئة المنتفعين نصف ميلادو لكنها لا تؤيد القوة ايدن وموليه يحيلان القضية الى الامم المتحدة			

وبعد فشل مشروع هيئة المنتفعين فى ارسال سفينة اختبار عبر القناة وبعد أن اتضحت للولايات المتحدة حقيقة النوايا الانكليزية الفرنسية فى استخدام القوة ، بدات الدول التى تستخدم القناة فى التعاون الخفى مع السلطة المصرية التى أثبتت نجاحها . وفى أوائل اكتوبر أصبحت الهيئة المصرية تتلقى (٤٠) فى المائة من رسوم القناة . أما الباقى فيدفع الى حساب مغلق . وفى ٢ أكتوبر عاد عدد المرشدين الى ما كان عليه قبل الأزمة عن طريق التعاقد

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية – فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى – فرنسى	الصحافة
١٣،١٢ اكتوبر	الوصول فى مجلس الأمن الى اتفاق على ستة مبادىء لادارة القناة	التعديلات الانجليزية – الفرنسية تعطل اجراءات الامم المتحدة عدة أسابيع وتستفز الفيتو السوفياتى			

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركه عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى – فرنسى	الصحافة
١٦ اكتوبر		قرر ايدن وموليه فى اجتماع سرى عقداه فى باريس مدة خمس ساعات الهجوم على مصر .			

ملحق (ب)

قبل الغرب فى الصورة الرسـمية التى يرسمها لتاريـخ الشرق الاوسط المعاصر رواية الملك حسين عن أزمة « المؤامرة » فى ابريل عـام ١٩٥٧ (١) . وتتلخص قصة المؤامرة هذه فى أن العناصر الوطنيه حاولت القيام بانقـلاب أول للاطاحة بالملك ليلة السابع من ابريل ، ثم حاولت القيام بانقلاب آخر ليـلة الثالث عشر من الشهر نفسه . وأعلن الملك رسميا ان الوطنيين كانوا يلقون التأييد فى المحـاولتين من الاتحـاد السوفياتى ومصر وسورية .

وزعم الملك فى قصته عن المحاولة المختلقة الاولى أن الوطنيين كانوا سيرغمونه على توقيع بيان معد سلفـا بالتنازل عن العرش ، بينما تكون الوحدات الوطنيه فى الجيش محيطة بقصره وأضاف أن الخطة كانت ترمى الى حمله بالطـائرة الى قبرص بينما تعلن الاذاعة الأردنية نبأ تنازله عن العرش . ولكن قصة الملك لم تشرح كيف أحبطت المؤامرة المزعومة . كما لم توضح السبب الذى يدعو المشتركين فى تخطيط هـذه المؤامرة المنظمه تنظيما هائلا ، والتى تشترك عدة دول فى تنفيذها ، الى نقل الملك الى جزيرة قبرص التى يسيطر عليها البريطـانيون ، والتى تضم محطة اذاعية عربية قوية يستطيع الملك فورا أن يمضى الى ميكروفوناتها ، ليذيع على العالم أن تنازله تم تحت الضغط والارهاب . وأرى لزاما على أن أؤكد هنا ، عند تحليل هذه الادعاءات عن المؤامرة ، أن حسين ، كان لايزال فى اللحظة التى ادعى وقوعها ، يتمتع بشعبية فى الاردن ، وكانت حكومة النابلسى نفسها تصر على القول للشعب ، بأن الامور تسير سيرا حسنا ، وأن كل شىء على ما يرام . ففى الخامس من ابريل ، أذاع الرئيس النابلسى خطابا من الاذاعة الاردنية قال فيه للشـعب ما نصه : « لقـد أذهلت الانتصارات التى حققتموها تحت لواء ملككم المستعمرين وحيرتهم » (٢) . وليس من المعقول أن يلجأ النابلسى الى مثل هذه العبـارات وهو يهيىء الرأى العام لعمل يطيح بالملك ، ويبعده عن البـلاد ، هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار أن تاريخ الاذاعة سـبق الموعد الذى زعمه الملك للمؤامرة بيومين اثنين ليس الا .

ولم تكن تهمة « المؤامرة » الثانية أقل غرابة . فقد زعم هذه المرة أن على أبو نوار ، قائد الجيش الاردنى ، قد أمر بارسال وحدات البدو الموالية للملك حسين الى مناورات بعيدة ، لتمكين الوحدات الوطنية من

(١) كتاب جلوب الذى يروى القصة الرسمية كلها .

(٢) مقتبس من تسجيل للاذاعة البريطانية فى الخامس من ابريل عام ١٩٥٧ .

تنفيذ مؤامرتها فى عمان ، وأضافت القصة المزعومة أن القصر الملكى علم بالخطة المرسومة ، وطلب الى الوحدات البدوية أن تعصى الأمر الموجه اليها . وعلى الأثر نشب القتال فى معسكر الزرقاء الواقع الى الشمال من عمان ، مما دفع الملك الى الاسراع بسيارته الى المعسكر مستصحبا معه قائد جيشه . وفى الطريق قابل الملك وحدات البـدو المخلصة له وهى مندفعة الى العاصمة ، بعد أن صدقت ما قيل لها من أن الملك قد اعتقل . وتمضى الاسطورة فتقول ان حسين تمكن بشجاعته الشخصية الفائقة من تهدئة الجنود وحال بينهم وبين اطلاق النار على القائد أبى نوار الذى اتهموه بالخيانة . وراح الملك بعد ذلك يعتقل القائد « الذى تذلل للملك » فيفر عبر الحدود الى سورية ، ويعين خلفا له اللواء على الحيارى قائدا للجيش. وتمضى القصة فتقول ان الحيارى أيضا « برهن على خيانته للملك » ، وانه فر بدوره الى دمشق .

ولكن التحقيق الدقيق فى خفايا الموضوع ، أسفر عن قصة تختلف تماما عن أسطورة الملك الرسمية (١) . فلقد كانت المهمة الاولى التى عهد الملك الى اللواء الحيارى القيام بها ، هى أن يكتشف الضباط غير الموالين للملك فى الزرقاء وأن يقدمهم الى المحاكمة العسكرية ، وقد شرع القائد الجديد فورا فى تحقيقاته ، بوصفه عسكريا يمتاز بتدريبه العظيم وخبرته الطويلة ، وسرعان ما تبين له أن أربعة ضباط من البدو هم الذين أثاروا الفتنة فى الزرقاء . وهرع الحيارى الى القصر ، فقدم أسماءهم الى الملك الذى طلب اليه فورا ، أن يقفل البحث فى القضية كلها . وراح القـائد يذكر الملك بالتعليمات التى كان قد أصدرها اليه ، وبوعـده له فى أن يكون حرا فى تحقيقاته ، فثار الملك غاضبا على قائده . وأدى هذا التحية وخرج من غرفة الملك ، ثم كتب استقالته ، ومضى فى سيارته الى دمشق حيث أعلن أن المؤامرة « زائفة مزورة » ، وان الولايات المتحدة تقف وراء خطة الملك الرامية الى التشهير بحكومة النابلسى وأعضاءها ، وأن الاوامر كانت قد صدرت اليه « بتهيئة الجيش لضرب الشعب » .

وكان ضباط البدو الاربعة الذين دبروا فتنة الزرقاء يجلسـون فى احدى غرف القصر تحت حماية الملك ، أثنـاء مقابلته العاصفة للقائد الحيارى .

وسرعان ما راح الملك يسرد تفاصيل مختلقة لهـا مدلولاتها عن « المؤامرة الشيوعية – الناصرية » ، وكان بين هذه التفاصيل ماقيل من العثور على علم غريب فى مكتب أبى نوار . ورددت القصة الرسمية وقتا قصيرا ، ان هذه الراية أعدها على أبو نوار ليرفعها فوق سيارته عنـدما يصبح « الحاكم العسكرى » (٢) فى الاردن بعد خلاصه من الملك ، ليضم

(١) هذه التفاصيل مستقاة من الاستنتاجات التى توصلت اليهـا ومما نشرته مجلة « التايم » فى عددها الصادر فى السادس من آيار عام ١٩٥٧ – المعرب –

(٢) صحيفة التايمز عدد اللندنية ٢٩ أبريل ١٩٥٧ .

يعد ذلك كمقاطعة الى سورية ، ولكن هذه القصة سرعان ما تبـدلت ، وصورت الراية على أنهـا « علم الجمهورية الاردنية » (١) وكانت الانبـاء الغريبة قد خلقت جوا متوترا عن الازمة الاردنية الى الحـد الذى لم يلاحظ فيه أحد فى الغرب هذا التبدل الغريب فى رواية « الراية » التى لا يمكن أن تكون لا لجمهورية أردنية ولا لمقاطعة سورية ٠

ولعل من السخرية ، أن هذه الراية كانت فى حقيقتها العلم الذى كان جلوب يرفعه على مقدمة سيارته وكانت تحمل شعار المملكة الاردنية الهاشمية ٠ وعندما عثر على هذا العلم مدفونا فى درج مكتب أبى نوار ، الذى كان مكتبا لجلوب من قبل،لاحت فى ذهن موظف بارع فىالاختلاق، من موظفى القصر ، أن يخترع هـــذه القصة التى سرعان ما انتشرت فى أرجاء العالم ٠ هذه هى الطريقة التى كتبت فيها تفاصـيل تاريخ الشرق الاوسط فى الغرب فى تلك السنوات الغريبة ٠

– ترى ما الذى حدث حقا فى هاتين « المؤامرتين » ؟ عندما أحس الملك حسين بالقوة اثر الوعود التى أغدقها عليه الامريكيون بمساعدته ماليـا ودبلوماسيا وكذلك عسكريا اذا اقتضى الأمر (٢) راح يرتب مع ساسة العهد القدامى ، الطريقة الوحيدة التى يمكن لها أن تشوه سمعة الوطنيين الاردنيين ، دون أن تحطم مكانته فى نفوس الجماهير ٠ وتقرر أن ترسـم الخطة على أساس الادعاء بوجود محاولة للاطاحة به وخلق صورة مسرحية ترسمه بطلا جريئا يقف أمام الخونة ٠ كانت هذه هى الفرصة الوحيدة٠ فلقد كانت حكومة النابلسي بسـياستها القومية العربية واتجاهها غير الانحيازى ، متمتعة بشعبية هائلة ٠ وكانت للملك أيضا شعبيته الهائلة لوقوفه فى الصف الوطنى ٠ ورأى أن الضرورة تحتم عليه اسـتغلال شعبيته فى نفس الوقت الذى يستفز فيه الى جانبه حماسة أكبر عـدد من البدو من جنود الجيش العربى ٠ ولهذا فقد أخرج مسرحية « فتنـة الزرقاء » عن طريق أربعة من ضباط البدو٠ولكن اللواء الحيارى باخلاصه لواجباته الجديدة ، ومتابعته التحقيق بحزم وأمانة ، أفسـد على الملك قصته وخطته ٠ وتمكن الوطنيون ، ثقة منهم بتأييد الجماهير لهم ، من عقد مؤتمر وطنى عام فى نابلس احتجاجا على اجراءات الملك ، مما اضطر حسين وأنصاره السياسيين القدامى الى استخدام القوة المسلحة العارية ، فوزعوا قوات البدو ، وقد صبغ رجالها وجوههم بالسواد ، فى جميع أنحاء البلاد ، ومعهم دباباتهم وسياراتهم المسلحة ٠ ولكن الغرب ، كان قد صدق قصة « المؤامرتين » ٠

وهنـاك ناحية أخرى فى هـذه القصة المفجعـة توضح ما تميزت به

(١) كتاب جلوب ص ٤٣٤ ٠

(٢) تم اعداد مؤامرة الملك حسين بمساعدة الملك سعود ٠ وذكرت مجلة الايكونومست فى عددها الصادر فى الرابع منآيار عام ١٩٥٧ ، أن حسين طلب قوات من العربية السعودية ومن العراق ، فدخلت الى الاردن بعد اقالة وزارة النابلسى فى العاشر من أبريل ٠ – المؤلف –

معلومات الغرب من خطأ فى هذه الايام ٠ فما زال الاعتقـاد الذى يسود الغرب حتى اليوم هو أن أزمة الاردن فى أبريل عام ١٩٥٧ كانت من تخطيط القاهرة وتنفيذها ونتيجة تحريض اذاعة القاهرة للجماهير عـلى تأييد المتآمرين ، وقد نجم هذا الاعتقاد عن تصديق الاتهامات التى وجهها حسين ، وعن الانباء والتقارير الصحفية التى بعث بها المراسـلون الغربيون آنذاك عن المؤامرتين ، وعن الميل الطبيعى فى الغرب لتصديق كل اتهام يوجه الى القاهرة ، ولم أكد أصدق أذنى ، أنا شخصيا لتأثرى آنذاك بهذه الدعايات الكاذبة ، عندما أبلغنى الرئيس عبد النـاصر فى مقابلة شخصية أنه أصدر أمره ، فور ابتداء الأزمة فى الأردن ، الى اذاعة القاهرة ، بعدم التعرض بما يسىء الى الملك حسين (١) وقد ثبت لى أن هذا الأمر كان صحيحا تمام الصحة ، وكشفت لى الدراسات الدقيقة التى قمت بها أن « العدوان الاذاعى غير المباشر » انما صدر أول ما صدر عن الجـانب الآخر من المسرح العربى ، أى من «أصدقاء» الغرب طيلة أيام أزمة ابريل ٠

ولو كانت المؤامرة صحيحة ، وكان دور مصر فيها صحيحا ، لتحتم على اذاعة القاهرة أن تبدأ فى مطلع ابريل بشن حملة على الملك حسين لتهيئة الرأى العام الاردنى لتقبل المؤامرة . لكن وثائق اذاعات القاهرة الرسمية تثبت أن أى تعليق لم يصدر عن هذه الاذاعة باستثنـاء سرد الأخبار المجردة عنالأزمة بين الأول والواحد والعشرين منابريل ،وعثرت فى سجلات اذاعة دمشق ، وكنت دمشق وثيقة الاتصال بالقاهرة آنذاك ، عـلى نص اذاعة فى الرابع من ابريل أى عشية المؤامرة المزعومة الاولى ، تقول ان الحكومة تتمتع بثقة الملك والبرلمان والشعب » ٠ ووجه الرئيس النابلسى فى الخطاب الذى ألقاه فى الخامس من ابريل ، اتهاما صريحا الى الولايات المتحدة بانها أوقفت معونتها الاقتصادية الى الاردن ٠٠ لاجباره على التخلى « عن سياساتهالقوميةالعربيةواتجاهاتهالمحالفة لمصر ٠ »وقد حذفت اذاعة القاهرة ، وهى تنقل الى مستمعيها نص الخطاب عامدة هذه العباره التى يهاجم فيها النابلسى الضغط الامريكى ٠

وعندما استقالت حكومة النابلسى فى العاشر من ابريل ، اكتفت اذاعة القاهرة بنقل النبأ مجردا ٠ أما اذاعة بغداد فقد هاجمت النابلسى، وأطرت الملك حسينا وزعمت وجود علاقة بين النابلسى وبين سفير الاتحاد السوفياتى فى اسرائيل وراحت اذاعة اسرائيل العربية فى اليوم التالى تذيع نبأ « العدوان المصرى غير المباشر » على الاردن ، وتتهم النابلسى بأن « عملاء مصر هم الذين أوصلوه الى الحكم » وانه كان يريد أن

(١) قال لى الرئيس عبد الناصر أيضا انه بعثبرسالةالىالنابلسى يرجوه فيها ألا يعمل على فصم الاردن بين الملك والشعب ، وأن لا يستقيل وأن لايذيع سبب استقالته اذا اضطر اليها ٠ هذا ولم أتمكن من مقابلة النابلسى فى عهود الأردن التالية بسبب الاجراءات التى فرضت عليه ولكن وثائق اذاعة القاهرة الرسمية تثبت أن القاهرة لم يكن لها شأن مطلقا فى «المؤامرة» المزعومة ، هذا على افتراض انها صحيحة مع انها ليست كذلك ٠ – المؤلف –

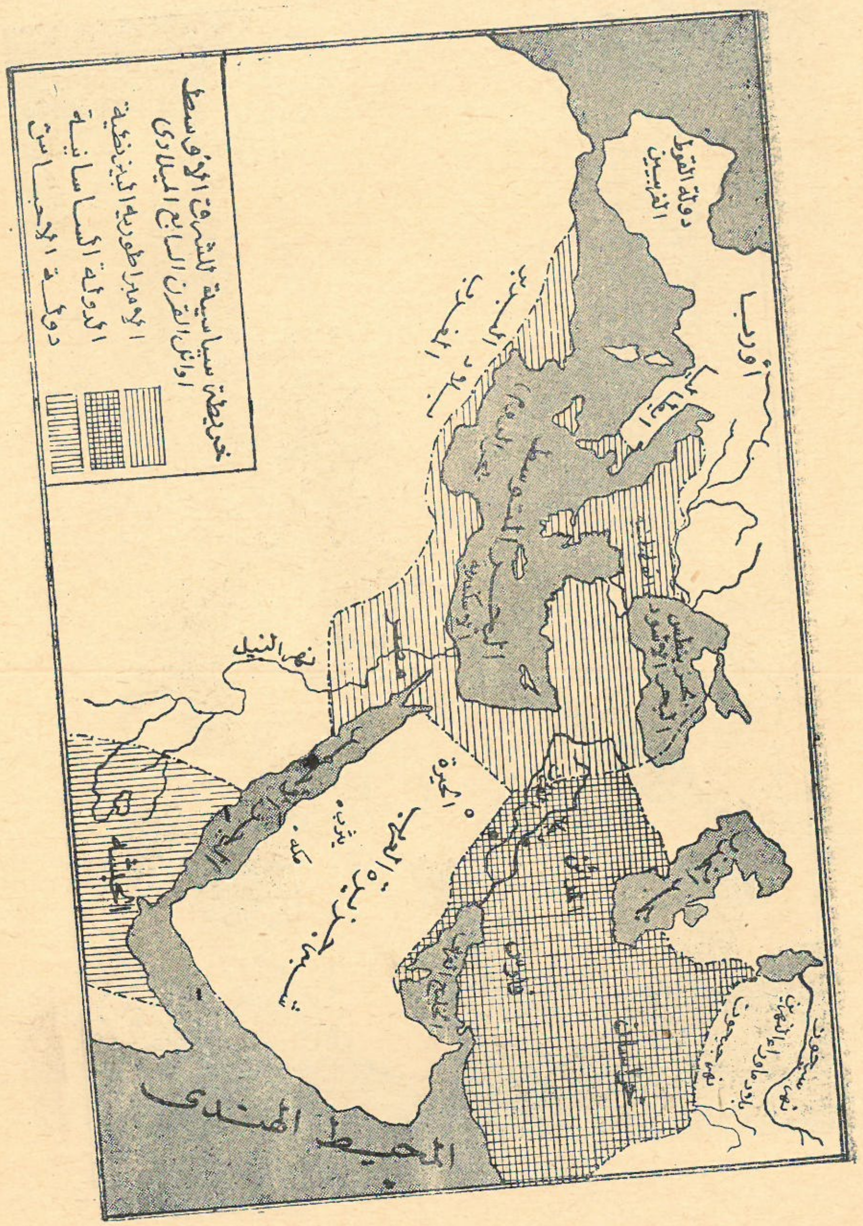

يجعل من الاردن قاعدة سوفاتية » . واستمرت اذاعة نورى السعيد فى بغداد فى مهاجمتها للنابلسى طيلة أيام الأزمة .

واذاع راديو القاهرة ما ذكره اللواء الحيارى فى مؤتمره الصحفى فى دمشق من أن الغرب كان يحاول من جديد أن يشد الأردن الى عجلة حلف بغداد عن طريق مشروع أيزنهاور ، اذ كانت الولايات المتحدة قد اشتركت فى لجنة الحلف العسكرية فى الشهر السابق واستمرت اذاعة القاهرة فى هذا الاتجاه مع الاشارة الى « موظفى القصر » دون الاشارة الى الملك نفسه . ووصف معلق صوت العرب المعروف أحمد سعيد فى اذاعة له فى ذلك اليوم ، المؤامرة ، بأنها تآمر « على الأردن وجيشه وملكه وعروبته » .

ولم تشن القاهرة فى المدة الباقية من شهر ابريل هجوما على حسين ، مع أنه كان قد شرع فى فرض الاحكام العرفية واعتقال العناصر الوطنية . ولقد ذكر لى الرئيس عبد الناصر « أنه لم يفسح المجال لاذاعة القاهرة لتقول ما تشاء الا بعد أن شرع حسين فى مهاجمة مصر علنا » . ولا ريب فى أن سجلات اذاعة القاهرة تقيم الدليل على هذه الحقيقة المجردة . وفى الثانى من مايو أذاعت محطة بغداد حديث حسين الصحفى الى مراسل صحيفتى « الاوريان » و « الجريدة » اللبنانيتين ، والذى اتهم فيه مصر وسورية أكثر من مرة بالعمل على قلب الملكية فى الاردن . وبعد هذا التاريخ بدأت الحرب الاذاعية بين دمشق والقاهرة من جهة وبين اذاعة حسين ، بعد ان طال سكوت الاذاعتين السابقتين .

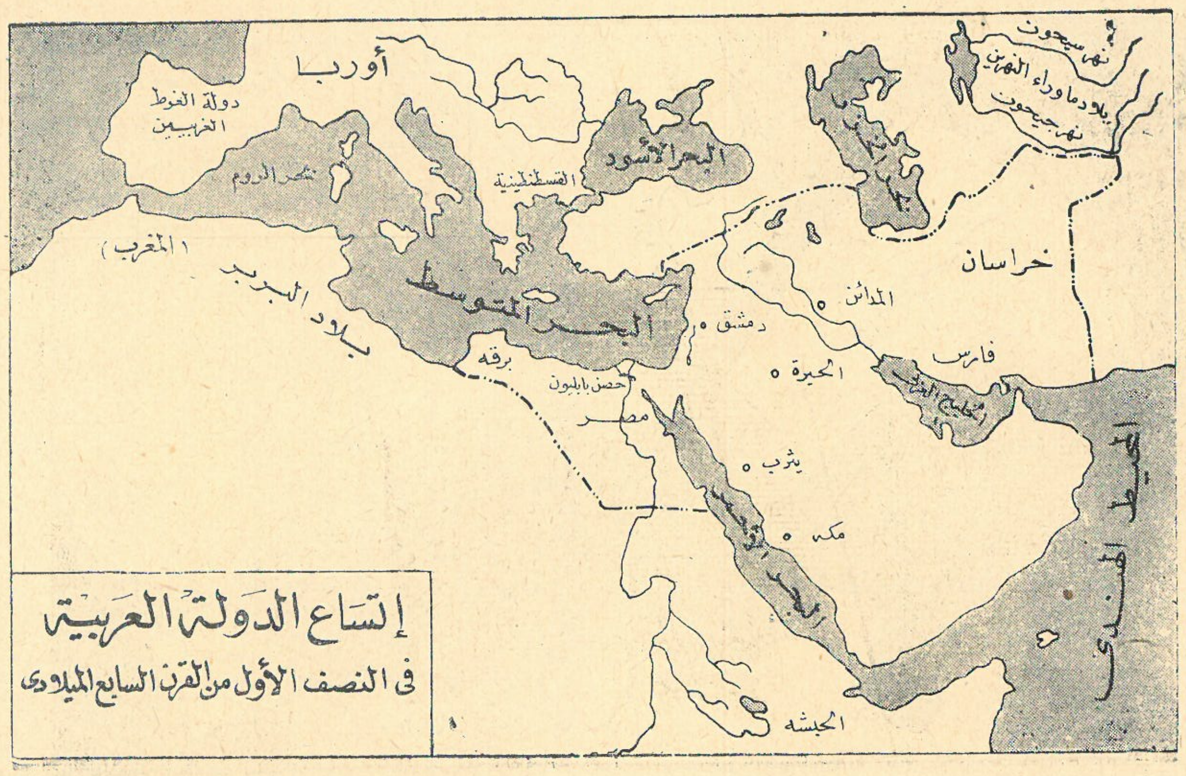

إتساع الدولة العربية
في النصف الأول من القرن السابع الميلادي

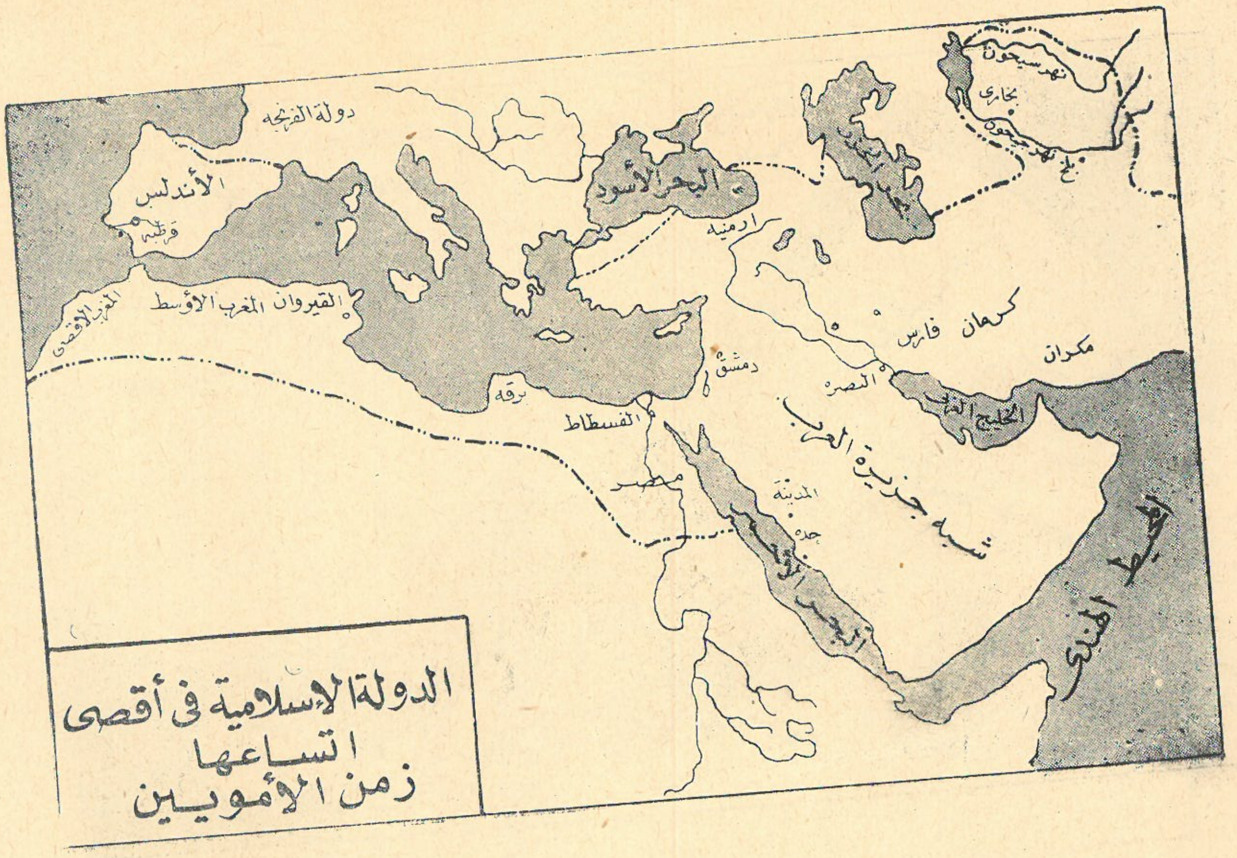

الدولة الإسلامية في أقصى
اتساعها
زمن الأمويين

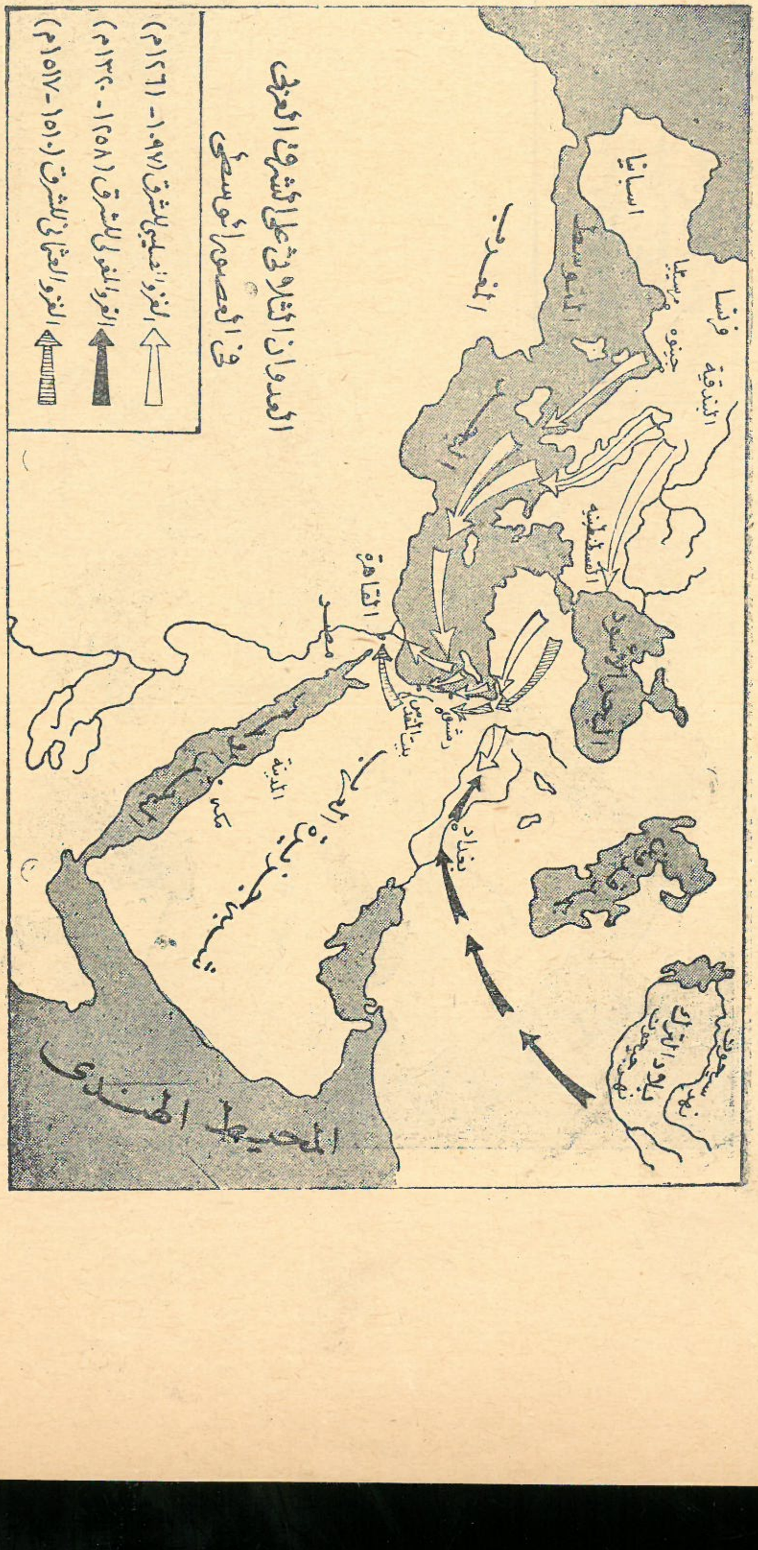

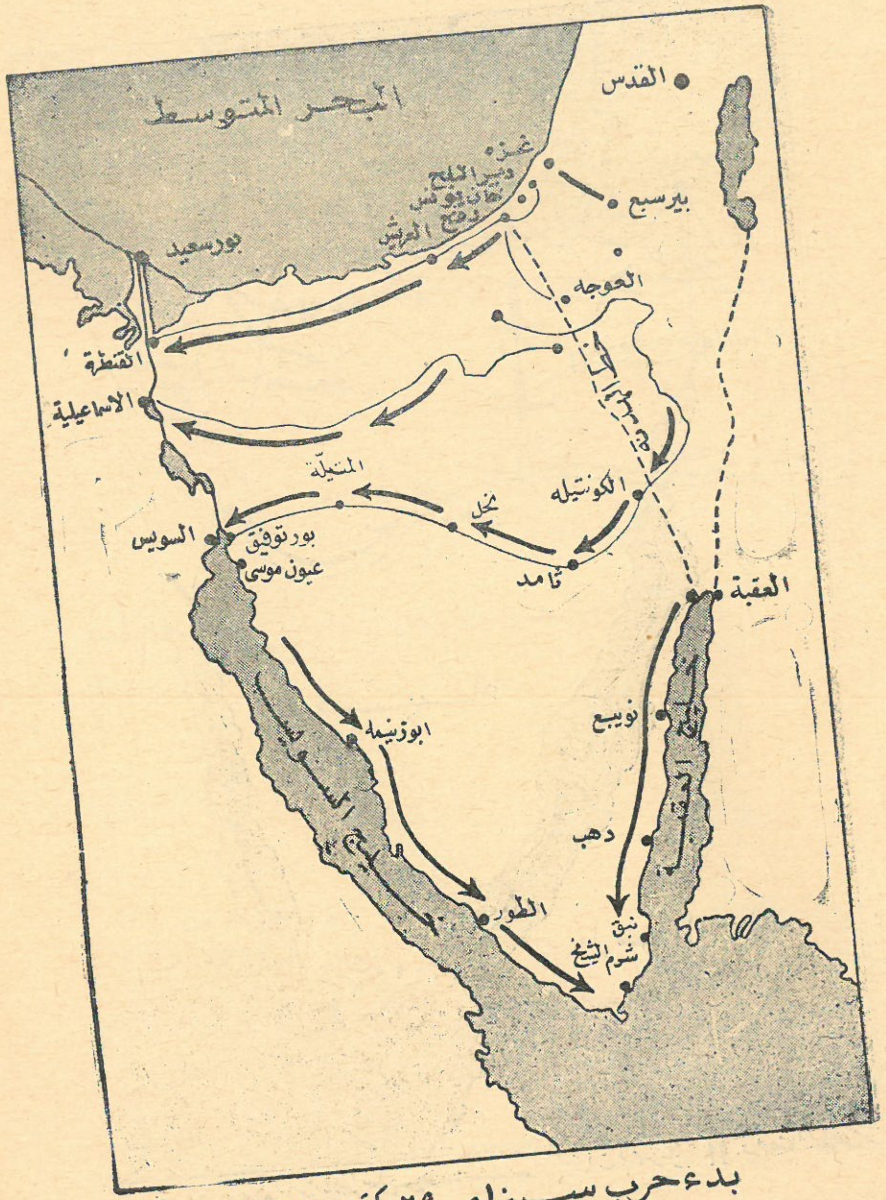

بدء حرب سيناء ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦

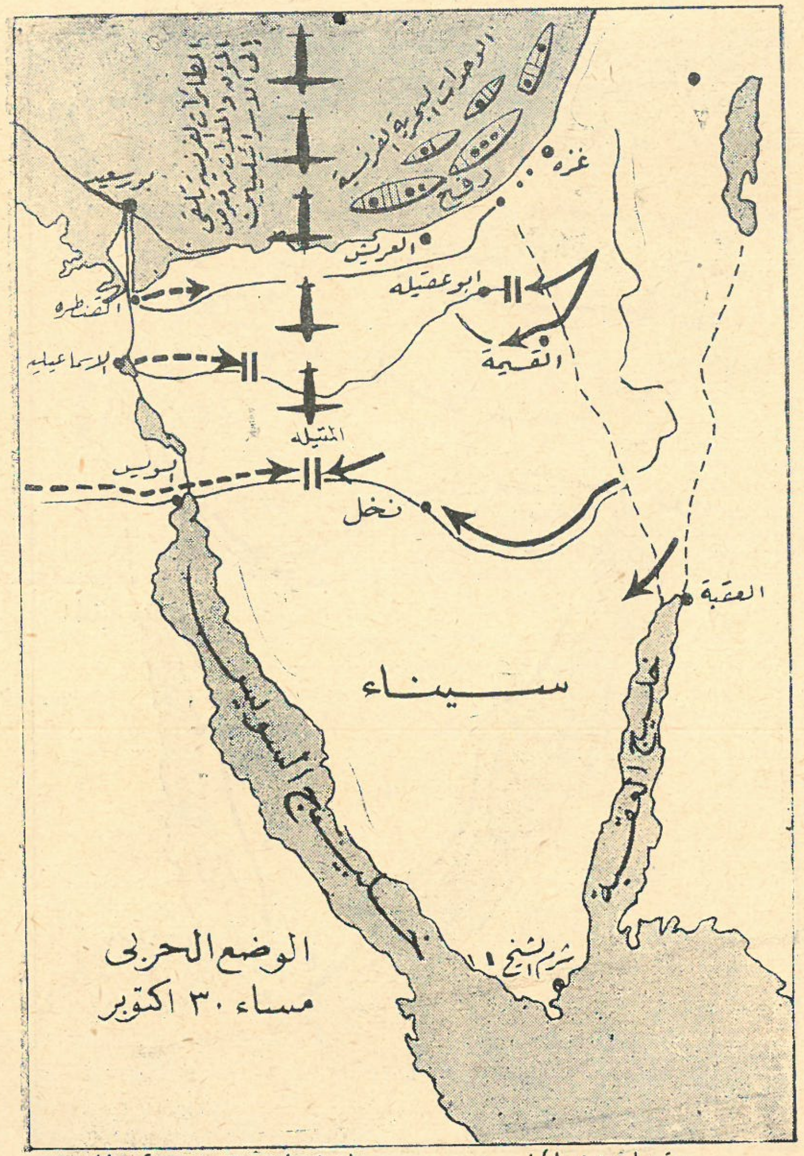

الوضع الحربى
مساء ٣٠ اكتوبر

اتجاه الهجوم الإسرائيلي ← ----- النجدات المصرية || وقف الهجوم

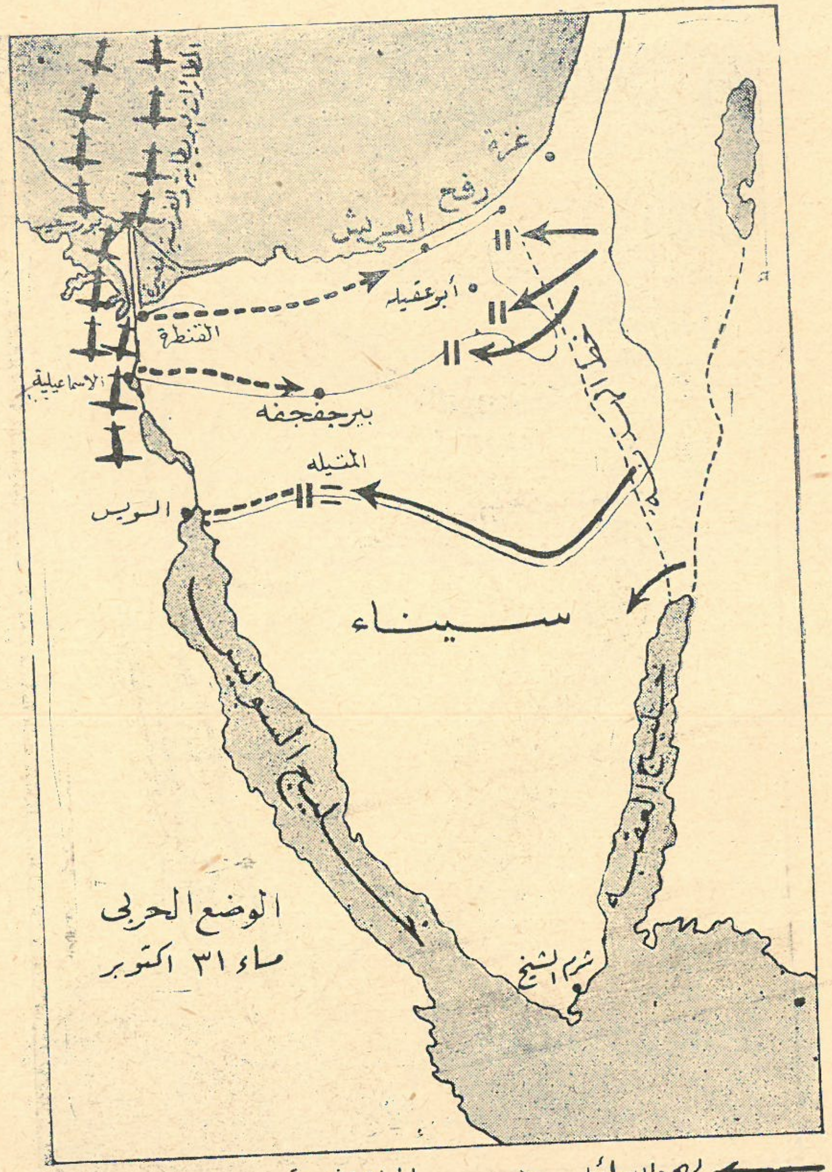

الوضع الحربى
مساء ٣١ اكتوبر

الهجوم الإسرائيلي ← ----- النجدات المصرية || وقف الهجوم

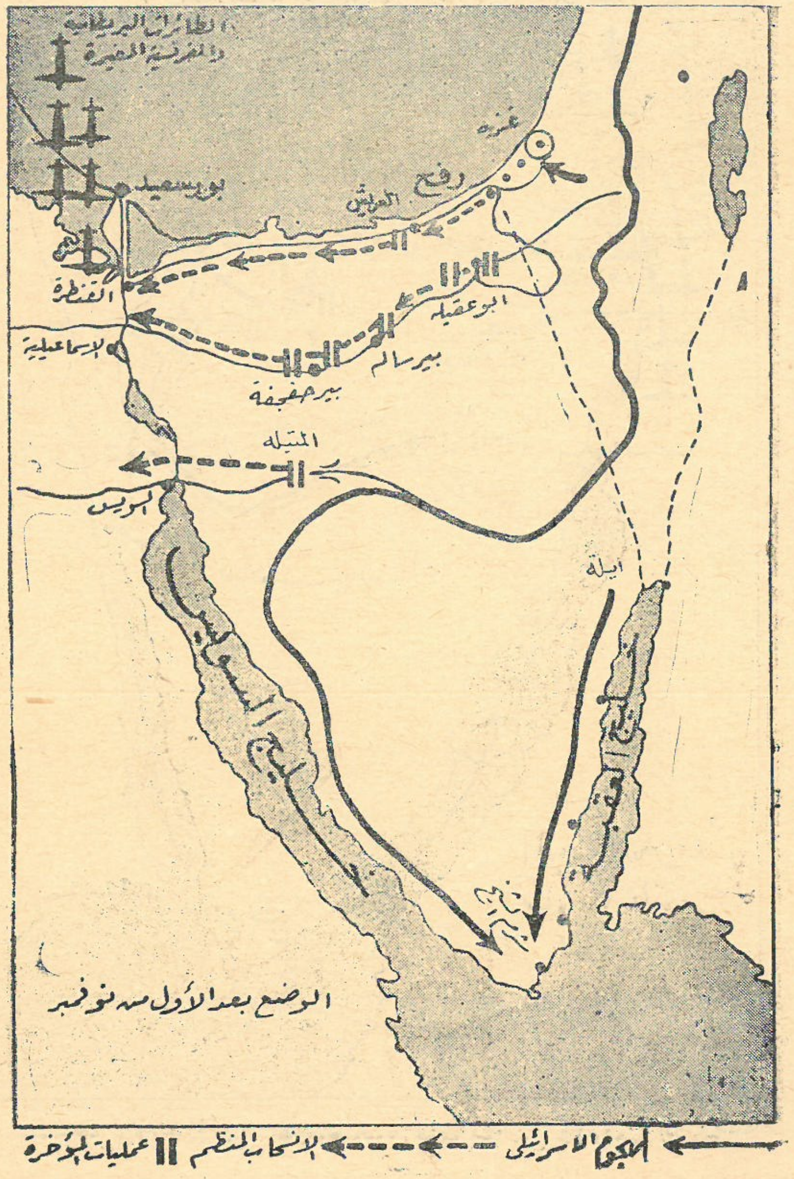

مراجع الكتاب

١ – مقالات عن الشرق الاوسط للسير آى. بولارد . فى مجلة الجمعية الملكية البريطانية للشئون الدولية . الطبعة الثالثة عام ١٩٥٨ .

٢ – موجز عن أفريقيا الشمالية الغربية – نفيل باربر . اكسفورد . ١٩٥٩ .

٣ – العودة الى المأساة – الصراع من أجل فلسطين – الدكتور ويليام بولاك ودافيد ستالمر وادوارد عصفور – بيكون ١٩٥٧ .

٤ – الحقيقة عن العالم العربى للمؤلف وترجمة المعرب – غولانكز ١٦٩٠ – المكتب التجارى – بيرون .

٥ – فرق تخسر – لميشيل ايونيدس وترجمة المعرب – لندن ١٩٦٠ – دار الطليعة بيروت .

١ – منبر الشرق الاوسط – مجلة الجامعة الامريكية فى بيروت .

٧ – تطور مصر – ماوسيل كولومب – باريس ١٩٥٠ .

٨ – خطب جمال عبد الناصر ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ – مصلحة الاستعلامات – القاهرة .

٩ – مصر – لتوم ليتل – لندن ١٩٥٨ .

١٠ – ناصر مصر – ويلتون وين – ارلنفتون ١٩٥٩ .

١١ – مذكرات انطونى ايدن – الحلقة الكاملة – ترجمة المعرب لندن ١٩٦٠ وبيروت ١٩٦٠ .

١٢ – أسرار السويس – أ م . واسى . برومبرغر – لندن ١٩٥٧ .

١٣ – البلاد الكثيرة الاهمية – جون كونيل لندن ١٩٥٧ .

١٤ – حملة سيناء . ادغار اوبالانس – فابر ١٩٥٩ .

١٥ – رجال مذنبون – ام . فوت وام . جونز غولانكز لندن ١٩٥٧ .

١٦ – مائة ساعة الى السويس – روبرت هنريكس كولنيز لندن ١٩٥٧ .

١٧ – أزمة الشرق الاوسط – جى ونيت وبى كالفاكوريس بنغوين لندن ١٩٥٧ .

١٨ – صحف الديلى اكسبرس والنيوز كرونيكل والمانشستر غارديان .

والاوبزرفر . والنيـويورك تايمز ، وواشـــنطن بوســـت ، والاكسبريس الباريسية وفرانس أوبز رفاتور والايكونوميست، ومجلة تايم .

١٩ – أزمة الشرق الاوسط – الحكومة الكنديه .

٢٠ – وثائق الامم المتحدة .

٢١ – وثائق مصلحة الاستعلامات – القاهرة .

٢٢ – الاصلاح الزراعى والانماء فى الشرق الاوسط – دورين وارنير ١٩٥٧ .

٢٣ – الاسلام والتقدم الحديث فى مصر – شارل ادامز لندن .

٢٤ – الشرق الاوسط – فيشر – ١٩٥٠

٢٥ – المجتمع الاسلامى والغرب – جيب وبوين – ١٩٥٠ .

٢٦ – البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة – مورو برغر – لندن

٢٧ – مصر فى منتصف القرن – شارل عيساوى .

٢٨ – الاصلاح الزراعى فى مصر – سيد مرعى ن القاهرة ١٩٥٨ .

٢٩ – أمراض قديمة وعلاجات جديدة – ايفا غرزوزى – دار المعـارف – القاهرة – ١٩٥٨ .

٣٠ – عائلة فى مصر – مارى راولات .

٣١ – الاقليات فى العالم العربى – البرت حورانى – اكسفورد ١٩٤٧ .

٣٢ – الدولة والاقتصاد فى الشرق الاوسط – الفريد بونيه .

٣٣ – القريه العراقيـه . (ب : مار) مجلة منبر الشرق الاوسـط – بيروت ١٩٥٩ .

٣٤ – الدول الافرو – أسـيوية ومشاكلها . بانيكار اللين واونوين ١٩٥٩ .

٣٥ – عبرة فلسطين . موسى العلمى .

٣٦ – يقظة العرب – جورج انطونيوس – هاميش هاملتون لندن ١٩٥٥.

٣٧ – نورى السعيد – اللورد بيردوود – كاسيل – لندن ١٩٥٩ .

٣٨ – حياة جونسون – جيمس بوزويل – اوكسفورد ١٩٢٧ .

٣٩ – تقرير سفير – شيستر باولز – غولانكز – لندن ١٩٥٤ .

٤٠ – ثورة العراق – كراكتاكوس وترجمة المعرب – لندن ١٩٥٩ وبيروت ١٩٦٠.

٤١ – جندى مع العرب ، وبريطانيا والعرب – غلوب – لندن ١٩٥٧ و ١٩٥٩ .

٤٢ – ذكريات عن احتلال سوريا – دى كوجيه ١٩٠٠ .

٤٣ – الاردن والراين – ويليام غراهام – لندن ١٨٥٤ .

٤٤ – بريطانيا والعالم العربى – البرت حورانى لندن ١٩٤٦ .

٤٥ – خدوش فى تفكيرنا – هارولد ايزاكس – نيويورك ١٩٥٨ .

٤٦ – على جانبى التل – جون وديفيد كيمشي – سسيكر – ١٩٦٠ .

٤٧ – ثورة فى الصحراء – لورانس ١٩٢٧ .

٤٨ – يوميات الشرق الاوسط – ماسيزتز هاغن لندن ١٩٦٠ .

٤٩ – انجلترا فى مصر – ميلز – لندن ١٩٢٠ .

٥٠ – سوق السلاجقة – جيمس موريس – فابر لندن ١٩٥٧ .

٥١ – فلسفة الثورة – جمال عبد الناصر القاهرة ١٩٥٥ .

٥٢ – اكتشاف الهند – جواهر لال نهرو – جون دى – نيويورك ١٩٤٦.

٥٣ – آسيا والسيطرة الغربية – بانيكار التين واونوى لندن ١٩٥٣ .

٥٤ – تقرير عن أمريكا – روبرت بين – جون دى نيويورك ١٩٤٩ .

٥٥ – أربعون سنة فى الصحراء – سنت جون فيلبى – روبرت هيـل – لندن ١٩٥٧

٥٦ – الحروب الصليبية – ستيفان رالشمان – كمبردج ١٩٥١–١٩٥٤ .

٥٧ – ثورة على النيل – أنور السادات – وينغيت لندن – ١٩٥٧ .

٥٨ – الوحدة العربية – فائز صائغ – ديفين – ادير – نيويورك ١٩٥٨.

٥٩ – مصر الفتاة – ديز موند ستيوارت – دينغيت – لندن ١٩٥٨ .

١٠ – القديس يزحف – هالام تنيسون – غولانكز ١٩٥٥ .

٦١ – مع لورانس فى البلاد العربيه – لويك توماس – لندن .

٦٢ – قصص من كل مكان – انطونى ترولوب – شابمان وهول – لندن ١٨٦٣ .

٦٣ – الابرياء فى الخارج – مارك توين شاتو ووينديس – لندن ١٨٨١ .

٦٤ – التجربة والخطأ – وايز من – هاميش هاميلتون – لندن ١٩٤٩ .

وعدد من المقالات والانباء اليومية والتقارير الرسمية .

فهرس

تقدمة المعرب	٣
الاهداء	٧
مقدمة المؤلف	٩
الطريق الى السويس	١٥
١ – الفكرة الغربية عن العرب	١٧
٢ – الصورة العربية عند الغرب	٢٧
٣ – النظام القديم (١٩٢٢ – ١٩٥٢)	٥٣
٤ – الجيل الجديد	٦٩
٥ – ثورة جيل	٨٧
٦ – نهاية أو بداية	٩٩
٧ – هبوط مع المنحدر الى السويس	١١٤
٨ – قروض السد العالى	١٤١
٩ – اربع طرق الى السويس	١٦١
١٠ – التسوية السلمية	١٨٣
١١ – الحرب الثلاثية	٢١٧
١٢ – حرب سيناء	٢٧٥
١٣ – الى النقطة التى لاردةعنها	٢٩٢
١٤ – الوحدة العربية	٣٢٠
١٥ – الثورة الداخلية	٣٦٣
١٦ الخاتمة	٣٨٦
تعقيب لا بد منه	٣٩١
ملحق (أ)	٣٩٢
ملحق (ب)	٤٠٠
الخرائط	٤٠٥
مراجع الكتاب	٤١٣

هيئة قناة السويس

الحمولة الصافية ٠

حققت الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القناة خلال أغسطس الحالى زيادة قدرها ١١٥٥٠٠٠ طن أى بنسبة ٧ر٢ ٪ مقارنة بمثيلتها فى أغسطس سنة ١٩٦١ ٠ فقد بلغ مجموع الحمولة الصافية خلال الشهر الحالى ١٧١٥٤٠٠٠ طن مقابل ١٥٩٩٩٠٠٠ طن فى أغسطس الماضى ٠

وبالنسبة لمتوسط الحمولة الصافية للسفينة فقد زاد من ١٠٧١٦ طنا فى أغسطس ١٩٦١ الى ١٠٩٤٠ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ ٠

وبتقسيم الحمولة الصافية طبقا لاتجاهى العبور يتضح أنها قد زادت بالنسبة للسفن المتجهة جنوبا بمقدار ٤٣٤٠٠٠ طن أى بنسبة ٤ر٥ ٪ (٨٤٤٩٠٠٠ مقابل ٨٠١٥٠٠٠ طن) كما زادت بالنسبة للسفن المتجهة شمالا بمقدار ٧٢١٠٠٠ طن أى بنسبة ٩ ٪ (٨٧٠٥٠٠٠ مقابل ٧٩٨٤٠٠٠ طن) ٠

وبتقسيم الحمولة الصافية بين السفن المحملة والفارغة والحربية مقارنة بمثيلاتها فى أغسطس ١٩٦١ يتضح أنها قد زادت أو نقصت بالمقادير الموضحة قرين كل منها كما يلى :

السفن المحملة	+	٥٥٨٠٠٠ طن
السفن الفارغة	+	٦٠٨٠٠٠ طن
السفن الحربية	−	١١٠٠٠ طن
المجموع	+	١١٥٥٠٠٠ طن

هيئة قناة السويس

حركة الناقلات

سجلت الناقلات العابرة خلال اغسطس الحالى (١٩٦٢) زيادة عددية قدرها ٦٦ ناقلة أى بنسبة ٦ر٨٪ مقارنة بتلك العابرة فى أغسطس الماضى اذ بلغ عدد ما عبر منها خلال شهر أغسطس سنة ١٩٦٢ ، ٨٣٣ ناقلة ، مقابل ٧٦٧ ناقلة فى أغسطس من العام الماضى ٠

وطبقا لاتجاهى العبور فقد زاد عدد الناقلات العابرة من الشمال بمقدار ٣٦ ناقلة (٤١١ ناقلة مقابل ٣٧٥ ناقلة) ويرجع هذا الى الناقلات الفارغة التى زادت عدديا بمقدار ٣٧ ناقلة (٣٨٢ مقابل ٣٤٥) بينما نقصت الناقلات المحملة بمقدار ناقلة واحدة (٢٩ مقابل ٣٠) أما الناقلات العابرة من الجنوب فقد زادت بمقدار ٣٠ ناقلة (٤٢٢ مقابل ٣٩٢ ناقلة) وقد حققت تلك الزيادة الناقلات المحملة (٤١٢ مقابل ٣٨٢) بينما لم يحدث أى تغيير فى الناقلات الفارغة (١٠ ناقلات فى كلا الشهرين) .

وزادت الحمولة الصافية للناقلات العابرة خلال الشهر الحالى مقارنة بما عبر خلال أغسطس من العام الماضى ١٠٦٣٠٠٠ طن أى بنسبة ٢ ، ٩ ٪ (١٢٦٧٣٠٠٠ طن مقابل ١١٦١٠٠٠٠ طن) وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٤٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن العابرة خلال أغسطس ١٩٦٢ وكانت هذه النسبة ٧٣٪ فى أغسطس سنة ١٩٦١ ٠

وبلغ متوسط كميات المواد البترولية المنقولة على كل ناقلة محملة ٢٧١٢٧ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ مقابل ٢٦٤٤٠ طنا فى أغسطس ١٩٦١ ٠

كما بلغ متوسط الحمولة الصافية للناقلة ١٥٢١٤ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ مقابل ١٥١٣٧ طنا فى أغسطس ١٩٦١ .

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد . روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٢٩٦ الثمن ٢٥ قرش